تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدث ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق

د. محمد ابراهيم البنا

الجزء السابع

سورة يس - سورة الواقعة
الآية ١٣

مؤسسة علوم القرآن

شركة دار القبلة

دار ابن حزم

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطَّبعَة الأُولَى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلاميّة
المملكة العربيّة السّعوديّة - جدّة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - ت: ٦٧١..... - تلكس: ٤٠٠٨٠ - دلّة. س.ج

مؤسسة علوم القرآن
سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - ت ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١٣/٥٢٨١

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿واضرِب﴾ ـ يا محمدُ ـ لقومكَ الذين كَذَّبوك ﴿مثلًا أصحابَ القرية إذ جاءها المرسَلون﴾.

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن مُنَبِّه ـ: إنها مدينة أَنطاكِية، وكان بها مَلِكٌ يقال له: أنطيخس بن أنطيخس بن أنطيخس، وكان يعبد الأصنامَ، فبعث الله إليه ثلاثةً من الرسل، وهم: صادق وصَدُوق وشَلُوم، فكذَّبهم.

وهكذا رُوي عن بُرَيدة بن الحُصَيب، وعكرمة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية.

وقد استشكلَ بعضُ الأئمة كونَها أنطـاكية بما سنذكرُه بعد تَمام القِصَّةِ، إن شاء الله تعالى.

وقولُه: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنَين فكَذَّبوهما﴾، أي: بَادَرُوهما بالتكذيب، ﴿فعَزَّزنا بثالثٍ﴾، أي: قوَّيناهم وشدَّدنا أَزْرَهُما برسولٍ ثالث.

قال ابنُ جُرَيج، عن وهب بن سُلَيمان، عن شُعَيب الجَبَئِيِّ قال: كان اسمُ الرسُولين الأولين شَمعُون ويَوحَنَّا، واسم الثالث بُولُص، والقرية أنطاكية.

﴿فقالوا﴾، أي: لأهل تلك القرية: ﴿إنا إليكم مُرسَلُون﴾، أي: من ربِّكم الذي خلَقكم، نأمركم بعبادَته وحدَه لا شريكَ له، قاله أبو العالية. وزعم قتادةُ بن دِعامَةَ: أنهم كانوا رُسُلَ المسيح ـ عليه السلام ـ إلى أهل أنطاكية، ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾، أي: فكيف أُوحِيَ إليكم وأنتم بَشَرٌ ونحن بَشَرٌ، فلِمَ لا أوحيَ إلينا مِثْلَكم؟. ولو كنتُم رُسُلًا لكنتُم ملائكةً. وهذه شُبَهُ كثيرٍ من الأمم المكذِّبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبَيِّنات فقالوا أبشر يَهدُوننا﴾، فاستعجَبُوا من ذلك وأنكروه، وقوله: ﴿قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلُنا تُريدُون أن تَصدُّونا عمَّا كان يعبدُ آباؤنا فائتُونا بسُلطانٍ مُبينٍ﴾. وقولهُ حكايةً عنهم في قوله: ﴿ولئِن أطعتُم بشراً مثلَكم إنَّكم إذاً لخاسِرُونَ﴾، ﴿وما مَنَع الناسَ أن يُؤمِنُوا إذ جاءهم الهُدَى إلا أن قالوا أبَعَثَ الله بشراً رَسُولًا﴾. ولهذا قال هؤلاء: ﴿ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمٰنُ من شيءٍ إن أنتم إلا تكذِبُون * قالوا ربُّنا يعلَمُ إنا إليكم لَمُرسَلُونَ﴾، أي: أجابتهم رسُلُهم الثلاثةُ قائلين: الله يعلمُ أنَّا رُسُله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لانتقَمَ منَّا أشدَّ الانتقام، ولكنه سَيُعِزُّنا وينصُرنا عليكم، وستَعلَمُون لمن تكون عاقبةُ الدار، كقوله تعالى: ﴿قل كَفَى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلَمُ ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾.

﴿وما علينا إلَّا البلاغُ المبينُ﴾، يقولُون: إنما علينا أن نُبلِّغكم ما أُرسِلنا به إليكم، فإن أطعتُم كانت لكم السعادةُ في الدنيا والآخرةِ، وإن لم تُجيبوا فَستعلَمُون غِبَّ ذلك. والله أعلم.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهلُ القرية: ﴿إنا تَطيَّرنا بكم﴾، أي: لم نر على وجُوهكم خيراً في عَيشنا. وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شرٌّ فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخُل مثلكم إلى قرية إلا عُذِّب أهلها. ﴿لَئِن لَم تَنتهوا لنرجُمنَّكم﴾، قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشَّتْم. ﴿وليمسَّنكم منا عذابٌ أليم﴾، أي: عقوبةٌ شديدة. فقالت لهم رسلهم: ﴿طائِرُكم معكم﴾، أي: مَرْدُودٌ عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فإذا جاءتهم الحسنةُ قالوا لنا هذه وإن تُصبهم سَيِّئةٌ يطَّيَّروا بموسَى وَمَن معه ألا إنَّما طَائِرُهم عند الله﴾، وقال قوم صالح: ﴿اطَّيَّرنا بك وبمن مَعَك قال طائِرُكم عند الله﴾، وقال قتادة، وَوَهبُ بن مُنَبِّه: أي أعمالُكم مَعكُم. وقـال تعالى: ﴿وإن تُصبهم حَسَنةٌ يقولوا هَذِهِ مِن عند الله وَإِن تُصبهم سَيِّئة يقولوا هذه مِن عِندِك قُل كلٌّ مِن عند الله فما لهؤلاءِ القوم لا يكادُون يَفقهُون حَديثاً﴾.

وقولهُ: ﴿أئِن ذكرتم بل أنتم قومٌ مسرفون﴾، أي: مِن أجل أنَّا ذكَّرناكم وأمرناكُم بتوحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له، قابلتُمونا بهذا الكلام، وَتَوعَّدتُمونا وتَهدَّدتُمونا؟! بل أنتم قومٌ مُسرِفُون.

وقال قتادةُ، أي: إن ذَكَّرناكُم بالله تَطَيَّرتم بنا، بل أنتم قومٌ مُسرِفُون.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾

قال ابن إسحاق ـ فيما بَلَغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، وَوَهْب بن مُنَبِّه ـ: إنَّ أهلَ القريةِ هَمُّوا بقتل رُسُلِهم، فجاءَهُم رَجُلٌ من أقصى المدينةِ يسعَى، أي: لينصُرَهم من قومه ـ قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجَرِيرَ ـ وهو الحِبالُ ـ وكان رَجُلاً سقيماً، قد أسرع فيه الجُذَام، وكان كَثِيرَ الصَّدَقَةِ، يَتصدَّق بنصف كَسْبِهِ، مُستَقِيمَ النَّظْرَةِ.

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه[1]، عن الحَكَم، عن مِقْسَمٍ ـ أو: عن مجاهد ـ عن ابن عباس قال: اسمُ صاحِب يس حَبِيبٍ، وكان الجُذَام قد أسرَعَ فيه.

وقال الثوريُّ، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجْلَز: كان اسمُه حبيبَ بنَ مري[2].

وقال شَبِيب بن بِشْر، عن عِكرِمَة، عن ابنِ عبَّاس قال: اسمُ صاحبِ يس حبيبُ النَّجار، فقتله قومه.

وقال السدي: كان قَصَّاراً. وقال عُمَرُ بنُ الحَكَم: كان إسكافاً. وقال قتادةُ: كان يتعبَّد في غارٍ هناك.

﴿قال يا قوم اتبعُوا المُرسَلينَ﴾، يَحُضُّ قومَه على اتِّباع الرُّسُلِ الذين أتوهم، ﴿اتَّبِعُوا مَن لا يَسألُكم أجراً﴾، أي: على إبلاغ الرسالةِ، ﴿وهم مُهتَدُون﴾ فيما يدعُونَكم إليه، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. ﴿وما لي لا أعبد الذي فَطَرني﴾، أي: وما يمنَعُني من إخلاص العبادةِ للذِي خَلَقني وحدَه لا شَرِيكَ له، ﴿وإليه تُرجَعُون﴾، أي: يومَ المَعَاد، فيُجازيكم على أعمالِكم، إن خيراً فخيرٌ، وَإن شرّاً فشرٌّ.

---

(١) في تفسير الطبري ١٥٩/٢٢: «عن ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة».

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٥، وروح المعاني للألوسي ٢٢٥/٢٢، ومفحمات الأقران للسيوطي ١٧٢.

﴿أأتَّخذُ من دونه آلهةً﴾، استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ، ﴿إن يُرِدْنِ الرحمٰنُ بضُرٍّ لا تُغنِ عَنِّي شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذُونِ﴾، أي: هذه الآلهة التي تعبُدونها من دُونه لا يَملكُون من الأمر شيئاً، فإن الله لو أرادَني بسُوءٍ ﴿فلا كاشفَ له إلا هو﴾. وهذه الأصنامُ لا تملكُ دَفْع ذلك ولا مَنْعَه، ولا ينقذونني مما أنا فيه، ﴿إنِّي إذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبينٍ﴾، أي: إن اتخذتُها آلهةً من دونِ الله.

وقولهُ: ﴿إنِي آمنتُ بربِّكم فاسمَعُونِ﴾، قال ابنُ إسحاقَ فيما بَلَغه عن ابن عباس، وكعب، ووَهْبٍ، يقولُ لقومه: ﴿إني آمنتُ بربِّكم﴾، الذي كَفرتُم به، ﴿فاسمعونِ﴾، أي: فاسمَعُوا قولي[(١)].

وَيَحْتمِلُ أن يكونَ خطابهُ للرُّسُلِ بقوله: ﴿إني آمنتُ بربِّكم﴾، أي: الذي أَرْسَلَكُم، ﴿فَاسمَعُونِ﴾، أي: فاشهَدُوا لي بذلك عندَه. وقد حكاه ابنُ جريرٍ فقال: وقال آخرونَ: «بل خاطَبَ بذلك الرُّسُلَ، وقال لهم: اسمَعُوا قولي، لِتَشْهَدُوا لي بما أقول لكم عند ربِّي، إنِّي قد آمنتُ بربِّكم واتَّبعتُكم»[(١)].

وهذا الذي حَكَاه عن هؤلاء أظهرُ في المعنَى، والله أعلم.

قال ابنُ إسحاقَ ـ فيما بَلَغه عن ابن عباسٍ، وكَعْبٍ، وَوَهْبٍ ـ: فلما قال ذلك وَثَبُوا عليه وَثْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فَقَتَلُوه، ولم يكن له أحدٌ يمنعُ عنه.

وقال قتادةُ: جَعَلُوا يرجُمُونَه بالحجارةِ، وهو يقولُ: «اللهمَّ، اهدِ قومي، فإنهم لا يعلَمُون». فلم يزالوا به حتَّى أقعصُوه[(٢)] وَهُوَ كذلك[(٣)]. فَقَتَلُوه، رَحِمَهُ الله.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قال محمدُ بنُ إسحاقَ، عن بعضِ أصحابه، عن ابن مسعودٍ: أنهم وَطِئُوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ[(٤)] من دُبُره[(٣)].

وقال الله له: ﴿ادخُلِ الجَنَّةَ﴾، فدخلَها فهو يُرزَقُ منها، قد أذهبَ الله عنه سُقْمَ الدنيا وحُزْنَها ونَصَبها.

وقال مجاهد: قيل لحبيب النَّجار: ادخل الجنة. وذلك أنه قتل فوجبت له الجنَّة، فلما رأى الثوابَ ﴿قال يا ليتَ قومي يَعلَمُون﴾.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً، لِمَا عايَنَ مِن كَرَامَةِ الله ﴿قال يا ليتَ قومي يعلَمُون ۞ بما غَفَر لي ربِّي وجَعَلني من المُكرَمِين﴾، تمنى والله[(٥)] أن يعلم قومُه بما عاينَ من كرامةِ الله، وما هَجَم عليه[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/١٦٠.
(٢) في لسان العرب: ويقال: قَعَصْتُه وأقْعَصْتُه: إذا قَتَلْتَه قتلاً سريعاً.
(٣) أخرجه الطبري ٢٢/١٦٠ - ١٦١.
(٤) القُصْبُ: المِعَى.
(٥) في تفسير الطبري ٢٢/١٦١: وتَمنّى على الله.
(٦) أي: وما انتهى إليه من فضل الله تعالى. ولا يقال ذلك إلا في الشيء يكون فجاءةً، يقال: هجم عليه: دخل عليه بغتة. يريد أن ما رآه من ثواب الله - تعالى - لم يكن بينه وبين وقوعه إلا أن فاضت روحه.

وقال ابنُ عبَّاس: نَصح قومَه في حياته بقوله: ﴿يا قوم اتَّبِعُوا المُرسَلين﴾، وبعد مَماتِه في قوله: ﴿يا ليتَ قومِي يعلَمُون * بما غفر لي ربِّي وجَعَلني من المُكْرَمين﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجْلَز: ﴿بما غفر لي رَبِّي وجعلني من المكرمين﴾، بإيماني بربِّي، وتَصْدِيقي المُرْسَلِينَ.

ومَقصُوده أنهم لو اطَّلَعُوا على ما حَصَّل من هذا الثوابِ والجزاءِ والنعيمِ المقيمِ لقادَهُم ذلك إلى اتِّباع الرُّسُل، فَرَحِمَه الله وَرَضِيَ عنه، فلقد كان حريصاً على هِدَاية قومِهِ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله، حدثنا ابن جابر ـ وهو محمد ـ عن عبد الملك ـ يعني ابنَ عُمَير ـ قال: قال عُروَةُ بنُ مسعُودٍ الثَّقفي للنبي ـ ﷺ ـ: ابعثني إلى قومي أدعُوهم إلى الإسلام. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني أخاف أن يقتلوكَ». فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظُوني. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «انطلق». فانطلق فَمرَّ على اللاَّتِ والعُزَّى، فقال: لأُصْبِحَنَّكِ غداً بما يَسُوءُكِ. فَغَضِبت ثقيفُ، فقال: يا معشَرَ ثقيف، إن اللات لا لاتَ، وإن العُزَّى لا عُزَّى، أسلِمُوا تَسْلَموا. يا معشَرَ الأحلاف، إن العزَّى لا عُزَّى، وإن اللاَّت لا لاتَ، أسلِمُوا تَسْلَمُوا. قال ذلك ثلاثَ مَرَّاتٍ، فرماه رجلٌ فأصاب أَكْحَله[1] فقتله، فبلغ رسولَ الله ﷺ، فقال: «هذا مَثَلُه كمثل صاحب يسٓ، ﴿قال يا ليتَ قَومِي يَعْلَمُونَ * بما غَفر لي رَبِّي وجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ﴾»[2].

وقال محمدُ بن إسحاقَ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزْم: أنه حدَّث عن كعب الأحبار: أنه ذُكِرَ له حبيبُ بنُ زيدِ بن عاصمٍ ـ أَخُو بني مازنِ بن النَّجار ـ الذي كانَ مُسَيْلَمةُ الكذَّابُ قَطَّعه باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول: أتشهَدُ أن مُحمَّداً رسولُ الله؟ فيقولُ: نعم. ثم يقولُ: أتشهَدُ أنِّي رسولُ الله؟ فيقول: لا أسمَعُ. فيقولُ له مُسَيْلَمَةُ: أتسمَعُ هذا ولا تسمَعُ ذاك؟ فيقول: نعم. فجعل يُقَطِّعه عُضْواً عُضواً، كلما سأله لم يزده على ذلك، حتى مات في يديه، فقال كعبٌ حين قال له: اسمُه حَبيبٌ، وكان ـ والله ـ صاحِبَ يسٓ اسمُه حبيبٌ[3].

وقولُهُ: ﴿وما أنزلنا على قَومِه من بعدِه من جُندٍ من السماءِ وما كنا مُنْزِلينَ﴾، يخبر تعالى أنه انتقَمَ من قومِه بعدَ قتلهم إياه، غَضَباً منه تعالى عليهم، لأنهم كَذَّبُوا رُسُلَه، وَقَتَلُوا وَلِيَّه. ويذكر تعالى: أنه ما أنزلَ عليهم، وما احتاجَ في إهلاكه إيَّاهم إلى إنزالِ جُندٍ من الملائكة عليهم، بل الأمرُ كان أيسَرَ من ذلك. قاله ابنُ مسعودٍ، فيما رواه ابنُ إسحاقَ، عن بعض أصحابه، عَنه أنه قال في قوله: ﴿وما أنزلنا على قومِه من بَعدِهِ من جُندٍ من السماء وما كنا مُنزلين﴾، أي: ما كاثَرناهُم بالجُمُوع، الأمرُ كان أيسَرَ علينا من ذلك، ﴿إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامِدُون﴾، قال: فأهلكَ الله في ذلك الملكَ وأهل أنطاكية، فبادُوا عن وجه الأرض، فلم تَبْقَ منهم باقيةٌ.

وقيل: ﴿وما كُنَّا مُنزِلين﴾، أي: وما كُنَّا نُنزِّل الملائكةَ على الأمم إذا أهلكناهُم، بل نبعَثُ عليهم عذاباً يُدَمِّرهم.

وقيل: المعنى في قوله: ﴿وما أنزلنا على قَومِهِ من بعدِه من جُندٍ من السماء﴾، أي: مِن رِسالةٍ أُخرَى،

---

(١) الأَكْحَل: وريدٌ في وسط الذراع يُفْصَدُ أو يُحْقَن.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/٢٩٩ ـ ٣٠٠ بإسناده إلى موسى بن عقبة، نحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/١٥٩.

قاله مجاهد وقتادةُ. قال قتادةُ: فلا ـ والله ـ ما عاتَبَ الله قومَه بعد قتله، ﴿إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون﴾.

قال ابن جرير: والأول أصح، لأن الرسالة لا تُسمَّى جُنداً"(١).

قال المُفَسِّرُونَ: بعثَ الله إليهم جبريلَ ـ عليه السَّلامُ ـ فأخذ بِعِضَادَتَيْ(٢) باب بَلَدِهم، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تَبْقَ فيهم روحٌ تَتردَّدُ في جَسَدٍ.

وقد تَقَدَّم عن كثير من السَّلَفِ أن هذه القريةَ هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رُسُلاً من عند المسيحِ ـ عليه السَّلامُ ـ كما نَصَّ عليه قتادةُ وغيره، وهو الذي لم يُذكَر عن واحدٍ من مُتَأخِّري المفسرين غَيْرِه. وفي ذلك نظرٌ من وجوه:

أحدها: أَنَّ ظاهِرَ القصةِ يدلُّ على أن هؤلاء كانوا رُسُلَ الله عَزَّ وجَلَّ، لا من جِهَةِ المسيح، كما قال تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالثٍ فقالوا إنَّا إليكم مُرْسَلُون﴾.. إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنا يعلَمُ إنَّا إليكم لَمُرْسَلُون * وما علينا إلا البلاغُ المبينُ﴾، ولو كان هؤلاء من الحواريِّين لقالوا عبارة تُناسِبُ أنهم من عند المسيح عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رُسُلَ المسيحِ لما قالوا لهم: ﴿إن أنتم إلا بَشَرٌ مثلنا﴾.

الثاني: أَنَّ أهل أنطاكية آمنُوا برُسُلِ المسيحِ إليهم، وكانوا أَوَّلَ مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعةِ اللَّاتي فيهنَّ بَتَارِكَةٌ، وهُنَّ القدسُ لأنها بلدُ المسيح، وأنطاكيةُ لأنها أول بلدة آمَنَتْ بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأنها منها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساقسة(٣) والشمامِسَةِ والرَّهابين. ثم رُومِيَّة لأنها مَدِينة الملك قُسْطَنطين الذي نَصَر دينهم وأَطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البتركَ من روميةَ إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرَّر أن أنطاكية أولُ مدينةٍ آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كَذَّبوا رُسُلَه، وأنه أهلكهم بصيحةٍ واحدةٍ أَخْمَدَتْهُم، فالله أعلم.

الثالث: أن قِصَّة أَنطاكِية مع الحواريِّين أصحاب المسيح بعد نُزُولِ التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخُدري وغيرُ واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزالِهِ التوراةَ لم يُهلِك أُمَّةً من الأمم عن آخِرهم بعذابٍ يبعثه عليهم، بل أَمَرَ المؤمنين بعد ذلك بقتالِ المشركين، ذَكَرُوه عند قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾. فعلى هذا يَتَعَيَّن أن هذه القرية المذكورةَ في القرآن قريةٌ أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غيرُ واحد من السَّلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها مَحفُوظاً في هذه القصة مَدِينةً أخرى غير هذه المشهورة المعروفةِ، فإن هذه لم يُعرَف أنها أُهلِكَتْ لا في الملة النَّصرانية ولا قبل ذلك، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

فأما الحديثُ الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني:

حدثنا الحسين بن إسحاقَ التُّستري، حدثنا الحُسَين بن أبي السَّري العَسْقَلاني، حدثنا حُسَين الأشقر، حدثنا ابن عُيَينة، عن ابنِ أبي نَجِيح، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «السُّبَّق ثلاثة:

(١) تفسير الطبري ٢٣/٢.
(٢) عِضَادَتَا الباب: خَشَبتان منصوبتان مُثْبَتتان في الحائط على جانِبَيْه.
(٣) القساقِسَةُ: جمع قِسِّيس، على غير قياس.

فالسابقُ إلى موسى يُوشَع بنُ نُونٍ، والسابِقُ إلى عيسى صاحب يسٓ، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب»[١].

فإنه حديثٌ منكَرٌ، لا يُعرَف إلا من طريق حُسَين الأشقَرِ، وهو شيعيٌّ متروكٌ، والله أعلم.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿يا حسرةً على العبادِ﴾، أي: يا ويلَ العبادِ[٢].

وقال قتادةُ: ﴿يا حَسْرةً على العبادِ﴾، أي: يا حسرةَ العبادِ على أنفسها، على ما ضَيَّعَتْ من أمرِ الله، وفَرَّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءة: «يا حَسْرَةَ العبادِ على أنفسها»[٣].

ومعنى هذا: يا حَسْرَتهم وندامَتهم يوم القيامة إذا عاينُوا العذاب، كيف كَذَّبوا رُسُلَ الله، وخالَفُوا أَمْرَ الله! فإنهم كانُوا في الدار الدنيا المكذِّبون منهم.

﴿ما يأتيهم من رَسُولٍ إلا كانُوا به يستهزِءُونَ﴾، أي: يُكَذِّبونه وَيَستهزِئُون به، ويجحَدُون ما أُرْسِلَ به من الحقِّ.

ثم قال تعالى: ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا قبلَهم من القُرون أَنَّهم إليهم لا يَرْجِعُون﴾، أي: ألم يَتَّعِظُوا بمن أهلَكَ الله قبلهم من المكذِّبين للرسل، كيف لَم تكُن لهم إلى هذه الدنيا كَرَّةٌ ولا رَجْعَةٌ، ولم يكن الأمر كما زَعَمَ كثيرٌ من جَهَلَتِهم وفَجَرَتِهم من قولهم: ﴿إنْ هِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحيَا﴾، وهم القائلون بالدَّور من الدَّهرية، وهم الذين يَعْتَقِدُون جهلاً منهم أنهم يَعودُون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فردَّ الله تعالى عليهم باطِلَهم، فقال: ﴿ألم يَروا كم أهلكنا قَبْلَهم من القُرونِ أَنَّهم إليهم لا يَرْجِعُون﴾.

وقوله: ﴿وإن كلٌ لمَّا جَميعٌ لدينا مُحضَرُونَ﴾، أي: وإن جميع الأُمَم الماضيةِ والآتية ستُحضَرُ للحساب يومَ القيامةِ بين يَدَي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فَيُجازِيهم بأعمالهم كلِّها خيرِها وشَرِّها، ومعنى هَذِهِ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كلًّا لمَّا لَيُوفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم﴾.

وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ: ﴿وَإن كل لَمَا﴾ بالتخفيف، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم من شدد ﴿لَمَّا﴾، وجعل «إن» نافية، و«لمَّا» بمعنى إلا تقديره: وما كلٌّ إلا جميعٌ لدينا مُحضَرُون، ومعنى القراءتين واحد[٤]، والله أعلم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ

(١) أخرجه في المعجم الكبير ٩٣/١١، وانظر مجمع الزوائد ١٠٢/٩.
(٢) أخرجه الطبري ٣/٢٣.
(٣) أخرجه الطبري ٢/٢٣، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٥٤/٧، وانظر روح المعاني ٣/٢٣.
(٤) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزةُ ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون ﴿لَمَا﴾ خفيفة. انظر التبصرة لمكي ٦٥٠، والمبسوط في القراءات العشر للأصبهاني ٣١٢.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وآيةٌ لهم﴾، أي: دَلالَةٌ لهم على وُجودِ الصانعِ وقُدرتِه التامَّة وإحيائِه الموتى ﴿الأرض الميتةُ﴾، أي: إذا كانت مَيْتَةً هامدةً لا شيءَ فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزَّت وربَتْ، وأنبتت من كلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ، ولهذا قال: ﴿أحْيَيناها وأخرجْنا منها حَبّاً فمنه يأكُلونَ﴾، أي: جعلناه رِزْقاً لهم ولأنعامِهم، ﴿وجعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ وفجَّرنا فيها من العُيُونِ﴾، أي: جعلنا فيها أنهاراً سارِحَةً في أمكنة يحتاجُون إليها ليأكُلوا من ثمره. لما امتَنَّ على خَلْقِهِ بإيجاد الزُّرُوعِ لهم عَطَفَ بذكرِ الثمارِ وتَنَوُّعِها وأصنافِها.

وقولهُ: ﴿وما عَمِلته أيديهم﴾، أي: وما ذاك كلُّه إلا مِن رَحمةِ الله بهم، لا بسَعيِهم ولا كَدِّهم، ولا بِحَوْلِهم وقُوَّتِهم، قاله ابن عباسٍ وقتادةُ. ولهذا قال: ﴿أفلا يشكرون﴾، أي: فهلا يشكُرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى. واختار ابن جرير، بل جَزَم به، ولم يحكِ غيره إلا احتمالاً ـ أن «ما» في قوله: ﴿وما عملته أيديهم﴾، بمعنى «الذي»، تقديره: ليأكلُوا من ثَمره ومما عَمِلته أيديهم، أي: غَرَسُوه ونَصَبُوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود ﴿ليأكلُوا من ثَمَره ومِمَّا عَمِلته أَيْدِيهم أفلا يَشْكُرون﴾[(١)].

ثم قالَ: ﴿سُبحانَ الذي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مما تُنبِتُ الأرضُ﴾، أي: من زُرُوعٍ وثِمارٍ ونَبَاتٍ، ﴿ومِن أنفُسِهم﴾، فَجَعَلَهُم ذكراً وأُنثى، ﴿ومما لا يَعلَمُون﴾، أي: من مخلوقاتٍ شَتَّى لا يَعرِفُونها، كما قال تعالى: ﴿ومِن كُلِّ شيءٍ خَلقنا زَوْجين لَعَلَّكُم تَذَكَّرون﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ تعالى: وَمِنَ الدَّلالة لهم على قُدرته ـ تعالى ـ العَظِيمة خَلْقُ الليلِ والنهارِ، هذا بظلامِه وهذا بضيائِه، وجعلهما يتعاقَبانِ، يَجيءُ هذا فيذهب هذا، ويذهَبُ هذا فَيَجيءُ هذا، كما قال: ﴿يُغشِي الليلَ النهارَ يطلُبه حَثِيثاً﴾ ولهذا قال ها هنا: ﴿وآيةٌ لهم الليلُ نسلَخُ منه النهارَ﴾، أي: نَصْرِمه منه فيذهَبُ، فيقبل الليل، ولهذا قال: ﴿فإذا هم مُظلِمُون﴾، كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليلُ من ها هنا، وأدبر النهارُ من ها هنا، وغَربت الشمسُ، فقد أفطر الصائم»[(٢)].

هذا هو الظاهرُ من الآية، وزَعَم قتادةُ أنها كقوله تعالى: ﴿يُولِج الليلَ في النهارِ ويُولِج النهارَ في الليلِ﴾. وقد ضَعَّف ابنُ جرير قولَ قتادةَ ها هنا، وقال: إنما معنى الإيلاجِ الأخذُ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية[(٣)]. وهذا الذي قاله ابنُ جريرٍ حَقٌّ.

وقوله: ﴿والشمسُ تَجرِي لِمُستقَرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾، في معنى قوله: ﴿لِمُستقَرٍّ لها﴾ قولان،

(١) تفسير الطبري ٢٣/٤.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة البقرة وخرجناه وشرحناه هنالك.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/٥.

أحدهما: أن المراد مُستَقرُّها المكاني، وهو تحتَ العرش مما يلي الأرضَ من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحتَ العرش هي وجميعُ المخلوقاتِ، لأنه سقفُها، وليس بكُرَةٍ كما يزعمُه كثيرٌ من أرباب الهيئةِ، وإنما هو قُبَّةٌ ذاتُ قوائمَ تَحمِلُه الملائكةُ، وهو فوق العالم مما يلي رُءوس الناس، فالشمسُ إذا كانت في قُبَّة الفلك وقت الظهيرة تكونُ أقربَ ما تكون إلى العرشِ، فإذا استدارت في فَلَكها الرابع إلى مقابلة هذا المقامِ، وهو وقتُ نصفِ الليل، صارت أبعدَ ما تكون من العرش، فحينئذٍ تسجدُ وتستأذنُ في الطلوع، كما جاء بذلك الأحاديث:

قال البخاري: حدثنا أبو نُعيم، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التَّيْمِيِّ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ مع النبي ـ ﷺ ـ في المسجدِ عند غُروب الشمس، فقال: يا أبا ذَرٍّ، أتدري أين تَغرُبُ الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُهُ أعلم. قال: فإنها تذهبُ حتى تسجُدَ تحتَ العرشِ، فذلك قوله: ﴿والشمس تجرِي لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾[(١)].

حَدَّثنا عبدُ الله بن الزُّبير الحُمَيديُّ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيمَ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ قال: «سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن قَولِه: ﴿والشمس تجري لمستقر لهاَ﴾، قال: مُسْتَقَرُّها تحتَ العرش»[(١)].

كذا أوردَه ها هنا. وقد أخرجَه في أماكِنَ مُتعدِّدَةٍ[(٢)]، ورواه بقيةُ الجماعة إلا ابنَ ماجه، من طُرُقٍ، عن الأعمشِ، به[(٢)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التَّيمي، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ قال: كنتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد حين وَجَبت الشمسُ، فقال: يا أبا ذَرٍّ، تَدري أين تذهبُ الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنها تذهبُ حتى تسجدُ بين يَدَي رَبِّها عَزَّ وجل، فتستأذِن في الرُّجوع فَيُؤذَنُ لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيثُ جئتِ. فترجعُ إلى مَطْلَعِها، وذلك مستقرُّها، ثم قرأ: «﴿والشمسُ تجري لِمُستَقَرٍّ لها﴾»[(٣)].

وقال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيمي، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ ـ لأبي ذَرٍّ حين غَرَبتِ الشمسُ: «أتدري أين تذهبُ؟» قلت: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: فإنها تذهبُ حتى تسجدَ تحتَ العرشِ، فتستأذِنَ فيُؤذَنُ لها، ويُوشِك أن تسجدَ فلا يُقبَل منها؟ وتَستأذنُ فلا يُؤذَنُ لها، ويقال لها: ارجِعي من حيثُ جئتِ. فتطلعُ من مَغرِبها، فذلك قوله: ﴿والشمس تَجْرِي لِمُستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليم﴾.

وقال عبد الرَّزَّاق: أخبرنا معمرٌ، عن أبي إسحاقَ، عن وَهب بن جابرٍ، عن عبد الله بن عَمْرو قال: في قوله: ﴿والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها﴾، قال: إنَّ الشمس تطلعُ فتردُّها ذنوبُ بني آدم، حتى إذا غَرَبَت سَلَّمت وسَجَدت واستأذنت فَيُؤذَنُ لها، حتى إذا كان يومٌ غَربت فَسلَّمت وسَجَدت، واستأذنت فلا يُؤذَن لها، فتقول: إن المسير بعيد وإني إنْ لا يُؤذَنُ لي لا أبلُغ، فَتُحبَسُ ما شاء الله أن تُحبَسَ، ثم يقال لها: اطلعِي من حيثُ غَرَبْتِ.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة يسٓ ٥٤١/٨.

(٢) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٢٩٧/٦، وكتاب التوحيد ٤٠٤/١٣، ٤١٦. ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٨/١ ـ ١٣٩. وسنن أبي داود، كتاب الحروف ٣٧/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٣٣/٩ ـ ٣٤، وتفسير سورة يسٓ ١٠٧/١٢ ـ ١٠٨، وسنن النسائي، كتاب التفسير من الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٨٩/٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ١٥٢/٥.

قال: فمن يومئذٍ إلى يوم القيامة لا ينفعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنَتْ من قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانها خيراً.

وقيل: المرادُ بقولِهِ: ﴿لمستقرٍّ لها﴾، هو انتهاءُ سَيْرِها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضِها في الشتاء وهو الحَضِيض.

والقولُ الثاني: أن المراد بمستقرها هو: مُنتَهى سيرها، وهو يومُ القيامة، يَبطُل سيرها وتَسكُنُ حركتها وتُكوَّرُ، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مُستَقَرُّها الزماني.

قال قتادة: ﴿لمستقر لها﴾، أي لوقتها ولأجل لا تعدُوه.

وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقلُ في مطالعها الصَّيفِيَّة إلى مدَّةٍ لا تَزِيد عليها، ثم تَنْتَقِل في مطالعِ الشتاءِ إلى مُدَّةٍ لا تَزِيد عليها. يروى هذا عن عبد الله بن عَمْرو.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: «والشمس تجري لا مُستَقَرَّ لها»[1]، أي: لا قَرارَ لها ولا سكونَ، بل هي سائرةٌ ليلاً ونهاراً، لا تَفترُ ولا تَقِفُ، كما قال تعالى: ﴿وسَخَّر لكم الشمسَ والقمرَ دائِبينَ﴾، أي: لا يَفتُران ولا يَقِفان إلى يوم القيامةِ.

﴿ذلك تقديرُ العزيز﴾، أي: الذي لا يُخالفُ ولا يُمانعُ، ﴿العليمُ﴾ بجميع الحركاتِ والسَّكَنَاتِ، وقد قَدَّر ذلك وقَنَّنه على مِنْوَالٍ لا اختلافَ فيه ولا تَعَاكُسَ، كما قال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجاعل[2] الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾. وهكذا ختم آية «حمٓ السجدة» بقوله: ﴿ذلك تقديرُ العزيزِ العَليم﴾.

ثم قال: ﴿والقمرَ قَدَّرناه منازلَ﴾، أي جعلناه يَسِيرُ سيراً آخرَ يُستَدَلُّ به على مُضِيِّ الشهورِ، كما أن الشمس يُعرَف بها الليلُ والنهارُ، كما قال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيتُ للناس والحجِّ﴾، وقال: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقَدَّره منازلَ لتعلموا عَدَدَ السِّنين والحساب﴾... الآية، وقال: ﴿وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتَين فَمَحَوْنا آيةَ الليل وجعلنا آيَةَ النهارِ مُبصِرَةً لتبتغُوا فَضْلاً من رَبِّكم ولِتَعلَمُوا عَدَدَ السنين والحسابَ وكلَّ شيءٍ فصلناه تفصيلاً﴾. فجعل الشمس لها ضوءٌ يَخُصُّها، والقمَرَ له نورٌ يَخُصُّه، وفاوَتَ بينَ سَيْرِ هذهِ وهذا، فالشمسُ تطلع كل يوم وتغربُ في آخره على ضوءٍ واحدٍ، ولكن تنتقل في مطالعها ومَغاربها صيفاً وشتاءً، يَطول بسَبب ذلك النهارُ ويقصُرُ الليلُ، ثم يَطُول الليلُ ويقصُرُ النهارُ، وجَعَل سُلطانَها بالنهار، فهي كوكبٌ نَهارِيٌّ. وأما القَمرُ فقَدَّره منازلَ، يطلعُ في أَوَّلِ ليلةٍ من الشهر ضَئِيلاً قَليلَ النُّور، ثم يزدادُ نوراً في الليلة الثانيةِ، ويرتفع منزلةً، ثم كُلَّما ارتفَعَ ازدادَ ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامَلَ نورُه في الليلةِ الرابعة عشرَةَ، ثم يشرَع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يَصِير كالعُرجُون القديم، قال ابن عباس: وهو أصل العِذْقِ. وقال مجاهد: العُرجُونُ القَدِيمُ، أي: العِذْقُ اليابسُ.

يعني ابنُ عباس أصلَ العُنقودِ من الرُّطَبِ إذا عَتُقَ ويَبِسَ وانحنى. وكذا قال غيرُهما. ثم بعد هذا يُبدِئُه الله جديداً في أولِ الشهر الآخر، والعربُ تُسَمِّي كُلَّ ثلاثِ ليالٍ من الشهر باسم باعتبارِ القمر، فيُسَمُّون الثلاثَ الأُوَل «غُرَر»، واللواتي بعدها «نُفَل»، واللواتي بعدها «تُسَع» لأن أُخراهُنَّ التاسعة، واللواتي بعدها

---

(1) انظر روح المعاني ٢٣/١٥.

(2) كذا في نُسَخنا، وهي قراءة سَبْعِيَّة، قرأ الكوفيون (وجَعَلَ) بوزن فَعَل، و(الليلَ) بالنصب. وقرأ الباقون: (وجاعلُ الليل). انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤١/٢. والآية ٩٦ من سورة الأنعام.

«عُشَر»، لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها «البِيض» لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهُنَّ «دُرَع»[(١)] جمْع دَرْعاء، لأن أولهن سُودٌ، لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الدَّرْعاءُ وهي التي رَأْسُها أَسْوَدُ. وبعدهن ثلاث «ظُلَم» ثم ثلاث «حَنادِسُ»، وثـلاث «دَآدِىءُ»، وثلاث «مَحاقٌ»، لانمحاقِ القَمرِ أواخِرَ الشهرِ فيهنَّ. وكان أَبو عُبَيدٍ ينكر التُّسَع والعُشَر. كذا قاله في كتابِ «غَرِيب المُصَنَّف».

وقولهُ: ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القَمرَ﴾، قال مجاهدٌ: لكلٍّ منهما حَدٌّ لا يعدُوه ولا يُقَصِّرُ دونَه، إذا جاء سُلطان هذا ذَهَب هذا، وإذا ذَهَبَ سلطان هذا جاء سلطان هذا[(٢)].

وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعمر، عن الحَسَن في قوله: ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمرَ﴾، قال: ذلك ليلة الهلال.

ورَوَى ابنُ أبي حاتم ها هنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للرِّيح جَناحاً، وإنَّ القمر يأوي إلى غلافٍ من الماءِ.

وقال الثوريُّ، عن إسماعيلَ بن أبي خالدٍ، عن أبي صَالحٍ: لايُدرِكُ هذا ضوءَ هذا، ولا هذا ضوءَ هذا.

وقال عكرمة في قوله: ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِك القَمرَ﴾، يعني أن لكل منهما سلطاناً، فلا يَنبغي لِلشَّمسِ أن تطلُعَ باللَّيل.

وقولهُ: ﴿ولا الليلُ سابقُ النهارِ﴾، يقول: لا يَنْبَغِي إذا كان الليلُ أن يكونَ ليلٌ آخَرُ حتى يكون النهارُ، فسلطان الشمس بالنهارِ، وسُلطان القَمر بالليلِ.

وقال الضحاك: لا يَذْهَب الليلُ من هاهنا حتى يجيء النهارُ من هاهنا. وأومأ بيدِهِ إلى المشرقِ. وقال مجاهد: ﴿ولا الليل سابقُ النهارِ﴾: يَطْلُبانِ حَثِيثين، ينسلخ أحدُهما من الآخر.

والمعنى في هذا: أنه لا فترةَ بين الليلِ والنهارِ، بل كل منهما يَعقُب الآخر بلا مُهلَةٍ ولا تَراخٍ، لأنهما مُسَخَّران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً.

وقولهُ: ﴿وكلٌّ في فلك يَسْبَحُونَ﴾، يعني الليلَ والنهارَ، والشمسَ والقمَرَ، كُلُّهم يَسْبَحُون، أي: يَدُورُونَ في فَلَكِ السماءِ. قاله ابنُ عباس، وعِكْرِمَةُ، والضحَّاكُ، والحسَنُ، وقتادَةُ، وعطاءُ الخُرَاسَانِيُّ.

وقال عبدُ الرحمٰنِ بن زيدِ بن أسلَمَ: في فَلَكٍ بين السماء والأرض. رواهُ ابنُ أبي حاتم، وهو غريبٌ جداً، بل منكر.

قال ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ من السَّلَف: في فَلْكةٍ كفَلْكةِ المِغْزَل[(٣)].

وقال مجاهدٌ: الفَلَك كَحَدِيدَةِ الرَّحى، أو كَفلْكَةِ المِغْزَل، لا يَدُور المِغْزَل إلا بها، ولا تَدُور إلا به.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

(١) انظر اللسان، مادة: درع، وظلم.
(٢) أخرجه الطبري ٢٣/٨ عن قتادة، وكذلك عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٥٨/٧.
(٣) فَلْكَةُ المِغْزَل: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه، تُجعَل في أعلاه، وتُثَبَّتُ الصِّنّارة من فوقها، وعُودُ المِغْزَل عن تحتها.

يقول تعالى: ودلالةٌ لهم أيضاً على قُدرته تعالى تَسْخيرُه البَحْرَ ليحمِلَ السُّفُنَ، فمن ذلك - بل أوله - سفينةُ نوحٍ - عليه السَّلام - التي أنجاه الله فيها بمن مَعَه من المؤمنين، الذين لم يبقَ على وجهِ الأرض من ذُرِّية آدَمَ غيرُهم. ولهذا قال: ﴿وآيةٌ لهم أنا حَمَلنا ذُرِّيَّتَهم﴾، أي: آباءَهم، ﴿فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾، أي: في السفينةِ المملوءَةِ من الأمتعةِ والحَيَوانَاتِ، التي أمره الله أن يحمِلَ فيها من كُلِّ زوجَين اثنَين.

قال ابن عباس: المشحون: المُوقَر[1]. وكذا قال سعيد بن جُبَير، والشَّعبيُّ، وقتادةُ، والسُّدِّي. وقال الضحاك، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: وهي سفينة نوح عليه السلام.

وقولهُ: ﴿وَخلَقنا لهم من مِثْله ما يَرْكَبُون﴾، قال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: يعني بذلك الإبلَ، فإنها سُفُن البرِّ يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ - في روايةٍ - وعبد الله بن شَدَّادٍ، وغيرُهم. وقال السُّدِّي - في روايةٍ -: هي الأنعام.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا الفضل بن الصَّبَّاح، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن عطاءٍ، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: تَدرُون ما ﴿وخَلَقنا لهم من مِثْلِه ما يَرْكَبُون﴾؟ قلنا: لا. قال: هي السفنُ، جعلت من بعد سفينةِ نُوحٍ على مثلها[2].

وكذا قال أبو مالك، والضحَّاك، وقتادةُ، وأبو صالح، والسُّدِّي أيضاً: ﴿وخلَقنا لَهُم من مِثْلِهِ ما يَرْكَبُون﴾، أي: السُّفن.

ويُقَوِّي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إنا لما طَغَى الماء حملناكم في الجارية * لِنَجْعَلَها لكم تذكرةً وتَعِيَهَا أذن واعية﴾.

وقولهُ: ﴿وإن نَشَأ نُغرقهم﴾، يعني الذين في السُّفنِ، ﴿فلا صَرِيخ لهم﴾، أي: فلا مُغيثُ لهم مما هم فيه، ﴿ولا هم يُنقَذُون﴾، أي: مما أصابَهم، ﴿إلا رَحْمَةً مِنَّا﴾. وهذا استثناءٌ منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نُسَيِّركم في البر والبحر، ونُسَلِّمكم إلى أجلٍ مُسَمًّى، ولهذا قال: ﴿ومتاعاً إلى حين﴾، أي: إلى وقتٍ معلومٍ عند الله.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن تمادِي المشركين في غَيِّهم وضَلَالهم، وعَدَم اكتراثهم بذُنُوبهم التي أَسلَفُوها، وما هم مُستَقْبِلُونَ بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾، قال مجاهد: من الذنوب[3]. وقال غيره بالعكس، ﴿لعلكم ترحمون﴾، أي: لعلَّ الله باتقائكم ذلك يرحَمُكم ويُؤمِنُكم من عذابه.

---

(١) الموقر: الذي عليه حِمْلٌ ثقيلٌ.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٠.

(٣) أثر مجاهد كما في تفسير الطبري ٢٣/١٢: ﴿ما بين أيديكم﴾، قال: ما مضى من ذنوبهم.
يقول الطبري: «وهذا القول قريب المعنى من القول الذي قلنا، لأن معناه: اتقوا عقوبة ما بين أيديكم من ذنوبكم، وما خلفكم مما تعملون من الذنوب ولم تعملوه بعدُ».
وأما قتادة فقال: «وقائع الله فيمن خلا قبلهم من الأمم، وما خلفهم من أمر الساعة».

وتقدير الكلام: أنهم لا يُجيبون إلى ذلك ويُعرضون عنه. واكتفى عن ذلك بقوله: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾[(١)]، أي: على التوحيد وصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿إلا كانوا عنها مُعرِضين﴾، أي: لا يتأمّلونها ولا ينتفعون بها.

وقوله: ﴿وإذا قيل لهم أنفِقوا مما رزقكم الله﴾، أي: وإذا أُمِروا بالإنفاق مما رَزَقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قال الذين كفَروا للذين آمنوا﴾، أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق مُحاجِّين لهم فيما أمروهم به: ﴿أنُطعِم مَن لو يشاء الله أطعمه﴾، أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهُم ولأطعمَهُم من رزقه، فنحنُ نُوافِق مشيئةَ الله فيهم، ﴿إن أنتم إلا في ضلالٍ مُبينٍ﴾، أي: في أمركم لنا بذلك.

قال ابنُ جرير: وَيَحْتَمِلُ أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إن أنتم إلا في ضلالٍ مبينٍ﴾[(٢)]. وفي هذا نظرٌ.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن استبعادِ الكَفَرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾: ﴿يَسْتَعْجِلُ بها الذين لا يُؤمِنُون بها﴾، قال الله تعالى: ﴿ما يَنظُرون إلا صيحةً واحدةً تأخذُهم وهم يَخِصِّمُون﴾، أي: ما يَنتَظِرُون إلا صيحةً واحدةً، وهذه - والله أعلم - نَفْخَةُ الفَزَع، يَنفُخ في الصُّور نفخةَ الفزع، والناس في أسواقهم ومَعايشهم يَختَصِمُون ويَتشاجَرُون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذْ أَمَرَ الله تعالى إسرافيل فَنَفَخَ في الصُّورِ نفخةً يُطوِّلُها ويَمُدُّها، فلا يبقَى أحدٌ على وجهِ الأرضِ إلا أصغَى لِيتاً، ورفع لِيتاً - وهي صفحة العُنُق - يَتَسمَّع الصوتَ من قِبَلِ السماء. ثم يساق الموجودون من النّاسِ إلى مَحْشَرِ القيامةِ بالنار، تُحيطُ بهم من جَوانِبهم، ولهذا قال: ﴿فلا يَسْتَطِيعُون توصِيَةً﴾، أي: على ما يَملِكُونه، الأمرُ أهمُّ من ذلك، ﴿ولا إلى أهلهم يَرْجِعُون﴾.

وقد وَرَدت هاهنا آثارٌ وأحاديثُ ذكرناها في موضعٍ آخَرَ[(٣)]، ثم تكون بعد هذا نفخةُ الصَّعقِ، التي تموتُ بها الأحياء كلُّهم ما عدا الحيَّ القيومَ، ثم بعد ذلك نفخةُ البعثِ.

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه هي النفخةُ الثالثةُ، وهي نفخةُ البَعثِ والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال: ﴿فإذا هُم من الأجداثِ إلى ربهم يَنْسِلون﴾، والنَّسَلانُ هو: المَشْيُ السريعُ، كما قال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نُصُب يُوفِضُون﴾.

(١) هذا كلام الطبري ٢٣/١٢، وذكر الفراء ذلك من قبل في معانيه ٢/٣٧٩، قال: «وقوله: (إلا كانوا عنه معرضين) جواب للآية، وجواب لقوله: ﴿وإذا قيل لهم اتقوا﴾، فلما أن كانوا معرضين عن كلِّ آيةٍ كفى جواب واحدٍ عن ثنتين، لأن المعنى: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا، وإذا أتتهم آية أعرضوا».

(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٣.

(٣) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام، ٨٧ من سورة النمل.

﴿قالوا يا وَيْلَنا مَن بَعَثنا مِن مَرْقَدِنا﴾؟ يعنونَ قُبورَهم التي كانوا يَعتقِدُون في الدار الدنيا أنهم لا يُبعَثُون منها، فلما عَايَنُوا ما كَذَّبوه في محشرِهم ﴿قالوا يا وَيْلَنا مَن بَعَثنا مِن مَرْقَدِنا﴾. وهذا لا يَنْفِي عذابَهم في قُبورِهم، لأنه بالنِّسبة إلى ما بَعْدَه في الشِّدَّةِ كالرُّقادِ.

وقال أُبَيُّ بن كعب، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ: ينامون نَوْمَةً قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النَّفخَتَين.

فلذلك يَقُولون: ﴿مَن بَعَثنا مِن مَرْقَدِنا﴾، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من السلف ـ: ﴿هذا ما وعَدَ الرحمٰن وصَدَقَ المرسلون﴾. وقال الحسن: إنما يُجيبهُم بذلك الملائكةُ. ولا منافاةَ، إذ الجمعُ ممكنٌ، والله أعلم.

وقال عبدُ الرحمٰن بنُ زيدٍ: الجميعُ من قولِ الكُفَّار: ﴿يا وَيْلنا مَن بعثنا مِن مرقدنا هذا ما وَعَدَ الرحمٰنُ وصَدَقَ المرسلون﴾.

نقله ابنُ جرير، واختار الأول[1]، وهو أصحُّ. وذلك كقوله تعالى في الصافات: ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يومُ الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾. وقال تعالى: ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسِمُ المجرمون ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُؤفَكون * وقال الذين أُوتوا العِلْمَ والإيمانَ لقد لبثتُم في كتاب الله إلى يوم البعثِ فهذا يومُ البعثِ ولكنكم كُنتُم لا تعلمون﴾.

وقولهُ: ﴿إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميعٌ لدينا مُحضَرُون﴾، كقوله: ﴿فإنما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ * فإذا هُم بالساهِرَةِ﴾. وقال تعالى: ﴿وما أمرُ الساعة إلا كلمحِ البصرِ أو هُو أَقْرَبُ﴾. وقال: ﴿يوم يدعوكُم فَتَسْتَجيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظنُّون إن لَبِثْتُم إلا قليلاً﴾.

أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميعُ مُحضَرون، ﴿فاليومَ لا تُظلَم نفسٌ شيئاً﴾، أي: مِن عَمَلِها، ﴿ولا تُجزَون إلا ما كنتم تَعْمَلُون﴾.

﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى عن أهل الجنة أَنَّهم يومَ القيامَةِ إذا ارتَحلُوا من العَرَصاتِ فَنَزَلُوا في رَوْضاتِ الجَنَّاتِ أَنَّهم في شُغُلٍ عن غَيْرِهم بما هُم فيه من النَّعيم المقيم، والفوزِ العظيم.

قال الحسنُ البصري، وإسماعيلُ بن أبي خالد: ﴿في شُغُلٍ﴾ عما فيه أهلُ النارِ من العذاب. وقال مجاهد: ﴿في شُغُلٍ فاكهون﴾، أي: في نعيم مُعجَبُون، أي: به. وكذا قال قتادةُ. وقال ابن عباس: ﴿فاكِهُون﴾، أي: فَرِحُون.

وقال عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عباس، وسعيدُ بن المسيَّب، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، والأعمشُ، وسليمان التَّيمي، والأوزاعي في قوله: ﴿إنَّ أصحابَ الجنةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكِهُون﴾، قالوا: شغلهم افتضاضُ الأبكارِ.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٢٣.

وقال ابنُ عبَّاسٍ ـ في روايةٍ عنه ـ: ﴿في شُغُل فاكِهُونَ﴾، أي: بِسَماعِ الأَوْتَارِ. وقال أبو حاتم: لَعَلَّه غَلَطٌ من المستَمِع، وإنما هو افتضاضُ الأَبكار[(١)].

وقوله: ﴿هم وأزواجُهم﴾ ـ قال مجاهدٌ: وحَلائِلُهم ـ ﴿في ظِلَالٍ﴾، أي: في ظِلَالِ الأشجارِ، ﴿على الأرائك مُتَّكِئُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، والحسنُ، وقتادةُ، والسُّدِّي، وخُصَيفٌ: ﴿الأرائك﴾، هي السُّرُر تحتَ الحِجَال[(٢)].

قلتُ: نظيرُه في الدنيا هذه التخوتُ تحت البشاخين، والله أعلم.

وقولُه: ﴿لهم فيها فاكهةٌ﴾، أي: من جميع أنواعها، ﴿ولهم ما يَدَّعون﴾، أي: مهما طَلَبوا وَجَدُوا من جَميع أصنافِ الملاذِّ.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بنُ عَوفٍ الحِمْصِي، حدثنا عثمان بنُ سعيدِ بن كَثِير بن دينار، حدثنا محمد بن مُهَاجر، عن الضَّحَّاك المَعَافري، عن سليمان بن مُوسَى، حدثني كُرَيب: أنه سمع أُسامَةَ بنُ زيد يقول: قال رسول ـ ﷺ ـ: «ألا هل مُشَمِّرٌ إلى الجنة؟ فإن الجَنَّةَ لا خَطَرَ[(٣)] لها، هي ـ وربِّ الكعبة ـ نورٌ كلُّها يَتلألأُ، وريحانةٌ تهتزُّ، وقصرٌ مَشِيدٌ، ونهر مُطَّرد[(٣)]، وثمرةٌ نَضِيجةٌ، وزوجةٌ حسناءُ جَمِيلة، وحُلَلٌ كثيرةٌ، ومقام أَبَدٍ، في دار سلامةٍ، وفاكهةٍ خَضِرةٍ وحَبْرَةٍ[(٣)] ونَعْمَةٍ، في مَحِلةٍ عاليةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمِّرون لها. قال: قولوا: «إن شاء الله». قال القومُ: إن شاء الله.

وكذا رواه ابنُ ماجه في «كتابِ الزُّهد» من سُنَنِهِ، من حديث الوليد بن مسلم، عن محمد بن مُهَاجِر، به[(٤)].

وقولهُ: ﴿سلامٌ قولاً من ربٍّ رَحِيمٍ﴾، قال ابنُ جُريج: قال ابن عباس في قوله: ﴿سلامٌ قولاً من ربٍّ رَحِيمٍ﴾: فإن الله نفسَه سلامٌ على أهل الجَنَّة.

وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهم يومَ يَلْقَونه سَلامٌ﴾.

وقد روى ابنُ أبي حاتم ها هنا حَديثاً في إسنادِهِ نَظَرٌ، فإنه قال:

حدثنا موسى بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عاصم العَبَّادَاني، حدثنا الفضل الرَّقاشيّ، عن مُحَمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بينا أهلُ الجنةِ في نَعِيمهم، إذ سَطَع لهم نورٌ، فَرَفَعُوا رُءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلامُ عليكم يا أهل الجنةِ. فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قولاً من ربٍّ رحيمٍ﴾، قال: فينظرُ إليهم وينظرون إليه، فلا يَلْتَفِتون إلى شيءٍ من النعيم ما داموا يَنظُرون إليه، حتى يَحتَجِبَ عنهم، ويبقى نورُه وبركته عليهم وفي دِيَارِهم».

ورواه ابنُ ماجه في «كتاب السُّنَّةِ» من سُنَنه، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشَّوَارِبِ، به[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرُّ المنثور ٦٥/٧.

(٢) الحجال: جمع حَجَلةٍ، وهو سترٌ يُضْرب للعَرِيس في جوف البيت.

(٣) لا خَطَر لها: لا مثل لها. ونهرٌ مُطَّردٌ: جارٍ. والحَبْرَةُ: النعمة وسَعَة العيش.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٤٨/٢ ـ ١٤٤٩.

(٥) سنن ابن ماجه، المقدمة ٦٥/١ ـ ٦٦.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وَهب، حدثنا حَرملَة، عن سليمان بن حُميد قال: سَمِعت محمد بن كعب القُرَظي يحدّث عن عُمَر بن عبد العزيز قال: إذا فرَغ الله من أهل الجنَّةِ والنارِ أقبل في ظُلَل من الغمام والملائكة، قال: فيُسلِّم على أهل الجنة، فيَردُّون عليه السلام ـ قال القرظي: وهذا في كتاب الله: ﴿سَلَامٌ قولاً من ربٍّ رحيمٍ﴾ ـ فيقول: سَلُوني. فيقولون: ماذا نسألك أيْ ربِّ؟ قال: بَلى سَلُوني. قالوا: نَسألُك ـ أيْ ربِّ ـ رِضاك. قال: رِضائِي أحَلَّكم دارَ كرامتي. قالوا: يا ربِّ، فما الذي نسألُك، فَوعزَّتك وَجلالِكَ وارتفاعِ مكانِكَ، لو قسمت علينا رِزْق الثَّقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم، لا يَنقُصنا ذلك شيئاً. قال: إنَّ لديَّ مزيداً. قال: فيفعل ذلك بهم في دَرَجهم، حتى يستوي في مجلسه. قال: ثم تأتيهم التُّحَف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تحملها إليهم الملائكةُ. ثم ذكر نحوه.

وهذا أثرٌ غريبٌ. أورده ابنُ جَرير من طرق(١).

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمَّا يؤول إليه حَالُ الكُفَّار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازُوا، بمعنى يَتَميَّزُون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزَيَّلنا بينهم﴾. وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرَّقون﴾، ﴿يومئذٍ يَصَّدَّعون﴾، أي: يَصِيرون صَدْعَين فرقتين، ﴿احشُروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدُوهم إلى صراطِ الجحيم﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿أَلَم أعهَد إليكُم يا بني آدمَ أن لا تعبدُوا الشَّيطانَ إنَّه لَكُم عَدوٌّ مبينٌ﴾، هذا تقريعٌ من الله للكفَرَة من بني آدمَ، الذين أطاعُوا الشيطانَ وهو عدوٌّ لهم مبينٌ، وَعَصَوُا الرحمٰنَ وهو الذي خَلَقَهم ورزَقهم. ولهذا قال: ﴿وأن اعبدُوني هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾، أي: قد أمرتُكم في دارِ الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتُكم بعبادتي، وهذا هو الصراطِ المستقيم، فَسلكتم غير ذلك واتَّبعتم الشيطانَ فيما أمركم به، ولهذا قال: ﴿وَلَقد أضلَّ منكُم جِبِلًّا كَثِيراً﴾، يقال: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم، وتشديد اللام. ويقال: ﴿جُبُلًا﴾ بضم، الجيم والباء، وتخفيف اللام. ومنهم من يُسكِّن الباء(٢). والمراد بذلك الخلقُ الكثيرُ، قاله مجاهدٌ، والسُّدي، وقتادةُ، وسفيانُ بن عُيَيْنَة.

وقولهُ: ﴿أَفلَم تكونُوا تعقِلُونَ﴾، أي: أفما كان لكم عقلٌ في مُخالفة رَبِّكم فيما أمركم به من عبادتِهِ وحدَه لا شريكَ له، وعُدُولِكم إلى اتِّباع الشيطان.

قال ابنُ جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عبد الرحمٰن بن محمد المُحَاربيِّ، عن إسماعيلَ بن رافع، عمَّن حَدَّثه، عن محمدَ بن كَعبٍ القُرَظي، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامة أمر الله جَهنَّم فيخرج منها عُنق(٣) ساطِعٌ مُظلِمٌ، يقولُ: ﴿ألم أعهد إليكُم يا بني آدَمَ أن لا تعبدُوا الشيطانَ إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ * وأن اعْبدوني هذا صِراطٌ مُستَقِيمٌ * ولقد أضلَّ منكم جِبلًّا كثيراً أفلم تكونوا تَعقِلون * هذه

(١) تفسير الطبري ٢١/٢٣ ـ ٢٢.
(٢) قرأ نافع وعاصم (جِبِلًّا) بكسرتين وتشديد اللام، وأبو عمرو وابن عامر (جُبْلًا) بسكون الباء وضم الجيم. وقرأ الباقون (جُبُلًا) بضمتين: انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٤٧٣.
(٣) العُنق من كلِّ شيءٍ: أوله، والمراد: قطعةٌ من النار.

جهَنَّم التي كُنتم تُوعَدُون﴾ امتازوا اليومَ أيها المُجرمُون. فَيتميَّزُ الناسُ وَيَجْثُون، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أمةٍ جاثيةً كل أُمَّةٍ تُدعَى إلى كِتابها اليومَ تُجزون ما كنتم تعمَلُون﴾[1].

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧﴾

يُقال للكفَرة من بني آدمَ يوم القيامةِ، وقد بَرزَتِ الجحيمُ لهم، تقريعاً وتوبيخاً: ﴿هذه جهَنَّم التي كُنتم تُوعَدُون﴾، أي: هذه التي حَذَّرتكم الرسلُ فكَذَّبتموهم، ﴿اصلَوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾، كما قال تعالى: ﴿يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا * هذه النارُ التي كُنتم بها تُكذّبون * أفَسِحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصِرُون﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿اليوم نختِم على أفواهِهم وتُكلِّمنا أيديهم وتشهَدُ أرجُلُهم بما كانوا يكسِبُون﴾، هذا حالُ الكُفّار والمنافقين يوم القيامة، حين يُنكِرُون ما اجترمُوه في الدنيا، ويَحلِفُون ما فعَلوه، فيَختِمُ الله على أفواهِهم ويستنطِقُ جَوارِحَهم بما عَمِلَت.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شَيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شَيْبَة، حدثنا مِنْجاب بن الحارث التَّميميُّ، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سُفيان، عن عبيد المُكْتِب، عن الفُضَيل بن عَمْرو، عن الشَّعبيِّ، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند النبي ـ ﷺ ـ فَضَحِك حتى بدت نواجذُه، ثم قال: «أتدرُون مِمَّ أضحكُ؟» قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ. قال: «من مُجادَلَةِ العبدِ رَبَّه يومَ القيامة، يقول: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقولُ: بلى. فيقولُ: لا أُجيزُ عَلَيَّ إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليومِ عليك حَسيباً، وبالكرام الكاتبين شُهُوداً. فيُختم على فيه، ويُقال لأركانه: «انطقي». فتنطق بعمله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكَلامِ، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، فَعَنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»[2].

وقد رَواه مسلم والنَّسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النَّضر، عن أبي النَّضر، عن عُبَيد الله بن عبد الرحمٰن الأشجَعِيُّ، عن سفيان ـ هو الثوري ـ به. ثم قال النسائي: «لا أعلم أحداً رَوَى هذا الحديث عن سفيان غيرُ الأشجَعِيِّ، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم»[2].

كذا قال، وقد تقَدَّمَ من رواية أبي عامرٍ عبد الملك بن عَمرو الأَسَدِيِّ ـ وهو العَقَدِيُّ ـ عن سُفيانَ.

وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعمَرٌ، عن بَهْزِ بن حكيم، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنكم تُدْعَون مُفَدَّماً[3] على أفواهكم بالفِدَام، فأول ما يُسأل عن أحَدِكم فَخِذُهُ وكَتِفه.

رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزّاق، به[4].

وقال سُفيان بن عُيَيْنَةَ، عن سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ في حديث القيامةِ الطُّويل، قال فيه: «ثم يَلقَى الثالث فيقولُ: ما أنتَ؟ فيقول: أنا عبدُك، آمنتُ بك وبنبيِّك

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/٢٢.

(٢) تقدّم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٢٥ من سورة النور.

(٣) الفِدَامُ: ما يوضع على الفم سِداداً له، وما يُشدُّ على فم الإبريق ونحوه لتصفية ما به.

(٤) أخرجه النسائي عند تفسير الآية ٢٢ من سورة فصلت من سننه الكبرى. انظر تحفة الأشراف للمزي ٨/٤٣١.

وبكتابك، وصُمْتُ وصَلَّيت وتَصدَّقت ـ ويُثني بخير ما استطاع ـ قال: فَيُقال له: ألا نبعثُ عليك شاهدنا؟ قال: فيفكر في نفسِهِ، مَن الذي يشهَدُ عليه، فَيُختَمُ على فيه، ويقال لفخذه: انطقِي» قال: فتنطق فَخِذه ولَحمُه وعِظَامه بما كان يعمَلُ، وذلك المنافق، وذلك لِيُعذِرَ من نَفْسِه. وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه».

ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عُيينة، به بطوله[١].

ثم قال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ: أنه سَمِعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ أَوَّلَ عَظْم من الإنسان يَتَكَلَّم يومَ يُختَم على الأفواهِ فَخِذُهُ من الرجلِ اليُسرى».

ورواه ابنُ جرير عن محمد بن عَوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، به مِثْلَه[٢].

وقد جَوَّد إسنادَه الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ فقال: حدثنا الحَكَم بن نافع، حدثنا إسماعيلُ بن عَيَّاش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمي، عَمَّن حَدَّثه، عن عقبةَ بن عامر: أنه سَمع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن أَوَّلَ عَظْمٍ من الإنسان يَتَكَلَّم يومَ يُختَم على الأفواه فَخِذُه من الرِّجل الشمال»[٣].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا يُونُس بنُ عُبَيد، عن حُمَيدِ بن هِلَالٍ قال: قال أبو بَرْدَةَ: قال أبو مُوسَى هو الأشعريُّ ـ رضي الله عنه ـ: يُدعَى المؤمنُ للحساب يومَ القيامة، فَيَعرِضُ عليه رَبُّهُ عَمَلَه فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نَعَم أيْ ربِّ، عملتُ عملتُ عملتُ. قال: فيغفر الله له ذُنُوبَه، ويَسْتُره منها. قال: فما على الأرض خَلِيقَة تَرَى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدُو حسناته، فَوَدّ أن الناس كُلَّهم يَرونها. ويُدعَى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربُّه عليه عَمَله، فَيَجحَده فيقول: أَيْ ربِّ، وعِزَّتِك لقد كَتَب عليَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمل. فيقول له المَلَك أما عَمِلت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعِزَّتِكَ أيْ ربِّ ما عملتُه. فإذا فَعَل ذلك خُتِمَ على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسِبُ أَوَّل ما ينطق منه لَفَخِذُه اليُمنى، ثم تلا: ﴿اليوم نختِمُ على أفواهِهم وتُكَلِّمنا أيديهم وتشهَدُ أرجُلُهم بما كانوا يكسبون﴾[٢].

وقولهُ: ﴿ولو نشاءُ لطَمَسنا على أعينهم فاستَبَقُوا الصِّراطَ فأنى يُبْصِرُونَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهُدَى، فكيفَ يهتَدون؟ وقال مَرَّةً: أعميناهم.

وقال الحسنُ البصريُّ: لو شاءَ الله لَطَمَسَ على أعيُنِهم، فَجعلهم عُمياً يتردَّدُون. وقال السُّدِّي: لو شِئْنا أعمينا أبصارهم.

وقال مجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وقتادةُ، والسُّدِّي: ﴿فاستَبَقُوا الصِّراطَ﴾، يعني الطريق. وقال ابنُ زيد: يُعنَى بالصراط هاهنا الحقُّ، ﴿فأنى يبصرون﴾، وقد طَمَسنا على أعينهم.

وقال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿فأنى يُبصِرونَ﴾: لا يُبصِرُون الحقَّ.

وقولهُ: ﴿ولو نشاء لمَسَخناهم على مكانتهم﴾، قال العَوْفي، عن ابن عباس: أهلكناهم. وقال السُّدِّي: يعني لغيَّرنا خَلْقهم. وقال أبو صَالحٍ: لجعلناهم حِجَارةً. وقال الحسنُ البصريُّ، وقتادةُ: لأقعدهم على أرجُلِهم.

(١) مسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٧٩ ـ ٢٢٨٠، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٢٤.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٥١.

ولهذا قال تعالى: ﴿فما استطاعوا مُضياً﴾، أي: إلى أمامٍ، ﴿ولا يَرجِعُون﴾، أي: إلى وراءٍ. بل يَلزَمُون حالاً واحداً، لا يَتقدَّمُونَ ولا يَتأخَّرُونَ.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عن ابن آدمَ أنه كُلَّما طال عُمُرُه رُدَّ إلى الضَّعف بعدَ القُوَّة والعَجْز بعدَ النشاطِ، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضَعفٍ ثم جعَلَ من بعد ضَعفٍ قوةً ثم جعَل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً يخلُق ما يشاء وهو العليم القدير﴾. وقال: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذَل العُمُر لكيلا يعلَم بعد عِلمٍ شيئاً﴾.

والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دارُ زَوالٍ وانتقالٍ، لا دارُ دوامٍ واستقرارٍ، ولهذا قال: ﴿أفلا يَعقِلُون﴾، أي: يَتفكَّرون بعقولهم في ابتداء خَلقهم ثم صيرورتهم إلى الشَّبيبَة، ثم إلى الشَّيخُوخَة، لِيَعلَمُوا أنهم خُلِقوا لدارٍ أُخرَى، لا زوالَ لها ولا انتقالَ منها، ولا محيدَ عنها، وهي الدارُ الآخرةُ.

وقولهُ: ﴿وما علَّمناه الشعرَ وما يَنْبَغِي له﴾، يقول تعالى مُخبِراً عن نَبِيِّه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنه ما علَّمه الشعر، ﴿وما ينبغي له﴾، أي: وما هو في طبعه، فلا يُحسِنه ولا يُحبُّه، ولا تقتضيه جِبلَّتُهُ، ولهذا وَرَدَ أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زَحَفَه[1] أو لم يُتِمَّه.

وقال أبو زُرْعة الرازي: حُدِّثت عن إسماعيلَ بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبيِّ أنه قال: ما وَلَدَ عبد المطلب ذكراً ولا أُنثى إلا يقولُ الشعر، إلا رسولَ الله ﷺ. ذَكَره ابن عساكر في ترجمة «عُتبَةَ بن أبي لهب» الذي أكلَه الأسدُ بالزرقاء.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يتمثل بهذا البيت:

كَفى بالإِسْلَام والشَّيْب للمرْء نَاهِياً

فقال أبو بكر: يا رسولَ الله[2]:

كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهياً

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنَّك رسول الله، يقول الله تعالى: ﴿وما عَلَّمناه الشعر وما يَنْبغي له﴾.

وهكذا رَوَى البَيهقي في الدلائل: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال للعباسِ بن مِرْدَاسٍ السُّلَمِيِّ: أنت القائل:

أتجعل نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيد بين الأقرع وعُيَينة

فقال: إنما هو: «بين عُيَينَة والأقرع». فقال: «الكلُّ سواءٌ»[3]. يعني في المعنى، صلواتُ الله وسلامهُ عليه.

(١) أي: يسقط حرفاً منه.

(٢) لسُحيم عبد بني الحسحاس، وصدْره:

عُمَيْرة وَدِّعْ إن تجهَّزْت غاديا

والبيت في ديوانه ١٦، والكامل للمبرد ٢/٧٦٨.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٥/١٨١ ـ ١٨٢. والقائل «بين عيينة والأقرع» هو أبو بكر. وانظر البيت في سيرة ابن هشام ٢/٤٩٣ ـ ٤٩٤.

وقد ذكر السُّهَيليُّ في «الرَّوض الأنف» لهذا التقديم والتأخير الذي وَقَع في كلامه ـ عليه السلام ـ في هذا البيت مناسبةً أغربَ فيها حاصلُها شَرَفُ الأقرع بنِ حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْرِ الفَزَارِيّ، لأنه ارتدَّ أيامَ الصديق، بخلاف ذاك(١). والله أعلم.

وهكذا رَوَى الأُمَوِيُّ في مغازيه: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ جعل يَمْشي بين القتلى يومَ بَدرٍ، وهو يقول(٢):

نُفَلِّق هَاماً ....

فيقولُ الصديق ـ رضي الله عنه ـ مُتَمِّماً للبيت:

.... مِـنْ رجَـال أعِـزَّةٍ عَلَيْنَـا، وَهُمْ كَانُـوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَـا

وهذا لبعض شُعَراء العرب في قصيدةٍ له، وهي في الحماسة(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، حدثنا مغيرة، عن الشَّعْبِيِّ، عن عائشةَ ـ رَضِيَ الله عنها ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا استَرَاثَ الْخَبَرَ تَمثَّل فيه ببيتِ طَرَفَةَ(٤):

وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ(٥)

وهكذا رَوَاه النسائي في «اليومِ واللَّيلةِ» من طريق إبراهيم بن مُهَاجِرٍ، عن الشعبيِّ، عنها. ورواه التِّرمذيُّ والنسائيُّ أيضاً من حديث المِقدام بن شُرَيحٍ بن هانىءٍ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كذلك. ثم قال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»(٥).

وقال الحافظُ أبو بكر البَزَّارُ: حدثنا يُوسُفُ بن مُوسَى، حدثنا [أبو](٦) أسامَةَ، عن زَائِدَةَ، عن سِمَاكٍ(٧)، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَتمثَّل من الأشعار:

وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَار مَنْ لَمْ تُـزَوِّد

ثم قال: ورواه غيرُ زائدةَ، عن سِماكٍ، عن عكرمة، عن عائشة(٨).

وهذا في شِعْرِ طَرَفَة بنِ العَبْدِ، في مُعَلَّقته المشهورَة، وهذا المذكورُ منها، أَوَّله:

سَتُبْدي لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلاً وَيَـأْتِيـكَ بـالأَخْبَـار مَنْ لَمْ تُـزَوِّدِ
وَيَـأْتِيكَ بـالأَخْبَار مَنْ لَمْ تَبـعْ لَهُ بَتَاتاً، وَلَم تَضربْ له وَقْتَ مَوْعِدِ

وقال الحافظ أبو بكر البَيْهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حَفص عُمَر بن أحمَد بن نُعَيم،

---

(١) انظر الروض الأنف ٣٠٩/٢ ـ ٣١٠.

(٢) تقدّم البيت عند تفسير آية الأنفال ١٢، وخرناه هنالك.

(٣) البيت للحُصَين بن الحُمَام المُرّي، من أبيات في الحماسة ١١٤/١.

(٤) ديوان ١٦، وصدره:

سَتُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

(٥) مسند الإمام أحمد ٣١/٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ٢٩١/١٢، والنسائي في اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٤٣٠/١١.

(٦) عن كشف الأستار. وأبو أسامة هو: حماد بن أسامة، يروي عن زائدة بن قدامة، وعنه يوسف بن موسى القطان. تهذيب الكمال ٢١٧/٧ ـ ٢٢٢.

(٧) سقط عن «سِماك» من كشف الأستار.

(٨) كشف الأستار عن زوائد البزار ٥/٣.

وكيل المتَّقي ببغداد، حدثنا أبو محمد عبدُ الله بن هلال النحويُّ الضريرُ، حدثنا علي بن عَمرو[١] الأنصاري، حدثنا سُفيان بن عُيينة، عن الزُّهريِّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَفَاءلْ بما تَهْوَى يكُنْ، فَلَقَلَّمَا   يُقَالُ لشيءٍ كَانَ إلَّا تَحقَّقَا[٢]

سألت شيخَنا الحافظ أبا الحجاج المزِّي عن هذا الحديث، فقال: هو مُنكَرٌ. ولم يَعرِف شيخَ الحاكِم، ولا الضَّريرَ.

وقال سَعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتمثل بشيءٍ من الشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديثِ إليه، غير أنه كان يتمثل ببيتِ أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر ليس هكذا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني والله ما أنا بشاعرٍ ولا يَنْبَغِي لي». رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وهذا لفظه[٣].

وقال مَعْمَر، عن قتادة: بلغني أن عائشة سُئلت: هل كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتمثل بشيءٍ من الشعر؟ فقالت: لا، إلا ببيت طَرَفَةَ:

سَتُبْدِي لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً   وَيَأتِيكَ بِالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فَجَعَلَ يقول: «من لم تُزَوِّد بالأخبار». فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ليس هذا هكذا. فقال: «إني لستُ بشاعرٍ، ولا ينبغي لي».

وثبت في الصحيحين أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تمثل يوم حَفْرِ الخندق بأبيات عبدِ الله بن رَوَاحة، ولكن تَبعاً لقولِ أصحابه، فإنهم كانوا يَرتَجِزون وهم يَحفِرُون، فيقولون:

لَا هُمَّ لَوْلَا أنتَ مَا اهْتَدَيْنَا   وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا   وَثَبِّتِ الأقْدَامَ إنْ لاقَينَا
إنّ الألى قَدْ بَغَوا عَلَينَا   إذا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَينَا

ويرفعُ صوتَه بقوله: «أبينا» ويَمُدُّها[٤]. وقد رُوِي هذا بِزِحَافٍ في الصَّحِيح أيضاً. وكذلك ثبت أنه قال يوم حُنَين وهو راكب البغلة، يَقدُم بها في نحور العَدُو:

أنَا النَّبِيّ لا كَذِبْ   أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ[٥]

لكن قالوا: هذا وَقَع اتفاقاً من غير قصدٍ لوزنِ شعرٍ، بل جَرَى على اللسانِ من غير قَصدٍ إليه.

وكذلك ما ثبت في الصحيحَين عن جُنْدُبِ بن عبد الله قال: كنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في غار فَنُكِبَتْ[٦] إِصْبَعُه، فقال:

---

(١) في السنن الكبرى: علي بن عمر. وفي بعض نسخها: عَمْرو. وهو الصواب. انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/١٩٩.
(٢) السنن الكبرى، كتاب النكاح ٧/٤٣.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/٢٧.
(٤) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٣٩٩، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤٢٧ ـ ١٤٢٨.
(٥) تقدم الحديث عند تفسير آية براءة ٣٥، وخرجناه هنالك.
(٦) النَّكبة: أن يصيب العضو شيء فيدميه.

هَـلْ أَنْـتِ إِلاَّ إِصْبَـعٌ دَمِـيـتِ وفـي سَبِـيـلِ الله مَـا لَقِـيتِ[١]

وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِلا اللَّمَمَ﴾[٢] إنشادُ:

إن تَغْفِـرِ اللَّهُمَّ تَـغْفِـرْ جَمَّـا وَأَيُّ عَـبْـدٍ لَـكَ مَـا أَلَـمَّـا

وكل هذا لا ينافي كونه - ﷺ - ما عُلِّم شعراً ولا يَنْبغِي له، فإن الله تعالى إنما عَلَّمه القرآن العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ﴾، وليس هو بشعر كما زَعَمه طائفةٌ من جَهَلَة كُفَّار قريش، ولا كَهانة، ولا مُفتعلٌ، ولا سِحْرٌ يُؤثَر، كما تنوعت فيه أقوال الضُلَّال وآراء الجُهَّال. وقد كانت سَجِيَّتُه - ﷺ - تأبى صناعةَ الشعر طبعاً وشرعاً، كما رواه أبو داود قال:

حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر، حدثنا عبدُ الله بن يزيد[٣]، حدثنا سَعِيد بن أبي أيوب، حدثنا شُرَحبيلُ بن يزيد المَعَافري، عن عبد الرحمٰن بن رافع التَّنُوخي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما أبالي ما أَتَيْتُ إن أنا شَرِبت تِرْياقاً، أو تَعَلَّقتُ تَمِيمَةً، أو قُلت الشِّعر من قِبَلِ نفسي»[٤]. تفرد به أبو داود.

وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، عن الأَسْوَدِ بن شَيبان، عن أبي نَوْفل قال: سألتُ عائشةَ: أكان رسولُ الله - ﷺ - يُتَسامَع عنده الشعرُ؟ فقالت: كان أبغض الحديثِ إليه. وقال عن عائشة: كان رسولَ الله - ﷺ - يُعجِبه الجَوَامع من الدعاء، ويَدَع ما بين ذلك[٥].

وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ -: «لأن يمتلىء جَوفُ أَحدِكم قَيحاً خير له من أن يَمْتَلىءَ شِعراً»[٦].

تَفَرَّد به من هذا الوجه، وإسنادُه على شرط الشَّيخين، ولم يُخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيد الباهلي، عن عاصم بن مَخْلد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وَحَدَّثنا الأشيبُ فقال: عن ابن عاصمٍ، عن أبي الأشعثِ، عن شَدّاد بن أوس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «من قَرَض بيت شعر بعد العشاءِ الآخرةِ لم تُقبَل له صلاةُ تلك الليلةِ»[٧].

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكُتُب السِّتةِ. والمراد بذلك نَظْمُه لا إنشادُه، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروعٌ، وهو هجاءُ المشركين الذي كان يَتَعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحة، وأمثالِهم وأضرابِهم، رضي الله عنهم أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظُ وآدابٌ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أُميَّة بن أبي الصَّلْتِ الذي قال فيه

---

(١) أخرجاه في كتاب الجهاد، فتح الباري ١٩/٦، ومسلم ١٤٢١/٣.

(٢) الآية ٣٢ من سورة النجم.

(٣) في النسخ: عبد الله بن سويد. وهو تحريف. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٣٥٨/٦.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الطب ٦/٤. والتِّرياق: ما يستعمل لدفع السُّم من الأدوية.

(٥) مسند الإمام أحمد ١٤٨/٦.

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء، وخرجناه هنالك من رواية الشيخين بإسنادهما إلى الأعمش. والحديث في سنن أبي داود، كتاب الأدب ٣٠٢/٤.

(٧) مسند الإمام أحمد ١٢٥/٤.

النبي - ﷺ - : «آمنَ شعرُه وكَفَر قلبُه»(١). وقد أنشد بعض الصحابة للنبي ﷺ منه مائة بيت، يقول عقب كل بيت: «هيه»، يعني يَسْتطعِمُه، فيزيده من ذلك(٢).

وقد رَوَى أبو داود من حديث أُبَيِّ بن كعب، وبُريدة بن الحُصَيب، وعبدِ الله بن عباس: أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنَّ من البيانِ سِحراً، وإن من الشعر حُكْماً»(٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿وما علَّمناه الشعرَ﴾، يعني: محمداً - ﷺ - ما علمه الله شعراً، ﴿وما ينْبَغِي له﴾، أي: وما يصلح له، ﴿إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ﴾، أي: ما هذا الذي علمناه إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ، أي: بَيِّنٌ واضحٌ جليٌ لمن تأمَّلَهُ وتدبَّره. ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ مَن كان حَيّاً﴾، أي: لينذر هذا القرآن البيِّن كلَّ حَيٍّ على وجه الأرض، كقوله تعالى: ﴿لأنذرَكُم به ومَن بَلَغ﴾، وقال: ﴿ومن يكفُر به من الأحزابِ فالنارُ موعدُه﴾. وإنما ينتفع بِنذارتِهِ مَن هو حَيّ القلبِ، مُستَنِير البَصِيرَةِ، كما قال قتادةُ: حَيّ القلبِ، حيّ البَصَرِ. وقال الضحاك: يعني عاقلاً. ﴿ويحق القول على الكافرين﴾، أي: هو رحمةٌ للمؤمن، وحُجَّةٌ على الكافر.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يذكرُ تعالى ما أنعَمَ به على خَلْقِه من هذه الأنعام التي سَخَّرها لهم، ﴿فهم لها مَالِكُون﴾ - قال قتادة: مُطيقُون: أي: جعَلهم يقهرونها وهي ذَلِيلَةٌ لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صَغيرٌ إلى بَعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليلٌ منقاد معَه. وكذا لو كان القطارُ مائةَ بعيرٍ أو أكثر، لسار الجميع بسيرِ صغيرٍ.

وقولُه: ﴿فمنها ركُوبُهم ومنها يأكلون﴾، أي: منها ما يَرْكَبون في الأسفار، ويَحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿ومنها يأكلون﴾، إذا شاؤوا نَحروا واجتَزَروا، ﴿ولهم فيها منافعُ﴾، أي: ﴿من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾، ﴿ومشارِبُ﴾، أي: من ألبانها وأبوالها لمن يَتداوى، ونحو ذلك: ﴿أفلا يَشكُرونَ﴾، أي: أفلا يُوحِّدُوه خالِقَ ذلك ومُسَخِّره، ولا يُشركون به غَيْرَه؟!

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول تعالى مُنكِراً على المشركين في اتِّخاذهم الأندادَ آلهةً مع الله، يبتغون بذلك أن تنصُرَهم تلك الآلهة وتَرْزُقَهم وتُقرِّبَهم إلى الله زُلْفَى. قال الله تعالى: ﴿لا يستطيعُون نَصْرَهم﴾، أي: لا تقدر الآلهة على نَصْر عابديها، بل هي أضعفُ من ذلك وأقلُّ وأذلُّ وأحقرُ وأدحَرُ، بل لا تقدرُ على الانتصارِ لأنفسها، ولا الانتقامِ مِمَّن أرادها بسوءٍ، لأنها جمادٌ لا تسمعُ ولا تعقِلُ.

(١) أخرجه ابن الأنباري في كتابه الردّ، عن عكرمة، عن ابن عباس. انظر تفسير القرطبي ١٥/٦٣، ٧/٣٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الشعر من صحيحه ٤/١٧٦٧، والترمذي في الشمائل، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه في كتاب الأدب ٢/١٢٣٦.
ويستطعمه: يستزيده.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٠٣.

وقولَه: ﴿وهم لهم جندٌ مُحضرون﴾، قال مجاهد، يعني عند الحساب. يُريد أنَّ هذه الأصنام محشورةٌ مجموعةٌ يوم القيامة، مُحْضَرَةٌ عند حساب عابديها، ليكونَ ذلك أبلغ في خِزْيِهم، وأدلَّ عليهم في إقامة الحُجَّة عليهم.

وقال قتادةُ: ﴿لا يستطيعون نَصْرَهم﴾، يعني الآلهة، ﴿وهم لهم جُندٌ مُحضَرون﴾، والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوقُ إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سُوءاً، إنما هي أصنام.

وهكذا قال الحسنُ البصري: وهذا القولُ حَسَنٌ، وهو اختيارُ ابن جَرِيرٍ رحمه الله[1].

وقولُهُ: ﴿فلا يَحزُنك قولُهم﴾، أي: تكذيبهم لك وكفرهُم بالله، ﴿إنا نعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنُونَ﴾، أي: نحن نعلَمُ جميعَ ما هم عليه، وسَنجزيهم وصْفَهم ونعامِلُهم على ذلك، يوم لا يَفْقِدُون من أعمالهم جَلِيلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يُعرَض عليهم جميعُ ما كانوا يعمَلُون قديماً وحديثاً.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، وعروةُ بن الزبير، والسُّدِّي، وقتادةُ: جاء أُبَيُّ بن خَلَفٍ ـ لعنه الله ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفي يده عظم رميم وهو يَفتّه ويذرُوه في الهواء، وهو يقول: يا محمدُ، أتزعمُ أن الله يبعثُ هذا؟ فقال: «نعم، يُميتك الله تعالى، ثم يَبعثُك، ثم يحشُرك إلى النار». ونزَلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿أوَ لم ير الإنسان أنَّا خلقناه من نطفة﴾... إلى آخرهن.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عثمان بن سَعيد الزيات، عن هُشَيم، عن أبي بشر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنَّ العاصي بن وائل أخَذَ عَظْماً من البَطْحاءِ فَفَتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: أيحيي الله تعالى هذا بعدَ ما أرَى؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نعم، يُميتُك الله ثم يُحييك، ثم يُدخِلُك جهَنَّم». قال: ونزَلت الآياتُ من آخِر «يس».

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن هُشَيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، فذكره ولم يذكر «ابن عباس»[2].

وروَى من طريق العَوفي، عن ابن عباس أنه قال: جاء عبدُ الله بن أُبَي بِعَظْمٍ فَفَتَّه. وذَكر نحوَ ما تقدم.

وهذا منكر، لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي ابن سَلُولَ إنما كان بالمدينة. وعلى كلٍ تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أُبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامَّة في كلِّ من أنكر البعث، والألف واللام في قوله: ﴿أوَ لم ير الإنسان﴾ للجنس، يَعُمُّ، لكلِّ منكرٍ للبعثِ.

﴿أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خَصِيم مبين﴾، أي: أوَ لم يستدلَّ مَن أنكر البعثَ بالبدء على الإعادة، فإن

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/٢٩ ـ ٣٠.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٣٠ ـ ٣١.

الله ابتدأ خلق الإنسان من سُلَالَةٍ من ماء مَهِين، فخلقه من شيءٍ حَقِيرٍ ضعيفٍ مَهِين، كما قال تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مَهِينٍ * فجعلناه في قرارٍ مكينٍ * إلى قدرٍ معلوم﴾. وقال: ﴿إنا خلقنا الإنسانَ من نُطفة أمشاجٍ نَبْتَليه﴾، أي: من نطفه من أخلاطٍ مُتفرِّقةٍ فالذي خلقه من هذه النطفة الضَّعيفة أليس بقادرٍ على إعادَتِهِ بعد موته، كما قال الإمام أحمد في مُسنَدِه:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا حَرِيز، حدثني عبد الرحمٰن بن مَيْسَرَة، عن جُبَير بن نُفَير، عن بُسْرِ بن جِحَاشٍ أن رسول الله - ﷺ - بَصَقَ يوماً في كفه، فَوَضَعَ عليها إصبعه، ثم قال: قال الله تعالى: بُنَيَّ آدَم، أنَّى تُعْجِزُني وقد خلقتُك من مثلِ هذه، حتى إذا سَوَّيتك وعَدَلْتُكَ، مَشَيت بين بُرْدَيكَ وللأرضِ منك وَئِيدٌ، فَجَمعت ومنعت، حتى إذا بَلَغَتِ التَّراقي قلت: «أتَصَدَّقُ» وأنَّى أوانُ الصَّدَقَة[1]؟!

ورواه ابنُ ماجه عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن يزيدَ بن هارونَ، عن حَرِيز بن عُثمان، به[1].

ولهذا قال: ﴿وَضَرَبَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال مَن يُحيي العِظَامَ وهي رَمِيمٌ﴾، أي: استبعَدَ إعادَةَ الله تعالى - ذي القدرةِ العظيمةِ التي خَلَقَت السمواتِ والأرضَ - للأجساد والعظام الرَّمِيمَةِ، ونَسِيَ نفسه، وأن الله خَلَقَهُ من العَدَمِ، فعلم من نفسه ما هو أعظَمُ مما استبعده وأنكرَهُ وجَحَدَهُ، ولهذا قال تعالى: ﴿قل يُحيِيها الذي أنشأَهَا أوَّل مَرَّةٍ وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عليم﴾، أي: يعلم العظامَ في سائرِ أقطارِ الأرضِ وأرجائِها، أين ذَهَبَت، وأين تَفَرَّقَت وتَمَزَّقَت؟

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عَفَّان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن رِبْعِيٍّ قال: قال عقبة بن عمرو لحُذَيْفَةَ: ألا تحدثُنا ما سَمِعت من رَسُولِ الله ﷺ؟ فقال: سَمِعتُه يقول: «إنَّ رجلاً حَضَره الموتُ، فلما أَيِسَ من الحياةِ أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمَعُوا لي حَطَباً كثيراً جَزْلاً، ثم أوقِدُوا فيه ناراً، حتى إذا أكَلَتْ لحمي وخَلَصَتْ إلى عَظْمِي فامتُحِشْتُ، فَخُذوها فَذَرُّوها في اليم. فَفعلوا، فَجمعه الله إليه فقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خَشْيَتِك. فغفر الله له. فقال عقبةُ بن عَمرو: وأنا سَمِعته يقول ذلك. وكان نَبَّاشاً[2].

وقد أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الملك بن عمير، بألفاظ كثيرة، منها: أنه أمر بَنِيه أن يحرقوه ثم يَسْحقوه، ثم يُذَرُّوا نِصفَه في البر ونِصفَه في البحر، في يومٍ رائحٍ، أي: كثير الهواء. ففعلوا ذلك، فأمر الله البحرَ فَجمَعَ ما فيه، وأمر البرَّ فَجمَعَ ما فيه، ثم قال له: كُن. فإذا هو رجلٌ قائمٌ. فقال له: ما حَمَلَك على ما صنعتَ؟ فقال: مخافتُك وأنتَ أعلم. فما تلافاه أن غفر له[3].

وقوله ﴿الذي جَعَلَ لكم من الشَّجَرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون﴾، أي: الذي بدأ خَلْقَ هذا الشجر من ماءٍ حتى صار خضراً نضراً ذا ثَمَر ويَنْع[4]، ثم أعاده إلى أن صارَ حَطَباً يابساً، تُوقَدُ بها النارُ، كذلك هو فَعَّالٌ لما يَشاء، قادرٌ على ما يُريد، لا يمنعه شيءٌ.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢١٠، وسنن ابن ماجه، كتاب الوصايا ٢/٩٠٣. والوئِيدُ: صوتُ شدَّةِ الوطء على الأرض، ويسمع كالدويّ من بعيد.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٣٩٥.

والحطب الجَزْل: القوي الغليظ. والمَحْشُ: احتراق الجلد وظهور العظم.

(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٩٤، ٥١٤، وكتاب الرقاق ١١/٣١٢، ولم يقع لنا في مسلم من هذه الطريق. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٣/٢٧.

(٤) أي: ونُضْج.

قال قتادةُ في قوله: ﴿الذي جَعَلَ لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون﴾، يقول: الذي أخرجَ هذه النارَ من هذا الشجرِ قادرٌ أن يَبْعثه.

وقيل: المراد بذلك سَرْحُ[1] المَرْخِ والعَفَار، ينبت في أرضِ الحجاز، فيأتي مَن أراد قَدْحَ نارٍ وليس معه زِنادٌ، فيأخذ منه عُودَين أخضرين، ويقدَحُ[2] أحدهما بالآخرِ، فتتولَّد النار من بينهما، كالزِّنادِ سَواءً. رُوِيَ هذا عن ابن عباسَ رضي الله عنهما. [وفي المثل][3]: «لكلِّ شَجرٍ نارٌ، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ»[4]. وقال الحكماء: في كلِّ شجرٍ نارٌ إلا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى مُنَبِّهاً على قُدْرَتِهِ العظيمة في خَلْقِ السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثَّوابت، والأرضين السبع وما فيها من جِبالٍ ورمالٍ، وبحارٍ وقِفارٍ، وما بين ذلك، ومُرشداً إلى الاستدلال على إعادةِ الأجسادِ بخلقِ هذه الأشياء العظيمةِ، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ﴾. وقال هاهنا: ﴿أوَ ليسَ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مِثْلَهم﴾، أي: مثل البَشَر، فيُعيدَهم كما بَدَأهم. قاله ابنُ جرير[5].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أوَ لم يَرَوا أن الله الذي خَلَقَ السمواتِ والأرض ولم يَعْيَ بخلقِهِنَّ بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى بلى إنه على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾. وقال هاهنا: ﴿بلى وهو الخلَّاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكونُ﴾، أي: إنما يأمر بالشي أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرر[6]:

إذَا مَـا أَرَادَ اللهُ أَمْـراً فَـإِنَّـمَـا ... يَقُـولُ لَـهُ «كُنْ» قَـوْلَـةً فَيَكُـونُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَير، حدثنا مُوسَى بن المُسَيَّب، عن شَهْرٍ، عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله يقول: يا عبادي، كُلُّكم مذنبٌ إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلُّكم فقيرٌ إلا مَن أغنيت، إني جَوَادٌ ماجدٌ واجدٌ أفعل ما أشاء، عطائي كلامٌ وعذابي كلامٌ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكونُ»[7].

وقولهُ: ﴿فسبحانَ الذي بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وإليه تُرجَعُونَ﴾. أي: تنزيهٌ وتقديسٌ وتبرئةٌ من السوءِ للحيِّ القيُّوم، الذي بيده مقاليدُ السموات والأرض، وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كلُّه، وله الخلقُ والأمرُ، وإليه مَرْجِعُ العبادِ يوم القيامة، فيجازى كلَّ عاملٍ بعَمَلِهِ، وهو العادلُ المنعمُ المتفضِّلُ.

---

(١) السَّرْح: شَجَرٌ عِظَامٌ طُوَالٌ.
(٢) في نسخة: فَيَحُكُّ.
(٣) مكانه في النسخ: «قال الراجز»، وهو خطأ.
(٤) مجمع الأمثال للميداني ٢/٧٤ ـ ٧٥. واستمجد المرخُ والعَفَار: استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما، لأنهما يسرعان في الوَرْي. ويضرب هذا المثل في تفضيل بعض الشيء على بعض.
(٥) تفسير الطبري ٢٣/٣٢.
(٦) تقدم البيت عند تفسير آية البقرة ١١٧، والنحل ٤٠.
(٧) مسند الإمام أحمد ٥/١٧٧.

ومعنى قولِهِ: ﴿فسبحانَ الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ﴾ كقوله عز وجل: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾، وكقوله تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾، فالملك والمَلَكوتُ واحد في المعنى، كرحمة ورَحَمُوت، ورَهْبَة ورَهَبُوت، وجَبْر وجَبَرُوت. ومن الناس مَن زَعَمَ أن المُلْك هو عالم الأجسادِ، والمَلَكُوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسِّرين وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج بن النُعمان، حدثنا حَمَّاد، عن عبد الملك بن عُمَير، حدثني ابن عَمٍّ لحُذَيْفَةَ، عن حُذيفة ـ وهو ابنُ اليَمانِ، رَضِيَ اللهُ عنه ـ قال: «قُمتُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ ذات ليلةٍ، فقرأ السبعَ الطُّوَلَ في سبع ركعات، وكان إذا رَفَعَ رأسه من الرُكُوع قال: سَمع الله لمن حمده. ثم قال: «الحمد لله ذي المَلَكُوتِ والجَبَروت والكبرياء والعظمة». وكان ركوعه مثلَ قيامه، وسجُوده مثلَ ركُوعه، فانصرف وقد كادت تَنْكَسِرُ رِجْلَايَ»[(١)].

وقد رَوَى أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث شُعبَةَ، عن عَمرو بنِ مُرَّة، عن أبي حَمْزة ـ مولى الأنصار ـ عن رجل من بني عَبْس، عن حذيفة: أنه رأى رسول الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي من الليل، وكان يقول: «الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو المَلَكوت والجَبَروت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركُوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سُبحانَ ربي العظيم، [سبحان ربي العظيم]». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامهُ نحواً من ركوعه، وكان يقول في قيامه: «لربي الحمد». ثم سجد. فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سُبحان رَبِّيَ الأعلى». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سُجُوده، وكان يقول: «ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي». فَصَلَّى أربعَ رَكَعَاتٍ، فقرأ فيهنَّ البقرة، وآلَ عمرانَ، والنساء، والمائدة ـ أو الأنعام ـ شَكَّ شُعبة. هذا لفظ أبي داود[(٢)].

وقال النسائي: «أبو حمزةَ عندنا طلحةُ بن يزيدَ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صِلَةَ». كذا قال، والأشبه أن يكون ابنَ عَمِّ حُذَيْفَةَ، كما تقدَّم في رواية الإمامْ أحمد والله أعلم، فأما رواية صِلَةَ بن زُفَر، عن حُذيفَةَ، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ والكبرياء والعَظَمة[(٣)].

وقال أبو داود: حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عَمرو بن قيس، عن عاصم بن حُمَيد، عن عَوف بن مالك الأشجعي قال: قمتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةً فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلا وَقَفَ فسأل، ولا يَمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قال: ثم رَكَعَ بقدر قيامِهِ، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ والكبرياء والعظمة». ثم سَجَدَ بقدرِ قيامِهِ، ثم قال في سُجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآلِ عمران، ثم قرأ سورةً سورةً[(٤)].

ورواه الترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به[(٤)].

آخر تفسير سورة يسٓ[(٥)]

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٨.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣١، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢/٢٣١. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٣/٥٧ ـ ٥٨.

(٣) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ١/٥٣٦ ـ ٥٣٧.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣١ ـ ٢٣٢. والنسائي، كتاب الصلاة ١/٢٢٣.

(٥) بعده في المخطوطة: «ولله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً. وكان ذلك ليلة السبت ثالث عشر من شهر جمادى الأول سنة تسع وستين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

تفسير

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

وهي مكية

قال النَّسائي: أخبرنا إسماعيلُ بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعني ابنَ الحارث ـ عن ابن أبي ذِئْبٍ قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمٰن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يأمرنا بالتَّخْفِيفِ، ويؤُمُّنا بالصَّافَّاتِ. تَفَرَّد به النسائي(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ ﴾

قال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مَسْروقٍ، عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رَضِيَ الله عنه ـ أنه قال: ﴿والصَّافَّاتِ صَفّاً﴾ وَهِي: الملائكةُ، ﴿فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً﴾، هي: الملائكة، ﴿فالتَّالِياتِ ذِكراً﴾، هي: الملائكةُ(٢).

وكذا قال ابن عباس، ومسروقٌ، وسعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، ومجاهد، والسُّدِّي، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس.

قال قتادةُ: الملائكةُ صفوفٌ في السَّماءِ.

وقال مسلمٌ: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن أبي مالك الأشْجَعِي، عن رِبْعِيّ، عن حُذَيفة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلت صفوفُنا كصُفوف الملائكة،

---

(١) أخرجه النَّسائيّ في كتاب الإمامة من سُنَنِه ٢/٩٥، وفي التفسير من سُنَنِه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٥/٣٥٢.

(٢) أخرجه الحاكم، وصحّحه، في كتاب التفسير، بإسناده إلى سفيان ٢/٤٢٩، وأخرجه الطبراني وغير واحد، انظر الدر المنثور ٧/٧٨.

وجُعلت لنا الأرضُ كلُّها مَسْجِداً، وجُعِلَت تُرْبَتُها لنا طَهُوراً إذا لم نجد الماء»[(١)].

وقد رَوَى مسلمٌ أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيب بن رافع، عن تميم بن طَرَفَة، عن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رَسُول الله ـ ﷺ ـ: «ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربّهم؟». قلنا: وكيف تَصفّ الملائكة عند ربِّهم؟ قال: «يُتِمُّون الصُّفوفَ المتقدِّمة ويَتَرَاصُّونَ في الصَّفِّ»[(٢)].

وقال السدِّي وغيرُه: مَعْنَى قَولِهِ: ﴿فالزاجرات زَجْراً﴾: أنَّها تزجُر السَّحاب[(٣)].

وقال الربيعُ بن أَنَسٍ: ﴿فالزَّاجراتِ زَجْراً﴾، ما زَجَرَ الله عنه في القرآن[(٤)]. وكذا رَوَى مالك، عن زيد ابن أسلم.

﴿فالتَّالِياتِ ذِكْراً﴾، قال السدِّي: الملائكةُ يَجيئُون بالكتابِ والقرآنِ من عِندالله إلى الناسِ. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فالمُلْقِياتِ ذِكْراً * عُذراً أو نُذْراً﴾.

وقولُه: ﴿إن إلٰهكم لواحدٌ﴾، هذا هو المُقسَم عليه، أنه تعالى لا إلٰه إلا هُوَ ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما﴾، أي: من المخلوقات، ﴿وربُّ المشارق﴾، أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتَسْخيره بما فيه من كَواكِبَ ثَوابِتَ، وسَيَّارات تبدُو من المشرق، وتَغرُب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صَرَّح بذلك في قوله: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿ربُّ المشرِقَين وربُّ المغربَين﴾، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾

يُخبر تعالى أنه زَيَّن السماءَ الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بزينةِ الكواكب﴾ قُرِيء بالإِضافةِ وبالبَدَلِ[(٥)]، وكلاهما بمعنىً واحدٍ. فالكواكبُ السَّيَّارةُ والثوابتُ يَثْقُب ضَوؤها جُرْمَ السماء الشفَّافِ، فَتَضِيءُ لأهلِ الأرض، كما قال تعالى: ﴿ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وَجَعلناها رُجُوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذابَ السَّعِير﴾. وقال: ﴿ولقد جَعلنا في السماءِ بُروجاً وزَيَّنّاها للناظِرينَ * وحَفِظْناها من كُلِّ شيطانٍ رَجيمٍ * إلا مَن استرَقَ السمعَ فأتْبَعه شِهابٌ مُبين﴾.

وقوله ها هنا: ﴿وحِفظاً﴾، تقديره: وحَفظناها حفظاً، ﴿من كلِّ شيطانٍ ماردٍ﴾، يعني: المتمرِّد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهابٌ ثاقِبٌ فأحرقه، ولهذا قال: ﴿لا يَسَّمَّعُون إلى المَلَإِ الأعلى﴾، أي: لِئلّا يَصِلُوا إلى الملإِ الأعلى، وهي السموات وَمَن فيها من الملائكة، إذا تَكَلَّمُوا بما يوحيه الله مما يقولُه من شَرعه وقَدَره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربُّكم

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٤٣ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.

(٢) تقدّم الحديث أيضاً في ختام سورة الأعراف، وخرجناه هنالك.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/٣٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٧/٧٨.

(٥) قرأ عاصم وحمزة (بزينةٍ)، بالتنوين، وإبدال الكواكب. وقرأ الباقون من السبعة بالإضافة، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٤٥.

قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ﴾(١). ولهذا قال: ﴿ويُقذَفُون﴾، أي: يُرمونَ ﴿من كلِّ جانبٍ﴾، أي: من كلِّ جهةٍ يَقْصِدُون السماءَ منها، ﴿دُحوراً﴾، أي: رَجْماً يُدحَرُون به ويُزْجَرُون، ويُمنَعُون من الوصُولِ إلى ذلك ﴿ولهم عذابٌ وَاصِبٌ﴾، أي: في الدار الآخرةِ لهم عذاب دائم مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌ، كما قال: ﴿وأعتدنا لهم عَذابَ السَّعيرِ﴾.

وقولُه: ﴿إلَّا مَن خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾، أي: إلا من اختطف من الشياطين الخَطْفَةَ، وهي الكلمة يَسمَعُها من السَّماء فَيُلقيها إلى الذي تحته، ويُلقيها الآخر إلى الذي تحته، فرُبَّما أدركه الشهاب قبل أن يُلقيها، ورُبَّما ألقاها بقَدَرِ الله قبل أن يأتيه الشهابُ فيُحرقَهُ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تَقَدَّم في الحديث. ولهذا قال: ﴿إلا مَن خَطِفَ الخطفةَ فأتبعه شهاب ثاقب﴾، أي: مستنير.

قال ابن جرير: حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدثنا وَكيع، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعدُ في السَّماء قال: فكانوا يَستَمِعون الوحيَ. قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطيـنُ لا تُرْمى. قال: فإذا سَمِعوا الوحيَ نَزَلُوا إلى الأرض، فزادُوا في الكَلِمَة تِسعاً. قال: فلما بُعِثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ جعلَ الشيطان إذا قَعَدَ مَقْعَدَه جاء شهابٌ فلم يُخْطِهِ حتى يُحرِقَه. قال: فَشكَوا ذلك إلى إبليسَ، فقال: ما هو إلا من أَمْرٍ حَدَثَ. قال: فَبَثَّ جنودَه فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ قائمٌ يصلي بين جَبَلَيْ نخلة ـ قال: وَكِيعٌ: يعني بَطْنَ نخلة ـ قال: فرجعُوا إلى إبليس فأخبرُوه، فقال: هذا الذي حدث(٢).

وستأتي الأحاديثُ الواردةُ مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجنِّ أنهم قالوا: ﴿وأَنَّا لمسنا السماءَ فَوَجدناها مُلِئَت حَرَساً شَديداً وشُهُباً * وأَنَّا كُنَّا نقعُد منها مقاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يجد له شهاباً رَصَداً * وأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض أم أراد بهم رَبُّهم رَشَداً﴾(٣).

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: فَسَلْ هؤلاء المُنْكِرين للبعث: أَيُّما أشدُّ خَلْقاً هم أم السمواتُ والأرضُ، وما بينهما من الملائكةِ والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود: «أم من عَدَدْنا»(٤) ـ فإنهم يُقِرُّون أن هذه المخلوقات أشدُّ خلقاً منهم، وإذا كان الأمرُ كذلكَ فَلِمَ يُنْكِرُونَ البعثَ، وهم يُشاهِدُون ما هو أعظمُ مما أنكروا؟ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناس ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُون﴾.

ثم بَيَّن أنهم خُلِقوا من شيءٍ ضعيفٍ، فقال: ﴿إنَّا خَلَقناهم مِن طِينٍ لازِبٍ﴾، قال مجاهد، وسَعيد بن جُبَير، والضحاك: هو الجَيِّدُ الذي يلتزق بعضُه ببعضٍ. وقال ابن عباس، وعِكرِمةُ: هو اللَّزِجُ. وقال قتادةُ: هو الذي يَلْزَقُ باليدِ.

(١) انظر تفسير الآية ٢٣ من سورة سبأ.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/٣٦. وبطن نَخْلَة: قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة.
(٣) انظر فيما يأتي تفسير الآيات ٨ ـ ١٠ من سورة الجن.
(٤) أخرج هذه القراءة الطبري ٢٣/٤١، والألوسي ٢٣/٧٥.

وقولُه: ﴿بل عَجِبتَ ويَسخَرُونَ﴾، أي: بل عَجِبْتَ ـ يا محمدُ ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعثِ، وأنت مُوقِنٌ مُصَدِّق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادةُ الأجسام بعد فنائِها. وهم بخلافِ أمرك، من شِدَّةِ تكذيبهم يَسخَرُونَ مما تقولُ لهم من ذلك. قال قتادةُ: عَجِبَ محمد ـ ﷺ ـ وسَخِرَ ضُلَّال بني آدم.

﴿وإذا رَأَوا آيةً﴾، أي: دلالةً واضحةً على ذلك، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾، قال مجاهد، وقتادةُ: يستهزئون.

﴿وقالوا إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبينٌ﴾، أي: إنْ هذا الذي جئْتَ به إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ، ﴿أئذا متنا وكُنَّا تراباً وعِظَاماً أئنَّا لمبعوثون * أوَآباؤنـا الأوَّلونَ﴾، يَسْتَبعِدُون ذلك ويُكَذِّبون به، ﴿قُل نَعم وأنتم دَاخِرُون﴾، أي: قل لهم يا محمد: نَعم تُبعَثُون يومَ القيامة بعدما تَصيرون تُراباً وعِظَاماً، ﴿وأنتم دَاخِرُونَ﴾، أي: حَقِيرون تحت القُدرة العَظِيمة. كما قال تعالى: ﴿وكلٌ أتَوه داخِرِينَ﴾. وقال: ﴿إن الذينَ يستكبِرُون عن عبادَتي سَيدخُلون جهَنَّم داخِرِينَ﴾.

ثم قال: ﴿فإنَّما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ فإذا هم ينظرونَ﴾، أي: إنما هو أمرٌ واحدٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يدعُوهم دعوةً أن يخرجُوا من الأرضِ، فإذا هُم بينَ يَدَيه، ينظرون إلى أهوالِ يوم القيامةِ.

﴿ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾

يخبرُ تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنَّهم يرجعون على أنفسهم بالمَلامَةِ، ويعترفون بأنهم كانوا ظَالِمين لأنفُسِهم في الدار الدنيا، فإذا عاينُوا أهوالَ القيامة نَدِمُوا كلَّ الندم حيثُ لا ينفَعُهم الندمُ، ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يومُ الدِّين﴾، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هذا يومُ الفصلِ الذي كنتُم به تُكَذِّبون﴾. وهذا يقال لهم على وجهِ التقريع والتوبيخ، ويأمرُ الله الملائكة أن تُميز الكفار من المؤمنين في الموقف في مَحْشَرهم ومَنْشَرهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجَهم﴾، قال النعمان بن بشير، ـ رضي الله عنه ـ: يعني بأزواجِهم أشباهَهم وأمثالَهم. وكذا قال ابنُ عباسٍ، وسَعِيد بن جُبَير، وعِكْرِمَةُ ومجاهدٌ، والسُّدِّي، وأبو صالحٍ، وأبو العاليةِ، وزيدُ بن أسلم.

وقال سُفيان الثَّوري، عن سِماكٍ، عن النعمان بن بَشِير، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، قال: إخوانهم[(١)].

وقال شَرِيكٌ، عن سِماكٍ، عن النُّعمان قال: سَمِعتُ عُمَر يقول: «احشروا الذين ظلموا وأزواجَهم»، قال: أشباهَهم. قال: يجيء صاحبُ الرِّبا مع أصحاب الربا، وصاحبُ الزنا مع أصحاب الزنا. وصاحبُ الخمر مع أصحابِ الخَمر.

وقال خُصَيف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: أزواجُهم: نساؤُهم. وهذا غريبٌ، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جُبَير، عنه: أزواجهم: قُرَناؤهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير ٢/٤٣٠، بإسناده إلى سِماكٍ، ولفظه: أمثالهم الذين هم مثلهم، كما أخرجه غير واحدٍ، الدر المنثور ٨٢/٧.

﴿وما كانوا يعبدُون من دون الله﴾، أي: من الأصنام والأنداد، تُحشَر معهم في أماكنهم.

وقولُه: ﴿فاهدُوهم إلى صراط الجَحيم﴾، أي: أرْشِدُوهم إلى طريق جَهَنَّم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ونَحشُرهم يوم القيامة على وُجُوههم عُمياً وبُكماً وصُماً مأواهم جَهَنَّمُ كلما خَبَت زدناهم سَعِيراً﴾.

وقولُهُ: ﴿وَقِفُوهم إنهم مَسْئولـون﴾، أي: قِفوهُم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالِهم التي صَدَرت عنهم في الدارِ الدنيا، كما قال الضحَّاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهُم إنهم مُحاسَبون.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا النُّفيلي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سَمِعت ليثاً يُحدِّث عن بشرٍ، عن أنس بـن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أيما داعٍ دعا إلى شيءٍ كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادِرُه ولا يُفارقه، وإن دعا رجلٌ رجلاً». ثم قرأ: ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾.

ورواه الترمذي، من حديث ليث بن أبي سليم. ورواه ابنُ جَرِيرٍ، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعاً[1].

وقال عبد الله بن المبارك: سَمِعت عُثمان بن زَائِدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجلُ جُلَساؤه. ثم يُقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿ما لكم لا تناصَرُون﴾. أي: كما زعمتُم أنكم جميعٌ مُنْتَصِرٌ، ﴿بل هم اليوم مُسْتَسْلِمون﴾، أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يذكرُ تعالى أن الكفار يتلاوَمُون في عَرَصاتِ القيامةِ، كما يتخاصَمُون في دَرَكات النار، ﴿فيقول الضُّعَفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مُغنون عنا نَصِيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيها إن الله قد حَكَم بين العِبَاد﴾. وقال: ﴿ولو تَرَى إذِ الظالمون موقوفُون عند ربِّهم يَرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ يقول الذين استُضعفُوا للذين استكبَرُوا لولا أنتم لَكُنَّا مؤمنين * قال الذين استكبَرُوا للذين استُضعِفُوا أنَحن صَدَدناكم عن الهُدَى بعد إذ جاءكم بل كُنتُم مجرمين * وقال الذين استُضعِفُوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمرونَنا أن نكفُرَ بالله ونجعلَ له أنـداداً وأسرُّوا الندامَةَ لما رأَوا العذاب وجَعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يُجزَون إلا ما كانوا يعمَلُون﴾. وهكذا قالوا لهم ها هنا: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليَمِين﴾، قال الضحَّاك، عن ابن عباسٍ: يقولون: كنتُم تَقهَرُوننا بالقُدرة منكم علينا، لأنا كنَّا أذلاَّءَ وكنتُم أعزَّاء. وقال مجاهد: يعني عن الحقِّ، الكفارُ تقوله للشياطين. وقال قتادةُ: قالت الإنسُ للجنِّ: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾. قال: من قِبَل الخَير، فتنهَونا عنه وتُبَطِّئونا عنه. وقال السُّديّ: تأتوننا من قِبَلِ الحق، تُزَيِّنون لنا الباطِلَ، وتَصُدُّونا عن الحق. وقال الحسن في قوله: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، إيْ - واللهِ - يأتيه عند كلِّ خيرٍ يُريده فيَصُدُّه عنه. وقال

(١) عارضة الأحوذي، كتاب التفسير ١٠٨/١٢، وتفسير الطبري ٤٨/٢٣، كما أخرجه الحاكم في كتاب التفسير بإسناده إلى المعتمر ٤٣٠/٢.

ابنُ زيدٍ: معناه تَحُولون بيننا وبين الخير، وَرَددتُمونا عن الإسلام والإيمانِ والعَمَل بالخير الذي أُمِرْنا به. وقال يزيد الرِّشْك: من قِبَلِ «لا إلّه إلا الله». وقال خُصَيف: يعنُون من قبل مَيامِنِهم. وقال عِكْرِمة: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال: من حيث نأْمَنُكم.

وقولهُ: ﴿قالوا بل لم تكونُوا مؤمنين﴾، تقولُ القادةُ من الجنِّ والإنسِ للأتباع: ما الأمرُ كما تزعمُون؟ بل كانت قلوبُكُم منكرةً للإيمان، قابلةً للكُفر [والعصيان]، ﴿وما كان لنا عليكُم من سُلطانٍ﴾، أي: من حُجَّةٍ على صحَّةِ ما دعوناكم إليه، ﴿بل كنتُم قوماً طاغين﴾، أي: بل كان فيكم طغيانٌ ومجاوَزَةٌ للحقِّ، فلهذا استجبتم لنا وتركتُم الحقَّ الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحُجَجَ على صِحَّةِ ما جاءوكم به، فخالفتُموهم.

﴿فَحَقَّ علينا قولُ ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حَقَّت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين العذابَ يوم القيامة، ﴿فأغويناكم﴾، أي: دعوناكُم إلى الضلالة، ﴿إنا كنا غاوين﴾، أي: دَعَوناكم إلى ما نحنِ فيه، فاستجبتُم لنا. قال الله تعالى: ﴿فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون﴾، أي: الجميعُ في النار، كُلٌّ بحَسَبِهِ، ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانُوا﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿إذا قِيلَ لهم لا إلّه إلا الله يستكبرونَ﴾، أي: يَستكبِرُون أن يقولُوها، كما يقولُها المؤمنون.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخي ابن وَهْب، حدثنا عَمِّي، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعني عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شِهَاب، عن سعيد بن المُسَيب، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولُوا: لا إلّه إلا الله. فمن قال: لا إلّه إلا الله، فقد عَصَم مِنّي ماله ونَفسَه إلا بحقِّه، وحسابُه على الله». وأنزلَ الله في كتابه ـ وذَكَرَ قوماً استكبروا ـ فقال: ﴿ إنَّهم كانُوا إذا قيلَ لهم لا إلّه إلا الله يَستكبِرُونَ ﴾.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي العلاء[1] قال: يُؤتَى باليهود يوم القيامة فَيُقال لهم: ما كنتم تعبدُون؟ فيقولون: الله وعُزَيراً. فيقال لهم: خُذوا ذات الشمال. ثم يُؤتى بالنصارى فَيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبدُ الله والمسيحَ. فَيُقال لهم: خُذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فَيُقال لهم: «لا إلّه إلا الله»، فيستكبرونَ. ثم يقال لهم: «لا إلّه إلا الله»، فيستكبرونَ. ثم يقال لهم «لا إلّه إلا الله» فيستكبرون. فَيُقال لهم: خُذوا ذات الشمال. قال أبو نَضْرَة: فينطلقون أسرع من الطير. قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبُد الله. فَيُقال لهم: هل تَعْرِفُونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فَيَتَعَرَّف لهم تبارك وتعالى، ويُنَجِّي الله المؤمنين.

﴿ويقولُون أئِنَّا لتاركُوا آلهتنا لشاعِرٍ مجنُونٍ﴾، أي: أنحن نتركُ عبادة آلِهتنا وآلِهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟ يعنون رسول الله ﷺ! قال الله تعالى تكذيباً لهم، وَرَدّاً عليهم: ﴿بل جاء بالحقِّ﴾، يعني رسول الله ـ ﷺ ـ جاء بالحق في جميع شِرْعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وصَدَّقَ المُرسَلين﴾، أي: صدَّقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة. وأخبر عن الله في شَرْعه وأمره كما أخبروا، ﴿ما يُقالُ لكَ إلا ما قد قِيلَ للرسُلِ من قبلك﴾... الآية.

---

(١) هو يزيد بن عبد الله بن الشِّخّير العامري. روى عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة. انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٢٧٤.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً للناس: ﴿إنكُم لذائِقوا العذابِ الأليمِ * وما تُجزون إلا ما كنتُم تعملُون﴾. ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿والعصر * إن الإنسانَ لفي خُسرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وقال: ﴿لقد خلَقنا الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ * ثم رَددناه أسفلَ سافلين * إلا الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحات﴾. وقال: ﴿وإن منكم إلا واردُها كان على ربك حتماً مقضِياً * ثم نُنجِّي الذين اتقوا ونَذَر الظالمين فيها جثياً﴾. وقال: ﴿كلُّ نفْسٍ بما كسبت رَهِينةٌ * إلا أصحابَ اليمين﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿إلا عبادَ الله المخلصين﴾، أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يُناقَشُون في الحساب، بل يُتَجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئاتٌ، ويُجزَون الحسنةَ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقولُه: ﴿أولئك لهم رزقٌ معلومٌ﴾. قال قتادةُ، والسُدِّي: يعني الجنة. ثم فَسَّره بقوله تعالى: ﴿فَواكِهُ﴾، أي: متنوعة ﴿وهم مُكرمُون﴾، أي: يُخدَمون ويُرَفَّهون ويُنَعَّمون، ﴿في جَنَّاتِ النعيم * على سُرُرٍ متقابلين﴾. قال مجاهد: لا ينظُر بعضهم في قَفَا بعض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عَبْدَك القَزْويني، حدثنا حَسَّان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بَشير، حدثنا يحيى بن معين[1] حدثنا إبراهيم القُرَشي، عن سعيد بن شُرَحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خَرَج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فتلا هذه الآية: ﴿على سُرُر متقابلين﴾، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ. حديث غريب.

وقولُه: ﴿يُطاف عليهم بكأس من مَعينٍ * بيضاءَ لذَّةٍ للشاربين * لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزَفُون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يطوفُ عليهم ولدانٌ مُخلَّدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معينٍ * لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفُون﴾ فَنزَّه الله خمرَ الآخرة عن الآفات التي في خَمرِ الدنيا، من صُداع الرأس وَوَجع البطن ـ وهو الغَوْلُ ـ وذَهابها بالعقل جُملَةً، فقال ها هنا: ﴿يُطافُ عليهم بكأسٍ من مَعِينٍ﴾، أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعَها ولا فَراغَها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمرٍ جاريةٍ بيضاءَ. أي: لونُها مشرق حَسَنٌ بَهِيٌّ لا كَخَمْرِ الدنيا في منظرها البشع الرديءِ، من حُمْرَةٍ أو سَوَادٍ أو اصفرارٍ أو كُدُورَةٍ، إلى غير ذلك مما يُنَفِّر الطبع السَليم.

وقولُه: ﴿لَذَّةٍ للشاربين﴾، أي: طعمُها طَيِّب كلونها، وطِيبُ الطعم دليلٌ على طِيبِ الريحِ، بخلاف خمرِ الدنيا في جميع ذلك.

وقولُه: ﴿لا فيها غولٌ﴾، يعني: لا تؤثر فيهم غَوْلاً ـ وهو وَجَعُ البطن. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْجِ[2] ونحوه، لكثرة مائيتها.

---

(١) كذا، ومثله في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم في ترجمة إبراهيم بن بشير الأزدي ٢/٩٠، وقال محققه: «كذا، والظاهر مَعْن كما أوضحته في التعليق على تاريخ البخاري ٢/١/٣٥٣».

(٢) القُولَنْج: مَرضٌ مِعَوِيٌّ مُؤْلِمٌ يصعُبُ معه خروج البُراز والريح، وسَبَبُهُ التهاب القُولُون.

وقيل: المراد بالغَول ها هنا: صُداعُ الرأس. ورُوي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادةُ: هو صُداع الرأس، ووجَعُ البطن. وعنه، وعن السُّدّي: لا تغتال عُقولَهم. كما قال الشاعر[1]:

فَمَا زَالتِ الكَأسُ تَغتالُنا وتَذْهَبُ بالأوّلِ الأوّلِ

وقال سَعيد بن جُبَير: لا مكروهَ فيها ولا أذَى. والصحيحُ قولُ مجاهدٍ: أنه وَجعُ البطن.

وقولهُ: ﴿ولا هم عنها يُنزَفُونَ﴾، قال مجاهد: لا تُذهِبُ عقولَهم. وكذا قال ابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، والحسنُ، وعطاء بنُ أبي مسلم الخراساني، والسُّدّي، وغيرُهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربعُ خصالٍ: السُّكر، والصُداع، والقَيءُ، والبولُ. فذكر الله خمر الجنةِ فَنَزَّهها عن هذه الخِصَالِ، كما ذكر في سُورةِ الصافاتِ.

وقولُه: ﴿وعندهم قاصراتُ الطرفِ﴾، أي: عَفيفاتٌ لا ينظرن إلى غير أزواجهنّ. كذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وزيدُ بن أسلم، وقتادةُ، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾، أي: حِسَان الأعين. وقيل: ضخامُ الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النَّجلاء العيناء، فَوصف عُيونَهنّ بالحسن والعِفَّة، كقول زَليخا في يوسفَ حين جَمَّلته وأخرجَته على تلك النسوة، فأعظَمْنَه وأكبَرْنَه، وظَنَنَّ أنه مَلَكٌ من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فذلكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه ولقد راودتُه عن نفسِه فاستعصَمَ﴾، أي: هو مع هذا الجمال عفيفٌ تَقِيٌّ نَقِيٌّ. وهكذا الحورُ العينُ ﴿خيراتٌ حِسَانٌ﴾. ولهذا قال: ﴿وعندَهُم قاصراتُ الطَّرفِ عِينٌ﴾.

وقولهُ: ﴿كأنَّهن بيضٌ مكنونٌ﴾، يَصِفُهنَّ بتراقَةِ الأبدانِ بأحسَنِ الألوانِ.

قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكنُونٌ﴾، يقولُ: اللؤلؤ المكنون. وَنُنشِدُ ها هنا بيتُ أبي دَهْبَلٍ الشاعر في قَصيدةٍ له[2]:

وَهْيَ زَهْـرَاء مِثْـلُ لُؤْلُؤةِ الغَـوَّا صِ مِيـزَتْ مِن جَـوْهَـرٍ مَكْنُـونِ

وقال الحَسَنُ: ﴿كَأَنهنَّ بَيضٌ مكنونٌ﴾، يعني: مَحصُون لم تَمَسَّه الأيدي. وقال السُّدِّي: البيض في عُشّه مكنون. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿كَأَنَّهنَّ بَيضٌ مكنونٌ﴾، يعني: بطن البيض. وقال عطاءُ الخُراساني: هو السُّحاءُ الذي يكون بين قشرته العُليا ولُباب البَيضة. وقال السُّدِّي: ﴿كَأَنَّهنَّ بيضٌ مكنونٌ﴾، يقول: بياضُ البَيضِ حينَ يُنزَعُ قِشْرُه. واختاره ابنُ جريرٍ لقوله: ﴿مكنون﴾، قال: والقشرةُ العُليا يَمسُّها جناحُ الطيرِ والعُشّ وتنالُها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمٰن بن وَهب، حدثنا محمد بن الفرج الصَّدَفي الدمياطي، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أُمِّه، عن أم سَلمة ـ رَضِيَ الله عنها ـ قلتُ: يا رسولَ الله، أخبرني عن قولِ الله: ﴿كَأَنَّهنَّ بيضٌ مَكنونٌ﴾. قال: «رِقَّتهن كَرِقَّةِ الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة، التي تلي القشر، وهي الغِرْقِيءُ»[3].

---

(١) هو مطيع بن إياس، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/١٦٩، وتفسير الطبري ٢٣/٥٣.

(٢) مجاز أبي عبيدة ٢/١٧٠، وتفسير الطبري ٢٣/٥٧.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/٥٨.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسَّان النَّهدِيُّ، حدثنا عبد السلام بن حَرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا أوَّلُ الناس خُروجاً إذا بُعِثُوا، وأنا خَطِيبهُم إذا وَفَدُوا، وأنا مُبَشِّرهم إذا حَزِنُوا، وأنا شَفِيعهُم إذا حُبِسُوا. لواءُ الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرمُ ولدِ آدم على ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا فخْرَ، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون، أو: اللؤلؤ المكنون».

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن أهلِ الجَنَّة أنه أقبل بعضُهم على بعض يَتَساءلُونَ، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يُعانونَ فيها؟ وذلك من حَديثهم على شَرَابهم، واجتماعهم في تنادُمهم وعَشِيرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرُر، والخدم بين أيديهم، يسعَون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكلَ ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿قال قائلٌ منهم إني كان لي قَرينٌ﴾، قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العَوفِيّ، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا.

ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطانَ يكونُ من الجنِّ فَيُوسوِسُ في النفس، ويكون من الإنسِ فيقول كلاماً تسمعُه الأذنان، وكلاهما متعاديان؛ قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخرُفَ القول غروراً﴾. وكلٌ منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿قل أعوذُ بربِّ الناس * مَلِك الناس * إلـه الناس * من شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاس * الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ * من الجِنَّة والناسِ﴾. ولهذا ﴿قال قائلٌ منهم إني كان لي قرين * يقول: أئنكَ لمن المصدَّقين﴾، أي: أأنت تُصدِّق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني يقولُ ذلك على وجه التعجُّب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾، قال مجاهد، والسُّدِّي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟ وكلاهما صحيح. قال: ﴿قال هل أنتم مُطَّلِعُون﴾، أي: مُشرِفون. يقول المؤمن لأصحابه وجُلَسائه من أهل الجَنَّة. ﴿فاطَّلَع فرآه في سَواء الجَحِيم﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وخُلَيد العَصَري، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخُرَاساني: يعني في وسط الجَحيم. وقال الحسنُ البصريُّ: في وسط الجحيم كأنه شهاب يَقِدُ. وقال قتادةُ: ذُكِرَ لنا أنه اطَّلع فرأى جَماجِمَ القوم تغلي. وذُكِرَ لنا أنَّ كعب الأحبار قال: في الجنة كُوًى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظُرَ إلى عَدُوِّه في النار اطَّلع فيها، فازداد شكراً.

﴿قال تالله إن كِدْتَ لَتُرْدِين﴾، يقولُ المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كِدْتَ لَتُهلكني لو أطعتك. ﴿ولولا نعمةُ ربي لكنت من المحضَرين﴾، أي: ولولا فضل الله عليَّ لكنتُ مثلكَ في سواء الجحيم حيثُ أنتَ، مُحْضَرٌ معك في العذاب، ولكنه تفضَّل عَليَّ ورَحِمني فهَداني للإيمان، وأرشَدني إلى توحيده، ﴿وما كُنَّا لنهتدِي لولا أن هَدَانا الله﴾.

وقولهُ: ﴿أفما نَحن بِميِّتين * إلا موتَتنا الأُولى وما نحن بمعذَّبين﴾، هذا من كلام المؤمن مُغْبطاً[1] نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موتَ فيها ولا عذابَ، ولهذا قال: ﴿إن هذا لهو الفوزُ العظيم﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظِّهراني، حدثنا حفص بن عُمَر العَدَني، حدثنا الحكم بن أبانَ، عن عكرمةَ قال: قال ابن عباس، في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلوا واشربُوا هنيئاً بما كنتم تعمَلُون﴾، قال ابن عباس: قولهُ ﴿هَنِيئاً﴾؛ أي: لا يموتُون فيها. فعندها قالوا: ﴿أفما نحن بِميِّتين * إلا مَوتَتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين﴾.

وقال الحسن البَصريّ: عَلِموا أن كل نَعيم فإن الموت يَقطَعُه، فقالوا: ﴿أفما نحن بميِّتين * إلا موتَتَنا الأولى وما نحن بِمُعذَّبين﴾، قيل: لا. ﴿قالوا إن هذا لهو الفَوزُ العظِيمُ﴾.

وقولهُ: ﴿لمثل هذا فَلْيعمَلِ العاملُون﴾، قال قتادة: هذا من كلام أهل الجَنَّةِ. وقال ابنُ جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوزِ فَلْيَعمَلِ العاملون في الدنيا، ليصيرُوا إلية في الآخرة[2].

وقد ذكروا قصَّة رجُلين كانا شريكَين في بني إسرائيلَ، تدخل في ضمن عُموم هذه الآية الكريمةِ:

قال أبو جعفر بن جَرير: حدثني إسحاق بن إبراهِيم بن حَبيب بن الشهيد، حدثنا عَتَّاب بن بَشِير، عن خُصَيفٍ، عن فُرات بن ثعلَبَة البَهْرَانِيّ في قوله: ﴿إنِّي كان لي قرينٌ﴾، قال: إنَّ رجلين كانا شريكين، فاجتمع لهما ثمانيةُ آلاف دينار، وكان أحدهُما له حِرْفَةٍ، والآخرُ ليس له حِرْفَةٌ، فقال الذي له حِرْفَةٌ للآخر: ليس عندك حِرْفَةٌ، ما أراني إلا مُفارِقَكَ ومُقاسِمُكَ. فقاسَمَهُ وفارَقَهُ. ثم إن الرَّجُلَ اشتَرَى داراً بألف دينار كانت لِمَلِكٍ، ماتَ، فدعا صاحِبَه فأراه فقال: كيف تَرَى هذه الدار؟ ابتعتُها بألف دينار؟ قال: ما أَحْسَنَها! فلما خَرَج قال: «اللهمَّ، إنَّ صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألُكَ داراً من دُور الجَنَّةِ». فَتَصدَّق بألفِ دينارٍ، ثم مَكَثَ ما شاء الله أن يمكُث. ثم إنه تَزَوَّج بامرأة بألف دينار، فدعاه وصَنَع له طعاماً، فلما أتاه قال: إني تزوجتُ امرأةً بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرَفَ قال: «يا ربِّ، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الحُور العين». فَتَصدَّق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكُثَ. ثم اشترى بُستانَين بألفَيْ دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعتُ هذَين البُستانَين. فقال: ما أحسنَ هذا! فلما خرج قال: «يا ربِّ، إنَّ صاحبي قد اشترى بستانَين بألفَيْ دينار، وأنا أسألُكَ بستانَين في الجنة». فَتَصدَّق بألفَيْ دينار، ثم إن المَلَك أتاهما فَتوفَّاهما، ثم انطلق بهذا المتصدِّق، فأدخله داراً تُعجِبه، وإذا امرأة تَطَّلعُ يضيء ما تَحتها من حُسنها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليمٌ، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجُلٍ كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: ﴿أئنك لمن المصدِّقين﴾ قيل له: فإنه في الجَحِيم. ﴿قال هل أنتم مُطَّلعون * فاطَّلع فرآه في سَوَاء الجَحِيم﴾. فقال عند ذلك: ﴿تالله إن كِدْتَ لَتردين * ولولا نعمةُ رَبِّي لكنتُ من المُحضَرين﴾... الآيات.

قال ابنُ جرير: وهذا يقوي قراءة من قرأ: ﴿أئنك لمن المُصدِّقين﴾، بالتشديد[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأَبَّار أبو حفص قال: سألتُ

---

(١) كذا، وصوابه غابطاً، يُقال: غَبطَ فلان: تمنَّى مثل ماله.

(٢) انظر لفظ الطبري في تفسيره ٢٣/ ٦٢.

(٣) تفسيرالطبري ٢٣/ ٥٩.

إسماعيلَ السُّدِّي عن هذه الآية: ﴿قال قائلٌ منهم إني كان لي قرينٌ * يقول أئنك لمن المصدِّقين﴾، قال: فقال لي: ما ذَكَّرك هذا؟ قلت: قرأته آنفاً فأحببتُ أن أسألَكَ عنه؟ فقال: أَمَا فاحفظْ، كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمنٌ والآخر كافرٌ، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، [ثم افترقا][1] فَمَكَثَا ما شاء الله أن يمكُثا، ثم التقيا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك؟ أَضَرَبْتَ[2] به شيئاً؟ أَتَّجَرْتَ به في شيء؟ فقال له المؤمنُ: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريتُ به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً [بألفِ دينارٍ][1]. قال: فقال له المؤمنُ: أوفَعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليلُ صلَّى ما شاء الله أن يُصَلِّي، فلما انصرف أخذَ ألفَ دينارٍ فوضَعَها بين يَدَيه، ثم قال: اللهمَّ، إنَّ فُلاناً ـ يعني شريكه الكافِرَ ـ اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألفِ دينار، ثم يموت غداً ويتركُها، اللهمَّ، وإنِّي أشتري منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة. قال: ثم أصبح فَقَسَّمها في المساكين.

قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكُثا، ثم التقيا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك، أَضَرَبت به في شيء؟ أَتَّجرتَ به في شيءٍ؟ قال: لا، فما صنعتَ أنتَ؟ قال: كانت ضيعتي قد اشتدَّ عَلَيَّ مُؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينارٍ، يقومُون لي فيها، ويعمَلُون لي فيها، فقال له المؤمنُ: أَوَفَعلتَ؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمنُ حتى إذا كان الليلُ صَلَّى ما شاء الله أن يُصَلِّي، فلما انصرف أخذ ألفَ دينار فوضَعَها بين يَدَيه، ثم قال: اللهمَّ، إنَّ فلاناً ـ يعني شريكَه الكافرَ ـ اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غداً فيتركهم، أو يموتُون فيتركُونه، اللهمَّ، وإنِّي أشتري منك بهذه الألفِ الدينارِ رقيقاً من الجنة. قال: ثم أصبح فقسَّمها في المساكين.

قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكُثا، ثم التقيا فقال الكافرُ للمؤمن: ما صنعتَ في مالك؟ أضربتَ به في شيء؟ أتَّجرتَ به في شيء؟ قال: لا، فما صَنَعت أنت؟ قال: أمري كله قد تَمَّ إلا شيئاً واحداً، فلانةُ ماتَ عنها زوجها، فأصدقتُها ألفَ دينار، فجاءتني بها ومثلُها مَعَها. فقال له المؤمن: أَوَفعلتَ؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتَّى إذا كان الليل صَلَّى ما شاء الله أن يُصَلِّي، فلما انصرف أخذَ الألفَ الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: «اللهمَّ، إن فلاناً ـ يعني شريكه الكافر ـ تَزَوَّج زوجةً من أزواج الدنيا فيموتُ غداً فيتركها، أو تَموتُ فَتَتْركُه، اللهمَّ وإنِّي أخطُب إليكَ بهذه الألف الدينارِ حَوراء عيناء في الجنة». قال: ثم أصبح فَقَسَّمها بين المساكين.

قال: فبقي المؤمنُ ليس عنده شيء. قال: فَلبس قَميصاً من قُطن، وكساءً من صُوفٍ، ثم أخذ مَرّاً[3] فَجَعله على رقبته، يعمَلُ الشيءَ ويحفِر الشيءَ بقُوَّته. قال: فجاءه رجلٌ فقال: يا عبدَ الله، أَتُؤَاجرني نفسَكَ مشاهرةً، شَهراً بشهرٍ، تقوم على دوابَّ لي تَعلِفها وتكنس سِرْقِينَها[4]؟ قال: نعم. قال: فَآجَره نفسَه مشاهَرةً، شهراً بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدوابِّ يغدُو كُلَّ يوم ينظُر إلى دوابِّه، فإذا رأى منها دابةً ضَامِرةً أخذ برأسِهِ فَوَجَأَ عُنقَه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحةَ؟ قال: فلما رأى المؤمن هذه الشدَّة قال: لآتينَّ شريكي الكافر، فَلأعملَنَّ في أرضِهِ فَيُطعِمُني هذه الكسرة يوماً بيومٍ، ويكسُوني هَذَين الثوبَين إذا بَليا.

---

(١) عن نسخة. وهي في الدر المنثور ٩٢/٧.

(٢) أي: اكْتَسَبْتَ به شيئاً؟ ولعله مأخوذ من قولهم: ضَرَبَ في الأرضِ: إذا سافر يبتغي الرزق. وكان أصل العبارة: أضربت به في الأرض شيئاً؟ ويريد بقوله شيئاً: ضرباً ما.

(٣) المَرُّ: الحبلُ.

(٤) السِّرْقينُ: الزِّبْلُ، وهو السِّرْجينُ أيضاً.

قال: فانطلق يُريدهُ فلما انتهى إلى بابِهِ وهو مُمْسٍ ، فإذا قصر مَشِيدٌ في السماء، وإذا حوله البوَّابون، فقال لهم: استأذنوا لي على صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سَرَّه ذلك. فقالوا له: انطلِق إن كنتَ صادقاً فنم في ناحيةٍ، فإذا أصبحتَ فتَعرَّضْ له. قال: فانطلقَ المؤمنُ، فألقى نِصف كِسائِهِ تحته، ونصفه فوقَه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكهُ فتعرَّض له، فخرج شريكهُ الكافرُ وهو راكب، فلما رآه عَرَفه فوقَفَ عليه وسَلَّم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخُذْ من المال مثلَ ما أخذتُ؟ قال: بلى وهذه حالِي وهذه حالُك؟ قال: أخبرني ما صنعتَ في مالِكَ؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئتُ أعملُ في أرضِكَ هذه، فتُطْعِمُني هذه الكسرةَ يوماً بيومٍ، وتكسُوني هذين الثوبين إذا بَلِيا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضتُه. قال: مَن؟ قال: المَليءُ[1] الوفيُّ. قال: من؟ قال: الله ربِّي. قال وهو مصافِحُه، فانتزعَ يدَه من يده، ثم قال: ﴿أئنك لمن المُصدِّقينَ * أئذا متنا وكنا تُراباً وعِظاماً أئنَّا لَمَدِينون﴾ ـ قال السُّدِّي: مُحاسَبون ـ قال: فانطلق الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمنُ ليس يَلْوِي[2] عليه رَجَعَ وتَركه. يعيشُ المؤمن في شدَّةٍ من الزمانِ، ويَعِيشُ الكافرُ في رَخَاءٍ من الزمان.

قال: فإذا كان يومُ القيامة وأدخلَ الله المؤمنَ الجنَّةَ، يَمُرُّ فإذا هو بأرضٍ ونخلٍ وثمارٍ وأنهارٍ، فيقولُ: لِمن هَذا؟ فيقال: هذا لَكَ فيقول: يا سبحانَ الله! أَوَبلغ من فَضْلِ عَمَلي أن أُثابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يمرُّ فإذا هُو برَقيقٍ لا تُحصَى عِدَّتُهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سُبحانَ اللهِ! أَوَبلَغ من فَضل عَمَلي أن أُثابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يمرُّ فإذا هو بقُبَّة من ياقوتةٍ حمراءَ مُجَوَّفة، فيها حَوْراءُ عَيْناءُ، فيقولُ: لمن هذه؟ فيُقال: هذه لك. فيَقولُ: يا سبحانَ الله! أَوَبَلَغ من فضل عملي أن أُثابَ بمثل هذا؟! قال: ثم يذكُر المؤمنُ شريكَه الكافر فيقول: ﴿إنِّي كان لي قرينٌ * يقولُ أئنَّك لمن المصدِّقين * أئذا متنا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أئنا لَمَدِينُونَ﴾. قال: فالجنة عالية، والنارُ هَاوية. قال: فَيُريه الله شريكَه في وَسَطِ الجَحِيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمنُ عرفَه، فيقول: ﴿تالله إن كدتَ لَتُردين * ولولا نعمةُ ربِّي لكنتُ من المحضَرين * أفما نحن بميِّتين * إلا موتَتَنا الأولى وما نحن بمُعذَّبين * إن هذا لهو الفوزُ العظيم * لمثل هذا فَلْيَعْمَلَ العامِلُونَ﴾. بمثل ما مَنَّ عليه. قال: فَيَتذَكَّرُ المؤمنُ ما مَرَّ عليه في الدنيا من الشدَّة، فلا يذكر مما مَرَّ عليه في الدنيا من الشدَّة أشدَّ عليه من الموت.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يَقول الله تعالى: أهذا الذي ذَكره من نَعيم الجَنَّة وما فيها من مآكلَ ومَشَارِبَ ومناكحَ وغير ذلك من الملاذِّ خيرٌ ضِيافةً وعَطاءً ﴿أم شَجرة الزَّقُوم﴾ أي: التي في جَهَنَّم.

وقد يَحْتملُ ان يكونَ المرادُ بذلك شجرةً واحدةً مُعيَّنَةً، كما قال بعضُهم من أنها شجرة تمتدُّ فروعها إلى جميع مَحالِّ جهنَّم، كما أن شجرة طُوبَى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصنٌ.

(١) المَليء: الغنيّ. يقال: مَلُؤ فلانٌ ملاءً وملاءةً: صار كثيرَ المال.
(٢) لَوَى عليه: عَطَف أو انتظر.

وقد يَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ بذلك جنسَ شَجَرٍ يقال له: الزقُّومُ، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخرجُ من طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بالدهنِ وصِبْغٍ للآكِلِينَ﴾، يعني الزيتُونَة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالُّون المُكَذِّبون * لآكِلُونَ من شَجَرٍ من زَقُّومٍ﴾.

وقوله: ﴿إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾، قال قتادةُ: ذُكِرت شجرةُ الزقُّوم، فافتَتَنَ بها أهلُ الضلالة، وقالوا: صاحبكُم يُنبئُكم أن في النار شجرةً، والنارُ تأكلُ الشجَرَ، فأنزل الله عز وجل: ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجَحِيمِ﴾، غُذِيَتْ من النار، ومنها خُلِقَتْ.

وقال مجاهد: ﴿إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾، قال أبو جَهلٍ ـ لعنه الله ـ: إنما الزقُّومُ التمرُ والزبدُ أتزقَّمُ(١).

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمدُ بشجرةِ الزقُّوم اختباراً نَخْتَبِرُ به الناسَ، مَن يُصَدِّق منهم ممن يُكَذِّب، كقوله تعالى: ﴿وما جَعَلنا الرؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناسِ والشجرةَ الملعونةَ في القُرآنِ ونُخَوِّفُهم فما يَزيدُهم إلا طُغياناً كَبيراً﴾.

وقولهُ: ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أَصْلِ الجَحِيمِ﴾، أي: أصل مَنْبتِها في قَرارِ النار، ﴿طَلْعُها كأنه رُءُوسُ الشياطينِ﴾ تَبْشِيعٌ لها وتكريهٌ لِذِكْرِهَا.

قال وهبُ بن مُنَبِّه: شُعور الشياطين قائمة إلى السماء.

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفةً عند المخاطبين، لأنه قد استقرَّ في النفوسِ أن الشياطين قَبِيحَةُ المنظرِ.

وقيل: المرادُ بذلك ضربٌ من الحَيَّات، رُؤُوسها بَشِعَةُ المنظر. وقيل: جنسٌ من النبات، طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير(٢). والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقولهُ: ﴿فإنهم لآكلونَ منها فمالِئُونَ منها البطونَ﴾، يذكُر تعالى أنهم يأكلُون من هذه الشجرةِ التي لا أبشَعَ منها، ولا أقبَحَ من منظرها، مع ما هي عليه من سُوء الطعمِ والريحِ والطبعِ، فإنهم لَيُضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، أو ما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿ليس لهم طعامٌ إلا من ضَرِيعٍ * لا يُسمِنُ ولا يُغنِي من جُوعٍ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم ـ رَحِمَهُ الله ـ: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن مرزوق، حدثنا شُعبةُ، عن الأعمش، عن مُجاهِدٍ، عن ابنِ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا هذه الآية، وقال: اتقوا الله حَقَّ تُقاتِه، فلو أن قطرةً من الزقُّوم قُطِرَتْ في بحار الدُّنيا لأفسدت على أهل الأرضِ مَعايِشَهم، فكيف بمن تَكُون طَعَامَه؟!.

ورواه التِّرمذيُّ، والنَّسائي، وابن ماجَه، من حديث شُعبَةَ، وقال التِّرمذِيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»(٣).

وقولهُ تعالى ﴿ثم إنَّ لهم عليها لشوباً من حَمِيمٍ﴾، قال ابنُ عباسٍ: يعني شربَ الحَمِيم على الزقُّوم. وقال في رواية عنه: ﴿شَوباً من حَمِيمٍ﴾، مَزْجاً من حَمِيمٍ(٤).

---

(١) تَزَقَّمَ الخُبْزَ ونحوه: ابتلعه.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٦٤.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ١٠/٥٤، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/٢١٨ ـ ٢١٩، وابن ماجه في كتاب الزهد ٢/١٤٤٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٣/٦٥.

وقال غيرُه: يعني يُمْزَجُ لهم الحميم بِصَديدٍ وَغَسَّاقٍ، مما يَسِيلُ من فُرُوجِهِم وعُيُونِهِم:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَيْوَةُ بن شُرَيح الحضرمي، حدثنا بقية بن الوليد، عن صفوان ابن عمرو، أخبرني عُبَيد بن بِشر[1] عن أبي أمامة الباهلي:ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه كان يقول: «يُقَرَّبُ ـ يعني إلى أهلِ النارِ ـ ماءٌ فَيَتَكَرَّهُه، فإذا أُوتِيَ منه شَوَى وَجْهَهُ، ووقعت فروةُ رأسه فيه. فإذا شَرِبه قَطَع أمعاءَه حتى تخرج من دُبُره».

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عَمرو بن رافع، حدثنا يعقوبُ بن عبد الله، عن جعفرٍ وهارونَ بن عَنْتَرَة، عن سعيد بن جُبَير قال: إذا جاع أهلُ النار استغاثُوا بشجرة الزقُّوم، فأكلوا منها فاختلَسَت جلودَ وُجُوهِهِم، فلو أنَّ ماراً يمرُّ بهم يَعرِفهم لعرف وجوهَهُم فيها، ثم يُصَبُّ عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمُهْل ـ وهو الذي قد انتهى حَرُّه ـ فإذا أدنوه من أفواههم اشتَوى من حَرّه لحومُ وُجُوهِهم التي قد سقطت عنها الجلودُ، ويُصهَر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤُهم وتتساقَطُ جلودُهم، ثم يُضرَبُون بِمَقَامِعَ من حديدٍ، فيسقطُ كُلُّ عضوٍ على حِيَالِهِ، يَدعُونَ بالثُبور.

وقولهُ: ﴿ثم إنَّ مرجعَهم لَإلَى الجَحِيم﴾، أي: ثم إنَّ مَرَدَّهُم بعد هذا الفصلِ لَإلى نارٍ تَتَأَجَّجُ، وجَحِيمٍ تَتَوَقَّد، وسَعِيرٍ تَتَوَهَّجُ، فتارةً في هذا وتارةً في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفون بينها وبين حَمِيمٍ آنٍ﴾. هكذا تلا قتادةُ هذه الآيةَ عند هذه الآية[2]، وهو تفْسِيرٌ حَسَنٌ قويٌّ.

وقال السُدِّي في قراءة عبدِ الله: «ثم إنَ مقيلهم لإلى الجَحِيم»: وكان عبدُ الله يقول: والَّذِي نفسي بيَدِهِ لا يَنْتَصِفُ النهارُ يومَ القيامة حتى يَقِيل أهلُ الجنَّةِ في الجَنَةِ، وأهلُ النارِ في النارِ. ثم قرأ: ﴿أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسَنُ مَقِيلاً﴾[3].

وَرَوى الثوري، عن مَيْسَرَة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عُبَيدَة، عن عَبدِ الله قال: لا ينتصِفُ النهارُ يوم القيامة حتى يَقِيل هؤلاء ويَقِيل هؤلاء. قال سفيان: أُراه ثُـمَّ قرأ: ﴿أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾، «ثم إنَّ مَقِيلَهُم لَإلى الجَحِيم».

قلت: على هذا التفسير تكون ﴿ثُمَّ﴾ عاطفةً لخبر على خبر.

وقولهُ: ﴿إنهم ألفوا آباءَهم ضَالِّين﴾، أي: إنما جازيناهُم بذلك لأنهم وَجَدوا آباءهم على الضَّلالة فاتبعُوهم فيها بمجرَّد ذلك، من غير دَليل ولا بُرهانٍ، ولهذا قال: ﴿فَهُم على آثارِهِم يُهرَعُون﴾، قال مجاهد: شبيهة بالهَرْوَلَةِ. وقال سَعِيد بن جُبَير: يَسْفَهُون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) كذا، وفي نسخة: بشير. وقد ترجم ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/٤٠٢ لعبيد بن بشر الغنوي، وقال: «من أقران ابن لهيعة. روى عن أبيه». وفي ترجمة أبيه بشر الغَنَوِيّ ٢/٣٧١ قال: «روى عنه ابن ابنه عبيد الله بن بشر». وقال محقق الجرح: ويقال: «عُبَيد كما في تاريخ البخاري». على أن في تهذيب الكمال في ترجمة صفوان بن عَمْرو السَّكْسَكي ١٣/٢٠١ ـ ٢٠٢ أنه يروي عن عبيد الله بن بُسْر الحِمْصِي». وقال الحافظ المزي في تحفة الأشراف ٤/٧٤ «ولا نعرف عُبيد الله بن بُسْرٍ إلا في هذا الحديث»، فالله أعلم.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٦٥.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٧/٩٦ ـ ٩٧.

يخبر تعالى عن الأمم الماضين أن أكثرهم كانوا ضالّين يجعلُون مع الله آلهةً أُخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم مُنذِرين، يُنذِرون بأسَ الله، ويُحذِّرونهم سَطوته ونقمته، ممَّن كفَر به وعبَد غيرَه، وأنهم عادَوا على مُخالفةِ رُسُلِهم وتكذيبِهم، فأهلك المكذِّبين ودمَّرهم، ونجَّى المؤمنين ونصرهم وظفَّرهم، ولهذا قال: ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المُنذَرين * إلا عبادَ الله المُخلَصِين﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لما ذكَر تعالى عن أكثر الأولين أنَّهم ضَلُّوا عن سبيل النجاة شرع يُبيِّن ذلك مُفصَّلاً، فذكَر نوحاً ـ عليه السَّلام ـ وما لَقِيَ من قومِهِ من التكذيب، وأنه لم يُؤمن منهم إلا القليلُ مع طُول المُدَّة، لَبِث فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتدَّ عليه تكذيبُهم، وكُلَّما دعاهم ازدادُوا نَفْرَةً، ﴿فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصر﴾، فغَضِبَ الله لِغَضَبِهِ عليهم، ولهذا قال: ﴿ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعم المُجيبونَ﴾ أي: فَلَنِعم المُجيبون ـ كُنَّا ـ له، ﴿ونجَّيناه وأهله من الكرب العظيم﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿وجَعَلنا ذُرِّيته هم الباقين﴾، قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ يَقُول: لم تبقَ إلا ذُرِّيةُ نوحٍ عليه السلامُ[1].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ في قوله: ﴿وجعلنا ذُرِّيته هم الباقين﴾، قال: الناسُ كلُّهم من ذُرِّية نوحٍ.

وقد رَوَى التِّرمذيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث سعيد بن بَشِير، عن قَتادَةَ، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿وجعلنا ذُرِّيته هُمُ الباقين﴾، قال: سامٌ، وحامٌ، ويافثُ[2].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، عن الحسن، عن سَمُرَةَ: أَنَّ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: «سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو الحبش، ويافثُ أبو الرُّوم»[3].

ورواه التِّرمذيُّ عن بِشْرِ بن مُعَاذٍ العَقَدِيِّ، عن يزيدَ بن زُرَيع، عن سَعِيد ـ وهو ابن أبي عَرُوبَةَ ـ عن قتادَةَ، به[3].

قال الحافظُ أبو عُمَر بن عبد البرّ: وقد رُوِيَ عن عِمران بن حُصَين، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله. والمرادُ بالروم ها هنا: هم الرُّوم الأُوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رُومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. ثم رَوَى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المُسَيَّب قال: ولد نوح ثلاثة: سامٌ ويافثُ وحامٌ، وَوَلَدَ كلُّ واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثةً، فَوَلَدَ سامٌ العربَ وفارس والرومَ، وَوَلَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوجَ، وَوَلَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربَر. ورَوَى عن وهبِ بن مُنَبِّهٍ نحوَ هذا، والله أعلم[4].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/٦٨.
(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الصافات ١٢/١٠٨، وتفسير الطبري ٢٣/٦٧.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٩، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الصافات ١٢/١٠٩.
(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/١٠٨.

وقولهُ: ﴿وتركنا عليه فِي الآخرين﴾، قال ابنُ عباسٍ: يُذْكَرُ بخير. وقال مجاهد: يعني لسانَ صِدْقٍ للأنبياءِ كُلِّهم. وقال قتادةُ، والسُّدِّي: أبقى الله عليه الثناء الحَسن في الآخرين. وقال الضحاك: السلامُ والثناءُ الحسن.

وقولهُ تعالى: ﴿سلامٌ على نُوحٍ في العالمِينَ﴾، مُفَسِّر لما أَبْقَى عليه من الذكر الجَميل والثناءِ الحَسَن، أنَّه يُسَلَّم عليه في جَميع الطوائف والأمم.

﴿إنا كذلك نجزِي المحسنين﴾، أي: هكذا نجزِي مَن أحسن مِن العباد في طاعةِ الله، نَجعل له لسانَ صِدْقٍ يُذكر به بعدَه بِحَسَبِ مرتبته في ذلك.

ثم قال: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾، أي: المُصَدِّقين المُوحِّدين المُوقنين. ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾، أي: أهلكناهم، فلم تبْقَ منهم عينٌ تَطرِفُ، ولا ذِكرٌ لهم ولا عينٌ ولا أَثَرٌ، ولا يُعرفون إلا بهذِهِ الصِّفَةِ القَبِيحَةِ.

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وإنَّ من شيعتِهِ لإبراهيمَ﴾، يقولُ: من أهل دينه. وقال مجاهدٌ: على مِنهاجه وسُنَّتِه. ﴿إذْ جاءَ ربَّه بقلبٍ سَليمٍ﴾، قال ابن عباس: يعني شهادةَ أن لا إلٰه إلا الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو أسامة، عن عوفٍ قلتُ لمحمد بن سِيرِينَ: ما القلبُ السليمُ؟ قال: يعلَم أن الله حقٌّ، وأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن الله يبعَثُ مَن في القبور.

وقال الحسن: سَليم من الشرك. وقال عُروة: لا يكون لعاناً.

وقولهُ: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدُون﴾، أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أئفكاً آلهةً دونَ الله تُريدون * فما ظَنُّكم برب العالمين﴾، قال قتادة: يعني ما ظَنُّكم به أنه فاعلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عَبَدتُم غيره؟!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

إنما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه ذلك، لِيُقيم في البلد إذا ذَهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أَزِفَ خروجُهم إلى عيدٍ لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم فيكسِرَها، فقال لهم كلاماً هو حَقٌّ في نفس الأمر، فَهِمُوا منه أنه سقيمٌ على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فتولوا عنه مُدبِرين﴾، قال قتادة: والعرب تقول لمَن تفكَّر: نظر في النُّجوم. يعني قتادة أنه نَظَر في السَّماء متفكراً فيما يُلهيهم به، فقال: ﴿إني سقيم﴾، أي: ضعيف.

فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ها هنا:

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو أُسامة، حدثني هِشامٌ، عن محمد، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ

قال: «لم يَكْذِب إبراهيمُ - عليه السلام - غير ثلاث كِذْبَاتٍ: ثِنْتَين في ذاتِ الله، قولُهُ: ﴿إني سَقِيم﴾، وقولُه: ﴿بل فَعَله كبيرهم هذا﴾، وقوله في سارَةَ: «هي أختي»[١].

فهو حديثٌ مُخرَّجٌ في الصِّحاح والسُّنَن من طُرُقٍ، ولكن ليس هذا من باب الكَذِب الحقيقي الذي يُذَمُّ فاعلهُ، حَاشا وكلاَّ. وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إنَّ في المَعَارِيضِ لمندوحَةً عن الكَذِبِ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَرَ، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جُدْعَانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعِيد قال: قال رسولُ الله - ﷺ - في كلماتِ إبراهيمَ الثلاثِ التي قال -: ما منها كلمةٌ إلا ما حَلَّ[٢] بها عن دين الله تعالى، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقال: ﴿بل فَعَلَه كبيرُهم هذا﴾. وقال للمَلِكِ حين أراد المرأَةَ: هي أُختي.

قال سفيانُ في قوله: ﴿إني سَقِيمٌ﴾، يعني: طَعِين. وكانوا يَفِرُّون من المطعون، فأراد أن يخلُوَ بآلهتهم.

وكذا قال العَوفِيُّ، عن ابن عباس: ﴿فنظر نظرةً في النُّجُومِ * فقال إني سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إني مطعون. فتركوه مخافَةَ الطاعُون[٣].

وقال قتادةُ، عن سَعِيد بن المسيَّبِ: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إني سَقِيم﴾ كايَدَ نبيُّ الله عن دِينِهِ ﴿فقال إني سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: ﴿فقال إني سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يَسْتَقْبِلُ، يعني مَرَض الموتِ. وقيل: أراد ﴿إني سَقِيمٌ﴾، أي: مريضُ القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل.

وقال الحسنُ البصريُّ: خَرَجَ قومُ إبراهيم إلى عيدهم، فأرادُوه على الخروج، فاضطجَعَ على ظهره وقال: ﴿إني سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظرُ في السماء، فلما خَرجُوا أقبل إلى آلهتهم فكسَرَها. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فتولَّوا عنه مُدبرينَ﴾، أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ إلى آلهتهم﴾، أي: ذَهَبَ إليها بعد أن خرجُوا في سُرعةٍ واختفاءٍ، ﴿فقال ألاَ تأكلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وَضَعُوا بين أيديها طعاماً قُرباناً لتُبَرَّكَ لهم فيه[٤].

قال السُّدِّي: دخل إبراهيم - عليه السلامُ - إلى بيت الآلهة، فإذا هُنَّ في بَهو عظيم، وإذا مُستقبِلُ بابَ البهو صَنَمٌ عظيمٌ، إلى جنبه أصغرُ منه، بعضُها إلى جنب بعض، كلُّ صَنَمٍ يليه أصغرُ منه، حتى بلغُوا بابَ البَهوِ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهةِ، وقالوا: إذا كان حين نرجعُ وقد بَرَّكَت الآلهةُ في طعامنا أكلنا. فلما نَظَرَ إبراهيم - عليه السلام - إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ألا تأكلُونَ * ما لكُم لا تنطِقُون﴾.

وقولُهُ: ﴿فراغَ عليهم ضرباً باليمين﴾، قال الفراء: معناه مال عليهم ضَرْباً باليمين. وقال قتادةُ والجَوهريُّ: فأقبلَ عليهم ضرباً باليمين[٥]. وإنما ضَرَبهم باليمين لأنها أشدُّ وأنكى، ولهذا تركَهُم جُذاذاً إلا

(١) تفسير الطبري ٧١/٢٣. وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٦٣ من سورة الأنبياء، وخرجناه هنالك.

(٢) أي: ما جاوَزَ وابتعد.

(٣) أخرجه الطبري ٧٠/٢٣.

(٤) الدر المنثور ١٠١/٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣٨٨/٢، والصحاح للجوهري: راغ.

كثيراً، ثم تَنبَّهوا إليه يرجِعُونه، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾، قال مجاهد وغير واحد: أي يُسرعُونَ.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رَجَعُوا ما عرفوا من أول وهلة مَن فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم - عليه السلامُ - هو الذي فعل ذلك. فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعَيْبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونه وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، يَحْتَمِل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويَحْتَمِلُ أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين مُتلازِم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني؛ عن مَرْوان بن معاوية، عن أبي مالك، عن رِبْعِيِّ بن حِرَاش، عن حُذَيْفَةَ مرفوعاً: «إن الله يصنعُ كلَّ صانعٍ وصَنْعَته»(١). وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجةُ عَدَلوا إلى أخذِه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾. وكان من أمرهم ما تقدَّم بيانُه في سورة الأنبياء، ونَجَّاه اللهُ مِنَ النارِ وأظهَرَه عليهم، وأعلى حُجَّته ونَصَرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ
قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن خليله إبراهيم - عليه السلام -: أنه بعد ما نَصَره الله على قومه وأَيِس من إيمانهم بعد ما شاهَدُوا من الآياتِ العظيمة هاجَرَ من بين أظهُرِهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يعني: أولاداً مُطيعين عِوَضاً من قومه وعَشيرتِه الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾. وهذا الغلامُ هو إسماعيلُ عليه السلام، فإنه أوَّلُ وَلَدٍ بُشِّر به إبراهيم - عليه السلام - وهو أكبر من إسحاقَ باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم - عليه السلام - ست وثمانونَ سنة، ووُلِدَ إسحاق وعُمرُ إبراهيم تسعٌ وتسعون سنة. وعندهم أن الله - تعالى - أمر إبراهيمَ أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بِكْره، فأقحمُوا ها هنا كذِباً وبُهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالفٌ لنصِّ كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيلُ أبو العرب، فَحَسدُوهم، فزادوا ذلك وحَرَّفُوا وحيدَك بمعنى

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه في كتاب الإيمان ١/٣٥-٣٦، والبخاري في أفعال العباد، والبيهقي في الأسماء والصفات. انظر الدرّ المنثور ٧/١٠١. وانظر أيضاً إصلاح غلط أبي عبيد ١٢٦-١٢٧. وغريب الحديث لأبي عُبَيْد ١٩١، ونتائج الفِكْر في النحو للسهيلي ١٩١-١٩٢.

الذي ليس عندك غيره؛ فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة، وهو تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيد، إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نُقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلُقّيَ إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأُخذ ذلك مسلّماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾. وقال تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، أي: يولد له في حياتهما ولدٌ يُسمّى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوزُ بعد هذا أن يؤمَرَ بذبحه وهو صغيرٌ، لأن الله قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل. فكيف يمكن بعد هذا أن يُؤمَرَ بذبحه صغيراً، وإسماعيلُ وصف ها هنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فلما بَلَغَ معه السعيَ﴾، أي: كَبِرَ وترعرعَ وصار يذهبُ مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ يذهبُ في كلِّ وقتٍ يتفقَّدُ ولدَه وأم ولده ببلاد «فاران»[1] وينظرُ في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركَبُ على البراق سَريعاً إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم ﴿فلما بلغ معه السعي﴾، بمعنى: شبَّ وارتَجلَ[2] وأطاق ما يفعَلُه أبوه من السعي والعمل، ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحُكَ فانظر ماذا ترى﴾ ـ قال عُبَيد بن عُمَير: رُؤيا الأنبياء وَحْيٌ، ثم تلا هذه الآية: ﴿قال يا بنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحُكَ فانظر ماذا تَرَى﴾.

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندي، حدثنا سفيان ابن عُيَينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاكٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وَحيٌ». ليس هو في شيءٍ من الكتب الستة من هذا الوجه[3].

وإنما أعلم ابنَه بذلك ليكون أهونَ عليه، وَليختَبِر صبره وجَلَده وعَزْمَه من صِغَره على طاعةِ الله وطاعةِ أبيه.

﴿قال يا أَبَتِ افعَل ما تُؤمَر﴾، أي: امض لما أمرك الله من ذَبحي، ﴿سَتجدُني إن شاء الله من الصابرين﴾، أي: سأصبر وأحتسِبُ ذلك عند الله عز وجل. وَصَدق ـ صلواتُ الله وسلامهُ ـ فيما وَعَد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيلَ إنه كان صادِقَ الوعدِ وكان رسولاً نبياً * وكان يأمُر أهلَه بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند رَبِّه مَرْضِياً﴾.

قال الله تعالى: ﴿فلما أسلما وَتلَّه للجبين﴾، أي: فلما تَشَهَّدا وذكرا الله تعالى: إبراهيمُ على الذَّبح، والولدُ على شهادة الموت. وقيل: ﴿أسلما﴾، يعني: استسلما وانقادا: إبراهيم امتَثل أَمْرَ الله، وإسماعيلُ طاعةَ الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة، والسُّدِّي، وقتادةُ، وابنُ إسحاقَ، وغيرهم.

---

(١) فاران: كلمةٌ عِبْرانية مُعَرَّبة، وهي من أسماءِ مكَّة. وقيل: هو اسم جبال مكّة.

(٢) في نسخة: وارتحل. ومن معاني ارْتَجَلَ: انفرد برأيه. ولعل المقصود: بلغ مبلغ الرجال.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/٧٨، وغير واحدٍ. انظر الدرّ المنثور ٧/١٠٤.

ومعنى ﴿تلَّه للجَبين﴾، أي: صَرَعه على وجهه ليذبَحه من قفاه، ولا يشاهِدَ وجهَه عند ذبحه، ليكون أهونَ عليه.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك، وقتادةُ: ﴿وتلَّه للجبين﴾: أكَبَّه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيجٌ ويونُسُ قالا: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمةَ، عن أبي عاصم الغَنَويِّ، عن أبي الطُفَيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أُمِرَ إبراهيم بالمناسك عَرَضَ له الشيطانُ عند السَّعي، فَسَابقه فسبَقه إبراهيمُ، ثم ذَهَبَ به جبريلُ إلى جَمْرَةِ العَقَبة، فعرضَ له الشيطانُ، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذَهَب، ثم عَرَض له عند الجَمْرةِ الوُسطى فرماه بسبع حَصَيات، وثَمَّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيلَ قميصٌ أبيضُ، فقال له: يا أبتِ، إنه ليس لي ثوبٌ تُكَفِّنني فيه غيرُه، فَاخلَعه حتى تُكَفِّنني فيه. فعالجه لِيَخْلَعه، فَنُودِيَ من خَلْفِهِ: ﴿أن يا إبراهيمُ * قد صَدَّقت الرُّؤيا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بِكَبْشٍ أبيضَ أقرنَ أعينَ، قال ابنُ عَبَّاسٍ: لقد رأيتنا نَتَتَبَّع ذلك الضربَ من الكِبَاش[١].

وذكر تمام الحديث في «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمدُ بطوله عن يونس، عن حَمَّاد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فَذَكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق»[٢]. فعن ابن عباس في تسميةِ الذبيحِ روايتان، والأظهرُ عنه إسماعيلُ لما سيأتي بيانه.

وقال محمد بن إسحاقَ، عن الحسن بن دينار، عن قتادةَ، عن جَعفر بن إياس، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿وفَدَيناه بِذِبحٍ عظيمٍ﴾، قال: خَرَجَ عليه كَبشٌ من الجنَّة قد رَعَى قبلَ ذلك أربعينَ خريفاً، فأرسل إبراهيمُ ابنَه واتَّبَعَ الكَبْشَ، فأخرجَه إلى الجمرة الأولى، فَرماه بسبع حَصَياتٍ فأفلتَه عِندَها، فجاء الجمرة الوُسطى فأخرجه عندَها، فرماه بسبعِ حَصَياتٍ ثم أفلته، [فأدركَه عند] الجَمْرةِ الكُبرى، فرماه بسبعِ حَصَياتٍ فأخرجَه عندَها. ثم أخذَهُ فأتى به المَنْحَر من منى فَذَبحه، فوالذي نفسُ ابن عباسٍ بيده لقد كان أولَ الإسلام، وإنَّ رأسَ الكبشِ لَمُعَلَّقٌ بقرنيه في مِيزابِ الكعبة قد حَشَّ. يعني: يَبِسَ[٣].

وقال عبد الرَّزَّاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزُهريِّ، أخبرنا القاسمُ قال: اجتمَعَ أبو هُرَيرَةَ وكعبٌ، فجعل أبو هُرَيرة يُحَدِّث عن النبي - ﷺ - وجعل كعبٌ يحدِّث عن الكُتُب، فقال أبو هُرَيرة: قال النبي - ﷺ -: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ دعوةً مُستَجابةً، وإني قد خَبَأتُ دَعْوَتي شفاعةً لأُمَّتي يوم القيامة». فقال له كعب: أنتَ سمعتَ هذا من رسولِ الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فِداكَ أبي وأمي - أو: فِداهُ أبي وأمي - أفلا أُخبِرُكَ عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِيَ ذَبحَ ابنِه إسحاقَ قال الشيطانُ: إن لم أفتِنْ هؤلاءِ عند هذه لم أفتِنْهُم أبداً. فخرج إبراهيمُ بابنه ليذبَحه، فذهب الشيطان فدخلَ على سارَةَ، فقال: أين ذَهَبَ إبراهيمُ بابنِكِ؟ قالت: غَدَا به لبعض حاجَتِهِ. قال: لم يغدُ لحاجةٍ، وإنما ذَهَبَ به ليذبَحه. قالت: ولِمَ يَذْبَحُهُ؟ قال: زَعَمَ أن ربَّه أمره بذلك. قالت: فقد أحسَنَ أن يُطيعَ رَبَّه. فذهب الشيطان في أثَرِهما فقال للغلام: أينَ يذهبُ بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال: إنه لا يذهَبُ بك لِحاجةٍ، ولكنه يَذهَبُ بك لِيَذبَحكَ. قال: ولِمَ يَذْبَحُني؟ قال: زَعَمَ أنَّ ربَّه أمَرَهُ بذلكَ. قال: فوالله لئن كان الله أمَرَه بذلك ليفعلَنَّ. قال: فَيَئِسَ منه فَلَحِقَ بإبراهيم، فقال: أين غَدَوتَ بابنك؟ قال: لحاجةٍ.

(١) مسند الإمام أحمد ١/٢٩٧.
(٢) المسند ١/٣٠٦ - ٣٠٧.
(٣) أخرجه الطبري بإسناده إلى ابن إسحاق ٢٣/٨٧.

قال: فإنك لم تَغدُ به لحاجةٍ، وإنما غَدَوت به لتذبَحَهُ. قال: وَلِمَ أذْبحه؟ قال: تَزْعَمُ أن رَبَّك أمرَكَ بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني بذلِكَ لأفعلَنَّ. قال: فتركه وَيَئِسَ أن يُطاعَ.

وقد رواه ابنُ جرير عن يُونُسَ، عن ابن وَهْبٍ، عن يُونُسَ بن يَزِيدَ، عن ابنِ شهابٍ، أن عَمْرو بن أبي سُفيانَ بن أُسَيد بن جَارِيَةَ الثقفي أخبَرَه، أن كعباً قالَ لأبي هُرَيرة. . . فذكره بطوله، وقال في آخرهِ: وأوحَى الله إلى إسحاقَ أني أعطيتُك دعوةً أَسْتَجيبُ لك فيها. قال إسحاق: اللهُمَّ، إني أدعو أن تَسْتَجيب لي: أيُّما عَبْدٍ لَقِيَكَ من الأولين والآخرين لا يُشْرِكُ بكَ شيئاً، فأدخِلْه الجَنَّةَ[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوَزير الدِّمشقي، حدثنا الوليد بن مُسلم، حدثنا عبد الرحمٰن بن زيد بـن أسلم، عن أبيه، عن عَطَاء بن يَسَارٍ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسُول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله خَيَّرني بين أن يَغْفِرَ لنصفِ أُمَّتي، وَبين أن أختبِيءَ شفاعتي، فاختبأتُ شفاعتي، وَرَجَوْتُ أن تكون أَعَمَّ لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبدُ الصالح لتعجَّلتُ فيها دعوتِي، إنَّ الله لَمَّا فَرَّجَ عن إسحاقَ كَرْبَ الذَّبح قيل له: يا إسحاقُ، سَلْ تُعْطَهْ. فقال: أما والذي نفسي بيده لأتعجلنَّها قبل نَزَغَاتِ الشيطانِ، اللهُمَّ مَن ماتَ لا يُشرِكُ بِكَ شيئاً فاغفِر له وأدخِلْه الجَنَّة»[٢].

هذا حديثٌ غريبٌ مُنكَرٌ، وعبدُ الرحمٰن بن زيدِ بن أسلَمَ ضعيفُ الحديثِ، وأخشَى أن يكونَ في الحديثِ زيادةٌ مدرجةٌ، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فَرَّجَ عن إسحاق». . . إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبهُ أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنَّما حَرَّفوه بإسحاقَ، حَسَداً منهم كما تَقَدَّم، وَإِلاَّ فالمناسكُ والذبائحُ إنما محلُّها بمنىً من أرض مكَّةَ، حيث كان إسماعيلُ لا إسحاقُ، فإنه إنما كان ببلاد كَنْعانَ من أرضِ الشامِ.

وقولهُ تعالى: ﴿وناديناه أن يا إبراهيمُ ۞ قد صَدَّقت الرُّؤيا﴾، أي: قد حَصَل المقصودُ من رُؤياك بإضجاعِكَ ولدَكَ للذَّبحِ.

وَذَكَرَ السُّدِّي وغيرُه أنه أَمَرَّ السِّكين على رقبته فلم تقطَع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحةٌ من نُحَاسٍ، ونُودِيَ إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ عند ذلك: ﴿قد صَدَّقت الرؤيا﴾.

وقولهُ ﴿إنا كَذلك نَجزي المُحسِنين﴾، أي: هكذا نَصرفُ عَمَّن أطاعنا المكارهَ والشدائدَ، ونجعلُ لهم من أمرِهم فَرَجاً ومَخرجاً، كقوله تعالى: ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعَلْ له مخرجاً ۞ وَيرزُقْه مِنْ حيث لا يحتسِبُ وَمَن يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُه إن الله بالغُ أمره قد جَعَلَ الله لكل شيءٍ قَدْراً﴾.

وقد استدلَّ بهذه الآيةِ والقِصَّةِ جماعةٌ من علماء الأصول على صِحَّة النسخ قبل التمكُّن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلةِ، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شَرعَ لإبراهيم ذَبْحَ وَلَدِهِ، ثم نَسَخه عنه وصَرَفه إلى الفداءِ، وإنما كان المقصودُ من شَرْعِهِ أَوَّلاً إثابَةَ الخليل على الصَّبر على ذبحِ ولدِهِ وعَزْمِهِ على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبين﴾، أي: الاختبارُ الواضحُ الجَليُّ؛ حيثُ أُمِرَ بذبح ولدِهِ، فسارَعَ إلى ذلك مُستسلِماً لأمرِ الله، منقاداً لطاعتِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾.

وقولهُ: ﴿وفَدَيناه بِذِبحٍ عَظِيمٍ﴾، قال سفيان الثوريُّ، عن جابر الجُعْفي، عن أبي الطُّفَيل، عن علي

---

(١) تفسير الطبري ٨٢/٢٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر مجمع الزوائد، كتاب الأنبياء ٢٠٢/٨، والدر المنثور ١٠٨/٧.

ـ رضي الله عنه ـ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، قال: بكبشٍ أبيضَ أعْيَنَ أقْرَنَ، قد رُبِطَ بِسَمُرَةٍ. قال أبو الطُّفَيل: وَجَدوه مربوطاً بسَمُرَةٍ في ثَبِير[1].

وقال الثَّوريُّ أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كبشٌ قد رَعَى في الجنة أربعين خريفاً[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يَعقوبَ الصفَّار، حدثنا داود العَطَّار، عن ابن خُثَيم، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عَبَّاس قال: الصخْرة التي بمنى بأصل ثَبِير هي الصَّخْرَة التي ذَبَح عليها إبراهيمُ فداءَ ابنِهِ، هَبَطَ عليه من ثَبِير كبشٌ أعينُ أقرنُ له ثُغاءٌ، فَذَبحه، وهو الكَبشُ الذي قَرّبه ابنُ آدم فَتُقُبِّلَ منه، فكان مخزوناً حتى فَدَى به إسحاقَ.

وَرَوَى أيضاً عن سعيد بن جُبَير أنه قال: كان الكبشُ يرتَعُ في الجَنَّة حتى تَشَقّق عنه ثبيرٌ، وكان عليه عِهْن[2] أحمرُ. وعن الحسن البصري: أنه كان اسمَ كَبْشِ إبراهيم جريرٌ. وقال ابن جُرَيج: قال عُبَيد بن عُمَير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنىً عند المنحَرِ. وقال هُشَيم، عن سيار، عن عكرمة: أنَّ ابن عباسٍ كان أفتى الذي جَعَلَ عليه أن ينحَرَ نفسه، فأمره بمائةٍ من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنتُ أفتيتُه بكبشٍ لأجزأه أن يَذْبح كبشاً، فإنَّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدِيَ بكَبشٍ. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾، قال: [كانَ] وَعْلاً[3].

وقال محمد بن إسحاقَ، عن عَمْرو بن عُبَيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلَّا بتَيسٍ من الأَرْوَى، أُهبِطَ عليه من ثَبِير[3].

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيانُ، حَدَّثني منصُورٌ، عن خاله مُسافع، عن صَفِيَّة بنت شَيْبَةَ قالت: أخبرتني امرأة من بني سُلَيم ـ وَلَّدت[4] عامَّةَ أهل دارنا ـ: أرسلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى عثمانَ بن طلحَةَ ـ وقالت مَرَّةً: إنها سألت عثمان: لِمَ دَعاكَ النبيُّ ﷺ؟ قال: قال: «إني كنتُ رأيتُ قرنَي الكَبْشِ حين دخلتُ البيتَ، فَنَسِيتُ أن آمرَكَ أن تُخَمِّرهما[5]، فَخَمِّرْهُما، فإنه لا ينبغي أن يكونَ في البيتِ شيءٌ يَشغَل المُصَلِّي. قال سفيانُ: لم يَزَل قرنا الكَبْشِ مُعلَّقين في البيتِ حتى احترق البيتُ، فاحترقا[6].

وهذا دليلٌ مستقلٌّ على أنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ فإنَّ قُرَيشاً توارَثُوا قرنَي الكَبْشِ الذي فَدَى به إبراهيمُ خَلَفاً عن سَلَفٍ وجِيلاً بعد جِيلٍ، إلى أن بَعَثَ الله رسولَه ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/٨٦. والسَّمُرة: واحد السَّمُر، وهو ضربٌ من شجر الطلح، وهو شجر عظام له شوك ترعاه الإبل. وثَبِير: موضع بِمِنىً.

(٢) العِهْنة: الصوفُ المصبوغُ ألواناً.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/٨٧، وما بين القوسين عنه. والوَعْلُ ـ بفتح فسكون، ويكسر ـ: تيس الجبل، وهو: ذكر الأَرْوَى، وهو جِنْسٌ من المَعْز الجبلية، له قرنان قويّانِ مُنْحنيانِ كَسَيْفَيْنِ أحْدَبَيْن.

(٤) وَلَّدَ الأنثى: حضر وِلادَها فعالجها حتّى يَبِينَ الولد منها، ويقال: وَلَّدَ الولد: رَبَّاه.

(٥) خمَّر الشيء: غطَّاه.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤/٦٨، ٥/٣٨٠.

فصلٌ في ذِكر الآثار الواردة عن السَّلَفِ في أنَّ الذبيحَ مَن هُو؟

ذكر مَن قال: هو إسحاقُ عليه السلامُ:

قال حمزةُ الزيَّاتُ، عن أبي ميسَرَةَ ـ رَحِمه الله ـ قال: قال يوسفُ ـ عليه السلام ـ للمَلِك في وَجْهِه: ترغب أن تأكُلَ معي، وأنا ـ والله ـ يوسفُ بنُ يعقوبَ نبيِّ الله، ابنِ إسحاقَ ذَبيحِ الله، ابن إبراهيمَ خَلِيلِ الله[1].

وقال الثَّوريُّ، عن أبي سِنَان، عن ابن أبي الهُذَيلِ: أن يوسف ـ عليه السلام ـ قال للملك كَذلِكَ أيضاً[1].

وقال سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير، عن أبيه قال: قال مُوسَى: يا ربِّ، يقولُون: «يا إلَه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ»، فيم قالوا ذلك؟ قال: «إن إبراهيم لم يُعْدَلْ بي شيء قطُّ إلا اختارني عليه، وَإِنَّ إسحاقَ جاد لي بالذَّبح، وهو بغير ذلك أجوَدُ، وإن يعقوب كُلَّما زِدتُه بلاءً زادني حُسنَ ظن».

وقال شُعبَةُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص قال: افتخَرَ رجلٌ عندَ ابن مسعودٍ فقال: أنا فلانُ ابنُ فلانٍ، ابنِ الأشياخ الكرامِ. فقال عبد الله: ذاك يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذَبِيحِ الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله[1].

وهذا صحيحٌ إلى ابن مسعود، وكذا رَوَى عكرمةُ، عن ابن عباس أنه إسحاقُ. وعن أبيه العباس، وعلي ابن أبي طالب مثلَ ذلك. وكذا قال عكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والشعبيُّ، وعُبَيد بن عُمَير، وأبو ميسَرَةَ، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شَقِيق، والزُّهريُّ، والقاسمُ بن أبي بَزَّة، ومكحولٌ، وعثمان بن حاضر، والسُّدِّي، والحَسَن، وقتادَةَ، وأبو الهُذَيل، وابنُ سابِطٍ. وهو اختيارُ ابن جريرٍ. وتقدَّم روايتُه عن كَعبِ الأحبارِ أنه إسحاقُ. وهكذا رَوَى ابنُ إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزُّهرِيِّ، عن أبي سُفيانَ بن العَلاء بن جَارِيَة، عن أبي هُرَيرة، عن كعب الأحبارِ، أنه قال: هو إسحَاق.

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذةٌ عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلَم في الدولة العُمَريَّة جعل يُحدِّث عُمَر ـ رضي الله عنه ـ عن كتبه، فربما استمع له عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فترخَّصَ الناسُ في استماع ما عندَه، ونَقَلُوا عنه غَثَّها وسَمِينَها، وليس بهذه الأمَّة ـ ولله الحمدُ ـ حاجةٌ إلى حَرْفٍ واحدٍ مما عنده. وقد حكى البَغَويُّ هذا القول بأنه إسحاق عن عُمَر، وعليٍّ، وابنِ مسعودٍ، والعباس[2]، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جُبَير، وقتادَةَ، ومسروقٍ، وعكرمة، ومقاتِلٍ، وعطاءٍ، والزُّهريِّ، والسُّدِّي، قال: وهو إحدى الروايتَينِ عن ابن عبَّاسٍ[3].

وقد وَرَدَ في ذلك حديثٌ ـ لو ثَبَتَ لقلنا به على الرأسِ والعَينِ، ولكن لم يَصِحَّ سندُه ـ قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيد بن حُبَاب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن

(١) أخرج الطبري هذه الآثار ٢٣/ ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) في تفسير البغوي: وابن عباس.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧.

الحَسَن، عن الأحنفِ بن قيسٍ، عن العبَّاسِ بن عبدِ المُطَّلبِ، عن النبي ـ ﷺ ـ في حديث ذكره قال: هو إسحاق[١].

ففي إسنادِهِ ضعيفان، وهما الحسنُ بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جُدْعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعان، به مرفوعاً. ثم قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحَسَنِ، عن الأحنفِ، عن العباسِ قوله، وهذا أشبهُ وأصَحُّ.

ذكرُ الآثارِ الواردَةِ بأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيحُ المقطوعُ به

قد تقدَّمَتِ الروايةُ عن ابن عباس أنه إسحاق، وقال سعيد بن جُبَير، وعامر الشعبي، ويوسف بن مِهْرانَ، ومجاهدُ، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس: هو إسماعيلُ عليه السلام.

وقال ابنُ جَرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رَبَاحٍ، عن ابن عباس أنه قال: المفدَّى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاقُ. وكَذَبَتِ اليهودُ[٢].

وقال إسرائيل، عن ثَور، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: الذبيحُ إسماعيلُ. وقال ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ: هو إسماعيلُ. وكذا قال يوسف بن مِهْرَانَ. وقال الشَّعبِيُّ: هو إسماعيلُ. وقد رأيت قرني الكَبْشِ في الكَعبة. وقال مُحمَّد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار وعَمرو بن عُبَيد، عن الحسن البَصْرِيِّ: أنه كان لا يَشُكُّ في ذلك: أن الذي أُمِرَ بِذَبْحِهِ من ابنَي إبراهيمَ إسماعيلُ.

قال ابنُ إسحاقَ: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أَمَرَ الله إبراهيمَ بِذَبْحِهِ من ابنَيه إسماعيلُ وَإنَّا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فَرَغَ من قِصَّة المذبوح من ابنَي إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرناه بإسحاق نَبياً من الصالحين﴾ ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرناها بإسحاقَ ومن وَرَاءِ إسحاقَ يعقوبَ﴾، يقول: بابن وابنِ ابن، فلم يكن ليأمُرَه بِذَبْحِ إسحاقَ وله فيه من الموعود بما وَعَدَه، وما الذي أُمِرَ بذبحه إلا إسماعيلُ. [قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً][٣].

وقال ابن إسحاق، عن بُرَيدة بن سفيان بن فَرْوَةَ الأسلَمِيِّ، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ أنه حَدَّثهم: أنه ذكر ذلك لعُمَر بن عبد العزيز وهو خَليفةٌ إِذْ كان معه بالشام، فقال له عُمَر: إن هذا لشيء ما كنتُ أنظر فيه، وإني لأراه كما قلتَ. ثم أرسل إلى رَجُلٍ كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلَمَ وحَسُنَ إسلامه، وكان يَرَى أنه من علمائهم، فسأله عُمَر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد بنُ كَعب: وأنا عند عُمَر بن عبد العزيز ـ فقال له عُمَر: أَيُّ ابني إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟ فقال: إسماعيلُ والله يا أميرَ المؤمنين، وإن يهودَ لتعلم بذلك، ولكنهم يَحسُدونكم معشَرَ العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أَمْرِ الله فيه، والفضلُ الذي ذَكَرَه الله منه لِصَبْرِهِ لِمَا أُمِرَ به، فهم يَجحَدُون ذلك ويزعُمون أنه إسحاقُ، بِأَنَّ[٤] إسحاقَ أبوهم، والله أعلَم أَيُّهما كان، وكلٌّ قد كان طاهراً طَيِّباً مُطيعاً لله عزَّ وجلَّ.

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٨١.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٨٤.
(٣) عن نسخة. وانظر تفسير الطبري ٢٣/ ٨٤.
(٤) في النسخ: بكَوْنِ. والمثبت عن تفسير الطبري ٢٣/ ٨٥.

وقال عبدُ الله ابنُ الإمام أحمدَ بن حَنْبَلٍ ـ رَحِمَه الله ـ : سألتُ أبي عن الذَّبيح، مَنْ هو؟ إسماعيلُ أو إسحاقُ؟ فقال: إسماعيلُ. ذكره في كتاب الزُّهد.

وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيحُ أن الذبيحَ إسماعيلُ عليه السلام. قال: ورُوِيَ عن عليٍ، وابنِ عُمر، وأبي هُريرة، وأبي الطُفيل، وسعيد بن المُسَيَّب، وسَعيد بن جُبَير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القُرَظِيِّ، وأبي جعفرٍ محمد بنِ علي، وأبي صالحٍ أنهم قالوا: الذبيحُ إسماعيلُ.

وقال البَغَويُّ في تفسيره: وإليه ذَهَبَ عبد الله بنُ عمر، وسَعيد بن المسيب، والسُدِّي، والحسن البَصريُّ، ومجاهد، والربيع بن أَنَسٍ، ومحمد بن كعب القُرَظِيِّ، والكَلْبِيُّ. وهو رِوَاية[1] عن ابن عباس، وحَكَاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد رَوَى ابنُ جرير في ذلك حَدِيثاً غريباً فقال: حدثني محمد بن عَمَّار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عُبَيد ابنِ أبي كَرِيمَةَ، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخَطَّابي، عن عُبَيد الله بنِ محمد العُتْبِيُّ ـ من ولد عُتبة بن أبي سُفيان ـ عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصُّنَابحي قال: كنَّا عند معاويةَ بن أبي سفيان، فذكروا الذَّبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخَبير سَقَطْتُم، كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فجاءه رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، عُدْ عَلَيَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذَّبيحَين. فضَحِكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، وما الذَّبيحَانِ؟ فقال: إن عبدَ المطلب لما أمِرَ بحفر زَمْزَمَ نَذَرَ لله إن سَهَّل الله له أَمْرَها لَيَذْبَحَنَّ أحدَ وَلَدِه، قال: فخرج السهمُ على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افدِ ابنك بمائة من الإبل. فَفَداه بمائةٍ من الإبل، وإسماعيل الثاني[2].

وهذا حديثٌ غريبٌ جداً، وقد رواه الأُمَوي في مغازيه: حَدَّثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عُبَيد ابن أبي كريمة، حدثنا عُمَر بن عبد الرحمٰن القرشي، حدثنا عبيد الله[3] بن محمد العُتْبِيُّ ـ من ولد عتبة بن أبي سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصُنابحي قال: حَضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القومُ إسماعيلَ وإسحاقَ. . . وذَكَرَه. كذا كتبتُه من نُسخَةٍ.

وإنما عَوَّل ابنُ جرير في اختياره أنَّ الذَّبيحَ إسحاقُ على قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرناه بِغُلام حَلِيم﴾، فَجَعَلَ هذه البشارةَ هي البشارةُ بإسحاقَ في قولِهِ: ﴿وبَشَّرُوه بِغُلام عَلِيم﴾. وأجاب عن البِشارة بيعقوبَ بأنه قد كان بلغ معه السعْيَ، أي العملَ، ومن الممكن أنه قد كان وُلِدَ له أولادٌ مع يَعقُوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا مُعَلَّقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تَقَدَّم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذَبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره[4]، وليس ما ذهب إليه بمذهَبٍ ولا لازم، بل هو بَعِيدٌ جدّاً، والذي استدلَّ به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيلُ أثبتُ وأصحُّ وأقوى، والله أعلم.

* * *

(١) في تفسير البغوي ٣٢/٤: «وهي رواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس».
(٢) تفسير الطبري ٨٥/٢٣.
(٣) في نسخة: عبد الله. وفوق كلمة عبد: كذا.
(٤) انظر تفسير الطبري ٨٥/٢٣ ـ ٨٦.

وقولهُ: ﴿وبَشَّرناه بإسحاقَ نبياً من الصالحين﴾، لما تَقَدَّمت البشارة بالذَّبيح ـ وهو إسماعيلُ ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سُورَتي «هود» و «الحجر»(١).

وقولهُ: ﴿نبيّاً﴾ حالُ مقَدَّرة، أي: سيصيرُ منه نَبِيٌّ من الصالحين.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثني يَعقُوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داودَ، عن عكرمةَ قال: قال ابنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وبَشَّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، قال: بُشِّر بنبوَّتِه. قال: وقوله: ﴿ووَهَبْنا له من رَحمتنا أخاه هارونَ نبياً﴾، قال: كان هارونُ أكبَرَ من موسى، ولكن أراد: وَهَبَ له نُبوَّته.

وحَدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سُليمان قال: سمعتُ داودَ يُحَدِّث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وبَشَّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، قال: إنما بُشِّر به نبياً حين فَدَاه الله من الذَّبح، ولم تكن البشارةُ بالنبوَّة عند مولده(٢).

وقال [(٣-ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان-٣)] الثوري، عن داودَ، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، قال: بُشِّر به حين وُلِدَ، وحين نُبِّيءَ.

وقال سَعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ في قوله: ﴿وبَشَّرناه بإسحاقَ نَبياً من الصَّالحين﴾، قال: بعد ما كان من أمرِهِ، لما جاد لله بنفسه(٤).

وقولهُ: ﴿وبَارَكْنا عليه وعلى إسحاقَ ومن ذُرِّيتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مُبينٌ﴾، كقولِهِ تَعالى: ﴿قِيلَ يا نوحُ اهبِطْ بسلامٍ منّا وبَركاتٍ عليكَ وعلى أُمَمٍ ممَّن مَعَكَ وأممٌ سَنُمتِّعهم ثم يَمَسُّهم منا عذابٌ أليم﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يذكرُ تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوَّة والنجاة بِمَن آمن معهما، من قَهر فرعونَ وقومِهِ، وما كان يعتمده في حَقِّهم من الإساءة العظيمة، من قَتل الأبناء واستحياءِ النساء، واستعمالهم في أخَسِّ الأشياءِ. ثم بعد هذا كلِّه نَصَرهم عليهم، وأقرَّ أعينهم منهم، فَغَلبُوهم وأخذُوا أرضَهم وأموالَهم وما كانوا جَمَعُوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتابَ العظيمَ الواضح الجليَّ المستبين، وهو التوراةُ، كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياءً﴾، وقال ها هنا: ﴿وآتيناهُما الكتابَ المستبين * وهَدَيناهُما الصِّراط المستقيمَ﴾، أي: في الأقوالِ والأفعالِ، ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾، أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جَميلاً وثناءً حَسناً، ثم فسَّره بقوله: ﴿سلامٌ على موسى وهارونَ * إنَّا كذلكَ نجزي المُحسِنينَ * إنَّهما من عبادِنا المؤمنين﴾.

(١) انظر تفسير الآية ٧١ من سورة هود، ٥٣ من سورة الحجر.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/٨٩.
(٣-٣) عن الطبعات السابقة. وأبو نُعيم هو الفضل بن دُكين، روى عن الثوري، وعنه أبو حاتم.
(٤) أخرجه الطبري ٢٣/٨٩.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قال قتادةُ، ومُحمَّد بن إسحاق، يقال: إلياسُ هو إدريسُ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عُبَيدَةَ بن رَبيعة، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إلياسُ هو إدريسُ. وكذا قال الضحاك.

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو إلياس بن تسبى[1] بن فِنحاصَ بن العيزارِ بن هارون بن عِمْران، بعثَه الله في بني إسرائيل بعد حِزْقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدُوا صَنماً يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهُم عن عبادةِ ما سِوَاه. وكان قد آمنَ به مَلِكهُم ثم ارتدَّ، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحدٌ. فدعا الله عليهم، فحبَسَ عنهم القَطْر ثلاث سنين، ثمَّ سألوه أن يكشِفَ ذلك عنهم، وَوَعدُوه الإيمانَ به إن هم أصابهم المطرُ. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيثُ فاستمرُّوا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يَقْبِضَه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليَسَعَ بن أُخطوب ـ عليه السلام ـ فأُمِرَ إلياس أن يذهبَ إلى مكان كَذا وكَذا، فمهما جاءه فلْيَرْكَبْه ولا يَهَبْه، فجاءته فرسٌ من نارٍ فركِبَ، وألبسه الله النورَ وكَسَاه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أَرْضياً، هكذا حكاه وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحَّته[2].

﴿إِذْ قال لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقونَ﴾، أي: أَلَا تخافُون الله في عبادتكم غيرَه؟ ﴿أتدعُون بَعْلًا وتذَرُون أحسَنَ الخالقين﴾، قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمَةُ، وقتادةُ، والسُدِّي: بَعْلًا، يعني: ربًّا. قال قتادة وعكرمة: وهي لغةُ أهلِ اليمن. وفي روايةٍ عن قتادة قال: هي لغة أَزْدِ شَنُوءة. وقال ابنُ إسحاقَ: أخبرني بعضُ أهلِ العلم أنهم كانوا يعبدُون امرأة اسمها بَعْلُ. وقال عبدُ الرحمٰن بن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه: هو اسمُ صَنَمٍ كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بَعْلَبَكّ»، غربيَّ دِمَشْقَ. وقال الضَّحَّاكُ: هو صنمٌ كانوا يَعْبدونه.

وقولهُ: ﴿أتدعُون بعلاً﴾، أي: أتعبدُون صنماً؟ ﴿وتذَرُون أحسَنَ الخالقين * الله ربَّكم وربَّ آبائكم الأوَّلين﴾، أي: هو المستحقُّ للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له.

قال الله تعالى: ﴿فكَذَّبوه فإنَّهم لَمُحضَرُون﴾، أي: للعذابِ يومَ الحساب، ﴿إلا عبادَ الله المخلَصين﴾، أي: الموحِّدين منهم. وهذا استثناءٌ منقطع من مُثْبَتٍ.

وقولهُ: ﴿وتَرَكنا عليه في الآخِرينَ﴾، أي: ثناءً جميلًا، ﴿سلامٌ على إلياسين﴾، كما يقال في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة بني أسد، وأنشد بعضُ بني نُمَير في ضَبٍّ صادَه[3].

يَقُولُ رَبُّ السُّوقِ لَمَّا جِئنَا هَذَا وَرَبِّ البَيْتِ إِسْرَائِينَا

---

(١) كذا في النسخ. وفي البداية والنهاية ١/٣١٤: «قال علماء النسب: هو إلياس التشبي، ويقال: ابن ياسين بن فنحاص...». وفي تفسير الطبري: «إلياس بن ياسين».

(٢) أخرجه ابن عساكر، الدر المنثور ٧/١١٨، وانظر تفسير الطبري ٢٣/٩٢ ـ ٩٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٣٩١، وتفسير الطبري ٢٣/٩٥.

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين. وإبراهيم، وإبراهام. وإسرائيل وإسرائين. وطورُ سيناء، وطور سينين، وهو موضعٌ واحدٌ، وكل هذا سائغٌ.

وقرأ آخرون: «سلامٌ على إدراسينَ»(١)، وهي قراءةُ عبدِ الله بن مسعود. وآخرون: ﴿سلامٌ على آلِ ياسينَ﴾(٢)، يعني: آل محمدٍ ﷺ.

وقولُهُ: ﴿إنا كذلك نَجزي المُحسنين * إنَّه مِن عِبادِنا المُؤمنينَ﴾، قد تقدَّم تفسيرُه.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى عن عَبدِه ورَسُولِه لوطٍ ـ عليه السلامُ ـ أنَّه بَعَثَهُ إلى قَومِهِ فَكذَّبوه، فَنجَّاه الله من بين أَظهُرهم هو وأهلُه إلا امرأتَه فإنها هلكت مع مَن هَلَكَ من قومها، فإن الله ـ تعالى ـ أهلكهُم بأنواعٍ من العقُوباتِ، وجَعلَ مَحلَّتَهم من الأرض بُحَيْرةً مُنْتِنَةً قبيحَةَ المنظرِ والطَّعمِ والرِّيح، وجعلها بسبيلٍ مقيمٍ يَمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً. ولهذا قال: ﴿وإنكم لتمرُّون عليهم مُصبحين * وبالليل أفَلَا تعقلون﴾، أي: أفلا تَعْتَبِرون بهم، كيفَ دمَّر الله عليهم، وتعلَمُون أن للكافرين أمثالها؟!

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

قد تَقدَّمت قصةُ يونُسَ ـ عليه السلامُ ـ في سُورَةِ الأنبياءِ. وفي الصَّحيحَين عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما يَنبغي لعبدٍ أن يَقُولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بن متّى، ونَسَبَه إلى أُمِّه»(٣)، وفي رواية: «إلى أبيه»(٣).

وقولُهُ: ﴿إذ أبَقَ إلى الفُلكِ المشحونِ﴾، قال ابن عباس: هو المُوقَرُ. أي: المملوء بالأمتعةِ.

﴿فَساهمَ﴾، أي: قارعَ، ﴿فكان من المُدحَضِينَ﴾، أي: المغلُوبين. وذلك أن السفينةَ تَلَعَّبَتْ بها الأمواجُ من كلِّ جانب، وأشرفوا على الغرَق، فساهَمُوا على من تَقع عليه القُرعة يُلقى في البحر، لِتَخِفَّ بهم السفينة، فَوقعتِ القرعةُ على نَبيِّ الله يُونُسَ ـ عليه السلامُ ـ ثلاثَ مراتٍ، وهم يَضِنُّون به أن يُلقَى من بينهم، فَتَجرَّدَ من ثيابه لِيُلقِي نفسَه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حُوتاً من البحر الأخضر أن يشقَّ البحار، وأن يَلْتَقِم يونُسَ ـ عليه السلام ـ فلا يَهْشِمَ له لَحماً، ولا يكسِرَ له عظماً. فجاء ذلك الحوتُ وألقى يونسَ ـ عليه السلام ـ نفسَه، فالتقمَه الحوت، وذَهَبَ به فطاف به البحارَ كُلَّها. ولما استقر يونُس في بطنِ الحُوتِ، حَسِبَ أنه قد مات، ثم حَرَّك رأسَه ورِجْلَيه(٤) وأطرافه فإذا هو حيٌّ، فقامَ يُصَلّي في بَطنِ الحُوتِ، وكان من جُملةِ

(١) تفسير الطبري ٩٦/٢٣، وروح المعاني للألوسي ١٤٢/٢٣.

(٢) قرأ بها من السبعة نافعٌ وابنُ عامر، انظر الإقناع لابن الباذش ٢٤٧/٢. وانظر الطبري ٩٦/٢٣، وروح المعاني ١٤٢/٢٣.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٢٦٧/٨، ٢٩٤، وكتاب التوحيد ٥١٢/١٣، وكتاب الأنبياء ٤٥٠/٦ ـ ٤٥١. ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٦/٤.

(٤) في نسخة: «ثم حرّك رجليه وأطرافه».

دعائه: «يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحدٌ من الناس».

واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام. قاله قتادةُ. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوماً، قاله أبو مالك. وقال مُجالد، عن الشَّعبيِّ: التقمه ضُحىً، ولَفَظَهُ عَشِيَّةً[١]. والله أعلَمُ بمقدار ذلك. وفي شعرِ أُمَيَّة بن أبي الصَّلتِ[٢]:

وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيت يُونُساً ... وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِياً

وقولهُ: ﴿فلولا أَنَّه كانَ من المسبِّحين * لَلَبِثَ في بطنِهِ إلى يوم يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تَقدَّم له من العمل في الرَّخاء. قاله الضحَّاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادةُ، وغيرُ واحد. واختاره ابنُ جرير. وقد وَرَدَ في الحديث الذي سَنُورِدَهُ ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفي حديثٍ عن ابن عباس: «تَعرَّف إلى اللهِ في الرخاءِ يعرفك في الشدَّة»[٣].

وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسُدِّي، والحسن، وقتادةُ: ﴿فلولا أنه كان من المُسَبِّحين﴾، يعني: المصلين.

وصَرَّح بعضهم بأنه كان من المصلِّين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبِّحين في جوف أَبَوَيْهِ.

وقيل: المرادُ ﴿فلولا أنه كان من المسبِّحين﴾، هو قولهُ: ﴿فنادى في الظُّلُمات أن لا إلَه إلا أنتَ سُبحانك إنِّي كنتُ من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نُنْجِي المؤمنين﴾، قاله سعيد بن جُبَير وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عَمِّي، حدثنا أبو صخر: أن يزيد الرَّقاشي حَدَّثه: أنه سَمِع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أَنَّ أنساً يرفعُ الحديثَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أَنَّ يونس النبي ـ عليه السلامِ ـ حين بدا له أن يدعُوَ بهذه الكلمات وهُوَ في بطن الحوت، فقال: «اللهمَّ، لا إلَه إلا أنتَ سُبحانَكَ، إني كنتُ من الظالمين». فأقبلت الدعوةُ تَحُفُّ بالعرش، قالت الملائكة: يا ربِّ، هذا صوتٌ ضَعيفٌ معروفٌ من بلاد [بعيدة] غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا ربِّ، ومَن هو؟ قال: عَبدِي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يَزَل يُرفَعُ له عمل مُتَقَبَّل، ودعوةٌ مستجابة؟ قالوا: يا ربِّ، أَوَلا ترحَمُ ما كان يصنَع في الرخاء فَتُنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحُوت فطَرَحَه بالعراء[٣].

ورواه ابن جرير، عن يونُس، عن ابن وهب، به[١]، زاد ابن أبي حاتم: «قال أبو صخر حُمَيد بن زياد: فأخبرني ابن قُسَيط وأنا أُحَدِّثه هذا الحديثَ: أنه سَمِعَ أبا هُريرة يقول: طُرِحَ بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينَةَ. قلنا: يا أبا هُريرة، وما اليقطينةُ، قال: شَجَرَة الدُّبَّاءِ. قال أبو هُريرة: وَهَيَّأَ الله له أُرْوِيَّةً[٤] وَحْشِيَّةً تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو قال: هَشَاشِ الأرضِ ـ قال: فَتَتَفَشَّح عليه فتَرْويه من لَبَنِها كلَّ عَشِيَّةٍ وبُكرةٍ حتى نَبَت.

وقال أمية بن أبي الصَّلت في ذلك بيتاً من شِعرِهِ:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللهِ، لَوْلاَ اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٣/٤.

(٢) البيت في سيرة ابن هشام ٢٢٨/١.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير آية الأنبياء ٨٦. وانظر تفسير الطبري ١٠٠/٢٣.

(٤) الأُرْوِيَّة: تقع على الذكر والأنثى من الوَعْل ـ وهو: تَيسُ الجبل ـ والجمع: أراوَى، وأَرْوَى على غير قياس. وخَشَاش الأرض: هوامُّها وحشراتها. وتَتَفَشَّح: تُفَرِّج ما بين رجليها.

وقد تَقَدَّم حديثُ أبي هُرَيرة مُسنداً مرفوعاً في تفسير «سورة الأنبياء»(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿فنبذناه﴾، أي: ألقيناه ﴿بالعراء﴾ - قال ابنُ عباس، وغيرُه: وهي الأرضُ التي ليس بها نبتٌ ولا بناءٌ. قيل: على جانبِ دِجْلَةَ. وقيل: بأرضِ اليَمَنِ. فالله أعلم.

﴿وهو سَقِيمٌ﴾، أي: ضَعِيفُ البدنِ. قال ابنُ مسعود - رضي الله عنه -: كهيئة الفَرْخِ ليس عليه ريشٌ. وقال السُّدِّي: كهيئة الصبيِّ حين يُولَدُ، وهو المنفوسُ. وقاله ابن عباس، وابنُ زيدٍ أيضاً.

﴿وأنبتنا عليه شجرةً من يقطينٍ﴾، قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ووهبُ بن مُنَبِّهٍ، وهلال بن يِسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسُّدِّي، وقتادةُ، والضَّحَّاك، وعطاءٌ الخراساني، وغيرُ واحدٍ قالوا كلُّهم: اليَقْطِينُ هو القَرْعُ.

وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير: كلُّ شجرةٍ لا ساقَ لها فهي من اليَقْطِين.

وفي روايةٍ عنه: كلُّ شجرة تَهْلِك من عَامِها فَهِي مِنَ اليَقْطِين(٢).

وذكر بعضهم في القرعِ فوائدَ، منها: سرعةُ نَباته، وتظليلُ وَرَقه لِكِبَره، ونُعُومته، وأنه لا يقربُها الذُّباب، وجَودةُ أغذية ثَمرِه، وأنه يُؤكَل نَيِّئاً ومطبوخاً بِلُبِّه وقِشْرِه أيضاً. وقد ثَبَتَ أَنَّ رسول الله - ﷺ - كان يُحِبُّ الدُّبَّاء، ويَتَتَبَّعه من حَواشي الصَّحْفَة(٣).

وقولهُ تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ أو يَزِيدُونَ﴾، روى شَهرُ بن حَوْشَبٍ، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالةُ يونُسَ بعد ما نَبَذَهُ الحوتُ. رواه ابنُ جرير: حدثني الحارثُ قال: حَدَّثنا الحسنُ قال: حَدَّثنا أبو هلال، عن شَهْرٍ، به(٤).

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: أُرسِلَ إليهم قبل أن يَلْتَقِمَه الحوتُ.

قلتُ: ولا مَانِعَ أن يكونَ الذين أُرْسِلَ إليهم أوَّلاً أُمِرَ بالعود إليهم بعد خُرُوجه من الحُوتِ، فَصَدَّقُوه كلُّهم وآمنوا به. وحكى البَغَوي أنه أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ أخرى بعد خُرُوجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون(٥).

وقولهُ: ﴿أو يزيدون﴾، قال ابن عباس - في رواية عنه -: بل يَزِيدُون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفاً. وعنه: مائةَ ألف وبضعةً وأربعين ألفاً.

وقال سعيد بن جُبَير: يَزِيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي، حدثنا عَمْرو بن أبي سَلَمة قال: سَمِعتُ زُهَيراً عَمَّن سَمِعَ أبا العالية قال: حدثني أُبَيُّ بنُ كَعبٍ(٦) أنه سَأَلَ رسول الله - ﷺ - عن قوله: ﴿وأرسلناهُ إلى مائةِ ألفٍ أو يَزِيدون﴾، قال: يَزِيدُون عِشرِينَ ألفاً(٦).

---

(١) البيت في تفسير الطبري ١٠٣/٢٣، وقد تقدمت الأبيات عند تفسير الآية الثانية من سورة الرعد، ٤٤ من سورة طه.
(٢) أخرجه الطبري ١٠٢/٢٣.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، فتح الباري ٥٦٣/٩، ومسلم في كتاب الأشربة ١٦١٥/٣.
(٤) تفسير الطبري ١٠٥/٢٣.
(٥) تفسير البغوي ٤٣/٤.
(٦) تفسير الطبري ١٠٤/٢٣.

ورواه الترمذي عن علي بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهير، عن رَجُلٍ، عن أبي العالية، عن أُبيّ ابن كعبٍ، به، وقال: «غَريبٌ»(١). ورواه ابن أبي حاتم من حديث زُهير، به.

قال ابن جرير: وكان بعضُ أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سَلَكَ ابنُ جرير ها هنا ما سَلَكه عند قولِه تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً﴾. وقولِه: ﴿إذا فريقٌ منهم يخشون الناس كَخَشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً﴾، وقولِه: ﴿فكان قابَ قوسين أو أدنى﴾(٢) أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقولهُ: ﴿فآمنوا﴾، أي: فآمن هؤلاء القومُ الذين أُرسِلَ إليهم يونُسُ ـ عليه السلام ـ جميعهم، ﴿فمتَّعناهم إلى حين﴾، أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانُها إلا قومَ يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جَعْلِهم لله البنات ـ سُبحانَه ـ ولهم ما يَشْتَهُونَ، أي: من الذكور. أي: يَودّون لأنفسهم الجَيِّد. ﴿وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنثى ظَلَّ وجهُه مُسوَدّاً وهو كَظِيم﴾، أي: يَسُوءُه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيفَ نَسبُوا إلى الله القِسْمَ الذي لا يختارُونه لأنفسهم؟! ولهذا قال: ﴿فاستَفتِهِم﴾، أي: سَلْهُمْ على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ألربِّكَ البناتُ ولهم البنون﴾؛ كقوله: ﴿ألكم الذكرُ وله الأنثى ❁ تلك إذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾.

وقولهُ: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهِدُون﴾، أي: كيف حَكَمُوا على الملائكة أنهم إناثٌ وما شاهدوا خلقهم؟! كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً أَشهِدُوا خَلْقَهُم سَتُكتَبُ شهادتُهم ويُسألون﴾، أي: يُسْأَلُون عن ذلك يوم القيامة.

وقولهُ: ﴿ ألا إنَّهم من إفْكِهم﴾، أي: من كَذِبهم ﴿لَيَقُولُون وَلَد الله﴾، أي: صَدَرَ منه الولدُ، ﴿وإنّهم لكاذِبُونَ﴾. فَذَكَرَ الله عنهم في المَلائكة ثلاثةَ أقوالٍ في غاية الكُفرِ والكذب، فأولاً جعلُوهم بناتِ الله، فَجعلُوا لله ولداً، وجعلوا ذلك الولد أُنثى، ثم عَبَدُوهم من دون الله. وكلٌ منها كافٍ في التخليدِ في نار جهنَّم.

ثم قال مُنكِراً عليهم: ﴿أَصْطَفَى البناتِ على البنين﴾، أي: أيُّ شيءٍ يحمِلُه على أن يختار البناتَ دون البنين؟! كقوله: ﴿أفأصفاكُم ربُّكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لَتقُولون قولاً عظيماً﴾. ولهذا قال:

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الصافات ١٢/١٠٨.

(٢) انظر تفسير الطبري، الآيات ٧٤ من سورة البقرة، ٧٧ من سورة النساء، ٩ من سورة النجم.

﴿ما لكم كيف تحكمُون﴾، أي: ما لكم عقول تَتدبَّرون بها ما تقولون؟ ﴿أفلا تَذَكَّرون * أم لكم سلطان مُبينٍ﴾، أي: حُجَّةٌ على ما تقولونه، ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾، أي: هاتُوا برهاناً على ذلك يكون مستندا إلى كتاب مُنزَّلٍ من السماء عن الله أنه اتَّخذ ما تقولونه، فإنَّ ما تقولُونه لا يمكن استنادهُ إلى عقلٍ، بل لا يُجوِّزه العقلُ بالكليَّةِ.

وقولهُ: ﴿وَجعَلُوا بينه وبين الجِنَّةِ نسباً﴾، قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: فمن أُمَّهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجنِّ[1]. وكذا قال قتادةُ، وابنُ زيد، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد عَلِمت الجنةُ﴾، أي: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إنهم لمحضَرُون﴾، أي: إن الذين قالوا ذلك لَمُحضَرُون في العذابِ يوم الحساب لِكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولِهم الباطلَ بلا عِلْمٍ.

وقال العَوفي، عن ابن عبَّاسٍ في قولِهِ: ﴿وجعَلُوا بينَه وبين الجِنَّةِ نَسباً﴾، قال: زَعَمَ أعداءُ اللهِ أنه - تبارك وتعالى - هو وإبليسُ أَخَوانِ. حكاه ابن جرير[1].

وقولهُ: ﴿سبحانَ الله عما يَصِفُون﴾، أي: تعالى وَتَقدَّس وتَنزَّهَ عن أن يكون له ولدٌ، وعما يَصِفُهُ به الظالمون الملحدون عُلُوّاً كَبيراً.

وقوله: ﴿إلَّا عِبادَ الله المخلَصِين﴾ استثناءٌ منقطعٌ، وهو من مُثْبَتٍ، إلا أن يكون الضميرُ في قوله: ﴿عما يَصِفُونَ﴾ عائداً إلى جميعِ الناسِ ثم استَثنى منهم المُخلَصِينَ، وهُم المتَّبِعُون للحقِّ المنزَّلِ على كلِّ نبيٍّ ومُرسَلٍ. وجعل ابنُ جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إنهم لَمحضَرُون. . . إلا عبادَ الله المخلَصين﴾، وفي هذا الذي قاله نظر[2].

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فإنكم وما تعبدُون * ما أنتُم عليه بفاتنين * إلا من هُوَ صَالِ الجَحِيم﴾، أي: ما ينقادُ لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا مَن هو أضلُّ منكم ممن ذُرِىءَ[3] للنار. ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لا يُبصِرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون﴾. فهذا الضربُ من الناس هو الذي ينقاد لدينِ الشركِ والكُفر والضَّلالةِ، كما قال تعالى: ﴿إنكُم لفي قولٍ مختلِف * يُؤفَكُ عنه من أُفِكَ﴾، أي: إنما يَضِلُ به مَأفُوكٌ ومُبْطِلٌ.

ثم قال تعالى مُنزِّهاً للملائكة مما نَسَبُوا إليهم من الكُفر بهم والكَذِب عليهم أنهم بناتُ الله: ﴿وما منَّا إلا له مقامٌ معلومٌ﴾، أي: له موضعٌ مخصوصٌ في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يَتعدَّاه.

وقال ابنُ عساكر في تَرْجَمَتِهِ لمحمد بن خالدٍ، بسنده إلى عبد الرحمٰن بن العلاء بن سَعد، عن أبيه

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٠٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٠٩.
(٣) أي: خُلِق، يقال: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ: خلقهم.

ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال يوماً لجُلَسائِهِ: «أَطّت[١] السماءُ وحُقّ لها أن تئِطّ، ليس فيها موضعُ قَدَمٍ إلا عليه مَلَكٌ راكعٌ أو ساجِدٌ». ثم قرأ: ﴿وإنا لنحنُ الصافُّون * وإنا لنحنُ المُسَبِّحُونَ﴾[٢].

وقال الضحَّاك في تفسيره: ﴿وما منا إلا له مقامٌ معلومٌ﴾، قال: كان مسروقٌ يَرْوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن السماء الدنيا موضعٌ إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائمٌ». فذلك قوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾.

وقال الأعمشُ، عن أبي إسحاقَ، عن مسروقٍ، عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: إن في السمواتِ لَسَماءً ما فيها موضعُ شبرٍ إلا عليه جَبهةُ مَلَكٍ أو قَدَماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿وما مِنَّا إلا له مقامٌ معلومٌ﴾. وكذا قال سعيد بن جُبَير.

وقال قتادةُ: كانوا يُصَلُّون الرجالُ والنساءُ جميعاً، حتى نزلت: ﴿وما مِنَّا إلا له مقام معلوم﴾، فتقدم الرجالُ وتأخَّرَ النساء.

﴿وإنا لنحن الصافُّون﴾، أي: نَقِف صُفوفاً في الطاعةِ، كما تقدَّم عند قوله: ﴿والصَّافاتِ صفًّا﴾، قال ابن جُرَيج، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مُغِيثٍ قال: كانوا لا يَصُفُّون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وإنا لنحن الصافُّون﴾، فَصَفُّوا[٣].

وقال أبو نَضْرَة: كان عُمَر إذا أُقيمت الصلاةُ استقبَلَ الناسَ بوَجْهِه، ثم قال: أقيمُوا صُفُوفَكم، استَوُوا قياماً، يُريد الله بكم هُدى الملائكةِ، ثم يقول: ﴿وإنا لنحنُ الصافُّونَ﴾، تأخَّر يا فلانُ، تَقَدَّم يا فلان، ثم يَتَقَدَّم فَيُكبِّر، رضي الله عنه. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير[٤].

وفي صحيح مسلم عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فُضِّلنا على الناس بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائكةِ، وجُعِلَت لنا الأرضُ مَسجداً، وتُربتُها طَهُوراً...» الحديث[٥].

﴿وإنا لنحنُ المُسَبِّحون﴾، أي: نَصْطَفُّ فَنُسَبِّح الربَّ ونُمَجِّده ونُقدِّسه ونُنَزِّهه عن النقائصِ، فنحنُ عَبِيدٌ له، فُقَراء إليه، خاضِعُون لديه.

وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: ﴿وما مِنَّا إلا له مقامٌ معلومٌ﴾: الملائكةُ، ﴿وإنا لنحنُ الصافُّون﴾: الملائكةُ، ﴿وإنا لَنحنُ المسبِّحُونَ﴾: الملائكة تُسَبِّح الله عزَّ وجلَّ.

وقال قتادةُ: ﴿وإنا لنحنُ المسبِّحون﴾، يعني: المصلُّون، يَثْبُتُون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وقـالوا اتَّخذ الرحمٰنُ ولداً سُبحانَه بل عِبادٌ مكرَمُون * لا يَسبِقُونه بالقولِ وهُم بأمره يَعمَلُون * يعلَمُ ما بين أيديهم وما خَلفَهُم ولا يَشفَعُون إلا لمن ارتضَى وهُم من خَشْيَتِهِ مُشفِقُون * ومن يَقُلْ منهم إني إلهٌ من دُونِهِ فذلك نجزيه جَهنَّم كذلك نجزي الظالمين﴾.

وقولهُ: ﴿وإن كانوا لَيقولُون * لو أنَّ عندنا ذكراً من الأوَّلين * لَكُنَّا عبادَ الله المُخْلَصِين﴾، أي: قد كانُوا

---

(١) الأطيط: صوت الرحل، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أَطّت، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثمَّ أطيط، أريد به تقريرُ عَظَمَةِ الله تعالى.

(٢) وقد أخرجه أيضاً محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، وسيأتي عند تفسير الآية ٣١ من سورة المدثر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ١٣٦/٧.

(٤) تفسير الطبري ١١٢/٢٣.

(٥) مسلم، كتاب المساجد ٣٧١/١.

يتمنَّون قبل أن تأتيَهم ـ يا محمدُ ـ لو كان عندهم مَن يُذكِّرهم بأمر الله، وما كان من أَمْر القرون الأولى، ويأتيهم بكتابِ الله، كما قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءَهم نذيرٌ ليكونُنَّ أهدَى من إحدى الأُمَم فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نُفُوراً﴾. وقال: ﴿أن تقُولوا إنما أُنزلَ الكِتابُ على طائفَتين من قبلِنا وإن كُنَّا عن دِراسَتِهم لغافلين * أو تقُولوا لو أنا أنزل علينا الكتابُ لكنا أهدَى منهم فقد جاءَكُم بيِّنةٌ من ربِّكم وهُدًى ورحمةٌ فَمن أظلَمُ ممن كَذَّب بآيات الله وصَدَفَ عنها سَنَجزي الذين يَصدِفون عن آياتنا سُوءَ العذاب بما كانوا يَصْدِفُون﴾. ولهذا قال ها هنا: ﴿فكَفَرُوا به فسوفَ يعلَمُون﴾، وعيدٌ أكِيدٌ وتهدِيدٌ شَدِيدٌ، على كُفرهم بربِّهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتَكذِيبهم رسولَه ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿ولقد سَبَقت كلمتُنا لعبادنا المُرسَلين﴾، أي: تَقدَّم في الكتاب الأوَّلِ أن العاقبةَ للرُّسل وأتباعِهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورُسُلي إن الله قويٌّ عَزيزٌ﴾. وقال تعالى: ﴿إنَّا لننصرُ رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾. ولهذا قال: ﴿ولقد سَبَقت كَلِمتُنا لِعبادِنا المرسَلين * إنَّهم لَهُمُ المنصُورُون﴾، أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدَّم بيانُ نُصرتهم على قومهم ممَّن كَذَّبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونَجَّى عباده المؤمنين، ﴿وَإنَّ جُندنا لهم الغالِبُون﴾، أي: تكونُ لهم العاقبةُ.

وقولهُ: ﴿فَتَولَّ عنهم حتى حِين﴾، أي: اصبر عَلَى أذاهُم لك، وانتظِر إلى وقتٍ مُؤَجَّلٍ، فإنا سنجعل لك العاقبةَ والنُّصرَةَ والظَّفَر. ولهذا قال بعضُهم: غيَّا[1] ذلك إلى يوم بَدرٍ. وما بعدها أيضاً في معناها.

وقولهُ: ﴿وَأَبْصِرْهُم فسوف يُبصِرُون﴾، أي: أَنظِرْهُم وارتَقِبْ ماذا يَحِلُّ بهم من العذاب والنَّكال على مخالفتك وتكذيبك. ولهذا قال على وجه التهديدِ والوعيدِ: ﴿فسوف يُبصِرُون﴾. ثم قال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَستعجِلُونَ﴾، أي: هم إنما يَستعجِلُون العذاب لتكذيبكَ وكفرهم بك، فإن الله يَغضَبُ عليهم بذلك، ويُعَجِّل لهم العقوبةَ، ومع هذا أيضاً كانوا من كُفرهم وعِنادهم يَستعجِلُون العذاب والعُقوبةَ. قال الله تعالى: ﴿فإذا نَزَلَ بِسَاحَتِهم فَساءَ صَبَاحُ المُنْذَرين﴾. أي: فإذا نزل العذاب بِمَحلَّتهم فبئسَ ذلك اليومُ يومهُم، بإهلاكِهم ودَمارِهم.

قال السُّدِّيُّ: ﴿فإذا نَزَل بساحَتِهم﴾، يعني: بِدَارِهم، ﴿فساءَ صباحُ المنذَرين﴾، أي: فبئسَ ما يُصبِحُون! أي: بئس الصباحُ صباحُهم! ولهذا ثَبَت في الصحيحَين من حديث إسماعيلَ بـن عُلَيَّة، عن عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: صَبَّح رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيبرَ، فلما خَرَجُوا بفئوسهم ومساحِيهم ورأَوُا الجيشَ رجعوا يقولون: محمدٌ واللهِ، محمدٌ والخميسُ! فقال النبي ـ ﷺ ـ: «الله أكبرُ خَرِبت خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحةِ قَومٍ فساءَ صباحُ المنذَرينَ!»[2]. ورواه البخاري من حديث مالك، عن حُمَيدٍ، عن أنسٍ[2].

---

(١) غيَّا الشيء: جعل له نهاية.

(٢) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٤٧٩ ـ ٤٨٠، وكتاب المغازي ٧/٤٦٧، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤٢٦ ـ ١٤٢٧.

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا رَوحٌ، حدثنا سَعِيدِ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ، عن أنس بن مالكٍ، عن أبي طلحةَ قال: لما صَبَّح رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيبرَ، وقد أخذوا مساحِيَهم وغدَوا إلى حُرُوثِهم وأَرَضِيهم، فلما رأوا النبي ﷺ نَكَصُوا مُدَبرين، فقال نبيُّ الله ـ ﷺ ـ : [الله أكبر، الله أكبر، إنا] إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساء صباحُ المنذَرِين!»(١). لم يُخرِجُوه من هذا الوجهِ، وَهُوَ صحيحٌ على شَرْطِ الشيخَين.

وقولهُ: ﴿وتولَّ عنهم حتَّى حينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، تأكيدٌ لما تقدَّم من الأمرِ بذلِكَ.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

يُنَزِّه تعالى نفسَه الكريمةَ وَيُقَدِّسها ويُبَرِّئها عما يقولهُ الظالمون المكذِّبون المعتدُون، تعالى وتقدَّس عن قولِهم عُلُوّاً كبيراً. ولهذا قال: ﴿سُبحانَ رَبِّك ربِّ العزَّةِ﴾، أي: ذِي العزَّةِ التي لا تُرَام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن قولِ هؤلاء المعتدين المُفتَرين، ﴿وسلامٌ على المُرسَلِين﴾، أي: سلامُ اللهِ عليهم في الدنيا والآخرة لسلامةِ ما قالُوه في ربِّهم، وصِحَّتِهِ وَحَقِّيَّتِه، ﴿والحمدُ لله ربِّ العالمين﴾، أي: له الحمدُ في الأولى والآخرةِ في كلِّ حالٍ. ولما كانَ التسبيحُ يَتَضَمَّنِ التنزيهَ والتبرئةَ من النقصِ بِدَلالةِ المُطابقة، ويستلزم إثباتَ الكمالِ، كما أن الحمدَ يدلُّ على إثباتِ صفاتِ الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيهَ من النقص ـ قَرَن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرةٍ مِنَ القرآن. ولهذا قال: ﴿سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عما يَصِفُون * وسلامٌ على المُرسَلِين * والحمدُ لله ربِّ العالمين﴾.

وقال سعيدُ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «إذا سَلَّمتُم عليَّ فَسَلِّمُوا على المُرسَلين، فإنما أنا رسولٌ مِنَ المرسَلِين».

هكذا رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث سعيدٍ، عنه، كذلكَ(٢).

وقد أَسنَدَهُ ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا أبو بكر الأعيَنُ ومحمدُ بن عبد الرحيم صاعقةُ قالا: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا شَيبانُ، عن قتادَةَ قال: حَدَّثَ أنسُ بنُ مالكٍ، عن أبي طلحةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «إذا سَلَّمتُم عليَّ فَسَلِّموا على المُرْسَلِينَ».

وقال الحافظ أبو يعلى: حَدّثنا محمدُ بن أبي بكر، حدثنا نوحٌ(٣)، حدثنا أبو هارون، عن أبي سَعِيدٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه كان إذا سَلَّمَ قال: ﴿سُبحانَ ربِّك ربِّ العزَّة عما يَصِفُون * وسَلامٌ على المرسلين * والحمدُ لله ربِّ العالمين﴾. ثم يُسَلِّم. إسنادُهُ ضعيفٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عَمَّار بن خالد الواسطي، حدثنا شَبابةُ، عن يونس بن أبي إسحاقَ، عن الشعبيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «مَن سَرَّه أن يكتالَ بالمكيالِ الأوفى من الأجر يومَ القيامةِ فَلْيَقُل آخرَ مجلسِهِ حين يُريدُ أن يقوم: ﴿سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عما يَصِفُونَ * وسلامٌ على المرسَلِينَ * والحمدُ لله ربِّ العالمين﴾».

وَرُوِيَ من وجهٍ آخرَ مُتَّصِلٍ موقوفٍ على عليٍّ، رضي الله عنه.

(١) مسند أحمد ٢٨/٤. وما بين القوسين عنه.
(٢) تفسير الطبري ١١٩/٢٣.
(٣) في النسخ: فرج. وهو نوح بن قيس بن رباح الأزدي، يروي عن أبي هارون عمارة بن جويه، كما في تهذيب الكمال.

قال أبو محمد البَغَوِيُّ في تفسيره: أخبرنا أبو سَعِيدٍ أحمد الشُّرَيحي، أخبرنا أبو إسحاق الثَّعلبي، أخبرني ابن فَنجُويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سَهْلُويه، حدثنا علي بن محمد الطَّنافِسِيُّ، حدثنا وكيعٌ، عن ثابتِ بن أبي صَفِيَّةَ، عن الأصبغ بن نُباتَةَ، عن علي - رضي الله عنه - قال: من أحبَّ أن يكتالَ بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه مِنْ مجلسه: ﴿سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عما يَصِفُون * وسلامٌ على المُرْسَلِينَ * والحمدِ لله رب العالمين﴾[1].

وروى الطبراني من طريق عبد الله بنِ صخر[2] الأَنَسِيِّ، عن عبد الله بن زَيد بن أرقَمَ، عن أبيه، عن رَسُول الله - ﷺ - أنه قال: من قال دُبُرَ كلِّ صلاة: «﴿سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عما يَصِفُون * وسلامٌ على المرسلين * والحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ﴾، ثلاثَ مراتٍ، فقد اكتالَ بالجَريبِ الأوفى من الأَجْرِ»[3].

وقد وَرَدَت أحاديثُ في كَفَّارة المجلِس: «سُبحانَكَ اللهُمَّ وبحمدِك، لا إله إلا أنتَ، أَستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ»[4].

وقد أَفْرَدْتُ لها جُزءاً على حِدَةٍ، فَلْتُكتَبْ ها هنا إن شاءَ الله تعالى.

* * *

آخر تفسير سورة الصافات

(١) تفسير البغوي ٤/٤٦.
(٢) في المعجم الكبير: عبد الله بن محمد الأنسي.
(٣) المعجم الكبير ٥/٢١١.
(٤) انظر هذه الأحاديث عند تفسير الآية ٤٨ من سورة الطور.

تـفسير

سورة ص

وهي مكـية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾.

أمَّا الكلامُ على الحُروفِ المقطَّعة فقد تقدَّم في أوَّلِ «سُورَةِ البقرَة»، بما أغنى عن إعادته ها هنا.

وقولُهُ: ﴿والقرآنِ ذي الذِّكرِ﴾، أي: والقرآنِ المشتمِل على ما فيه ذكرٌ للعبادِ، ونفعٌ لهم في المعاشِ والمَعَادِ.

قال الضحَّاكُ في قوله: ﴿ذي الذِّكرِ﴾، كَقَولِهِ: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكرُكُم﴾، أي: تذكيرُكُم. وكذا قال قتادةُ، واختارَهُ ابنُ جَرير[١]. وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وإسماعيل بنُ أبي خالد، وابن عُيَينة، وأبو حُصَين، وأبو صالح، والسُّدِّي: ﴿ذي الذكر﴾: ذي الشَّرفِ، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاةَ بين القولين، فإنه كتابٌ شريفٌ مُشتمِلٌ على التذكير والإعذار والإنذار.

واختلفُوا في جواب هذا القسم، فقال بعضُهم: هو قولُهُ: ﴿إنْ كلٌّ إلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾. وقيل: قولُهُ: ﴿إنَّ ذلك لَحَقٌّ تخاصُمُ أهلِ النارِ﴾، حكاهُما ابنُ جَرير، وهذا [الثاني] فيه بعدٌ كبيرٌ، وضَعَّفَه ابنُ جَريرٍ[١].

وقال قتادةُ: جوابُه ﴿بل الذين كَفَرُوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ﴾، [واختاره ابنُ جَرير][١].

وقيل: جَوَابُهُ ما تَضَمَّنه سياقُ السُّورةِ بكمالها. والله أعلَمُ.

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العربيَّةِ أنه قال: جوابُهُ: ﴿صٓ﴾ [بمعنى]: صِدْقٌ حَقٌّ والقرآنِ ذي الذِّكرِ[٢].

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/١١٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٣/١١٨.

وقولهُ: ﴿بل الذين كَفَرُوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ﴾، أي: إن في هذا القرآنِ لذكراً لمن يَتَذَكَّر، وعبرةً لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿في عِزَّةٍ﴾، أي: استكبار عنه وحَمِيَّةٍ، ﴿وشِقَاقٍ﴾، أي: مُخَالفةٍ له ومُعانَدَةٍ ومُفَارَقَةٍ.

ثم خَوَّفهم ما أهلك به الأممَ المُكَذِّبة قبلهم بسبب مُخَالفتهم للرسل وتَكذِيبهم الكُتُبَ المنزَّلة من السماء، فقال: ﴿كم أَهْلَكنا مِن قَبلِهم من قَرْنٍ﴾، أي: من أُمَّةٍ مُكَذِّبةٍ، ﴿فنادَوا﴾، أي: حين جاءهم العذابُ استغاثوا وجَأرُوا إلى الله. وليس ذلك بمُجدٍ عنهم شيئاً، كما قال تعالى: ﴿فلما أحسُّوا بأسَنا إذا هُم منها يَرْكُضُون﴾، أي: يهرُبون، ﴿لا تركضُوا وارجعُوا إلى ما أُترِفْتم فيه ومَسَاكِنكم لعلكم تُسأَلُون﴾.

قال أبو داود الطَيَالِسِيُّ: حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن التميمي قال: سألتُ ابنَ عباس عن قول الله: ﴿فنادوا ولاتَ حينَ مَناص﴾، قال: ليس بِحِينِ نَزْوٍ ولا فِرارٍ[1].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مَغاثٍ.

وقال شَبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادوا النداءَ حين لا ينفعُهم، وأنشد:

تَذَكَّرَ لَيلَى لاتَ حِينَ تَذَكُّرِ

وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿فَنادَوْا ولاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادَوا بالتوحيدِ حينَ تولَّت الدُّنيا عنهم، واستناصُوا[2] حين تولَّت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأَوُا العذابَ أرادوا التوبةَ في غير حين النداء. وقال مجاهد: ﴿فنادَوا ولاتَ حينَ مَناصٍ﴾، ليس بِحِينَ فَرَارٌ ولا إجابةٌ. وقد رُوِيَ نحو هذا عن عكرمة، وسعيد ابن جُبَير، وأبي مالك، والضحاك، وزيدِ بن أسلَمَ، والحَسَنِ، وقتادَةَ: وعن مالكٍ، عن زيدِ بن أسلَمَ: ﴿ولات حينَ مَناصٍ﴾، ولا نداءَ في غير حينِ النداءِ.

وهذه الكلمة وهي «لات»، هي «لا» التي للنفي، زِيدَت معها التاءُ، كما تزاد في «ثُمَّ»، فيقولون: «ثُمَّت»، و«رُبَّ» فيقولون: «رُبَّتَ». وهي مفصُولةٌ، والوقفُ عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابنُ جرير][3] أنها متصلة بحين: «ولا تَحِين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهورُ بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حينَ مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد[4]:

تَـذَكَّـرَ حُبَّ لَـيلَى لاتَ حِـينـاً ... وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ القَـرِينَا

ومنهم من جَوَّز الجر بها، وأنشد[5]:

طَـلَبُوا صُـلْحَـنَـا وَلاتَ أَوَانٍ ... فَـأَجَبْنَـا أَنْ لَـيس حِـيـنُ بَـقَـاءِ

---

(١) ليس في مسند أبي داود الطيالسي. والحديث أخرجه الحاكم بإسناده إلى أبي إسحاق وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وفي النسخ: «ليس بحين ولا نزو». والمثبت عن المستدرك، كتاب التفسير ٢/٤٣٢ - ٤٣٣. وفي الدر المنثور ٧/١٤٤: «ليس بحين تزور ولا فرار». وهو تحريف. ولفظ الطبري في تفسيره ٢٣/١٢١: «ليس بحين نَزْوٍ ولا فرار».

(٢) استناص الشيء: حَرَّكه، يُقال: استناص فلاناً: استنهضه لقضاء حاجته. والكلام تمثيل. وما بين القوسين عن الدر المنثور ٧/١٤٥.

(٣) مكان بياضٌ في الأصل، وانظر تفسير الطبري ٢٣/١٢٤.

(٤) أنشد هذا البيت المفضل، انظر معاني القرآن للفراء ٢/٣٩٧، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٥/٢٩.

(٥) البيت لأبي زُبيد الطائي كما في شرح أبيات المغني للبغدادي ٥/٣١-٣٢، وانظره في معاني القرآن للفراء ٢/٣٩٨، وتفسير الطبري ٢٣/١٢٢.

وأنشد بعضهم أيضاً[١]:

* وَلاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ *

بخفض الساعةِ: وأهلُ اللغةِ يقولون: النَّوصُ: التأخرُ. والبَوْصُ: التقدُّم. ولهذا قال تعالى: ﴿ولات حين مناص﴾، أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهابٍ.

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تَعَجُّبهم من بِعْثَةِ الرسولِ بشراً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عَجَباً أن أوحينا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذرِ الناس وبَشِّر الذين آمنوا أن لَهُم قَدَم صِدْقٍ عند ربِّهم قال الكافرون إن هذا لساحرٌ مُبينٌ﴾. وقالَ ها هنا: ﴿وعَجِبُوا أن جاءهُم منذرٌ منهم﴾، أي: بَشَرٌ مثلهم، ﴿وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذَّابٌ * أجعلَ الآلهة إلَهاً واحداً﴾، أي: أزعَمَ أن المعبودَ واحدٌ لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قَبَّحهم الله تعالى ـ وتَعَجَّبُوا من تَرْكِ الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلَقَّوا عن آبائهم عبادةَ الأوثان وَأُشْرِبَتْهُ قلوبُهُم، فلما دعاهم الرسولُ ـ ﷺ ـ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفرادِ الله بالوحدانية، أعظمُوا ذلك وتعجَّبُوا وقالوا: ﴿أجعَلَ الآلهة إلَهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿امشوا﴾، أي: استمرُّوا على دينكم، ﴿واصبرُوا على آلهتكم﴾، ولا تستجيبُوا لما يدعوكم إليه محمدٌ من التوحيد.

وقولهُ: ﴿إن هذا لشيءٌ يُرادُ﴾. قال ابنُ جَرير: إنَّ هذا الذي يدعونا إليه محمدٌ من التوحيد لَشَيءٌ يريد به الشرفَ عليكم والاستعلاءَ، وأن يكون له منكم أتباعٌ، ولسنا مُجيبيه إليه[٢].

ذكرُ سَبَبِ نُزول هذهِ الآياتِ:

قال السُّدِّي: إن أُناساً من قُرَيش اجتمعوا، فيهم أبو جَهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسودُ بن المطلب، والأسود بن عبد يَغُوث، في نفر من مشيَخَةِ قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقُوا بنا إلى أبي طالب فَلْنُكَلِّمْه فيه، فَلْيَنصِفْنا منه، فَلْيكف عن شَتْم آلهتنا، ونَدَعه وإلهه الذي يعبده؛ فإنا نخاف أن يموتَ هذا الشيخ، فيكونَ منا إليه شيءٌ فَتُعَيِّرَنا به العربُ، يقولون: تركُوه حتى إذا مات عنه تناولُوه. فبعثوا رَجُلاً منهم يقال له

---

(١) أنشده ابن السكيت في كتاب الأضداد، والبيت بتمامه:

وَلَتعرِفُنَّ خَلائقاً مشمولةً وَلَتندَمُنَّ ولات ساعة مَنْدَمِ

قال ابن الأعرابي: أخلاق مشمولة، أي: مشئومة وأخلاق سَوْءٍ. ويقال أيضاً: رَجُلٌ مشمولُ الخلائق، أي: كريم الأخلاق.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٢٦.

المُطَّلِبُ، فاستأذن لهم عَلَى أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيَخةُ قومك وسَرَاتهم يستأذنون عليك. قال: أدخِلْهُم. فلما دَخَلُوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرُنا وسيِّدنا، فَأَنصِفنا من ابن أخيك، فمره فَلْيَكفَّ عن شَتْمِ آلِهَتِنا ونَدَعه وإلَهه. قال: فَبَعثَ إليه أبو طالب، فلما دَخَلَ عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: يا ابنَ أخي، هؤلاء مَشْيَخَةُ قومك وسَرَاتهم، وقد سألوك أن تَكُفَّ عن شَتْمِ آلهتهم ويَدَعُوك وإلَهَكَ. قال: يا عَمِّ، أفلا أدعُوهم إلى ما هو خيرٌ لهم؟ قال: وإلامَ تدعُوهم؟ قال: أدعوهم أن يتكلموا بكلمةٍ تَدِينُ لهم بها العرب، ويَملِكُون بها العَجَم. فقال أبو جهلٍ من بينِ القوم: ما هي وأبيك؟ لَنُعطِيَنَّكَهَا وعشرةَ أمثالِها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فَنَفَرَ وقال: سَلْنا غيرَ هذا. قال: لو جئتُموني بالشمسِ حتى تَضَعُوها في يَدَيَّ، ما سألتكُم غيرها. فقاموا من عنده غِضاباً، وقالوا: والله لَنَشْتُمَنَّكَ وإلَهك الذي أمرك بهذا. ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشُوا واصبِرُوا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يُرادُ﴾.

رواه ابن أبي حاتم، وابنُ جَرير، وزاد: «فلما خَرَجُوا دَعَا رسول الله ـ ﷺ ـ عَمَّه إلى قولِ «لا إلَهَ إلا الله»، فأبى وقال: بل على دينِ الأشياخ. ونَزَلَت: ﴿إنك لا تهدِي من أحببتَ﴾[(١)].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كُرَيب وابنُ وَكيع قالا: حدثنا أبو أُسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عَبَّاد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما مَرِضَ أبو طالب، دَخَلَ عليه رهطٌ من قُرَيش، فيهم أبو جَهل، فقالوا: إنَّ ابن أخيكَ يشتُم آلهتنا. ويفعَلُ ويفعَلُ، ويقولُ ويقولُ، فلو بعثتَ إليه فَنَهيتَه؟ فبعث إليه، فجاء النبيُّ ـ ﷺ ـ فدخَلَ البيتَ وبينهم وبين أبي طالب قدرُ مجلس رجلٍ، قال: فَخَشِيَ أبو جهل إن جلس إلى جَنْبِ أبي طالب أن يكون أرَقَّ له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسولُ الله ـ ﷺ ـ مجلِساً قُرب عَمِّه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابنَ أخي، ما بالُ قومك يَشكُونك، يزعُمون أنك تشتم آلهتهم، وتقولُ وتقولُ؟ قال: وأكثَرُوا عليه من القول. وتكلَّم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا عَمِّ، إني أُريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها تَدِين لهم بها العربُ، وتُؤَدِّي إليهم بها العَجَمُ الجزيةَ». فَفَزِعُوا لكلمته ولقولِه، وقال القوم: كلمةً واحدةً! نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأَيُّ كلمةٍ هي يا ابنَ أخي؟ فقال: «لا إلَهَ إلا الله». فقامُوا فَزِعين يَنفُضُون ثيابَهم، وهم يقولون: ﴿أجعَلَ الآلهة إلَهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجابٌ﴾. قال: ونَزَلت من هذا الموضع إلى قولِهِ: ﴿لَمَّا يذوقوا عذابِ﴾. لفظ أبي كُرَيب[(٢)].

وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَير، كلاهما عن أبي أُسامة، عن الأعمشِ، عن عَبَّاد ـ غير منسوب ـ به نحوه. ورواه الترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضاً، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمارة الكُوفي، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ، فذكر نحوه. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ»[(٣)].

وقولُهم: ﴿ما سَمِعنا بهذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾، أي: ما سَمِعنا بهذا الذي يدعُونا إليه محمدٌ من التوحيدِ في المِلَّةِ الآخرةِ.

قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد: يعنُونَ دينَ قريشٍ. وقال غيرُهم: يَعنُونَ النَّصرانيَّة. قاله مُحمَّد بنُ

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٢٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٣٦٢، وأخرجه النسائي في كتابي التفسير والسِّيَر من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزيّ ٤/٤٥٦. والترمذي في عارضة الأحوذي، تفسير سورة صۤ ١٢/١٠٩ ـ ١١١.

كَعب، والسُدّي. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ما سَمِعنا بهذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾، يعني النصرانيَّةِ، قالوا: لو كان هذا القرآنُ حقّاً أخبرَتْنا به النصارى(١).

﴿إنْ هذا إلاَّ اختلاقٌ﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ: كَذِبٌ. وقال ابن عباس: تَخَرُّصٌ.

وقولُهم: ﴿أأُنزِلَ عليه الذكرُ من بيننا﴾، يعني: أنَّهم يستعبدون تخصيصَه بإنزالِ القرآن عليه من بينهم كلِّهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رَجُل من القريتَين عظيم﴾ قال الله تعالى: ﴿أهُم يقسِمُون رحمةَ ربِّك نحن قَسَمنا بينهم معيشَتهم في الحياة الدنيا ورَفَعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درَجاتٍ﴾. ولهذا لما قالوا هذا الذي دَلَّ على جهلِهم وقلَّةِ عقلهم، في استبعادهم إنزالَ القرآن على الرسُولِ من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بل لما يَذُوقوا عذابِ﴾، أي: إنما يقولُون هذا لأنهم ما ذاقُوا إلى حينِ قولهم ذلك عذابَ اللهِ ونقمتَه، سَيَعلمُون غِبَّ(٢) ما قالُوا، وما كَذَّبُوا به، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً.

ثم قال مُبَيِّناً أنه المتصرِّفُ في ملكه، الفعَّالُ لما يشاء، الذي يُعطِي مَن يشاء ما يشاء، ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ويَهدِي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، ويُنزِّل الروح مِن أمره على مَن يشاء مِن عباده، ويختم على قلب مَن يشاء، فلا يهديه أحدٌ من بعدِ الله، وإنَّ العبادَ لا يملِكُون شيئاً من الأمر، وليس إليهم مِن التصرُّف في الملك ولا مثقالُ ذرَّةٍ، وما يملكون من قطمير. ولهذا قال تعالى مُنكِراً عليهم: ﴿أم عندهُم خَزائِنُ رحمَةِ ربِّك العزيزِ الوهابِ﴾، أي: العزيزِ الذي لا يُرَام جَنَابه، الوهَّابُ الذي يُعطِي ما يُريد لمن يريدُ. وهذه الآيةُ شبيهةٌ بقولِه: ﴿أم لَهم نصيبٌ من الملك فإذا لا يُؤتُون الناسَ نَقِيراً * أم يحسدُون الناسَ على ما آتاهُم الله من فَضْلِه فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُم ملكاً عظيماً * فمنهم مَن آمن به ومنهُم مَن صَدَّ عنه وكفى بجهنَّم سَعِيراً﴾. وقولِه: ﴿قل لو أنتم تملِكُون خَزائِنَ رحمةِ ربِّي إذاً لأمسكتُم خشيةَ الإنفاقِ وكان الإنسانُ قَتُوراً﴾. وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بَعثَةَ الرسولِ البَشرِيِّ، وكما أخبر تعالى عن قومِ صالح حين قالوا: ﴿أأُلقِيَ الذكرُ عليه من بيننا بل هو كذابٌ أشِرٌ * سيعلَمُون غداً مَن الكذَّابُ الأشِرُ﴾.

وقولهُ: ﴿أم لهم ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما فلْيرتَقُوا في الأسبابِ﴾، أي: إن كان لهم ذلك فَلْيصعَدُوا في الأسباب. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ، وغيرُهم: يعني طُرُقَ السماء. وقال الضَّحاكُ: فليصعدوا إلى السماءِ السابعةِ.

ثم قال: ﴿جندٌ ما هُنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾، أي: هؤلاء الجندُ المكذِّبون الذين هم في عِزَّةٍ وشقاقٍ سَيُهزَمُونَ ويُغلَبُونَ ويُكبَتُون، كما كُبِتَ الذين من قبلِهم من الأحزاب المُكَذِّبين. وهذه كقوله: ﴿أم يقولُون نحنُ جميعٌ منتصرٌ * سَيُهزَم الجمعُ ويُوَلُّون الدُّبُرَ﴾، وكان ذلك يوم بدر، ﴿بل الساعةُ موعدُهم والساعةُ أدهى وأمَرُّ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٢٦.
(٢) أي: عاقبته وآخرته.

يقولُ تعالى مُخبراً عن هؤلاء القُرون الماضية، وما حَلَّ بهم من العذابِ والنكالِ والنِّقْماتِ في مخالفة الرُّسل وتكذيب الأنبياء. وقد تَقَدَّمت قِصَصُهم مبسوطةً في أماكنَ مُتعدِّدة.

وقوله: ﴿أولئك الأحزابُ﴾، أي: كانوا أكثرَ منكم وأشدَّ قُوَّةً، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، فما دَفَعَ ذلك عنهم من عذاب الله من شيءٍ لما جاء أمرُ اللهِ. ولهذا قال: ﴿إن كلٌّ إلا كَذَّب الرُّسلَ فَحَقَّ عقابِ﴾. فَجَعَلَ عِلَّةَ هلاكِهم هو تكذيبُهم بالرسلِ، فَلْيَحْذَرِ المخاطَبُون من ذلك أشدَّ الحَذَرِ.

وقولهُ: ﴿وما ينظرُ هؤلاءِ إلا صيحةً واحدةً ما لها من فَوَاقٍ﴾، قال مالكٌ، عن زيد بن أسلَمَ: أي ليسَ لها مَثْنَوِيَّةٌ[1]، أي: ما ينظرون إلا الساعةَ أن تأتيَهم بغتةً فقد جاء أشراطُها، أي: قد اقتربت ودَنَت وأَزِفَت. وهذه الصيحةُ هي نفخةُ الفَزَعِ التي يأمر الله إسرافيل أن يُطَوِّلها، فلا يبقى أحدٌ من أهلِ السمواتِ والأرضِ إلا فَزِعَ، إلا من استثنى الله عَزَّ وجَلَّ.

وقولهُ: ﴿وقالُوا رَبَّنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبلَ يوم الحِسَابِ﴾. هذا إنكارٌ من الله على المشركين في دُعَائهم على أنفسهم بتعجيل العَذَابِ، فإنَّ القِطَّ هو الكِتَابُ. وقيل: هو الحظ والنصيبُ. قال ابن عباس، ومجاهدٌ، والضحَّاك، والحَسنُ، وغيرُ واحد: سألوا تعجيلَ العذاب، زاد قتادةُ: كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِر علينا حجارةً من السماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليم﴾[2].

وقيل: سألُوا تعجيلَ نَصِيبِهم من الجنَّةِ إن كانت موجودةً أن يلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خَرَجَ هذا منهم مَخْرَجَ الاستبعادِ والتكذيبِ..

وقال ابنُ جرير: سألُوا تَعجيل ما يَستحِقُّونه من الخيرِ أو الشرِّ في الدنيا. وهذا الذي قاله جَيِّدٌ، وعليه يدور كلامُ الضحَّاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلامُ منهم على وجه الاستهزاء والاستبعادِ قال الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ آمراً له بالصبرِ على أذاهم، ومُبَشِّراً له على صَبْرِهِ بالعاقبةِ والنصرِ والظفرِ.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داودَ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ: أنه كان ذَا أَيْدٍ، والأَيْدُ: القُوَّةُ في العِلْمِ والعَمَلِ، قال ابن عباس وابن زيد والسُّدِّي: الأيد: القوة، وقرأ ابنِ زيد: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾، وقال مجاهد: «الأَيْدُ: القوة في الطاعة». وقال قتادة: أُعطِيَ داود ـ عليه السلام ـ قُوَّةً في العبادةِ، وفِقهاً في الإسلام، وقد ذُكِرَ لنا أنَّه ـ عليه السلامُ ـ كان يقوم [ثُلثَ] الليل، ويصومُ نصفَ الدهر[3]. وهذا ثابتٌ في الصحيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أحبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، وأحبُّ الصيام إلى اللهِ صيامُ داودَ، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثُلثه، وينام سُدُسَه، وكان يصومُ يوماً ويفطِر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى»[4]. وأنه كان أَوَّاباً، وهو الرجَّاع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في جميع أُموره وشُئُونِه.

---

(١) أي: استثناءة ورَدّ.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/١٣٤.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/١٣٦.

(٤) تقدم عند تفسير الآية ١٣ من سورة سبأ، وخرجناه هنالك.

وقولُه: ﴿إنَّا سَخَّرنا الجبالَ معه يُسَبِّحن بالعشيِّ والإشراقِ﴾، أي: إنه تعالى سَخَّر الجبالَ تُسَبِّح معه عند إشراق الشمس وآخرَ النهار، كما قال تعالى: ﴿يا جبالُ أَوِّبي مَعَه والطيرَ﴾. وكذلك كانت الطيرُ تُسَبِّح بتسبيحِهِ، وتُرَجِّع بترجيعه، إذا مَرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فَسَمِعَه وهو يَتَرنَّم بقراءة الزَّبُورِ لا تستطيعُ الذهاب، بل تَقِفَ في الهواءِ تُسَبِّح معه، وتُجيبه الجبالُ الشامخات، تُرَجِّع معه، وتُسَبِّح تَبَعاً له.

قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا محمدُ بن بِشْر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن مُوسَى بن أبي كَثِير، عن ابن عباس أنه بَلَغه: أن أُمَّ هانىء ذَكرت أنَّ رسُول الله ـ ﷺ ـ يوم فَتْحِ مَكَّةَ صلى الضُّحَى ثمان رَكَعَاتٍ. قال ابنُ عباسٍ: قد ظَننتُ أن لهذه الساعة صلاةً، يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحن بالعشيِّ والإشراقِ﴾.

ثم رَواه من حديث سعيد بن أبي عَرُوبة، عن أبي المتوكِّل، عن أَيُّوبَ بن صَفْوَانَ، عن مولاه عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس كان لا يُصَلِّي الضُّحَى. قال: فأدخلتُه على أمِّ هانىء فقلتُ: أخبري هذا ما أخبرتِني. فقالت أمُّ هانىء: دَخلَ عليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صُبَّ في قَصْعَةٍ، ثم أَمَرَ بثوب، فأخذَ بيني وبينه، فاغتسَلَ ثم رَشَّ ناحيةَ البيتِ، فَصَلَّى ثمانَ رَكَعاتٍ، وذلك من الضُّحَى، قِيامُهنَّ ورُكوعُهنَّ وسُجُودُهنَّ وجلوسهن سَوَاءٌ، قريبٌ بَعضُهنَّ من بعض. فَخرَجَ ابنُ عباسٍ وهو يقول: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحَين ما عرفتُ صلاةَ الضُّحَى إلاَّ الآنَ: ﴿يُسَبِّحن بالعشيِّ والإشراقِ﴾، وكنتُ أقولُ: أينَ صلاةُ الإشراقِ؟ وكان بَعدُ يقولُ: صلاةُ الإشراقِ[1].

ولهذا قال: ﴿والطيرَ محشورةً﴾، أي: محبوسةً في الهواء، ﴿كُلٌّ له أَوَّابٌ﴾، أي: مُطيع يُسَبِّح تَبَعاً له. قال سعيد بن جُبَير، وقتادةُ، ومالكٌ عن زيدِ بن أسلَمَ، وابنُ زيد: ﴿كُلٌّ له أَوَّابٌ﴾، أي: مُطيع.

وقولُه: ﴿وشَدَدنا مُلكه﴾، أي: جَعَلنا له مُلكاً كاملاً من جَمِيع ما يحتاجُ إليه الملوك. قال ابنُ أبي نَجِيحٍ، عن مجاهدٍ: كان أشدَّ أهلِ الدنيا سلطاناً. وقال السُّدِّي: كان يحرسُه كُلَّ يومٍ أربعةُ آلافٍ. وقال بعض السلف: بلغني أنه كان حَرَسُهُ في كل ليلة ثلاثةً وثلاثين ألفاً، لا تدورُ عليهم النَّوبةُ إلى مثلِها من العام القابل. وقال غيرُه: أربعون ألفاً مُشتَكُون بالسلاح.

وقد ذكر ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاس: أنَّ نَفرين من بني إسرائيل استعدَى أحدُهما على الآخر إلى داودَ ـ عليه السلامُ ـ أنه اغتصَبَه بقراً، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدَّعي بَيِّنةٌ، فأرجأ أمرَهما. فلما كان الليلُ أُمِرَ داودُ ـ عليه السلامُ ـ في المنام بقتل المدَّعي. فلما كان النهارُ طَلَبهما وأمر بقتل المُدَّعِي، فقال: يا نَبي الله، عَلَام تَقتُلني وقد اغتصبني هذا بَقَري؟ فقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمرني بقتلك، فأنا قاتلك لا محالَةَ. فقال: والله يا نبيَّ الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادَّعيتُ عليه، وإنِي لصادق فيما ادَّعَيتُ، ولكني كنت قد اغتلتُ أباه وقتلتُه، ولم يشعر بذلك أحدٌ، فأَمَرَ به داودُ ـ عليه السلام ـ فَقُتِلَ.

قال ابنُ عباسٍ: فاشتدَّت هَيبتُه في بَنِي إسرائيلَ، وهو الَّذِي يقولُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾[2].

وقولُه: ﴿وآتيناهُ الحِكْمَةَ﴾، قال مجاهدٌ: يعني الفهمَ والعقلَ والفِطنة. وقال مَرَّةً: الحكمةَ والعدلَ. وقال مَرَّةً: الصوابَ. وقال قتادة: كتابَ الله واتباعَ ما فيه. وقال السُّدِّي: ﴿الحكمة﴾: النبُوَّة.

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٣٧، ولفظ الطبري: «ثم قال بعدُ: هُنَّ صلاة الإشراق».

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/١٣٨ ـ ١٣٩.

وقولهُ: ﴿وفَصْلَ الخِطابِ﴾، قال شُرَيحٌ القاضي، والشَّعبيُّ: فصلُ الخطاب الشهودُ والأَيمانُ. وقال قتادةُ: شاهِدان على المُدَّعِي، أو يمين المُدَّعَى عليه، هو فصلُ الخطابِ الذي فَصَل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاءُ هذه الأمَّةِ إلى يوم القيامة. وكذا قال أبو عبد الرحمٰن السلمي. وقال مجاهدٌ. والسُّدِّيُّ: هو إصابةُ القضاءِ وفهمُه. وقال مجاهدٌ أيضاً: هو الفصلُ في الكلام وفي الحُكمِ. وهذا يشمَلُ هذا كلَّه، وهو المراد، واختاره ابنُ جرير(١).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عُمر بن شَبَّة النُّميري، حدثنا إبراهيمُ بن المنذر، حَدَّثني عبد العزيز بن أبي ثابتٍ، عن عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن بلالِ بن أبي بُردَةَ، عن أبيهِ، عن أبي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قال: أَوَّلُ مَن قال: «أما بعدُ» داوُد ـ عليه السلام ـ وهو فصلُ الخطاب.

وكذا قال الشعبيُّ: فَصْلُ الخِطَابِ: «أَمَّا بعدُ».

﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾.

قد ذَكَرَ المفسرون ها هنا قصةً أكثرُها مأخوذٌ من الإسرائيليات، ولم يَثبُت فيها عن المعصُوم حديثٌ يجب اتباعه، ولكن رَوَى ابنُ أبي حاتم هنا حديثاً لا يَصِحُّ سندُه، لأنه من رواية يَزيدَ الرَّقاشي، عن أنَسٍ ـ ويزيدُ وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيفُ الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يُقتَصر على مُجرَّد تلاوةِ هذه القصةِ وأن يُرَدَّ علمُها إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فإن القرآنَ حقٌّ، وما تَضمَّن فهو حقٌّ أيضاً.

وقولُه: ﴿فَفَزِعَ منهم﴾، إنَّما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرفُ مكانٍ في دارِه، وكان قد أَمَرَ أَلَّا يدخل عليه أحدٌ ذلك اليوم، فلم يشعُر إلا بشخصَين قد تَسَوَّرا عليه المحرابَ، أي: احتاطا به يَسألانِهِ عن شأنهما.

وقولُه: ﴿وعَزَّني في الخطاب﴾، أي: غَلَبني. يقال: عَزَّ يَعِزُّ: إذا قَهَر وغَلَبَ.

وقولُه: ﴿وظَنَّ داودُ أنما فتنَّاه﴾، قال علي بـن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: أي اختبرناه.

وقولُه: ﴿وخرَّ راكعاً﴾، أي: ساجداً ﴿وأناب﴾. ويَحتمِلُ أنه رَكَعَ أَوَّلاً، ثم سَجَدَ بعد ذلك. وقد ذُكر أنه استمر ساجداً أربعين صَباحاً، ﴿فغفرنا له ذلك﴾. أي: ما كان منه مما يُقال فيه: إنَّ حَسناتِ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقربينَ.

وقد اختلف الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ في سَجْدَةِ «صۤ»، هل هي من عَزائم السُّجود؟ على قولين، الجديدُ من مذهب الشافعي ـ رَحِمَه الله ـ أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدةُ شُكرٍ. والدليلُ على ذلك ما رواه الإمام أحمدُ حيث قال:

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٤٠ ـ ١٤١.

حدثنا إسماعيلُ ـ وهو ابن عُلَيَّة ـ عن أَيُّوبَ، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ أنه قال في السُّجود في «صٓ»: ليست من عزائمِ السُّجُودِ، وقد رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يسجدُ فيها(١).

ورواه البخاري، وأبو داودَ، والترمذيُّ، والنسائي في تَفْسيرِه، من حديث أيُّوب، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح»(١).

وقال النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيمُ بن الحَسَن ـ هو المِقْسَمِيُّ ـ حدثنا حَجَّاج بن محمد، عن عُمَرَ بن ذرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ سَجَدَ في «صٓ»، وقال: «سَجَدَها داوُد ـ عليه السلامُ ـ توبةً، ونَسجُدُها شُكراً»(٢).

تَفَرَّدَ بروايته النسائي، ورجالُ إسنادِه كلُّهم ثِقاتٌ. وقد أخبرني شيخُنا الحافظ أبو الحجَّاج المِزِّي قراءة عليه وأنا أسمع:

أخبرنا أبو إسحاقَ بن المُدرجي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثَّقَفِي، أخبرنا زاهرُ بنُ طاهر الشَّحَّامي، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذِيُّ، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السَّراج، حدثنا هارونُ بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيدَ بن خُنَيس، عن الحسن بن محمد بن عُبَيد الله بن أبي يزيدَ قال: قال لي ابن جُرَيج: يا حَسَنُ، حدثني جَدُّكَ عبيد الله بن أبي يَزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني رأيتُ فيما يَرَى النائم كأنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فقرأتُ السجدةَ، فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشجرةُ لِسُجُودي، فَسَمِعْتُها تقولُ وهي ساجدةٌ: اللهُمَّ، اكتُب لي بها عندَكَ أجراً، واجعَلْها لِي عِنْدَكَ ذُخراً، وضَعْ عَنِّي بها وِزراً، واقبَلْها مني كما قبلتها(٣) من عبدِكَ داودَ.

قال ابنُ عباس: «فرأيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ قام فقرأ السجدةَ، ثم سَجَدَ، فَسَمِعْتُه يقولُ وهو ساجدٌ كما حَكَى الرجل عن كلام الشجرة».

رواه الترمذيُّ عن قُتَيبة وابنُ ماجه عن أبي بكر بن خَلَّاد، كلاهُما عن محمد بن يزيدَ بن خُنَيسٍ، نحوه. وقال الترمذي: «غريبٌ، لا نعرِفه إلا من هذا الوجه»(٤).

وقال البُخاريُّ عند تفسيرها أيضاً: حَدَّثنا محمدُ بن عبد الله، حَدَّثنا محمد بن عُبَيد الطَّنافِسِيُّ، عن العَوَّام قال: سألتُ مجاهداً عن سَجْدَةِ «صٓ» فقال: سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ: من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أَوَ ما تقرأُ: ﴿ومن ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسُلَيمان﴾، ﴿أولئك الذين هَدَى الله فَبِهداهم اقتدِهْ﴾، فكان داود ـ عليه السلامُ ـ ممن أُمِرَ نَبِيُّكم ـ ﷺ ـ أن يقتدي به، فَسَجدها داودُ ـ عليه السلام ـ فسجدها رسولُ الله ﷺ(٥).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا حُمَيد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المُزَنِيُّ ـ أنه أخبره: أن أبا سعيدٍ الخُدْرِيَّ رأى رُؤيا أنه يكتب «صٓ»، فلما بَلَغَ إلى التي يُسجَدُ بها رَأَى الدواة

---

(١) مُسند أحمد ١/٣٦٠، وفتح الباري، كتاب سجود القرآن ٢/٥٥٢، وسُنَن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٥٩، وعارضة الأحوذي، أبواب السفر ٣/٥٩، والنسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) تحفة الأشراف للمزي ٤/٤١٤.

(٣) في نسخة: قبلت.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٣/٦٠، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٣٣٤.

(٥) فتح الباري، تفسير سورة صٓ ٨/٥٤٤.

والقلمَ وكل شيء بحضرتِهِ انقلَبَ ساجِداً، قال: فَقَصَّها على النبيِّ - ﷺ - فلم يزل يسجُد بها بعدُ. تفرَّدَ به أحمدُ[١].

وقال أبو داود: حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهبٍ، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن سَعِيد بن أبي هلال، عن عياضِ بن عبد الله بن سعدِ بن أبي سَرْح، عن أبي سَعيدٍ الخُدَرِي - رضي الله عنه - قال: قرأ رسولُ الله - ﷺ - وهو على المنبر ﴿صۤ﴾، فلما بلغ السجدة نَزَلَ فسجَدَ، وسَجَدَ الناس مَعَه، فلما كان يومٌ آخَر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ[٢] الناسُ للسجودِ، فقال: «إنما هي توبةُ نبيٍّ، ولكني رأيتكُم تَشَزَّنْتم». فَنَزَلَ وسَجَدَ. تَفَرَّدَ به أبو داود، وإسنادُه على شرطِ الصحيح[٣].

وقولُه: ﴿وإن له عندنا لَزُلفى وحُسنَ مآب﴾، أي: وإن له يوم القيامة لقربة يُقَرِّبُه الله - عزَّ وجلَّ - بها، وحسنَ مرجع، وهو الدرجاتُ العاليات في الجَنَّةِ، لتوبته وعَدْلِهِ التام في مُلكِهِ. كما جاء في الصحيح: «المُقسِطُون على منابرَ من نُورٍ عن يمين الرحمٰن، وكلتا يَدَيه يمينٌ، الذين يُقسِطُون في أَهلِيهم وما وَلُوا»[٤].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن آدَمَ، حدثنا فُضَيل، عن عَطِيَّة، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إن أحبَّ الناس إلى الله يومَ القيامة وأقربهم منه مجلساً إمامٌ عادلٌ، وإن أبغضَ الناس إلى الله يومَ القيامة وأشدَّهم عذاباً إمامٌ جائرٌ»[٥].

ورواه الترمذيُّ من حَديث فُضَيلٍ - وهو ابنُ مرزوقٍ - الأغرِّ، عن عطيَّةَ، به. وقال: «لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه»[٥].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عبدُ الله بن أبي زياد، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر بن سليمان: سَمِعتُ مالكَ بنَ دينار في قوله: ﴿وإنَّ له عندنا لَزُلفى وحسنَ مآب﴾، قال: يُقامُ داودُ يومَ القيامةِ عند ساقِ العَرشِ، ثم يقولُ: يا داودُ، مَجِّدني اليومَ بذلك الصوتِ الحسن الرَّخِيم الذي كُنتَ تُمجِّدني به في الدنيا. فيقول: وكيفَ وقد سُلِبْتَه؟ فيقول: إني أَرُده عليكَ اليومَ. قال: فيرفع داودُ بصوتٍ يَسْتفرِغ نَعِيم أهلِ الجِنَانِ[٦].

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذه وَصِيَّةٌ من الله - عزَّ وجلَّ - لولاة الأمور أن يحكُموا بين الناس بالحقِّ المنزَّلِ من عندِهِ - تبارك وتعالى - ولا يَعدِلُوا عنه فَيَضِلُّوا عن سبيله. وقد توعَّد تعالى مَن ضَلَّ عن سبيله، وتناسى يومَ الحساب، بالوعيدِ الأكيد والعذابِ الشديد.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشامُ بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مَروان بن جناح، حَدَّثني

(١) مسند الإمام أحمد ٧٨/٣.
(٢) أي: تهيئوا واستعدّوا.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٥٩/٢ - ٦٠.
(٤) مسلم، كتاب الإمارة ١٤٥٨/٣، ولفظه: «والذين يعدلون في أهليهم».
(٥) مسند الإمام أحمد ٢٢/٣. وعارضة الأحوذي، أبواب الأحكام ٧٠/٦.
(٦) أخرجه أحمد في الزهد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر. الدر المنثور ١٦٧/٧ - ١٦٨.

إبراهيم أبو زُرعَةَ ـ وكان قد قرأ الكتابَ ـ أن الوليدَ بنَ عبدِ الملك قال له: أَيُحاسَبُ الخليفةُ؟ فإنك قد قرأتَ الكتابَ الأوَّلَ، وقرأتَ القرآن وفقِهتَ. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أقولُ؟ قال: قُل في أمان. قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنت أكرمُ على الله أو داود؟ إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جمَعَ له النُّبوَّة والخلافةَ، ثم توَعَّده في كتابه فقال: ﴿يا داودُ إنَّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناس بالحقِّ ولا تتَّبعِ الهَوى فيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله﴾... الآية.

وقال عكرمةُ: ﴿لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحساب﴾، هذا من المقدَّم والمؤخَّر، لهم عذابٌ شديدٌ يوم الحساب بما نَسُوا. وقال السُّدِّي: لهم عذابٌ شديدٌ بما تَركُوا أن يَعمَلُوا ليوم الحِسابِ. وهذا القولُ أمشى على ظاهرِ الآية، فالله أعلمُ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

يُخبر تعالى أنه ما خَلَقَ الخلق عَبَثاً، وإنما خلَقهم لِيعبُدُوه ويُوحِّدُوه، ثم يَجمعُهم ليوم الجَمْع، فيُثيبُ المطيعَ ويُعذِّبُ الكافر. ولهذا قال تعالى: ﴿وما خَلَقنا السماءَ والأرضَ وما بَيْنَهُما باطلاً ذلك ظَنُّ الذين كَفَروا﴾، أي: الذين لا يُرون بعثاً ولا مَعاداً، وإنما يَعتقِدُون هذه الدار فقط، ﴿فويلٌ للذين كَفَروا مِن النار﴾، أي: ويلٌ لهم يومَ معادِهم ونُشُورهم من النار المُعدَّةِ لهم.

ثم بَيَّنَ تعالى أنه مِن عَدلِه وحِكمته لا يُساوي بين المُؤمن والكافر، فقال: ﴿أم نجعلُ الذين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ كالمُفسِدين في الأرض أم نجعلُ المُتَّقِين كالفُجَّار﴾، أي: لا نفعلُ ذلك، ولا يَستَوون عند الله، وإذا كان الأمرُ كذلك فلا بُدَّ من دارٍ أخرى، يُثاب فيها هذا المُطيع، ويُعاقَب فيها هذا الفاجرُ. وهذا الإرشادُ يَدُلُّ العقولَ السليمةَ والفِطَرَ المستقيمةَ على أنه لا بُدَّ من مَعادٍ وجَزاءٍ، فإنا نرى الظالم الباغي يزدادُ مالُه وولدُه ونعيمُه ويموتُ كذلك، ونَرى المطيع المظلومَ يموت بكَمَدِه، فلا بُدَّ في حِكمةِ الحكيم العليم العادلِ الذي لا يَظلِم مثقالَ ذرَّةٍ، من إنصافِ هذا مِن هذا، وإذا لم يَقَع هذا في هذه الدار فتعيَّن دارٌ أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآنُ يُرشِدُ إلى المقاصد الصحيحة والمآخذِ العقلية الصريحةِ، قال: ﴿كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياتِه وليتذكَّر أُولوا الألباب﴾، أي ذَوُو العقولِ، وهي الألبابُ، جمعُ لُبٍّ، وهو العقلُ.

قال الحسن البَصريُّ: والله ما تَدبُّرُهُ بحفظِ حُروفِه وإضاعةِ حُدُودِه، حتى إنَّ أحدَهُم ليقولُ: قرأتُ القرآنَ، ما يُرَى له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عَملٍ. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

يقولُ تعالى مخبراً أنه وَهَب لداودَ سُليمانَ، أي: نبياً، كما قال: ﴿ووَرِث سُليمانُ داوُدَ﴾، أي: في النُّبوَّةِ، وإلا فقد كان له بَنُون غيرُه، فإنه قد كان عنده مائةُ امرأةٍ حَرائِر.

وقولُه: ﴿نعم العبدُ إنه أوّابٌ﴾، ثناءٌ على سُلَيمانَ ـ عليه السلام ـ بأنه كثيرُ الطاعةِ والعبادةِ والإنابةِ إلى الله عز وجل.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمودُ بن خالد، حدثنا الوليدُ، حدثنا ابنُ جابرٍ، حدثنا مكحولُ قال: لما وَهَبَ الله لداود سُلَيمان ـ عليه السلام ـ قال له: يا بُنَيَّ، ما أَحْسَنُ؟ قال: سكينةُ اللهِ وإيمانٌ. قال: فما أَقبحُ؟ قال: كفرٌ بعدَ إيمانٍ. قال: فما أحلَى؟ قال: روح الله بينَ عباده. قال: فما أَبرَدُ؟ قال: عفوُ اللهِ عن الناسِ، وعفوُ الناس بعضِهم عن بعض. قال داود عليه السلام: فأنت نَبِيٌّ.

وقولُه: ﴿إذْ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصافناتُ الجِيادُ﴾، أي: إذْ عُرِضَ على سُلَيمَانَ في حال مملكتِه وسلطانِهِ الخيلُ الصافناتُ. قال مجاهد: وهي التي تَقِف على ثلاثٍ وطَرَفِ حافرِ الرابعةِ، والجيادُ: السِّرَاع. وكذا قال غيرُ واحد من السَّلَف.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيانُ، عن أبيه سَعِيد بن مَسرُوقٍ، عن إبراهيم التَّيمِيِّ في قوله: ﴿إذْ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصافناتُ الجِيادُ﴾، قال: كانت عشرينَ فرساً ذاتَ أجنحةٍ. كذا رواه ابنُ جرير[١].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابنُ أبي زائدة، أخبرني إسرائيلُ، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيميِّ قال: كانت الخيلُ التي شَغَلت سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ عشرينَ ألفَ فرسٍ، فَعَقَرَها. وهذا أشبه، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا محمدُ بن عَوفٍ، حدثنا سعيدُ بن أبي مريمَ، أخبرنا يحيى بن أَيُّوبَ، حدثني عُمَارة ابن غزيَّةَ: أن مُحَمَّد بن إبراهيم حَدَّثه، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمٰن، عن عائشة ـ رَضِي الله عنها ـ قالت: قَدِمَ رَسولُ الله ـ ﷺ ـ من غزوةِ تَبُوكَ ـ أو: خيبرَ ـ وفي سَهْوَتها[٢] سِترٌ، فَهَبَّتِ الريحُ، فكشفت ناحية السِّترِ عَن بناتٍ لعائشةَ ـ لُعَبٍ ـ فقال: «ما هذا يا عائشةُ؟» قالت: بناتي. ورأى بينهُنَّ فرساً له جناحان من رِقاعٍ[٣]، فقال: ما هذا الذي أرى وَسْطَهُنَّ؟ قالت: فرسٌ. قال: وما هذا الذي عَلَيه؟ قالت: جناحان. قال: فرس له جناحان؟! قالت: أما سَمِعت أنَّ لسليمان خيلاً لها أجنحةٌ؟ قالت: فَضَحِكَ حتى رأيت نواجذَه[٤] ﷺ.

وقولُه: ﴿فقال إنِّي أحببتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ رَبِّي حتى توارَت بالحجَابِ﴾، ذكر غيرُ واحدٍ من السلَفِ والمفسِّرين أنه اشتغَلَ بعرضها حتى فات وقتُ صلاةِ العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عَمْداً بل نِسياناً، كما شُغِلَ النبي ـ ﷺ ـ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صَلَّاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحَين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عُمر ـ رضي الله عنه ـ يومَ الخندق بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ. فجعل يَسُبُّ كُفَّار قريشٍ، ويقول: يا رسولَ اللهِ، والله ما كِدْتُ أُصَلِّي العصرَ حتى كادت الشمسُ تَغرُبُ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «والله ما صَلَّيتُها». فقال: فقمنا إلى بُطْحَانَ[٥] فتوضَّأ للصلاةِ وتوضَّأنا لها، فصلَّى العصر بعد ما غَرَبتِ الشمسُ، ثم صَلَّى بعدها المغرب[٦].

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٥٤.

(٢) السَّهوة: شيء كالصُّفَّة يكون بين البيوت، وحائط صغير يُبْنَى بين حائطي البيت، ويُجعَل السقف على الجميع، فما كان وسط البيت فهو سهوة، وما كان داخله فهو المُخْدَع، وسُتْرَة تكون قُدَّام فناء البيت.

(٣) الرقاع: جمع رُقْعَة، وهي القطعة من الورق أو الجلد.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٥) بُطْحَان: وادٍ بالمدينة. ويضبطه أهل اللغة بفتح الباء وكسر الطاء.

(٦) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٠٥، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٣٨.

ويَحتمِلُ أنه كان سائغاً في ملتهم تأخيرُ الصلاةِ لعُذرِ الغزو والقتالِ والخيلُ تُراد للقتال، وقد ادَّعى طائفةٌ من العلماء أن هذا كان مشروعاً فَنُسِخ ذلك بصلاة الخوفِ، ومنهم مَن ذَهَب إلى ذلك في حال المُسَايفة والمُضَايقة، حيثُ لا يُمكِنُ صلاةٌ ولا ركوعٌ ولا سجودٌ. كما فَعَلَ الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ في فتح تُستَرَ، وهو منقولٌ عن مكحُولٍ، والأوزاعيِّ، وغيرهما. والأول أقرب، لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعناقِ﴾.

قال الحسنُ البَصريُّ: قال: لا، واللهِ لا تشغليني عن عبادةِ ربِّي آخر ما عَلَيكِ. ثم أَمَرَ بها فَعُقِرت. وكذا قال قتادةُ. وقال السُّدِّي: ضَرَبَ أعناقَها وعراقِيبَها بالسيوفِ. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ: جعل يمسَحُ أعرافَ الخيلِ وعَراقِيبَها حُبّاً لها.

وهذا القولُ اختارَه ابنُ جرير، قال: لأنه لم يكن لِيُعذِّبَ حيواناً بالعَرْقَبَةِ، ويُهلِكَ مالاً من مالِهِ بلا سَبَبٍ سِوَى أنه اشتغل عن صلاته بالنَّظرِ إليها ولا ذَنْبَ لها[1]. وهذا الذي رَجَحَ ابنُ جرير فيه نظرٌ؛ لأنه قد يكون في شَرْعِهِم جوازُ مثل هذا، ولا سيماً إذا كان غَضَباً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسبب أنه اشتغل بها حتى خَرَجَ وقتُ الصلاة، ولهذا لما خَرَجَ عنها لله ـ عزَّ وجلَّ ـ عَوَّضه الله تعالى ما هو خيرٌ منها، وهي الريحُ التي تجري بأمره رُخَاءً حيثُ أصابَ، غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهرٌ، فهذا أسرعُ وخيرٌ من الخيل.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ، حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، عن حُمَيد بن هلال، عن أبي قتادةَ وأبي الدَّهماء ـ وكانا يُكثِران السفر نحوَ البيتِ ـ قالا: أتينا على رَجُلٍ من أهل الباديةِ، فقال البدوي: أَخَذَ بيدي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فجعل يُعَلِّمني مما عَلَّمه الله تعالى، وقال: «إنكَ لا تَدَعُ شيئاً اتقاء الله ـ عز وجل ـ إلا أعطاكَ اللهُ خيراً منه»[2].

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد فَتَنَّا سُلَيمانَ﴾، أي: اختبرناه بأن سَلَبناهُ المُلك مَرَّةً، ﴿وألقينا على كُرسِيِّه جَسَداً﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، والحَسَنُ، وقتادةُ، وغيرَهم: يعني شيطاناً. ﴿ثم أناب﴾، أي: رَجَعَ إلى مُلكِهِ وسُلطانِهِ وأُبهَتِهِ.

قال ابنُ جَرير: وكان اسمُ ذلك الشيطانِ صَخْراً[3]. قاله ابنُ عباس، وقتادةُ. وقيل: آصف. قاله مجاهدٌ. وقيل: أصروا. قاله مجاهدٌ أيضاً. وقيل: حبقيق قاله السُّدِّي. وقد ذَكَروا هذه القصةَ مبسوطةً ومختصرةً.

وقد قال سَعيدُ بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادةَ قال: أَمَرَ سُلَيمان ـ عليه السلامُ ـ ببناء بيت المقدِس، فقيل له: ابنِهِ ولا يُسمَعُ فيه صوتُ حَديدٍ. قال: فَطَلَبَ ذلك فلم يَقْدِر عليه. فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له «صَخْرٌ» شِبْهُ المارِد. قال: فطلبه وكانت عينٌ في البحرِ يَرِدُها في كلِّ سبعةِ أيام مرةً، فنُزِحَ ماؤُها وجُعِلَ فيها

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٥٦.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٧٨.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/١٥٦، وانظر مُفحِمات الأقران للسيوطي ١٧٦ ـ ١٧٧، وتفسير البغوي ٤/٦٤، وروح المعاني للألوسي ٢٣/١٩٩.

خَمْرٌ، فجاء يومُ وِرْدِهِ فإذا هُو بالخَمر، فقال: إنك لشرابٌ طَيِّبٌ إلاَّ أنك تُصْبِينَ الحليم، وتَزيدين الجاهلَ جهلاً. ثم رَجَعَ حتى عَطِشَ عَطشاً شديداً، ثم أتاها فقال: إنَّكِ لَشرابٌ طَيِّبٌ إلا أنك تُصبين الحَليم، وتَزيدين الجاهل جَهلاً. ثم شَربها حتى غَلَبت على عَقلِهِ، قال: فأرى الخاتَم، أو خُتِمَ به بين كَتِفَيه، فَذَلَّ. قال: وكان ملكُه في خاتمه، فَأُتِيَ به سليمانَ فقال: إنه قد أُمِرنا ببناءِ هذا البيتِ، وقيل لنا: لا يُسمَعَنَّ فيه صوتُ حديدٍ. قال: فَأُتى ببيض الهُدهدِ فَجَعل عليه زُجاجةً، فجاء الهدهدُ فدار حولها، فجعل يَرَى بيضَه ولا يقدر عليه، فذهَبَ فجاء بالماس فوضَعه عليه، فَقَطعها به، حتى أفضى إلى بيضِه. فأخذ الماسَ، فجعلوا يقطعُون به الحجارة. وكان سُليمان إذا أراد أن يدخُلَ الخلاء أو الحَمَّام لم يدخُل بخاتمه، فانطلق يوماً إلى الحَمَّام، وذلك الشيطانُ صخرٌ معه، وذلك عند مُقارفةٍ قارفَ فيه بعضَ نسائه. قال: فدخل الحمَّامَ وأعطى الشيطان خاتَمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكةٌ، ونُزِعَ ملكُ سليمان منه، وأُلقِيَ على الشيطان شَبَه سُليمانَ. قال: فجاء فقعدَ على كُرسيِّه وسريرِهِ، وسُلِّط على مُلكِ سُليمانَ كلِّه غيرَ نسائه. قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا يُنكِرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فُتِن نبيُّ الله. وكان فيهم رجلٌ يُشَبِّهونه بعمر بن الخطاب في القُوَّة فقال: والله لأُجرِّبنّه. قال: فقال: يا نبيَّ الله ـ وهو لا يَرَى إلا أنه نبيُّ الله ـ أحدُنا تُصيبه الجنابة في الليلةِ الباردةِ فيدَعُ الغُسل عَمْداً حتى تَطْلُعَ الشمسُ، أترى عليه بأساً؟ فقال: لا. قال: فبينا هو كذلك أربعينَ ليلة حتى وَجَدَ نبيُّ الله خاتمه في بطن سَمَكةٍ، فأقبل فَجَعلَ لا يستقبله جِنِّيٌّ ولا طيرٌ إلا سَجَدَ له، حتى انتهى إليهم، ﴿وألقينا على كُرسِيِّه جَسَداً﴾، قال: هو الشيطانُ صَخْرٌ[1].

وقال السُّدِّي: ﴿ولقد فَتَنَّا سُليمانَ﴾، أي: ابتلينا سُليمان، ﴿وألقينا على كُرْسيِّهِ جَسَداً﴾، قال: جَلَسَ الشيطان على كُرسيِّه أربعينَ يوماً. قال: وكان لسليمانَ ـ عليه السلامُ ـ مائةُ امرأةٍ، وكانت امرأةٌ منهنَّ يقال لها «جرادة»، وهي آثَرُ نسائه وآمَنُهُنَّ عندَه، وكان إذا أجنب أو أتى حاجةً نزع خاتَمه، ولم يَأْتَمِنْ عليه أحداً من الناس غيرها، فأعطاها يوماً خاتَمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صُورته، فقال: هاتي الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخَرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تُعطِيَه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانَه تائهاً. قال: ومكث الشيطان يحكُم بين الناس أربعين يوماً، قال: فأنكر الناسُ أحكامَه، فاجتمع قُرَّاء بني إسرائيل وعلماؤُهم، فجاءوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمانَ فقد ذَهَبَ عقلُه وأنكرنا أحكامَه. قال: فبكى النساءُ عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشُون حتى أَتوا، فأحدقُوا به ثم نَشَرُوا فقرأوا التوراة، قال: فطار من بين أيديهم حتى وَقَعَ على شُرفة، والخاتَمُ معه. ثم طار حتى ذَهَبَ إلى البحر، فوقع الخاتَمُ منه في البحر، فابتلعه حوتٌ من حيتانِ البحر. قال: وأقبل سُليمانُ في حاله التي كان فيها، حتى انتهى إلى صيادٍ من صَيَّادي البحر، وهو جائعٌ، وقد اشتدَّ جوعُه، فاستطعمهُم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضُهم فضربه بعصاً فَشَجَّه، فجعل يغسِل دَمَه وهو على شاطىء البحر، فلام الصيادون صاحبَهم الذي ضَرَبه، فقالوا: بئس ما صنعتَ حيثُ ضربتَه. قال: إنه زَعَمَ أنه سُليمان. قال: فأعطوه سَمكَتَين مما قد مَذِرَ[2] عندهم، فلم يَشغَلْه ما كان به من الضرب حتى قام إلى شَطِّ البحرِ، فشَقَّ بطونهما، فَجَعَلَ يغسِلُ، فوجد خاتَمَه في بَطنِ إحداهما، فأخذه فَلَبِسَه، فَرَدَّ الله عليه بهاءَه ومُلكه، وجاءت الطيرُ حتى حامت عليه، فَعَرَفَ القومُ أنه سليمانُ ـ عليه السلام ـ فقام القومُ يَعتَذِرُون مما صَنَعُوا، فقال: ما أحمدُكم على عُذرِكم، ولا أَلومُكم على ما كان منكم، كان هذا الأمرُ لا بُدَّ منه. قال: فجاء حتى أتى مُلكَه، وأرسل إلى

(١) أخرجه الطبري ٢٣/١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) أي: فَسَدَ.

الشيطانِ، فَجِيءَ به فَأَمَرَ به فَجُعِلَ في صُندوق من حديد، ثم أُطبِقَ عليه، وقُفِلَ عليه بقُفلٍ، وخَتَمَ عليه بخاتمه، ثم أمر به فَأُلقِيَ في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسُخِّر له الريحُ، ولم تكن سُخِّرت له قبلَ ذلك، وهو قولُه: ﴿وَهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بَعدِي إنك أنتَ الوهّابُ﴾.

وقال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ قوله: ﴿وألقينا على كُرسِيِّه جَسَداً﴾، قال: شيطاناً يقال له: آصِفُ. فقال له سُليمان: كيف تَفتِنُون الناسَ؟ قال: أرِني خاتمك أُخبِرْكَ. فلما أعطاه إياه نَبَذَه آصِفُ في البحر، فَساح سُليمان وذَهَبَ ملكُه، وقعَدَ آصِفُ على كرسيِّه، ومَنَعَه الله نساءَ سُليمانَ فلم يَقْرَبْهُنَّ ـ ولَم يَقرَبْنَه وأنكَرْنَه. قال: فكان سُلَيمانُ يستطعِمُ، فيقول: أتعرفوني؟ أطعِمُوني، أنا سُلَيمان! فَيُكذِّبونه، حتى أعطته امرأةٌ يوماً حُوتاً فجعل يُطَيِّبُ بطنه، فَوَجَدَ خاتَمه في بطنِهِ، فرجع إليه ملكُه، وفرَّ آصِفُ، فَدَخَلَ البحرَ فاراً[(١)].

وهذه كلُّها من الإسرائيليات، ومِن أنكَرِها ما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا محمَّد بن العلاء وعثمان بن أبي شَيْبَة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاويةَ، أخبرنا الأعمش، عن المِنهال بن عَمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وألقينا على كُرسيِّه جَسَداً ثم أنابَ﴾، قال: أراد سُلَيمان أن يدخُلَ الخلاء، فأعطى الجرادةَ خاتمه ـ وكانت الجرادةُ امرأتَه، وكانت أحبَّ نسائِهِ إليه ـ فجاء الشيطان في صورة سُليمان، فقال لها: هاتي خاتَمِي. فأعطته إيَّاه. فلما لَبِسه دانت له الإنسُ والجنُّ والشياطينُ، فَلَمَّا خرجَ سُليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتَمِي. قالت: قد أعطيتُه سُليمان. قال: أنا سُليمان. قالت: كَذَبْتَ، لستَ سُليمَان. فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: «أنا سُليمان» إلا كَذَّبه، حتى جعل الصِّبيانُ يرمُونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَفَ أنه من أَمْرِ الله عز وجل. قال: وقام الشيطانُ يحكُم بين الناس، فلما أراد الله أن يَرُدَّ على سُليمان سلطانه أَلْقَى في قُلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسَلُوا إلى نساءِ سُليمان فقالوا لَهُنَّ: أَتُنْكِرْنَ من سُليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رَأى الشيطان أنْ قد فُطِنَ له ظَنَّ أنَّ أمرَه قد انقطع، فكتبوا كُتُباً فيها سحرٌ وكُفر، فدفنُوها تحت كرسيِّ سليمان، ثم أثاروها وقرَءُوها على الناسِ. وقالوا: بهذا كان يظهَرُ سُليمان على الناسِ ويَغْلِبُهم، فأكفَرَ الناس سُليمانَ ـ عليه السلامُ ـ فلم يزالُوا يُكفِّرونه، وبعَثَ ذلك الشيطانُ بالخاتم فَطرحه في البحر، فَتَلَقَّته سمكةٌ فأخذته. وكان سُليمانُ يَحمِل على شَطِّ البحر بالأجر، فجاء رجلٌ فاشترى سَمَكاً فيه تلك السَّمَكَةُ التي في بطنها الخاتَم، فدعا سُليمان فقال: تَحمِلُ لي هذا السمَكَ؟ فقال: نعم. قال: بِكَم؟ قال: بسمكةٍ من هذا السَّمَكِ. قال: فحمل سُليمان ـ عليه السلامُ ـ السَّمكَ، ثم انطلق به إلى منزلِهِ، فلما انتهى الرجلُ إلى بابِهِ أعطاه تلك السمكةَ التي في بطنها الخاتَمُ، فأخذها سُليمان فَشَقَّ بطنَها، فإذا الخاتَمُ في جوفها، فأخذه فَلَبِسَهُ. قال: فلما لَبِسه دانت له الجنُّ والإنسُ والشياطينُ، وعاد إلى حاله، وهَرَبَ الشيطانُ حتى لَحِقَ بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سُليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فَجَعَلُوا يطلبُونه ولا يَقدِرُون عليه، حتى وَجَدُوه يوماً نائماً، فجاءوا فَبَنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظَ فوثَبَ فجعل لا يَثِبُ في مكانٍ من البيتِ إلا انماطَ[(٢)] معه الرَّصاصُ، قال: فَأَخَذُوه فَأَوثقُوه، وجاءوا به إلى سُليمان، فأمر به فَنُقِرَ له تَختٌ من رُخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سُدَّ بالنحاس، ثم أمر به فَطُرِحَ في البحرِ، فذلك قوله: ﴿ولقد فَتَنَّا سُليمان وألقينا على كُرسِيِّه جَسَداً ثم أنابَ﴾، قال: يعني الشيطانَ الذي كان سُلِّط عليه[(٣)].

(١) أخرجه الطبري ٢٣/١٥٧.
(٢) أي: بَعُد وتنحّى.
(٣) الدر المنثور ٧/١٧٩ ـ ١٨٠.

إسنادُه إلى ابن عباسٍ قويٌّ، ولكنَّ الظاهر أنه إنما تَلَقَّاه ابنُ عباس ـ إن صحَّ عنه ـ من أهلِ الكتابِ، وفيهم طائفةٌ لا يَعتقِدُون نُبُوَّةَ سُليمان ـ عليه السلام ـ فالظاهر أنهم يكذِبون عليه. ولهذا كان في هذا السياقِ منكرات من أشدها ذكر النساء، فإنَّ المشهور أن ذلك الجنيَّ لم يُسَلَّط على نساءِ سليمانَ، بل عَصَمَهُنَّ الله منه، تَشرِيفاً وتكريماً لنبيِّه ﷺ.

وقد رُوِيت هذه القصةُ مُطَوَّلة عن جماعةٍ من السلفِ، كسعيدِ بن المُسَيَّب، وزيدِ بن أَسْلَم، وجماعةٍ آخرين، وكلُّها مُتلقَّاة من قِصَصِ أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبي عَمرو السَّيباني: وَجَدَ سُليمانُ خاتَمَه في عَسْقَلان، فمشى في خِرْقَةٍ إلى بيتِ المقدِس، تواضعاً لله عز وجل. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كُرسيِّ سُلَيمانَ خَبَراً عَجيباً، فقال:

حدثنا أبي ـ رحمه الله ـ حدثنا أبو صالح كاتبُ الليث، أخبرني أبو إسحاقَ المِصري، عن كعبِ الأحبارِ: أنه لما فَرَغ من حديثِ ﴿إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ﴾ قال له مُعَاوية: يا أبا إسحاقَ، أخبرني عن كُرسيِّ سُلَيمان بن داود وما كان عليه؛ وَمِن أيِّ شيءٍ هُو؟ فقال: كان كرسيُّ سليمان من أنياب الفيلة مُفَصَّصاً بالدر والياقوتِ والزبرجَدِ واللُّؤلُؤ. وقد جُعِل له درجة منها مُفَصَّصاً بالدر والياقوت والزبرجَد، ثم أَمَرَ بالكرسي فَحُفَّ من جانبَيهِ بالنَّخلِ، نخلٍ من ذَهَبٍ، شماريخُها من ياقُوتٍ وزَبَرْجَدٍ ولُؤلُؤ. وجَعَلَ على رُءُوسِ النخل التي عن يَمين الكُرسِيِّ طَواويس من ذَهَبٍ، ثم جَعَلَ على رُءُوس النخل التي على يسار الكرسي نُسوراً من ذَهَبٍ مُقابلةَ الطواويس. وجَعَلَ على يمينِ الدرجة الأولى شَجَرتَيْ صَنَوْبَر من ذَهَب، وعن يسارها أَسَدَان من ذَهَبٍ، وعلى رُءُوسِ الأسدَين عَمُودان من زبرجَدٍ، وجَعَلَ من جانبي الكرسي شُجَرَتَيْ كَرْم من ذَهَب، قد أظلتا الكرسيَّ، وجَعَلَ عناقيدهما دُرّاً وياقوتاً أحمَرَ. ثم جُعِلَ فوقَ دَرَج الكرسي أَسَدان عظيمانِ من ذَهَبٍ مُجوَّفان مَحشُوّانِ مسكاً وعَنْبراً، فإذا أرادَ سُليمان أن يصعَدَ على كُرسيِّه استدار الأسدانِ ساعةً، ثم يقعان فَيَنضَحان ما في أجوافهما من المِسْكِ والعَنْبَر حولَ كُرسِيِّ سليمان ـ عليه السلامُ ـ ثم يُوضَع مِنبران من ذَهَبٍ، واحدٌ لخليفته والآخر لرئيسِ أحبارِ بني إسرائيلَ ذلكَ الزمانِ. ثم يُوضَع أمامَ كُرسيِّه سبعُون منبراً من ذَهَبٍ، يَقعُد عليها سَبعُون قاضياً من بَني إسرائيل وعلمائهم وأهلِ الشرف منهم والطُّوْلِ، وَمِن خَلفِ تلك المنابر كُلِّها خمسةٌ وثلاثون مِنبراً من ذَهَبٍ، ليس عليها أحدٌ، فإذا أراد أن يصعَدَ على كُرسيِّه وَضَعَ قدَمَيه على الدرجة السُّفلى، فاستدار الكرسيُّ كلُّه بما فيه وما عَلَيه، ويبسُط الأسدُ يدَه اليُمنى وينشُر النَّسر جناحَه الأيسرَ، ثم يصعَدُ على الدرجة الثانية، فيبسُط الأسدُ يده اليُسرى، وينشُر النسرُ جناحَه الأيمنَ، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقَعَدَ على الكرسي أخذ نَسرٌ من تلك النسور عَظِيمَ تاجٍ فوضعَه على رأسه، [فإذا وضعه على رأسِهِ] استدارَ الكرسيُّ بما فيه كما تَدُور الرَّحى المُسرِعة. فقال معاوية: وما الذي يُديره يا أبا إسحاق؟ قال: تِنّين من ذَهَب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عَمِله صخرُ الجِنِّي، فإذا أحسَّت بدورانه تلك النسورُ والأُسْدُ والطواويسُ التي في أسفَلِ الكرسي دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وَقفن كُلُّهنَّ مُنكّسات رؤوسَهنَّ على رأسِ سُلَيمانَ ـ عليه السلام ـ وهو جالِس، ثم يَنضَحْن جَميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سُلَيمان عليه السلام. ثم تتناول حمامةٌ من ذَهَب واقفةٌ على عمودٍ من جَوهرِ التوراةَ فتجعلها في يَدِه، فيقرؤها سليمان على الناس.

وذَكَرَ تمام الخبرِ، وهُو غريبٌ جداً.

﴿قال ربِّ اغفِر لي وَهَبْ لي مُلكاً لا ينبغِي لأحدٍ مِن بعدِي إنَّك أنتَ الوهَّابُ﴾، قال بعضهم: معناه لا

ينبغي لأحدٍ من بعدِي، أي: لا يصلُح لأحدٍ أن يَسلُبَنيه، كما كان من قضية الجَسَد الذي ألقي على كُرْسِيِّه، لا أنه يحجُر على مَن بعده من الناس. والصحيحُ أنه سأل من الله مُلكاً لا يكونُ لأحد من بعده من البشر مثلُه، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديثُ الصحيحةُ من طُرُقٍ عن رسول الله ﷺ:

قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حَدَّثنا إسحاقُ بن إبراهيم، أخبرنا رَوحٌ ومحمد بن جَعفر، عن شُعبةَ، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي هُرَيرةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إن عفريتاً من الجنِّ تَفلَّت عَلَيَّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عَلَيَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردتُ أن أَربطَه إلى ساريةٍ من سَواري المسجِد حتى تُصبِحُوا وتنظرُوا إليه كلُّكم، فذكرتُ قولَ أخي سُلَيمانَ: ﴿ربِّ اغفِرْ لي وهَبْ لي مُلكاً لا يَنبغي لِأحدٍ من بَعدِي﴾».

قال رَوحٌ: فَرَدَّه خاسِئاً. وكذا رواه مُسلِمٌ والنَّسائيُّ، من حديث شُعبَةَ، به[(١)].

وقال مُسلم في صَحِيحِه: حدثنا محمد بن سَلَمة المُرَادي، حدثنا عبد الله بن وَهب، عن مُعاوية بن صالح، حدثني رَبيعةُ بن يَزيد، عن أبي إدريسَ الخَوْلاني، عن أبي الدرداءِ قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصلي[(٢)]، فَسمِعناه يقولُ: «أعوذُ بالله منك». ثم قال: «ألعنُك بلعنةِ الله» ـ ثلاثاً ـ وبَسَطَ يَدَه كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسولَ الله، قد سَمِعناك تقولُ في الصلاةِ شيئاً لم نَسْمَعكَ تقولهُ قبل ذلك، ورأيناكَ بسطتَ يَدَك؟ قال: «إنَّ عدُوَّ الله إبليسَ جاء بِشِهابٍ من نارٍ لِيجعَلَه في وَجهي، فقلت: أعوذُ باللهِ منك ـ ثلاثَ مرَّاتٍ ـ ثم قلت: ألعنُك بلعنةِ الله التامة. فلم يستأخِر ثلاثَ مراتٍ، ثم أردت أخْذَه، والله لولا دعوةُ أخِينا سليمان، لأصبحَ مُوثَقاً يلعبُ به وِلْدَانِ أهل المدينة»[(٣)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو أحمدَ، حدثنا ميسرةُ بن معبد، حدثنا أبو عُبَيدٍ حاجبُ سُلَيمان قال: رأيتُ عطاءَ بنَ يزيدَ اللَّيثيِ قائماً يُصلِّي، فذهبتُ أَمُرُّ بين يَدَيه فرَدَّني، ثم قال: حَدَّثني أبو سعيد الخُدريُّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام يُصلِّي صلاةَ الصُّبح وهو خَلْفَه، فقرأ فالتبسَتْ عليه القراءةُ، فلما فَرَغَ من صلاتِه قال: «لو رأيتُموني وإبليسُ فَأهوَيتُ بيدي، فما زلتُ أخنقه حتى وجدتُ بَرْدَ لُعَابه بين إِصْبَعَيَّ هاتَين ـ الإبهام والتي تليها ـ ولولا دعوةُ أخي سُلَيمان لأصبحَ مَربُوطاً بساريةٍ من سَواري المسجِدِ، يتلاعبُ به صِبيان المدينةِ، فمن استطاع منكم ألَّا يحولَ بينه وبين القِبلة أحدٌ فَليفعَلْ»[(٤)].

وقد رَوَى أبو داودَ منه: «من استطاعَ منكم ألَّا يحولَ بينه وبين القبلةِ أحدٌ فَلْيَفْعَلْ»، عن أحمدَ بن أبي سُرَيج، عن أبي أحمدَ الزُّبيريِّ، به[(٤)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا معاويةُ بن عَمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفَزَاريُّ، حدثنا الأوزاعيُّ، حَدَّثني ربيعةُ بن يزيدَ، عن عبد الله الديلَميِّ قال: دخلتُ على عبد الله بن عَمرو، وهو في حائطٍ له بالطائفِ يُقال له الوَهْطُ، وهو مُخاصِرٌ فتىً من قُرَيش يُزَنُّ[(٥)] بشُرب الخمر، فقلت: بَلَغني عنك حديثٌ أنه «مَن شرِبَ شربة خمر لم يَقبلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له توبةً أربعين صَباحاً، وإن الشقيَّ من شَقِيَ في بَطنِ أُمِّه، وإنه من أَتى بيت المقدس لا يَنْهَزه[(٥)] إلَّا الصلاةُ فيه خَرَجَ من خطيئته مثلَ يومَ وَلَدته أُمُّه». فلما سَمِعَ الفتى ذِكرَ الخَمرِ اجتذَبَ يَدَه من

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة صۤ ٨/٥٤٦، ومسلم، كتاب المساجد ١/٣٨٤. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٠/٣٢٥.

(٢) هذه الكلمة «يصلي» غير ثابتة في مسلم.

(٣) مسلم، كتاب المساجد ١/٣٨٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٨٣، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٨٦.

(٥) أي: يُتهم. ولا يَنْهَزُه: لا يدفعه.

يَدِهِ، ثم انطلق، فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أُحِلُّ لأحدٍ أن يقولَ عَلَيَّ ما لم أقُل، سَمِعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «مَن شَرِبَ مِنَ الخَمْرِ شَربةً لم تَقبَل له صَلاةٌ أربعينَ صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تُقبَل له صلاةٌ أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه. قال - فلا أدري في الثالثة أو الرابعة -: فإن عادَ كان حقّاً على الله أن يَسقيه من رَدْغَةِ[1] الخَبَالِ يومَ القِيامةِ». قال: وسَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: «إنَّ الله خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلمَةٍ، ثم ألقى عليهم من نُورِهِ، فمن أصابَه مِن نُورِه يومئذٍ اهتدَى، ومن أخطأه ضَلَّ، فلِذَلِكَ أقولُ: جَفَّ القلم على عِلمِ الله عزَّ وجَلَّ». وسَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ سُلَيمان - عليه السلام - سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه ثِنْتَيـن، ونحن نرجُو أن تكون لنا الثالثة: سَأله حُكماً يُصادِفُ حُكْمَه، فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لا يَنبغي لأحدٍ من بعده، فأعطاه إياه، وسأله: أيّما رَجُلٍ خَرَجَ مِن بيتِهِ لا يُريد إلاَّ الصلاةَ في هذا المسجدِ خَرَجَ من خطيئته كيومَ وَلَدته أُمُّه، فنحنُ نرجُو أن يكُونَ الله تعالى قد أعطانا إياها»[1].

وقد رَوَى هذا الفصلَ الأخيرَ من هذا الحديث النسائيُّ وابنُ ماجه من طُرُق، عن عبد الله بن فَيرُوز الدَّيلمي، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إنَّ سُلَيمَان لما بَنَى بيتَ المقدس سَأَلَ ربه - عزَّ وجلَّ - خِلالاً ثلاثاً»... وذكره[2]. وقد رُوِيَ من حديث رافع بن عُمَير - رَضِيَ الله عنه - بإسنادٍ وسياقٍ غَريبَينِ، فقال الطَّبَراني:

حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيبة العَسقَلانيُّ، حدثنا محمد بن أَيُّوب بن سُوَيدٍ، حدثني أبي، حدثنا إبراهيمُ بن أبي عَبلَةَ، عن أبي الزاهِريَّةِ، عن رافع بن عُمَير قال: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «قال الله - عزَّ وجلَّ - لداود - عليه السلام -: ابن لي بيتاً في الأرض. فبنى داودُ بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أُمِرَ به، فأوحى الله إليه: يا داودُ، نَصَبت بيتَكَ قبلَ بَيتِي؟! قال: يا ربِّ، هكذا قلت فيما قضيتَ، من مَلَكَ استأثر. ثم أخذ في بناءِ المسجد، فلما تَمَّ السورُ سَقَطَ ثلثاه[3]، فشكَا ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ، فقال: يا داودُ، إنَّك لا تصلَح أن تَبنِي لي بيتاً. قال: وَلِم يا ربِّ؟ قال: لِما جَرَى على يدَيك من الدماءِ. قال: يا ربِّ، أوَما كان ذلك في هَوَاك ومَحبَّتِك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادي، وأنا أرحمُهم. فشَقَّ ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزَن، فإني سأقضِي بناءَه على يَدَي ابنِك سُلَيمان. فلما مات داوُد أخذَ سُلَيمان في بُنيانِه، فلما تَمَّ قرَّب القرابين، وذَبَحَ الذبائح، وجَمَعَ بَنِي إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرَى سُرُورَك بِبُنيان بيتي، فَسَلْنِي أُعطِكَ. قال: أسألك ثلاث خِصَالٍ: حُكماً يُصادِفُ حُكمَك، ومُلكاً لا ينبغِي لأحدٍ من بعدِي، ومَن أتى هذا البيتَ لا يُريد إلاَّ الصلاةَ فيه خَرَج من ذُنُوبه كيومَ ولدته أمُّه. قال رسولَ الله - ﷺ -: أما اثنتَين فقد أُعطِيَهُما، وأنا أرجُو أن يكونَ قد أُعطِيَ الثالثة»[4].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الصَّمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامي، حدثنا إياسُ بن سَلَمة بن الأكوع، عن أبيه قال: ما سَمِعت رسول الله - ﷺ - دعا إلا استفتحه «بسبحان ربِّي الأعلى العَلِيِّ الوهَّابِ»[5].

وقد قال أبو عُبَيد: حدثنا عَلِيُّ بنُ ثابتٍ، عن جعفر بن بُرْقانَ، عن صالح بن مِسْمَارٍ قال: لما مات نبيُّ الله داودَ أوحى الله إلى ابنِهِ سُليمان - عليهما السلام -: أن سَلني حاجَتَك. قال: أسألك أن تجعلَ لي قَلْباً يخشاكَ،

---

(١) الرَّدْغَةُ: عصارة أهل النار.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٦. وسنن النسائي، كتاب المساجد ٢/٤٣، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٤٥١ - ٤٥٢.

(٣) في النسخ: ثلثاً. والمثبت عن المعجم الكبير.

(٤) المعجم الكبير ٥/٢٤ - ٢٥.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/٥٤.

كما كان قَلبُ أبي، وأن تجعلَ قلبي يُحِبُّك كما كان قلبُ أبي. فقال الله: أرسلت إلى عبدي أسألهُ حاجَته، فكانت حاجتُه أن أجعَلَ قَلْبَه يخشاني، وأن أجعلَ قَلْبَهُ يُحِبني. لأَهَبَنَّ له مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرنا له الريح تجرِي بأمرِهِ رُخاءً حَيثُ أصابَ﴾، والتي بعدها، قال: فأعطاه ما أعطاه، وفي الآخرة لا حسابَ عليه.

هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجَمَةِ سليمان ـ عليه السلام ـ في تاريخه[1].

ورُوِيَ عن بعض السلف أنه قال: بَلَغني عن داود ـ عليه السلام ـ أنه قال: «إلهي، كُن لِسُليمانَ كما كنتَ لي». فأوحَى الله إليه: أن قل لِسُلَيمان: يكونُ لي كما كنتَ لي أكونُ له كما كنتُ لك.

وقولُه: ﴿فَسخَّرنا له الريحَ تجري بأمره رُخاءً حيثُ أصابَ﴾، قال الحسنُ البَصري ـ رَحِمه الله ـ: لما عَقَر سُليمان الخيلَ غَضباً لله عز وجل عَوَّضه الله ما هو خيرٌ منها وأسرعُ، الريحُ التي غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحها شهرٌ[2].

وقولُه: ﴿حيثُ أصاب﴾، أي: حيثُ أرادَ من البلادِ.

وقولُه: ﴿والشياطينَ كُلَّ بناءٍ وغَوَّاصٍ﴾، أي: منهُم من هُو مُستعمَلٌ في الأبنية الهائلة من مَحاريبَ وتماثيلَ وجِفَانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ راسياتٍ، إلى غير ذلك من الأعمالِ الشاقَّة التي لا يقدِر عليها البشرُ، وطائفةٌ غَوَّاصُون في البحارِ يَستخرجُون مما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسةِ التي لا تُوجَدُ إلا فيها، ﴿وآخرين مُقَرَّنين في الأصفادِ﴾، أي: مَوثُوقون في الأغلالِ والأكبالِ، ممن قد تَمَرَّد وعَصَى وامتنع من العملِ وَأَبَى، أو قد أساء في صَنيعه واعتَدَى.

وقولُه: ﴿هذا عطاؤُنا فامنُن أو أَمسِك بغير حِسابٍ﴾، أي: هذا الذي أعطيناك من المُلك التامِّ والسُلطانِ الكامل كَمَا سألتنا، فأعطِ مَن شِئتَ واحرِم مَن شئت، لا حسابَ عليكَ، أي: مَهما فعلتَ فهو جائزٌ لك، احكُم بما شئتَ فهو صَوابٌ.

وقد ثبت في الصحيح أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رَسُولاً ـ وهو الذي يفعل ما يُؤمَر به، وإنما هو قاسم يَقسِم بين الناس ما أمرَه الله به ـ وبين أن يكون مَلَكاً نبياً، يُعطِي مَن يشاء ويمنَعُ من يشاء بلا حساب ولا جُناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشَار جبريل، فقال له: تواضع[3]. فاختارَ المنزلةَ الأولى، لأنها أرفعُ قَدْراً عند الله وأعلَى منزلةً في المعاد. وإن كانت المنزلةُ الثانيةُ وهي النُبوَّة مع المُلكِ عظيمَةً أيضاً في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا لما ذَكَر تعالى ما أُعطِيَ سُليمانُ في الدنيا نبَّه على أنه ذُو حَظٍّ عظيمٍ عند الله يومَ القيامة أيضاً، فقال: ﴿وإنَّ له عندنا لَزُلفى وحُسْنَ مآبٍ﴾، أي: في الدار الآخرة.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(١) أخرجه أيضاً الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن المنذر. الدر المنثور ٧/١٨٩.
(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر. الدر المنثور ٧/١٨٩.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٣١.

يذكُر تعالى عبدَه ورسولَه أيوبَ ـ عليه السلامُ ـ وما كان ابتلاه تعالى به من الضُرِّ في جَسَدِهِ ومالِه وَوَلَدِه، حتى لم يبقَ من جَسدِهِ مَغْرِز إبرةٍ سَليماً سِوَى قلبِهِ، ولم يبقَ له مِن حالِ الدنيا شيءٌ يستعين به على مَرَضه وما هو فيه، غيرَ أن زوجته حَفِظَت وُدَّه لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدُم الناسَ بالأجرة وتُطعِمه، وتَخدمُه نحواً من ثماني عشرةَ سنة. وقد كان قبل ذلك في مالٍ جزيلٍ وأولادٍ وَسَعَةٍ طائلةٍ من الدنيا، فَسُلِبَ جَمِيعَ ذلك، حتى آل به الحالُ إلى أن أُلقي على مَزبَلَةٍ من مَزابِلِ البَلْدَةِ هذه المُدَّة بكَمالِها، ورفَضه القريبُ والبعيدُ سوى زوجته، رَضِي الله عنها، فإنها كانت لا تُفارقه صَباحاً ومساءً إلا بسَببِ خِدْمَةِ الناس، ثم تعودُ إليه قريباً. فلما طال المطالُ، واشتدَّ الحالُ، وانتهى القَدَرُ المقدَّر، وتَمَّ الأجَلُ المقرَّر، تَضَرَّع إلى ربِّ العالمين وإلَه المُرسَلِين، فقال: ﴿إني مَسَّنِي الضرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين﴾، وفي هذه الآية الكريمةِ قال: ﴿ربِّ إنِّي مَسَّنِي الشيطانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ﴾، قيل: بنُصبٍ في بدني، وعَذَابٍ في مالي وولدي. فعند ذلك استجابَ له أرحَمُ الراحمين، وأمره أن يَقُوم من مَقامه، وأن يركُض الأرضَ برجلِهِ، ففعل فَأَنْبَعَ اللهُ عيناً وأمرَه أن يَغتسِل منها، فأذهبت جميعَ ما كان في بَدَنِهِ من الأذى، ثم أَمَرَه فَضَرب الأرضَ في مكان آخَرَ، فأنبَعَ له عيناً أُخرى وأَمرَه أن يشرَبَ منها، فأذهَبَت ما كان بِبَاطِنِهِ من السُوءِ، وتكامَلَت العافيةُ ظاهراً وَباطِناً، ولهذا قال تعالى: ﴿اركُضْ بِرِجْلِكِ هذا مُغتَسَلٌ باردٌ وشَرابٌ﴾.

قال ابنُ جَرِير وابنُ أبي حاتِمٍ جَمِيعاً: حدثنا يونسُ بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وَهبٍ، أخبرني نافعُ بن يزيد، عن عُقَيلٍ، عن ابن شهابٍ، عَن أَنَس بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن نبيَّ الله أيوب ـ عليه السلامُ ـ لَبِثَ به بلاؤه ثماني عشرةَ سنةً، فرفضَه القريبُ والبعيدُ، إلا رَجُلين كانا من أَخَصِّ إخوانه به، كانا يَغدُوان إليه ويَرُوحان، فقال أحدُهما لصاحبه: تَعلَّمْ ـ واللهِ ـ لقد أذنَبَ أيوبُ ذنباً ما أذنَبَه أحدٌ من العالمين. قال له صاحبُه: وما ذاك؟ قال: مِن ثماني عَشرة سنةً لم يرحَمْه الله فَيَكشِفَ ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذكر ذلك له، فقال أيوبُ: لا أدري ما تقولُ، غير أنَّ الله يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتنازَعان، فيذكـران الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ فأرجعُ إلى بيتي فَأُكَفِّر عنهما، كراهيةَ أن يذكُرا الله إلا في حَقٍّ. قال: وكان يخرجُ إلى حاجته فإذا قَضَاها أمسكَت امرأته بِيَدِهِ حتى يبلُغَ، فلما كان ذاتَ يوم أبطأ عليها، وأوحَى الله تعالى إلى أيوبَ ـ عليه السلام ـ أن ﴿اركُض برجلك هذا مُغتسلٌ باردٌ وشَرابٌ﴾، فَاستبطأَتْه، فَتَلَقَّته تنظُر، فأقبل عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به من البلاء، وهُوَعلى أحسنِ ما كان. فلما رأته قالت: أَيْ ـ بارَكَ الله فيك ـ هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المبتلَى؟ فوالله على ذلـك ما رأيتُ رجلاً أشبَهَ به منكَ إذ كان صحيحاً. قال: فإنِّي أنا هو. قال: وكان له أَنْدَرانِ[(١)]، أندرٌ للقمح وأندرٌ للشعير، فَبَعَثَ الله سَحابتين، فلما كانت إحداهُما على أَنْدَرِ القَمْح أفرغَت فيه الذهَبَ حتى فاضَ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاضَ. هذا لفظُ ابنِ جَرِيرٍ، رحمه الله[(٢)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاقِ، حدثنا مَعمَرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوبُ يغتسِلُ عُرياناً، خرَّ عليه جَرادٌ من ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أيوب يحثُو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوبُ، ألم أكُن أغنيتك عما تَرَى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكن لا غِنَى بي عَن بَرَكَتِكَ»[(٣)].

انفرَدَ بإخراجِهِ البخاريُّ، من حديث عبد الرزَّاق، به[(٣)].

---

(١) الأَنْدَرُ: بيت كبير يُكَدَّس فيه الطعام.

(٢) تفسير الطبري ١٦٧/٢٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣١٤/٢، وفتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء ٤٢١/٧.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهبنا له أهلَه ومثلَهم مَعَهُم رحمةً منّا وذكرى لِأولي الألبابِ﴾، قال الحسنُ، وقتادةُ: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادَهُ مثلهم معهم[1].

وقولهُ: ﴿رحمةً منا﴾، أي: به على صَبْرِه وثباتِه وإنابتِه وتواضُعه واستكانَتِه، ﴿وذكرى لِأولي الألبابِ﴾، أي: لِذوي العُقول، ليعلَمُوا أن عاقبةَ الصبرِ الفرجُ والمخرجُ والراحةُ.

وقولُه: ﴿وخُذ بيدك ضِغثاً فاضرب به ولا تحنَثْ﴾، وذلك أن أيُّوب ـ عليه السلامُ ـ كان قد غَضِب على زوجته، ووَجَد عليها في أمرٍ فعَلَتْه. قيل: باعت ضَفيرتها بخبز فأطعمَتْهُ، فلامَها على ذلك، وحَلَفَ إن شفاه الله ليضربَنَّها مائةَ جلدةٍ. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤُها مع هذه الخِدْمَةِ التامَّةِ والرحمةِ والشفقةِ والإحسان أن تُقابَلَ بالضرب، فأفتاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يأخُذَ ضِغثاً ـ وهو: الشِّمراخُ ـ فيه مائةُ قضيبٍ فَيَضربها به ضربةً واحدةً، وقد بَرَّت يمينُه، وخرج من حِنْثِه وَوَفَّى بنَذْرِهِ، وهذا من الفَرَجِ والمخرج لمن اتَّقى الله وأنابَ إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّا وَجدناه صابراً نِعمَ العبدُ إنَّه أوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدَحَه بأنه ﴿نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّابٌ﴾، أي: رَجَّاعٌ مُنِيبٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يجعَلْ له مخرجاً * ويرزُقه من حيثُ لا يحتَسِبُ﴾.

وقد استدلَّ كثيرٌ من الفُقَهاء بهذه الآيةِ الكريمةِ على مسائلَ في الأَيمان وغيرِها، وأخذوها بمقتضاها.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ ﴾.

يقولُ تعالى مخبراً عن فضائلِ عبادِه المرسَلين وأنبيائه العابدين: ﴿واذكُر عبادنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أُولِي الأيدي والأبصارِ﴾، يعني بذلك: العمَلَ الصالحَ والعلمَ النافعَ والقُوَّةَ في العبادةِ والبصيرةَ النافذةَ.

قال عليُّ بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: ﴿أُولِي الأَيدِي والأبصارِ﴾، يقولُ: أولي القُوَّةِ والعبادةِ، ﴿والأبصارِ﴾، يقول: الفقه في الدين[2]. وقال مجاهدٌ: ﴿أُولِي الأَيدِي﴾، يعني: القُوَّةَ في طاعة الله، ﴿والأبصارِ﴾، يعني: البَصَرَ في الحقِّ. وقال قتادةُ والسُّدِّي: أُعطُوا قُوَّةً في العبادة وبَصَراً في الدين.

وقولُه: ﴿إنا أخلصناهُم بخالصةٍ ذكرى الدارِ﴾، قال مجاهدٌ: أي جعلناهُم يعمَلُون للآخرةِ ليس لهم هَمٌّ غيرُها. وكذا قال السُّدِّي: ذِكْرُهم للآخرةِ وعَمَلُهم لها. وقال مالكُ بن دينار: نَزَعَ الله من قلوبهم حُبَّ الدنيا وذِكْرَها، وأخلَصَهُم بحبِّ الآخرةِ وذِكْرِها. وكذا قال عطاء الخراساني. وقال سعيد بن جُبَير: يعني بالدار الجَنَّةَ، يقول: أخلصناها لَهُم بذِكْرِهم لها. وقال في روايةٍ أُخرى: ﴿ذكرى الدارِ﴾: عُقبى الدار. وقال قتادة: كانوا يُذَكِّرون الناس الدارَ الآخرةَ والعملَ لها. وقال ابنُ زيد: جَعَلَ لهم خاصَّةً أفضلَ شيءٍ في الدارِ الآخرةِ.

وقولُه: ﴿وإنهُم عندنا لَمِن المصطَفَين الأخيارِ﴾، أي: لمن المُختارين المجتَبَين الأخيارِ، فهم أخيارٌ مختارون.

وقولُه: ﴿واذكر إسماعيلَ واليسعَ وذا الكِفْلِ وكُلٌّ مِن الأخيارِ﴾، قد تَقَدَّم الكلامُ على قَصَصِهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء[3] بما أغنى عن إعادته ها هنا.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/١٦٨.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/١٧٠.

(٣) انظر تفسير الآية ٨٥ من سورة الأنبياء.

وقولُه: ﴿هذا ذِكْرٌ﴾، أي: هذا فصلٌ فيه ذِكْرٌ لمن يَتذكَّر. وقال السُّدِّي: يعني القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

يُخبِر تعالى عن عبادِهِ المؤمنين السُّعداء، أن لهم في الدار الآخرةِ ﴿لَحُسنَ مَآبٍ﴾، وهو: المرجعُ والمُنقَلَبُ. ثم فسَّره بقوله: ﴿جناتِ عَدْنٍ﴾، أي: جناتِ إقامةٍ مُفتَّحة لهم الأبواب.

والألف واللام ها هنا بمعنى الاضافةِ، كأنه يقول: «مُفتَّحةً لهم أبوابُها». أي: إذا جاءُوها فُتِحت لهم أبوابُها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثَوَاب الهَبَّاري، حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا عبد الله بن مسلم - يعني ابنَ هُرمز، عن ابن سابط، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله - ﷺ - : «إنَّ في الجنةِ قَصراً يُقال له: «عَدْنٌ»، حوله البُروجُ والمُروجُ، له خمسةُ آلافِ بابٍ، عند كل باب خمسةُ آلاف حِبَرةٍ[١]، لا يدخله - أو: لا يسكُنه - إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شَهيدٌ أو إمامٌ عَدْلٌ».

وقد وَرَدَ في ذِكْرِ أبواب الجنة الثمانيةِ أحاديثُ كثيرةٌ من وُجوهٍ عَديدةٍ[٢].

وقولُه: ﴿مُتَّكِئين فيها﴾، قيل: مُتربِّعين فيها على سُرُرٍ تحتَ الحِجَال[٣]، ﴿يَدْعُون فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ﴾، أي: مهما طَلَبُوا وَجَدُوا وحَضَر كما أرادُوا. ﴿وشَرابٍ﴾، أي: من أيِّ أنواعِهِ شاءُوا أتتهُم به الخُدَّام ﴿بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعينٍ﴾.

﴿وعندهُم قاصراتُ الطَّرْفِ﴾، أي: عن غير أزواجهنَّ، فلا يَلْتَفِتْنَ إلى غير بُعُولتهنَّ، ﴿أترابٌ﴾، أي: مُتَساوياتٌ في السنِّ والعُمُر. هذا معنى قولِ ابن عباس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كَعْبٍ، والسُّدِّي.

﴿هذا ما تُوعَدُون ليوم الحساب﴾، أي: هذا الذي ذكرنا من صِفَةِ الجنة التي وَعَدها لعباده المتقين، التي يَصيرُون إليها بعد نُشُورهم وقيامِهم من قُبُورِهم وسلامَتِهم من النار.

ثم أخبر عن الجنَّة أنه لا فَراغَ لها ولا انقضاءَ ولا زوالَ ولا انتهاءَ، فقال: ﴿إنَّ هذا لرزقُنا ما له من نَفادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿ما عندكُم ينفَدُ وما عند الله باقٍ﴾. وكقولِهِ: ﴿عطاءً غيرَ مجذُوذٍ﴾. كقوله: ﴿لهم أجرٌ غيرُ ممنُونٍ﴾، أي: غير مقطوعٍ. وكقوله: ﴿أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها تلك عُقبى الذين اتَّقوا وعُقبى الكافرين النارُ﴾. والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

(١) الحِبَرة: ثوب من قطن أو كتَّان مُخطَّط كان يصنع باليمن.

(٢) انظرها في مسلم، كتاب الإيمان ٥٧/١، والنسائي، كتاب الطهارة ٩٢/١ - ٩٣، وسنن ابن ماجه، كتاب الجنائز ٥١٢/١.

(٣) الحجال: جمع حجلة، وهي: سائرٌ كالقبة يُزيَّن بالثياب والسُّتور للعروس. وستر يضرب للعروس في جوف البيت.

ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تعالى مآل السُّعداء ثَنّى بذكر حَالِ الأشقياءِ ومَرْجِعِهم ومآبِهم في دار مَعادِهم وحِسابِهم، فقال: ﴿هذا وإنَّ للطاغين﴾، وهم: الخارجُون عن طاعةِ الله، المخالِفُون لرسُلِ الله، ﴿لَشَرَّ مآبٍ﴾، أي: لَسُوءَ مُنقَلَبٍ ومَرْجِعٍ. ثم فَسَّره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَونها﴾، أي: يدخُلونها فتَغمُرُهم من جَمِيعِ جَوانِبِهم، ﴿فبِئْسَ المِهادُ * هذا فَلْيَذُوقُوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ﴾، أما الحميمُ فهو الحارُّ الذي قد انتهى حَرُّه، وأما الغَسَّاق فهو ضِدُّه، وهو البارِدُ الذي لا يُستطاعُ من شِدَّه بَرْدِهِ المُؤلم. ولهذا قال: ﴿وآخَرُ من شَكْلِهِ أزواجٌ﴾، أي: وأشياءُ من هذا القبيل، الشيءُ وضِدُّه يُعاقَبُون بها.

قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا حسن بن موسى، حدثنا ابنُ لَهِيعةَ، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعِيدٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يُهْرَاقُ في الدنيا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنيا»(١).

ورواه الترمذيُّ، عن سُوَيد بنُ نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عَمرو بن الحارث، عن دَرَّاجٍ، به. ثم قال: «لا نعرفه إلاَّ من حَديث رِشْدِين»(١). كذا قال: وقد تَقدَّم مِن غَيرِ حَديثه. ورواه ابنُ جَرير، عن يونُس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عَمرو بن الحارث(١)، به.

وقال كعبُ الأحبارِ: غَسَّاق: عَيْنٌ في جَهَنَّم، يَسِيل إليها حُمَةُ كلِّ ذات حُمَة(٢) من حَيَّةٍ وعقربٍ وغير ذلك، فيستنقع، فَيُؤتَى بالآدمي فَيُغمَسُ فيها غَمْسَةً واحِدةً، فيخرج وقد سَقَطَ جِلْدُه ولَحمُه عن العِظَامِ، ويَتَعَلَّق جلدُه ولحمه في كعبيه وعَقِبيه، ويَجرُّ لحمَه كما يَجُرُّ الرجُل ثوبَه. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الحسنُ البصريُّ في قوله: ﴿وآخَرُ من شكله أزواجٌ﴾، ألوانٌ من العذاب. وقال غيرُه: كالزَّمهرير، والسَّمُوم، وشُرب الحميم، وأَكْلِ الزقوم، والصُّعود، والهُوِيِّ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة والمتخالفة، والجَميعُ مما يُعذَّبونَ به، ويُهانُون بسببه.

وقولُه: ﴿هذا فوجٌ مُقتحِمٌ معكم لا مَرْحباً بهم إنَّهم صالُوا النارِ﴾، هذا إخبارٌ عن قِيلِ أهلِ النارِ بعضِهم لبعضٍ كما قال تعالى: ﴿كُلَّما دَخلت أُمَّةٌ لعَنت أُختَها﴾، يعني بدلَ السلام يَتلاعَنُون ويَتكاذَبُون، ويكفرُ بعضُهم ببعض، فتقول الطائفةُ التي تدخُل قَبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخَزَنةِ من الزَّبانِيَةِ: ﴿هذا فوجٌ مقتحِمٌ﴾، أي: داخلٌ معكم، ﴿لا مرحباً بِهم إنهم صالُوا النارِ﴾، أي: لأنهم من أهل جَهَنَّم. ﴿قالُوا بل أَنتم لا مرحباً بكم﴾، أي: فيقولُ لهم الداخِلُون: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قَدَّمتموه لنا﴾، أي: أنتم دَعَوتُمونا إلى ما أفضَى بنا إلى هذا المصير، ﴿فبئسَ القرارُ﴾، أي: فبئس المنزلُ والمستقرُّ والمصيرُ. ﴿قالوا ربَّنا مَن قَدَّم لنا هذا فزِدْهُ عذاباً ضعفاً في النار﴾، كما قال تعالى: ﴿قالت أُخراهم لأُولاهم ربَّنا هؤلاء أَضلُّونا فآتهم عَذاباً ضِعْفاً من النَار قال لِكلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تَعْلَمُون﴾، أي: لِكلٍّ منكم عَذابٌ بِحَسَبِهِ. ﴿وقالُوا ما لَنا لا نَرى رجالاً كُنَّا نَعدُّهم من الأشرار * أتخذناهم سِخْرِيّاً أم زاغت عنهُم الأبصارُ﴾، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يَفْقِدُون رجالاً كانوا يَعتقِدُون أنهم على الضَلالة، وهم المؤمنون في زَعْمِهم، قالوا: ما لنا لا نراهم مَعَنا في النار؟!.

قال مجاهدٌ: هذا قولُ أبي جَهلٍ، يقول: ما لي لا أرى بلالاً، وعمَّاراً، وصُهَيباً، وفلاناً وفلاناً(٣).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٨/٣. وعارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ٥٣/١٠، وتفسير الطبري ١٧٨/٢٣.
(٢) الحُمَةُ: سُمُّ كلِّ شيء يلدغ أو يلسعُ.
(٣) أخرجه الطبري ١٨١/٢٣.

وهذا مثل ضُربَ، وإلاّ فكلُّ الكفارِ هذا حالُهم، يَعتقدون أن المؤمنين يدخلُون النار، فلما دخل الكفارُ النارَ افتقدُوهم فلم يَجِدُوهم، فقالوا: ﴿ما لنا لا نَرَى رجالاً كنا نَعدُّهم من الأشرار * أتَّخذناهُم سِخْريّاً﴾، أي: في الدُّنيا، ﴿أم زاغَت عنهم الأبصارُ﴾، يُسلُّون أنفُسَهم بالمحال، يقولون: أو لَعلَّهم معنا في جَهنَّم، ولكن لم يَقع بصرُنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدَّرجات العاليات، وهو قولُه: ﴿ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النار أن قد وَجدنا ما وَعدَنا ربُّنا حَقّاً فهل وجدتُم ما وَعد ربُّكم حقاً قالوا نَعم فأذَّن مُؤذِّنٌ بينهم أنْ لعنةُ اللهِ على الظَّالمين﴾ إلى قوله: ﴿ادخلُوا الجنَّة لا خوفٌ عليكُم ولا أنتم تَحزنُون﴾.

وقولُه: ﴿إنَّ ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهل النارِ﴾، أي: إنَّ هذا الذي أخبرناكَ به يا مُحمَّدُ، مِن تخاصُمِ أهلِ النارِ بعضِهم في بعضٍ، ولَعْنِ بعضِهم لبعضٍ، لَحَقٌّ لا مِرْيَة فيه ولا شَكَّ.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقولُ تعالى آمراً رسوله - صلواتُ الله وسلامُه عليه - أن يقولَ للكفار بالله المشركين به المُكذِّبين لرسوله: ﴿إنما أنا منذرٌ﴾، لستُ كما تزعمون، ﴿وما مِن إلهٍ إلا الله الواحدُ القهَّارُ﴾، أي: هو وحدَه قد قَهَرَ كلَّ شيءٍ وغلَبَهُ. ﴿ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما﴾، أي: هو مالكُ جميعِ ذلك ومُتصرِّفٌ فيه، ﴿العزيزُ الغفَّار﴾، أي: غفَّارٌ مع عِزَّتِهِ وعَظَمَتِهِ. ﴿قُل هو نبأٌ عظيمٌ﴾، أي: خبرٌ عظيمٌ وشأنٌ بليغٌ، وهو إرسالُ اللهِ إيايَ إليكم، ﴿أنتم عنه مُعرِضُون﴾، أي: غافلُون. قال مجاهدٌ، وشُريح القاضي، والسُّدي في قولِهِ: ﴿قُل هُو نبأٌ عظيمٌ﴾، يعني: القرآن.

وقولُه: ﴿ما كان لِي من علم بالمَلإ الأعلى إذ يَختصِمُونَ﴾، أي: لولا الوحيُ من أين كنتُ أدري باختلافِ الملأ الأعلى؟ يعني في شأنِ آدمَ وامتناعِ إبليسَ من السُّجودِ له، ومحاجَّتِهِ ربَّه في تفضِيله عليه. فأمَّا الحديثُ الذي رواه الإمام أحمدُ حيث قال:

حدَّثنا أبو سعيدٍ مولى بني هاشم، حدثنا جَهْضَم اليماميّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سَلَّام، عن أبي سَلَّام، عن عبد الرحمٰن بن عائشٍ، عن مالك بن يَخامر، عن مُعاذٍ - رَضِيَ اللهُ عنه - قال: احتبسَ علينا رسولُ الله - ﷺ - ذاتَ غداةٍ عن صَلاةِ الصبح، حتى كدنا نتراءى قَرن الشمس. فَخرَجَ رسولُ الله - ﷺ - سريعاً، فَثوَّب[1] بالصلاةِ فصلَّى، وتَجوَّزَ في صلاته، فلما سلم قال: كَما أنتم، [على مَصافِّكم. ثم أقبل إلينا فقال: [إني سَأحدِّثكم ما حَبسني عنكم الغداةَ]، إني قمتُ من اللَّيل فصليتُ ما قُدِّر لي، فنَعَستُ في صلاتي حتى استيقظتُ، فإذا أنا بربِّي - عزَّ وجلَّ - في أحسنِ صُورةٍ، فقال: يا محمدُ، أتَدري فيم يختصِمُ الملأ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري رَبِّ - أعادها ثلاثاً - فرأيتُه وضَعَ كَفَّه بين كَتِفي حتى وَجَدتُ بَرْدَ أناملِهِ بين صَدْري، فَتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعَرفتُ، فقال: يا محمدُ، فيم يختصمُ الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفَّارات. قال: وما الكفَّارات؟ قلت: نقلُ الأقدامِ إلى الجُمُعات، والجلوسُ في المساجد بعد الصَّلوات، وإسباغِ الوضوء عند الكَريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعامُ الطعام، ولينُ الكلامِ، والصلاةُ والناس نيامٌ. قال: سَلْ. قلتُ: اللهُمَّ، إني أسألك فعلَ الخيرات، وتركَ المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي

(١) ثوَّب بالصلاة: دعا إلى إقامتها.

وترحمني، وإذا أردتَ فتنةً بقومٍ فتوفَّني غير مفتونٍ، وأسألك حُبَّك وحُبَّ مَن يُحبُّك، وحُبَّ عملٍ يُقرِّبني إلى حُبِّك. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنها حقٌّ فادرسُوها وتعلَّموها»(١).

فهو حديثُ المنام المشهور، ومَن جعله يَقظة فقد غلِطَ، وهو في السُّنَن من طُرُق. وهذا الحديثُ بعينه قد رَواه الترمذيُّ من حديث «جَهْضَم بن عبد الله اليَمامِيّ» به. وقال: «حسنٌ صحيحٌ»(١). وليس هذا الاختصام هو الاختصامُ المذكور في القرآن؛ فإن هذا قد فُسِّر، وأما الاختصامُ الذي في القرآن فقد فُسِّر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

هذه القصةُ ذكرها الله ـ تعالى ـ في «سُورَةِ البقرة»، وفي أول «الأعراف»، وفي «سورة الحجر»، و«سبحان»، و«الكهف». وها هنا. وهي أن الله ـ سُبحانه ـ أعلَمَ الملائكة قبل خَلْق آدم ـ عليه السلامُ ـ بأنه سيخلقُ بشراً من صَلْصالٍ من حَمَإٍ مسنُونٍ، وتقدَّم إليهم بالأمر متى فرَغ من خَلْقِه وتَسويتِه فَلْيَسْجدُوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً، وامتثالاً لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكةُ كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكُن منهم جنساً؛ كان من الجنِّ فخانه طبعُه وجِبِلَّتُه أحوجَ ما كان إليه، فاستنكف عن السُّجودِ لآدَمَ، وخاصَمَ ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه، وادَّعى أنه خيرٌ من آدم؛ فإنه مخلوقٌ من نارٍ وآدمُ خُلِقَ من طينٍ، [والنارُ خيرٌ من الطين] في زَعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالَفَ أمرَ الله، وكَفرَ بذلك، فأبعدَه الله وأرغَمَ أنفَه، وطَرَده عن باب رَحمتِه ومحلِّ أُنسِه، وحَضْرةِ قُدسِه، وسَمَّاه «إبليس»، إعلاماً له بأنه قد أَبْلَسَ(٢) من الرحمة، وأنزله من السماء مَذمُوماً مَدْحوراً إلى الأرض، فَسأَلَ [الله] النَّظِرَةَ إلى يوم البعثِ، فأنظره الحليمُ الذي لا يَعْجَل على مَن عَصاه. فلما أَمِنَ الهلاكَ إلى يوم القيامة تَمرَّد وطَغى، وقال: ﴿فبعزتك لأغوينَّهم أجمعِينَ * إلا عبادَكَ منهم المُخلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أرأيتَكَ هذا الذي كَرَّمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذُرِّيته إلا قليلاً﴾، وهؤلاء هم المُستثنَون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكَفَى بربِّكَ وكيلاً﴾.

وقولُه: ﴿قال فالحقُّ والحقَّ أقول * لأَملأنَّ جهنَّم منك وممن تَبِعَكَ منهم أجمَعِين﴾، قرأ ذلك جماعةٌ منهم مجاهد برفع ﴿الحق﴾(٣) الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحقُّ، والحقَّ أقول. وفي رواية عنه: الحقُّ مني، وأقول الحقَّ. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السُّدِّي: هو قسم أقسم الله به(٤).

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٤٣، وما بين القوسين عنه. وعارضة الأحوذي، تفسير سورة صٓ ١٢/١١٤ ـ ١١٧.
(٢) أي: يَئِسَ.
(٣) قرأ بالرفع عاصم وحمزة، وباقي السبعة بالنصب. ولا خلاف في نصب الثاني. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٤٩.
(٤) أخرجه الطبري ٢٣/١٨٨.

قلتُ: وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله تعالى: ﴿ولكن حَقَّ القولُ منِّي لأملأنَّ جهَنَّم من الجِنَّةِ والناسِ أجمَعِين﴾. وكقوله تعالى: ﴿قال اذهَب فمن تَبِعك منهم فإنَّ جهَنَّم جزاؤُكم جزاءً مَوفُوراً﴾.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

يقولُ تعالى: قُل يا محمدُ لهؤلاء المشركين: ما أسألُكم على هذا البلاغ وهذا النُصح أجراً تُعطُونيهِ من عَرَض الحياة الدنيا، ﴿وما أنا من المُتَكلِّفين﴾، أي: وما أريد على ما أرسلني الله به ولا أبتغي زيادةً عليه، بل ما أُمِرتُ به أدَّيتُه لا أزيدُ عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجهَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ والدارَ الآخرة.

قال سُفيان الثوريُّ، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضُحى، عن مسرُوقٍ قال: أَتينا عبدَ الله بنَ مسعودٍ قال: يا أَيُها الناسُ، مَن عَلِم شيئاً فَلْيقُل به، ومَن لا يعلَم فَلْيقُل: الله أعلَمُ، فإنَّ من العلم أن يقولَ الرجلُ لما لا يعلم: الله أعلَمُ، فإن الله قال لنبيِّكم ـ ﷺ ـ : ﴿قل ما أسألُكم عليه من أجرٍ وما أنا من المُتَكلِّفين﴾. أخرجاه من حديث الأعمش، به[1].

وقولُه: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾، يعني: القرآنُ ذكرٌ لجميع المُكَلَّفين من الإنس والجنِّ. قاله ابن عباس. ورواه ابنُ أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيلَ: حدثنا قَيسٌ، عن عطاء بن السائبِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿للعالَمين﴾، قال: الجنُّ والإنسُ.

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم به ومَن بَلَغ﴾، ﴿ومن يكفُر به من الأحزاب فالنارُ موعده﴾.

وقولُه: ﴿وَلَتعلمُنَّ نَبأه﴾، أي: خَبَره وصِدْقَه ﴿بعد حينٍ﴾، أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموتِ. وقال عكرمة: يعني يومَ القيامةِ. ولا منافاةَ بين القولَين؛ فإنَّ مَن مات قد دَخَل في حكم القيامة.

وقال قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَتعلمُنَّ نبأَه بعد حينٍ﴾، قال الحسن: يا ابنَ آدمَ، عندَ الموتِ يأتيكَ الخبرُ اليقين[2].

آخر تفسير سورة «صٓ» ولله الحمدُ والمنَّةُ.

(١) فتح الباري، تفسير سورة صٓ ٨/٥٤٩، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٥٥ ـ ٢١٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/١٨٩.

تفسير

سُورَةُ الزُّمَر

آياتها ٧٥ ترتيبها ٣٩

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قال النَّسائيُّ: حدثنا محمد بن النَّضر بنُ مُساور، حدثنا حمَّاد، عن مَرْوان أبي لُبابَةَ، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصومُ حتى نقول: ما يُريد أن يُفطِرَ، ويُفطِرَ حتى نقولَ: ما يُريد أن يَصُومَ. وكان يقرأ في كلِّ ليلةٍ بني إسرائيل والزُّمَر(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤﴾

يُخبر تعالى أنَّ تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآنُ العظيمُ ـ من عِنده ـ تبارَكَ وتعالى ـ فهو الحقُّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ، كما قالَ تعالى: ﴿وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين * نزل به الروحُ الأمينُ * على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرين * بلسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ﴾. وقال: ﴿وإنه لكتابٌ عَزيزٌ * لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفه تنزيلٌ من حَكيم حميدٍ﴾. وقال هاهنا: ﴿تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ﴾، أي: المنيع الجَنابِ، ﴿الحكيم﴾، أي: في أقواله وأفعالِه، وشرْعِه وقَدَرِه.

﴿إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ فاعبُدِ الله مخلصاً له الدين﴾، أي: فاعبُدِ الله وحدَه لا شريكَ له، وادعُ الخَلْقَ إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلُح العبادةُ إلا له وَحْدَه، وأنه ليس له شريكٌ ولا عَدِيلٌ ولا نَدِيدٌ. ولهذا

(١) تقدم الحديث أول تفسير سورة الإسراء، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الصوم ٤/١٩٩، وفي التفسير من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/٣٠٣.

قال: ﴿ ألا للهِ الدينُ الخالصُ ﴾، أي لا يَقْبَلُ من العمل إلا ما أخلص فيه العاملُ لله وحده، لا شريك له. وقال قتادةُ في قوله: ﴿ ألا للهِ الدينُ الخالصُ ﴾: شهادةُ أن لا إلَهَ إلا الله[١].

ثم أخبر تعالى عن عُبَّادِ الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ ما نَعبدُهم إلا لِيقرِّبونا إلى اللهِ زُلفى ﴾، أي: إنما يحمِلُهم على عبادتهم لهم أنهم عَمَدوا إلى أصنام اتخذُوها على صُوَرِ الملائكةِ المُقرَّبين في زعمهم، فَعَبدُوا تلك الصُّوَر تنزيلاً لذلك مَنزلةَ عبادتهم الملائكةَ، ليشْفَعُوا لهم عند الله في نَصْرِهم ورزْقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعادُ فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادةُ، والسُّدِّيُّ، ومالكٌ عن زيد بن أسلم، وابنُ زيد: ﴿ إلا لِيُقرِّبونا إلى الله زُلفى ﴾، أي: ليشفَعُوا لنا، ويُقَرِّبونا عندَه منزلةً.

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حَجُّوا في جاهليتهم: «لبيكَ لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لَكَ، تَملِكه وما مَلَك». وهذه الشبهةُ هي التي اعتمدَها المشركون في قَديم الدهر وَحديثه، وجاءتهم الرسلُ ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليهم أجمعين ـ بِرَدِّها والنهي عنها، والدعوةِ إلى إفرادِ العبادةِ لله وحدَه لا شريكَ له، وأن هذا شيءٌ اخترعَه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذَن الله فيه ولا رَضِيَ به، بل أبغضَه ونَهى عنه: ﴿ ولقد بَعَثنا في كل أُمَّةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله واجتَنِبُوا الطاغوتَ ﴾، ﴿ وما أرسلنا من قَبلِك من رسولٍ إلا نُوحِي إليه أنه لا إلَهَ إلا أنا فاعبُدونِ ﴾.

وأخبَرَ أن الملائكةَ التي في السمواتِ من المُقَرَّبين وغيرهم، كُلُّهم عبيدٌ خاضعون لله، لا يشفَعُون عنده إلا بإذنِه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يَشفَعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبَّه الملوك وأَبَوه، ﴿ فلا تَضربوا لله الأمثال ﴾، تعالى الله عن ذلك.

وقولُهُ: ﴿ إن الله يحكُم بينهم ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ فيما هم فيه يختَلِفُون ﴾ أي: سَيَفصِلُ بين الخلائق يوم مَعادِهم، ويَجْزِي كُلَّ عاملٍ بِعَملِه، ﴿ ويومَ يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إيَّاكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنتَ وَلِيُّنا من دُونِهم بل كانوا يعبدُون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾.

وقولُهُ: ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كَفَّار﴾، أي: لا يُرشِدُ إلى الهداية مَن قَصْدُه الكذبُ والافتراءُ على الله، وقلبه كَفّار بآياته وحُجَجه وبراهينه.

ثم بَيَّن تعالى أنه لا ولَدَ له كما يزعُمه جَهَلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العُزَير وعيسى، فقال: ﴿ لو أراد الله أن يَتَّخذَ ولداً لاصطفى مما يخلُق ما يشاءُ ﴾، أي: لكان الأمرُ على خلافِ ما يزعُمون. وهذا شرطٌ لا يلزمُ وقوعُه ولا جوازُه، بل هو محالٌ، وإنما قَصَد تجهيلهم فيما ادَّعوه وزَعَمُوه، كما قال: ﴿ لو أردنا أن نَتَّخذ لهواً لاتخذناه من لَدُنَّا إن كنا فاعِلين ﴾، ﴿ قُل إن كان للرحمنِ ولدٌ فأنا أوَّلُ العابدين ﴾، كل هذا من باب الشرطِ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقولُهُ: ﴿ سبحانَه هو الله الواحدُ القهَّار ﴾، أي: تعالى وَتنزَّه وتقدَّس عن أن يَكون له ولدٌ، فإنه الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الذي كلُّ شيءٍ عبدٌ لَدَيه، فَقِير إليه، وهو الغَنِيُّ عما سِواه، الذي قد قَهَر الأشياء فدانت له وذَلَّت وخَضَعَت.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/١٩١.

وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه الخالقُ لما في السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياءِ، وأنه مالكُ الملكِ المُتصرِّف فيه، يُقلِّب ليلَه ونهارَه، ﴿ يُكوِّر الليلَ على النهارِ ويكوِّر النهار على الليل ﴾، أي: سخَّرهما يجريان متعاقبين لا يَفتُران، كل منهما يَطلُب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله: ﴿ يُغشي الليل النهار يطلُبه حثيثاً ﴾. هذا معنى ما رُوي عن ابن عباس، ومجاهدٍ، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم(١).

وقولُه: ﴿ وسخَّر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى ﴾، أي: إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عند الله ثم تَنقضي يومَ القيامة. ﴿ ألا هو العزيزُ الغفّار ﴾، أي: مع عزَّتِه وعَظَمته وكبريائه هو غفَّارٌ لمن عَصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقولُه: ﴿ خَلَقكم من نفسٍ واحدةٍ ﴾، أي: خَلَقكم مع اختلافِ أجناسِكم وأصنافِكم وألسنتِكم وألوانكم من نفسٍ واحدةٍ، وهو آدمُ ـ عليه السلام ـ ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾، وهي حواءُ ـ عليهما السلام ـ كقوله: ﴿ يا أيها الناسُ اتَّقوا ربكم الذي خَلَقكم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾.

وقولُه: ﴿ وأنزَل لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواجٍ ﴾، أي: وخَلَق لكم من ظهور الأنعام ثمانيةَ أزواجٍ، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ ثمانية أزواجٍ من الضأن اثنين ومن المعْزِ اثنين ﴾، ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾.

وقولُه: ﴿ يخلُقكم في بطُون أُمهاتكم ﴾، أي: قَدَّركم في بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقاً من بعدِ خَلْقٍ ﴾، أي: يَكونُ أحدُكم أولاً نُطفَةً، ثم يَكُون عَلَقةً، ثم يَكُون مُضغَةً، ثم يُخلَقُ فيكونُ لحماً وعظماً وعَصَباً وعروقاً، ويُنفَخ فيه الروحُ فيصيرُ خَلْقاً آخر، ﴿ فتبارك الله أحسنُ الخالقين ﴾.

وقولُه: ﴿ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ ﴾، يعني: ظلمةَ الرَّحِم، وظلمةَ المَشيمةِ ـ التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمَةَ البطنِ. كذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو مالكٍ، والضحَّاك، وقتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زيد.

وقولُه: ﴿ ذلكُم الله ربُّكم ﴾، أي: هذا الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ وما بينهما وخَلَق آباءكم وإيَّاكم، هو الرب له الملكُ والتصرُّفُ في جميع ذلك، ﴿ لا إلَهَ إلا هُو ﴾، أي: الذي لا تَنبغي العبادةُ إلا له وحدَه، ﴿ فأنَّى تُصرَفُون ﴾، أي: فكيف تعبدُون معَه غيره؟ أين يُذهَبُ بعُقولكم؟!

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣/١٩٣.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى: أنه الغنيُّ عمَّا سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿ إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإنَّ الله لغني حَميدٌ ﴾. وفي صحيح مسلم: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ منكم ما نَقَص ذلك من ملكي شيئاً»(١).

وقولُهُ: ﴿ ولا يرضَى لعبادِهِ الكُفر ﴾، أي: لا يحبُّه ولا يَأمُر به، ﴿ وإن تَشكُروا يرضَه لكُم ﴾، أي: يُحبُّه منكم ويَزِدكم من فَضله. ﴿ ولا تَزِر وازرةٌ وِزرَ أُخرى ﴾، أي: لا تحمل نفس عن نفس، بل كُلٌّ مطالَبٌ بأمر نفسِه، ﴿ ثم إلى ربِّكم مَرجِعُكم فَيُنبِّئُكم بما كنتم تعملون إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ﴾، أي: فلا تخفَى عليه خافيةٌ.

وقولُهُ: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ ضرٌّ دعا ربَّه مُنيباً إليه ﴾، أي: عند الحاجةِ يضرَع ويَستغيثُ بالله وحدَه لا شَريك له، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مَسَّكُم الضرُّ في البحرِ ضَلَّ من تدعُون إلا إياه فلمَّا نَجَّاكم إلى البر أعرضتُم وكان الإنسانُ كفوراً ﴾ ولهذا قال: ﴿ ثم إذا خَوَّلَه نعمةً منه نَسِيَ ما كان يدعُو إليه من قبلُ ﴾، أي: في حال الرفاهية ينسَى ذلك الدعاءَ والتضرُّع، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه ﴾.

﴿وَجَعلَ لِلَهِ أنداداً ليُضِلَّ عن سَبيله﴾، أي: في حال العافية يُشرِك بالله، ويجعَلُ له أنداداً. ﴿قل تَمتَّع بكُفرك قليلاً إنَّك من أصحاب النار﴾، أي: قُل لمن هذه حالُه وطريقتُه ومسلكُه: تمتَّع بكُفرك قَلِيلاً. وهذا تَهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله: ﴿قل تَمتَّعوا فإنَّ مَصِيركم إلى النار﴾، وقولِه: ﴿نُمَتِّعهم قليلاً ثم نَضطرُّهم إلى عذابٍ غليظٍ﴾.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: أمَّن هذه صفتُه كمَن أشرَك بالله وجَعَل له أنداداً؟ لا يَستَوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ليسُوا سواءً من أهلِ الكتاب أُمَّةٌ قائمةٌ يتلُون آيات الله آناء الليل وهم يسجُدون﴾. وقال هاهنا: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾، أي: في حال سجُوده وفي حالِ قِيامه. ولهذا استدلَّ بهذه الآية مَن ذهب إلى أن القُنوت هو الخُشوع في الصلاة، ليس هو القيامَ وحدَه، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثوريُّ، عن فِراسٍ، عن الشعبيِّ، عن مسروق، عن ابن مَسعُودٍ أنه قال: القانتُ: المطيعُ لله ولرسوله. وقال ابن عباس، والحسن، والسُّديُّ، وابنُ زيد: ﴿آناءَ الليل﴾: جَوْفَ الليل. وقال الثوريُّ، عن منصورٍ: بلغنا أن ذلك بين المغربِ والعشاءِ. وقال الحسنُ، وقتادةُ: ﴿آناءَ الليل﴾: أوَّلَه وأوسطه وآخرَه.

وقولُهُ: ﴿ يحذَر الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربِّه ﴾، أي: في حالِ عبادته خائفٌ راجٍ، ولا بُدَّ في العبادةِ من هذا وهذا، وأن يكون الخوفُ في مُدَّةِ الحياة هو الغالبَ، ولهذا قال: ﴿ يحذَر الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربِّه ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فَلْيَكُن الرجاءُ هو الغالب، كما قال الإمامُ عَبدُ بن حُميد في مُسنَده:

حَدَّثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفرُ بن سُليمان، حَدَّثنا ثابتٌ، عن أنس قال: دخلَ رسول الله

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير آية إبراهيم ٧، والرعد ٢٩، والنمل ٤٠. وخرجناه هنالك.

ـ ﷺ ـ على رجُلٍ وهو في الموت، فقال له: «كيفَ تجدُك؟» قال: أرجُو وأخافُ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يجتمعان في قلبِ عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يرجُو، وأمَّنه الذي يخافُه».

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ في «اليوم والليلة»، وابن ماجه من حديث سَيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سُلَيمان، به. وقال الترمذيُّ: «غريبٌ. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً»[١].

وقال ابنُ أبي حاتم، حدثنا عُمَرَ بن شَبَّة، عن عَبِيدَةَ النميري، حدثنا أبو خَلَف عبد الله بن عيسى الخَزّاز، حدثنا يحيى البَكَّاء، أنه سمع ابنَ عُمر قرَأ: ﴿ أَمَّن هُوَ قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذَر الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربِّه ﴾. قال ابن عمر: ذاك عثمانُ بن عَفَّانَ رضي الله عنه[٢].

وإنما قال ابنُ عُمَر ذلك لكثرةِ صلاةِ أمير المؤمنين عُثمانَ بالليلِ وقراءَتِه، حتى إنه رُبَّما قرأ القرآن في ركعة، كما رَوَى ذلك أبو عُبَيدٍ عنه رضي الله عنه. وقال الشاعر[٣]:

ضَحَّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجودِ بِهِ ... يُقَطِّعِ اللَّيلَ تَسْبيحاً وقُرآنا

وقال الإمامُ أحمد: كَتَبَ إليَّ الربيع بنُ نافع: حدثنا الهيثَمُ بن حُمَيد، عن زيد بن واقد، عن سُلَيمانَ بن مُوسى، عن كثير بن مُرَّةَ، عن تميم الداريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قرأ بمائةِ آيةٍ في ليلةٍ كُتِبَ له قنوتُ ليلة»[٥].

وكذا رواه النسائيُّ في «اليوم والليلة» عن إبراهيمَ بنِ يعقوبَ. عن عبد الله بن يوسُفَ والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حُمَيدٍ، به[٥].

وقولُهُ: ﴿ قُلْ هل يَستَوي الذين يَعلَمُون والذين لا يَعلَمُون ﴾، أي: هل يَستوي هذا والذي قبله ممن جَعَل للهِ أنداداً لِيُضِلَّ عن سَبيله؟! ﴿ إنما يَتَذَكَّر أولُوا الألبابِ ﴾، أي: إنما يعلَمُ الفَرق بين هذا وهذا مَن له لُبٌّ وهو العقلُ.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرارِ على طاعتِه وتقواه ﴿ قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقُوا ربَّكم للذين أحسَنُوا في هذه الدنيا حَسَنةٌ ﴾ أي: لمن أحسن العملَ في هذه الدنيا حَسَنةٌ في دُنياهم وأُخراهم.

وقولُهُ: ﴿ وأرضُ اللهِ واسعةٌ ﴾، قال مجاهد: فَهاجِرُوا فيها، وجاهِدُوا، واعتزِلُوا الأوثان[٦]. وقال شَريك، عن منصور، عن عطاءٍ في قوله: ﴿ وأرضُ اللهِ واسعةٌ ﴾، قال: إذا دُعِيتُم إلى المعصية فاهرُبوا، ثم قرأ: ﴿ ألم تكن أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجروا فيها ﴾.

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الجنائز ٤/٢٠٥، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٢٣، وانظر تحفة الأشراف للمِزّي ١/١٠٤.
(٢) الدرّ المنثور ٧/٢١٣ ـ ٢١٤.
(٣) تقدمت رواية أبي عُبَيدٍ أوّل التفسير، في كتاب فضائل القرآن. وقال ابن كثير هنالك: «وهذا إسناد صحيح».
(٤) حسان بن ثابت، ديوانه ٢١٦. والأشمط: الأبيض. والقرآن: القراءة.
(٥) مسند الإمام أحمد ٤/١٠٣. وتحفة الأشراف للمِزّي ٢/١١٨.
(٦) أخرجه الطبري ٢٣/٢٠٣.

وقولُهُ: ﴿ إنما يُوفَّى الصابرون أجرَهُم بغير حساب ﴾، قال الأوزاعيُّ: ليس يُوزَنُ لهم ولا يُكالُ، إنما يُغرَفُ لهم غَرْفاً. وقال ابن جُرَيج: بلغني أنه لا يُحسَب عليهم ثوابُ عَمَلِهم قطُّ، ولكن يُزادُون على ذلك. وقال السُّدِّيُّ: ﴿ إنما يُوفَّى الصابرُون أجرَهُم بغير حساب ﴾: يعني في الجنة.

وقولُهُ: ﴿ قل إني أُمِرتُ أن أعبدَ الله مخلصاً له الدينَ ﴾، أي: إنما أُمِرتُ بإخلاص العبادة لله وحدَه لا شريكَ له، ﴿ وأُمِرتُ لأن أكونَ أولَ المُسلمينَ ﴾، قال السُّدِّيُّ: يعني من أُمَّتِه ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: قل - يا محمدُ - وأنت رسولُ الله: ﴿ إني أخافُ إن عَصَيت ربِّي عذابَ يوم عظيم ﴾، وهو يومُ القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريضُ بغيره بطريق الأولى والأخرى، ﴿قل الله أعبدُ مخلصاً له ديني * فاعبدُوا ما شئتُم من دونه ﴾، وهذا أيضاً تهديدٌ وتبرُّ منهم، ﴿قُل إن الخاسرين﴾، أي: إنما الخاسرون كلَّ الخُسران ﴿ الذين خَسِروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾، أي: تَفارقُوا فلا التقاءَ لهم أبداً، سواءٌ ذَهَب أهلُوهم إلى الجنة وقد ذَهَبُوا هم إلى النار، أو أن الجميع أُسكِنُوا النارَ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سُرورَ، ﴿ ألا ذلك هو الخُسران المبين ﴾، أي: هذا هو الخَسار البَيِّنُ الظاهرُ الواضحُ.

ثم وَصَف حالهم في النار فقال: ﴿ لَهُم مِن فَوقِهم ظُلَلٌ من النار وَمِن تَحتهم ظُلَلٌ ﴾، كما قال: لهم من جَهَنَّم مِهادٌ ومن فَوقِهم غَواشٍ وكذلك نَجزِي الظالمين ﴾. وقال: ﴿ يومَ يَغشاهُم العذابُ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم ويقول ذُوقُوا ما كنتم تَعمَلُون﴾.

وقولُهُ: ﴿ ذلك يُخَوِّف الله به عبادَه﴾، أي: إنما يَقُصُّ خبَر هذا الكائن لا محالةَ لِيُخَوِّفَ به عبادَه، لينزجِرُوا عن المحارم والمآثم.

وقولُهُ: ﴿ يا عبادِ فاتقونِ ﴾، أي: اخشَوا بَأسي وسَطوتي، وعذابي ونقمتي.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

قال عبدُ الرحمن بنُ زيد بن أسلَمَ، عن أبيه، ﴿ والذين اجتَنبُوا الطاغوتَ أن يَعبدُوها ﴾، نزلت في زيدِ ابن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذَرٍّ، وسلمانَ الفارسي[1].

والصحيحُ أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، مِمَّن اجتنب عبادةَ الأوثانِ، وأنابَ إلى عبادةِ الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿ فَبَشِّر عبادِ* الذين يَستمعون القولَ فيَتَّبِعُون أحسَنَه ﴾، أي: يَفهَمُونه ويعمَلُون بما فيه، كقوله

(١) أخرجه الطبري ٢٣/٢٠٧.

تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿فَخُذها بقوةٍ وَأْمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها﴾. ﴿أولئك الذين هَداهُم الله﴾، أي: المتَّصِفُون بهذه الصفةِ هُم الذين هَداهُم الله في الدنيا والأخرى، ﴿أولئك هم أولوا الألبابِ﴾، أي: ذَوُو العُقُولِ الصَّحيحةِ، والفِطَرِ المستقيمةِ.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى: أفمن كَتَب الله أنه شَقِيّ تَقْدِرُ تُنقِذُهُ مما هُو فيه من الضلالِ والهَلاك؟ أي: لا يهديه أحدٌ من بعدِ الله، لأنه مَن يُضلِلِ الله فلا هاديَ له، ومن يَهدِه فلا مُضِلَّ له.

ثم أخبر عن عبادِه السعداء أنهم لهم غُرَفٌ في الجنة، وهي القصورُ الشاهقةُ، ﴿من فوقها غُرَفٌ مَبنِيَّةٌ﴾، أي: طِباقٌ فوقَ طباقٍ، مَبْنِيَّاتٌ مُحكَماتٌ مُزخرفاتٌ عالياتٌ.

قال عبدُ الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عَبَّادُ بن يعقوبَ الأسدِيُّ، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن عبد الرحمن بنِ إسحاق، عن النُّعمان بنِ سَعدٍ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ في الجنةِ لغرفاً يُرَى بطونُها من ظُهورِها، وظُهورها من بُطونها. فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطابَ الكلامَ، وأطعَم الطعامَ، وصلى بالليلِ والناسُ نيامٌ»[١].

وَرواه الترمذيُّ من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقال: «حسنٌ غريب، وقد تكلَّم بعضُ أهل العلمِ فيه من قِبَل حِفْظِه»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاقِ، حدثنا معمَرٌ، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن مُعانِق ـ أو: أبي مُعانِق ـ عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجنةِ لغرفةً يُرَى ظاهرُها مِن باطنِها، وباطنُها من ظاهِرِها، أعدَّها الله لمن أطعَمَ الطعامَ، وألانَ الكلام، وتابع الصيامَ، وصلى والناس نيام»[٢].

تفرَّد به أحمدُ من حديث عبد الله بن مُعانق الأشعري، عن أبي مالك، به.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتيبة بن سَعيد، حدثنا يعقوبُ بن عبد الرحمن، عن أبي حازمٍ، عن سهلِ بن سعدٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أهلَ الجنةِ ليتراءَون الغرفَةَ في الجنَّةِ كما تَراءَون الكوكبَ في السماء». قال: فحدثتُ بذلك النُّعمانَ بنَ أبي عياشٍ، فقال: سَمِعت أبا سعيدِ الخدريَّ يقول: «كما تراءون الكوكب الدُّرِّيَّ في الأفق الشرقي أو الغربي»[٣].

أخرجاه في الصَّحيحين، من حديثِ أبي حازم[٣]، وأخرجاه [أيضاً] في الصحيحَينِ من حديث مالك، عن صفوانَ بن سُليمٍ، عن عطاء بن يَسار، عن أبي سَعيد، عن النبي ﷺ[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرني فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يَسار، عن أبي هُرَيرة

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦. وتقدم حديث الترمذي عند تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٤٣.
(٣) مسند أحمد ٥/ ٣٤٠، وتقدم تخريج أبي سعيد في الصحيحين عند تفسير الآية ٦٩ من سورة النساء، وحديث سهل بن سعد عند تفسير آية التوبة ٧٢.

ـ رضي الله عنه ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أهلَ الجنة ليتراءَون في الجَنَّةِ أهلَ الغُرَف كما تراءَون الكوكب الدرِّي الغاربَ في الأفق الطالع، في تفاضُل أهلِ الدرجات. فقالوا: يا رسولَ الله، أولئك النبيُّون؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوامٌ آمنوا بالله وصَدَّقُوا الرسُلَ»(١).

ورواه الترمذيُّ عن سُوَيد، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به، وقال: «حسن صحيح»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر(٢) قالا: حدثنا زُهَير، حدثنا سَعدٌ الطائي، حدثنا أبو المُدَلَّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سَمع أبا هُرَيرة يقولُ: قلنا: يا رسولَ الله، إنا إذا رأيناك رَقَّت قلوبنا، وكنَّا من أهل الآخرة، فإذا فارقناكَ أعجبتنا الدُّنيا وشَمِمْنَا النساءَ والأولادَ. قال: «لو أنكم تكونُون على كلِّ حالٍ على الحالِ التي أنتم عليها عندي لصافَحَتْكم الملائكةُ بأكُفِّهم، ولَزارتكم في بُيوتكم. ولو لم تُذنبُوا لجاءَ الله بقومٍ يُذنِبون كي يغفِر لهم». قلنا يا رسولَ الله، حَدِّثنا عن الجَنَّة، ما بناؤُها؟ قال: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، ومِلاطُها المسكُ الأذفَرُ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوتُ، وتُرابها الزعفرانُ، مَن يدخلها ينعَم ولا يَبْأَس، ويخلُدُ ولا يموتُ، لا تبلَى ثيابُه ولا يفنَى شبابُه. ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم: الإمامُ العادلُ، والصائمُ حتى يُفطِرَ، ودعوةُ المظلومِ تُحمَلُ على الغَمَامِ، وتُفتَح لها أبوابُ السمواتِ، ويقولُ الربُّ: وعِزَّتي لأنصرَنَّكَ ولو بَعد حينٍ»(٣).

وروى الترمذيُّ، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سَعد أبي مجاهد الطائي ـ وكان ثقةً ـ عن أبي المُدَلَّه ـ وكان ثقةً ـ به(٣).

وقولُهُ: ﴿ تجرِي من تحتها الأنهار ﴾، أي: تَسلُكُ الأنهارُ بين خِلَالِ ذلك، كما شاءوا وأين أرادوا، ﴿ وعدَ الله ﴾، أي: هذا الذي ذكرناه وَعْدٌ وعدَه الله عبادَه المؤمنين ﴿ إنَّ الله لا يُخلِفُ الميعادَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنَّ أصل الماء في الأرض من السماءِ كما قال تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماءِ ماءً طَهُوراً ﴾، فإذا أُنزلَ الماءُ من السماء كَمَنَ في الأرض، ثم يَصرفه تعالى في أجزاءِ الأرضِ كما يشاءُ، ويُنبِعهُ عُيُوناً ما بين صغارٍ وكِبارٍ، بِحَسَب الحاجةِ إليها. ولهذا قال: ﴿ فَسَلَكَهُ ينابيعَ في الأرض ﴾.

قال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا أبو قُتَيبة عُتبة بن يَقظانَ، عن عكرمَة، عن ابنِ عَبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿ ألم تر أنَّ الله أنزلَ من السماءِ ماءً فَسَلكه ينابيعَ في الأرض ﴾، قال: ليس في الأرض ماءٌ إلا نَزَل من السماء، ولكن عُروقٌ في الأرض تُغَيِّره، فذلك قولُه: ﴿ فَسَلَكه ينابيعَ في الأرضِ ﴾، فَمن سَرَّه أن يعودَ الملحُ عذباً فَليُصعِدْه(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٣٩، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/٢١.

(٢) في المسند: وأبو كامل. ويروي الإمامُ أحمدُ عن أبي عامر عبد الملك بن عَمْرو العَقَديّ، وأبي كاملٍ مُظَفَّرِ بنِ مُدْرِكٍ البَغْدَادِيّ، انظر تهذيب الكمال ١/٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٠٤ـ٣٠٥. وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٨٨، وابن ماجه، كتاب الصيام ١/٥٥٧.

(٤) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وحده ٧/٢١٩.

وكذا قال سَعِيد بن جُبَير، وعامر الشّعبي أنّ كلّ ماءٍ في الأرض فأصلُه من السماءِ. وقال سَعِيد بن جُبَير: أصلُه من الثّلج. يعني أن الثلج يَتراكم على الجبالِ، فَيسكُن في قرارِها، فَتنبُع العيونُ من أسافلِها.

وقولُهُ: ﴿ ثم يُخرِج به زَرْعاً مُختلِفاً ألوانُه ﴾، أي: ثم يُخرِج بالماء النازلِ من السماء والنابعِ من الأرض زرعاً ﴿ مخْتلفاً ألوانُه ﴾، أي: أشكالُه وطُعومه وروائحه ومنافعُه، ﴿ ثم يَهيج ﴾، أي: بعد نَضارته وشَبابه يَكتهلُ ﴿فتراه مُصفرّاً﴾، قد خَالطه اليُبْسُ، ﴿ ثم يجعلُه حُطاماً ﴾، أي: ثم يعودُ يابساً يَتحطَّم، ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ ، أي: الذين يَتذكَّرون بهذا فَيعبُرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناءَ، ثم تعودُ عَجُوزاً شوهاءَ، والشاب يعودُ شيخاً هَرِماً كبيراً ضَعيفا، وبعد ذلك كلّه الموتُ. فالسعيدُ مَن كان حالُه بعدَه إلى خيرٍ، وكثيراً ما يضربُ الله تعالى مثلَ الحياةِ الدنيا بما يُنزِّل الله من السماء من ماء، ويُنبت به زُروعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حُطاماً، كما قال تعالى: ﴿ واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرضِ فأصبح هَشِيماً تَذْرُوه الرياحُ وكانَ الله على كُلِّ شيءٍ مُقتدِراً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ أفمن شَرَح الله صدرَه للاسلام فَهو على نورٍ من ربِّه ﴾، أي: هل يَستوي هذا ومَن هُو قاسي القلب بعيدٌ من الحقّ؟! كقوله تعالى: ﴿ أوَ من كان ميتاً فأحييناهُ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلماتِ ليس بخارج منها ﴾. ولهذا قال: ﴿ فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم من ذكرِ الله ﴾، أي: فلا تَلينُ عند ذكرِه، ولا تخشَع ولا تَعِي ولا تفهَمُ، ﴿ أولئك في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ ﴾

هذا مَدْحٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لكتابه القرانِ العظيم المُنَزَّلِ على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿ الله نَزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابهاً مثانِيَ ﴾، قال مجاهدٌ: يعني القرآن كُلُّهُ متشابهٌ مثاني. وقال قتادةُ: الآية تُشْبِهُ الآية، والحرفُ يشبه الحرفَ. وقال الضّحاكُ: ﴿مثاني﴾: ترديدُ القولِ ليفهَمُوا عن رَبِّهم ـ عزَّ وجلَّ. وقال عِكْرِمةُ، والحَسَنُ: ثنّى الله فيه القضاء. زاد الحسن: تكونُ السورةُ فيها آيةٌ، وفي السورة الأخرى آية تُشبهها.

وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: ﴿مثاني﴾ مُرَدَّد، رُدِّدَ موسى في القرآن، وصالحٌ وهودٌ والأنبياء ـ عليهم السلام ـ في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بنُ جُبير، عن ابن عباس: ﴿مثاني﴾ قال: القرآنُ يُشبِهُ بعضُهُ بعضَ، ويُرَدُّ بعضُه على بعضٍ.

وقال بعضُ العلماء: ويُرْوى عن سُفيان بن عُيَينة معنى قولِهِ: ﴿ مُتَشابِهاً مثانِيَ ﴾: أنّ سياقات القرآنِ تارةً تكونُ في معنىً واحدٍ، فهذا من المُتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيءِ وضِدِّه، كَذِكرِ المؤمنينَ ثُمَّ الكافرين، وكصِفَةِ الجَنّةِ ثم صفةَ النار، وما أشبَه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿ إنَّ الأبرارَ لَفِي نَعِيم * وإنَّ الفُجّار لفي جَحِيم ﴾، وكقوله: ﴿ كلاَّ إنَّ كتابَ الفُجّار لَفِي سِجِّينٍ ﴾، إلى أن قال: ﴿ كَلاَّ إنَّ كتابَ الأبرارِ لفي عِلِّيِّينَ ﴾ [وكقوله]: ﴿هذا ذكرٌ وإنَّ للمتَّقين لحسنَ مآب﴾، إلى أن قال: ﴿هذا وإنَّ للطاغين لشرَّ مآبٍ﴾، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياقُ كلُّه في معنًى واحدٍ يُشْبِهُ بعضُه بعضاً، فهو المتشابهُ. وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر مُتَشابهات﴾، ذلك معنى آخر.

وقولُهُ : ﴿ تَقشعِرُ منه جلودُ الذين يخشَوْنَ ربهم ثم تَلِينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ﴾، أي : هذه صفةُ الأبرارِ عند سَماعِ كلامِ الجبَّارِ، المُهيمن العزيزِ الغفَّارِ، لما يفهمون منه من الوعدِ والوعيدِ، والتخويفِ والتهديدِ، تَقشعِرُ منه جلودُهم من الخشيةِ والخوف. ﴿ ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ﴾، لما يَرجُون ويُؤمِّلُون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفُجَّار من وُجوهٍ:

أحدها: أنَّ سماعَ هؤلاء هو تلاوةُ الآيات، وسماعَ أُولئك نَغماتُ الأبياتِ، من أصوات القَيْنَاتِ.

الثاني : أنهم إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا، بأدبٍ وخَشْيَةٍ، ورَجاءٍ ومحبَّةٍ، وفَهمٍ وعلمٍ، كما قال: ﴿ إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلَت قلوبُهم وإذا تُلِيتْ عليهم آياتُهُ زادتهم إيماناً وعلى ربِّهم يَتوكَّلُون الذين يُقيمون الصلاة ومما رَزَقناهُم يُنفقون. أولئك هم المؤمنون حَقاً لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومغفرَةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾. وقال تعالى: ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً ﴾، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهِينَ عنها، بل مُصغِينَ إليها، فاهِمين بَصِيرينَ بمعانِيها، فَلِهذا إنما يَعْمَلُون بها، ويَسجُدون عندَها عن بصيرةٍ لا عن جَهْلٍ ومتابعةٍ لغيرهم.

الثالث: أنهم يَلزمُون الأدبَ عند سَماعِها كما كان الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ عند سماعِهم كَلاَم الله من تلاوةِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ تَقْشَعِرُ جلودُهم، ثم تَلِينُ مع قُلوبهم إلى ذكرِ الله. لم يكونُوا يَتَصارخُون ولا يَتكلَّفُون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثباتِ والسُكونِ والأدبِ والخشيةِ ما لا يَلحقُهم أحدٌ في ذلك، ولهذا فازُوا بالقِدْحِ المُعَلَّى في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزَّاق: حدثنا معمرٌ قال: تلا قتادةُ ـ رحمه الله ـ: ﴿ تَقشعِرُ منه جلودُ الذين يخشَون ربَّهم ثم تلينُ جُلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكرِ الله ﴾، قال: هذا نعتُ أولياءِ الله، نَعَتَهم الله بأن تَقشعِرَّ جلودُهم، وتبكي أعينُهم، وتطمئنَّ قلوبُهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بِذَهاب عُقُولهم والغِشْيانِ عليهم، إنما هذا في أهل البِدَعِ، وهذا من الشيطانِ.

وقال السُدِّيُّ: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾، أي: إلى وَعْدِ الله.

وقولُهُ : ﴿ذلك هُدَى الله يَهدِي به مَن يشاء مِن عباده﴾، أي: هذه صفةُ مَن هداه الله، وَمن كان على خلاف ذلك فهو مِمَّن أضلَّه الله، ﴿ومن يُضلِلِ الله فما له من هادٍ﴾.

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ أفمن يَتَّقِي بوجههِ سُوءَ العذاب يومَ القيامةِ ﴾، ويُقَرَّعُ فيُقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ ذُوقوا ما كنتم تكسِبُون ﴾، كَمَن يأتي آمناً يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿ أفَمَن يمشي مُكِبًّا على وجهه أَهْدَى أمَّن يمشي سَوِيًّا على صِراطٍ مُسْتَقيم ﴾: وقال: ﴿ يوم يُسحَبُون في النارِ على وُجوهِهم ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ ﴾: وقال: ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾، وأكتفي في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعرِ(١):

(١) تقدم البيت عند تفسير الآية ١٦ من سورة براءة، والآية ٤٨ من سورة القصص، والثامنة من سورة يس.

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً أُرِيدُ الخَيرَ أَيُّهمَا يَلِيني؟

يعني الخير أو الشر.

وقولُهُ: ﴿ كَذَّب الذين من قبلهم فأتاهم العذابُ من حيثُ لا يَشعُرون ﴾، يعني: القرونَ الماضيةَ المكذِّبة للرُّسلِ، أهْلَكهم الله بِذُنوبهم، وما كان لهم من الله من واقٍ.

وقولُهُ: ﴿ فأذاقَهُمُ الله الخِزْيَ في الحياةِ الدُّنيا ﴾، أي: بما أنزل بهم من العذابِ والنَّكال وتَشفِّي المؤمنين بهم، فلْيحذَرِ المخاطَبُون من ذلك، فإنهم قد كَذَّبُوا أشرفَ الرُّسُل وخاتَم الأنبياءِ، والذي أعدَّه الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابَهم في الدنيا، ولهذا قال: ﴿ وَلَعَذابُ الآخرةِ أكبَرُ لو كانوا يعلَمُون ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وَلَقد ضَرَبنا للناس في هذا القرآنِ من كُلِّ مَثَلٍ ﴾، أي: بَيَّنا للناس فيه بِضَرْب الأمثال، ﴿ لعلهم يَتذكَّرون ﴾، فإنَّ المثل يُقرِّبُ المعنى إلى الأذهانِ، كما قال تعالى: ﴿ ضَرَب لكم مَثَلاً من أنفُسِكم ﴾، أي: تَعلَمُونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وتلك الأمثالُ نَضرِبُها للناس وما يَعقِلها إلا العَالِمُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ قرآناً عربيًّا غير ذي عِوَجٍ ﴾، أي: هو قرآنٌ بلسان عَرَبيٍّ مُبين، لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ ولا لَبْسَ، بل هو بَيانٌ ووُضوحٌ وبُرهان، وإنما جعله الله كذلك، وأنزله بذلك، ﴿ لعلهم يَتَّقون ﴾، أي: يحذَرُون ما فيه من الوعيد، ويعملُون بما فيه من الوَعْد.

ثم قال: ﴿ ضَرَب الله مثلاً رجلاً فيه شُرَكاءُ مُتشاكِسُون ﴾، أي: يتنازَعُونَ في ذلك العبدِ المشتَرك بينهم، ﴿ ورجُلاً سَالِماً(١) لرجُلٍ ﴾، أي خَالِصاً لِرجُلٍ، لا يملِكُه أحدٌ غيرُه، ﴿ هل يَستَوِيَانِ مَثَلاً ﴾، أي: لا يَستوي هذا وهذا. كذلك لا يَستوِي المُشرِكُ الذي يعبدُ آلهةً مع الله، والمؤمنُ المخلِصُ الذي لا يعبدُ إلا الله وحدَه لا شريكَ له. فأين هذا مِن هذا؟!

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضُرِبَتْ مثلاً للمُشرك والمُخلِص، ولما كان هذا المثلُ ظاهراً بَيِّناً جليًّا، قال ﴿ الحمدُ لله ﴾، أي: على إقامةِ الحُجَّة عليهم، ﴿ بل أكثرُهم لا يعلَمُون ﴾، أي: فلهذا يُشركون بالله.

وقولُهُ: ﴿ إنك مَيِّتٌ وإنهم مَيِّتُون ﴾، هذه الآيةُ من الآيات التي استشهد بها الصِّدِّيقُ عند موت الرسول ـ ﷺ ـ حتى تحقَّق الناسُ موتَه، مع قوله: ﴿ وما محمد إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسلُ أفإنْ مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابِكُم ومن يَنْقَلِب على عَقِبيه فلن يَضُرَّ الله شيئاً وَسَيجزي الله الشاكِرينَ ﴾.

ومعنى هذه الآية: سَتُنقَلُونَ من هذه الدارِ لا محالَةَ، وَستجتَمِعُونَ عند الله في الدارِ الآخرةِ، وتختَصِمُون

(١) ﴿ سالِما ﴾ قراءة ابن كثير وأبي عمرو. وقرأ باقي السبعة ﴿ سَلَماً ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/ ٧٥٠. وتفسير الطبري ٢٣/ ٢١٣.

فيما أنتم فيه في الدُّنيا من التوحيد والشِّرك بين يَدَيِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فَيَفصِلُ بينكم، ويفتَحُ بالحقِّ وهو الفتاحُ العليمُ. فَيُنجِّي المؤمنين المُخلصِين المُوحِّدين، وَيُعذِّب الكافرين الجاحِدين المُشركين المُكَذِّبين.

ثم إنَّ هذه الآيةَ ـ وإن كان سياقُها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخُصُومةِ بينهم في الدارِ الآخرةِ ـ فإنها شاملةٌ لكلِّ متنازِعَين في الدنيا، فإنه تُعادُ عليهمُ الخصومةُ في الدار الآخرة.

قال ابن أبي حاتم ـ رَحِمه الله ـ: حَدَّثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المُقرىء، حدثنا سفيان، عن محمد بن عَمرو، عن ابنِ حاطِبٍ ـ يعني يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزُّبير قال: لما نزلت: ﴿ ثم إنكُم يومَ القيامةِ عندَ ربِّكم تَختَصِمُونَ ﴾، قال الزبيرُ: يا رسولَ الله: أَتُكَرَّر علينا الخصومةُ؟ قال: نعم. قال: إن الأمر إذاً لشديدٌ(١).

وكذا رَواه الإمامُ أحمد عن سُفيانَ، وعنده زيادةٌ: ولما نَزَلت: ﴿ ثم لَتُسْئَلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم ﴾، قال الزُّبير: أيُّ رسولَ اللهِ، أيُّ نعيم نُسأَلُ عنه؟ وإنما ـ يعني ـ هما(٢) الأسودان: التمر والماء. قال: «أما إن ذلك سيكونُ» (١).

وقد رَوى هذه الزيادةَ الترمذيُّ وابنُ ماجه، من حديثِ سُفيانَ، به: وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ»(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا ابنُ نُمَير، حدثنا محمد ـ يعني ابنَ عَمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزُّبَير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿إنك مَيِّتٌ وإنهم مَيِّتون * ثم إنكم يومَ القيامة عند رَبِّكم تختَصِمُون﴾، قال الزبيرُ: أيْ رسول الله، أيُكرَّر علينا ما كان بيننا في الدُّنيا مع خَواصِّ الذنُوبِ؟ قال: «نعم، لَيُكَرَّرَنَّ عليكُم، حتى يُؤدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه». قال الزُّبَير: والله إنَّ الأمرَ لَشديدٌ(٤).

ورواه الترمذيُّ من حديث محمد بن عَمْرٍو، به وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبة بن سَعِيد، حدثنا ابن لَهيعَةَ، عن أبي عُشَّانَة، عن عُقبَةَ بنِ عامرٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أوَّلُ الخَصمين يومَ القيامة جارانِ»(٥). تفرَّد به أحمدُ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسِي بِيَدِه إنه لَيَختَصِمُ، حتى الشاتان فيما انتطحتا»(٦) تفرَّدَ به أحمدُ.

وفي المسند عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: رَأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ شاتَين يَنتطحانِ، فقال: «أتدري فيم يَنْتَطِحانِ يا أبا ذَرٍّ»؟ قلت: لا. قال: «لكنَّ الله يدري وسيحكُم بينهما»(٧).

---

(١) أخرجه غير واحد، وقد صححه الترمذي والحاكم، انظر الدر المنثور ٢٢٦/٧. وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١١٨/١٢ ـ ١١٩، والمستدرك، كتاب التفسير ٤٣٥/٢. ومسند الإمام أحمد ١٦٤/١.

(٢) في النسخ: بهما.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ٢٥٦/١٢، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٣٩٢/٢.

(٤) مسند أحمد ١٦٧/١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الزمر ١١٨/١٢ ـ ١١٩.

(٥) مسند أحمد ١٥١/٤.

(٦) مسند أحمد ٢٩/٣.

(٧) مسند أحمد ١٦٢/٥.

وقال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا سَهْلُ بنُ بَحرٍ، حدثنا حَيَّان بن أغلب، حدثنا أبي، حدثنا ثابتٌ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُجاء بالإمامِ الخائنِ(١) يومَ القيامة، فتُخاصِمُه الرعيَّةُ، فيُفلَجُون(١) عليه، فيقال له: سُدَّ ركناً من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلبُ بن تميم ليس بالحافظِ(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ ثم إنكم يومَ القيامةِ عند ربكم تختصِمُون ﴾، يقول: يخاصِمُ الصادقُ الكاذبَ، والمظلومُ الظالمَ، والمَهْدِيُّ الضالَّ، والضعيفُ المستكبرَ(٣).

وقد رَوى ابنُ مَنْدَه في كتاب «الرُوح»، عن ابن عَبَّاس أنه قال: يختصِمُ الناسُ يوم القيامة، حتى تختصِمَ الروحُ مع الجَسَدِ، فتقول الروحُ للجسد: أنتَ فعلتَ. ويقول الجسدُ للروح: أنتَ أمرتَ، وأنتَ سَوَّلتَ. فَيبعثُ الله مَلَكاً يفصل بينهما، فيقول: إنَّ مَثَلكما كَمَثَلِ رَجُلٍ مُقعَد بَصِيرٍ وآخرَ ضريرٍ، دَخلا بستاناً، فقال المُقعَدُ للضرير: إني أرى هاهنا ثِماراً، ولكن لا أصِلُ إليها. فقال له الضريرُ: اركبني فتناولها. فَرَكِبه فتناولها، فأيُّهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتُما على أنفسكما. يعني أن الجَسَدَ للروح كالمَطِيَّة، وهو راكبُه(٤).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسجَة، حدثنا ضِرار، حدثنا أبو سَلَمة الخُزَاعِيُّ منصورُ ابنُ سَلَمة، حدثنا القُمِّي ـ يعني يعقوبَ بنَ عبد الله ـ عن جعفرِ بن المُغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عُمَر قال: نزلَت هذه الآيةُ، وما نَعلمُ في أيِّ شيءٍ نَزَلت: ﴿ ثم إنَّكُم يومَ القيامةِ عند ربِّكم تَختصِمُون ﴾، قال: قلنا: مَن نُخاصِم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومةٌ، فمن نخاصِمُ؟ حتى وقعت الفتنةُ، فقال ابنُ عمر: هذا الذي وَعَدنا ربُّنا ـ عزَّ وجلَّ ـ نختصم فيه.

ورواه النسائيُّ عن محمد بن عامر، عن منصور بن سَلَمة، به(٥).

وقال أبو العالية: ﴿ ثم إنَّكم يومَ القيامةِ عند ربِّكم تَختصِمُون ﴾، قال: يعني أهلَ القبلة. وقال ابنُ زيدٍ: يعني أهلَ الإسلام وأهلَ الكُفرِ. وقد قدَّمنا أن الصحيحَ العمومُ، والله أعلم.

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً للمشركين الذين افترَوا على الله، وجعَلُوا معه آلهةً أُخرى، وادَّعوا أن الملائكة

(١) في كشف الأستار: الجائر، فيلجوا. وفَلَجت حُجَّتُه: أحسن الإدلاء بها فَغَلب خَصْمَه.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الإمارة ٢/٢٥٥.
(٣) أخرجه الطبري ٢٤/١.
(٤) الدر المنثور ٧/٢٢٧.
(٥) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٥/٤٢٩. وأخرجه أيضاً عبد بن حُميد والطبراني وابن مردويه، الدر المنثور ٧/٢٢٥.

بناتُ الله، وجعلُوا لله ولداً - تعالى الله عن قولِهم عُلُوًّا كَبيراً - ومع هذا كَذَّبوا بالحقِّ إذ جاءهم على ألسنة رُسُل الله - صلواتُ الله عليهم أجمعينَ - ولهذا قال: ﴿فَمَن أظلَمُ ممن كذبَ على الله وكَذَّب بالصِّدق إذ جاءَه﴾، أي: لا أحد أظلَمُ من هذا؛ لأنه جَمَع بين طَرَفي الباطِل، كَذَب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطِلَ وردُّوا الحقَّ، ولهذا قال مُتوعداً لهم: ﴿ أليس في جهنَّم مثوىً للكافرين ﴾؟ وهم الجاحِدُون المُكَذِّبون.

ثم قال: ﴿ والذي جاء بالصِّدق وصَدَّق به ﴾، قال مجاهد، وقتادةُ والربيعُ بن أنس، وابنُ زيد: الذي جاء بالصدق هو الرسولُ. وقال السُّدِّيُّ: هو جبريلُ عليه السلام، ﴿ وصَدَّق به ﴾، يعني: محمداً ﷺ[1].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿ والذي جاء بالصِّدقِ ﴾، قال: مَن جاء بلا إلَه إلا الله، ﴿ وصَدَّق به ﴾، يعني: رسولَ الله ﷺ. وقرأ الربيعُ بنُ أنسٍ: ﴿ والذين[2] جاءُوا بالصِّدق ﴾، يعني الأنبياء، ﴿ وصَدَّقوا به ﴾، يعني: الأتباع.

وقال ليثُ بن أبي سليم، عن مجاهدٍ: ﴿والذي جاء بالصِّدقِ وصَدَّق به﴾، قال: أصحابُ القرآن المؤمنون يَجيئُون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتُمونا، فَعَمِلنا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القولُ عن مجاهد يشمَلُ كُلَّ المؤمنين؛ فإنَّ المؤمنَ يقولُ الحقَّ ويعلمُ الحقَّ ويعمَلُ به، والرسولُ - ﷺ - أولى الناس بالدُّخولِ في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وَصدَّقَ المُرسَلِينَ، وآمن بما أُنزِلَ إليه من رَبِّه والمؤمنون، كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبه ورُسُلِه.

وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: ﴿ والذي جاءَ بالصِّدقِ ﴾: هو رسولُ الله ﷺ. ﴿ وصَدَّقَ به ﴾ المسلمون.

﴿ أولئك هم المتقون ﴾، قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾، يعني: في الجنة، مهما طَلَبوا وَجَدُوا، ﴿ذلك جزاء المحسنين * لِيُكفِّر الله عنهم أسوأَ الذي عَمِلوا ويجزيَهم أجرَهُم بأحسنِ الذي كانوا يعملُون ﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أولئك الذين نتقبَّلُ عنهُم أحسَنَ ما عَمِلُوا ونتجاوزُ عن سَيِّئاتهم في أصحابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصدقِ الذي كانوا يُوعَدُون ﴾

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ أليس الله بكافٍ عبدَه ﴾ وقرأ بعضُهم: ﴿ عباده ﴾[3] يعني أنه تعالى يَكْفِي مَن عَبَدَه وتوكَّل عليه.

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٣.
(٢) نسب الطبري هذه القراءة إلى ابن مسعود، وكذلك الألوسي، انظر تفسير الطبري ٢٤/٤، وروح المعاني ٢٤/٣.
(٣) هذه قراءة حمزة والكسائي، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٥٠.

وقال ابنُ أبي حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله ابنُ أخي ابن وَهب، حدثنا عَمّي، حدثنا أبو هانىء، عن أبي علي عمرو بن مالك الجَنْبيّ، عن فَضالة بن عُبَيد الأنصاري، سَمِعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «أفلح من هُدِيَ إلى الإسلام، وكان عيشُه كَفافاً، وقَنَعَ به».

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث حَيوة بن شُرَيح، عن أبي هانىء الخولاني، به. وقال الترمذيُّ: صحيح[1].

﴿ ويُخَوِّفونك بالذين من دُونه ﴾، يعني المشركين يُخَوِّفون الرسولَ ويتوعَّدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يَدْعونها من دُونه؛ جهلاً منهم وضَلالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضلِل الله فما له من هاد * ومن يَهدِ الله فما له من مُضِلٍّ أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾؟ أي: مَنيع الجَناب لا يُضَام، من استند إلى جَنابه ولَجأ إلى بابه فإنه العزيزُ الذي لا أعزَّ منه، ولا أشدَّ انتقاما منه، ممن كَفَر به وأشرَك وعاندَ رسولَه ﷺ.

وقولُهُ: ﴿ ولئن سألتهم مَن خَلق السمٰواتِ والأرضَ ليقولُنَّ الله ﴾، يعني: المشركين كانوا يَعترفُون بأنَّ الله هو الخالقُ للأشياءِ كُلِّها، ومَع هذا يَعبدُون معه غيره، ممَّا لا يملك لَهُم ضراً ولا نَفعا، ولهذا قال: ﴿ قل أفرأيتم ما تدعونَ من دُون الله إن أرادنِيَ الله بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه أو أرادني بِرحمةٍ هل هُنَّ مُمسِكَاتُ رَحمتِه ﴾، أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر.

وذكر ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثَ قيس بن الحجاج، عن حَنَش الصنعَاني، عن ابنِ عَبَّاس مرفوعاً: «احفظِ الله يَحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، تَعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشِّدة، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله، واعلَم أن الأُمّة لو اجتمَعُوا على أن يَضرُّوك بشيء لم يَكتُبه الله عليكَ لم يَضرّوك، ولو اجتمَعُوا على أن يَنفعُوك بشيءٍ لم يكتُبه الله لَكَ لم يَنفعُوك. جَفَّت الصحفُ، ورُفِعَتِ الأقلامُ، واعمل لله بالشُّكر في اليقين. واعلَم أنَّ في الصبرِ على ما تكره خَيراً كثيراً. وأن النصرَ مع الصَّبر، وأن الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأن مع العُسرِ يُسراً»[2].

﴿ قُل حَسْبِيَ اللهُ ﴾ أي: الله كافيَّ، عليه تَوكّلتُ وعليه يَتوكَّلُ المتوكّلون. كما قال هُود ـ عليه السلام ـ حين قال له قومُه: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسُوءٍ قال إني أُشهد الله واشهَدُوا أنّي بريءٌ مما تُشركُون * من دُونه فَكِيدُونِي جميعاً ثم لا تُنظِرُونِ * إني توكلت على الله ربِّي وربِّكم ما من دَابَّةٍ إلا هُو آخِذٌ بناصيتها إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عصامٍ الأنصاريُّ، حدثنا عبد الله بن بكر السَّهميُّ، حدثنا محمدُ بن حاتم، عن أبي المقدام ـ مولى آل عثمانَ ـ عن محمد بن كعب القُرَظي، حدثنا ابن عباس ـ رَفَع الحديثَ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن أحبَّ أن يكونَ أقوى الناسِ فَليتوكّل على اللهِ، وَمَن أحبَّ أن يكونَ أغنى الناسِ فَليكُن بما في يدِ الله أوثَقَ بما في يَدَيه، وَمَن أحبَّ أن يكونَ أكرم الناسِ فَليَتقِ الله».

وقولُهُ: ﴿ قل يا قوم اعمَلُوا على مكانتكم ﴾، أي: على طريقَتِكم. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ، ﴿ إني عاملٌ ﴾، أي: على طريقتي ومَنْهَجي، ﴿ فسوفَ تعلَمُون ﴾، أي: ستعلمون غِبَّ ذلك وَوبالَه، ﴿ من يأتيه

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٢١١/٩، وأخرجه النسائي في الرقائق من سُنَنه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٢٦١/٨.
(٢) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة ٣١٩/٩ ـ ٣٢٠، والإمام أحمد في مسنده ٣٠٧/١ ـ ٣٠٨. وسيأتي عند تفسير الآية الثالثة من سورة الطلاق.

عذاب يُخزيه ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ ويحِلُّ عليه عذابٌ مُقيمٌ ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌّ، لا مَحِيدَ له عنه. وذلك يومَ القيامة.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً رسولَه محمداً ـ ﷺ ـ: ﴿ إنا أنزلنا عليكَ الكتابَ ﴾، يعني: القرآنَ ﴿ للناس بالحقِّ ﴾، أي لجميعِ الخَلْقِ من الإنسِ والجنِ لِتُنذِرهم به، ﴿ فمن اهتدى فَلِنفسِهِ ﴾، أي: فإنما يعودُ نفعُ ذلك إلى نفسِه، ﴿ وَمَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها ﴾، أي: إنما يرجعُ وبالُ ذلك على نفسِه، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي: بِمُوكَّلٍ أن يَهتَدُوا، ﴿ إنما أنتَ نذيرٌ والله على كلِّ شيءٍ وكيلٌ ﴾، ﴿ إنما عليكَ البلاغُ وعلينا الحسابُ ﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسِه الكريمة بأنه المتصرِّفُ في الوجُودِ بما يشاء، وأنه يَتَوفَّى الأنفسَ الوفاةَ الكُبرى، بما يُرسِلِ من الحَفَظَة الذين يَقبِضُونها من الأبدانِ. والوفاةُ الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلَمُ ما جرَحتُم بالنهار ثم يبعثُكم فيه ليُقضَى أجلٌ مُسمًّى ثم إليه مرجعُكم ثم يُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون ۞ وهو القاهرُ فوق عباده ويُرسِلُ عليكم حَفَظَةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفَّته رُسُلنا وهم لا يُفرِّطُون ﴾. فذكر الوفاتين: الصُغرى ثم الكُبرى. وفي هذه الآيةِ ذكرُ الكُبرى ثم الصُغرى. ولهذا قال: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تَمُت في منامِها فَيُمسِكُ التي قَضَى عليها الموتَ ويُرسِلُ الأخرى إلى أجلٍ مُسَمًّى ﴾، فيه دلالةٌ على أنها تجتمعُ في الملأ الأعلى، كما وَرَد بذلك الحديثُ المرفوع الذي رَوَاه ابنُ مندَه وغيره. وفي صَحيحَي البخاري ومسلم من حديث عُبَيد الله بن عمر، عن سَعِيد بن أبي سَعِيد، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا أَوَى أحَدُكم إلى فراشِه فَلْيَنفُضْه بدَاخِلَةِ إزارِه[١]، فإنه لا يدري ما خَلَفَهُ عليه، ثم ليقُل: باسمِكَ ربِّي وضعتُ جَنبي، وبِكَ أرفعُه، إن أمسكتَ نَفسِي فارحَمْها، وإن أرسلتَها فاحفَظْها بما تحفَظُ به عبادَكَ الصَّالِحين»[٢].

وقال بعضُ السلف: تُقبَضُ أرواحُ الأمواتِ إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فَتَتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارفَ، ﴿ فيمسك التي قَضَى عليها الموت ﴾، التي: قد ماتت، ويُرسِل الأخرى إلى أجل مُسَمًّى.

قال السُدِّي: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يُمسِك أنفُسَ الأمواتِ، ويُرسل أنفُس الأحياء، ولا يغلط: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) داخلةُ الإزار: ما يلي داخل الجسد منه. وهي أيضاً طرَفُه.

(٢) فتح الباري، كتاب الدعوات ١١/١٢٥ ـ ١٢٦، ومسلم، كتاب الذكر ٤/٢٠٨٤ ـ ٢٠٨٥.

يقولُ تعالى ذامًّا للمشركين في اتّخاذهم شُفَعاء من دون الله، وهم الأصنامُ والأندادُ، التي اتخذُوها من تلقاءِ أنفُسِهم بلا دليل ولا بُرهانٍ حداهم على ذلك، وهي لا تَملِكُ شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقلٌ تعقِلُ به، ولا سمعٌ تسمَعُ به، ولا بصرٌ تُبصِر به، بل هي جَمادات أسوأ حالاً من الحَيوان بكثيرٍ.

ثم قال: قل - أيْ يا محمدُ - لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذُوه شُفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعةَ لا تنفَع عندَ الله إلا لمن ارتضاه وأذِن له، فمَرجِعُها كلها إليه، ﴿ من ذا الذي يشفَعُ عنده إلا بإذنه ﴾.

﴿ له ملكُ السموات والأرض ﴾، أي: هو المتصرِّفُ في جميعِ ذلك، ﴿ ثم إليه تُرجَعُون ﴾، أي: يومَ القيامة، فيَحكُم بينَكم بعَدْلِه، ويَجزِي كُلًّا بعَمله.

ثم قال تعالى ذامًّا للمشركين أيضاً: ﴿ وإذا ذُكِر الله وحدَه ﴾، أي: إذا قيل: لا إلَه إلا الله ﴿ اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يُؤمِنُون بالآخِرة ﴾، قال مجاهد: ﴿ اشمأزَّت ﴾ انقبضَت.

وقال السُّديُّ: نفَرت. وقال قتادةُ: كَفَرت واستكبَرَت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلَه إلا الله يستكبِرُون ﴾، أي: عن المتابعة والانقيادِ لها. فقلوبُهم لا تقبل الخير، ومَن لم يقبلِ الخير يقبلِ الشرَّ. ولهذا قال: ﴿ وإذا ذُكِر الذين مِن دُونِهِ ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾، أي: يَفرَحُون ويُسَرُّون.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى بعد ما ذَكر عن المشركينَ ما ذَكر، من المذمَّة لهم في حُبِّهم الشرك، ونَفْرتِهم عن التوحيدِ، ﴿ قل اللهُمَّ فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيبِ والشهادةِ ﴾، أي: ادعُ أنتَ الله وحدَه لا شريكَ له، الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وفطَرها، أي: جعَلها على غير مثالٍ سَبَق، ﴿عالمَ الغيبِ والشهادةِ﴾، أي: السرِ والعلانيةِ، ﴿ أنت تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلِفُون ﴾، أي: في دُنياهم، ستَفصِلُ بينهم يوم معادهم ونُشورهم، وقيامِهم من قُبورهم.

وقال مسلمٌ في صَحيحه: حدثنا عبدُ بن حُميد، حدثنا عُمرُ بن يونس، حدثنا عكرمة بن عَمَّار، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدَّثني أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن قال: سألتُ عائشةَ: بأيِّ شيءٍ كان رسولُ الله - ﷺ - يفتَتِحُ صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاتَه: «اللهُمَّ، ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلِفون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، حدثنا حمَّادُ بن سلمة، وأخبرنا سُهَيل بن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن عَون بن عبد الله بن عُتبة بن مَسعُودٍ، عن عبد الله بن مسعودٍ أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «مَن قال: اللهُمَّ فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادةِ، إني أعهدُ إليك في هذه الدنيا أنِّي أشهدُ أنْ

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٣/٥٣٤.

لا إلَه إلا أنتَ وحدَك لا شريكَ لكَ، وأنَّ محمداً عبدُكَ ورسولُك، فإنك إنْ تَكِلْني إلى نفسِي تُقَرِّبني من الشرِّ وتُباعِدْني من الخير، وإني لا أثِقُ إلاّ برحمَتِكَ، فاجعَلْ لي عندكَ عهداً تُوَفِّينيه يومَ القيامةِ، إنك لا تُخْلِفُ الميعادَ. إلاَّ قال ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لملائكتِه يومَ القيامةِ: إنَّ عَبدِي قد عَهِدَ إليَّ عهداً فأوفُوه إيَّاه. فَيُدخِلُه الله الجَنَّةَ».

قال سُهَيل: فأخبرتُ القاسم بنَ عبدِ الرحمن أن عوناً أخبر بكذَا وكذَا؟ فقال: ما في أهلنا جاريةٌ إلا وهي تقول هذا في خِدْرِها. انفرد به الإمام أحمد[١].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا [حَسَن، حدثنا] ابنُ لَهيعة، حدثني حُيَيُّ بن عبدالله: أن أبا عبدالرحمن حَدَّثه قال: أخرجَ لنا عبدُالله بن عمرو قِرطاساً وقال: كانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعلِّمنا يقول: اللهُمَّ فاطرَ السمواتِ والأرض، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنتَ ربُّ كلِّ شيءٍ، وإلَهُ كلِّ شيءٍ، أشهدُ أن لا إلَه إلا أنتَ، وحدكَ لا شريكَ لكَ، وأن مُحَمَّداً عبدُك ورسولُك، والملائكةُ يشهَدُون. أعوذُ بكَ من الشيطانِ وشِرْكِه، وأعوذُ بك أن أقترفَ على نفسي إثماً، أو أجُرَّه إلى مسلم.

قال أبو عبد الرحمن: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعلِّمُه عبدَ الله بن عَمرو أن يقولَ ذلك حين يُريد أن ينامَ، تَفَرَّدَ به أحمدُ أيضاً[٢].

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا خَلَفُ بنُ الوليدِ، حدثنا ابنُ عَيَّاش، عن محمد بن زيادٍ الأَلْهَانِيِّ، عن أبي راشد الحُبْرَاني قال: أتيتُ عبدَ الله بن عمرو فقلتُ له: حدِّثنا ما سَمِعتَ من رسولِ الله ﷺ. فألقى بين يَدَيَّ صحيفةً فقال: هذا ما كَتَبَ لي رسولُ الله ﷺ. فنظرتُ فيها فإذا فيها أنَّ أبا بكر الصديق قال: يا رسولَ الله، عَلِّمني ما أقولُ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ. فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا أبا بكرٍ، قُل: اللهُمَّ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، لا إلَهَ إلا أنتَ، ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، أعوذُ بكَ من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشِرْكِه، أو أقترفَ على نفسي سُوءاً، أو أجُرَّه إلى مُسلِم»[٣].

ورواه الترمذيُّ، عن الحسن بن عَرَفَةَ، عن إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، به، وقال: «حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان[٤]، عن ليث، عن مجاهِدٍ قال: قال أبو بكر الصِّديق: أمَرني رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن أقولَ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، وإذا أخذتُ مَضجعي من الليل: اللهمَّ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ... إلى آخره[٥].

وقولُه: ﴿ولو أنَّ للذين ظَلَمُوا﴾، وهم المشركون، ﴿ما في الأرض جَميعاً ومثلَه مَعَه﴾، أي: ولو أن جَميعَ مُلْك الأرض وضِعْفَه مَعَه ﴿لافتدوا به من سُوءِ العذاب﴾، أي: الذي أوجبه الله لَهمْ يومَ القيامةِ، وَمَع هذا لا يُتَقَبَّل منهم الفِدَاءُ ولو كان مِلْءَ الأرضِ ذهباً، كما قال في الآية الأخرى، ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يَحتسِبُون﴾، أي: وظَهَرَ لهم من الله من العذابِ والنكال بهم ما لم يَكُن في بالهم ولا في حِسَابهم، ﴿وبدا لهم سَيِّئاتُ ما كَسَبوا﴾، أي: وظَهَرَ لهم جزاءُ ما اكتسبوا في الدار الدُّنيا من المحارم والمآثم، ﴿وحاقَ

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٤١٢.
(٢) مسند الإمام أحمد٢/١٧١.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/١٩٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٥٢ ـ ٥٣.
(٤) في النسخ: سيّار. وهو تحريف. وشيبان هو ابن عبد الرحمن التميمي. انظر تهذيب الكمال ١٢/٥٩٢ ـ ٥٩٤.
(٥) مسند الإمام أحمد ١/١٤.

بهم ما كانوا به يَستهزِءُونَ ﴾، أي: وأحاط بهم من العذاب والنَّكال ما كانوا يَستهزئُون به في الدار الدنيا.

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضرَّاء يَضرَع إلى الله - عزَّ وجلَّ - ويُنيب إليه ويدعُوه، وإذا خوَّله منه نعمة بَغى وطغى، وقال: ﴿ إنَّما أوتيتُه على عِلْم ﴾، أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خَصيصٌ لَمَا خوّلني هذا! قال قتادةُ: ﴿ على علم عندي ﴾: على خَيْرٍ عندي. قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ بل هي فتنةٌ ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل إنّما أنعمنا عليه بهذه النعمةِ لِنختَبِرَه فيما أنعمنا عَلَيه، أيُطيع أم يعصِي؟ مع عِلْمِنا المتقدِّم بذلك، فهي فتنة أي: اختبارٌ ﴿ ولكن أكثرَهم لا يعلَمُون ﴾، فَلِهذا يقولُون ما يقولون، ويَدَّعُون ما يدَّعون. ﴿ قد قالها الذين من قبلهم﴾، أي: قد قال هذه المقالَة وزَعم هذا الزعمَ وادَّعى هذه الدعوى، كثيرٌ ممَّن سَلَف من الأمم، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسِبُون ﴾، أي: فما صَحَّ قولهُم ولا مَنعهم جَمْعُهم وما كانوا يكسِبُون، ﴿ فأصابهم سيئاتُ ما كَسَبُوا والذين ظَلَمُوا من هؤلاء ﴾، أي: من المخاطَبين ﴿ سَيُصيبهم سيئاتُ ما كَسَبُوا ﴾ أي: كما أصابَ أولئك، ﴿ وما هم بمُعجِزِينَ ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن قارونَ أنه قال له قومُه: ﴿ لا تفرَحْ إن الله لا يحب الفَرِحِين * وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنسَ نَصِيبك من الدُّنيا وأحسِنْ كما أحسَنَ الله إليكَ ولا تبغِ الفسادَ في الأرض إنَّ الله لا يحبُّ المُفسِدين * قال إنما أوتيتُه على علم عِندي أوَ لم يعلَم أنَّ الله قد أهلكَ من قَبلِه من القرونِ من هو أَشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعاً ولا يُسأَلُ عن ذُنُوبِهِمُ المجرِمُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وقالُوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بِمُعذَّبين ﴾.

وقولُهُ: ﴿ أوَ لم يعلَمُوا أن الله يبسُط الرزقَ لمن يشاءُ ويقدِرُ ﴾، أي: يوسِّعُه على قومٍ ويُضيِّقه على آخرين، ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يُؤمِنُون ﴾ أي: لَعِبراً وحُججاً.

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ دعوةٌ لجميع العصاة من الكَفَرة وغيرهم إلى التوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأن الله يغفِرُ الذنوبَ جَميعاً لمن تاب منها ورَجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثُرت وكانت مثلَ زَبَدِ البحرِ. ولا يَصِحُّ حملُ هذه على غير توبةٍ، لأن الشرك لا يغفر ما لم يُتَب منه.

وقال البخاريُّ: حدثنا إبراهيم بن مُوسى، أخبرنا هشامُ بن يوسف: أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم: قال يَعْلَى: إن سعيدَ بـن جُبَير أخبره عن ابن عباس: أنَّ ناساً من أهل الشِّرك كانوا قد قَتَلُوا فأكثروا، وزَنوا فأكثَرُوا. فأتوا مُحَمَّداً - ﷺ - فقالوا: إن الذي تقولُ وتدعُو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبِرُنا أنَّ لِمَا عَمِلنا كَفَّارةً. فنزل: ﴿ والذين لا يدعُون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتُلون النفسَ التي حَرَّم الله إلا بالحق ولا يزنُون ﴾، ونَزَل: ﴿ قل يا عِبادِيَ الذين أسرفُوا على أنفُسِهم لا تقنَطُوا من رَحمةِ الله ﴾[1].

وهكذا رواهُ مسلِم وأبو داودَ والنسائيُّ، من حديث ابن جُرَيج، عن يعلى بن مُسلم المكي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، به[1]. والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا ﴾[2] . . . الآية.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا أبو قَبِيل قال: سَمِعتُ أبا عبد الرحمن المرِّيَّ يقول: سَمِعت ثوبانَ مولى رسولِ الله - ﷺ - يقول: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «ما أُحِبُّ أَنَّ لِي الدنيا وما فيها بهذه الآيةِ: ﴿ يا عِبادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أنفُسِهم ﴾ . . . إلى آخر الآية، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، فمن أشرك؟ فَسَكت النبي - ﷺ - ثم قال: «ألاَ وَمَن أشركَ»، ثلاث مراتٍ». تَفَرَّد به الإمام أحمد[3].

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا سُرَيجُ بن النعمان، حدثنا نُوح بن قيس، عن أشعثَ بن جابرٍ الحُدَّاني، عن مكحولٍ، عن عَمرو بن عَبَسَة قال: «جاء رجلٌ إلى النبيِّ - ﷺ -، شيخٌ كبير يَدَّعِمُ[4] على عَصاً له، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي غَدَرَاتٍ وفَجَراتٍ، فهل يُغفَرُ لي؟ فقال: ألستَ تشهَدُ أن لا إلَه إلا الله؟ قـال: بلى، وأشهد أنكَ رسولُ الله. فقال: قد غَفَر لك غَدَراتِك وفَجَراتِك». تَفَرَّد به أحمد[5].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا حَمَّاد بن سلمةَ، عن ثابتٍ، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقرأ: ﴿ إنه عَمَلٌ غَيْرَ صالح ﴾، وسمعتهُ يقول: «يا عبادي الذين أسرَفُوا على أنفُسِهم لا تقنَطُوا من رحمة الله إن الله يغفرُ الذنوب جميعاً ولا يبالي، إنه الغفورُ الرحيمُ»[6].

وَرَواه أبو داودَ والترمذيُّ، من حديث ثابتٍ، به[6].

فهذه الأحاديثُ كلُّها دالة على أنَّ المراد: أنه يغفرُ جَميع ذلك مع التوبة: ولا يَقنطَنَّ عبدٌ من رحمةِ الله وإن عَظُمت ذُنوبُه وكَثُرت؛ فإنَّ باب التوبةِ والرحمةِ واسعٌ، قال الله تعالى: ﴿ ألم يعلَمُوا أن الله هو يقبَلُ التوبَةَ عن عبادِهِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ومن يَعْمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾. وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ إن المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابُوا ﴾، وقال: ﴿ لقد كَفَر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثةٍ وما من إلَهٍ إلا إلهٌ واحد وإن لم يَنتهُوا عما يقولون لَيمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم ﴾. ثم قال: ﴿أفلا يَتُوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيمٌ﴾. وقال ﴿إن الذين فَتَنُوا

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الزمر ٨/٥٤٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١١٣، وسنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم ٤/١٠٥، والنسائي، كتاب التفسير من سُنَنِه الكُبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٤/٤٥٨.

(٢) سورة مريم، آية ٦٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٢٧٥.

(٤) أي: يتكيء.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/٣٨٥.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/٤٥٤، وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٦ من سورة هود وخرجناه هنالك.

المؤمنين والمؤمنات ثم لم يَتُوبوا ﴾. قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكَرَمِ والجُودِ، قَتَلُوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآياتُ في هذا كثيرةٌ جِدّاً.

وفي الصحيحَين عن أبي سعيدٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ حديثُ الذي قتل تِسْعاً وتسعين نفساً، ثم نَدِم وسأل عابداً من عُبَّادِ بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمَلَ به مائة. ثم سَأل عالماً من عُلَمائهم: هل له من توبة؟ فقال: وَمَن يحولُ بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذَّهاب إلى قرية يَعبُد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناءِ الطريق، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب، فأمر الله أن يَقِيسُوا ما بين الأرْضَين، فإلى أيِّهما كان أقربَ فهو منها. فوجدُوه أقرب إلى الأرض التي هاجَرَ إليها بِشِبْرٍ، فقبضته ملائكةُ الرحمةِ. وذُكِر أنه نأى بِصَدْرِه عند الموت، وأن الله أمر البلدةَ الخَيِّرَة أن تقترِبَ، وأمر تلك البلدة أن تَتَباعَدَ.

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه[١].

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قولُهُ: ﴿ يا عبادِيَ الذين أسرفُوا على أنفسهم لا تَقنَطُوا من رحمة الله إنَّ الله يغفِرُ الذنوبَ جَميعاً ﴾. . . إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته مَن زعم أن المسيح هو الله، ومن زَعم أن المسيح هو ابنُ الله، ومن زعم أن عُزَيراً ابنُ الله، ومن زعم أن الله فقيرٌ، ومن زعم أن يد الله مغلولةٌ، ومن زعم أن الله ثالثُ ثلاثةٍ، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿ أفلا يَتوبون إلى الله ويَستغفِرُونه والله غفور رحيم ﴾؟ ثم دعا إلى توبته مَنْ هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿ أنا ربُّكم الأعلى ﴾، وقال: ﴿ماعَلِمتُ لكم من إلَه غيري ﴾ قال ابن عباس: مَن آيَسَ عبادَ الله من التوبة بعد هذا فقد جَحَد كتابَ الله، ولكن لا يقدِرُ العبد أن يتوبَ حتى يَتُوبَ الله عليه.

وَرَوى الطبراني من طريق الشَّعبي، عن شُتَير بن شَكَلٍ أنه قال: سَمِعتُ ابن مَسعودٍ يقول: إنَّ أعظمَ آيةٍ في كتاب الله: ﴿ اللهُ لا إلَه إلا هو الحيُّ القيومُ ﴾، وإنَّ أجمعَ آية في القرآنِ بخير وشر: ﴿ إن الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ﴾، وإنَّ أكثَرَ آيةٍ في القرآن فَرَجاً في سورة الغُرَف[٢]: ﴿ قل يا عباديَ الذين أسرَفُوا على أنفُسِهم لا تقنَطُوا من رحمةِ الله ﴾، وإنَّ أشدَّ آيةٍ في كتابِ الله تَصريفاً:﴿ومَن يَتَّقِ الله يجعلَ له مخرجاً * ويَرزُقْه من حيثُ لا يحتسِبُ ﴾. فقال له مسروق: صَدَقتَ[٣].

وقال الأعمش، عن أبي سَعِيد، عن أبي الكَنُودِ قال: مَرَّ عبد الله ـ يعني ابنَ مسعودٍ ـ على قاصٍّ، وهو يُذَكِّر الناس، فقال: يا مُذَكِّر، لم تُقنِّط الناس؟! ثم قرأ: ﴿ قُل يا عباديَ الذين أسرَفُوا على أنفُسِهم لا تقنَطُوا مِن رحمةِ الله ﴾. رواه ابنُ أبي حاتم.

ذكرُ أحاديثَ فيها نَفْيُ القُنوطِ

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُرَيج بنُ النعمانِ، حدثنا أبو عُبيدة عبد المؤمن بن عُبَيد الله، حدثني أخشَنُ السدُوسِيُّ قال: دخلتُ على أنس بن مالكٍ فقال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حَتَّى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتُم الله لغَفَر لكم، والذي نفسُ محمدٍ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يُخطِئُون ثم يستغفرون الله فَيغفِرُ لهم». تَفَرَّد به أحمد[٤].

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٥١٢/٦، ومسلم، كتاب التوبة ٢١١٨/٤ ـ ٢١١٩.
(٢) يعني سورة الزُمر، وسميت بذلك لقوله تعالى: ﴿ لهم غُرَف من فوقها غُرَف ﴾. انظر روح المعاني للألوسي ٢٣٢/٢٣.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٤٢/٩ ـ ١٤٣.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢٣٨/٣.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثني ليثٌ، حدثني محمد بن قيس - قاصُّ عُمرَ بن عبد العزيز - عن أبي صِرْمة، عن أبي أيُّوبَ الأنصاريُّ - رضي الله عنه - أنه قال حين حَضَرَته الوفاةُ: قد كنتُ كتمتُ منكم شيئاً سَمِعته من رسول الله - ﷺ - يقول: «لولا أنكم تُذنِبُون لَخلَق الله قوماً يُذنِبُون، فيَغفِرُ لهم»(١).

هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجهُ مسلم في صحيحه، والترمذيُّ جميعاً، عن قُتيبة، عن الليث بن سعد به. ورواه مُسلِم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القُرظي، عن أبي صِرْمَةَ - وهو الأنصاريُّ صحابيٌّ - عن أبي أيُّوبَ، به(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أحمد بن عبد الملك الحَرَّاني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُكريُّ قال: سَمِعت أبي يحدث عن أبي الجَوزاء، عن ابن عَبَّاس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «كَفَّارةُ الذنبِ النَدامةُ». وقال رسولُ الله - ﷺ -: «لو لم تُذنِبُوا لجاء الله بقوم يُذنِبُونَ، فيغفرُ لهم» تفرَّد به أحمد(٢).

وقال عبد الله ابنُ الإمام أحمد: حَدَّثني عبد الأعلى بن حماد النَّرسِي، حدثنا داودُ بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مَسْلَمة الرازيُّ، عن أبي عَمرو البَجَلِيِّ، عن عبد الملك بن سُفيان الثَقفِي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد ابن الحنفية، عن أبيه علي بن أبي طالب رَضِي الله عنه قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إن الله يحبُّ العبدَ المُفتَّنَ التَّوابَ»(٣). لم يُخرجُوه من هذا الوجهِ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا مُوسَى بن إسماعيل، حدثنا حَمّاد، أخبرنا ثابتٌ وحُمَيدٌ، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير قال: إنَّ إبليس - عليه لعائنُ الله - قال: يا ربِّ، إنَّك أخرجتني من الجَنَّة من أجل آدمَ، وإني لا أستطيعُه إلا بسُلطانك. قال: فأنت مُسَلَّطٌ، قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: لا يُولَد له وَلَدٌ إلا وُلِد لكَ مِثلُه. قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: أجعلُ صدورَهُم مساكِنَ لكم، وتَجرُونَ منهم مَجْرَى الدَّم. قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: أَجْلِب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهُم في الأموالِ والأولادِ، وعِدْهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً. فقال آدم: يا ربِّ، قد سلطتَه عليَّ، وإني لا أمتنع إلا بكَ. قال: لا يُولَد لك ولد إلا وَكَّلت به من يحفَظه من قُرناَء السوء. قال: يا ربِّ، زدني. قال: الحسنةُ عشرٌ أو أزيدُ، والسيئةُ واحدةٌ أو أمحُوها. قال: يا ربِّ، زِدْني. قال: بابُ التوبةِ مفتوحٌ ما كان الروحُ في الجَسَدِ. قال: يا ربِّ، زِدني. قال: ﴿ يا عبادِيَ الذين أسرَفُوا على أنفسهم لا تقنَطُوا من رحمةِ الله إن الله يغفِرُ الذنوبَ جَميعاً إنه هو الغفورُ الرحيمُ ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافعٌ: عن عبد الله بن عُمَر، عن عُمَر - رضي الله عنه - في حَدِيثه قال: وكُنَّا نقولُ: ما الله بقابلٍ ممَّن افتُتِنَ صَرْفاً ولا عدلاً ولا توبةً، عَرَفُوا الله ثم رَجَعُوا إلى الكُفر لبلاءٍ أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلكَ لأنفسهم. قال: فلما قَدِم رسولُ الله - ﷺ - المدينة أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿ يا عبادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنَطُوا من رحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنه هو الغفورُ الرحيم ۞ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذابُ ثم لا تنصرون ۞ واتَّبِعُوا أحسنَ ما أُنزلَ إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذابُ بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾. قال عُمر - رضي الله عنه -: فكتبتُها بيدي في صحيفةٍ، وبعثتُ بها إلى هشام بن العاصِ قال: فقال هشامٌ: لما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوىً أُصَعِّد بها فيه وأُصَوِّتُ ولا أفهمها، حتى قلت: اللهُمَّ أفهِمْنِيها. قال: فألقى الله في قلبي أنها إنما أُنزِلت فينا، وفيما كنا

---

(١) مسند أحمد ٤١٤/٥، ومسلم، كتاب التوبة ٢١٠٥/٤ - ٢١٠٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٥٩/١٣.
(٢) مسند أحمد ٢٨٩/١.
(٣) مسند أحمد ٨٠/١.

نَقولُ في أنفسنا، وَيُقالُ فينا. قال: فرجعتُ إلى بعيري فجلستُ عليه، فَلحِقتُ برسولِ الله - ﷺ - بالمدينة.

ثم استحَثَّ تعالى عبادَه إلى المُسارَعةِ إلى التَّوبةِ، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إلى ربِّكم وأَسلِمُوا له ﴾، أي: ارجعُوا إلى الله واستَسلِمُوا له، ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصَرُون ﴾، أي: بادِرُوا بالتوبةِ والعَملِ الصَّالح قبلَ حُلولِ النِّقمَةِ، ﴿ واتَّبِعُوا أحسَن ما أُنزل إليكم من ربِّكم ﴾، وهو القرآنُ العظيمُ، ﴿ من قبلِ أن يأتيكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تَشعُرونَ ﴾، أي: من حيثُ لا تعلمُون ولا تشعرُون.

ثم قال: ﴿ أن تقولَ نفس يا حَسْرتى على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله ﴾، أي: يومَ القيامةِ يتحسَّر المجرمُ المفرِّط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المُحسِنين المخلصِينَ المُطِيعين لله - عَزَّ وجَلَّ.

وقولُهُ: ﴿ وإن كنتُ لمن السَّاخِرينَ ﴾، أي: إنما كان عَمَلِي في الدُّنيا عَمَلُ ساخرٍ مستهزِئٍ غيرِ موقنٍ مُصَدِّقٍ. ﴿ أو تقولَ لو أنَّ الله هداني لكنتُ من المتَّقين ۞ أو تقولَ حين تَرَى العذابَ لو أَنَّ لي كَرَّةً فأكونَ من المحسنين ﴾، أي: تَوَدُّ أن لو أُعِيدَت إلى الدارِ الدُّنيا فتُحسِنُ العمَلَ.

قال عليُّ بن أبي طلحَةَ: عن ابن عباس: أخبَرَ الله - سبحانه - ما العبادُ قائلونَ قبل أن يقولُوه، وعَمَلَهم قبلَ أن يعمَلُوه. وقال: ﴿ولا يُنبِئُكَ مثلُ خَبيرٍ﴾، ﴿أن تقول نفس يا حَسْرتى على ما فَرَّطت في جَنْبِ الله، وإن كنتُ لمن الساخرين ۞ أو تقولَ لو أن الله هداني لكنتُ من المتقين ۞ أو تقولَ حين ترى العذاب لو أن لي كَرَّةً فأكون من المُحسِنين ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدّوا لما قَدَرُوا على الهدى، وقال تعالى: ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنَّهم لكاذبونَ ﴾

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «كلُّ أهل النار يَرَى مقعدَه من الجنةِ فيقولُ: «لو أن الله هَداني»؟! فتكون عليه حَسْرَةً. قال: وكلُّ أهلِ الجَنَّةِ يرى مقعدَه من النار فيقول: «لولا أن الله هداني»! قال: فيكون له الشكر»(١).

وَرَواه النسائيُّ من حديث أبي بكر بن عياش، به،(١).

ولما تَمنَّى أهلُ الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسَّروا على تصديق آياتِ الله واتباعِ رُسُله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فَكَذَّبت بها واستكبرتَ وكُنتَ من الكافرين ﴾، أي قد جاءتكَ أيها العبدُ النادمُ على ما كان منه آياتِي في الدار الدُّنيا، وقامت حُجَجِي عليكَ، فَكَذَّبت بها واستكبرتَ عن اتِّباعها، وكنتَ من الكافِرين بها، الجاحِدين لها.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تَسودُّ فيه وجوه، وتبيضُ وجوهٌ، تسودُّ وجوهُ أهل الفُرقةِ والاختلافِ، وتَبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ، قال تعالى هاهنا: ﴿ ويومَ القيامة تَرى الذين كَذَبُوا على اللهِ ﴾، أي: في دعواهم له شريكاً وَولداً ﴿ وُجُوهُهم مُسودَّةٌ ﴾، أي: بِكَذِبهم وافترائهم.

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٥١٢. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننِه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/٣٧٤.

وقولُهُ: ﴿ أليس في جَهنَّم مثوًى للمتكبرين ﴾ أي: أليست جَهنَّم كافيةً لها سِجناً ومَوئِلاً، لهم فيها الخزيُ والهوان، بِسَبب تكبُّرهم وتَجبُّرهم وإبائهم عن الانقيادِ للحق.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبيد الله ابنُ أخي ابن وَهْب، حدثنا عَمِّي، حدثنا عيسى بن أبي عيسى الحَنَّاط(١)، عن عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المتكبرين يُحشَرُون يوم القيامةِ أشباه الذَّرِّ في صُوَر الناس، يَعلُوهم كلُّ شيء من الصِّغار، حتى يدخُلوا سِجناً من النارِ في وادٍ يقال له بولس، من نارِ الأنيار، وَيُسْقَون عُصارةَ أهلِ النار، من طينةِ الخَبالِ».

وقولُهُ: ﴿ ويُنَجِّي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾، أي: بما سَبَق لهم من السعادةِ والفوزِ عند الله، ﴿ لا يَمَسُّهم السوءُ ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ ولا هم يَحزنُون ﴾، أي: ولا يحزُنهم الفزعُ الأكبرُ، بل هم آمنونَ من كلِّ فَزَع، مُزَحْزَحُون عن كل شر، مُؤمَّلون كُلَّ خير.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خالِقُ الأشياءِ كلِّها، وَربُّها ومَلِيكها والمتصرِّفُ فيها، وكلٌّ تحت تَدبيره وقَهْره وكَلاءَتِه.

وقولُهُ: ﴿ له مقاليدُ السمواتِ والأرض ﴾، قال مجاهد: المقاليدُ هي: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادةُ، وابنُ زيد، وسفيانُ بن عُيينة. وقال السُّديُّ: ﴿ له مقاليد السمواتِ والأرضِ ﴾، أي: خزائنُ السمواتِ والأرضِ.

والمعنى على كلا القولين أَنَّ أَزِمَّةَ الأمور بيده، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قدير. ولهذا قال: ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾، أي: حُجَجه وبَراهينه، ﴿ أولئك هم الخاسِرُون ﴾.

وقد رَوى ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً ـ وفي صِحَّته نظرٌ ـ ولكن نحن نذكُره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيدُ بن سِنان البَصري بمصرَ، حدثنا يحيى بن حَمَّاد، حدثنا الأغلبُ بن تميم، عن مخلد بن هُذَيل العَبْديِّ، عن عبد الرحمن المَدَني، عن عبد الله بن عُمَرَ، عن عثمان بن عَفَّان ـ رَضِي الله عنه ـ: أنه سأل رسول اللهِ ـ ﷺ ـ عن تفسير: ﴿ له مقاليدُ السمواتِ والأرضِ ﴾، فقال: «ما سألني عنها أحدٌ قبلَكَ يا عثمانُ»، قال: «تفسيرُها: لا إلَه إلا الله، والله أكبرُ، وسبحانَ الله وبحمده، أستغفِرُ الله، ولا قُوَّة إلا بالله، الأوَّل والآخر، والظاهر والباطِن، بيده الخيرُ، يُحيي ويُميت. من قالها يا عثمان إذا أصبحَ عشرَ مرارٍ أُعطي خصالاً: أمَّا أولاهن فَيُحرس من إبليسَ وجنودِه، وأما الثانية فَيُعطى قنطاراً من الأجر، وأما الثالثةُ فَترفَع له درجة في الجنة، وأما الرابعة فَيُزَوَّج من الحُور العِين، وأما الخامسةُ فيحضُره اثنا عشر مَلَكاً، وأما السادسة، فَيُعطى من الأجرِ كمن قرأ القرآن والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ. وله مع هذا يا عثمانُ من الأجرِ كمن حَجَّ وتُقبِّلت حَجَّتُه، واعتمر فَتُقُبِّلت عُمرتُه، فإن مات من يومه طُبِع بطابَع الشُّهَداءِ»(٢).

(١) نَبَّه الدارقطني في المؤتلف والمختلف ٢/ ٩٤٠، قال: «وعيسى بن أبي عيسى الخَبَّاط [بالخاء والباء الموحدة]، والحَنَّاط [بالحاء والنون]، والخَيَّاط [بالخاء والياء]. وهو يشتهر بعيسى الحَنَّاط، بالحاء والنون».

(٢) الدر المنثور ٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ومسند أبي يعلى الموصلي ١/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

وَرَواه أبو يعلى الموصلي من حديثِ يحيى بن حَمَّاد، به مثلَه. وهو غريبٌ، وفيه نكارةٌ شديدةٌ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ قل أفغيرَ الله تأمرونِّي أعبدُ أيُّها الجاهلُون ﴾، ذَكرُوا في سَببِ نُزولِها ما رواه ابنُ أبي حاتم وغيرُه، عن ابنِ عبَّاس أنَّ المشركين بجهلهم دَعَوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ إلى عبادةِ آلهتهم، ويعبدُوا مَعَه إلَهه، فنزلت: ﴿ قُل أفغيرَ الله تأمرونِّي أعبدُ أيها الجاهلون. وَلَقد أُوحِيَ إليكَ وإلى الذين من قَبْلِك لئن أشركتَ لَيَحبطَنَّ عملُك ولتكونَنَّ من الخاسرين ﴾.

وهذه كقوله: ﴿ ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يَعملُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ بلِ الله فَاعبُد وكُن من الشاكرين ﴾، أي: أخْلِصِ العبادةَ لله وحدَه، لا شريكَ له، أنتَ ومن مَعَكَ، أنتَ ومن اتَّبعكَ وصَدَّقكَ.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وما قَدَر المشركون الله حَقَّ قَدْرِه، حين عبدُوا معه غيرَه، وهو العظيمُ الذي لا أعظَمَ منه، القادرُ على كلِّ شيءٍ، المالكُ لكلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ تحتَ قهرِه وقُدرته.

قال مجاهدٌ: نزلت في قُرَيش. وقال السُّدِّيُّ: ما عَظَّموه حَقَّ عَظَمته. وقال محمدُ بن كَعب: لو قَدَرُوه حق قَدْرِه ما كَذَّبُوه. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابنِ عباس: ﴿ وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قدره ﴾، هم الكفار الذين لم يُؤْمِنُوا بِقُدرةِ الله عليهم، فَمَن آمن أن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ فقد قدَرَ الله حَقَّ قَدْرِهِ، ومَن لم يُؤمِن بذلك فلم يَقدِرِ الله حقَّ قدرِه.

وقد وَرَدت أحاديثُ كثيرةٌ مُتعلِّقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهبُ السَّلَفِ، وهو إمرارُها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تحريفٍ.

قال البخاريُّ: قولُهُ: ﴿ وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه ﴾: حَدَّثنا آدمُ، حدثنا شيبانُ، عن منصُور، عن إبراهيمَ، عن عَبيدَةَ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: جاء حَبرٌ من الأحبار إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا محمدُ، إنا نجد أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يَجعلُ السمواتِ على إصبع، والأرضينَ على إصبع، والشجَر على إصبعٍ، والماءَ والثرى على إصبعٍ، وسائر الخلائق على إصبعٍ. فيقول: أنا المَلِكُ. فَضحِك رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجذُه، تصديقاً لقَولِ الحَبْر، ثم قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامةِ ﴾. . . الآية[١].

ورواه البخاريُّ أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلمٌ، والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ في التفسير من سُنَنَيهما، كلُّهم من حديث سُليمانَ بن مِهْرانَ الأعمشِ، عن إبراهيم، عن عَبيدَةَ، عن ابن مسعود بنحوه[٢].

(١) المصدر السابق.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الزمر ٨/ ٥٥٠ ـ ٥٥١، وكتاب التوحيد ١٣/ ٤٣٨، ٣٩٣، ومسند الإمام أحمد ١/ ٤٢٩، ومسلم، كتاب صفات القيامة ٤/ ٢١٤٧، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الزمر ١٢/ ١١٩، والنسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٧/ ٩٢.

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أبو مُعاويةَ، حَدَّثنا الأعمشُ، عن إبراهيم عن عَلْقَمة، عن عبد الله - رضي الله عنه - قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ - ﷺ - من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أَبَلَغكَ أَنَّ اللهَ يَحمِلُ الخلائقَ على إصبعٍ، والسمواتِ على إصبعٍ، والأرضينَ على إصبعٍ، والشجرَ على إصبعٍ، والثَّرى على إصبعٍ؟ قال: فضحك رسولُ الله - ﷺ - حتى بَدَت نواجذُه. قال: وأنزل الله - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه ﴾ . . . إلى آخر الآية[1].

وهكذا رَواه البُخاريُّ، ومسلمٌ، والنَّسائيُّ - من طُرُق - عن الأعمش، به[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا حُسَين بن حَسن الأشقر، حدَّثنا أبو كُدَينة، عن عطاءٍ، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس قال: مَرَّ يهوديٌّ برسولِ الله - ﷺ - وهو جالسٌ فقال: كيفَ تقولُ يا أبا القاسمِ يوم يَجْعَلُ اللهُ السماءَ على ذِهْ - وأشار بالسَّبَّابةِ - والأرض على ذِهْ، والجبال على ذِهْ، وسائر الخلق على ذِهْ - كلُّ ذلك يشيرُ بإصبَعِهِ - قال: فأنزل الله - عزَّ وجَلَّ - : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه ﴾[2] . . . الآية.

وكذا رواه الترمذيُّ في التفسير، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصَّلْت أبي جعفر، عن أبي كُدَينةَ يحيى بن المُهَلَّب، عن عطاءِ بن السائبِ، عن أبي الضُّحى مُسلمِ بن صُبَيح، به، وقال: «حَسَنٌ صَحِيحٌ غريبٌ لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه»[2].

ثم قال البخاريُّ: حدَّثنا سعيد بن عُفَير، حدثنا الليثُ، حدثني عبدُ الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهابٍ، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن: أن أبا هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض»[3]؟

تفرَّدَ به من هذا الوجه، ورواهُ مسلم من وجه آخر[3].

وقال البخاريُّ في موضع آخَرَ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمِّي القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن رسولِ الله - ﷺ - قال: «إن الله يَقبِضُ يَوم القيامة الأرضينَ، وتكون السمواتُ بيمينه، ثم يقول: أنا الملك»[4].

تَفَرَّدَ به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلمٌ من وجهٍ آخَرَ[4]. وقد رواهُ الإمام أحمدُ من طريق أخرى بلفظ آخر أبسَطَ من هذا السياق وأطولَ، فقال:

حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، أخبرنا إسحاقُ بن عبد الله بن أبي طلحةَ، عن عُبَيد الله بنِ مِقسَم، عن ابن عُمَرَ أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ذاتَ يوم على المنبر: ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسمواتُ مطويَّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يُشركُون ﴾، رسولُ الله - ﷺ - يقولُ هكذا بيده، يحركها يُقبِلُ بها ويُدبِر: «يُمجِّد الربُّ نفسَه: أنا الجبارُ، أنا المتكبِّر، أنا الملكُ، أنا العزيزُ، أنا الكريمُ». فرَجِفَ برسولِ الله - ﷺ - المنبرُ حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به[5].

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٣٧٨، وفتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٩٣، ومسلم، كتاب صفات القيامة ٤/٢١٤٨، والنسائي في كتاب التفسير من سننه كما في تحفة الأشراف للمزي ٧/١٠٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٢٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الزمر ١٢/١٢٠ - ١٢١.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الزمر ٨/٥٥١، ومسلم، كتاب صفات القيامة ٤/٢١٤٨.

(٤) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٩٣، ومسلم، كتاب صفات القيامة ٤/٢١٤٨ - ٢١٤٩.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٧٢، ومسلم، كتاب صفات القيامة ٤/٢١٤٨ - ٢١٤٩، والنسائي في كتاب النعوت من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٦/٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٢٩.

وقد رواه مسلمٌ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازمٍ، زاد مسلم: ويعقوبُ بنُ عبد الرحمن، كلاهُما عن أبي حازمٍ، عن عُبَيد الله بن مِقْسَمٍ، عن ابن عُمَر، به، نحوه.

ولفظُ مسلمٍ - عن عُبَيد الله بن مِقْسَم في هذا الحديث -: «أنه نظر إلى عَبد الله بن عُمَر كيف يحكي النبيَّ - ﷺ - قال: يأخذُ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا المَلِك(٢)، ويقبض أصابعه ويبسُطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرَّكُ من أسفلِ شيءٍ منه، حتى إني لأقول: أساقِطٌ هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزارُ: حدثنا سُليمان بن سيف، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عَبَّاد المِنْقَري، حدثني محمد بن المُنكَدِر قال: حدثنا عبد الله بن عُمَر، أن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿ وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه ﴾، حتى بَلَغ: ﴿ سُبحانَه وتَعالى عما يُشرِكُونَ ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات.

ورواه الإمامُ الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عُبَيد بن عُمَير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صَحيح.

وقال الطبرانيُّ في المعجَم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبي، حدثنا حَيَّان بن نافع بن صَخْر بن جُوَيرِيَةَ، حدثنا سعيد بن سالم القَدَّاح، عن معمَرِ بن الحَسَن، عن بكر بن خُنَيس، عن أبي شَيْبَةَ، عن عبدِ الملك بن عُمَير، عن جرير قال: قال رسولُ الله - ﷺ - لنفرٍ من أصحابِه: «إني قارِىءٌ عليكم آياتٍ من آخر سورة الزُّمَر، فمن بَكَى منكم وَجَبت له الجنة». فقرأها من عندِ قولِه: ﴿ وما قَدَرُوا الله حَقَّ قدره ﴾، إلى آخر السورة، فَمِنَّا مَن بَكَى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكُوا: يا رسولَ الله، لقد جُهِدنا أن نبكِيَ فلم نَبْكِ؟ فقال: «إني سأقرؤها عليكم، فمن لم يَبْكِ فَلْيَتَبَاكَ»، هذا حديث غريب(٣) جداً.

وأغربُ منه ما رواه في المعجَم الكبير أيضاً: حدثنا هاشم بن مَرْثَدٍ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عَيَّاشٍ، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زُرعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إن الله تعالى يقولُ: ثلاثُ خِلالٍ غَيَّبتُهنَّ عن عبادي، لو رآهُنَّ رجلٌ ما عَمِل سُوءاً أبداً: لو كشفتُ غطائي فرآني حتى استيْقَنَ ويعلم كَيف أفعلُ بخَلْقي إذا أتيتُهم، وقبضتُ السموات بيَدي، ثم قَبَضتُ الأرضينَ، ثم قلت: أنا الملك، منِ ذا الذي له الملكُ دُوني؟ ثم أُريهم الجنَّة وما أعددتُ لهم فيها من كلِّ خير فَيستيقِنُوها، وأُريهم النار وما أعددتُ لهم فيها من كُلِّ شرٍّ فَيستيقِنُوها، ولكن عَمْداً غَيَّبتُ ذلك عنهم لِأعلَم كيف يعمَلُون، وقد بَيَّنتُه لهم»(٤).

وهذا إسناد مُتقارِبٌ، وهي نسخة تُروَى بها أحاديثُ جَمَّة فالله أعلم.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كذا في النسخ ولفظ مسلم: «أنا الله».

(٣) المعجم الكبير ٢/٣١٨.

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن الطبراني وأبي الشيخ في العظمة ٢٤٨/٧.

يقولُ تعالى مُخبراً عن هَولِ يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الآيات العَظيمة والزلازلِ الهائلة، فقوله: ﴿ ونُفخ في الصُّور فَصَعِق مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ إلاّ مَن شاءَ الله ﴾، هذه هي النفخةُ الثانيةُ، وهي نفخةُ الصَّعْق، وهي التي يموتُ بها الأحياء من أهل السمواتِ والأرض، إلا مَن شاء الله كما مَرَّ مُصَرَّحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور[1]. ثم يُقبَضُ أرواح الباقين حتى يكونَ آخرَ مَن يموتُ مَلَكُ الموتِ، وينفرد الحيُّ القيومُ الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمُومة والبقاءِ، ويقولُ: ﴿ لِمَن المُلك اليومَ ﴾، ثلاث مرات. ثم يُجيبُ نَفْسه بنفسه فيقول: ﴿ لله الواحدِ القهارِ ﴾. أي: الذي هو واحدٌ وقد قَهر كلَّ شيءٍ، وحَكَم بالفناء على كلِّ شيءٍ. ثم يُحيي أوَّل مَن يحيي إسرافيلَ، ويأمُره أن ينفُخ في الصُّورِ أخرى، وهي النفخةُ الثالثةُ، نفخةُ البعثِ، قال تعالى: ﴿ ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ﴾، أي: أحياءُ بعد ما كانوا عظاماً ورُفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوالِ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فإنما هي زَجرةٌ واحدةٌ * فإذا هُم بالساهرَةِ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ يومَ يدعوكُم فَتَسْتَجِيبُونَ بحمده وتَظُنُّون إن لبثتُم إلاّ قليلاً ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمِن آياتِه أن تقومَ السماءُ والأرضُ بأمرِه ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ إذا أَنتم تخرجُون ﴾.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن النعمانِ بن سالم قال: سَمِعتُ يعقوبَ بن عاصم بن عُرْوة بن مسعود قال: سَمِعتُ رجلاً قال لعبد الله بن عَمرو: إنك تقولُ: الساعةُ تقومُ إلى كذا وكذا؟ قال: لقد همِمتُ ألاَّ أُحدِّثكم شيئاً، إنما قلتُ: سَترون بعد قليل أمراً عَظِيماً[2]. ثم قال عبد الله بن عَمرو: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يخرُج الدجال في أُمّتي، فيمكثُ فيهم أربعينَ ـ لا أدري أربعينَ يوماً أو أربعينَ عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلةً ـ فيبعثُ الله عيسى ابن مَرْيَم كأنه عُروة بن مَسعُودٍ الثقفي، فيظهر فيُهلكه الله. ثم يلبثُ الناسُ بعدَه سِنين سبعاً ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يُرسِل الله ريحاً باردةً من قِبَل الشام، فلا يبقى أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من إيمانٍ إلا قَبَضَتْه، حتى أنْ لو كان أحدُهُم كان في كَبِدِ[3] جَبَلٍ لدخلت عليه» ـ قال: سَمِعتُها من رسولِ الله ﷺ ـ: «ويبقى شرارُ الناس في خفة الطير، وأحلام السِّباع، لا يَعرِفُون معروفاً، ولا يُنكِرُون مُنكَراً. قال: فيتمثلُ لهم الشيطانُ فيقول: ألا تَستجيبُون؟ فيأمرهم بالأوثان فَيَعبُدونها، وهم في ذلك دارَّةٌ أرزاقُهم، حَسَنٌ عَيشُهم. ثُمَّ يُنفخ في الصُّور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلا أصغى، وأول مَن يَسمعه رجلٌ يَلُوط حَوْضه، فَيَصْعَقُ. ثم لا يبقى أحد إلا صُعِق. ثم يُرسل الله ـ أو: ينزل الله ـ مطراً[4] كأنه الطَّلُّ ـ أو الظِّلُّ، شكَّ نُعمان ـ فتنبُت منه أجسادُ الناس. ثم يَنفُخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ يَنظُرُونَ، ثم يقال: يا أيها الناسُ، هَلُمّوا إلى ربِّكم: ﴿وَقِفُوهم إنهم مسئولون﴾ ـ قال ـ: ثم يقال: أَخرجُوا بَعْثَ النار. قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كُلِّ ألفٍ تِسعُمائةٍ وتِسعةٌ وتِسعُون. فيومئذ تُبعَثُ الولدانُ شيباً، ويومَئذٍ يُكشَفُ عن ساق. انفرد بإخراجه مسلمٌ في صحيحه[5].

وقال البخاريُّ: حدثنا عُمرُ بنُ حَفص بن غِيَاث، حَدَّثنا أبي، حدثنا الأعمشُ قال: سَمِعت أبا صالح قال: سَمِعتُ أبا هُرَيرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «بين النفختَين أربعون». قالوا: يا أبا هُرَيرة، أَربعُون يوماً؟

---

(١) تقدم حديث الصور عند تفسير الآية ١٤٩ من سورة النساء، انظر تفسير الآية ٩٩ من سورة الكهف، والآية ٨٧ من سورة النمل.

(٢) بعده في المسند: «كان تحريق البيت. قال شعبة: هذا أو نحوه».

(٣) الكَبِدُ: وَسَطُ الشيء ومعظمه.

(٤) في المسند: قطراً.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/١٦٦. وتقدم حديث مسلم عند تفسير الآية ٨٧ من سورة النمل.

قال: أبيت[١] قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. وَيَبْلَى كلُّ شيءٍ من الإنسان إلا عَجْبُ[٢] ذَنَبه، فيه يركب الخلق[٣].

وقال أبو يَعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن عُمَر بن محمد، عن زيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ - ﷺ - قال: «سألتُ جبريلَ - عليه السلامُ - عن هذه الآية: ﴿ وَنُفِخ في الصُّور فَصَعِق مَن في السموات ومَن في الأرضِ إلا مَن شاء الله ﴾: مَن الذين لم يَشَإِ الله أن يصعَقَهم؟ قال: هم الشُّهَداءُ، مُقلَّدون أسيافَهم حولَ عرشِه، تتلقَّاهم ملائكةٌ يومَ القيامة إلى المحشر بنَجائبَ[٤] من ياقوت نِمارُها ألينُ من الحرير، مَدُّ خُطاها مَدُّ أبصارِ الرجالِ، يَسِيرُون في الجَنَّة يقولون عند طُول النزهة: انطلِقُوا بِنَا إلى ربِّنا - عزَّ وجلَّ - لننظر كيفَ يقضِي بين خَلْقِه، يَضحَكُ إليهم إلَهي، وإذا ضَحِك إلَيَّ عبدٌ في موطنٍ فلا حسابَ عليه»[٥].

رجاله كلهم ثقاتٌ إلا شيخَ إسماعيلَ بنِ عَيَّاشٍ، فإنَّه غيرُ معروفٍ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ وأشرقتِ الأرضُ بنُورِ رَبِّها ﴾، أي: أضاءت يومَ القيامة إذا تجلَّى الحقُّ - تبارك وتعالَى - للخلائقِ لفصلِ القضاءِ، ﴿ وَوُضِع الكتابُ ﴾، قال قتادةُ: كتابُ الأعمالِ، ﴿ وَجِيءَ بالنبِيِّينَ ﴾، قال ابنُ عَبَّاسٍ: يَشْهَدُون على الأمم بأنهم بَلَّغُوهم رسالات الله إليهم، ﴿ والشهداءِ ﴾، أي: الشهداءِ من الملائكة الحَفَظَةِ على أعمال العبادِ من خيرٍ وشرٍّ، ﴿ وقُضِي بينَهم بالحقِّ ﴾، أي: بالعدلِ، ﴿ وهم لا يُظلَمُون ﴾. قال الله تعالى: ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسْط ليوم القيامة فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسبين ﴾. وقال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلمُ مثقالَ ذَرَّةٍ وإن تكُ حسنةً يضاعِفها ويُؤتِ من لَدُنه أجراً عظيماً ﴾. ولهذا قال: ﴿ وَوُفِّيت كلُّ نفسٍ ما عملت ﴾، أي: من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿ وهو أعلَمُ بما يفعلُون ﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى عن حالِ الأشقياءِ الكُفَّارِ كيفَ يُساقُون إلى النار وإنما يُساقُون سَوقاً عَنيفاً بزَجْرٍ وتهديدٍ وَوَعيدٍ. كما قال تعالى: ﴿ يوم يُدَعُّون إلى نارِ جهنَّم دَعّاً ﴾، أي: يُدفَعُون إليها دَفعاً، هذا وهُم عِطاشٌ ظِماءٌ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ يوم نحشُر المتقين إلى الرحمن وَفداً * ونسوقُ المجرمين إلى جَهنَّم وِرْداً ﴾. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبُكْمٌ وعُمْيٌ، منهم مَن يمشي على وَجهِهِ، ﴿ ونحشُرهم يومَ القيامةِ على وجُوهِهم عُمياً وبُكماً وصُمّاً مأواهُم جهَنَّمُ كُلَّما خَبَت زدناهم سَعِيراً ﴾.

---

(١) أي: امتنعتُ عن القول بتعيين ذلك، لأنه ليس عندي فيه توقيف.

(٢) عَجْبُ الذَّنَب: الجُزَيْءُ في أصل الذَّنَب عند رأس العُصْعُص.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الزمر ٨/٥٥١ - ٥٥٢.

(٤) النجائب: جمع نَجيبة، تأنيث النجيب من الإبل، وهو القوي الخفيف السريع، والنِّمار: جَمْعُ نَمِرَةٍ، وهو: كل شَمْلَةٍ مُخَطَّطَةٍ من مآزر الأعراب.

(٥) أخرجه كذلك الدارقطني في الأفراد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مَرْدُويه، والبيهقي في البعث. انظر الدرّ المنثور ٧/٢٤٩ - ٢٥٠.

وقولُهُ: ﴿ حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها ﴾، أي: بمُجرَّدِ وُصولهم إليها فُتِحت لهم أبوابُها سَريعاً، لِتُعجِّل لهم العقوبةُ، ثم يقول لهم خَزَنَتُها من الزبانية ـ الذين هم غِلاظُ الأخلاق، شِدادُ القُوى، على وجهِ التقريع والتوبيخ والتنكيل ـ: ﴿ ألم يأتكم رُسُلٌ منكم ﴾؟، أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يتلون عليكم آياتِ ربكم ﴾، أي: يُقيمون عليكم الحُجَجَ والبَراهينَ على صِحَّةِ ما دَعَوكُم إليه، ﴿ ويُنذِرُونكم لقاء يومكم هذا ﴾، أي: وَيُحذِّرونكم من شرِّ هذا اليوم؟ فيقولُ الكُفّار لهم: ﴿ بلى ﴾، أي: قد جاءُونا وأنذرُونا، وأقاموا علينا الحُجَجَ والبراهين، ﴿ ولكن حَقَّت كلمةُ العذاب على الكافرين ﴾، أي: ولكن كَذَّبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشِّقوة التي كنا نَستحقُّها حيثُ عَدَلْنا عن الحقِّ إلى الباطلِ، كما قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿ كُلَّما ألقِي فيها فوجٌ سألهم خَزَنتها ألم يأتِكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فَكَذَّبنا وقلنا ما نَزَّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير * وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾،أي: رجَعُوا على أنفسهم بالملامة والندامة. ﴿ فاعترفُوا بِذَنبهم فَسُحقاً لأصحابِ السَّعير ﴾، أي: بُعداً لهم وخساراً.

وقولُهُ هاهنا: ﴿ قيل ادخلُوا أبوابَ جَهنَّمَ خالدين فيها ﴾، أي: كُلُّ مَن رآهم وعَلِم حالَهم يشهَدُ عليهم بأنهم مستحقُّون للعذاب، ولهذا لم يُسنِد هذا القولَ إلى قائل مُعيَّن، بل أطلقه ليدلَّ على أن الكون شاهدٌ عليهم بأنهم مستحقُّون ما هم فيه بما حَكَم العَدْلُ الخبيرُ عليهم به. ولهذا قال: ﴿ قيل ادخلوا أبوابَ جَهنَّم خالدين فيها ﴾، أي: ماكثين فيها لا خُروجَ لكُم منها، ولا زوالَ لكُم عنها، ﴿ فبئسَ مثوى المتكبِّرين ﴾، أي: فبئس المصيرُ وبئس المقيلُ لكم، بسبب تَكبُّركم في الدنيا، وإبائِكم عن اتِّباع الحقِّ، فهو الذي صَيَّركم إلى ما أنتم فيه، فبئسَ الحالُ وبئسَ المآلُ!

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا إخبارٌ عن حال السُّعَداء المؤمنين حين يُساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿ زُمَراً ﴾ أي: جماعةً بعدَ جماعةٍ: المُقرَّبون، ثم الأبرارُ، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم، كلُّ طائفة مع من يُناسِبُهم: الأنبياءُ مع الأنبياءِ، والصِّدِّيقُون مع أشكالهم: والشُّهَداء مع أضرابهم، والعُلَماء مع أقرانهم، وكلُّ صنفٍ مع صنفٍ، كل زُمرة يُناسِب بعضُها بعضاً.

﴿ حتّى إذا جاءُوها ﴾، أي: وَصَلُوا إلى أبوابِ الجَنَّة بعد مجاوزة الصراطِ، حُبِسُوا على قنطرةٍ بين الجَنَّةِ والنار، فاقتُصَّ لهم مظالم كانت بينَهُم في الدُّنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أُذِن لهم في دُخُولِ الجنة. وقد وَرَد في حديث الصُّور أن المؤمنين إذا انتهَوا إلى أبواب الجنة تَشاوَرُوا فيمن يَستأذن لهم بالدُّخول، فَيقصِدُون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيمَ، ثمَّ موسى، ثم عيسى، ثم مُحمَّداً ـ صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ كما فَعَلوا في العَرَصَات عند استشفاعهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يأتي لِفَصل القضاءِ، ليظهر شرفُ محمد ـ ﷺ ـ على سائر البشر في المواطن كلِّها. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا أولُ شفيعٍ في الجنة»[1] وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول مَن يقرَعُ بابَ الجنة»[1].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٨٨.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «آتي بابَ الجنة يوم القيامة فأستفتحُ، فيقول الخازنُ: مَن أنت؟ فأقول: محمدٌ. قال: يقولُ: بِكَ أُمِرتُ ألَّا أفتح لأحدٍ قبلَكَ»(١).

ورواه مسلم عن عَمرو الناقد وزُهير بن حرب، كلاهُما عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سُليمان - وهو ابنُ المغيرةِ القَيسي - عن ثابتٍ، عن أنسٍ، به(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا معْمرٌ، عن هَمّام بن مُنبّه، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «أول زُمرة تَلِجُ الجنةَ صُوَرهم على صُورَةِ القمر ليلَة البدر، ولا يَبْصُقون فيها، ولا يَمتخِطُون فيها، ولا يَتغوَّطون فيها. آنيتُهم وأمشاطُهم الذهبُ والفضةُ، ومجامِرهم الألوَّة، ورشحُهم المسكُ، ولكلِّ واحد منهم زوجتان، يُرَى مُخُّ ساقِهما من وَرَاءِ اللحمِ، من الحُسنِ. لا اختلافَ بينهم ولا تباغُض، قلوبُهم على قلبٍ واحدٍ، يُسبِّحون الله بكرةً وعَشِياً»(٢).

رواه البخاري عن محمد بنُ مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، كلاهما عن مَعْمَرٍ بإسناده نحوه(٢). وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُريرة، عن رسول الله - ﷺ(٢).

وقال الحافظ أبو يعلَى: حدثنا أبو خيثمةَ، حدثنا جَرير، عن عُمَارة بن القعقاع، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله - ﷺ - «أول زُمْرَة يدخُلون الجنة على صُورَة القمر ليلة البدر، والذين يَلُونهم على ضَوءِ أشدِّ كوكبٍ دُرِّيّ في السماءِ إضاءةً، لا يَبُولون ولا يَتغوَّطون ولا يتفُلون ولا يَمتخِطون، أمشاطُهم الذهبُ، ورَشْحُهم المسكُ، ومَجامِرُهم الألُوَّة، وأزواجُهم الحورُ العين، أخلاقُهم على خُلُقِ رجلٍ واحدٍ، على صورةِ أبيهم آدَم، سِتُّون ذراعاً في السماء»(٣). وأخرجاه أيضاً من حديث جَرير(٣).

وقال الزُهري، عن سَعيد، عن أبي هُريرة - رضي الله عنه - عن رَسُولِ الله - ﷺ - قال: «يدخلُ الجنةَ من أمتي زُمْرَة، هم سبعونَ ألفاً، تُضِيءُ وجوهُهم إضاءَة القمرِ ليلَة البدرِ». فقام عُكّاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسولَ اللهِ، ادعُ الله أن يجعَلني منهم. فقال: «اللهم اجعَلْه منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسولَ اللهِ، ادعُ الله أن يجعَلني منهم. فقال - ﷺ -: «سَبَقك بها عُكّاشة».

أخرجاه(٤). وقد رَوَى هذا الحديث - في السبعين ألفاً بغير حِسَابٍ - البخاريُّ ومسلمٌ، عن ابن عباس، وجابِرِ بن عبد الله، وعمران بن حُصَين، وابن مسعود، ورِفاعة بن عَرابة الجُهَنِيّ، وأم قيس بنتِ مِحْصَن. ولَهُما عن أبي حازم، عن سَهلِ بن سعد: أن رسول الله - ﷺ - قال: «لَيَدخلَنَّ الجنّة مِن أُمّتي سبعون ألفاً - أو: سبعمائة ألفٍ - آخِذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخُلَ أولُهم وآخرُهم الجنةَ، وجوهُهم على صُورة القَمَرِ ليلةَ البدرِ»(٤).

وقال أبو بكر بن أبي شَيبةَ: حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن محمد بن زياد قال: سَمِعت أبا أمامة الباهِليَّ يقولُ: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: وَعَدني رَبّي - عزّ وجلّ - أن يَدخُلَ الجنة من أمتي سبعون ألفاً، مع كل

(١) مسند الإمام أحمد ٣١٦/٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١٨٨/١.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٦٢ من سورة مريم، وخرجناه هنالك. وانظر المسند ٣١٦/٢. والألُوَّة: العودُ الذي يُتبَخّر به.
(٣) مسند أبي يعلى ٣٩٩/٥. وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٦٢/٦، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٧٩/٤.
(٤) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١١٠ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

ألفٍ سبعونَ ألفاً، ولا حِساب عليهم ولا عَذاب، وثلاث حثَيات من حثَيات ربي ـ عَزَّ وجَلَّ».

وكذا رواهُ الوليد بن مسلم، عن صفوَان بن عمرو، عن سُليم(١) بن عامر، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لُحَي عن أبي أمامة. ورواه الطبراني، عن عُتبَة بن عَبْدِ السُّلَمي: «ثم يشفَعُ كلُّ ألفٍ في سبعينَ ألفاً»(٢). وَرَوى مثله عن ثوبان، وأبي سعيد الأنماري. وله شواهد من وجوه كثيرة(٣).

وقولُهُ: ﴿حَتَّى إذا جاءُوها وفُتِحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتُم فادخلوها خالِدين﴾: لم يذكر الجوابَ هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاءوها، وكانت هذه الأمورُ من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتَلَقِّيهم الملائكةُ الخَزَنَةُ بالبشارة والسلام والثَّناءِ، لا كما تَلَقَّى الزبانيةُ الكَفَرَةَ بالتَّثريب(٤) والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفَرِحُوا، بقَدْر كل ما يكون لهم فيه نَعِيم. وإذا حُذِفَ الجوابُ هاهنا ذَهَب الذهنُ كلَّ مذهبٍ في الرجاءِ والأمل.

ومَن زعم أن «الواو» في قوله: ﴿وفُتِحَت أبوابُها﴾ واوُ الثمانية، واستدلَّ به على أن أبواب الجنة ثمانيةٌ(٥)، فقد أبعد النُّجْعَة، وأغرق في النَّزْع(٦)، وإنما يستفاد كونُ أبواب الجنةِ ثمانيةً من الأحاديث الصحيحة:

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمرٌ، عن الزُّهري، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن أنفق زَوجين من مالِهِ(٧) في سبيل الله دُعِي من أبواب الجنة، وللجنة أبوابٌ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقَةِ دُعِي من باب الصدَقةِ، ومن كان من أهل الجهادِ دُعِي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعِي من باب الرَّيَان». فقال أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ: يا رسول الله، ما عَلَى أحد من ضَرُورةٍ دُعِي، من أيِّها دُعِي، فهل يُدعَى منها كلِّها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكونَ منهم»(٨). رَواه البخاريُّ ومسلمٌ، من حديث الزُّهريِّ، بنحوه(٨).

وفيهما من حديث أبي حازمٍ سلمةَ بن دينارٍ، عن سَهل بن سعدٍ أنَّ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ قال: «إن في الجنةِ ثمانيةَ أبوابٍ، بابٌ منها يُسَمَّى الريانَ، لا يدخلُه إلا الصائمون»(٩).

وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما منكم من أحد يتوضأ فَيُبلِغُ ـ أو فَيُسبِغُ الوضوءَ ـ ثم يقول: أشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، إلا فُتِحت له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ، يدخلُ من أيِّها شاء»(١٠).

---

(١) في النسخ: حكيم بن عامر. ولم يقع لنا. وانظر تهذيب الكمال، ترجمة صفوان بن عَمْرو ٢٠٢/١٣.

(٢) المعجم الكبير ١٢٦/١٧ ـ ١٢٧.

(٣) حديث ثوبان في المعجم الكبير ٩٢/٢، وحديث أبي سعيد الأنماري في المعجم الكبير ٣٠٤/٢٢ ـ ٣٠٥، ترجمة أبي سعد الخير الأنصاري، وانظر تعليق المحقق.

(٤) التثريب: اللوم والتعيير بالذنب.

(٥) انظر روح المعاني للألوسي ٣٤/٢٤، والمغني لابن هشام ٤٠١.

(٦) أي: جاوز الحدّ.

(٧) كان المال يطلق في الجاهلية على الإبل. وقد أطلق الزوجان في الصحيحين، فقيل المراد: شيئان من أي نوع كان مما ينفق.

(٨) مسند الإمام أحمد ٢٦٨/٢، وفتح الباري، كتاب الصوم ١١١/٤ وكتاب فضائل الصحابة ١٩/٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٧١١/٢ ـ ٧١٢.

(٩) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري، ١١١/٤، ومسلم ٨٠٨/٢.

(١٠) مسلم، كتاب الطهارة ٢١٠/١.

وقال الحسنُ بن عَرفَةَ: حدثنا إسماعيلُ بنُ عَيَّاش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين، عن شَهر بن حَوْشَبٍ، عن مُعاذٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مفتاحُ الجنةِ لا إلَه إلا الله».

ذِكْرُ سَعَةِ أبوابِ الجَنَّةِ، نسألُ الله من فَضْلِهِ أن يجعَلنا مِنْ أهلِها

في الصَّحِيحَين من حديث أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُرَيرةَ في حديث الشفاعة الطويل: «فيقولُ الله: يا محمدُ، أدْخِلْ مَن لا حساب عليه من أُمَّتِك من الباب الأيمن، وهم شركاءُ الناس في الأبواب الأُخَر. والذي نفسُ محمدٍ بيده إن ما بين المِصراعين من مَصَارِيع الجَنةِ ـ ما بين عِضادَتي البـاب ـ لكما بين مَكَّة وهَجَر ـ أو: هَجَرَ ومكَّة». وفي رواية: «مكة وبُصْرى»(١).

وفي صحيح مسلم، عن عُتْبَة بن غَزْوَانَ أنه خَطَبهم [خطبة] فقال فيها: «ولقد ذُكِر لنا أن [ما بين] مِصراعين من مصاريع الجنـة مسيرةُ أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وَهُو كَظِيظٌ [من] الزحام»(٢).

وفي المسند عن حَكِيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ مثلـه(٢)..

وقال عبد بن حُمَيد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابنُ لَهِيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ ما بين مصراعَينِ في الجَنَّةِ مسيرةُ أربعينَ سنةً»(٣).

وقولُهُ: ﴿ وقال لهم خزَنَتُها سلامٌ عليكم طِبتُم ﴾، أي: طابت أعمالُكم وأقوالُكم، وطاب سعيكُم فطابَ جزاؤُكم، كما أمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يُنادَى بين المسلمين في بعضِ الغزواتِ: «إن الجَنَّة لا يدخُلُها إلا نفسٌ مُسلِمة». وفي رواية: «مُؤمِنةٌ»(٤).

وقولُهُ: ﴿ فادخلُوها خالِدِينَ ﴾، أي: ماكِثِينَ فيها أبداً، لا يبغُون عنها حِوَلاً.

﴿ وقالوا الحمدُ لله الذي صَدَقنا وعدَه ﴾، أي: يقولُ المؤمنون إذا عايَنُوا في الجَنَّةِ ذلك الثوابَ الوافرَ والعطاءَ العظيمَ، والنعيمَ المُقيمَ، والمُلكَ الكبيرَ، يقولون عند ذلك: ﴿ الحمدُ لله الذي صَدَقنا وعدَه ﴾، أي: الذي كان وَعدَنا على ألسنة رُسُله الكرام، كما دَعَوا في الدنيا: ﴿ رَبَّنا وآتنا ما وَعدَتنا على رُسُلك ولا تُخزنا يومَ القيامةِ إنَّك لا تُخلفُ الميعاد ﴾، ﴿ وقالوا الحمدُ لله الذي هَدَانا لهذا وما كُنَّا لِنهتديَ لولا أن هَدَانا الله لقد جاءت رُسُل رَبِّنا بالحقِّ ﴾، ﴿ وقالوا الحمدُ لله الذي أذهَبَ عنا الحَزَنَ إنَّ ربنا لغفورٌ شكورٌ * الذي أحَلَّنا دار المُقامةِ من فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمسنا فيها لُغُوبٌ ﴾.

وقولُهم: ﴿ وأورَثَنا الأرضَ نَتبوَّأُ من الجنةِ حيثُ نشاءُ فنعم أجرُ العاملين ﴾، قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادةُ، والسُّدِّي، وابنُ زيد: أي أرضُ الجنةِ.

وهذه الآيةُ كقوله: ﴿ وَلَقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون ﴾. ولهذا قالوا: ﴿ نَتبوَّأُ من الجَنَّةِ حيثُ نشاءُ ﴾، أي: أين شئنا حَلَلنا، فنعمَ الأجرُ أجرُنا على عملنا.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الإسراء ٣٩٦/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١٨٦/١، وعضادتا الباب: خشبتاه من جانبيه.

(٢) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٧٨/٤ ـ ٢٢٧٩. ومسند أحمد ٣/٥.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن الحسن ٢٩/٣.

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الحج ٥/ ٢٣٤، وفي كتابي الحج والتفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٣١٨/١٠.

وفي الصحيحَين من حديث الزُهريِّ، عن أنسٍ في قِصّةِ المعراجِ قال النبيُّ - ﷺ -: «أُدخِلْتُ الجنةَ فإذا فيها جَنابذُ اللؤلؤ، وإذا تُرابها المِسكُ»(١).

وقال عبدُ بن حُميد: حدثنا رَوح بن عُبادة، حدثنا حَمّاد بنِ سَلَمة، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعيد أن رسولَ الله - ﷺ - سأل ابن صائدٍ عن تُربةِ الجَنَّةِ؟ فقال: دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسْكٌ خالِص. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «صَدَق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبي مسلَمةَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد، به(٢). ورواه مسلمٌ عن أبي بكرِ بن أبي شَيْبَةَ، عن أبي أسامةَ، عن الجُرَيري، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد: أن ابنَ صائد سأل رسولَ الله - ﷺ - عن تُربةِ الجَنَّةِ، فقال: «دَرْمَكة بيضاءُ مسكٌ خالصٌ»(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا أبو غسّان مالكُ بن إسماعيل، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عاصم بن ضَمرَةَ، عن عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿وسيقَ الذين اتقوا ربَّهم إلى الجَنَّةِ زُمَراً﴾، قال: سِيقُوا حتى انتهَوا إلى بابٍ من أبواب الجنةِ، فوجدُوا عندها شجرةً يخرُج من تحتِ ساقها عينان، فَعمَدُوا إلى إحداهما فتطهَّروا منها، فَجَرت عليهم نَضْرَةُ النعيم، فلم تُغيِّر أبشارُهم بعدها أبداً، ولم تَشْعَث أشعارُهم أبداً بعدَها، كأنما دُهِنُوا بالدِّهان. ثم عَمَدوا إلى الأخرى كأنما أُمِرُوا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من الأذى - أو قذى - وتلقتهم الملائكةُ على أبواب الجنةِ: ﴿سلامٌ عليكُم طِبتُم فادخلُوها خالدين﴾. وَيَلقى كلَّ غلمانٍ صاحبَهم يُطيفون به، فِعْلَ الولدانِ بالحَميم جاء من الغيبة: أَبْشِرْ، قد أَعدَّ الله لك من الكرامةِ كذا وكذا، قد أعدَّ الله لك من الكرامةِ كذا وكذا. قال: وينطلِقُ غلامٌ من غِلْمانه إلى أزواجِهِ من الحُورِ العين، فيقول: هذا فلانٌ - باسمه في الدنيا - فيقلن: أنت رأيتَه؟ فيقول: نعم. فَيَستخِفُّهن الفرَحُ حتى تخرج إلى أُسْكُفَّةِ(٣) الباب. قال: فَيَجِيء فإذا هو بنمارقَ مصفُوفَةٍ، وأكوابٍ موضُوعةٍ، وزرابيِّ مبثوثةٍ. قال: ثم ينظر إلى تأسيسِ بُنيانه، فإذا هو قد أُسِّس على جندلِ اللؤلؤ، بين أحمرَ وأخضرَ وأصفرَ، ومن كلِّ لونٍ. ثم يرفع طَرْفَه إلى سَقْفِهِ، فلولا أن الله قَدَّره لـه لألَمَّ أن يذهَب بِبَصرِه، إنه لمثل البَرْقِ. ثم ينظُر إلى أزواجِه من الحُور العين، ثم يَتَّكِيءُ على أريكةٍ من أرائِكه، ثم يقول: ﴿الحمدُ لله الذي هَدانا لهذا وما كُنّا لِنهتَدِيَ لولا أن هدانا الله﴾... (٤) الآية.

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسّانَ مالك بن إسماعيل النَّهديُّ، حدثنا مسلمة بن جعفر البَجَليُّ قال: سَمِعتُ أبا مُعاذٍ البصري يقول: إن عليّاً - رضي الله عنه - كان ذاتَ يوم عندَ رسولِ الله - ﷺ - فقال النبيُّ - ﷺ -: «والذي نفسي بيده، إنهم خَرَجُوا من قُبورِهم يُستَقْبَلُون - أو: يُؤْتَون - بِنُوق لها أجنحةٌ، وعليها رِحال الذهب: شِرَاكُ(٥) نعالِهم نورٌ يتلألأ، كلُّ خطوة منها مَدُّ البصرِ، فينتهُون إلى شجرةٍ ينبعُ من أصلِها عينان، فيشرَبُون من إحداهما فَيُغْسَلُ ما في بطونهم من دَنَسٍ، ويغتسلون من الأخرى فلا تَشْعَثُ أبشارُهم ولا أشعارُهم بعدَها أبداً، وتجري عليهم نَضْرَةُ النَّعيم، فينتهون - أو: فيأتون - بابَ الجَنَّةِ، فإذا حَلْقةٌ من ياقوتةٍ حمراءَ على صفائحِ الذهبِ، فَيَضرِبُونَ بالحلقةِ على الصَّفيحة، فلو تَسْمَعُ لها طَنِينٌ يا علي؟! فَيَبلُغُ كلَّ حوراء

(١) تقدم الحديث عند تفسير مفتتح سورة الإسراء، وخرجناه هنالك. والجنابذ: جمع جُنْبُذ، وهو القبة.
(٢) مسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٤٣.
(٣) أُسْكُفَّة الباب: عَتَبَته.
(٤) أخرجه غير واحد، انظر الدر المنثور ٧/٢٦٣ - ٢٦٤. ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/١١٢ - ١١٤.
(٥) الشِّراك: سيرُ النعل على ظهر القدم.

أن زَوجها قد أقبل، فتبعَث قيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خرَّ له ـ قال مسلمةُ: أراه قال: ساجداً ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قيِّمك، وُكِّلتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخِفُّ الحوراءَ العَجَلةُ، فتخرُج من خيام الدُّر والياقوتِ حتى تعتنِقَه، ثم تقولُ: أنتَ حِبِّي، وأنا حِبُّك، وأنا الخالدةُ التي لا أموتُ، وأنا الناعمةُ التي لا أبْأس، وأنا الراضيةُ التي لا أسخَطُ، وأنا المُقيمةُ التي لا أظعَنُ». فيدخل بيتاً من أُسِّه إلى سَقْفِه مائةُ ألفِ ذراع، بناؤه على جَنْدَلِ اللُّؤلؤ، طرائقُ أصْفرُ وأخْضرُ وأحمرُ، ليس فيها طريقةٌ تُشاكِلُ صاحِبَتَها، في البيت سبعون سريراً، على كلِّ سَريرٍ سبعون حَشيَةً، على كل حشيةٍ سبعون زوجةً، عل كلِّ زوجة سبعون حُلَّةً، يُرى مُخُّ ساقِها من باطِنِ الحُلَلِ، يقضِي جماعَها في مقدار ليلةٍ من لياليكم هذه. الأنهارُ من تحتهم تَطَّرِدُ، أنهارٌ من ماء غير آسن ـ قال: صافٍ، لا كَدَر فيه ـ وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يَتَغَيَّر طعمُه ـ قال: لم يخرُج من ضروع الماشية ـ وأنهارٌ من خمر لَذَّةٍ للشاربين ـ قال: لم تعصِرها الرجالُ بأقدامهم ـ وأنهار من عَسَلٍ مُصفًّى ـ قال: لم يخرج من بُطون النحل. يستجني الثمارَ، فإن شاءَ قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاءَ متكئاً. ثم تلا: ﴿ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلِّلت قُطوفها تذليلاً﴾. ـ فَيَشتهي الطعامَ فيأتيه طيرٌ أبيضُ ـ قال: ورُبَّما قال: أخضرُ. قال ـ فترفع أجنحتَها، فيأكل من جُنوبها، أيَّ الألوان شاء، ثم يَطير فيذهَبُ، فيدخل الملك فيقول: سلامٌ عليكُم، تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعمَلُون. ولو أن شَعَرَةً من شَعَرِ الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمسُ معها سواداً في نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذَكَر تعالى حُكمه في أهلِ الجنة والنار، وأنه نَزَّلَ كُلًّا في المحلِّ الذي يَليق به ويصلُح له، وهو العادلُ في ذلك الذي لا يَجُور ـ أخبر عن ملائكته أنهم مُحدِقون من حَولِ عَرْشِهِ المجيدِ، يُسَبِّحُون بحَمْدِ رَبِّهم، ويُمَجِّدُونه ويُعظِّمونه ويُقَدِّسونه ويُنَزِّهونه عن النقائص والجور، وقد فَصَلَ القضيةَ، وقَضى الأمرَ، وحَكَمَ بالعَدْلِ. ولهذا قال: ﴿وقُضِيَ بينهم﴾، أي: بين الخلائق ﴿بالحق﴾.

ثم قال: ﴿ وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾، أي: ونَطَق الكونُ أجمعه ـ ناطِقه وبَهيمه ـ لله ربِّ العالمين، بالحمدِ في حُكمه وعَدله، ولهذا لم يُسْنِدِ القولَ إلى قائلٍ، بل أطلقه فَدلَّ على أن جميعَ المخلوقاتِ شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادةُ: افتتحَ الخَلْقَ بالحمد في قوله: ﴿ الحمدُ لله الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾، واختتم بالحمد في قوله: ﴿ وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمدُ لله رب العالمين ﴾.

آخر تفسير سورة الزُّمر، ولله الحمد

تفسير

سورة غافر

وَهِيَ مَكِّية

قد كَرِه بعضُ السلف، منهم محمدُ بن سِيرينَ أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آلُ حمٓ».

قال عبد الله بن مسعود: «آل حمٓ» ديبَاجُ القرآن، وقال ابنُ عباس: إنَّ لكل شيء لباباً، ولُبَاب القرآنِ «آل حمٓ»، أو قال: الحواميم. وقال مِسْعَر بن كِدَام: كان يقال لهنَّ: «العَرَائِسُ». رَوَى ذلك كلَّه الإمام العَلَمُ أبو عُبيد القاسم بن سلام رحمه الله، في كتابِ «فضائل القرآن».

وقال حُمَيد بنِ زَنْجُويه: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن عبدالله قال: إنَّ مثل القرآنِ كَمَثل رجلٍ انطلق يرتادُ لأهله مِنزلاً، فَمَرَّ بأثرِ غيثٍ، فبينا هُو يسيرُ فيه ويتعجب منه إذ هَبَطَ على رَوضاتٍ دَمِثاتٍ[1] فقال: عَجِبتُ من الغيث الأولِ فهذا أعجبُ وأعجبُ. فقيل له: إنَّ مَثَلَ الغيثِ الأوَّل مثلُ عِظم القرآن، وأن مثلَ هؤلاء الروضات الدَّمِثات، مثل آلِ حمٓ في القرآن. أورده البغويُّ.

وقال ابنُ لَهيعة، عن يزيدَ بن أبي حَبيب: أن الجرَّاح بن أبي الجرَّاح حَدَّثَه عن ابنِ عباس، قال: (لكلِّ شيءٍ لبابٌ) ولُباب القرآن الحواميمُ.

وقال ابن مسعود: إذا وَقَعتُ في (آلِ حمٓ) فقد وقعتُ في روضات أتأنَّق[3] فيهنَّ.

وقال أبو عُبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مِسْعر ـ هو ابنُ كِدَام ـ عمن حَدَّثه: أن رَجُلاً رأى أبا الدَّرداء يبني مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل «آلِ حمٓ»

وقد يكونُ هذا المسجدُ الذي بناه أبو الدرداءِ «هو المسجدَ المنسوبَ إليه داخلَ قلعةِ دمشق». وقد يكون صيانتُها وحفظُها ببركته وبركةِ ما وُضِع له، فإن هذا الكلام يدلُّ على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن بُيِّتم الليلةَ فقولوا: «حمٓ لا يُنصَرُونَ». وفي رِوايةٍ: «لا تُنصَرُونَ»[4].

---

(١) الدَّمِثات: جمع دَمِثَةٍ، وهي الأرض السهلة الرخوة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٣) يقال: تأنَّق الروضة وفيها: أُعجِبَ بها، وتمتَّع بمحاسنها.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/ ٦٥، ٥/ ٣٧٧، وأخرجه أبو داود والترمذي في كتاب الجهاد، سنن أبي داود ٣/ ٣٣، وعارضة الأحوذي ٧/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

وقال الحافظُ أبو بكر البَزّار: حدثنا أحمدُ بن الحكم [بن ظَبْيان] بن خَلَف المازني، ومحمد بن الليث الهَمْداني قالا: حدثنا مُوسَى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المُلَيكي، عن زُرارَة بن مُصعَب، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «من قرأ آية الكرسي وأول سورة حمٓ» المؤمن» عُصِم ذلك اليومَ من كلِّ سُوءٍ».

ثم قال: «لا نعلَمُه يُروَى إلا بهذا الإسناد». ورواه الترمذيُّ من حَديث المُلَيكي، وقال: «تَكلَّم فيه بعضُ أهلِ العلم من قبل حفظه»(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾

أمّا الكلامُ على الحروف المُقطَّعة فقد تَقدَّم في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد قيل: إن ﴿ حمٓ ﴾ اسم من أسماء الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وأنشدُوا في ذلك(٢):

يُذَكِّرُني حَاميمَ والرمحُ شَاجرٌ فَهلّا تَلا حَاميمَ قَبلَ التَّقدُّمِ

وقد وَرَد في الحديث الذي رواه أبو داودَ والترمذيُّ، من حديث الثَّوري، عن أبي إسحاقَ، عن المُهلَّب بن أبي صُفْرَة قال: حَدَّثني مَن سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن بُيِّتُّم الليلةَ فقولُوا: حمٓ لا يُنصَرُونَ». وهذا إسنادٌ صحيحٌ(٣).

واختار أبو عُبَيد أن يُروَى: «فقولوا: حمٓ، لا يُنصَرُوا»، أي: إن قلتم ذلك لا يُنصَرُوا. جعله جزاءً لقوله: [فقولوا].

وقولُهُ: ﴿ تنزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم ﴾، أي: تنزيلُ هذا الكتابِ ـ وهو القرآنُ ـ من الله ذي العزّةِ والعلم، فلا يُرَامُ جنابُه، ولا يخفَى عليه الذرُّ وإن تكاثَفَ حِجَابُه.

وقولُهُ: ﴿ غافرِ الذَّنب وقابلِ التَّوبِ ﴾، أي: يَغفِرُ ما سَلَفَ من الذنب، ويقبَلُ التوبةَ في المستقبَلِ لمن تاب إليه وخَضَع لديه.

وقولُهُ: ﴿ شَدِيدِ العقاب ﴾، أي: لمن تَمرَّد وطَغَى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبَغَى. وهذه كقوله تعالى: ﴿ نبِّىءْ عبادي أنّي أنا الغفورُ الرحيمُ * وأنَّ عذابي هو العذابُ الأليم ﴾. يقرِنُ هذين الوصفَين كثيراً في مواضعَ مُتعدِّدةٍ من القرآن؛ ليبقَى العبدُ بين الرجاءِ والخوفِ.

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/١٠-١١.

(٢) نسبه الطبري في تفسيره ٢٤/٣٩ إلى شريح بن أوفى العبسي. وانظره في كتاب نسب قريش ٢٨١، وأسد الغابة ٥/٩٨.

(٣) تقدّم تخريج الحديث في مقدّمة تفسير هذه السورة.

وقولُهُ: ﴿ ذِي الطَّول ﴾ - قال ابن عباس: يعني السَّعةَ والغِنَى. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ. وقال يزيد بنُ الأصمِّ: ﴿ ذي الطولِ ﴾: يعني الخيرَ الكثيرَ. وقال عكرمة: ﴿ ذي الطَّول﴾: ذي المَنِّ. وقال قتادةُ: ذي النِّعم والفواضِل.

والمعنى أنه المتفضِّلُ على عباده، المتطوِّل عليهم بما هُم فيه من المنَن والإنعام، التي لا يُطِيقون القيامَ بِشُكرِ واحدةٍ منها، ﴿ وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصُوها ﴾ . . . الآية.

وقولُهُ: ﴿ لا إلَه إلا هو ﴾، أي: لا نَظير له في جَميع صفاتِه، فلا إلَه غيرُه، ولا ربَّ سواهُ ﴿ إليه المصيرُ ﴾، أي: إليه المرجعُ والمآبُ، فيجازي كلَّ عاملٍ بعَمله، ﴿ وهو سريعُ الحساب ﴾.

وقال أبو بكر بن عَيَّاش: سَمِعت أبا إسحاق السبيعي [يقول]: جاء رجلٌ إلى عُمر بن الخطاب فقال: يا أميرَ المؤمنين، إني قَتَلْتُ، فهل لي من توبةٍ؟ فقرأ عليه: ﴿ حمٓ* تنزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم* غافِرِ الذنبِ وقابلِ التوب شديدِ العقاب ﴾، وقال: اعمَلْ ولا تيأسْ. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابنُ جَرير[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مَرْوان الرَّقِّي، حدثنا عُمَر - يعني ابنَ أيُّوبَ - أخبرنا: جعفر بن بُرقانَ، عن يزيدَ بنِ الأصمِّ قال: كان رجلٌ من أهل الشام ذو بأس، وكانَ يَفِدُ إلى عُمر بن الخطاب، فَفَقَده عمرُ فقال: ما فعل فلانُ ابن فلان؟ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، يتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إلَه إلا هو ﴿ غافِر الذنبِ وقابلِ التوب شديد العقاب ذي الطَّول لا إلَه إلا هو إليه المصير ﴾. ثم قال لأصحابه: ادعُوا الله لأخيكم أن يُقبِل بقلبه، وأن يتوب عليه. فلما بَلَغ الرجل كتابُ عمر جَعَل يقرؤُه ويُرَدِّده، ويقول: ﴿ غافِرِ الذَّنبِ وقابِلِ التَّوبِ شديد العقاب ﴾، قد حَذَّرني عُقوبَته، وَوَعَدني أن يغفرَ لي[(٢)].

وَرَواه الحافظُ أبو نُعَيم من حديث جَعفر بن بُرْقانَ، وزاد: «فلم يزل يُرَدِّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع. فلما بلغ عمرَ خبرُه قال: هكذا فاصنعُوا، إذا رأيتم أخاكم زَلَّ زلَّة فَسَدِّدوه وَوَفِّقوه، وادعُوا الله له أن يَتُوب عليه، ولا تَكونوا أعواناً للشيطان عليه»[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عُمَر بن شَبَّة، حدثنا حَمَّاد بن واقد أبو عُمر الصفَّار - حدثنا ثابتُ البُنانيُّ، قال: كنتُ مع مُصعب بن الزُّبير في سَوَاد الكوفة، فدخلتُ حائطاً أصلِّي ركعتين، فافتتحتُ: حمٓ، المؤمن، حتى بلغت: ﴿لا إله إلا هو إليه المصيرُ﴾ فإذا رجلٌ خلفي على بغلةٍ شهباء عليه مُقَطَّعات يَمَنِيَّة، فقال: إذا قلتَ: ﴿ غافر الذنب ﴾ فقل: «يا غافرَ الذنب، اغفر لي ذنبي». وإذا قلت: ﴿ قابِل التَّوب﴾، فقلْ: «يا قابلَ التَّوب، اقبل تَوبتي». وإذا قلت: ﴿ شديد العقاب ﴾، فقل: «يا شديدَ العقاب، لا تُعاقِبني». قال: فالتفتُّ فلم أرَ أحداً، فخرجتُ إلى الباب فقلت: مَرَّ بكم رجلٌ عليه مقطعات يَمَنيَّة؟ قالوا: ما رأينا أحداً. فكانوا يُرَون أنه إلياسُ.

ثم رَوَاه من طريق أخرى، عن ثابتٍ، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١.

(٢) أخرجه أيضاً عبد بن حُميد، الدر المنثور ٧/ ٢٧٠ - ٢٧١، وحلية الأولياء ٤/ ٩٧ - ٩٨.

وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ما يدفع الحق ويُجادِل فيه بعدَ البيانِ وظهور البُرهان ﴿ إلا الذين كَفَرُوا ﴾، أي: الجاحِدُون لآياتِ الله وحُجَجِه وبَراهِينه، ﴿ فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبهم في البلاد ﴾، أي: في أموالها ونَعِيمها وزَهرتها، كما قال: ﴿ لا يَغُرَّنَّك تقلُّبُ الذين كَفروا في البلاد متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جَهَنَّم وبِئْسَ المهادِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعهم قليلاً ثم نَضطرُّهم إلى عذابٍ غَليظٍ ﴾.

ثم قال تعالى مُسَلِّياً لنبيِّه محمدٍ ـ ﷺ ـ في تكذيب من كذَّبه من قومه، بأن له أسوةَ مَن سَلَف من الأنبياء؛ فإنه قد كذَّبتهم أُمَمُهم وخالفُوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليلٌ، فقال: ﴿ كَذَّبت قبلَهم قومُ نوحٍ ﴾، وهو أول رَسُولٍ بَعَثه الله ينهَى عن عبادةِ الأوثان، ﴿ والأحزابُ مِن بَعدهم ﴾، أي: من كلِّ أُمَّةٍ، ﴿ وهَمَّت كلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذُوه ﴾، أي: حَرَّضُوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رَسولَهم ﴿ وجادَلُوا بالباطلِ ليُدحِضُوا به الحقَّ ﴾، أي: مَـاحَلُوا[١] بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقد قال أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارمٌ أبو النُّعمان، حدثنا مُعتمِرُ بن سليمان قال: سَمِعت أبي يُحدِّث عن حَنَشٍ، عن عكرمَةَ، عن ابن عباسٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من أعان باطلاً ليدحضَ بباطِله حَقًّا فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ الله، وذِمَّةُ رسوله»[٢].

وقولُهُ: ﴿ فَأَخَذْتُهُم ﴾، أي: أهلكتُهم على ما صَنَعُوا من هذه الآثام والذنوب العِظام، ﴿ فكيف كان عقابِ ﴾، أي: فكيف بلغَكَ عَذابي لهم، ونَكالي بهم؟! قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قَتادةُ: كان شديداً والله.

وقولُهُ: ﴿ وكذلك حَقَّت كَلِمةُ ربِّك على الذينِ كفروا أنهم أصحابُ النار ﴾، أي: كما حَقَّت كلمةُ العذابِ على الذين كَفَروا من الأمم السالفة كذلك حَقَّت على المُكَذِّبين من هؤلاء الذين كَذَّبوك وخالَفُوك ـ يا محمد ـ بطريقِ الأولى والأحرى، لأن مَن كذَّبك فلا وُثوق له بِتَصديقِ غيرك.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن الملائكة المقرَّبين مِنْ حَمَلة العرش الأربعةِ، ومَن حوله من الكَرُوبيِّين[٣]: بأنهم يُسبِّحون بحمدِ ربهم، أي: يَقرنُون بين التسبيح الدالِّ على نفيِ النقائص، والتحميدِ المقتضي لإثبات صفاتِ المدح، ﴿ ويُؤمنون به ﴾، أي: خاشِعون له أذلاَّء بين يدَيه، وأنَّهم ﴿ يَستغفِرون للذين آمنوا ﴾، أي: مِن أهلِ الأرض

(١) أي: كايدوا وماكروا.
(٢) المعجم الكبير ١١/٢١٥ ـ ٢١٦.
(٣) هم سادةُ الملائكة المقربون.

ممَّن آمن بالغيب، فَقَيَّضِ اللهُ سبحانه ملائكته المُقَرَّبين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب ولما كان هذا من سَجايا الملائكة ـ عليهم الصلاةُ والسلامُ ـ كانوا يُؤَمِّنُون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صَحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بِظَهرِ الغيبِ قال الملك: آمين، ولك بمثله»(١).

وقد قال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا عبدُالله بن محمد ـ هو ابنُ أبي شَيبةَ ـ حدثنا عبدةُ بن سُلَيمان، عن محمد بن إسحاقَ، عن يعقوبَ بن عُتبَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ صَدَّقَ أُميَّةَ في شيءٍ من شعرِه، فقال(٢):

رَجُلٌ وَثَورٌ تَحتَ رِجْلِ يَمِينِه ... وَالنَّسْرُ للأُخرَى، وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صَدَقَ». فقال:

وَالشمسُ تَطلعُ كلَّ آخرِ لَيْلَةٍ ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتَوَرَّدُ

تَأبَى فَما تَطْلُعُ لَنا في رِسْلِها ... إلاَّ مُعَذَّبَةً وَإلاَّ تُجْلَدُ(٣)

فقال النبي ـ ﷺ ـ: «صَدَقَ»(٤).

وهذا إسنادٌ جيِّدٌ. وهو يقتضي أن حمَلَة العرش اليومَ أربعة، فإذا كان يومُ القيامة كانوا ثمانيةً، كما قال تعالى: ﴿ ويحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ ﴾.

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمعُ بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث، وبين الحديث الذي رواه أبو داود:

حدثنا محمدُ بن الصباح البزَّازُ؛ حدثنا الوليد بن أبي ثَور، عن سِماكٍ، عن عبد الله بن عَميرة، عن الأحنف بن قَيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنتُ بالبطحاء في عِصابةٍ فيهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَمرَّت بهم سحابةٌ، فنظر إليها فقال: ما تُسَمُّون هذه؟ قالوا: السحابَ. قال: «والمُزنَ»؟ قالوا: والمُزنَ، قال: «والعَنَان»؟. قالوا: والعَنَان ـ قال أبو داود: ولم أُتقِن العَنان جيداً ـ قال: هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاثٌ وسبعون سنةً، ثم السماء فوقَها كذلك، حتى عَدّ سبعَ سمواتٍ. ثم فوقَ [السماء] السابعة بحرٌ ماءٍ، أسفلُه وأعلاهُ مثلُ بين سماء إلى سماء، ثم فَوق ذلك ثمانية أَوْعَال، بين أظلافِهِنَّ ورُكَبِهِنَّ مثلُ ما بين سَماءٍ إلى سماءٍ، ثم على ظُهورِهِنَّ العرشُ بين أسفله وأعلاه مثلُ ما بين سماءٍ إلى سماءٍ، ثم الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ فوقَ ذلك»(*).

ثم رواه أبو داود والترمذيُّ وابنُ ماجه، من حديثِ سِمَاكِ بن حَرْبٍ، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ غريبٌ»(٥).

---

(١) مسلم، كتاب الذكر ٤/٢٠٩٤.

(٢) البيت في خزانة الأدب ١/٢٤٨، ويقول البغدادي عن محمد بن حبيب: «يقال: إن حملة العرش ثمانية: رَجُل، وثور، ونَسْر، وأَسَد. . .) ثم يقول ابن حبيب: (ويلغني لكل مَلَكٍ منهم أربعة وجوه: وجهُ رجلٍ، ووجهُ ثورٍ، ووجهُ أسدٍ، ووجهُ نَسرٍ).

(٣) للشطر الأول رواية أخرى في الشعر والشعراء ١/٤٦٠، وهي:

ليست بطالعة لهم في رِسْلِها ... إلا مُعذَّبةً وإلا تُجْلَدُ

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٢٥٦.

(٥) سنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الحاقة ١٢/٢١٧ـ٢١٩، وابن ماجه، المقدمة ١/٦٩.

وهذا يقتضي أن حَملة العرش ثمانيةٌ، كما قال شَهر بن حَوشب: حَملةُ العرشِ ثمانيةٌ، أربعةٌ يقولون: «سُبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمدُ على حِلْمِكَ بعد عِلْمِك». وأربعة يقولون: «سُبحانك اللهُمَّ وبحمدِك، لكَ الحمدُ على عفوِك بعد قُدرتِك».

ولهذا يقولون إذا استغفَرُوا للذين آمنوا: ﴿ رَبَّنا وَسِعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً ﴾، أي: إن رحمتَك تَسَعُ ذُنوبَهم وخطاياهم، وعِلْمَك مُحيطٌ بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿ فاغفِر للذين تابوا واتبعُوا سَبِيلَكَ ﴾، أي: فاصفَح عن المُسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعُوا عمَّا كانُوا فيه، واتَّبعوا ما أمرتَهم به، من فعلِ الخيراتِ وَتَرْكِ المُنكرات، ﴿ وقِهِم عذابَ الجحِيم ﴾، أي: وزَحْزِحهُم عن عذابِ الجَحِيم، وهو العذابُ الموجعُ الأليم. ﴿ رَبَّنا وأَدخِلْهم جناتِ عَدْنٍ التي وَعدتَّهم ومن صَلَح من آبائهم وأزواجِهم وذُرِّياتهم ﴾، أي: اجمع بينهم وبينَهم ،لتقرَّ بذلك أعينُهم بالاجتماع في منازلَ مُتجاورةٍ، كما قال: ﴿والذين آمنوا وأتبعناهم ذُرِّيَّاتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذُرِّيَّاتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[1]، أي: ساوينا بين الكُلِّ في المنزلة، لِتَقرَّ أعينهم، وما نَقصنا العاليَ حتى يُساويَ الداني، بل رفعنا ناقصَ العمل، فساويناه بكثيرِ العَمَلِ، تَفضُّلاً ومِنَّةً.

قال سعيدُ بن جُبَير: إنَّ المؤمن إذا دَخَلَ الجنَّةَ سَأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغُوا طبقتك في العَمل. فيقول: إني إنما عَمِلت لي ولهم. فَيُلحَقُونَ به في الدَّرَجَةِ، ثم تلا سعيدُ بن جُبير هذه الآية: ﴿ رَبَّنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومَن صَلَح من آبائهم وأزواجِهم وذُرِّياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾.

قال مُطرِّفُ بنُ عبدِ الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تَلَا هذه الآية: ﴿ رَبَّنا وأدخِلْهم جناتِ عدن التي وَعدتَّهم ﴾. وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ[2].

وقولُهُ: ﴿إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾، أي: الذي لا تُمانَع ولا تُغالَب، وما تَشَأْ كانَ وما لم تَشَأْ لم يكُن، الحكيمُ في أقوالِكَ وأفعالِك، من شَرْعِك وقَدَرِك.

﴿ وقِهِمُ السيئاتِ ﴾، أي: فِعْلَها أو وَبالها مِمَّن وَقَعت منه، ﴿ ومَن تَقِ السيئاتِ يومئذٍ ﴾ أي: يومَ القيامةِ، ﴿ فقد رَحِمتَه ﴾، أي: لَطَفت به ونَجَّيته من العُقوبةِ، ﴿ وذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم يُنادَون يومَ القيامة وهُم في غمرات النيرانِ يَتلظَّون، وذلك عندما باشروا من عذابِ الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، فَمَقَتُوا عند ذلك أنفُسَهم وأبغضُوها غايةَ البُغض، بسبب ما أسلَفُوا من

(١) هذه قراءة أبي عَمْرو، وهو نص مخطوطة الأزهر، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٧٣.
(٢) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حُميد، الدرّ المنثور ٧/٢٧٦.

الأعمالِ السيِّئةِ، التي كانت سَبَبَ دُخولِهم إلى النار: فأخبرتهم الملائكةُ عند ذلك إخباراً عالياً نادَوهم نداءً بأنْ مَقْتَ الله لهم في الدنيا حين كان يُعرَضُ عليهم الإيمان، فيكفرون ـ أشدُّ من مَقْتِكم ـ أيها المُعذَّبون ـ أنفُسَكم اليومَ في هذه الحالة.

قال قتادةُ في قوله: ﴿ لَمَقتُ الله أكبرُ من مَقتِكم أنفسَكم إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفُرُون ﴾، يقول: لَمقتُ الله أهلَ الضَّلالة حين عُرِض عليهم الإيمانُ في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مَقتوا أنفُسَهم حين عايَنُوا عذابَ الله يوم القيامة(١). وهكذا قال الحسنُ البصري، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وذَرُّ بن عَبْدِ الله الهَمْدانِيُّ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، وابنُ جَرير الطَّبريُّ، رَحمهم الله.

وقولُهُ: ﴿ قالوا رَبَّنا أَمَتَّنا اثنتَين وأحيَيتنا اثنتَينِ ﴾، قال الثَّورِيُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن ابن مَسعُودٍ: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كيفَ تكفُرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكُم ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه تُرجَعُون ﴾. وكذا قال ابنُ عباس، والضحَّاك، وقتادةُ، وأبو مالك. وهذا هو الصوابُ الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْيَةَ.

وقال السُّدِّيُّ: أُميتُوا في الدنيا ثم أُحيُوا في قُبورهم فَخُوطِبُوا، ثم أُميتُوا ثم أُحيُوا يوم القيامة. وقال ابنُ زيد: أُحيُوا حين أخذ عليهم الميثاق من صُلبِ آدم، ثم خَلَقَهم في الأرحام، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة(٢).

وهذان القولان ـ من السُّدِّيِّ، وابن زيدٍ ـ ضعيفانِ؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قولُ ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصودُ من هذا كلِّه أن الكُفَّار يسألون الرجعَةَ وهم وقوفٌ بين يدَيِ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في عرَصاتِ القيامة، كما قال: ﴿ ولو ترى إذِ المجرمُون ناكسُوا رءوسِهم عند ربِّهم ربنا أَبْصرنا وسَمِعنَا فارجِعنا نعمَلْ صالحاً إنا مُوقِنُون ﴾، فلا يجابون. ثم إذا رأَوُا النار وعاينُوها ووقَفُوا عليها، ونظرُوا إلى ما فيها من العذاب والنَّكالِ، سألُوا الرجعَةَ أشدَّ مما سألوا أوَّلَ مرَّةٍ، فلا يجابُونَ، قال الله تعالى: ﴿ ولو تَرَى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾. فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسَّها وحَسِيسَها ومقامِعَها وأغلالها، كان سُؤالُهم للرجعةِ أشدَّ وأعظمَ، ﴿وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرِجنا نعمَلْ صالحاً غير الذي كنا نعمَلُ أوَلَم نُعمِّركم ما يَتذكَّرُ فيه من تذَكَّر وجاءَكم النذير فذُوقوا فما للظالمين من نَصير ﴾، ﴿ رَبَّنا أخرِجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون * قال اخسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمونِ ﴾، وفي هذه الآية الكريمة تلَطَّفُوا في السؤال، وقَدَّموا بين يدَي كلامهم مُقدِّمَةً، وهي قولهم: ﴿ رَبَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾، أي: قدرتُك عظيمةٌ، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمَتَّنا ثم أحييتَنا، فأنت قادرٌ على ما تَشاء، وقد اعترفنا بذُنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفُسِنا في الدار الدنيا، ﴿ فهل إلى خُروجٍ من سبيلٍ ﴾، أي: فهل أنت مُجيبنا إلى أن تُعيدَنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادرٌ على ذلك، لنعمَلَ غير الذي كنا نعمَلُ، فإن عُدنا إلى ما كُنَّا فيه فإنا ظالمون. فأُجيبُوا أن لا سبيلَ إلى عَوْدِكم ومرجِعكم إلى الدار الدنيا. ثم عَلَّلَ المنع من ذلك بأن سَجاياكُم لا تقبلُ الحقَّ ولا تَقتضِيه بل تَجحَده وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلكُم بأنه إذا دُعِيَ الله وحدَه كفرتُم وإن يُشرَكْ به تُؤمِنُوا ﴾، أي: أنتم هكذا تكونُونَ، وإن رُدِدتُم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذِبون ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٤٦.
(٢) أخرج القولين الطبري ٢٤/٤٨.

وقولُهُ: ﴿ فالحكمُ لله العليِّ الكبير ﴾، أي: هو الحاكمُ في خلْقِه، العادلُ الذي لا يجورُ، فيهدِي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَرْحَمُ من يشاء، ويُعَذِّب من يشاء، لا إلَه إلا هو.

وقولُهُ: ﴿ هُو الذي يُريكم آياته ﴾، أي: يُظهر قدرتَه لِخَلْقِه بما يشاهِدُونه في خلْقِه العُلوي والسُفلي من الآياتِ العظيمةِ الدالَّة على كمالِ خالقها ومُبدِعها ومُنشِئها، ﴿ ويُنزِّل لكم من السماء رزقاً ﴾، وهو المطر الذي يَخرُج به من الزُروع والثمار ما هو مُشاهَدٌ بالحِسِّ، من اختلاف ألوانه وطُعومِه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماءٌ واحدٌ، فبالقدرة العظيمة فاوتَ بين هذهِ الأشياءِ، ﴿ وما يتذكَّر ﴾، أي: يعتبر ويتفكَّر في هذه الأشياءِ ويستدِلُّ بها على عَظَمةِ خالقها ﴿ إلا من يُنِيب ﴾، أي: مَنْ هو بَصِيرٌ مُنِيبٌ إلى الله عَزَّ وجَلَّ.

وقولُهُ: ﴿ فادعُوا الله مُخلِصينَ له الدينَ ولو كَرِه الكافرون ﴾، أي: فأخلِصُوا لله وحدَه العبادَة والدُّعاء، وخالِفُوا المشركين في مَسْلَكِهم ومَذْهَبِهم.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا هشام ـ يعني ابن عُروَة بن الزبير ـ عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تَدْرُس المكيّ قال: كان عبدُ الله بن الزبير يقولُ في دُبُر كلِّ صلاة حين يُسلِّم: «لا إلَه إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، لا إلَه إلا الله، ولا نعبدُ إلا إيَّاه، له النعمةُ وله الفَضْلُ، وله الثناءُ الحَسَنُ، لا إلَه إلا الله، مُخلِصِينَ له الدِّينَ ولو كَرِه الكافرون». قال: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُهَلِّلُ بهنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ[1].

ورواه مُسلم وأبو داودَ والنسائيُّ، من طُرُق، عن هشام بن عُروَةَ، وحجَّاج بن أبي عثمانَ، ومُوسَى بن عُقبَةَ، ثلاثتهم عن أبي الزُّبير، عن عبدِ الله بن الزُّبير قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ في دُبُر الصلاة: «لا إلَه إلا الله، وحده لا شريك له». . . . وذكر تمامه[1].

وقد ثَبَت في الصَّحيح عن ابن الزُبير: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقول عَقِب الصَّلَواتِ المكتُوبات: «لا إلَه إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قدير. لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، لا إلَه إلا الله ولا نعبدُ إلا إياه، له النعمةُ وله الفضلُ، وله الثناءُ الحسنُ، لا إلَه إلا الله مخلصين له الدينَ ولو كَرِه الكافرون».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الرَّبيعُ، حدثنا الخَصِيبُ بنُ ناصح، حدثنا صالح ـ يعني المُرِّيَّ ـ عن هِشام بن حَسَّانَ، عن ابن سيرينَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «ادعُوا الله وأنتم مُوقِنُون بالإجابةِ، واعلَمُوا أن الله لا يَستجِيبُ دعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ لاهٍ».

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى عن عَظَمته وكبريائه، وارتفاع عَرشِه العظيم العالي على جَمِيع مخلوقاته كالسقف لها، كما

---

(١) مسند أحمد ٤/٤، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤١٥ ـ ٤١٦، وأبو داود، كتاب الوتر ٢/٨٢ ـ ٨٣، والنسائي، كتاب السهو ٣/٦٩ ـ ٧٠.

قال تعالى: ﴿ من الله ذِي المعارجِ ۞ تعرُج الملائكةُ والروحُ إليه في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ ﴾، وسيأتي بيانُ أنّ هذه مسافةَ ما بين العَرْشِ إلى الأرض السابعةِ، في قول جماعةٍ من السلف والخلف، وهو الأرجحُ إن شاء الله. وقد ذَكر غيرُ واحد أنَ العرشَ من ياقوتةٍ حمراءَ، اتساعُ ما بين قُطرَيه مسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وارتفاعُه عن الأرض السابعةِ مسيرةُ خمسين ألف سنة. وقد تقدَّم في حديث «الأوعال»(١) ما يدلُّ على ارتفاعه عن السَّمٰواتِ السبع بشيءٍ عظيم.

وقولُهُ: ﴿يُلقي الروحَ من أمرِه على مَن يشاء مِن عباده ﴾، كقوله تعالى: ﴿ يُنزِّل الملائكَة بالرُّوح من أمرِه على من يشاءُ من عباده أَن أنذِرُوا أنه لا إلَه إلاّ أنا فاتقونِ ﴾. وكقوله: ﴿ وإنه لتنزيل ربِّ العالمين ۞ نزل به الروحُ الأمينُ ۞ على قلبك لتكونَ مِن المنذرِين﴾. ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يومَ التلاقِ﴾، قال علي بن أبي طلحَة، عن ابن عباس: يومُ التلاق اسمٌ من أسماءِ يوم القيامة، حَذَّر منه عباده. وقـال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدمُ وآخرُ وَلده. وقال ابن زيد: يلتقِي فيه العبادُ. وقال قتادة، والسُدِّيُّ، وبلالُ بن سعد، وسُفيان بن عُيَينَة: يلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض. وقال قتادةُ أيضاً: يلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض، والخالق والخَلْقُ. وقال مَيمُون بن مِهرانَ: يلتقي الظالمُ والمظلومُ.

وقد يُقال: إنَّ يوم القيامةِ هو يشمَل هذا كلّه، ويشمل أن كلَّ عاملٍ سَيلقى ما عَمِل من خيرٍ وشرٍّ، كما قاله آخرون.

وقولُهُ: ﴿ يومَ هُم بارِزُونَ ﴾، أي: ظاهرونَ بادُون كلُّهم، لا شيءَ يُكِنُّهم ولا يُظِلُّهم ولا يَسترُهم، ولهذا قال: ﴿ يوم هُم بارِزُون لا يخفَى على الله مِنهُم شيءٌ ﴾، أي: الجميعُ في عِلْمِه على السواء.

وقولُهُ: ﴿ لمن الملكُ اليومَ لِلهِ الواحدِ القهَّار ﴾ قد تَقدَّم في حديثِ ابنِ عُمَر أنه تعالى يَطْوِي السمواتِ والأرضَ بيده، ثم يقول: أنا الملكُ، أنا الجبَّار، أنا المتكبِّر، أين مُلوكُ الأرض؟ أين الجَبَّارون؟ أين المُتكبِّرون(٢)؟ وفي حديث الصُور: أنه تعالى إذا قبض أرواحَ جميع خَلْقِهِ، فلم يبقَ سواه، وحدَه لا شريكَ له، حينئذٍ يقولُ: لِمَنِ الملكُ اليـومَ؟ ثلاثَ مَرَّاتٍ، ثم يُجِيبُ نفسَه قائلاً: ﴿ لِلّهِ الواحدِ القَهَّارِ ﴾، أي: الذي هو وحدَه قد قَهر كُلَّ شيءٍ وغلَبه(٣).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقّاق، حدثنا عُبَيد بن عَبِيدَةَ(٤)، حدثنا مُعتَمِر، عن أبيه، حدثنا أبو نَضْرَةَ، عن ابن عباس قال: يُنادِي منادٍ بين يدَي الساعةِ: يا أيها الناس، أتتكُم الساعةُ. فَيسمَعُها الأحياءُ والأمواتُ، قال: وَيَنزِل الله إلى سماءِ الدنيا ويقول: ﴿ لمن الملكُ اليومَ لله الواحدِ القَهّار ﴾(٥).

وقولُهُ: ﴿ اليوم تُجزَى كلُّ نفس بما كَسَبت لا ظُلم اليومَ إن الله سريعُ الحسابِ ﴾، يُخبرُ تعالى عن عَدْلِه في حُكمِه بين خَلْقِه، أنه لا يَظلِمُ مثقالَ ذَرَّةٍ مِن خيرٍ ولا مِن شَرٍّ، بل يَجزي بالحسنةِ عشرَ أمثالها، وبالسيِّئةِ واحدةً، ولهذا قال: ﴿ لا ظُلمَ اليومَ ﴾. كما ثَبَت في صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ فيما

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية السابعة من هذه السورة.
(٢) تقدم عند تفسير الآية ٦٧ من سورة الزمر.
(٣) تقدم عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٤) كذا ضبطه الدارقطني في المؤتلف والمختلف ١٥١٤/٣.
(٥) أخرجه عبد بن حميد في زوائد الزهد، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية. انظر الدر المنثور ٢٧٩/٧. والمستدرك، تفسير سورة المؤمن ٤٣٧/٢.

يحكي عن ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه قال: «يا عبادِي، إني حَرَّمتُ الظُّلم على نفسي وجَعلته بينكم مُحرَّماً فلا تَظالموا. إلى أن قال: يا عبادِي، إنما هي أعمالكم أُحْصِيهَا لكم [ثم أُوَفِّيكم إياها]، فمن وَجَد خيراً فلْيحمَدِ الله، ومَن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه»(١).

وقولُهُ: ﴿ إن الله سريعُ الحساب ﴾، أي: يُحاسِب الخلائقَ كُلَّهم، كما يُحاسِب نفساً واحدةً، كما قال: ﴿ ما خلْقُكم ولَا بعثُكم إلا كنفسٍ واحدةٍ ﴾، وقال: ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلَمْحٍ بالبَصَرِ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يومُ الآزِفَةِ هو اسمٌ من أسماء يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ليس لها من دُونِ الله كاشفةٌ ﴾ وقال: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾: وقال: ﴿ اقترب للناس حِسَابُهم ﴾، وقال: ﴿ أَتى أمرُ الله فلا تَستعجِلُوه ﴾. وقال: ﴿ فلما رأوه زُلْفَةً سِيئَت وجوهُ الذين كفَرُوا وقيلَ هذا الذي كُنتم به تدَّعون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إذِ القلوبُ لدى الحناجر كاظِمين ﴾، قال قتادةُ: وقَفَت القلوبُ في الحناجرِ من الخوفِ، فلا تخرجُ ولا تعودُ إلى أماكنها. وكذا قال عكرمةُ، والسُّدِّي، وغيرُ واحد. ومعنى ﴿ كاظمين ﴾، أي: ساكِتِين، لا يتكلَّم أحدٌ إلا بإذنِهِ: ﴿ يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفّاً لا يتكلَّمون إلا مَن أَذِن له الرحمنُ وقال صَواباً ﴾. وقال ابن جريج: ﴿ كاظمين ﴾، أي: باكِين.

وقولُهُ: ﴿ ما للظالمين من حَميم ولا شفيع يطاع ﴾، أي: ليس للذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالشركِ باللَّهِ من قريبٍ منهم ينفعُهم، ولا شَفِيع يشفَعُ فيهم، بل قد تَقَطَّعت بهم الأسبابُ من كلِّ خيرٍ.

وقولُهُ: ﴿ يعلَمُ خائنةَ الأعيُن وما تُخفِي الصدُور ﴾، يخبر تعالى عن عِلْمِه التامِّ المحيطِ بجميعِ الأشياء، جليلِها وحقيرِها، صَغيرِها وكَبيرِها، دَقيقِها ولَطِيفِها، ليحذَرَ الناسُ عِلْمَه فيهم، فَيَستحْيُوا من الله حَقَّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حقَّ تَقواه، ويراقبوه مُراقبةَ مَن يعلَمُ أنه يَراه، فإنه تعالى يعلَمُ العينَ الخائنةَ وإن أبدَت أمانةً، ويعلَمُ ما تَنطوي عليه خبايا الصُّدُورِ من الضمائرِ والسَّرائرِ.

قال ابن عباسٍ في قوله: ﴿ يعلَمُ خائنة الأعيُن وما تُخفِي الصدورُ ﴾: وهو الرجلُ يدخلُ على أهلِ البيتِ بيتهم، وفيهم المرأةُ الحسناءُ، أو تمرُّ به وبهم المرأةُ الحسناءُ، فإذا غَفَلوا لحظَ إليها، فإذا فَطِنوا غَضَّ بَصَره عنها، فإذا غَفَلوا لَحَظ، فإذا فَطِنوا غَضَّ. وقد اطَّلَع الله من قلبِه أنه وَدَّ لو اطَّلع على فَرْجِها. رواه ابن أبي حاتم(٢).

وقال الضحَّاكُ: ﴿خائنةَ الأعين﴾: هو الغمزُ. وقولُ الرجل: رأيتُ. ولم يَرَ. أو: لم أَرَ. وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم تعالى من العين في نَظَرِها، هل تُرِيد الخيانةَ أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

---

(١) مسلم، كتاب البر ٤/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥.
(٢) الدرّ المنثور ٧/٢٨٢. وأخرجه ابن أبي شيبة في مُصَنَّفه ٤/٢/٣٢٧.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ وما تَخفي الصدورُ ﴾، يعلم إذا أنْتَ قَدرتَ عليها هل تَزْني بها أم لا؟ وقال السُّدِّيُّ: ﴿ وما تخفي الصدورُ ﴾، أي: من الوسوسة.

وقولُهُ: ﴿ واللَّهُ يقضي بالحقِّ ﴾، أي: يحكم بالعدل. وقال الأعمش: عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ والله يَقضِي بالحقِّ ﴾: قادرٌ على أن يجزِيَ بالحسنةِ الحسنةَ، وبالسيئةِ السيئةَ ﴿ إن الله هو السميعُ البصيرُ ﴾.

وهذا الذي فَسَّر به ابنُ عباس في هذه الآية كقولِهِ تعالى: ﴿ لِيجزِيَ الذين أساءُوا بما عَمِلُوا ويَجزِيَ الذين أحسَنُوا بالحسنى ﴾.

وقولُهُ: ﴿ والذين يَدعُون مِن دُونه ﴾، أي: من الأصنام والأوثانِ والأنداد، ﴿ لا يقضُون بشيءٍ ﴾، أي: لا يَملِكُون شيئاً ولا يَحكُمُون بشيءٍ، ﴿ إن الله هو السميعُ البصيرُ ﴾، أي: سَميعٌ لأقوال خَلْقِهِ، بَصِيرٌ بهم، فَيهدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء، وهو الحاكمُ العادِلُ في جَميع ذلك.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى: أَوَلَم يَسِر هؤلاء المكذِّبون برسالتك يا محمدُ، ﴿ فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا مِن قَبلِهم ﴾، أي: من الأُمَمِ المُكَذِّبة بالأنبياءِ، ما حَلَّ بهم مِن العذاب والنَّكال، مع أنهم كانُوا أشدَّ مِن هؤلاءِ قُوَّةً، ﴿ وآثاراً في الأرضِ ﴾، أي: أَثَّروا في الأرضِ من البناياتِ والمعالم والدِّيارات، ما لا يقدر هؤلاء عليه، كما قال: ﴿ ولقد مَكَّناهم فيما إن مكناكُم فيه ﴾، وقال: ﴿ وأثاروا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ مما عَمَرُوها ﴾، أي: ومع هذه القُوَّةِ العظيمةِ والبأسِ الشديدِ أخذَهُم الله بذُنُوبهم، وهي كفرُهم برُسلهم، ﴿ وما كانَ لهم مِن الله مِن واقٍ ﴾، أي: وما دَفَع عنهم عذابَ الله أحدٌ، ولا رَدَّه عنهم رادٌّ، ولا وقاهُم واقٍ.

ثم ذكر عِلَّةَ أَخْذِه إيَّاهم وذُنُوبهم التي ارتكبوها واجترَمُوها، فقال: ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهُم رُسُلهم بالبيِّناتِ ﴾ أي: بالدلائلِ الواضحاتِ والبراهينِ القاطعاتِ، ﴿ فكَفَرُوا ﴾، أي: مع هذا البيانِ والبرهانِ كَفَرُوا وجَحَدُوا، ﴿ فأخذَهُم الله ﴾، أي: أهلكهم ودَمَّر عليهم وللكافرين أمثالُها، ﴿ إنه قويٌّ شَديدُ العقابِ ﴾، أي: ذُو قُوَّةٍ عظيمةٍ وبطشٍ شَديدٍ، ﴿ وهو شديدُ العِقابِ ﴾، أي: عقابُه أليمٌ شديدٌ وَجِيعٌ. أعاذنا الله منه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُسَلِّياً لنبيِّه ـ ﷺ ـ في تكذيبِ مَن كَذَّبه من قومه، ومُبَشِّراً له بأن العاقبةَ والنصرةَ له في الدنيا

والآخرة، كما جَرَى لموسى بن عِمرانَ، فإنَّ الله تعالى أرسلَه بالآياتِ البيِّناتِ، والدلائِل الواضحاتِ. ولهذا قال: ﴿ بآياتنا وسُلطان مبين ﴾ ـ والسلطان هو: الحُجة والبرهان ـ ﴿ إلى فرعونَ ﴾ وهو: مَلِك القِبط بالديار المصرية، ﴿ وهامان ﴾، وهو: وَزيرُه في مملكته، ﴿ وقارونَ ﴾، وكان أكثرَ الناس في زمانه مالاً وتجارةً ﴿ فقالوا ساحرٌ كذَّابٌ ﴾، أي: كَذَّبوه وجَعَلوه ساحراً مُمَخرِقاً مُموِّهاً كذاباً في أن الله أرسلَه. وهذه كقوله: ﴿ كذلك ما أتَى الذين مِن قَبلِهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصَوْا بِهِ بل هُم قومٌ طاغُون ﴾.

﴿ فلما جاءهم بالحقِّ مِن عندنا ﴾، أي: بالبُرهان القاطع الدالِّ على أن الله تعالى أرسلَه إليهم، ﴿ قالوا اقتلُوا أبناءَ الذين آمنوا معه واستحيُوا نِساءَهم ﴾. وهذا أمرٌ ثانٍ من فِرْعَون بقتل ذُكُورِ بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجلِ الاحترازِ من وُجودِ موسى، أو لإذلالِ هذا الشعبِ وتقليلِ عَدَدِهم، أو لمجمُوعِ الأمرَين. وأما الأمر الثاني فَلِلعلَّةِ الثانيةِ، لإهانة هذا الشعب، ولكي يَتَشاءَمُوا بموسى ـ عليه السلام ـ. ولهذا قالوا: ﴿ أُوذِينا من قبل أن تأتِيَنا ومِن بَعدِ ما جئتنا قال عَسَى رَبُّكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيفَ تعملُون ﴾. قال قتادة: هذا أمرٌ بعد أمرٍ.

قال الله تعالى: ﴿ وما كيدُ الكافرين إلا في ضَلَالٍ ﴾، أي: وما مكرُهم وقصدُهم الذي هو تقليلُ عددِ بني إسرائيلَ لئلا يُنصَروا عليهم، إلا ذاهبٌ وهالِكٌ في ضَلَالٍ.

﴿ وقال فرعون ذَرُوني أَقتُلْ موسَى وَلْيَدْعُ ربَّه ﴾: وهذا عَزْمٌ من فِرْعَون ـ لَعنَه الله ـ على قَتلِ مُوسى ـ عليه السلام ـ أي: قال لقومه: دَعُوني حتى أقتُلَ لكم هذا، ﴿ وَلْيَدْعُ ربَّه ﴾، أي: لا أُبالِي منه. وهذا في غايةِ الجَحْدِ والتَّجهرُم والعناد.

وقوله ـ قَبَّحه الله ـ: ﴿ إني أخاف أن يُبَدِّل دينكم أو أن يُظهِرَ في الأرضِ الفسادَ ﴾، يعني موسى، يخشَى فِرْعَونُ أن يُضِلَّ موسى الناسَ ويُغيِّرَ رُسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فِرْعَون مُذكِّراً»، يعني: واعظاً، يُشفِق على الناسِ من مُوسَى عليه السلام.

وقرأ الأكثرون: ﴿ أن يُبَدِّل دِينَكم وأن يُظهِرَ في الأرضِ الفسادَ ﴾[1]. وقرأ آخرون: ﴿ أو أن يُظهِرَ في الأرضِ الفسادَ ﴾[2]. وقرأ بعضُهم: ﴿ يَظهَرَ في الأرض الفسادُ ﴾، بالضم[2].

وقال موسى: ﴿ إني عُذتُ بربِّي وربِّكم من كلِّ مُتكبِّر لا يُؤمِنُ بيومِ الحساب ﴾، أي: لما بلغه قولُ فِرعَونَ: ﴿ ذَرُوني أقتل موسى ﴾، قال موسى: استجرتُ بالله وعُذتُ به من شَرِّه وشرِّ أمثاله. ولهذا قال: ﴿ إني عُذتُ بربِّي وربكم ﴾، أيها المخاطبون، ﴿ من كلِّ مُتكبِّر ﴾، أي: عن الحقِّ، مُجرِم، ﴿ لا يؤمِنُ بيوم الحسابِ ﴾. ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهُم، إنا نعوذُ بك من شُرُورِهم، ونَدْرأ بك في نُحُورِهم»[3].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) هذه قراءة الكوفيين، وقرأ باقي السبعة بواو النسق، انظر الإقناع لابن الباذش ٧٥٣/٢.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص ﴿ يُظهِرَ ﴾ بضم الياء وكسر الهاء، و﴿ الفسادَ ﴾ بالنصب. وقرأ الباقون ﴿يَظهَرَ﴾ بفتح الياء والهاء ﴿ الفسادُ ﴾ بالرفع على الفاعلية. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٥٣/٢.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الوتر ٨٩/٢، والإمام أحمد في مسنده ٤١٤/٤ ـ ٤١٥.

﴿لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

المشهورُ أن هذا الرجلَ المؤمنَ كان قِبطياً من آل فِرْعَونَ. قال السُّدِّيُّ: كان ابنَ عَمِّ فِرْعَون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى. واختاره ابنُ جرير، وَرَدَّ قولَ من ذَهَب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فِرْعَون انفعَلَ لكلامِه واستمعه، وكفَّ عن قَتْلِ مُوسى ـ عليه السلام ـ ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يُعاجَلَ بالعقوبة، لأنَّه منهمُ.

وقال ابنُ جُرَيج، عن ابن عباس: لم يُؤمِن من آل فِرعَونَ سوى هذا الرجلِ وامرأةِ فِرْعَون، والذي قال: ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ رواه ابنُ أبي حاتم[١].

وقد كان هذا الرجلُ يكتُم إيمانه عن قومه القِبْطِ، فلم يَظْهَر إلا هذا اليومَ حين قال فرعون: ﴿ ذَرُوني أَقتُل موسى ﴾، فأخذتِ الرجلَ غَضْبَةٌ لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وأفضلُ الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطان جائر»[٢]. كما ثَبت بذلك الحديثُ، ولا أعظمَ من هذه الكلمة عند فِرْعَون، وهي قوله: ﴿ أتقتلون رَجلاً أن يقولَ ربِّي الله ﴾، اللهم إلا ما رواه البخاري في صَحِيحه حيث قال:

حدثنا عليُّ بنِ عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعيّ، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التَّيمي، حدثني عُروةُ بنُ الزُّبَير قال: قلتُ لعبدِ الله بن عَمْرِو بن العاص: أخبِرْني بأشدِّ شيءٍ مما صَنَعه المشركون برسولِ الله ﷺ. قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصلِّي بِفِناء الكعبةِ إذ أقبلَ عُقْبَةُ بنُ أبي مُعَيط، فأخذ بِمَنْكِبِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ولَوَى ثوبَه في عنقه، فَخَنَقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأخذ بِمَنْكِبِه ودَفَع عن النبي ـ ﷺ ـ ثم قال: ﴿ أتقتلُون رَجلاً أن يقولَ ربِّي الله وقد جاءكُم بالبيِّناتِ من ربكم ﴾[٣].

انفردَ به البخاريُّ من حديث الأوزاعي، قال: وتابعهُ مُحَمَّد بن إسحاق، عن يحيى[٤] بن عُروَةَ، عن أبيه، به.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا هارونُ بن إسحاقَ الهمداني، حَدَّثنا عَبْدة، عن هشام ـ يعني ابن عُرْوَة ـ عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِل: ما أشدُّ ما رأيتَ قريشاً بلغُوا من رسولِ الله ﷺ؟ قال: مَرَّ بهم ذاتَ يوم فقالوا له: أنتَ تنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا؟ فقال: أنا ذاك. فقامُوا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر مُحتضِنَه من وَرَائه، وهو يَصيح بأعلى صوته، وإنَّ عينيه لَيَسِيلان، وهو يقولُ: يا قوم، ﴿ أتقتلونَ رَجُلاً أن يقولَ رَبِّي الله وقد جاءكُم بالبيناتِ من ربكم ﴾ حتى فرغ من الآية كلها[٥].

وهكذا رواه النسائيُّ من حديث عَبْدَةَ، فجعله من مسند عَمرو بن العاص رضي الله عنه[٥].

---

(١) الدر المنثور عنه، وعن ابن المنذر ٧/٢٨٤.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٩ من سورة المائدة، وخرجناه هنالك.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة المؤمن ٨/٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٤) في النسخ: «عن كثير بن عروة». والمثبت عن فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/١٦٦ وانظر تحفة الأشراف للمِزِّي ٦/٣٦٢.

(٥) أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/٢٩٧، والحكيم الترمذي، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل. انظر الدرّ المنثور ٧/٢٨٥. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، وأخرجه البخاري تعليقاً في كتاب المناقب، انظر فتح الباري ٧/١٦٦، وتحفة الأشراف للمِزِّي ٨/١٥٥.

وقولُهُ: ﴿ وقد جاءكُم بالبيِّنات من ربِّكم ﴾، أي: كيفَ تقتلُون رَجُلاً لكونِهِ يقول: «رَبِّي اللهُ»، وقد أقام لكم البرهان على صِدق ما جاءكُم به من الحق؟ ثم تَنَزَّل معهُم في المخاطبة فقال: ﴿ وإن يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُه وإن يَكُ صادِقاً يُصِبكم بَعضُ الذي يَعِدكم ﴾، يعني: إذا لم يظهَر لكم صحّةُ ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التامّ والحزم أن تتركُوه ونفسَه، فلا تُؤذوه، فإن يكُ كاذباً فإن الله سيُجازيه على كَذِبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يَكُ صادقاً وقد آذيتموه يُصِبْكُم بعضُ الذي يَعِدُكم، فإنه يَتوعَّدكم إن خالفتموه بعَذابٍ في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكُم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألاّ تتعرضوا له، بل اتركُوه وقومَه يدعُوهُم ويتَّبعونه.

وَهٰكَذَا أخبَر الله عن موسى ـ عليه السلامُ ـ أنه طَلَبَ من فِرعَون وقومِه الموادَعَةَ في قولِهِ: ﴿ ولقد فَتَنَّا قبلَهم قومَ فِرعَونَ وجاءَهُم رسولٌ كريمٌ * أن أدُّوا إليَّ عبادَ الله إنِّي لَكُم رَسولٌ أمينٌ * وأن لا تعلُوا على اللهِ إني آتيكُم بسلطانٍ مُبينٍ * وإني عُذتُ بربِّي وربكم أن تَرجُمونِ * وإن لم تُؤمنُوا لي فاعتزلُونِ﴾، وهكذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ لقُريشٍ أن يتركُوه يدعُو إلى الله عبادَ الله، ولا يَمَسُّوه بسُوءٍ، وأن يَصِلُوا ما بينه وبينهم من القَرابة في تَرْكِ أذيَّتِه، قال الله تعالى: ﴿قُل لا أسألكُم عليه أجراً إلا المودَّة في القُربى﴾، أي: إلا أن تَوَدُّوني فيما بيني وبينَكُم من القَرابةِ، فلا تُؤذُوني وتتركُوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعتِ الهُدنة يوم الحُدَيبية، وكان فَتحاً مُبيناً.

وقولُه: ﴿ إن الله لا يَهدِي مَن هو مُسرِفٌ كذَّابٌ ﴾، أي: لو كان هذا الذي يزعمُ أن الله أرسَلَه إليكم كاذباً كما تزعمُون لكان أمرُه بيِّناً يظهَرُ لكلِّ أحدٍ في أقوالِه وأفعاله، كانت تكونَ في غايةِ الاختلافِ والاضطراب، وهذا نرى أمره سَديداً ومنهجَه مُستقيماً، ولو كان من المسرفين لما هَداه الله، وأرشَده إلى ما تَرون من انتظامِ أمْرِه وفِعْلِه.

ثم قال المُؤمن مُحذِّراً قومَه زَوال نِعْمَةِ الله عنهم، وحُلولَ نِقمةِ الله بهم: ﴿ يا قَومِ لَكُمُ الملكُ اليومَ ظاهرين في الأرض ﴾، أي: قد أنعَم الله عليكم بهذا المُلك والظهورِ في الأرض بالكَلمةِ النافذةِ والجاهِ العريض، فراعُوا هذه النِّعمَةَ بشكرِ الله، وتصديقِ رَسُوله ـ ﷺ ـ، واحذَرُوا نقمةَ الله إنْ كَذَّبتُم رَسُوله، ﴿ فمن يَنصرُنا من بأسِ الله إن جاءنا ﴾، أي: لا تُغني عنكُم هذه الجنودُ وهذه العساكرُ، ولا تَرُدُّ عنا شيئاً من بَأسِ الله إن أرادنا بسُوءٍ.

﴿قال فرعَونُ﴾ لقومِهِ، رَدّاً على ما أشار به هذا الرجلُ الصالحُ البارُّ الراشدُ الذي كانَ أحقَّ بالمُلك من فِرعَونَ: ﴿ما أُريكم إلا ما أرَى﴾، أي: ما أقولُ لكم وأُشِيرُ عليكُم إلا ما أراه لنفسي. وقد كَذَبَ فِرعَونُ، فإنَّه كان يتحقَّق صِدْقَ مُوسَى فيما جاء به من الرِّسالة ﴿قال لقد عَلِمتَ ما أنزلَ هؤلاءِ إلاّ رَبُّ السمواتِ والأرضِ بَصائِرَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحدُوا بها واستيقنَتها أنفسُهم ظُلماً وعُلُوّاً﴾.

فقولُهُ: ﴿ ما أُريكُم إلا ما أرَى ﴾: وافترى، وخان الله ورسوله ورعيَّته، فَغَشَّهم وما نَصَحَهم، وكذا قولُه: ﴿وما أهديكم إلا سبيلَ الرشاد﴾، أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحقِّ والصدق والرُّشدِ وقد كَذَبَ أيضاً في ذلك، وإن كان قومُه قد أطاعُوه واتَّبعُوه، قال الله تعالى: ﴿فاتَّبعُوا أمْرَ فِرعونَ وما أمْرُ فِرعونَ برشيدٍ﴾. وقال تعالى: ﴿وأضلَّ فرعونُ قومَه وما هَدَى﴾: وفي الحديث: «ما من إمامٍ يمُوتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌ لرعيَّتِهِ إلاّ لم يَرح رائحة الجنة، وإنَّ رِيحها لَيُوجَدُ من مَسيرةِ خمسمائةِ عامٍ»[1].

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأحكام ١٢٦/١٣ ـ ١٢٧، ومسلم، كتاب الإيمان ١٢٥/١، والإمام أحمد في مسنده ٢٥/٥.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن هذا الرجلِ الصَّالحِ، مُؤمنِ آلِ فِرْعَونَ: أنه حَذَّرَ قَوْمَهُ بأسَ الله في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ يا قومِ أني أخافُ عليكُم مثلَ يومِ الأحزابِ ﴾، أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حَلّ بهم بأس الله، وما رَدَّه عنهم رادّ، ولا صده عنهم صادّ.

﴿ وما الله يريد ظُلماً للعبادِ ﴾، أي: إنما أهلكهم الله بذُنوبهم، وتكذيبهم رُسُلَه، ومخالفتهم أمرَه. فأنفذ فيهم قَدَرَه، ثم قال: ﴿ ويا قومِ إنّي أخافُ عليكم يوم التَّنادِ ﴾، يعني: يومَ القيامةِ. وسُمّي بذلك، قال بعضهم: لما جاء في حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلَت وانشقَّت من قُطرٍ إلى قُطرٍ، وماجت وارتجَّت، فَنظَرَ الناسُ إلى ذلك، ذَهَبُوا هَارِبينَ يُنَادي بعضُهم بعضاً.

وقال آخرون، مِنهم الضحَّاكُ: بل ذلك إذا جِيءَ بجهنَّمَ ذَهَبَ الناسُ هِرَاباً، فتتلقاهُم الملائكة فَتردُّهم إلى مقام المحشر، وهو قولُه تعالى: ﴿ والملك على أرجائها ﴾ وقولـه: ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنِ استطعتُم أن تَنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفُذوا لا تَنفذُون إلا بِسُلطانٍ ﴾.

وقد رُوِي عن ابن عباس، والحَسن، والضحَّاكِ أنَّهم قرأوا: ﴿يومَ التنادّ﴾، بتشديد الدال[١]، من نَدَّ البعيرُ: إذا شَرَد وذَهَبَ.

وقيل: لأن الميزانَ عنده مَلَكٌ، وإذا وُزِنَ عَمَلُ العبدِ فَرجحَ نادَى بأعلَى صَوتِهِ: ألا قد سَعِدَ فلانُ بنُ فلانٍ سعادةً لا يشقَى بعدَها أبداً. وإن خَفَّ عَمَلُهُ نادَى: ألا قد شَقِيَ فلانُ بن فلان.

وقال قتادةُ: يُنادَى كلُّ قومٍ بأعمالهم: يُنادِي أهلُ الجنة أهلَ الجنة، وأهلُ النارِ أهلَ النارِ.

وقيل: سُمّي بذلك لمناداة أهل الجنةِ أهلَ النار: ﴿أن قد وَجَدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً فهل وجدتُم ما وَعَد ربكم حقاً قالوا نعم﴾. ومناداة أهل النار أهلَ الجنة: ﴿أن أَفِيضُوا علينا من الماءِ أو ممَّا رزَقكُم الله قالوا إنَّ الله حَرَّمهما على الكافرين﴾. ولمناداة أصحاب الأعرافِ أهلَ الجنة وأهلَ النار، كما هو مذكورٌ في سُورَةِ الأعراف.

واختارَ البغويُّ[٢] وغيرُه: أنه سُمّي بذلك لَمجموع ذلك. وهو قولٌ حَسَنٌ جيّدٌ، والله أعلم.

وقوله: ﴿ يوم تُولُّون مدبرين ﴾، أي: ذاهبين هاربين، ﴿كلاَّ لا وَزَر * إلى ربِّك يومئذٍ المُسْتقَرّ﴾: ولهذا قال: ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾، أي ما لكم من مانع يَمنعكم من بأسِ الله وعذابه، ﴿ومن يُضلِلِ الله فما له من هَادٍ﴾، أي: من أضلَّه فلا هاديَ له غيرُه.

(١) أخرجها الطبري ٢٤/٦١، والألوسي ٢٤/٦٧. (٢) تفسير البغوي ٤/٩٧.

وقولُه: ﴿ ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبيِّناتِ ﴾، يعني: أهلَ مصرٍ، قد بعثَ الله فيهم رَسُولاً من قَبْلِ موسى، وهو يوسفُ ـ عليه السلام ـ كان عزيزَ أهلِ مصر، وكان رسولاً يدعُو إلى الله أمته القِبطَ، فما أطاعُوه تلك الساعةَ إلا لمجرَّد الوزارةِ والجاه الدُنيوي. ولهَذا قال: ﴿فما زلتم في شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قلتُم لن يبعَثَ الله مِن بعدِه رَسُولاً﴾، أي: يَئِستُم فقلتُم طامعين: ﴿لن يبعَثَ الله مِن بَعدِه رَسُولاً﴾، وذلك لِكُفرِهم وتكذيبِهم، ﴿وكذلك يُضِلُّ الله مَن هو مُسرفٌ مُرتابٌ﴾، أي: كَحالِكم هذا يكونُ حالُ مَن يُضِلّه الله لإسرافِهِ في أفعالِه وارتيابِ قلبِه.

ثم قال: ﴿ الذين يُجادِلُون في آياتِ الله بغير سُلطانٍ أتاهم ﴾، أي: الذين يدفَعُون الحقَّ بالباطل، ويجادِلُون الحُجَج بغير دليلٍ وحُجَّةٍ معهم من الله، فإن الله يمقُت على ذلك أشدَّ المقتِ. ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُر مقتاً عندَ الله وعندَ الذين آمنوا﴾، أي: والمؤمنون أيضاً يُبغِضُون من تكونُ هذه صِفَته، فإنَّ مَن كانت هذه صِفَتَه يَطبعِ الله على قَلبِهِ، فلا يعرف بعد ذلك مَعْروفاً، ولا يُنكِر مُنكَراً. ولهذا قال: ﴿كذلك يطبَعُ الله على كلِّ قلبِ مُتكبِّرٍ﴾، أي: على اتباعِ الحقِّ ﴿جبَّارٍ﴾.

وروى ابنُ أبي حاتم، عن عكرمةَ، وحُكِي عن الشعبي، أنهما قالا: لا يكونُ الإنسانُ جبَّاراً حتى يقتل نفسَين. وقال أبو عمران الجَونيُّ، وقتادةُ: آية الجبابرة القتلُ بغير حقٍّ.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعونَ وعتُوِّه، وتمرُّده وافترائه، في تكذيبه موسى ـ عليه السلام ـ: أنه أمَر وزيرَه هامانَ أن يبنيَ له صَرْحاً، وهو: القصر العالي المُنيفُ الشاهِقُ. وكان اتخاذُه من الآجرِّ المضرُوبِ من الطِّين المشويِّ، كما قال: ﴿ فأوقِدْ لي يا هامانُ على الطِّين فاجعَل لي صَرْحاً ﴾. ولهذا قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرَهُون البناءَ بالآجرِّ، وأن يجعلوه في قُبُورِهم. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُهُ: ﴿لعلّي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السمواتِ﴾، قال سعيد بن جُبَير، وأبو صالح: أبوابَ السموات. وقيل: طُرُقَ السموات، ﴿فأطَّلِعَ إلى إلَهِ مُوسَى وإنّي لأظنُّه كاذِباً﴾، وهذا من كُفرِه وتمرُّدِه، أنه كَذَّب موسى في أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وكذلك زُيِّنَ لِفرعَونَ سُوءُ عَملِه وصُدَّ عن السبيلِ﴾، أي: بِصَنيعه هذا الذي أرادَ أن يُوهِم به الرعيَّةَ أنه يعمَلُ شيئاً يتوصَّل به إلى تكذيبِ مُوسى ـ عليه السلام ـ ولهذا قال تعالى: ﴿وما كيدُ فِرْعَونَ إلا في تَبابٍ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: يعني إلا في خَسارٍ.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ المؤمن لقومه ممن تمرَّد وطغَى وآثر الحياةَ الدنيا، ونسِيَ الجبَّار الأعلى، فقال لهم: ﴿ يا قومِ اتَّبِعُونِ أهدِكم سبيلَ الرشادِ ﴾، لا كما كذَبَ فِرْعون في قوله: ﴿ وما أهدِيكم إلا سبيلَ الرشاد ﴾. ثم زهَّدهم

في الدنيا التي آثروها على الأخرى، وصدَّتهم عن التصديق برسولِ الله موسى، فقال: ﴿ يا قوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ ﴾، أي: قليلةٌ زائلةٌ فانيةٌ عن قريبٍ تذهَبُ وتضمَحِلُ، ﴿ وَإنَّ الآخرةَ هي دارُ القرارِ ﴾، أي: الدارُ التي لا زوالَ لها، ولا انتقالَ منها، ولا ظَعْنَ عنها إلى غيرها، بل إما نعيمٌ وإما جحيمٌ، ولهذا قال: ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئةً فلا يُجزى إلا مثلَها ﴾، أي: واحدةً مثلها، ﴿ ومَن عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مُؤمِنٌ فأولئك يدخلون الجنَّةَ يُرزَقُون فيها بغير حِسابٍ ﴾، أي لا يَتقدَّرُ بجزاءٍ، بل يُثيبه الله ثواباً كثيراً لا انقضاءَ له ولا نَفادَ.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ لهم المؤمنُ: ﴿ ما بالي أدعوكم إلى النجاة ﴾، وهي عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له وتصديقُ رسولهِ الذي بَعثَه، ﴿ وتَدعُونني إلى النار* تدعُونني لأكفُرَ بالله وأشرِكَ به ما ليس لي به علمٌ ﴾؟ أي: على جهلٍ بلا دليلٍ ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾، أي: هو في عزَّته وكبريائه يغفرُ ذَنبَ من تاب إليه، ﴿ لا جَرَمَ أنما تدعونني إليه ﴾، يقول: حقاً. قال السُّدِّيُّ، وابنُ جرير: معنى قوله: ﴿ لا جرم ﴾: حَقٌّ. وقال الضحَّاك: ﴿ لا جَرَم ﴾: لا كَذِبَ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ لا جَرَم ﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأندادِ ﴿ ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾.

قال مجاهد: الوَثَنُ ليس بشيء. وقال قتادةُ: يعني الوثن، لا ينفع ولا يضرُّ. وقال السُّدِّيُّ: لا يُجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿ ومَن أضلُّ ممن يدعُو من دُون الله من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامةِ وهُم عن دعائهم غافلون؟* وإذا حُشِر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافِرين ﴾، ﴿ إن تدعُوهم لا يسمَعُوا دعاءكم ولو سَمِعُوا ما استجابوا لكم ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وأنَ مَرَدَّنا إلى الله ﴾، أي في الدار الآخرةِ. فَيُجازي كُلًّا بعمَلِهِ. ولهذا قال: ﴿ وأن المُسرِفين هم أصحابُ النارِ ﴾، أي: خالدين فيها بإسرافِهم، وهو شِركُهم بالله.

﴿ فستذكرون ما أقولُ لكم ﴾، أي: سوفَ تعلَمُون صِدْقَ ما أمرتُكم به ونهيتُكم عنه، ونصحتُكم ووضَحت لكم، وتتذكَرُونه، وتندَمُون حيثُ لا ينفعكم الندمُ، ﴿ وأفوِّضُ أمري إلى الله ﴾، أي: وأتوكَّل على الله وأستَعِينُه، وأقاطِعُكم وأباعِدكم، ﴿ إن الله بصيرٌ بالعبادِ ﴾، أي: هو بصيرٌ بهم، فيهدِي مَن يستحقُّ الهدايةَ، ويُضِلُّ مَن يستحِقُّ الإضلالَ، وله الحجَّةُ البالغةُ، والحكمة التامَّة، والقَدرُ النافذُ.

وقولُهُ: ﴿ فوَقاه الله سيئاتِ ما مَكَرُوا ﴾، أي: في الدُّنيا والآخرة، أما في الدنيا فَنجَّاه الله مع مُوسَى ـ عليه السلام ـ وأما في الآخرة فبالجنَّةِ. ﴿ وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب ﴾، وهو: الغرق في اليمِّ، ثم النُّقلَةُ منهُ إلى الجَحِيم. فإنَّ أرواحَهم تُعرَضُ على النار صباحاً ومساءً إلى قيامِ الساعة، فإذا كان يومُ القيامة اجتمعت أرواحَهم وأجسامُهم في النار. ولهذا قال: ﴿ ويومَ تقومُ الساعة أدخِلُوا آلَ فِرعَونَ أشدَّ العذابِ ﴾، أي: أشدَّه

ألماً وأعظمَه نَكالاً. وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القُبور، وهي قوله: ﴿ النارُ يُعرَضُون عليها غُدوًّا وعَشِيًّا ﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لا شكَّ أن هذه الآية مكيَّة، وقد استدلّوا بها على عذاب القبر في البرزخِ، وقد قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا هاشمٌ ـ هو ابنُ القاسم أبو النضر ـ حدثنا إسحاقُ بن سَعيد ـ هو ابن عَمرو بن سَعيد بن العاص ـ حدثنا سعيد ـ يعني أباه ـ عن عائشة: أن يهوديَّةً كانت تَخدُمها، فلا تصنعُ عائشةُ إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهوديةُ: وقاكِ اللّهُ عذابَ القبر. قال: فدخَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عليَّ فقلتُ: يا رسولَ الله، هل للقبرِ عذابٌ قبلَ يوم القيامة؟ قال: لا، وعَمَّ ذلك؟. قالت: هذه اليهوديةُ، لا نصنعُ إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاكِ الله عذابَ القبر. قال: كذبت يهودُ. وهم على الله أكذبُ، لا عذابَ دونَ يوم القيامة. ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكُثَ، فخرَج ذات يوم نِصْفَ النهار مُشتملاً بثوبه، محمَرَّةً عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «القبرُ كَقِطَعِ الليلِ المظلم! أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم بكيتُم كثيراً وضَحِكتم قليلاً، أيها الناس، استَعيذُوا بالله من عذابِ القبر، فإنَّ عذابَ القبر حق»[(١)].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ، ولم يُخرجاه.

وروى أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حدثنا سفيانُ، عن الزُهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائشةَ قال: سألتها امرأة يهوديَّةٌ فأعطتها، فقالت لها: أعاذكِ الله من عذابِ القبر. فأنكرت عائشةُ ذلك، فلما رأت رسولَ الله ـ ﷺ ـ قالت له، فقال: لا. قالت عائشة: ثم قال لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بعد ذلك: «وإنه أُوحِيَ إليَّ أنكم تُفتَنُونَ في قُبُوركم»[(٢)].

وهذا أيضاً على شَرْطهما.

فَيُقال: فما الجمعُ بين هذا وبين كَونِ الآية مكيَّةً، وفيها الدليلُ على عذابِ البرزخِ؟ والجوابُ: أن الآيةَ دلَّت على عرضِ الأرواحِ على النار غُدواً وعَشيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتِّصالِ تألُّمها بأجسادِها في القُبور، إذ قد يكونُ ذلك مُختصًّا بالروح، فأما حصولُ ذلك للجسدِ وتألُّمه بِسَببِه فلم يَدُلَّ عليه إلا السنة في الأحاديثِ المرضيَّة الآتي ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآيةَ إنما دلَّت على عذابِ الكُفّارِ في البرزخِ، ولا يلزم من ذلك أن يُعذَّبَ المؤمن في قبره بذنبٍ. ومما يدلُّ على هذا ما رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عثمانُ بن عُمَر، حدثنا يونُس، عن الزُهري، عن عُروَة، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ دخلَ عليها وعندها امرأةٌ من اليهود، وهي تقولُ: أشعَرتِ أنَّكم تُفتَنُون في قبوركم؟ فارتاعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال: «إنما يُفتَنُ يهود». قال عائشةُ: فَلَبثنا ليالِيَ، ثم قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أشَعرتِ أنه أُوحِيَ إليَّ أنكم تُفتَنُون في القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعدُ يستعيذُ من عذابِ القبر[(٣)].

وهكذا رواهُ مسلمٌ، عن هارونَ بنِ سعيدٍ وحرْمَلَةَ، كلاهُما عن ابنِ وَهبٍ، عن يُونُسَ بنِ يزيدَ الأيْليِّ، عن الزُهريِّ، به[(٣)].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٨١/٦.
(٢) المسند ٢٣٨/٦.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢٤٨/٦، ومسلم، كتاب المساجد ٤١٠/١ ـ ٤١١.

وقد يُقال: إن هذه الآية دَلّت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يَتَّصِلَ بالأجسادِ في قبورها، فلما أُوحِي إليه في ذلك بخصوصيّتِه استعاذ منه، واللَّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أعلمُ.

وقد رَوَى البخاري من حديث شُعبَةَ، عن أشعثَ بن أبي الشعثاءِ، عن أبيه، عن مَسرُوقٍ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يهوديَّةً دخلتَ عليها فقالت: أعاذكِ الله من عذاب القبر. فسألت عائشةُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن عذابِ القبر؟ فقال: «نعم، عذابُ القبرِ حقٌّ». قالت عائشة: فما رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعدُ صلّى صلاةً إلا تَعوَّذ من عذابِ القبرِ[١].

فهذا يدلُّ على أنه بادر إلى تصديق اليهوديَّةِ في هذا الخبر، وقَرَّر عليه. وفي الأخبارِ المتقدّمةِ أنه أنكَرَ ذلك حتى جاءه الوحيُ، فلعلهما قَضِيَّتان، والله أعلم، وأحاديثُ عذابِ القبرِ كثيرةٌ جدًّا.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ غُدُوًّا وعَشِيًّا ﴾: صباحاً ومساءً، ما بَقِيت الدُّنيا، يقال لهم: يا آلَ فِرعَونَ، هذه منازلكم توبيخاً ونقمةً وصَغاراً لهم[٢]. وقال ابنُ زيدٍ: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويُـرَاحُ إلى أن تقومَ الساعةُ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيدٍ، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثَرْوان، عن هُزَيل، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن أرواحَ الشهداءِ في أجوافِ طيرٍ خُضْر تَسرَح بهم في الجنة حيث شاءوا. وإن أرواح ولدانِ المؤمنين في أجوافِ عصافيرَ تسرحُ في الجنةِ حيث شاءت، فتأوي إلى قناديلَ مُعلّقة في العرشِ وإن أرواح آل فِرعَونَ في أجوافِ طير سُودٍ تغدُو على جَهنَّم وتروحُ عليها، فذلك عرضُها[٣].

وقد رواه الثوريُّ: عن أبي قيس، عن الهُزَيلِ بنِ شُرحبيل، من كلامه في أرواح آل فِرعَونَ[٤]. وكذلك قال السُّدِّيُّ.

وفي حديث الإسراءِ من رواية أبي هارون العَبْدِيِّ عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ قال فيه: «ثم انطَلق بي إلى خَلْقٍ من خَلْق الله كثير، رجالٌ كلُّ رجل منهم بطنُه مثلُ البيت الضخم، مُصَفَّدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرَضُون على النار غُدُوًّا وعشيًّا. ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ أدخِلُوا آلَ فِرعَونَ أشدَّ العذابِ ﴾. وآل فرعون كالإبل المسومة يخبِطُون الحجارة والشجر ولا يعقلون»[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا علي بن الحسين، حدّثنا زيدُ بن أخرَمَ، حدثنا عامر بنُ مُدرِكٍ الحارثي، حدثنا عتبةُ ـ يعني ابن يقظانَ ـ عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن شهابٍ، عن ابن مسعُودٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «ما أحسَنَ محسنٌ من مسلم أو كافرٍ إلا أثابه اللَّهُ». قال: قلنا: يا رسولَ الله، ما إثابةُ اللَّهِ الكافرَ؟ فقال: «إن كان قد وصل رَحِماً أو تَصدَّق بصدقةٍ أو عَمِل حَسَنةً أثابه الله المالَ والولدَ والصحّةَ وأشباهَ ذلك». قلنا: فما إثابتُه في الآخرة؟ قال: «عذاباً دونَ العذاب»، وقرأ: ﴿ أدخِلُوا آلَ فِرعَونَ أشدَّ العذابِ ﴾[٦].

وَرواه البزّارُ في مُسنَدِه، عن زيدِ بن أخرَمَ، ثم قال: لا نعلمُ له إسناداً غير هذا[٦].

---

(١) فتح الباري، كتاب الجنائز ٢٣٢/٣.

(٢) أخرجه الطبري ٧٢/٢٤.

(٣) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وعبد الرزاق ٢٩١/٧.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة، وهنّاد، وعبد بن حميد. الدرّ المنثور ٢٩٠/٧. والطبري ٧١/٢٤.

(٥) انظر مفتتح سورة الإسراء.

(٦) الدرّ المنثور ٢٩٢/٧ عن ابن أبي حاتم، وأخرجه البزّار، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار، أبواب صدقة المتطوع ٤٤٨/١، والحاكم وصححه، المستدرك، كتاب التفسير ٢٥٣/٢.

وقال ابنُ جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدثنا حمّاد بن محمد الفَزاريّ البَلْخيُّ قال: سمعتُ الأوزاعيّ وسأله رجلٌ فقال: رَحِمك الله. رأينا طيوراً تخرج من البحر، تأخذُ ناحيةَ الغرب بيضاً، فوجاً فوجاً، لا يَعلَمُ عددَها إلا الله ـ عزّ وجلّ ـ فإذا كان العشي رَجَع مثلُها سُوداً. قال: وفَطِنتُم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن ذاك الطيرَ في حَوَاصِلِها أرواحُ آل فِرعَونَ، يُعرَضُون على النار غُدُوًّا وعَشِيًّا، فترجعُ إلى وكُورِها وقد احترقت رِيَاشُها وصارت سُوداً، فينبتُ عليها من الليلِ ريشٌ أبيضُ، وتتناثرُ السودُ، ثم تغدو على النار غُدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبُهم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدخِلُوا آلَ فِرعَونَ أشدَّ العذابِ﴾، قال: وكانوا يَقُولون: إنهم ستمائةُ ألفِ مقاتلٍ[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاقُ، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عُمَرَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مَقعدُه بالغداةِ والعشيِّ، إن كان من أهلِ الجَنّةِ فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النارِ فمن أهل النار. فيقال: هذا مَقعَدُكَ حتى يبعَثَكَ الله ـ عزّ وجلّ ـ إليه يوم القيامةِ»[2]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، به[2].

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن تحاجِّ أهلِ النار في النار وتخاصُمِهم، وفرعونُ وقومُه من جملتهم، فيقول الضعفاءُ ـ وهم الأتباعُ ـ للذين استكبروا ـ وهم القادةُ والسادةُ والكبراءُ ـ: ﴿إنا كُنّا لكم تَبَعاً﴾، أي: أطعناكم فيما دعوتُمونا إليه في الدنيا من الكُفرِ والضّلالِ، ﴿فهل أنتم مُغنُون عنّا نصيباً من النارِ﴾ أي: قسطاً تتحمّلونه عنا. ﴿قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها﴾ أي: لا نتحمّل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حُمّلنا من العذاب والنَّكالِ. ﴿إن الله قد حَكَم بين العبادِ﴾، أي: يَقسم بيننا العذابَ بقدرِ ما يستحقُّه كلٌّ منا، كما قال تعالى: ﴿قال لكلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلَمُون﴾.

﴿ وقال الذينَ في النار لخزنَةِ جَهَنَّمَ ادعُوا ربكم يخفّف عنا يوماً من العذاب ﴾: لما علموا أن الله ـ سبحانه ـ لا يَستجيبُ منهم ولا يَستَمِع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ اخسَأُوا فيها ولا تُكَلِّمونِ ﴾، سألوا الخزنةَ ـ وهم كالبَوّابين لأهل النار ـ أن يَدْعُوا لهم الله في أن يُخفِّفَ عن الكافرين؛ ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنةُ رادّين عليهم: ﴿ أوَلم تكُ تأتيكم رسُلُكم بالبينات ﴾، أي: أوَما قامت عليكم الحُجَجُ في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعُوا ﴾، أي: أنتم لأنفسكم، فنحنُ لا ندعُو لكم ولا نسمَعُ منكم ولا نَوَدُّ خلاصَكم، ونحنُ منكم بُرَآءُ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتُم أو لم تَدعُوا، لا يُستَجابُ لكم ولا يُخفَّفُ عنكم، ولهذا قالوا: ﴿ وما دعاءُ الكافِرينَ إلا في ضَلالٍ ﴾، أي: في ذَهابٍ، لا يُقبَلُ ولا يُستجابُ.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٧١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١١٣، وفتح الباري، كتاب الجنائز ٣/٢٤٣، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٩٩.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

قد أورد أبو جَعفر بنُ جرير - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿إنا لننصرُ رسلَنا والذين آمنُوا في الحياة الدنيا﴾ سؤالاً فقال: قد عُلِم أن بعضَ الأنبياءِ قَتَله قومُه بالكُلِّية كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم مَن خَرَج مِن بين أظهرِهم إمَّا مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماءِ كعيسى، فأين النصرةُ في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابَين:

أحدهما: أن يكون الخبرُ خَرَج عامًّا، والمرادُ به البعضُ، قال: وهذا سائغٌ في اللغةِ.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصارُ لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غَيبتهم أو بعد مَوتهم، كما فَعل بقتلة يحيى وزكريا وشَعياء، سَلَّط عليهم من أعدائهم من أهانَهم وسَفَك دماءهم، وقد ذُكر أن النمروذ أخذه الله أخذَ عزيزٍ مقتدر، وأما الذين رامُوا صَلْب المسيح - عليه السلام - من اليهود، فَسَلَّط الله عليهم الرومَ فأهانُوهم وأذلُّوهم، وأظهرهُم الله عليهم، ثم قبل يوم القيامة سَينزلُ عيسى ابنُ مريَمَ إماماً عادلاً، وحكماً مُقسطاً، فيقتل المسيحَ الدجّال وجنودَه من اليَهود، ويقتل الخنزيرَ، ويكسرُ الصَّليب، ويضع الجزية فلا يُقبل إلا الإسلامُ. وهذه نُصرةٌ عظيمة، وهذه سُنّة الله في خَلقِهِ في قديم الدهر وَحديثه، أنَّه ينصرُ عبادَه المؤمنين في الدنيا، ويُقِرُّ أعينَهم ممن آذاهم، ففي صَحيح البخاري عن أبي هُريرَةَ - رضي الله عنه - عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: «يقولُ الله تعالى: مَن عادَى لي ولياً فقد بارَزَني بالحَرْب»[١]. وفي الحديث الآخر: «إني لأثأرُ لأوليائي كما يَثأرُ الليثُ الحَرِبُ»[١]. ولهذا أهلك تعالى قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وأصحاب الرسِّ، وقوم لوط، وأهل مديَنَ، وأشباهَهم وأضرابهم، ممن كَذَّب الرسل وخالَفَ الحقَّ. وأنجى اللهُ مِن بينهم المؤمنين، فلم يُهلِك منهم أحداً، وعَذَّب الكافرين، فلم يُفلِت منهم أحداً.

قال السُّدِّيّ: لم يبعَثِ الله رسولاً قطُّ إلى قوم فيقتُلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعُون إلى الحق فَيُقتَلُون، فيذهب ذلك القرنُ حتى يبعثَ الله لهم مَن ينصرهم، فَيَطلُبُ بدمائهم ممن فَعَل بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياءُ والمؤمنون يُقتَلُون في الدنيا، وهم منصورون فيها[٢].

وهكذا نَصرَ الله نبيَّه محمداً - ﷺ - وأصحابَه على مَن خالفه وناوأه، وكذَّبه وعاداه، فجعل كَلِمتَه هي العليا، وَدينَه هو الظاهرَ على سائر الأديان. وأمرَهُ بالهجرة من بين ظَهرانَيْ قَوْمِهِ إلى المدينة النبويَّة، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم مَنَحه أكتافَ المشركين يومَ بدرٍ، فنصره عليهم وخَذَلهم له، وقتل صناديدَهم، وأسر سَرَاتَهم، فاستاقهم مُقرَّنين في الأصفاد. ثم مَنَّ عليهم بأخذه الفِداءَ منهم، ثم بعد مُدَّةٍ قريبة فَتح مكَّة، فقرَّت عينُه ببلده، وهو البلدُ المحرَّم الحرَامُ المشرَّف المعظَّم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له

(١) تقدّم الحديثان عند تفسير الآية ٩٨ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٧٥، وابن أبي حاتم، وهذا لفظه كما في الدر المنثور ٧/٢٩٢ - ٢٩٣.

اليَمَن، ودانت له جزيرةُ العرب بكمالها، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً. ثم قَبَضه الله - تعالى - إليه، لِما له عنده من الكرامةِ العظيمةِ، فأقام الله أصحابَه خُلفاءَ بعدَه، فبلَّغوا عنه دينَ الله، ودَعوا عبادَ الله إلى اللهِ. وفتحُوا البلادَ والرّساتيق[1] والأقاليم والمدائن والقُرى والقلوبَ، حتى انتشرت الدعوةُ المحمَّدية في مشارقِ الأرضِ ومغاربها. ثم لا يزالُ هذا الدينُ قائماً منصُوراً ظاهراً إلى قيام الساعةِ، ولهذا قال تعالَى: ﴿ إنا لننصرُ رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ ﴾، أي: يوم القيامة تكون النصرةُ أعظمَ وأكبرَ وأجلّ.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة[2]. وقولُهُ: ﴿ يومَ لا ينفعُ الظالمين معذرَتُهم ﴾ بدَلٌ من قوله: ﴿ ويومَ يقومُ الأشهادُ ﴾ وقرأ آخرون: ﴿ يومُ ﴾ بالرفع. كأنه فسره به ﴿ يومَ يقوم الأشهادُ * يومَ لا ينفع الظالمين ﴾، وهم المشركون ﴿ معذرتُهم ﴾ أي: لا يُقبل منهم عذرٌ ولا فديةٌ، ﴿ ولهم اللعنةُ ﴾، أي: الإبعادُ والطردُ من الرحمةِ، ﴿ ولهم سوءُ الدارِ ﴾، وهي النارُ، قاله السُّدِّيُّ، بئس المنزلُ والمَقِيلُ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ولهم سوءُ الدارِ﴾، أي: سوء العاقبةِ.

وقولُهُ: ﴿ ولقد آتينا مُوسى الهُدَى ﴾، وهو ما بعثه الله به من الهُدَى والنُور، ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتابَ ﴾، أي جَعَلنا لهم العاقبَةَ، وأورثناهم بلادَ فرعونَ وأموالَه وحواصِلَه وأرضَه، بما صَبَرُوا على طاعةِ الله واتِّباع رَسُوله موسى - عليه السلام - وفي الكتابِ الذي أُورِثُوه - وهو التوراةُ ﴿ هُدىً وذكرى لأولي الألبابِ ﴾، وهي: العقولُ الصحيحةُ السليمةُ.

وقولُهُ: ﴿ فاصبر ﴾، أي: يا مُحمَّد، ﴿ إنَّ وعدَ اللهِ حَقٌّ ﴾، أي: وَعَدناك أنا سَنُعلي كَلِمَتَك، ونجعلُ العاقبةَ لكَ ولِمَن اتَّبعك، والله لا يُخلِفُ الميعادَ. وهذا الذي أخبرناكَ به حَقٌّ لا مِرْيَةَ فيه ولا شكَّ.

وقولُهُ: ﴿ واستغفر لِذَنْبِكَ ﴾، هذا تهييجٌ للأمَّةِ على الاستغفار، ﴿ وسَبِّح بحمدِ رَبِّك بالعشيِّ ﴾، أي: في أواخِرِ النهار وأوائلِ الليل، ﴿ والإبكارِ ﴾، وهي أوائلُ النهار وأواخرُ الليل.

وقولُهُ: ﴿ إنَّ الذين يجادلون في آياتِ الله بغير سُلطانٍ أتاهم ﴾، أي: يَدفَعُون الحقَّ بالباطل، ويَردُّون الحُجَجَ الصحيحةَ بالشُبهِ الفاسِدَةِ بلا بُرهانٍ ولا حُجَّةٍ من الله، ﴿ إن في صُدورهم إلا كِبرٌ ما هُم ببالغيهِ ﴾، أي: ما في صُدورهم إلا كبرٌ على اتِّباع الحقِّ، واحتقارٌ لِمَن جاءَهم به، وليس ما يرومُونه من إخمالِ الحقِّ وإعلاءِ الباطل بحاصلٍ لهم، بل الحقُّ هو المرفوعُ، وقولُهم وقصدُهم هو الموضوعُ، ﴿ فاستعِذْ باللهِ ﴾، أي: من حالِ مثلِ هؤلاء، ﴿ إنَّه هو السميعُ البصيرُ ﴾، أو: مِن شَرِّ مثل هؤلاء المجادلين في آياتِ الله بغير سُلطانٍ. هذا تفسير ابن جرير[3].

وقال كعبٌ وأبو العاليةِ: نَزلت هذه الآيةُ في اليَهود: ﴿ إن الذين يُجادِلُون في آياتِ الله بغير سُلطانٍ أتاهم إن في صُدورهم إلاّ كبرٌ ما هُم ببالغيه ﴾، قال أبو العالية: وذلك أنهم ادَّعوا أن الدجّال منهم، وأنهم يَملِكُون به الأرضَ. فقال الله لنبيِّه - ﷺ - آمراً له أن يَستعيذَ من فتنةِ الدجّالِ، ولهذا قال: ﴿ فاستعِذ بالله إنه هُو السميعُ البصيرُ ﴾. وهذا قولٌ غريبٌ، وفيه تَعسُّفٌ بعيدٌ، وإن كان قد رواه ابنُ أبي حاتم في كتابه، والله أعلم.

---

(١) الرّساتيقُ: جمع رُسْتاق، وهو: موضع فيه مُزْدرع، وقُرًى، أو بيوت مجتمعة. ويقال أيضاً: رُزْداق ورزاديق.

(٢) أخرجه الطبري ٧٥/٢٤.

(٣) تفسير الطبري ٧٧/٢٤.

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على أنه يُعيد الخلائقَ يومَ القيامةِ، وأن ذلك سَهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، بأنه خَلَق السمواتِ والأرضَ، وخلقُهما أكبرُ من خلق الناس بداءةً وإعادةً، فمن قَدَر على ذلك فهو قادرٌ على ما دُونه بطريقِ الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أوَلم يَروا أن الله الذي خَلَق السموات والأرضَ ولم يعْيَ بخلقهن بقادرٍ على أن يحيي الموتى بَلَى إنه على كلّ شيءٍ قديرٌ﴾. وقال هاهنا: ﴿ لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلَمون ﴾؛ فلهذا لا يتدبَّرون هذه الحجةَ ولا يتأمّلونها، كما كان كثيرٌ من العربِ يعترفُون بأن الله خَلَق السمواتِ والأرضَ، ويُنكِرُون المَعَاد، استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترَفُوا بما هو أولى مما أنكَرُوا.

ثم قال: ﴿ وما يَستوي الأعمى والبصيرُ والذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ ولا المُسِيءُ ﴾، أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يُبصر شيئاً والبصيرُ الذي يَرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرقٌ عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنونَ الأبرارُ والكَفَرةُ الفُجّار، ﴿ قليلاً ما يَتذكَّرون ﴾، أي: ما أقلَّ ما يتذكَّر كثيرٌ من الناس.

ثم قال: ﴿ إنَّ الساعةَ لآتيةٌ ﴾، أي: لكائنةٌ وواقعةٌ، ﴿ لا ريبُ فيها ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُؤمنونَ ﴾، أي: لا يُصدِّقون بها، بل يُكذِّبون بوُجُودها.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بنُ عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهبُ، حدثنا مالك، عن شيخ قَديم من أهلِ اليَمَن ـ قَدِم من ثَمَّ ـ قال: سَمِعتُ أن الساعةَ إذا دَنَت اشتدَّ البلاءُ على الناس، واشتدَّ حرّ الشمس.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾

هذا من فَضلِه ـ تبارك وتعالى ـ وكَرَمِه: أنه نَدَب عباده إلى دُعائِه، وتكفَّل لهم بالإجابة، كما كان سُفيان الثوري يقولُ: يا مَنْ أحبُّ عبادِه إليه مَنْ سأله فأكثر سؤَاله، ويا مَنْ أبغضُ عباده إليه مَن لم يسأله، وليس أحدٌ كذلك غيرُك يا ربِّ. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنى يقولُ الشاعر(١):

اللهُ يَغْضَبُ إنْ تركْتَ سُؤَالَهُ وبُنيُّ آدمَ حينَ يُسألُ يَغضبُ!

وقال قتادةُ: قال كعبُ الأحبار: أُعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تُعطهُنّ أُمّةٌ قبلهم إلا نَبيٌّ: كان إذا أُرسِلَ قيل له: «أنت شاهد على أُمّتك»، وجعلتكم شُهَداء على الناس. وكان يُقالُ له: «ليس عَليكَ في الدِّين من حَرَجٍ». وقال لهذه الأمةِ: ﴿ وما جَعَل عليكُم في الدِّين من حَرَجٍ ﴾. وكان يقال له: «ادعُني استجِبْ لك»، وقال لهذه الأمة: ﴿ ادعُوني استجب لكم ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

(١) عزاه القرطبي في تفسيره ٥/١٦٤ إلى بعض العلماء، عند تفسير آية النساء: ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾، وقال: إنه أخذه من قوله ـ عليه السلام ـ فيما رواه ابن ماجه: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

وقال الإمام الحافظ أبو يَعْلَى أحمد بن علي بن المُثَنَّى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترجماني، حدثنا صالح المُرّي قال: سَمِعتُ الحَسَن يحدِّث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ، فيما يَروي عن رَبّه ـ عزَّ وجَلَّ ـ قال: «أربع خِصالٍ، واحدةٌ منهنَّ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ فيما بيني وبينك، وواحِدَةٌ فيما بينك وبين عبادي: فأما التي لي فَتعبدني لا تُشرك بي شيئاً، وأما التي لك علي فما عملت من خير جَزَيْتُك به، وأما التي بيني وبينك فمنك الدُّعاء وعَلَيَّ الإجابَةُ، وأما التي بينك وبين عبادِي فارض لهم ما ترضَى لنفسك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعاويةَ، حدثنا الأعمش، عن ذَرّ، عن يُسيع الكِنْدي، عن النُعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الدعاءَ هو العبادةُ»، ثم قرأ: ﴿ ادعوني أستجِبْ لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخُلون جهنم داخرين﴾[1].

وهكذا رواهُ أصحابُ السُنَن: الترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه، وابنُ أبي حاتم، وابنُ جريرٍ، كلُّهم من حديث الأعمش، به. وقال الترمذيُّ: «حسـن صحيـح». ورواه أبو داود، والترمذيُّ والنسائيُّ، وابنُ جرير أيضا، من حديث شعبةَ، عن منصورٍ، عن ذَرٍّ، به. وأخرجه الترمذيُّ أيضاً من حديث الثوريِّ، عن منصورٍ والأعمش، كلاهُما عن ذَرٍّ. به. ورواه ابن حبَّان والحاكمُ في صَحِيحيهما، وقال الحاكم: (صحيح الإسناد)[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثني أبو مَلِيح المدني ـ شيخ من أهل المدينة ـ سمعه عن أبي صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من لم يَدْعُ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ غَضِب اللّهُ عليه». تفرَّد به أحمد[2]، وهذا إسنادٌ لا بأسَ به.

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا مَرْوانُ الفَزاريُّ، حدثنا صُبيح أبو المُلَيح: سَمِعتُ أبا صالحٍ يُحَدِّث عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن لا يسألْه يغضَبْ عليه»[3].

قال ابنُ مَعين: أبو المَلِيح هذا اسمه: صُبَيح. كذا قَيَّده بالضمِّ[4] عبد الغنيّ بنَ سعيدٍ. وأما أبو صالح هذا فهو الخُوزيّ، سَكَن شِعبَ الخُوزِ، قاله البزار في مُسنَده. وكذا وَقَع في روايته أبو المَلِيح الفارسي، عن أبي صالح الخُوزيِّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من لا يسألِ الله يغضَبْ عليه».

وقال الحافظُ أبو محمد الحسنُ بنُ عبد الرحمن الرَّامَهُرْمُزِيّ: حدثنا هَمَّام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائلُ بن نَجيح، حدثني عائذُ بن حَبيبٍ، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمدُ بن مَسْلَمَةَ الأنصاريّ وجدنا في ذؤابة سيفِه كتاباً: «بسم الله الرحمن الرحيم، سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لربكم في بقية دهرِكم نفحاتٍ، فَتَعرَّضُوا له، لعلَّ دعوةً أن تُوافِقَ رحمةً فيسعَدَ بها صاحِبُها سعادةً لا يخسَرُ بعدَها أبداً».

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٧١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ١١/٩٣ ـ ٩٤، وسورة المؤمن ١٢/١٢٦ ـ ١٢٧، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٧٦ ـ ٧٧، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/٣٠، وابن ماجه، كتاب الدعاء ٢/١٢٥٨، وتفسير الطبري ٢٤/٧٩، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الأدعية ٢/١٢٤، والمستدرك، كتاب الدعاء ١/٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٤٧٧. وقد أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٢/١٨٥٢، بإسناده إلى وكيع.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٤٤٢.

(٤) وضبطه الدارقطني في المؤتلف والمختلف ٣/١٤٥٠ بالفتح: صَبيح.

وقولُهُ: ﴿ إن الذين يستكبرُون عن عِبادتي ﴾، أي: عن دُعائِي وتوحيدِي، ﴿ سيدخُلون جهنم داخرين ﴾، أي: صاغرين حَقِيرين، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عَجْلان، حدثني عَمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُحشَر المتكبرون يومَ القيامة أمثالَ الذَّرِّ في صُوَر الناسِ، يعلُوهم كلُّ شيءٍ من الصغار حتى يدخلُوا سِجناً في جَهنَّم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نارُ الأنيارِ، يُسقون من طينةِ الخَبالِ عُصارةِ أهلِ النارِ»[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يَزيد بن خُنَيس: سمعت أبي يحدث عن وُهيب بن الوَرد: حدثني رَجُلٌ قال: كنتُ أسيرُ ذاتَ يوم في أرض الرُّوم، فسمعتُ هاتفاً من فوق رأسِ جَبَل وهو يقولُ: يا ربِّ، عَجبتُ لمن عَرَفك كيفَ يرجُو أحداً غيرك! يا ربِّ، عَجبتُ لمن عَرَفك كيف يَطلُبُ حوائجه إلى أحدٍ غيرك ـ قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامةُ الكبرى ـ قال: ثم عاد الثانية فقال: يا ربِّ، عَجبتُ لمن عَرَفك كيفَ يَتعرَّض لشيء من سَخَطِكَ برضا غيرِك. قال وُهَيب: وهذه الطامَّةُ الكُبرى. قال: فناديتُه: أجنيٌّ أنتَ أم إنسي؟ قال: بل إنسيٌّ، اشغلْ نفسك بما يَعْنيك عما لا يَعْنيك.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُمتنًّا على خَلقِه بما جَعَل لهم من اللَّيلِ الذي يَسكنُون فيه ويَستريحُون من حركات تَردُّدهم في المعايش بالنهار، وجَعَلَ النهارَ مُبصِراً، أي: مُضيئاً، ليتصرَّفوا فيه بالأسفارِ، وقَطعِ الأقطارِ، والتمكُّن من الصناعاتِ، ﴿ إنَّ الله لَذُو فضلٍ على الناس ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشكُرون ﴾، أي: لا يَقومُون بشكرِ نِعَمِ الله عليهم.

ثم قال: ﴿ ذلكم الله ربُكم خالقُ كلِّ شيءٍ لا إله إلا هُوَ ﴾، أي: الذي فَعَل هذه الأشياءَ هو اللهُ الواحدُ الأحدُ، خالقُ الأشياء، الذي لا إله غيرُه، ولا ربَّ سِواه، ﴿ فأنَّى تُؤْفَكون ﴾، أي: فكيفَ تَعبدُون غيرَه من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقةٌ منحوتةٌ.

وقولُهُ: ﴿ كذلك يُؤفَكُ الذين كانُوا بآياتِ الله يَجحَدُونَ ﴾، أي: كما ضَلَّ هؤلاء بعبادةِ غيرِ الله، كذلك أُفِكَ الذين من قبلهم فَعَبدُوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمُجرَّدِ الجهل والهوى، وجَحَدوا حُجَجَ الله وآياتِه.

وقولُهُ: ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾، أي: جَعَلها مُستقراً لكم، بِساطاً مِهاداً تَعِيشُون عليها، وتتصرَّفُون فيها، وتمشُون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تَميدَ بكم، ﴿ والسماءَ بناءً ﴾، أي: سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿ وصَوَّرَكم فأحسنَ صُوَرَكم ﴾، أي: فخلقكم في أحسنِ الأشكالِ، ومَنحكم أكملَ الصُّوَرِ في

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٩. والذرُّ: صغار النمل.

أحسنِ تقويمٍ، ﴿ ورزَقكُم من الطَّيِّبات ﴾، أي: من المآكل والمشارب في الدُّنيا. فذَكر أنه خلَق الدارَ، والسُّكَّانَ، والأرزاق، فهو الخالقُ الرازقُ، كما قال في سورة البقرة: ﴿ يا أيها الناس اعبدُوا ربكم الذي خلَقكم والذين مِن قبلكُم لعلَّكم تتَّقون* الذي جعل لكم الأرضَ فراشاً والسماءَ بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرَج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلُوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾. وقال هاهنا بعد خلقِ هذه الأشياء: ﴿ ذلكُم الله ربُّكم فتبارك الله ربُّ العالمينَ ﴾، أي: فتعالى وتقدَّسَ وتنزَّه ربُّ العالمين كُلِّهم.

ثم قال: ﴿ هو الحيُّ لا إلَه إلا هو ﴾، أي: هو الحيُّ أزَلاً وأبداً، لم يَزَل ولا يَزال، وهو الأولُ والآخِرُ، والظاهر والباطِنُ، ﴿ لا إلَه إلا هُوَ ﴾، أي: لا نَظيرَ له ولا عَديلَ له، ﴿ فادعُوهُ مُخلِصين له الدينَ ﴾، أي: مُوحِّدين له مُقِرِّين بأنه لا إلَه إلا هو ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ﴾.

قال ابنُ جَرير: كان جماعةٌ من أهلِ العلمِ يَأمُرون مَن قال: ﴿ لا إلَه إلا الله ﴾ أن يُتبِعُها بالحمدِ لله ربِّ العالمين، عَمَلاً بهذه الآية[1].

ثم روى عن مُحمَّد بن علي بن الحسن بن شَقِيق، عن أبيه، عن الحُسَين بن واقِدٍ، عن الأعمش، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: مَن قال: ﴿ لا إلَه إلا الله ﴾، فليقل على أثَرِها: ﴿ الحمدُ لله رب العالمين ﴾، فذلك قولُه تعالى: ﴿ فادعوه مُخلِصين له الدينَ الحمدُ لله رب العالمين ﴾[1].

وقال أبو أسامةَ وغيرُه، عن إسماعيلَ بن أبي خالدٍ، عن سعيد بن جُبَير قال: إذا قرأت: ﴿ فادعُوا الله مُخلِصينَ له الدِّين ﴾، فقُل: ﴿ لا إلَه إلا الله ﴾ وقُل على أثرها: ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ فادعُوه مخلصين له الدين الحمدُ لله رب العالمين ﴾.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركين: إنَّ الله ينهَى أن يُعْبَد أحدٌ سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بيَّن تعالى أنه لا يَستحِقُّ العبادَةَ أحدٌ سواه، في قوله: ﴿ هو الذي خلَقكم من تُرابٍ ثم من نطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم يُخرِجُكم طفلاً ثم لِتبلُغوا أشُدَّكم ثم لِتكونوا شُيوخاً ﴾، أي: هو الذي يُقلِّبكم في هذه الأطوارِ كُلِّها، وحدَه لا شريكَ له، وعن أمرِه وتدبيرِه وتقديرِه يكونُ ذلك كلُّه، ﴿ ومنكم مَن يُتوفَّى من قبلِ ﴾، أي: من قبل أن يُوجَد ويخرُجَ إلى هذا العالم، بل تُسقِطُه أمُّه سُقطاً، ومنهم من يُتوفَّى صغيراً، وشاباً، وكَهلاً قبلَ الشيخوخَةِ، كقولِه: ﴿ لِنُبيِّن لكم ونُقِرُّ في الأرحام ما نَشاء إلى أجلٍ مُسمًّى ﴾، وقال هاهنا: ﴿ ولَعلَّكم تَعقِلُون ﴾، قال ابن جُرَيج: تَتذكَّرون البعثَ.

ثم قال: ﴿ هو الذي يُحيي ويُميتُ ﴾، أي: هو المنفردُ بذلك، لا يقدِرُ على ذلك أحدٌ سواه، ﴿ فإذا قَضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكونُ ﴾، أي: لا يُخالَفُ ولا يُمانَع، بل ما شاء كان [لا محالة].

(١) تفسير الطبري ٢٤/٨١.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ألا تعجَبُ يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحقِّ بالباطل، كيف تُصْرَفُ عقولُهم عن الهُدَى إلى الضَّلَالِ، ﴿ الذين كَذَّبُوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلَنا ﴾، أي: من الهُدى والبيانِ، ﴿ فسوفَ يعلَمُون ﴾، هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيد، من الربِّ ـ جل جلاله ـ لهؤلاءِ، كما قال تعالى: ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقِهم والسلاسلُ ﴾، أي: مُتَّصلةٌ بالأغلالِ، بأيدي الزبانيةِ يَسحَبُونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجَحِيم. ولهذا قال: ﴿ يسحبون * في الحَمِيم ثم في النار يُسجَرُون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هذه جهنم التي يكذِّب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آنٍ ﴾. وقال بعد ذكْره أكلَهم الزقُّومَ وشُربَهم الحَمِيم: ﴿ ثم إن مَرجِعَهم لإلى الجَحِيم ﴾ وقال: ﴿ وأصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمال. في سَمُومٍ وحميمٍ * وظِلٍّ مِن يحمُومٍ * لا باردٍ ولا كريمٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ ثم إنكم أيها الضالُّون المكذبون * لآكلونَ من شَجَرٍ من زقُّومٍ * فمالئُونَ منها البطونَ * فَشَارِبُونَ عليه من الحَمِيمِ * فَشارِبُون شُربَ الهِيم * هذا نُزُلُهم يَوم الدِّينِ ﴾. وقال: ﴿إنَّ شجرةَ الزقُّوم * طعامُ الأثيم * كالمُهلِ يغلي في البُطون * كغَلْيِ الحَمِيم * خُذُوه فاعتِلُوه إلى سواء الجحيم * ثم صُبُّوا فوقَ رأسِهِ من عذابِ الحَمِيم * ذُقْ إنكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ * إن هذا ما كنتم به تمتَرُونَ ﴾، أي: يقال لهم ذلك على وجهِ التقريعِ والتوبيخِ، والتحقيرِ والتصغيرِ، والتهكم والاستهزاءِ بهم.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أحمد بن مَنِيع، حدثنا منصور بن عمَّار، حدثنا بَشِير بن طلحَةَ الجُذامي(١)، عن خالد بن دُرَيك، عن يعلى بن مُنْيَةَ ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ قال: «ينشىء الله سحابة لأهل النارِ سوداءَ مُظلمةً، ويقال: يا أهلَ النار، أي شيءٍ تطلبُون؟ فيذكُرون بها سحابَ الدنيا فيقولون: نسأل بَرْد الشراب. فتُمطِرهم أغلالاً تَزيد في أغلالهم، وسَلاسِلَ تَزيدُ في سلاسِلهم، وجَمْراً يُلْهِبُ النارَ عليهم»(٢). هذا حديث غريب.

وقولُهُ: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تُشرِكون * من دون الله﴾، أي قيل لهم: أين الأصنامُ التي كنتم تعبدُونها من دُونِ الله؟ هل يَنصُرونكم اليوم؟ ﴿ قالوا ضَلُّوا عنا ﴾، أي: ذَهَبُوا فلم يَنفَعُونا، ﴿ بل لم نكُنِ ندعُو من قبلُ شيئاً ﴾، أي: جَحَدُوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله رَبِّنا ما كُنَّا مُشرِكين ﴾. ولهذا قال: ﴿ كذلك يُضِلُّ الله الكافرين ﴾.

---

(١) في نسخة الأزهر: الخزامي. والمثبت من أخرى. وفي تهذيب الكمال ٨/٥٤ في ترجمة خالد بن دُرَيك: روى عنه بشير بن طلحة الخشني، ويقال: «الجُذامي». واكتفى في الجرح والتعديل بالنسبة الأولى ٢/٣٧٥.

(٢) الدرّ المنثور ٧/٣٠٥.

وقولُهُ: ﴿ ذلكم بما كنتم تفرَحُون في الأرض بغير الحقِّ وبما كنتم تمرَحُون ﴾، أي: تقولُ لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاءٌ على فَرَحِكم في الدّنيا بغير الحقِّ، ومَرَحِكم وأشَرِكم وبَطَرِكم، ﴿ ادخلُوا أبوابَ جهنَّم خالِدينَ فيها فبئسَ مثوى المتكبِّرين ﴾، أي: فبئسَ المنزلُ والمَقيلُ الذي فيه الهوانُ والعذابُ الشديدُ، لِمَنِ استكبَرَ عن آياتِ اللهِ، واتّباعِ دَلائِله وحُجَجِه.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه - صلواتُ الله وسلامُه عليه - بالصبر على تكذيب مَن كَذَّبه من قومِه، فإن الله سَيُنجِزُ لك ما وَعدكَ من النصر والظَفَر على قومك، وجَعَل العاقبةَ لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿ فإما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهُم ﴾، أي: في الدنيا. وكذلك وَقَع، فإن الله أقرَّ أعيُنَهم من كُبَرائهم وعُظَمائهم، أُبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليه مكةَ وسائرَ جزيرةِ العرب في حَيَاتِـهِ ﷺ.

وقولُهُ: ﴿ أو نَتَوَفَّيَنَّك فإلينا يُرجَعُون ﴾، أي: فَنُذِيقهم العذابَ الشديدَ في الآخرة.

ثم قال مُسَلِّياً له: ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلاً من قبلِك منهم مَن قَصَصنا عليك ومِنهُم مَن لم نَقصُص عليكَ ﴾، كما قال في «سورة النساء»[1] سواء، أي: منهُم مَن أوحينَا إليكَ خَبَرَهُم وقَصَصهم مع قومِهم كيف كذَّبوهم ثم كانت للرسلِ العاقبةُ والنُّصرةُ، ﴿ ومِنهم مَن لم نقصُص عليكَ ﴾، وهم أكثر ممن ذُكِر بأضعافِ أضعافٍ، كما تَقدَّم التنبيه على ذلك في سورة النساء، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقولُهُ: ﴿ وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذنِ الله ﴾، أي: ولم يكُن لواحدٍ من الرُّسلِ أن يأتيَ قومَه بخارقٍ للعاداتِ إلا أن يأذَنَ الله له في ذلك، فيدلَّ ذلك على صِدْقِه فيما جاءَهُم به، ﴿ فإذا جاء أمرُ اللهِ ﴾، وهو عذابُه ونَكالُه المحيطُ بالمكذِّبين، ﴿ قُضِيَ بالحق ﴾، فينجُو المؤمنون، ويهلِكُ الكافِرونَ، ولهذا قال: ﴿ وخَسِر هنالك المُبطِلُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُمتناً على عبادِه بما خَلَق لهم من الأنعام، وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ، ﴿ فمنها رَكُوبُهم ومنها يأكُلون ﴾، فالإبلُ تُركَب وتؤكل وتحلَب، ويحمل عليها الأثقالُ في الأسفار والرحال إلى البلادِ النائية، والأقطارِ الشاسعة. والبقرُ تُؤكَل، ويُشرَب لبنها، وتُحرَث عليها الأرضُ. والغنم تؤكلُ، ويُشرَب لبنُها. والجميع تُجَزُّ أصوافُها وأشعارُها وأوبارُها، فيتخذ منه الأثاث والثِيابُ والأمتعةُ، كما فُصّل وبين في أماكنَ تقدّم ذكرُها في «سورة الأنعام»، و «سورة النحل»[2]، وغير ذلك: ولهذا قال ها هنا: ﴿لِتركَبُوا منها ومنها تأكلُون * ولكم فيها منافعُ وَلِتبلُغوا عليها حاجةً في صُدُوركم وعليها وعلى الفُلكِ تُحمَلُون﴾.

(١) انظر تفسير الآية ١٦٤ من سورة النساء.
(٢) انظر تفسير آية الأنعام ١٤٢، والنحل ٥ - ٨.

وقولُهُ: ﴿ ويُريكُم آياتِه ﴾، أي: حُجَجَه وبراهِينَه في الآفاقِ وفي أنفُسِكم، ﴿ فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾؟ أي: لا تَقدِرونَ على إنكارِ شيءٍ من آياتِه، إلَّا أن تُعانِدوا وتُكابِرُوا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن الأمم المكذِّبة بالرسل في قَديم الدهر، وماذا حَلَّ بهم من العذاب الشديد، مع شِدَّةِ قُواهم، وما أثَّروه في الأرض، وجَمَعُوه من الأموال، فما أغنَى عنهم ذلك شيئاً، ولا رَدَّ عنهم ذَرَّةً مِن بأسِ اللهِ؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسلُ بالبينات، والحُجَجِ القاطعاتِ، والبراهينِ الدامغاتِ، لَم يلتفِتوا إليهم، ولا أقبلُوا عليهم، واستغنَوا بما عندَهم من العلمِ في زَعمِهم عما جاءتهُم به الرسلُ.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلمُ منهم، لن نُبعَثَ ولن نُعذَّبَ. وقال السُّدِّيُّ: فَرِحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهُم من بأسِ الله ما لا قِبَلَ لهم به.

﴿ وحاقَ بهم ﴾، أي: أحاطَ بهم ﴿ ما كانوا به يَستهزءُونَ ﴾، أي: يُكَذِّبون ويستبعِدُون وقوعَه. ﴿ فلما رَأَوا بأسنا ﴾، أي: عاينُوا وقوعَ العذاب بهم، ﴿ قالوا آمنَّا بالله وحدَه وكَفرنا بما كُنَّا به مشركين ﴾، أي: وَحَّدوا اللهَ وكَفَرُوا بالطاغوتِ، ولكن حيثُ لا تُقالُ العَثَراتُ، ولا تنفعُ المعذِرَةُ. وهذا كما قال فِرعَونُ حين أدركه الغَرَقُ: ﴿ آمنتُ أنه لا إلَه إلا الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا مِنَ المسلمين ﴾، قال الله تعالى: ﴿ آلآن وقد عَصَيت قبل وكنتَ من المُفسِدين ﴾. أي: فلم يَقبَلِ اللهُ منه، لأنه قد استجابَ لنبيِّه موسَى دُعاءَه عليه حين قال: ﴿ واشدُد على قُلوبهم فلا يُؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ فلم يكُ ينفعُهم إيمانهُم لما رأوا بأسَنا سُنَّةَ اللهِ التي قد خَلَت في عباده ﴾، أي: هذا حكمُ اللهِ في جميعِ مَنْ تاب عند مُعاينةِ العذابِ، أنه لا يُقبَلُ. ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبَلُ توبة العبد ما لم يُغَرغِر»[(١)]، أي: فإذا غرغر وبلغت الروحُ الحنجرَةَ، وعاينَ المَلَكَ، فلا توبةَ حينئذٍ. ولهذا قال: ﴿وخسِر هنالك الكافرون﴾.

آخر تفسير «سورة غافر». ولله الحمد والمنة

(١) تقدَّم الحديثُ عند تفسير آية النساء ١٧، وخرَّجناه هنالك.

تفسير

سُورَةُ فُصِّلَتْ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ حمٓ ۞ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ﴾، يعني: القرآن مُنزَّل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قل نزَّله روحُ القدُس من ربِّك بالحق﴾. وقولُهُ: ﴿وإنَّه لتنزيلُ ربِّ العالمينَ ۞ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ ۞ على قلبك لتكونَ من المُنذِرينَ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ كتابٌ فُصِّلت آياتُه ﴾، أي: بُيِّنت معانيه وأُحكِمت أحكامُه، ﴿ قُرآناً عربيًّا ﴾، أي: في حال كَوْنِهِ لفظاً عربيًّا، بيِّناً واضحاً، فمعانيه مُفصَّلة، وألفاظُه واضحةٌ غير مُشكِلَة، كقوله: ﴿ كتابٌ أُحكِمَت آياتُه ثم فُصِّلت من لَدُنْ حكيم خبير ﴾، أي: هو مُعجِزٌ من حيثُ لفظُه ومعناه، ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خلْفِه تنزيل من حكيم حميدٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ لقوم يعلَمُون ﴾، أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوحَ العلماءُ الراسخُون، ﴿ بَشيراً ونَذيراً ﴾، أي: تارةً يُبَشِّر المؤمنين، وتارةً يُنذِر الكافرين، ﴿ فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمَعُون ﴾، أي: أكثرُ قُريش، فهم لا يَفهَمُون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿ وقالوا قُلوبنا في أَكِنَّةٍ ﴾، أي: في غُلُفٍ مُغطَّاة ﴿ مما تدعُونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ﴾، أي: صَمَمٌ عما جئتنا به، ﴿ وَمِن بَينِنا وَبينِك حِجابٌ ﴾، فلا نَصِلُ إلى شيءٍ مما تقولُ، ﴿ فاعمَل إننا عامِلُون ﴾، أي: اعمَل أنت على طَريقَتِك، ونحنُ على طَرِيقَتِنا لا نُتابِعُك.

قال الإمام العَلَم عبدُ بن حُمَيد في مسنده: حدثني ابنُ أبي شَيبَة، حدثنا علي بن مُسهِر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلَة الأسدي، عن جَابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: اجتمعت قريشٌ يوماً فقالوا: انظُروا أَعْلَمَكُم بالسِّحر والكهانة والشِّعر، فلْيأتِ هذا الرجلَ الذي قد فرَّق جَماعتنا، وشتَّت أمرَنا، وعابَ دِينَنا،

فَلْيُكلِّمه وَلْنَنْظُرْ ماذا يَرُدّ عليه؟ فقالوا: ما نعلمُ أحداً غير عُتْبَة بن ربيعة. فقالوا: أنتَ يا أبا الوليدِ. فأتاه عتبةُ فقال: يا محمدُ، أنت خيرٌ أم عبدُ الله؟ فسكتَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: أنت خيرٌ أم عبد المطلب؟ فسكت رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: فإن كنت تزعُم أن هؤلاء خيرٌ منك، فقد عَبَدُوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعُم أنك خير منهم فتكلّم حتى نسمعَ قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً[1] قطُّ أشأم على قومِهِ منك، فرّقتَ جماعتَنا، وشتّتَ أمرنا، وعِبتَ دينَنا، وفضَحتنا في العَرَب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً! والله ما نَنْتَظِرُ إلا مثل صيحةِ الحُبْلى أن يقومَ بعضُنا إلى بعضٍ بالسيوفِ، حتى نتفانى! أيُّها الرجلُ، إن كان إنما بك الحاجةُ جَمعنا لك حتى تكونَ أغنى قريش رجلاً واحداً، وإن كان إنما بك البَاءةُ فاختر أيَّ نساءِ قريش شئت فَلْنُزوِّجك عشراً. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فَرَغْتَ؟ قال: نعم. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ﴾ حتى بلغ ﴿ فإن أعرضُوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثل صاعقةِ عادٍ وثمودَ ﴾. فقال عتبةُ: حسبُكَ! حسبُكَ! ما عندكَ غيرَ هذا؟ قال: لا. فرجَعَ إلى قُرَيش، فقالوا: ما وراءَكَ؟ قال: ما تركتُ شيئاً أرى أنكم تُكلِّمونه به إلاّ كَلَّمتُه. قالوا: فهل أجابك؟ قال: لا، والَّذي نَصَبها بَنِيَّةً[2] ما فهمتُ شيئاً مما قال، غير أنه أنذركُم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ. قالوا: ويلَكَ! يُكلِّمكَ الرجلُ بالعربية لا تدري ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمتُ شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقةِ[3].

وهكذا رواهُ الحافظُ أبو يعلَى الموصلي في مسنده، عن أبي بكر بن أبي شيبةَ بإسناده، مثل سواء[4].

وقد ساقه البَغَوِيُّ في تفسيره بسنده عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابنُ عبد الله الكِنْدِيُّ الكُوفيُّ، وقد ضُعِّفَ بعضَ الشيء ـ عن الذَّيَّال بن حَرْمَلَة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ فإن أعرضُوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثل صاعقةِ عادٍ وثمودَ ﴾. فأمسك عتبةُ على فيه، وناشده بالرّحِم، ورجَعَ إلى أهله، ولم يخرج إلى قُرَيشٍ واحتبس عنهم. فقال أبو جهلٍ: يا معشرَ قريشٍ، والله ما نرى عتبةَ إلا قد صَبَا إلى محمدٍ، وأعجَبه طعامُه، وما ذاك إلا مِن حاجةٍ أصابته، فانطلِقُوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جَهلٍ: يا عتبةُ، ما حَبسكَ عَنّا إلا أنك صَبوتَ إلى محمدٍ وأعجبَكَ طعامُه، فإن كانت بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يُغنِيك عن طعام مُحمَّدٍ. فَغَضِبَ عتبةُ، وأقسم ألاّ يكلّم محمداً أبداً، وقال: والله لقد عَلِمتُم أني من أكثر قريش مالاً، ولكنّي أتيته وقَصَصتُ عليه القصّة فأجابني بشيء والله ما هو بشعرٍ ولا كَهانةٍ ولا سحرٍ، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ فإن أعرضُوا فَقلْ أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ ﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد عَلِمتُم أن محمداً إذا قال شيئاً لَم يكذِبْ، فَخَشِيتُ أن ينزل بكم العذاب[5].

وهذا السياق أشبه من سياق[6] البزار وأبي يعلى، والله أعلم. وقد أورد هذه القصة الإمامُ محمد بن إسحاق بن يَسار في كتاب السيرة على خلافِ هذا النَّمطِ، فقال:

حدثني يزيدُ بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: حُدِّثتُ أن عُتبة بنَ رَبيعةَ، وكان سيّداً، قال يوماً

(١) السَّخلةُ: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمَعْزِ ساعة يُولَدُ.
(٢) البَنِيَّةُ: الكعبةُ، كانت تُدعَى بَنِيَّةَ إبراهيم عليه السلام.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مُصَنّفه، كتاب المغازي ٢٩٥/١٤ ـ ٢٩٧. وأبو نعيم في الدلائل ١٨٤، والبيهقي كذلك في الدلائل ٢٠٢/٢ ـ ٢٠٣، والحاكم وصححه، المستدرك، كتاب التفسير ٢٥٣/٢ ـ ٢٥٤، وانظر الدرّ المنثور ٣٠٨/٧ ـ ٣٠٩.
(٤) مسند أبي يعلى ٣٣١/٢ ـ ٣٣٢.
(٥) تفسير البَغَويّ ١١٠/٤.
(٦) في نسخة: (بسياق). ولم يتقدم أن البزّار أخرج هذا الحديث.

وهو جالس في نادي قُريش، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ جالسٌ في المسجد وحدَه: يا معشرَ قُريش، ألا أقومُ إلى محمدٍ فأكلِّمه وأعرضَ عليه أموراً لعلَّه يقبلُ بعضَها، فنُعطيه أيَّها شاءَ ويكُفَّ عنا؟ وذلك حين أسلَمَ حمزةُ، ورأوا أصحابَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يزيدون ويكثُرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليدِ، فقُم إليه فكلِّمه. فقامَ إليه عتبةُ حتى جلس إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا ابنَ أخي، إنك منّا حيثُ قد علِمتَ من السِّطَة[١] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنَّك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ، فرّقت به جماعتَهم، وسفّهت به أحلامَهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينَهم، وكفَّرت به من مَضى من آبائهم، فاسمَع مني أعرِض عليكَ أموراً تنظر فيها لعلّكَ تقبلُ منا بعضَها. قال: فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: قل يا أبا الوليد أسمَعْ. قال: يا ابن أخي، إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جَمَعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطَعَ أمراً دونكَ. وإن كنت تُريدُ به مُلكاً ملَّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً[٢] تراه لا تستطيعُ ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ، وبذَلنا فيه أموالنا حتى نُبرئَكَ منه، فإنه ربما غَلَب التابع[٣] على الرجل حتى يُداوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرَغ عُتبةُ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يَستمعُ منه قال: أفرغتَ يا أبا الوليدِ؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * حمٓ * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم * كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بَشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمَعُون﴾. ثم مضى رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيها يقرؤها عليه. فلما سَمِع عتبةُ أنصتَ لها، وألقى يَدَيه خلْفَ ظهره معتمداً عليهما يسمَعُ منه، ثم انتهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى السجدةِ منها، فسَجد، ثم قال: «قد سَمِعتَ يا أبا الوليدِ ما سَمِعتَ، فأنتَ وذاك». فقام عُتبةُ إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نَحلِفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجهِ الذي ذَهَب به. فلما جَلَس إليهم قالوا: ما وراءَك يا أبا الوليد؟ قال: وَرائي أني قد سَمِعتُ قولاً والله ما سَمِعتُ مثلَه قطُّ، والله ما هو بالسحرِ ولا بالشِّعر ولا بالكهانةِ. يا معشرَ قُريش، أطيعُوني واجعلوها لي، خَلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلُوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سَمِعتُ نبأٌ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتُموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب فمُلكُه مُلككُم، وعِزُّهُ عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به. قالوا: سَحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعُوا ما بدا لكم[٤].

وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾

يقول تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذِّبين المشركين: ﴿ إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحدٌ ﴾، لا كما تَعبدُونه من الأصنام والأندادِ والأرباب المتفرِّقين، إنما الله إلهٌ واحدٌ، ﴿ فاستَقِيمُوا إليه ﴾، أي: أخلِصُوا له العبادةَ على مِنْوالِ ما أمركم به على ألسنةِ الرُّسل ﴿ واستغفِرُوه ﴾، أي: لسالف الذنوب، ﴿ وويلٌ للمشركين ﴾، أي: دَمارٌ لهم وهلاكٌ عليهم، ﴿ الذينَ لا يُؤتونَ الزَّكاة ﴾، قال علي بن أبي طلحة،

---

(١) السِّطَةُ: الشرفُ.
(٢) الرَّئِيّ: ما يتراءى للإنسان من الجن. وبنو تميم يكسرون الراء.
(٣) التابع: ما يتبع الإنسان من الجنّ.
(٤) سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

عن ابن عباس: يعني الذين لا يَشهَدُون أن لا إلَه إلا الله. وكذا قال عكرمة[١]. وهذا كقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خابَ مَن دَسَّاها﴾. وكقوله: ﴿قد أفلح مَن تزَكَّى * وذكَر اسم ربِّه فصَلَّى﴾. وقوله: ﴿فقُل هل لك إلى أن تَزَكَّى﴾. والمرادُ بالزكاة هاهنا طهارةُ النفس من الأخلاق الرذيلة، ومِن أهَمِّ ذلك طهارة النفس من الشركِ. وزكاةُ المالِ إنما سُمِّيت زكاةً لأنها تُطَهِّره من الحَرَام، وتكون سَبَباً لزيادَتِه وبَرَكتِه وكثرةِ نَفْعِه، وتوفيقاً إلى استعمالِه في الطاعات.

وقال السُدِّيُّ: ﴿وويلٌ للمشركينَ * الذين لا يؤتون الزكاةَ﴾، أي: الذين لا يَدِينُون بالزكاة. وقال معاوية بن قُرَّة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادةُ: يمنعون زكاةَ أموالِهم.

وهذا هو الظاهرُ عند كثيرٍ من المفسِّرين، واختارَه ابنُ جَرير. وفيه نظرٌ؛ لأنَّ إيجابَ الزكاةِ إنما كان في السَّنَةِ الثانية من الهجرَةِ إلى المدينةِ، على ما ذَكَره غيرُ واحدٍ، وهذه الآية مكيَّةٌ، اللهمَّ إلا أن يُقال: لا يبعدُ أن يكون أصلُ الصدَقةِ والزكاةِ كان مأموراً به في ابتداءِ البَعثةِ، كقوله تعالى: ﴿وآتوا حَقَّه يومَ حَصَادِه﴾، فأما الزكاة ذات النُّصُب والمقادير فإنما بُيِّن أمرُها بالمدينةِ، ويكونُ هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلُوع الشمس وقبل غُروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلةُ الإسراء قبل الهجرةِ بسنةٍ ونصفٍ فَرَض الله على رسوله الصلوات الخمس، وفَصَّل شُروطها وأركانها وما يَتعلَّق بها بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إن الذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أجرٌ غيرُ ممنُونٍ﴾، قال مجاهدٌ وغيرُه: «لا مقطوعٌ ولا مجبوبٌ». كقوله: ﴿ماكثينَ فيه أبَداً﴾، وكقولِه تعالى: ﴿عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ﴾.

وقال السُدِّيُّ: ﴿غيرُ ممنون﴾ عليهم. وقد رَدَّ عليه هذا التفسيرَ بعضُ الأئمة، فإن المنَّة لله على أهل الجنةِ، قال الله تعالى: ﴿بل الله يَمُنُّ عليكم أن هَداكم للإيمان﴾. وقال أهل الجنة: ﴿فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾. وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إلاَّ أن يَتَغَمَّدَني الله برحمةٍ منه وفضلٍ»[٢].

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

هذا إنكارٌ مِنَ الله على المشركين الذين عَبَدُوا معه غيرَه، وهو الخالقُ لكلِّ شيءٍ، القاهرُ لكلِّ شيءٍ، المقدِّرُ لكلِّ شيءٍ، فقال: ﴿قل أئنَّكم لتكفُرون بالذي خَلَق الأرضَ في يومين وتجعلُون له أنداداً﴾، أي: نُظَراءَ وأمثالاً تَعبدُونها معه، ﴿ذلك ربُّ العالمين﴾، أي: الخالقُ للأشياءِ هو ربُّ العالمين كُلِّهم.

وهذا المكانُ فيه تفصيلٌ لقوله تعالى: ﴿خلَق السموات والأرض في ستةِ أيام﴾، ففصَّل هاهنا ما يختصُّ بالأرض مما اختصَّ بالسماء، فذكر أنه خَلَق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدأ بالأساس، ثم بعده

(١) أخرجه الطبري ٢٤/٩٢.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٣٥ من سورة فاطر، وخرجناه هنالك.

بالسقفِ، كما قال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السَّماءِ فسواهُنَّ سبعَ سمواتٍ﴾ . . . الآية.

فأمّا قوله: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها * رَفَع سَمْكها فسواها * وأغطَش ليلَها وأخرج ضُحاها * والأرضَ بعد ذلك دَحَاها * أخرجَ منها ماءَها ومرعَاها * والجبالَ أرساهَا * متاعاً لكُم ولأنعامكم﴾، ففي هذه الآية أن دَحْيَ الأرض كان بعد خَلق السماء، فالدَّحْيُ هو مُفَسَّرٌ بقوله: ﴿أخرج منها ماءَها ومرعَاها﴾، وكان هذا بعد خَلْقِ السماء، فأما خَلْقُ الأرض فقبل خلق السماء بالنصِّ، وبهذا أجابَ ابن عباس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهالُ[١]، عن سعيد بن جُبَير قال: قال رجلٌ لابن عباسٍ: إني أجدُ في القرآن أشياءَ تختلفُ عليَّ، قال: ﴿فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءَلُون﴾، ﴿وأقبل بعضُهم على بعض يتساءَلُون﴾، ﴿ولا يكتمون الله حَديثاً﴾، ﴿والله ربِّنا ما كنا مُشركين﴾؛ فقد كتموا في هذه الآية؟ وقال: ﴿أم السماءُ بناها﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاها﴾، فذكر خَلْقَ السماء قَبل خَلْقِ الأرض، ثم قال: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرضَ في يومين﴾، إلى قوله: ﴿طائعين﴾، فذكر في هذه خَلْقَ الأرض قبلَ خلق السماء؟ وقال: ﴿وكان الله غفوراً رَحيماً﴾، ﴿عَزيزاً حكيماً﴾، ﴿سَميعاً بصيراً﴾، فكأنه كانَ ثُمَّ مَضى.

قال ـ يعني ابن عباس ـ: ﴿فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ في النفخةِ الأُولى، ثم يُنفَخ في الصُور، ﴿فصعِقَ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، فلا أنساب بينَهـم عند ذلك ولا يتساءلون، ثـم في النفخةِ الأُخرى ﴿أقبل بعضُهم على بعض يَتَساءَلُون﴾.

وأمَّا قوله: ﴿ما كُنَّا مشركين﴾، ﴿ولا يكتمُون الله حَديثاً﴾، فإن الله يغفِر لأهل الإخلاص ذُنُوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نَكُن مشركين»، فَيختِمُ على أفواهِهم، فَتَنطِق أيديهم، فعند ذلك عُرِف أن الله لا يُكتَمُ حديثاً، وعنده ﴿يَوَدُّ الذين كَفَرُوا﴾ . . . الآية.

وخَلَق الأرض في يومين، ثم خَلَق السماء، ثم استوى إلى السماء فَسَوَّاهُنَّ في يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمَرْعَى، وخَلَق الجبَالَ والجَماد والآكامَ وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله ﴿دحاها﴾، وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ فَخُلِقَت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلِقت السمواتُ في يومَين.

﴿وكان الله غفوراً رَحيماً﴾: سَمَّى نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يُرِد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفَنّ عليك القرآن، فإنَّ كلاً من عند الله ـ عَزَّ وجَلَّ.

قال البخاريُّ: حَدَّثنيه يوسفُ بن عديّ، حدثنا عُبَيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أُنَيْسَة، عن المِنْهالِ ـ هو ابن عَمرو ـ بالحديث[٢].

فقولُه: ﴿خَلَق الأرض في يومين﴾، يعني: يومَ الأحد ويومَ الاثنين، ﴿وجَعَل فيها رواسي من فَوقها وبارَكَ فيها﴾ أي: جَعَلها مباركةً قابلةً للخير والبَذْرِ والغِراس، وقَدَّر فيها أقواتَها، وهو: ما يحتاجُ أهلُها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزْدرَعُ وتُغرَسُ ـ يعني يومَ الثُلاثاءِ والأربعاءِ، فهما مع اليومين السابقين أربعةٌ، ولهذا قال

(١) من هنا بداية الأثر المنقول عن البخاري.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة السجدة ٨/٥٥٥ ـ ٥٥٦.

تعالى: ﴿ في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾، أي: لمن أراد السُّؤال عن ذلك لِيعلَمَه.

وقال مجاهد وعكرمة في قوله: ﴿ وقَدّر فيها أقواتَها ﴾: جَعَل في كلِّ أرضٍ ما لا يصلُح في غيرها، ومنه: العَصْبُ باليَمَن، والسابريُّ بسابُور، والطيالِسَةُ بالرَّي[1]. وقال ابن عباس، وقتادةُ، والسُّدِّيُّ في قوله تعالى: ﴿ سواءً للسائلين ﴾، أي: لمن أراد السُّؤال عن ذلك، وقال ابنُ زيدٍ: معناه ﴿ وقَدّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ سواءً للسائلين ﴾، أي: علىٰ وَفْقِ مُرادِ مَن له حاجة إلى رِزْقٍ أو حاجةٍ، فإن الله قد قَدَّر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يُشبِه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿ وآتاكم من كلِّ ما سألتُموه ﴾[2]، والله أعلمُ.

وقولُهُ: ﴿ ثُمَّ استوى إلى السَّماء وهيَ دُخانٌ ﴾، وهو: بُخار الماء المتصاعِدُ منه حين خُلِقَتِ الأرضُ، ﴿ فقال لها وللأرضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرْهاً ﴾، أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثوريُّ: عن ابن جُرَيج، عن سُلَيمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ فقال لها وللأرضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرهاً ﴾، قال: قال الله تعالى للسموات: أَطْلِعِي شمسِي وقَمَري ونُجومِي. وقال للأرض: شَقِّقي أنهارَكِ، وأخرجي ثِمارَكِ. فقالتا: ﴿ أتينا طائعين ﴾. واختاره ابنُ جريرٍ رَحِمَه الله[3].

﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾، أي: بل نَستجيبُ لك مُطيعين بما فينا، مما تُريد خَلْقه من الملائكة والإنسِ والجنِّ جَميعاً مُطيعين لك. حكاه ابنُ جرير عن بعضِ أهل العربيةِ، قال: وقيل: تنزيلاً لهنَّ معاملةَ مَن يعقِل بكلامِهما[4]. ويُقال: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم. وقال الحسنُ البصري: لو أَبَيا عليه أمرَه لَعَذَّبهما عذاباً يَجِدان أَلَمه. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ فَقضاهُنَّ سبعَ سمواتٍ في يومَين ﴾، أي: فَفرغ من تسويتهن سبعَ سموات في يومَين، أي: آخَرين، وهُما يومُ الخميسِ ويومُ الجُمُعَةِ.

﴿ وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها ﴾، أي: وَرَتَّبَ مُقَرراً في كل سماءٍ ما تحتاجُ إليه من الملائكةِ، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وزَيَّنّا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ﴾، وهنَّ الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿ وحِفظاً ﴾، أي: حَرَساً من الشياطين أن تستَمِعَ إلى الملأ الأعلى. ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾، أي: العَزيزُ الذي قد عَزَّ كلَّ شيء فغلَبه وقَهرَه، العليمُ بجميعِ حركاتِ المخلوقاتِ وسَكَناتِهم.

قال ابنُ جرير: حدثنا هَنّاد بن السَّرِي، حدثنا أبو بكر بن عَيّاش، عن أبي سَعيدٍ البقّال، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ـ قال هَنّاد: قرأت سائرَ الحديث أن اليهود أتتِ النبيَّ ـ ﷺ ـ فسألته عن خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، فقال: «خَلَق الله الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنين، وخَلق الجِبالَ يومَ الثُّلاثاء وما فيهنَّ من منافع، وخَلَق يوم الأربعاءِ الشجَرَ والماءَ والمدائِنَ والعُمران والخَراب، فهذه أربعة. ﴿قل أئِنَّكم لتكفُرون بالذي خَلق الأرضَ في يومينِ وتجعلونَ له أنداداً ذلك ربُّ العالمين * وجعل فيها رواسيَ من فوقها وبارَكَ فيها وقَدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ

---

(١) العَصْبُ: بُرودٌ يمنية يُعْصَبُ غزلُها، أي: يجمع، ويُشَدُّ، ثم يُصْبَغُ ويُنسَجُ، فيأتي مَوْشِيّاً، لبقاء ما عُصِب منه أبيضَ لم يأخذه صِبْغٌ. والسابريُّ: منسوب إلى سابُور: بلدة قريبة من أصفهان، وكل ثوبٍ رقيق عندهم: سابريٌّ. والطيالسة: جمع طَيْلَسان، وهو ثوب يُلْبَسُ على الكتف. وقيل: ثوبٌ يحيط بالبدن يُنسَجُ لِلُّبس، خالٍ من التفصيل والخياطة. وقيل كذلك: هو كساء أخضر لا أسفل له، لحمته وسداه من صوف، يلبسه الخواصُّ من العلماء. وهو من لباس العجم. والرَّيُّ: مدينةٌ مشهورة بفارِسَ.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٣٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/٩٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/٩٩.

سواءً للسائلين﴾: لمن سأل ـ قال: وخَلَق يومَ الخميس السَّماء، وخَلَق يومَ الجُمُعةِ النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلى ثلاثِ ساعات بقيت منه [(١)فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات](١)، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيءٍ مما ينتفعُ به الناسُ، وفي الثالثة آدمَ، وأسكنه الجنَّةَ، وأمر إبليسَ بالسجود له، وأخرجَه منها في آخر ساعة». ثم قالت اليهودُ: ثم ماذا يا محمدُ؟ قال: ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا: ثم استراح، فغَضِبَ النبيُّ ـ ﷺ ـ غضباً شديداً، فنزل: ﴿ولقد خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستةِ أيامٍ وما مَسَّنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون﴾(٢).

هذا الحديثُ فيه غرابةٌ. فأما حديثُ ابن جُرَيج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيرة قال: أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيَدِي فقال: «خَلَق الله التربةَ يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثُّلاثاء، وخَلَق النورَ يومَ الأربعاءِ، وبَثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخَلَق آدمَ بعد العصرِ يومَ الجُمُعة آخر الخَلْق في آخر ساعةٍ من ساعاتِ الجُمُعةِ، فيما بين العصرِ إلى الليل».

فقد رواه مسلم(٣) والنسائيُّ في كتابيهما، عن حديث ابن جُرَيج، به. وهو من غرائب الصَّحيح، وقد عَلَّله البخاريُّ في التاريخ(٣) فقال: رواه بعضُهم عن أبي هُرَيرة، عن كعبِ الأحبارِ، وهو الأصحُّ.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: قُل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذِّبين بما جئتهم به من الحقِّ: إن أعرضتُم عما جئتكم به من عند الله، فإني أنذركم حُلولَ نِقمَةِ الله بكم، كما حلَّت بالأممِ الماضين من المكذِّبين بالمرسلين ﴿صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ﴾، أي: ومَن شاكلهما مِمَّن فَعَل كفعلهما، ﴿إذ جاءتهم الرسُل من بين أيديهم ومن خلفِهم﴾، كقوله تعالى: ﴿واذكر أخا عادٍ إذ أنذَرَ قومه بالأحقاف وقد خلَت النُّذُر من بين يديه ومن خلفِه﴾، أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بَعَثَ الله إليهم الرسُلَ يأمرون بعبادة الله وحده لا شريكَ له، ومُبَشِّرين ومُنذِرين، ورأوا ما أحلَّ الله بأعدائه من النِّقَم، وما ألبَسَ الله أولياءَه من النِّعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدَّقوا، بل كذَّبوا وجَحَدوا، وقالوا: ﴿لو شاء ربُّنا لأنزلَ ملائكةً﴾، أي: لو أرسلَ الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فإنّا بما أُرسِلتُم به﴾، أي: أيها البشرُ ﴿كافرون﴾، أي: لا نَتَّبِعُكم وأنتم بشرٌ مثلُنا. قال الله تعالى: ﴿فأما عادٌ

(١ ـ ١) ما بين القوسين عن تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/٩٤. وقد أخرجه الحاكم، المستدرك ٢/٤٥٠ ـ ٤٥١. وانظر الدر المنثور ٧/٣١٤ ـ ٣١٥.

(٣) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة، ٥٤ من سورة الأعراف. والتاريخ الكبير، ترجمة أيوب بن خالد بن أبي أيوب الأنصاري ٢/٤١٣ ـ ٤١٤.

فاستكبَروا في الأرض ﴾، أي: بَغوا وعَتوا وعَصوا، ﴿ وقالوا من أشدُّ منّا قوةً ﴾، أي: مَنُّوا بشدَّةِ تركيبهم وقُواهم، واعتقدوا أنهم يَمتنِعُون بها من بأس الله! ﴿ أو لم يَروا أن الله الذي خَلقهم هو أشدُّ منهم قوةً ﴾، أي: أفما يتفكرون فِيمَن يُبارِزُون بالعَداوة؟ فإنه العظيمُ الذي خَلَق الأشياءَ وركَّب فيها قُواها الحامِلَة لها، وإنَّ بطشه شَدِيدٌ، كما قال تعالى: ﴿ والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لَموسِعُون ﴾، فبارَزُوا الجبار بالعداوة، وجَحَدوا بآياته وعَصَوا رَسُوله، فلهذا قال: ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾، قال بعضهم: وهي الشديدةُ الهُبُوبِ. وقيل: الباردةُ. وقيل: هي التي لها صَوتٌ.

والحق أنها مُتَّصِفة بجميع ذلك، فإنَّها كانت ريحاً شديدةً قويةً، لِتكُونَ عقوبتُهم من جنس ما اغترُّوا به من قُواهم، وكانت باردةً شديدةَ البردِ جدًّا كقوله تعالى: ﴿ بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية ﴾، أي: باردةٍ شديدةٍ، وكانت ذاتَ صوت مُزعِجٍ، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صَرْصَراً[١]، لقوة صوت جريه.

وقولُهُ: ﴿ في أيامٍ نَحِسات ﴾، أي: مُتَتابِعاتٍ، ﴿ سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوماً ﴾، كقوله: ﴿ في يوم نَحسٍ مُستمرٍ ﴾، أي: ابتُدِئُوا بهذا العذابِ في يوم نحسٍ عليهم، واستمرَّ بهم هذا النحسُ سبعَ ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتَّصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرةِ. ولهذا قال تعالى: ﴿ لِنُذِيقَهم عذابَ الخِزْيِ في الحياة الدنيا ولَعذابُ الآخرة أخزَى ﴾، أشدُّ خزياً لهم، ﴿ وهم لا ينصرون ﴾، أي: في الأخرى كما لم يُنصَرُوا في الدنيا، ﴿ وما كانَ لهم مِن اللهِ من واقٍ ﴾ يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقولُهُ: ﴿ وأما ثمودُ فهديناهم ﴾، قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسُّديُّ، وابن زيد: بيَّنا لهم. وقال الثوري: دَعَوناهم. ﴿ فاستحبُّوا العَمَى على الهدى ﴾، أي: بَصَّرناهم، وبَيَّنّا لهم، ووضَّحنا لهم الحقَّ على لسان نَبِيِّهم صالح ـ عليه السلام ـ فخالَفُوه وكَذَّبوه، وعَقَرُوا ناقة الله التي جعَلها آية وعلامة على صدقِ نَبِيِّهم، ﴿فأخذتهم صاعقةُ العذاب الهُونِ﴾، أي: بعث الله عليهم صيحةً ورَجْفَةً وذُلّاً وهَوَاناً وعَذاباً ونكالاً، ﴿بما كانوا يكسِبُون﴾، أي: من التكذيب والجُحود. ﴿ونجَّينا الذين آمنوا﴾، أي: من بين أظهرِهم، لم يَمَسَّهم سوءٌ، ولا نالهم من ذلك ضَررٌ، بل نَجّاهم الله مع نبيهم صالح بإيمانِهم وتقواهُم لله عَـزَّ وجَـلَّ.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ويوم يُحشَر أعداءُ الله إلى النار فَهُم يُوزَعُون ﴾، أي: اذكُر لهؤلاء المشركين يوم يُحشَرون إلى النار، ﴿ يُوزَعون ﴾، أي: تجمَعُ الزبانيةُ أوَّلَهم على آخِرهم، كما قال تعالى: ﴿ ونسوق المجرمين إلى جَهَنَّم وِرْداً ﴾، أي: عطاشاً.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان. صَرْصَرُ: قريتان من سواد بغداد، صرْصرُ العليا وصَرْصرُ السفلى، وهما على ضَفَّة نهر عيسى. وربما قيل: نهر صَرصر، فنسب النهر إليهما

وقولُهُ: ﴿حتى إذا ما جاءُوها﴾، أي: وَقَفوا عليها، ﴿شَهد عليهم سَمعُهُم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعمَلُون﴾، أي: بأعمالهم مما قَدَّموه وأخروه، لا يُكتَم منه حَرْفٌ. ﴿وقالوا لجُلودِهم لم شَهدتُم علينا﴾؟ أي: لاموا أعضاءَهم وجُلودَهم حين شَهدُوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاءُ: ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ وهو خَلَقكم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: فهو لا يُخالَف ولا يُمانَع، وإليه تُرجَعُون.

قال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا محمدُ بن عبد الرحيم، حَدَّثنا علي بن قادم، حدثنا شَريكٌ، عن عُبَيد المُكتِب، عن الشَّعبي، عن أنس بن مالك قال: ضَحِك رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم وَتبَسَّم، فقال: ألا تسألوني عن أيِّ شيء ضحكتُ؟ قالوا: يا رسولَ اللّه، من أيِّ شيءٍ ضحِكتَ؟ قال: «عَجِبتُ من مُجادَلةِ العبدِ ربَّه يومَ القيامة، يقول: أيْ رَبِّي، أليس وعدتَني ألاَّ تظلِمني؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبلُ عليَّ شاهداً إلا مِن نفسِي. فيقولُ الله تبارَكَ وتعالى: أوَ ليس كَفَى بي شهيداً، وبالملائكةِ الكرام الكاتبين؟! قال: فيُردِّد هذا الكلام مِراراً. قال: فَيُختَم على فِيه، وتَتكلَّم أركانُه بما كان يعمَلُ، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، عنكُنَّ كنتُ أجادل».

ثم رواه هو وابنُ أبي حاتمٍ، من حديث أبي عامر الأَسَديِّ، عن الثَّوريِّ، عن عُبَيد المُكتِب، عن فُضَيلِ بن عَمرو، عن الشعبي. ثم قال: «لا نعلَمُ رواه عن أنس غيرُ الشعبي». وقد أخرجه مُسلِم والنسائيُّ جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النَّضر، عن عُبَيدالله بن عبدالرحمن الأشجعيِّ، عن الثوريِّ، به. ثم قال النسائيُّ: «لا أعلم أحداً رواه عن الثوريِّ غير الأشجعي». وليس كما قال كما رأيت[1]، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمدُ بن إبراهيم، حدثنا إسماعيلُ بن عُلَيَّةَ، عن يونُسَ بن عُبَيدٍ، عن حُمَيدِ بن هلالٍ قال: قال أبو بُردَةَ: قال أبو موسى: ويُدعى الكافرُ والمنافقُ للحساب، فيَعرِض عليه ربُّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ عملَه، فيجحَد ويقول: أيْ ربِّ، وعِزَّتك لقد كَتَب عليَّ هذا المَلَك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت [كذا]، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعِزَّتك، أيْ ربِّ ما عَمِلتُه! فإذا فَعَل ذلك خُتِم على فيه. قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فَخِذُهُ اليمنى[2].

وقال الحافظ أبو يعلَى: حدثنا زُهير، حدثنا حَسَن، عن ابن لَهيعةَ: قال دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ عُرِّفَ الكافرُ بعمله، فَجحَد وخاصَم، فيُقال: هؤلاءِ جيرانك يشهَدُون عليك؟ فيقول: كَذَبوا. فيقول: أهلُك عَشيرتُك؟ فيقول: كَذَبوا. فيقول: احلِفُوا. فيحلِفُون، ثم يُصمِتُهم الله وتشهد [عليهم] ألسنتهم، ويُدخِلُهم النار»[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: وحدثنا أبي، حَدَّثنا أحمدُ بن إبراهيم، حدثنا عبدُ الصمدِ بنُ عبدِ الوارثِ: سَمِعت أبي: حدثنا عليُّ بنُ زيدٍ، عن مسلم بن صُبَيحٍ أبي الضُّحى، عن ابن عباس أنه قال لابن الأزرق: إنَّ يومَ القيامةِ يأتي على الناس منه حِين لا يَنطِقُون ولا يَعتذِرُون ولا يَتكلَّمون حتى يُؤذَن لهم، ثم يُؤذَنُ لهم فيختصمون، فيجحَد الجاحِدُ بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلِفُون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحَدُون شهداءَ من أنفسهم، جُلودَهم وأبصارَهم وأيديَهم وأرجلَهم، ويُختَم على أفواههم، ثم يُفتَح لهم الأفواه فتُخاصِمُ الجوارحَ، فتقول: ﴿أنطقنا الله الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ وهو خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وإليه تُرْجَعُونَ﴾. فتُقِرُّ الألسِنَةُ بعد الجُحُود.

---

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٤ من سورة النور، ٦٥ من سورة يس، وخرجناه هنالك.

(٢) تقدَّم الأثر عند تفسير الآية ٦٥ من سورة يس.

(٣) مسند أبي يعلى ١٣٥/٢. وقد تقدم من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم عند تفسير الآية ٢٤ من سورة النور. وانظر مجمع الزوائد ٣٥١/١٠.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا صَفوانُ بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير الحضرميِّ، عن رافع أبي الحسن ـ وصف رجلاً جَحَد ـ قال: فَيُشير الله إلى لسانه، فيربُو في فمه حتى يملأه، فلا يستطيعُ أن ينطِق بكلمةٍ، ثم يقول لآرابه[1] كلِّها: تكَلَّمي واشهدِي عليه. فيَشهَدُ عليه سمعُه، وبصرُه، وجلدُه، وفرجُه، ويداه، ورجلاه: صَنَعنا، عَمِلنا، فَعَلنا.

وقد تقدَّم أحاديثُ كثيرةٌ، وآثارٌ عند قوله تعالى في سورة يسٓ: ﴿ اليومَ نختِمُ على أفواهِهم وتُكَلِّمنا أيديهم وتشهدُ أرجُلهم بما كانوا يكسبون ﴾، بما أغنى عن إعادتِه هاهُنا.

وقال ابنُ أبي حاتم ـ رحِمَه الله ـ حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بنُ سَعيدٍ، حدثنا يحيى بن سُلَيْم الطائِفيُّ، عن ابن خُثَيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رَجَعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ مُهاجِرَةُ البحر قال: «ألا تُحَدِّثُونَ بأعاجيبِ ما رأيتم بأرضِ الحبشة؟» فقال فتيةٌ منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحنُ جلوسٌ إذ مرَّت علينا عجوزٌ من عجائز رَهَابينهم، تحمِلُ على رأسها قُلَّةً من ماءٍ، فَمَرَّت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كَتِفيها، ثم دفَعها فَخرَّت على رُكبتيها، فانكسرت قُلَّتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوفَ تعلَم يا غُدَرُ إذا وَضَع الله الكرسيَّ، وَجَمع الأولين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجلُ بما كانوا يكسبون، فَسَوف تعلم كيفَ أمري وأمرُك عندَه غداً؟ قال: يقولُ رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كيف يُقَدِّس[1] الله قوماً لا يُؤخَذُ لِضعيفهم من شَدِيدهم؟!».

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. ورواه ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب الأهوالِ: أخبرنا إسحاقُ بنُ إبراهيمَ قال: أخبَرَنا يحيى بن سُلَيم، به[2].

وقولُه: ﴿ وما كُنتم تَسْتَتِرُونَ أن يشهدَ عليكُم سمعكُم ولا أبصاركم ولا جُلُودكم ﴾، أي تقولُ لهم الأعضاءُ والجلودُ حين يَلُومونها على الشهادةِ عليهم: ما كنتم تتكتَّمون منا الذي كُنتم تفعَلُونه، بل كنتم تجاهِرُون الله بالكُفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كُنتم لا تَعتقِدون أنه يعلم جميع أفعالكم! ولهذا قال: ﴿ولكن ظننتُم أنَّ الله لا يعلَمُ كثيراً مما تعمَلُون ۝ وذَلِكُم ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنْتُم بربكم أرداكُم﴾، أي: هذا الظنُّ الفاسدُ ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلَمُ كثيراً مما تعمَلُون ـ هو الذي أتلفكم وأرداكُم عند ربكم، ﴿فأصبحتُم من الخاسرين﴾، أي: في مواقِف القيامةِ خَسِرتم أنفسَكُم وأهليكم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن عُمارة، عن عبد الرحمن بن يزيدَ، عن عبد الله قال: كنت مُستَتِراً بأستارِ الكعبة فجاء ثلاثةُ نفرٍ: قُرشِيٌّ، وخَتَناه[3] ثَقفِيَّان ـ أو: ثَقفِيٌّ وخَتَناهُ قُرشيَّان ـ كَثِيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فقهُ قلوبهم. فتكلَّموا بكلامٍ لم أسمعه، فقال أحدهم: أتُرونَ أن الله يسمَعُ كلامَنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعه، وإذا لم نرفعه لم يسمَعْه. فقال الآخر: إن سَمِع منه شيئاً سَمِعَهُ كُلَّه. قال: فذكرت ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وما كنتم تَسْتَتِرُون أن يَشهَد عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودكم ﴾، إلى قوله: ﴿ من الخاسرين ﴾[4].

---

(٣) أي: أعضائه، جمع إِرْب.

(١) قَدَّس الله فلاناً: طَهَّره، وبارك عليه.

(٢) أخرجه ابن ماجه عن سعيد بن سويد، بإسناده، في كتاب الفتن ٢/١٣٢٩.

(٣) الخَتَنُ: زوج البنت.

(٤) مسند أحمد ١/٣٨١، ٤٠٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة حمٓ السجدة ١٢/١٢٨-١٢٩، ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٤/٢١٤١-٢١٤٢، وفتح الباري، تفسير سورة حمٓ السجدة ٨/٥٦١.

وكذا رواه الترمذي عن هَنَّاد، عن أبي معاوية، بإسناده نحـوه. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً، من حديث سفيانَ الثَّوري، عن الأعمش، عن عُمارة بن عُمَير، عن وَهْب بن رَبِيعَة، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحـوه. ورواه البخاري ومسلم أيضاً، من حديث السفيانَين، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ، عن أبي معمرٍ عبد الله بن سَخْبرة، عن ابنِ مسعودٍ، بـه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعمر، عن بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ أن يشهَدَ عليكُم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ﴾، قال «إنكم تُدعَون مُفَدَّما على أفواهكم بالفِدَام، فأوَّلُ شيءٍ يُبين عن أحدِكم فَخِذُه وكَفُّه»[١].

قال معمرٌ: وتلا الحسن ـ رحمه الله ـ: ﴿ وذلكم ظنُّكم الذي ظننتُم بربِّكم أرداكُم ﴾، ثم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قال الله: أنا مع عَبدِي عندَ ظنِّه بي، وأنا مَعَه إذا دعاني»[٢]. ثم أَفْتَرَ[٣] الحسنُ ينظرُ في هذا، فقال: ألا إنما عَمَلُ الناس على قَدرِ ظُنُونهم بربِّهم، فأما المؤمنُ فأحسنَ الظنَّ بربه فأحسنَ العَمَلَ، وأما الكافرِ والمنافق فأساءا الظَّنَّ بالله فأساءا العملَ، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿ وما كنتُم تَستَتِرُون أن يشهدَ عليكُم سمعكُم ولا أبصارُكم ﴾، إلى قوله: ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا النضر بن إسماعيل القاصُّ ـ وهو أبو المغيرة ـ حدثنا ابنُ أبي لَيلى، عن أبي الزُّبير، عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يَموتنَّ أحدٌ منكم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظنَّ، فإن قوماً قد أرداهُم سوءُ ظَنِّهم بالله، فقـال الله تعالى: ﴿ وذلكُم ظَنُّكم الـذي ظننتُم بربِّكم أرداكُم فـأصبحتُم من الخاسرين ﴾»[٤].

وقولُه: ﴿ فإن يَصبِرُوا فالنار مثوًى لهم وإن يَستعتِبُوا فما هم من المُعتَبين ﴾، أي: سواءٌ عليهم أَصَبرُوا أم لم يَصبِرُوا هم في النار، لا مَحِيدَ لهم عنها، ولا خُروجَ لهم منها. وإن طَلبوا أن يَستعتِبُوا ويُبدوا أعذاراً فما لهم أعذارٌ، ولا تُقالُ لهم عَثَراتٌ.

قال ابنُ جرير: ومعنى قوله: ﴿ وإن يَستعتِبُوا ﴾، أي: يسألوا الرجعةَ إلى الدنيا، فلا جوابَ لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿ قالوا ربَّنا غَلَبَتْ علينا شِقْوتنا وكنا قوماً ضالين * ربَّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمونِ ﴾.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦٥ من سورة يس، ومُفَدَّماً: موضوعاً عليها الفِدامُ، وهو: ما يوضع على الفَم سِدَاداً له، وما يُشدُّ على فم الإبريق ونحوه لتصفية ما فيه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، عن أنس ٣/٢٧٧، والطبراني في كتاب الدعاء ٢/٧٩٣. وقال في مجمع الزوائد ١٠/١٤٨: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح».

(٣) يقال: أَفْتَرَ الرجل: ضَعُفَت جفونه فانكسَر طَرْفُه. والمراد هنا ـ والله أعلم ـ أنَّ هذا كان من الحَسَن لا عن ضَعفٍ، شأن من يُديم النظر في أمرٍ من الأمور.

(٤) مسند أحمد ٣/٣٩٠ ـ ٣٩١.

جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يذكرُ تعالى أنه هو الذي أضلَّ المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكَونه وقُدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَيَّض لهم من القُرناء من شياطين الإنس والجنِّ: ﴿ فَزَيَّنُوا لهم ما بين أيديهم وما خلْفَهم ﴾، أي حَسَّنوا لهم أعمالَهم في الماضي، وبالنسبةِ إلى المستقبل فلم يَروا أنفُسَهم إلا مُحسِنين، كما قال تعالى: ﴿ ومن يَعْشُ عن ذكرِ الرحمنِ نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرينٌ* وإنهم ليَصدُّونَهم عن السبيلِ ويحسَبُون أنهم مُهتَدُون ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وحَقَّ عليهمُ القولُ ﴾، أي: كَلِمَةُ العذاب كما حَقَّ على أُمَم قد خَلَت من قبلهم، ممن فَعَل كَفِعلهم، من الجنِّ والإنس، ﴿ إنهم كانوا خاسِرين ﴾، أي: استَوَوا هم وإيَّاهم في الخَسار والدَّمارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وقال الذين كَفَرُوا لا تسمَعُوا لهذا القرآنِ ﴾، أي: تَواصَوا فيما بينهُم ألاَّ يُطِيعُوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره، ﴿ والغَوا فيه ﴾، أي: إذا تُلِي لا تَستمِعُوا له. كما قال مجاهد: ﴿ والغَوا فيه ﴾، يعني بالمُكاء والصَّفير والتخليط في المنطق على رسولِ الله - ﷺ - إذا قرأ القرآنَ قريشٌ تفعَلُه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ والغَوا فيه ﴾: عَيِّبوه. وقال قتادةُ: اجحَدُوا به، وأنكِرُوهُ، وعادُوه[1].

﴿ لعلَّكُم تَغلِبُون ﴾: هذا حالُ هؤلاء الجهلةِ من الكفار، ومن سَلَكَ مَسْلَكهم عند سماع القرآنِ. وقد أمر الله - سبحانه - عبادَهُ المؤمنين بخلافِ ذلك فقال: ﴿ وإذا قُرِئ القرآنُ فاستَمِعُوا له وأنصتوا لعلكم تُرحَمُون ﴾.

ثم قال تعالى مُنتصِراً للقرآن، ومنتقِماً ممن عاداه من أهل الكُفران: ﴿ فلَنُذِيقَنَّ الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾، أي: في مقابلة ما اعتمَدُوه في القرآن وعند سماعه، ﴿ وَلَنجزيَنَّهم أسوأ الذي كانوا يعمَلُون ﴾، أي: بِشَرِّ أعمالهم، وسَيِّىءِ أفعالِهم ﴿ ذلك جزاءُ أعداءِ الله النارُ لهم فيها دارُ الخلدِ جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحَدُون* وقال الذين كفروا ربَّنا أرِنا اللَّذَينِ أضلَّانا من الجنِّ والإنسِ نَجعَلْهما تحتَ أقدامِنا ليكُونا من الأسفَلين ﴾.

قال سُفيان الثَّوريُّ، عن سَلَمَة بن كُهَيل، عن مالك بن الحُصَين الفَزارِيِّ، عن أبيه، عن عليٍّ - رضي الله عنه - في قوله: ﴿ اللَّذَينِ أضلانا ﴾، قال: إبليسَ وابنَ آدم الذي قَتَل أخاه، وهكذا رَوى حَبَّة العُرَنِيُّ عن علي، مثل ذلك.

وقال السُّدِّيُّ، عن علي: فإبليسُ يدعُو به كلُّ صاحِب شِرْكٍ، وابنُ آدم يدعُو به كُل صاحب كبيرة، فإبليس - لعنه الله - هو الداعي إلى كل شرٍّ من شركٍ فما دونه، وابنُ آدم الأولُ. كما ثبت في الحديث: «ما قُتِلَت نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابنِ آدم الأولِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتلَ»[2].

وقولُه: ﴿ نَجعلْهما تحتَ أقدامِنا ﴾، أي: أسفلَ منا في العذاب ليكونا أشدَّ عذاباً منا، ولهذا قالوا: ﴿ ليكُونا من الأسفَلين ﴾ أي: في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ، كما تقدَّم في «الأعراف» من سُؤال الأتباع من الله أن يُعَذِّب قادتهم أضعافَ عذابهم، قال: ﴿ لِكلٍّ ضِعْفٌ ولكن لا تعلمون ﴾[3]، أي: إنه تعالى قد أعطى كُلّاً منهم ما يستحِقُّه من العذاب والنَّكالِ، بحسب عَمَلِه وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ الذين كفَرُوا وصَدُّوا عن سبيلِ اللَّهِ زِدناهُم عذاباً فوقَ العذاب بما كانوا يُفسِدُون ﴾[4].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/١١٢.

(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢٩ من سورة المائدة ١٣ من سورة العنكبوت، وخرجناه هنالك.

(٣) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٨٨ من سورة النحل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يَقول تعالى: ﴿ إن الذين قالُوا ربُّنا الله ثم استقامُوا ﴾ أي: أخلَصُوا العَمَلَ لله، وعَمِلُوا بطاعةِ الله تعالى على ما شرعَ الله لهم.

قال الحافظ أبو يَعلَى الموصليُّ: حدثنا الجراحُ، حدثنا سَلْم بن قُتَيبة أبو قُتَيبة الشَّعيريُّ، حَدَّثنا سُهَيل بن أبي حَزم، حدثنا ثابتٌ، عن أنس بن مالكٍ قال: قرأ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿ إن الذين قالُوا ربُّنا الله ثم استقامُوا ﴾، قد قالها ناسٌ ثم كَفَر أكثرُهم، فَمَن قالها حتى يموتَ فقد استقام عليها[١].

وكذا رواه النسائيُّ في تفسيره، والبزَّارُ وابنُ جرير، عن عمرو بن علي الفَلَّاس، عن سَلْمِ بن قُتَيبة، به[١]. وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابنُ جَرير:

حدثنا ابنُ بشَّار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيانُ، عن أبي إسحاقَ، عن عامرِ بن سعدٍ، عن سعيدِ بن نِمْران قال: قرأت عند أبي بكرٍ الصِّديق هذه الآية: ﴿ إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ﴾، قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً[١].

ثم روى من حديث الأسودِ بن هِلالٍ قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ما تقولُون في هذه الآية: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾؟ قال: فقالوا ﴿ ربُّنا الله ثم استقامُوا ﴾ من ذنبٍ. فقال: لقد حَمَّلتموها على غير المحمل، ﴿ قالوا رَبُّنا الله ثم استقاموا ﴾، فلم يلتفتوا إلى إلَه غيرِه[١] وكذا قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُ واحد.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبو عبد الله الطِّهراني، أخبرنا حفصُ بن عُمر العَدَنِيُّ، عن الحَكم بنِ أبانَ، عن عكرمة قال: سُئِل ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيُّ آية في كتابِ الله أرخصُ؟ قال قوله: ﴿ إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ﴾ على شهادة أن لا إلَه إلا الله[٢].

وقال الزُّهرِيُّ: تلا عُمرَ هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يَرُوغوا رَوَغانَ الثعالب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قالـوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على أداءِ فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسنُ يقول: اللهمَّ، أنتَ ربُّنا، فارزُقنا الاستقامةَ. وقال أبو العاليةِ: ﴿ ثم استقامُوا ﴾: أخلَصُوا له العَمَل والدِّين.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هُشيم، حدثنا يعلَى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيانَ الثقفي، عن أبيه، أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، مُرني بأمرٍ في الإسلام لا أسألُ عنه أحداً بعدَك. قال: «قلْ: آمنتُ بالله، ثم استقِم»، قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه[٣].

---

(١) مسند أبي يَعْلَى ٣/٤٠٧، وقد أخرجه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير، عارضة الأحوذي، تفسير سورة حمَ السجدة ١٢/١٢٩ ـ ١٣٠، وسنن النسائي الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ١/١٣٩، وتفسير الطبري ٢٤/١١٤ ـ ١١٥.
(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٧/٣٢٢، وفيه: أيُّ آيةٍ في كتاب الله أرْحَبُ؟ ومعنى أرخص وأرحب: أيْسَرُ.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٣٨٤ ـ ٣٨٥، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٤/٢٠.

ورواه النَّسائيُّ من حديث شعبة، عن يَعلَى بن عطاء، بـه. ثم قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا إبراهيم بن سُعدٍ، حدثني ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامِدِيِّ، عن سفيانَ بن عبدالله الثقفي قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، حدِّثني بأمر أعتصِمُ به. قال: «قُل: ربِّي الله، ثم استقِم». قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، ما أكثَرَ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بطرفِ لسانِ نفسه، ثم قال: «هذا»(١).

وهكذا رواه التِّرمذيُّ وابنُ ماجه، من حديث الزُّهري، به. وقال الترمذي: حسن صحيح(١). وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائيُّ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنتُ بالله، ثم استقم»(٢). وذكر تمام الحديث.

وقولُه: ﴿ تتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ ﴾، قال مجاهد، والسُّدِّي، وزيدُ بن أسلَمَ، وابنُه: يعني عندَ الموتِ قائلين ﴿ ألَّا تخافُوا ﴾، قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، وزيدُ بن أسلَمَ: أي مما تُقدِمون عليه من أمر الآخرة، ﴿ ولا تحزَنُوا ﴾، على ما خَلَّفتُموه من أمر الدنيا، من ولدٍ وأهلٍ، ومالٍ أو دينٍ، فإنا نَخْلُفكم فيه، ﴿ وأبشِرُوا بالجنَّةِ التي كُنتمْ تُوعَدُون ﴾ فَيبشِّرونهم بذهاب الشرِّ وحُصُولِ الخير.

وهذا كما في حديث البَراء ـ رَضِي الله عنه ـ: «إن الملائكَةَ تقولُ لرُوحِ المؤمن: اخرُجي أيتُها الروحُ الطيِّبَة في الجسدِ الطيِّبِ كنتِ تَعمُرينه، اخرُجي إلى رَوحٍ وريحانٍ، ورَبٍّ غيرِ غضبان»(٣).

وقِيلَ: إنَّ الملائكة تتنزَّلُ عليهم يوم خُروجِهم من قُبورهم: حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسُّديِّ(٤).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، حدثنا جعفرُ بن سليمان: سَمِعتُ ثابتاً قرأَ سورة «حمَ السجدة»، حتى بَلَغ: ﴿ إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ﴾. فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يَبعثُه الله من قبره يَتلقَّاه المَلَكانِ اللَّذانِ كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تَخَف ولا تحزن، ﴿وأبشِرُوا بالجنة التي كُنتم تُوعَدون﴾. قال: فَيُؤمِنُ الله خوفَه، ويُقِرُّ عينَه، فما عَظِيمةٌ يَخْشى الناس يومَ القيامةِ إلا هي للمؤمنِ قُرَّةُ عينٍ، لِمَا هَدَاه الله، ولِمَا كَانَ يَعمَلُ له في الدُّنيا.

وقال زيدُ بن أَسْلَمَ: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القولُ يجمع الأقوال كلَّها، وهو حسن جداً، وهو الواقع.

وقولُه: ﴿ نحن أولياؤُكم في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة ﴾، أي: تقولُ الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كُنَّا أولياءَكم، أي: قُرناءَكم في الحياة الدنيا، نُسدِّدكم ونُوفِّقكم، ونَحفظُكم بأمر الله، وكذلك نكون مَعَكُم في الآخرةِ نُؤنِسُ منكم الوحشةَ في القُبورِ، وعند النفخةِ في الصُّورِ، ونُؤمِّنكم يوم البَعث والنشُورِ، ونجاوِزُ بكم الصِراطَ المستقيمَ، ونُوصِّلكم إلى جناتِ النعيم. ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾، أي: في الجنةِ من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوسُ، وتَقَرُّ به العيونُ، ﴿ ولكم فيها ما تَدَّعون ﴾، أي: مهما طلبتم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤١٣/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٢٤٩/٩، ومسلم، كتاب الإيمان ٦٥/١.

(٣) هذا لفظ حديث أبي هريرة، وقد تقدم عند تفسير الآية ٦٢ من سورة الأنعام، فأما حديث البراء فقد تقدم عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.

(٤) تفسير الطبري ١١٦/٢٤ ـ ١١٧.

وجدتم، وحَضَر بين أيديكم كما اخترتم، ﴿ نُزُلاً من غَفُورٍ رَحيم ﴾، أي: ضيافةً وعطاءً وإنعاماً من غَفُورٍ لِذُنوبكم، رحيمٍ بكـم رءوفٍ، حيث غَفَر، وسَتَر، ورَحِم ولَطَف.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿ ولكم فيها ما تَشْتَهِي أنفسُكم ولكم فيهامَا تدَّعون * نُزُلاً من غفورٍ رحيم ﴾، فقال:

حدثنا أبي، حدثنا هشامُ بن عَمّار، حدثنا عبدُ الحميد بن حَبيب بن أبي العشْرين أبي سَعيد، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني حَسّان بن عطيـة، عن سَعيد بن المسيَّب: أنه لَقِيَ أبا هُرَيرَة، فقال أبو هُرَيرَة: نسأل الله أن يَجمع بيني وبينك في سُوقِ الجنة. فقال سعيد: أوَ فيها سوقٌ؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ـ ﷺ ـ أنَّ أهلَ الجنةِ إذا دخلُوا فيها نَزَلوا بفضلِ أعمالِهم، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجُمُعةِ من أيام الدنيا فَيَزورُون الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ويبرُزُ لهم عرشُه، ويَتَبدَّى لهم في روضةٍ من رياضِ الجنةِ، وتُوضَعُ لهم منابرُ من نورٍ، ومنابرُ من لؤلؤٍ، ومنابرُ من ياقوتٍ، ومنابرُ من زَبَرْجدٍ، ومنابرُ من ذهب، ومنابر من فضةٍ، ويجلسُ أدناهم وما فيهم دَنِيء على كُثبان المسكِ والكافورِ، ما يُرَونَ بأن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسولَ الله، وهلِ نَرَى ربنا؟ قال: «نعم، هل تَتمارَون في رُؤيةِ الشمسِ والقمرِ ليلَةَ البدر؟» قلنا: لا. قال ـ ﷺ ـ: «فكذلك لا تَتمارون في رُؤية ربِّكم تعالى، ولا يبقى في ذلك المجلسِ أحدٌ إلا حاضره[1] الله محاضرةً، حتى إنه ليقُول للرجل منهم: يا فلانُ بن فلانٍ، أتذكُر يومَ عَمِلت كذا وكذا؟ ـ يُذَكِّره ببعض غَدَراته في الدنيا ـ فيقول: أيْ ربِّ، أفَلَم تغفِرَ لي؟ فيقول: بلى، فَبِسَعَةِ مغفرتي بلغتَ منزِلَتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك غَشِيَتهم سحابةٌ من فوقهم، فأمطرَت عليهم طِيباً لم يَجِدُوا مثلَ ريحه شيئاً قطُّ. قال: ثم يقول ربنا ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: قوموا إلى ما أعددتُ لكم من الكرامة، وخُذوا ما اشتهيتم. قال: فنأتي سُوقاً قد حَفَّت به الملائكةُ، فيها ما لم تنظُر العيونُ إلى مثله، ولم تَسمَع الآذانُ، ولم يخطُر على القلوبِ. قال: فَيُحمَلُ لنا ما اشتهينا، ليس يُباعُ فيه شيءٌ ولا يُشترَى، وفي ذلك السوق يلقى أهلُ الجنةِ بعضُهم بعضاً. قال: فيُقبِلُ الرجلُ ذو المنزلةِ الرفيعةِ، فيلقَى مَن هو دُونَه ـ وما فيهم دَنِيء فيَرُوعُه ما يرى عليه من اللِّبـاسِ، فما ينقضِي آخرُ حديثه حتى يَتَمثَّلَ عليه أحسنُ منه، وذلك لأنه لا ينبغي لأحدٍ أن يحزَن فيها.

ثم ننصرفُ إلى منازلنا، فَيَتلقَّانا أزواجُنا فيقلن: مرحباً وأهلاً بِحِبِّنا، لقد جِئتَ وإن بك من الجمالِ والطِّيب أفضلَ مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليومَ ربَّنا الجبار ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وَيِحقُّنا أن نَنْقلِبُ بمثلِ ما انقلبنا به.

وقد رواه الترمذيُّ في «صِفة الجنة» من جامِعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابنُ ماجه عن هشام بن عَمّار، به نحوه. ثم قال الترمذيُّ: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»[2].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ابن أبي عديٍّ، عن حُميدٍ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِه لقاءَ الله كَرِه الله لقاءه». قلنا: يا رسولَ الله، كُلُّنا نكرَه الموتَ؟ قال: «ليس ذلك كراهيةَ الموتِ، ولكن المؤمنَ إذا حُضِرَ[3] جاءه البشيرُ من الله بما هو صائرٌ إليه، فليـس شيءٌ أحبَّ إليه من أن

---

(١) أي: كشف الحجاب مع العبد وقاوله من غير ترجمان.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/١٦ ـ ١٧، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٥٠ ـ ١٤٥١.

(٣) أي: حضره الموت.

يكونَ قد لَقِيَ الله فأحبَّ الله لقاءه ـ قال: وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر جاءَه بما هو صائرٌ إليه من الشرِّ ـ أو: ما يَلقى من الشرِّ ـ فَكَرِه لقاءَ الله، فَكَرِه الله لقاءَه»[(١)].

وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه[(١)].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ومَن أحسنُ قولاً ممن دَعَا إلى الله ﴾، أي: دعا عبادَ الله إليه، ﴿ وعَمِل صالحاً وقال إنَّني مِنَ المسلمين ﴾، أي: وهو في نفسه مهتدٍ بما يقوله، فَنَفعُه لنفسه ولغيره لازمٌ ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمرُون بالمعروف ولا يأتونه، وينهَون عن المنكر ويأتُونه، بل يأتمر بالخير ويترُك الشرَّ، ويدعُو الخَلْقَ إلى الخالِق تباركَ وتعالى. وهذه عامةٌ في كلِّ مَن دعا إلى خَيرٍ، وهو في نَفسِه مهتدٍ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرينَ، والسُّدِّيُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المرادُ بها المؤذِّنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطولُ الناسِ أعناقاً يوم القيامة»[(٢)]. وفي السُّنَن مرفوعاً: «الإمامُ ضامنٌ، والمؤذِّن مؤتمَن، فأرشدَ الله الأئمةَ، وغَفَر للمؤذِّنين»[(٣)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين. حدثنا محمد بن عَمْرَوَيه[(٤)] الهَرَوِيُّ، حدثنا غَسَّان قاضي هَرَاةَ ـ وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طَهمان، عن مَطَرٍ، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: «سهامُ المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المُجاهِدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحِّط[(٥)] في سبيل الله في دمه».

قال: وقال ابنُ مسعودٍ: «لو كنتُ مُؤذِّنا ما باليتُ ألَّا أحجَّ، ولا أعتمِر، ولا أجاهِدَ».

قال: وقال عُمَر بن الخطاب: لو كنتُ مُؤذِّناً لكَمُلَ أمري، وما باليتُ ألَّا أنتصِبَ لقيام الليل ولا لصيام النهار، سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «اللهُمَّ اغفِر للمُؤذِّنين، ثلاثاً. قال: فقلتُ يا رسولَ الله، تركتَنا ونحن نَجْتلِدُ على الأذانِ بالسيوفِ. قال: كـلاَّ يا عُمَر، إنه يأتي على الناس زَمانٌ يتركون الأذانَ على ضُعَفائهم، وتلك لحومٌ حَرَّمها الله على النارِ، لحومُ المؤذِّنيـنَ».

قال: وقالت عائشةُ: ولهم هذه الآية: ﴿ ومَن أحسنُ قولاً ممن دَعا إلى اللهِ وعَمِل صالحاً وقال إنَّني من المسلمينَ ﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال «حَيَّ على الصلاةِ»، فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابنُ عمر، وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين.

(١) مسند الإمام أحمد ١٠٧/٣، وفتح الباري، كتاب الرقاق ٣٥٧/١١، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٦٥/٤ ـ ٢٠٦٦.
(٢) مسلم، كتاب الصلاة ٢٩٠/١.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٨/٢. ومسند الإمام أحمد ٢٣٢/٢، ٢٨٤، ٢٦٠/٥، ٦٥/٦.
(٤) في نسخة الأزهر: عروية.
(٥) أي: المتمرِّغ.

وقد ذَكَر البَغَوِيُّ عن أبي أمامةَ الباهِلِيِّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في قوله: ﴿ وَعمِل صالحاً ﴾، قال: يعني صلاةَ ركعتين بين الأذانِ والإقامة[(١)].

ثم أورد البَغَوِيُّ حَديثَ «عبد الله بن المُغَفَّل» قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بين كلِّ أذانَين صلاةٌ» [ثلاث مرَّات][(٢)]. ثم قال في الثالثة: «لِمن شاء»[(٣)]. وقد أخرجه الجَماعةُ في كتبهم[(٣)]، من حديث عبد الله بن بُرَيدة، عنه. وَحَديثَ الثوريِّ، عن زَيد العَمِّي، عن أبي إياس معاوية بن قُرَّةَ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال الثوريُّ: لا أراه إلا[(٤)] قد رفعه إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ: «الدعاء لا يُرَدُّ بين الأذانِ والإقامة»[(٤)]. ورواه أبو داود، والترمذيُّ، والنسائيُّ في «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثَّوري، به. وقال الترمذيُّ: «هذا حديث حسن»[(٤)]. ورواه النسائيُّ أيضاً من حديث سليمان التيمي، عن قتادةَ عن أنس، به[(٤)].

والصحيحُ أن الآيةَ عامةٌ في المؤذِّنين وفي غيرهم، فأما حالُ نزولِ هذه الآيةِ فإنه لم يكن الأذانُ مشروعاً بالكلِّية، لأنها مَكِّية، والأذانُ إنما شُرِع بالمدينةِ بعد الهجرة، حين أُرِيَهُ عبدُ الله بنُ زيدِ بن عبدِ رَبِّه الأنصاريُّ في منامه، فقصَّه على رسول الله ـ ﷺ ـ فأمره أن يُلقِيَه على بلالٍ فإنه أندى صوتاً، كما هو مقرر في موضِعِه، فالصحيحُ إذاً أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمرٍ، عن الحسنِ البصريِّ: أنه تلا هذه الآية: ﴿ ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعَمِل صالحاً وقال إنَّني من المسلمين ﴾، فقال: هذا حبيبُ اللَّهِ، هذا وَلِيُّ الله، هذا صفوةُ اللَّهِ، هذا خِيَرَةُ الله، هذا أحبُّ أهل الأرضِ إلى اللَّهِ، أجابَ الله في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفةُ الله.

وقولُهُ: ﴿ ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ﴾، أي: فرقٌ عظيمٌ بين هذه وهذه، ﴿ ادفَع بالَّتِي هي أحسنُ ﴾ أي: من أساءَ إليك فادفَعه عنكَ بالإحسانِ إليه، كما قال عُمَر: ما عاقبتَ من عَصَى الله فيكَ بمثلِ أن تُطيع الله فيه.

وقولُهُ: ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميمٌ ﴾، وهو الصديق، أي: إذا أحسنتَ إلى مَن أساءَ إليك قادته تلك الحسنةُ إليه إلى مصافاتِك ومحبَّتِكَ، والحنوّ عليكَ، حتى يصير كأنه وَلِيٌّ لكَ حَمِيمٌ، أي: قريبٌ إليكَ مِن الشفقةِ عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿ وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا ﴾، أي: وما يقبَلُ هذه الوصيَة ويعمَل بها إلا مَن صَبَر على ذلك، فإنه يَشُقُّ على النفوس، ﴿وما يُلَقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيمٍ ﴾ أي: ذُو نصيبٍ وافرٍ من السعادةِ في الدنيا والأخرى.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرِ هذه الآية: أمر الله المؤمنينَ بالصبرِ عند الغضب، والحلمِ عند الجهلِ، والعفوِ عند الإساءةِ، فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَمهم الله من الشيطانِ، وخَضع لهم عدوُّهم كأنه وِلِيٌّ حَمِيمٌ[(٥)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/١١٤.

(٢) عن تفسير البغوي.

(٣) تفسير البغوي ٤/١١٤ ـ ١١٥، وفتح الباري، كتاب الأذان ٢/١٠٦، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٧٣، وسُنَن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٢٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ١/٣٠٠، والنسائي، كتاب الأذان ٢/٢٨، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٣٦٨، ومسند الإمام أحمد ٤/٨٦، ٥/٥٤، ٥٦، ٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٥. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٤٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/١٣. وأخرجه النسائي في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزّي ١/٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، والبيهقي في سُنَنه، كما في الدر المنثور ٧/٣٢٧.

وقولُهُ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ من الشيطان نزغٌ فاستَعِذ باللَّهِ ﴾ أي: إنَّ شيطان الإنس ربما ينخدعُ بالإحسان إليه، فأما شيطانُ الجن فإنه لا حيلةَ فيه إذا وَسْوَس إلا الاستعاذةُ بخالقه الذي سَلَّطه عليكَ، فإذا استعذتَ باللَّهِ ولجأتَ إليه، كَفَّه عنك ورَدَّ كيدَه. وقد كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا قام إلى الصلاةِ يقولُ: «أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيم، مِن هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه»(١) وقد قدَّمنا أن هذا المقامَ لا نظيرَ له في القرآن إلا في [سُورة الأعرافِ] عند قوله تعالى: ﴿ خُذ العفوَ وأمُر بالعُرفِ وأعرض عن الجاهِلين * وإمَّا ينزغَنَّكَ من الشيطانِ نزغٌ فاستعِذْ بالله إنه سَميعٌ عليم ﴾، وفي سورة المؤمنين عند قولِه: ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ السيئة نحنُ أعلمُ بما يَصِفُون * وقل رَبِّ أعوذُ بك من هَمَزاتِ الشيطان * وأعوذُ بِكَ ربِّ أن يَحضُرونِ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى منبهاً خَلْقَه على قُدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظيرَ له، وأنه على ما يشاءُ قادر، ﴿ ومن آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ ﴾، أي: إنه خَلَق الليلَ بظلامه، والنهارَ بضيائِه، وهما متعاقبان لا يَقِرّان، والشمسَ ونورَها وإشراقَها، والقمرَ وضياءَه وتقديرَ منازلِه في فَلَكِه، واختلافَ سيرِه في سمائِه، لِيُعرَف باختلافِ سيرِه وسيرِ الشمسِ مقاديرُ الليل والنهار، والجُمَعُ والشهورُ والأعوامُ، وتتبيَّنُ بذلك حلولُ الحقوقِ، وأوقاتُ العباداتِ والمعاملاتِ.

ثم لما كان الشمسُ والقمرُ أحسنَ الأجرام المشاهَدَةِ في العالم العُلويِّ والسُفليِّ، نَبَّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيدِه، تحت قهره وتَسخيره، فقال: ﴿ لا تسجدُوا للشمس ولا للقمر واسجُدُوا لله الذي خلقهُنَّ إن كنتُم إيَّاه تعبدون ﴾، أي: ولا تُشركوا به، فما تنفعُكم عبادتُكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يُشرَكَ به. ولهذا قال: ﴿ فإنِ استكبَرُوا ﴾، أي: عن إفرادِ العبادةِ له وأبوا إلا أن يُشركوا مَعَه غيره، ﴿ فالذين عند رَبِّك ﴾، يعني الملائكةَ ﴿ يُسَبِّحون له بالليل والنهار وهم لا يَسأمُون ﴾. كقوله: ﴿ فإن يكفُرْ بها هؤلاء فقد وَكَّلنا بها قوماً ليسُوا بها بكافرين ﴾.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيانُ ـ يعني ابنُ وَكيع ـ حدثنا أبي، عن ابن أبي لَيلى، عن أبي الزُبير، عن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَسبُّوا الليل ولا النهار، ولا الشمسَ ولا القمرَ، ولا الرياح فإنها تُرسَلُ رحمةً لقوم، وعذاباً لقوم»(٢).

وقولُهُ: ﴿ ومن آياته ﴾، أي: على قُدرته على إعادةِ الموتى ﴿ أنَّك ترى الأرضَ خاشعةً ﴾، أي: هامدةً لا نباتَ فيها، بل هي مَيِّتَةٌ، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وَرَبت ﴾، أي: أخرجَت مِن جميلِ ألوانِ الزُروع والثمارِ، ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيءٍ قديرٌ ﴾.

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الاستعاذة، وعند تفسير الآية ٩٧ من سورة المؤمنون، وخرجناه هنالك.

(٢) مسند أبي يعلى ٢/٤٤٤.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾

وقولُهُ: ﴿ إن الذين يُلحِدُون في آياتنا ﴾، قال ابن عباس: الإلحادُ وضعُ الكلام على غير مواضعه. وقال قتادةُ، وغيره: هو الكفرُ والعِنادُ[١].

وقولُهُ: ﴿ لا يَخفون علينا ﴾ فيه تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، أي: إنه تعالى عالمٌ بمن يُلحِدُ في آياته وأسمائه وصفاته، وَسَيجزيه على ذلك بالعقوبةِ والنَّكالِ. ولهذا قال: ﴿أفمن يُلقَى في النارِ خيرٌ أم من يأتي آمناً يومَ القيامة﴾، أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يَستَوِيانِ.

ثـم قال ـ عزّ وجلّ ـ مُهدِّداً للكفَرة: ﴿ اعملوا ما شِئتُم ﴾، قال مجاهدٌ، والضحَّاك، وعطاءٌ الخُراسانيُّ: ﴿ اعملوا ما شِئتُم ﴾. وعيدٌ، أي: من خيرٍ أو شرٍّ، إنه عالم بكم وبَصيرٌ بأعمالكم. ولهذا قال: ﴿ إنه بما تعمَلُون بصير﴾.

ثم قال: ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾، قال الضحاك، والسُّدِّيُّ، وقتادةُ: وهو القرآن، ﴿ وإنه لكتاب عزيزٌ ﴾، أي: منيعُ الجَنابِ، لا يُرامُ أن يأتي أحدٌ بمثله، ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفِه ﴾، أي: ليس للبطلانِ إليه سبيلٌ، لأنه مُنزل من ربِّ العالمين. ولهذا قال: ﴿ تنزيلٌ من حكيم حَميدٍ ﴾، أي: حكيمٍ في أقواله وأفعاله، حميدٍ بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمُر به وينهَى عنه، الجميعُ محمودةٌ عواقبُه وغاياتُه.

ثم قال: ﴿ ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرُّسُل من قَبلِكَ ﴾، قال قتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كُذِّبْتَ فقد كُذِّبوا، وكما صَبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنتَ على أذى قومكَ لك. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ[١]، ولم يَحكِ هو، ولا ابنُ أبي حاتم غيرَه.

وقولُهُ: ﴿ إن ربَّك لذو مَغفِرَة ﴾، أي: لمن تاب إليه، ﴿ وذو عِقابٍ أليم ﴾، أي: لمن استمرَّ على كُفرِه وطُغيانِه، وعِنادِه وشِقاقه ومُخالفتِهِ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب قال: [لما] نَزلت هذه الآية: ﴿ إن ربَّك لذُو مغفِرةٍ ﴾ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ولولا عَفْوُ الله وتَجاوزُه ما هَنَأ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُه وعقابُه لاتَّكَل كلُّ أحدٍ».

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾

لما ذكر تعالى القرآنَ وفصاحتَه وبلاغتَه، وإحكامَه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبَّه

(١) تفسير الطبري ٢٤/١٢٥ ـ ١٢٦.

على أن كفرهم به كُفْرُ عنادٍ وتعنُّتٍ، كما قال: ﴿ ولو نزّلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾. وكذلك لو أنزل القرآن كلّه بلغةِ العَجَم لقالوا على وجه التعنُّتِ والعنادِ: ﴿ لولا فُصِّلت آياته ءَأعجمي وعَرَبيٌّ ﴾، أي: لقالوا: هلا أنزل مُفَصَّلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجَمِيٌّ وعربي؟ أي: كيف ينزل كلامٌ أعجميٌّ على مخاطَبٍ عَرَبيٍّ لا يفهَمُه. هكذا رُوِي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهدٍ، وعكرمَةَ، وسعيد بن جُبَير، والسُّدي، وغيرهم.

وقيلَ: المرادُ بقولهم: ﴿ لولا فُصِّلت آياته ءَأعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ ﴾ أي: هَلَّا أنزل بعضُها بالأعجَمِيِّ، وبعضُها بالعربي. هذا قولُ الحسنِ البصريِّ، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهامٍ في قوله ﴿ أعْجَمِيٌّ ﴾[١]، وهو رواية عن سعيد بن جُبَير. وهو في العِنادِ أبلغُ.

ثم قال تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنُوا هُدىً وشِفاءٌ ﴾، أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هُدىً لقلبه، وشفاءٌ لما في الصدور من الشُكوكِ والرِّيَب، ﴿ والذين لا يُؤمِنُون في آذانهم وَقرٌ ﴾، أي: لا يفهَمُون ما فيه، ﴿ وهو عليهم عَمىً ﴾، أي: لا يَهتَدُون إلى ما فيه من البيانِ، كما قال تعالى: ﴿ ونُنَزِّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يَزيدُ الظالمين إلا خَساراً ﴾.

﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾، قال مجاهدٌ: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه كَأنَّ مَن يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمُون ما يقولُ[٢].

قلتُ: وهذا كقوله تعالى: ﴿ ومثلُ الذين كَفَرُوا كمثل الذي ينعِقُ بما لا يسمَعُ إلا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بكمٌ عميٌ فَهُم لا يعقلون ﴾.

وقال الضَّحَّاك: يُنادَون يومَ القيامة بأشنعِ أسمائهم.

وقال السُّدِّيُّ: كان عُمر بن الخطاب جالساً عند رجل من المسلمين يقضِي، إذ قال: يالَبَّيكاهُ. فقال عمر: لم تُلَبِّي؟ هل رأيتَ أحداً، أو دَعاك أحدٌ؟ قال: دعانِي داعٍ من وراءِ البحرِ. فقال عُمَر: أولئك ينادَون من مكانٍ بعيد. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُهُ: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِف فيه ﴾، أي: كُذِّب وأُوذِيَ، ﴿ فاصبر كما صَبَرَ أولوا العزِ من الرُّسُل ﴾. ﴿ ولولا كَلِمَةٌ سَبَقت من ربِّك ﴾ إلى أجلٍ مُسمًّى بتأخير الحساب إلى يوم المَعادِ، ﴿ لَقُضِي بينهم ﴾، أي: لَعُجِّل لهم العذابُ، ﴿ بل لهم موعدٌ لَن يَجِدُوا من دُونِهِ مَوئلاً ﴾، ﴿ وإنهم لفي شَكٍّ منه مُريب ﴾، أي: وما كان تَكذيبُهم له عن بَصيرةٍ منهم لِما قالُوا، بل كانوا شاكِّين فيما قالوا، غير مُحقِّقين لشيءٍ كانُوا فيه. هكذا وَجَّهه ابنُ جَرِيرٍ[٣]، وهو مُحتَمِلٌ. والله أعلم.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

(١) أخرجه الطبري ٢٤/١٢٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/١٢٨.
(٣) تفسير الطبري ٢٤/١٣٠.

يقولُ تعالى: ﴿ مَن عَمِل صالحاً فلنفسه ﴾، أي: إنما يعودُ نفعُ ذلك على نفسِهِ، ﴿ ومَن أساء فعليها ﴾، أي: إنما يرجع وبَالُ ذلك عليه، ﴿ وما ربُّك بظلَّام للعبيد ﴾، أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسالِ الرسُولِ إليه.

ثم قال: ﴿ إليه يُرَدُّ علمُ الساعةِ ﴾، أي: لا يَعلم ذلك أحدٌ سواه، كما قال ـ ﷺ ـ، وهو سَيِّد البشر لجبريل وهو من ساداتِ الملائكةِ ـ حين سأله عن الساعةِ، فقال: «ما المسئُولُ عنها بأعلَمَ مِنَ السائلِ»[(١)]. وكما قال تعالى: ﴿ إلى ربِّك مُنتهاها ﴾. وقال: ﴿ لا يُجلِّيها لوقتِها إلا هُو ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وما تخرج من ثَمَرةٍ[(٢)] من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تَضعُ إلا بعلمِهِ ﴾، أي: الجميعُ بعلْمِه، لا يعزُب عن عِلْمِه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض، ولا في السماءِ. وقد قال تعالى: ﴿ وما تسقُط من ورقةٍ إلا يَعلَمُها ﴾، وقال جلَّت عظمتُه: ﴿ يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تَغيض الأرحامُ وما تزدادُ وكلُّ شيء عندَه بمقدارٍ ﴾. وقال: ﴿ وما يعمر من مُعمَّر ولا يُنقَصُ من عُمُرِهِ إلا في كتابٍ إن ذلك على الله يسير ﴾.

وقولُهُ: ﴿ ويومَ يُناديهم أينَ شُركائي ﴾، أي: يومَ القيامة يُنادي الله المشركينَ على رُءوس الخلائق: أين شُركائي الذين عَبدتُمُوهم معي؟ ﴿ قالوا آذنَّاك ﴾، أي: أعلمنَاكَ، ﴿ ما مِنَّا من شهيدٍ ﴾، أي: ليسَ أحدٌ منَّا اليومَ يشهَدُ أنَّ معكَ شريكاً، ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يدعُون من قبلُ ﴾، أي: ذَهبُوا فلم يَنفعُوهم، ﴿ وظنُّوا ما لهم من محيصٍ ﴾ أي: وظن المُشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿ ما لهم من مَحيصٍ ﴾، أي: لا محيدَ لهم عن عذابِ الله، كقوله تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار فَظَنُّوا أنهم مواقعوها ولم يَجِدُوا عنها مَصرِفاً ﴾.

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: لا يَمَلّ الإنسانُ من دعائه ربَّه بالخير ـ وهو: المالُ، وصحَّةُ الجسم، وغيرُ ذلك ـ وإن مَسَّه الشرُّ ـ وهو: البلاءُ أو الفقرُ ـ ﴿ فيئوسٌ قنوطٌ ﴾، أي: يَقَع في ذهنه أنه لا يتهيَّأُ له بعد هذا خيرٌ.

﴿ ولئن أذقناه رحمةً منَّا من بعدِ ضرَّاء مَسَّته ليقولنَّ هذا لي ﴾، أي: إذا أصابه خيرٌ ورزقٌ بعد ما كان في شدَّةٍ ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقُّه عند ربي، ﴿ وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ﴾، أي: يكفر بقيام الساعة لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخَر ويبطَر ويكفُر، كما قال تعالى: ﴿ كلا إنَّ الإنسانَ ليطغَى * أن رآه استغنَى ﴾. ﴿ ولئن رُجعت إلى ربِّي إن لي عنده للحسنى ﴾، أي: ولئن كان ثم معادٌ فَليُحسِنَنَّ إليَّ ربِّي، كما أحسَن إليَّ في هذه الدار، يتمنى على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع إساءته العملَ وعدمِ اليقين. قال الله تعالى: ﴿ فلَنُنبِّئنَّ الذين كفروا بما عَمِلُوا ولَنُذيقَنَّهم من عذاب غليظٍ ﴾، يتهددُ تعالى مَن كانَ هذا عملَه واعتقادَه بالعقابِ والنَّكالِ.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف، ٦٦ من سورة النمل، وخرجناه هنالك.

(٢) كذا في النسخ بالإفراد ﴿ ثَمَرةٍ ﴾. وقد قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ ثَمَراتٍ ﴾ جمعاً. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٥٧.

ثم قال: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرضَ ونأى بجانبه ﴾، أي: أعرضَ عن الطاعةِ، واستكبَرَ عن الانقيادِ لأوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كقوله تعالى: ﴿ فتولَّى بركنِهِ ﴾. ﴿ وإذا مَسَّه الشرُّ ﴾، أي: الشدة، ﴿ فذو دُعاءٍ عَريض ﴾، أي: يُطيل المسألة في الشيء الواحد. فالكلام العريضُ: ما طال لفظُه وقل معناه، والوَجيز: عكسُه، وهو: ما قلَّ ودلَّ. وقد قال تعالى: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مسَّه ﴾. . . الآية.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركين المكذِّبين بالقرآن: ﴿ أرأيتُم إن كان ﴾ هذا القرآنُ ﴿ من عند الله ثم كفرتُم به ﴾، أي: كيف تَرون حالَكم عند الذي أنزله على رَسُولهِ؟ ولهذا قال: ﴿ من أضلُّ ممن هُو في شِقاقٍ بعيدٍ ﴾، أي: في كفر وعنادٍ ومُشاقَّةٍ للحقّ، ومَسْلَكٍ بعيدٍ من الهُدَى.

ثم قال: ﴿ سَنُريهم آياتنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم ﴾، أي: سَنُظهر لهم دَلَالاتنا وحُجَجنا على كون القرآنِ حقًّا منزَّلاً من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ـ ﷺ ـ بدلائلَ خارجيةٍ ﴿ في الآفاقِ ﴾، من الفُتوحاتِ وظُهورِ الإسلامِ على الأقاليم وسائرِ الأديان. قال مجاهدٌ، والحسنُ، والسُّديُّ: ودلائلُ في أنفسِهم، قالوا: وقعةُ بدرٍ، وفتحُ مكّةَ، ونحو ذلك من الوقائع التي حلَّت بهم، نَصَر الله فيها محمداً وصحبَه، وَخَذل فيها الباطلَ وحزْبَه.

وَيَحتَمِلُ أن يكون المرادُ من ذلك ما الإنسانُ مركَّب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العَجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدالُّ على حكمة الصانع ـ تبارك وتعالى ـ. وكذلك ما هو مجبولٌ عليه من الأخلاق المتباينةِ، من حَسَن وقبيح وبين ذلك، وما هو مُتصرِّفٌ فيه تحت الأقدارِ التي لا يقدِر بحوله، وقوته، وحِيَلِهِ، وحذره أن يجوزها ولا يتعدَّاها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكر والاعتبار)، عن شيخِه أبي جعفر القرشي:

وَإذَا نَـظَرْتَ تُـرِيـدُ مُعْتَبَـرا ... فَـانظُرْ إلَيـكَ فَفِيكَ مُعْتَبَـرُ
أنتَ الذي يُمْسِي وَيُصبحُ في الـ ... ـدنيـا وكُـلُّ أُمُوره عِـبَـرُ
أنْتَ المصرَّفُ كانَ في صِغَـرٍ ... ثُم استَقَـلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَـرُ
أنتَ الـذي تَنْعَـاه خِلْقَتُـهُ ... يَنْعَـاه مِنـهُ الشَّعْـرُ وَالبَشَـرُ
أنتَ الـذي تُعْطَى وَتُسْلَبُ لا ... يُنجيـه مِن أنْ يُسْلَبَ الحَـذَرُ
أنتَ الذي لا شَيْءَ مِنْـه لَـهُ ... وَأحَقُّ مِنْـه بِمَـالِـهِ القَـدَرُ

وقولُهُ تعالى: ﴿ حتى يَتبيَّن لهم انه الحقُّ أوَلـم يكفِ بربِّك انه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ ﴾، أي: كَفَى بالله شهيداً على أفعال عبادِه وأقوالِهم، وهو يشهَدُ أن مُحمَّداً صادِقٌ فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿ لكن الله يشهَدُ بما أنزلَ إليكَ أنزله بعلمِهِ والملائكةُ يشهَدُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ الا إنهم في مِرْيَةٍ من لقاءِ ربِّهم ﴾، أي: في شكٍّ من قيام الساعة، ولهذا لا يَتفكَّرون فيه، ولا يعمَلُون له، ولا يحذَرُون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبأون به وهو واقعٌ لا ريبَ فيه وكائنٌ لا محالةَ.

قال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صَعِد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائِرُون، فَعَلِمتُ أن المصدق بهذا الأمر أحمَقُ، والمكذِّبُ به هالك ثم نزل.

ومعنى قولِهِ ـ رضي الله عنه ـ: (أن المصدّق به أحمق)، أي: لأنه لا يعمَلُ له عمَل مثله، ولا يحذَّر منه ولا يخافُ من هَوْلِهِ، ومع ذلك مُصدِّقٌ به، مُوقِنٌ بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى في لعبِهِ وغَفلتِهِ وشهواتِهِ وذُنُوبِهِ، فهو أحمقُ بهذا الاعتبارِ، والأحمقُ في اللغة: ضَعِيفُ العقل. وقوله (والمكذِّب به هالك): هذا واضحٌ، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُقَرِّراً على أنه على كل شيءٍ قديرٌ، وبكلِّ شيءٍ محيطٌ، وإقامَة الساعة لديه يسيرٌ سهلٌ عليه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ألا إنه بكلِّ شيءٍ محيطٌ ﴾، أي: المخلوقاتُ كلُّها تحت قهرهِ وفي قبضَتِهِ، وتحتَ طيِّ عِلْمِهِ، وهو المتصرِّفُ فيها كلِّها بحكمهِ، فما شاءَ كانَ، وما لم يَشَأ لم يكُن.

* * *

تفسير

سُورَةُ الشُّورَىٰ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾

قد تَقدمَ الكلامُ على الحُروفِ المُقطَّعة. وقد رَوى ابنُ جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً منكراً، فقال:

حدثنا أحمدُ بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجدَةَ الحَوْطي، حدثنا أبو المغيرة عبدُ القدوس بن الحجاج، عن أرطاةَ بن المُنذرِ قال: جاء رجلٌ إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذَيفَةُ بن اليمان ـ: أخبرني عن تَفسير قول الله: ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾، قال: فأطرَقَ ثم أعرضَ عنه، ثم كَرَّر مقالته فأعرضَ عنه، فلم يُجبه بشيءٍ وكَره مقالته، ثم كرَّرها الثالثةَ فلم يُحرْ إليه شيئاً. فقال حُذَيفة: أنا أنبئُك بها، قد عَرَفتُ لِمَ كَرِهَها؟ نَزَلت في رجلٍ من أهل بيته يقال له «عبد الإله» ـ أو: عبد الله ـ يَنزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان، يَشُقّ النهرُ بينَهما شقّاً، فإذا أذِن الله في زَوالِ مُلكِهم وانقطاعِ دَولتهم ومُدَّتهم بَعَثَ الله على إحداهما ناراً ليلاً، فَتُصبح سوداءَ مظلمةً قد احترقت، كأنها لم تكُن مكانَها، وتُصبح صاحبتها مُتعجِّبة: كيف أفلتَتْ؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يَجتَمع فيها كلُّ جبارٍ عنيدٍ منهم، ثم يخسِفُ الله بها وبهم جميعاً، فذلك قوله: ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾، يعني: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ: ﴿ حمٓ ﴾، عَينٌ، يعني عدلاً منه، سِينٌ: يعني سيكونُ، قٓ: يعني واقع بهاتين المدينتين(١).

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/٦.

وأغربُ منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مُسندِ ابن عباس، وعن أبي ذرّ، عن النبي ـ ﷺ ـ في ذلك، ولكن إسناده ضعيفٌ جدًّا ومُنقطعٌ، فإنه قال:

حدثنا أبو طالب عبد الجبّار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَني الدِّمشقي، عن أبي معاويةَ قال: صَعِد عمرُ بن الخطاب المنبرَ فقال: أيّها الناسُ، هل سَمِع منكم أحدٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يُفسِّر ﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ ﴾؟ فوَثب ابن عباس فقال: أنا. قال: ﴿ حمٓ ﴾ اسمٌ من أسماءِ الله، قال: فعينٌ؟ قال: عاينَ مُوَلُّونَ عذاب بَدْرٍ. قال: فسين؟ قال: سيعلم الذين ظلموا أي مُنقَلَبٍ ينقلبون. قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذرّ يُفَسِّر ففسَّرَ كما قال ابنُ عباس، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١].

وقولُهُ: ﴿ كذلك يُوحِي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيزُ الحكيم ﴾، أي: كما أُنزلَ إليك هذا القرآنَ كذلك أنزل الكُتبَ والصُحُفَ على الأنبياءِ قبلَكَ. وقولُهُ: ﴿ الله العزيزُ ﴾، أي: في انتقامِه، ﴿ الحكيمُ ﴾. في أقواله وأفعاله.

قال الإمامُ مالكٌ ـ رَحِمه الله ـ عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ: أنَّ الحارثَ بن هشام سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ اللّه، كيف يأتيك الوحيُ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجَرَسِ، وهو أشده عليّ فيفصِمُ عَنّي وقد وَعَيتُ ما قال. وأحياناً يأتيني المَلَك رَجُلاً فَيُكلِّمني، فأعي ما يقولُ». قالت عائشة: فلقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد، فَيَفصِم عنه، وإن جَبِينه ليتَفَصَّدُ عَرَقاً. أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري[٢].

وقد رواه الطبرانيُّ عن عبد الله ابن الإمام أحمدَ، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام: أنه سأَلَ رسول الله ـ ﷺ ـ: كيف يَنزل عليكَ الوحيُ؟ فقال: «مثل صلصلةِ الجَرَس، فيفصِمُ عني وقد وَعَيتُ ما قاله ـ قال: وهو أشدُّه عليَّ ـ قال: وأحياناً يأتيني المَلَكُ فيتمثَّلُ لي فَيُكلِّمني، فأعي ما يقول»[٣].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبَةُ، حدثنا ابن لَهِيعة، عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ، عن عَمرو بن الوليدِ، عن عبد الله بنِ عَمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: سأَلتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسولَ الله، هل تُحِسُّ بالوحي؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أسمعُ صلاصِلَ ثم أسكتُ عند ذلك، فما من مَرَّةٍ يُوحَى إليَّ إلاَّ ظننتُ أن نفسي تُقبَض». تفرد به أحمد[٤].

وقد ذكرنا كَيفيَّاتِ إتيانِ الوحي إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ في أول شَرحِ البُخاريِّ بما أغنى عن إعادتِه هاهنا، ولله الحمدُ والمِنّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ له ما في السمواتِ وما في الأرض ﴾، أي: الجميعُ عبيدٌ له وملكٌ له، تحت قهره وتَصريفِهِ، ﴿ وهو العليُّ العظيم ﴾، كَقوله: ﴿ الكبيرُ المتعالِ ﴾، ﴿ وهو العليُّ الكبيرُ ﴾، والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقولُهُ: ﴿ تكادُ السموات يَتَفطّرن من فوقهنّ ﴾، قال ابنُ عباس، والضحاكُ، وقتادةُ، والسُّديُّ، وكعبُ

(١) أخرجه في الدرّ المنثور عن أبي يعلى، وابن عساكر ٧/٣٣٦.
(٢) فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/١٨، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨١٦ ـ ١٨١٧.
(٣) المعجم الكبير ٣/٢٥٩. وانظر مجمع الزوائد ٨/٣٥٦. ومسند الإمام أحمد ٦/١٥٨.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٢.

الأحبار: أي فَرَقاً من العَظَمة. ﴿ والملائكةُ يُسبِّحون بحمد ربهم ويستغفِرُون لمن في الأرضِ ﴾. كقوله: ﴿ الذين يحمِلُون العرش ومَن حوله يُسبِّحون بحمد ربهم ويُؤمِنُون به ويَستغفِرُون للذين آمنوا رَبَّنا وَسِعت كُلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ ألا إن الله هو الغفورُ الرحيم ﴾، إعلامٌ بذلك وتنويهٌ به.

وقولُهُ: ﴿ والذين اتَّخذوا من دونه أولياءَ ﴾، يعني المشركين، ﴿ الله حفيظٌ عليهم ﴾، أي: شهيدٌ على أعمالهم، يُحصيها ويَعدُّها عدّاً، وَسَيجزِيهم بها أوفرَ الجزاءِ. ﴿ وما أنتَ عليهم بوكيلٍ ﴾، أي: إنما أنتَ نذيرٌ، والله على كل شيءٍ وكيلٌ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾، أي: واضحاً جليّاً بيِّناً، ﴿ لِتُنذِرَ أمَّ القرى ﴾، وهي مَكَّة، ﴿ ومن حَولها ﴾، أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً. وسُمِّيت مكة أمَّ القُرى لأنها أشرفُ من سائر البلاد، لأدلة كثيرةٍ مذكورة في مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدلِّه ما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شُعَيب، عن الزُّهريِّ، أخبرنا أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِيِّ بن الحَمْراءِ الزهريَّ أخبره: أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ وهو واقف بالحَزْوَرة[1] في سوق مكة: «والله، إنك لخير أرضِ الله وأحبّ أرض اللهِ إلى اللهِ، ولولا أني أُخرِجتُ منكِ ما خَرجتُ»[2].

وهكذا رواه الترمذيُّ والنسائيُّ، وابن ماجه، من حديث الزُّهرِيِّ، به. وقال الترمـذيُّ: (حسن صحيح)[2].

وقولُهُ: ﴿ وتُنذِرَ يومَ الجمع ﴾، وهو يومُ القيامة، يجمَعُ الله الأولين والآخرين في صعَيدٍ واحد.

وقولُهُ: ﴿ لا ريبَ فيه ﴾، أي: لا شَكَّ في وُقوعِه، وأنه كائنٌ لا محالَةَ.

وقولُهُ: ﴿ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعيرِ ﴾، كقوله: ﴿ يومَ يجمعكم ليوم الجمعِ ذلك يومُ التغابنِ ﴾، أي: يَغْبِن أهلُ الجنة أهلَ النار[3]. وكقوله تعالى: ﴿ ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وما نُؤَخِّره إلا لأجلٍ معدودٍ. يوم يأتِ لا تكلَّم نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليثٌ، حدثني أبو قَبِيل المَعَافِرِيُّ، عن شُفَيٍّ الأَصبحي، عن عبد الله بن عَمرو ـ رَضِي الله عنهما ـ قال: خَرَج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وفي يده كتابانِ، فقال: «أتدرُونَ ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا: لا، إلا أن تُخبِرَنا يا رسولَ الله. قال للذي في يَدِهِ اليُمنى: هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، بأسماء أهلِ الجنة وأسماءِ آبائهم وقبائِلهم، ثم أُجمِلَ[4] على آخرهم ـ لا يُزاد فيهم

(١) الحَزْوَرَة: موضع بمكة. والحَزْوَرَةُ في الأصل: التلُّ الصغير، سُمِّيت بذلك لأنه كان هناك تلٌّ صغير.

(٢) مسند أحمد ٣٠٥/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ٢٨٠/١٣، وأخرجه النسائي في كتاب الحج من سُنَنه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٣١٦/٥، وابن ماجه، كتاب المناسك ١٠٣٧/٢ ـ ١٠٣٨.

(٣) أي: يَستنقِصُون عقولَهم لاختيارهم الكفر على الإيمان.

(٤) يقال: أجمل الحساب: جمع أعداده وردّه إلى الجملة.

ولا يُنقَصُ منهم أبداً ـ ثم قال: للذي في يساره. هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمَـلَ على آخرهم ـ لا يُزاد فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً ـ. فقال أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ: فلأيِّ شيءٍ [إذاً] نعمل إن كان هذا أمر قد فُرِغ منه؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سَدِّدوا وقارِبُوا[١]، فإنَّ صاحبَ الجنةِ يُختَم له بعمل الجنة، وإن عمل أيَّ عمل، وإن صاحب النارِ ليُختم له بعمل النار، وإن عَمِل أيَّ عمل». ثم قال[٢] بيده فقبضها، ثم قال: «فرَغ ربكم ـ عَزَّ وجَلَّ ـ من العبادِ. ثم قال باليمنى فنَبَذَ[٣]. بها فقال: فريقٌ في الجنة، ونَبَذ باليسرى فقال: فريق في السعير»[٤].

وهكذا رواه الترمذيُّ والنسائيُّ جميعاً، عن قُتَيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبي قَبِيلٍ، عن شُفَيِّ بن ماتعٍ الأصبَحِيِّ، عن عبد الله بن عمرو، به. وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح غريب»[٤].

وساقه البَغَويُّ في تفسيره من طريق بِشر بن بكر، عن سعيد بن عُثمانَ، عن أبي الزاهريَّةِ، عن عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ. فذَكَره بنحوه. وعندَه زياداتٌ منها: «ثم قال: فريـقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعيرِ، عدل من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»[٥]. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به. ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهبٍ، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبي قَبِيلٍ، عن شُفَيٍّ، عن رجلٍ من الصحابة، فذكره[٦].

ثم رَوَى عن يونُسَ، عن ابن وهبٍ، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَةَ بن شُرَيح، عن يحيى بن أبي أُسَيْدٍ: أنَّ أبا فراس حَدَّثه: أنه سَمِعَ عبد الله بنَ عمرو يقول: إن الله لما خلق آدَمَ نَفَضه نفضَ المِزْوَد[٧]، وأخرج منه كلَّ ذُرِّيته، فخرج أمثالُ النَّغَف[٧] فَقَبضهم قبضتَينِ، ثم قال: شَقِيٌّ وسَعِيدٌ. ثم ألقاهما ثم قَبَضهما فقال: فريقٌ في الجَنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ[٨].

وهذا الموقوف أشبهُ بالصوابِ، والله أعلم.

وقال الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حَمَّادُ ـ يعني ابنَ سَلَمَةَ ـ أخبرنا الجُرَيري، عن أبي نضرة أن رَجُلاً من أصحاب النبيِّ ـ ﷺ ـ يقال له: أبو عبد الله ـ دَخَل عليه أصحابُه يَعودُونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يُبكِيكَ؟، ألم يَقُلْ لكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: خُذ من شاربك ثم أَقِرَّه[٩] حتى تلقاني. قال: بلى، ولكن سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إنَّ الله قبضَ بيَمِينه قبضةً، وأخرى باليَدِ الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذِه ولا أُبالِي»، فلا أدرِي في أيِّ القبضتَينِ أنا[١٠].

---

(١) أي: اطلبوا بأعمالكم السَّداد والاستقامة، وهو القصد في الأمر والعدل فيه.
(٢) تطلق العرب القول عبارة عن جميع الأفعال، والمراد هنا: أشار بيده.
(٣) نَبَذَ الشيء: طرحه.
(٤) مسند أحمد ١٦٧/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٣٠٨/٨ ـ ٣١٠، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٣٤٣/٦.
(٥) تفسير البغوي ١٢٠/٤ ـ ١٢١.
(٦) تفسير الطبري ٩/٢٥.
(٧) المِزْوَدُ: وعاء يجعل فيه الزاد. والنَّغَفُ: دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم.
(٨) تفسير الطبري ٩/٢٥.
(٩) أي: احفظه.
(١٠) مسند أحمد ١٧٦/٤.

وأحاديثُ القَدَر في الصحاح والسُّنَن والمسانيدِ كثيرةٌ جدًّا، منها حديثُ علي، وابن مسعود، وعائشةَ، وجماعةٍ جَمَّةٍ.

وقولُهُ: ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدةً ﴾، أي: إما على الهدايةِ أو على الضلالةِ، ولكنه تعالى فاوتَ بينهم، فهدى مَن يشاء إلى الحقِّ، وأضلَّ من يشاء عنه، وله الحكمة والحجةُ البالغة. ولهذا قال: ﴿ ولكن يُدخِلُ من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن أبي سويد[١] حَدَّثه عن ابن حُجَيرة: أنه بَلَغه أن موسى ـ عليه السلام ـ قال: يا ربِّ خَلْقُكَ الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجَنَّةِ وفريقاً في النار، لو ما أدخلتَهم كُلَّهم الجنة؟! فقال: يا مُوسَى، ارفع ذَرْعك[٢]. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب، قد رفعتُ. قال: ارفع. قال: قد رفعتُ، إلا ما لا خيرَ فيه. قال: كذلك أدخل خلقي كلَّهم الجنة إلاَّ ما لا خيرَ فيه[٣].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على المشركين في اتخاذهم آلهةً من دُونِ الله، ومُخبراً أنه الوليُّ الحقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له وحده، فإنه القادرُ على إحياءِ الموتى، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثم قال: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيءٍ فحكمُه إلى اللّهِ ﴾، أي: مهما اختلفتُم فيه من الأمور، وهذا عامٌّ في جميع الأشياء، ﴿ فحكمُه إلى الله ﴾، أي: هو الحاكم فيه بكتابه وسُنَّةِ نَبيِّـه ﷺ. كقوله: ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فَرُدُّوه إلى الله والرسول ﴾. ﴿ ذلكم الله ربي ﴾، أي: الحاكم في كلِّ شيء، ﴿ عليه توكلتُ وإليه أنيبُ ﴾، أي: أرجعُ في جميعِ الأمور.

وقولُهُ: ﴿ فاطرُ السموات والأرض ﴾، أي: خالقُهما وما بينهما، ﴿ جَعَل لكم من أنفُسِكم أزواجاً ﴾، أي: من جِنسكم وَشكلِكم، منَّةً عليكُم وتفضُّلاً جعل من جنسكم ذكراً وأُنثى، ﴿ ومِنَ الأنعامِ أزواجاً ﴾، أي: وخلَق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقولُهُ: ﴿ يَذْرَؤُكم فيه ﴾، أي: يَخلُقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفةِ لا يزال يَذْرَؤُكم فيه ذُكوراً وإناثاً خلقاً من بعدِ خلقٍ، وجيلاً بعد جيلٍ، ونَسْلاً بعد نسلٍ، من الناسِ والأنعامِ.

وقال البغوي: ﴿ يَذرؤكم فيه ﴾، أي في الرحم. وقيل: في البطنِ. وقيل: في هذا الوجهِ من الخلقة. قال مجاهد: نَسْلاً بعد نسلٍ من الناس والأنعام. وقيل: في بمعنى البَاء، أي: يذرؤكم به[٤].

(١) كذا في نُسَخنا، وفي تفسير الطبري: (عن أبي شبوبة)، وهو تحريف صوابه: (عن أبي سوية) ففي تهذيب الكمال في ترجمة عبيد بن سوية، أن كنيته: أبو سوية، ويقال: أبو سويد. انظر تهذيب الكمال ١٩/٢١٣.

(٢) المراد بالذَّرْع هنا الذراع، وهو: ما بين طرف المِرْفَق إلى طرف الإصبع الوسطى.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/٩. (٤) تفسير البغوي ٤/١٢١.

﴿ ليس كمثله شيء ﴾، أي: ليس كخالقِ الأزواجِ كلِّها شيءٌ، لأنه الفردُ الصمدُ الذي لا نظيرَ له، ﴿ وهو السميع البصير ﴾.

وقولُهُ: ﴿ له مقاليدُ السموات والأرض ﴾، تقدَّم تفسيره في [سورة الزُّمر](١)، وحاصلُ ذلك أنه المتصرِّفُ الحاكمُ فيهما، ﴿ يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدِرُ ﴾، أي: يُوسِّع على مَن يشاء، ويُضيِّق على مَن يشاء، وله الحكمةُ والعدلُ التام، ﴿ إنه بكلِّ شيءٍ عليم ﴾.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى لهذه الأمة: ﴿ شَرَعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾، فَذَكر أوَّلَ الرسل بعد آدم وهو نوحٌ ـ عليه السلامُ ـ وآخرَهم وهو محمدٌ ـ ﷺ ـ ثم ذَكَر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريمَ ـ عليهم السلام ـ. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية [الأحزاب] عليهم في قوله: ﴿ وإذ أخذنا من النبيِّين ميثاقهم ومنكَ ومن نُوحٍ وإبراهيم وموسَى وعيسَى ابنِ مَرْيَمَ ﴾... الآية. والدينُ الذي جاءت به الرسلُ كلُّهم هو: عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، كما قال: ﴿ وما أرسلنا من قبلِكَ من رَسُولٍ إلا يُوحَى(٢) إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدونِ ﴾. وفي الحديث: «نحن معشرَ الأنبياء أولادُ عَلاَّتٍ ديننا واحدٌ»(٣). أي: القدر المشترك بينهم هو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجُهم، كقوله تعالى: ﴿ لِكلٍّ جعلنا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنهاجاً ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ أن أقيمُوا الدين ولا تتفرَّقوا فيه ﴾، أي: وَصَّى الله تعالى جميعَ الأنبياء ـ عليهم السلامُ ـ بالائتلافِ والجماعةِ، ونهاهُم عن الافتراقِ والاختلافِ.

وقولُهُ: ﴿ كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾، أي: شَقَّ عليهم وأنكَروا ما تدعُوهم إليه ـ يا محمدُ ـ من التوحيد.

ثم قال: ﴿ الله يَجتَبي إليه مَن يشاء ويَهدي إليه مَن يُنِيب ﴾، أي: هو الذي يُقدِّرُ الهدايةَ لمن يَستحِقُّها، ويكتب الضلالة على مَن آثرها على طريق الرُّشْد. ولهذا قال: ﴿ وما اختلَفُوا إلاَّ مِن بعد ما جاءهم العلمُ ﴾، أي: إنما كان مخالفتُهم للحقِّ بعد بُلوغهِ إليهم، وقيامِ الحُجَّةِ عليهم، وما حَمَلهم على ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة.

ثم قال تعالى: ﴿ ولولا كَلِمةٌ سبقت مِن ربِّك إلى أجلٍ مُسَمًّى ﴾، أي: لولا الكلمة السابقة [من الله] بإنظارِ العبادِ بإقامةِ حسابهم إلى يومِ المَعادِ، لَعَجَّل لهم العُقوبَةَ في الدنيا سريعاً.

وقولُهُ: ﴿ وإن الذين أُورِثوا الكتابَ مِن بَعدِهم ﴾، يعني: الجيلَ المتأخِّر بعد القرنِ الأولِ المكذِّب

(١) انظر تفسير الآية ٦٣ من سورة الزُّمَر.
(٢) كذا في النُّسَخ. وقد تقدّم التعريف بهذه القراءة، عند تفسير الآية ٢٥ من سورة الأنبياء.
(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٣٣ من سورة البقرة، ١٥٩، ١٦٣ من سورة الأنعام، ٧٢ من سورة يونس، ٩٢ من سورة الأنبياء، ٦ من سورة مريم.

للحقّ ﴿ لفي شكٍّ منه مُريبٍ ﴾، أي: لَيسُوا على يقينٍ من أمرهم، وإنما هم مُقلِّدون لآبائهم وأسلافِهم، بلا دليلٍ ولا بُرهانٍ، وهُم في حيرةٍ مِن أمرهم، وشكٍّ مُرِيبٍ، وشِقاقٍ بعيدٍ.

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

اشتملت هذه الآيةُ الكريمةُ على عشر كلمات مُستقلاتٍ، كلٌّ منها منفصلة عن التي قبلها، حُكمٌ برأسِهِ، قالوا: ولا نَظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسيِّ، فإنها أيضاً عشرةُ فُصُولٍ كهذه.

وقولُهُ: ﴿ فَلِذلك فادعُ ﴾، أي: فَلِلَّذي أوحينا إليكَ من الدِّين الذي وَصَّينا به جميعَ المرسلين قبلَكَ أصحابَ الشرائعِ الكِبارِ المُتَّبَعة كأولي العَزْمِ وغيرهم، فادعُ الناسَ إليه.

قولُهُ: ﴿ واستَقِم كما أُمِرت ﴾، أي: واستقم أنت ومَنِ اتَّبعك على عبادة الله، كما أمركُم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقولُهُ: ﴿ ولا تَتَّبع أهواءَهم ﴾، يعني: المشركينَ فيما اختلقُوه، وكَذَّبوه، وافترَوه مِن عبادةِ الأوثانِ.

وقولُهُ: ﴿ وقُل آمنتُ بما أنزل الله مِن كتابٍ ﴾، أي: صَدَّقتُ بجميع الكُتبِ المنزَّلة من السماءِ على الأنبياءِ، لا نُفَرِّق بين أحد منهم.

وقولُهُ: ﴿ وأُمِرتُ لأعدِلَ بينكُم ﴾، أي: في الحُكم كما أَمرني الله.

وقولُهُ: ﴿ الله ربُّنا وربُّكم ﴾، أي: هو المعبودُ، لا إلَهَ غيرُه، فنحنُ نُقِرُّ بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلُوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً.

وقولُهُ: ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾، أي: نحنُ برآءُ منكم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبوك فَقُل لي عَمَلِي ولكم عَمَلكُم أنتم بَرِيئُون مما أعمَلُ وأنا بريءٌ مما تعمَلُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ لا حُجَّةَ بيننا وبينكُم ﴾، قال مجاهدٌ: أي لا خُصُومة. قال السُّدِّيُّ: وذلك قبل نُزولِ آية السيفِ. وهذا مُتَّجَهٌ؛ لأن هذه الآية مكيَّة، وآيةُ السيف بعد الهجرة.

وقولُهُ: ﴿ الله يجمَعُ بيننا ﴾، أي: يوم القيامة، [كقوله]: ﴿ قل يجمَعُ بيننا ربُّنا ثم يفتَحُ بيننا بالحقِّ وهو الفتاحُ العليم ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وإليه المصير ﴾، أي: المرجعُ والمآبُ يومَ الحساب.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى متوعِّداً الذين يَصُدُّون عن سبيلِ الله مَن آمَنَ به: ﴿ والذين يُحاجُّون في الله من بعدِ ما استُجيب له ﴾، أي: يجادلون المؤمنين المستَجيبين لله ولرسوله لِيَصُدُّوهم عما سَلَكُوه من طريقِ الهُدى، ﴿ حُجَّتهم داحضةٌ عند ربِّهم ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿ وعليهم غضبٌ ﴾، أي: منه، ﴿ ولهم عذابٌ شديدٌ ﴾، أي: يوم القيامة.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: جادَلُوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسُولِه، لِيَصدُّوهم عن الهُدى، وطَمِعُوا أن تَعُودَ الجاهلية.

وقال قتادةُ: هم اليهودُ والنصارى، قالوا لهم: دِينُنا خيرٌ من دينكم، ونَبيُّنا قبلَ نَبيِّكم، ونحن خيرٌ منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك.

ثم قال: ﴿ الله الذي أنزلَ الكتابَ بالحقِّ ﴾، يعني: الكُتُبَ المنزَّلة مِن عندِه على أنبيائه ﴿ والميزانَ ﴾، وهو: العدلُ والإِنصافُ، قاله مجاهدٌ، وقتادةُ. وهذهِ كقولِهِ تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ ﴾، وقولِه: ﴿والسماءَ رَفَعها ووضعَ الميزانَ * ألَّا تطغَوْا في الميزانِ * وأقيمُوا الوزنَ بالقسطِ ولا تُخسِرُوا الميزَان ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وما يُدريك لعلَّ الساعةَ قريبٌ ﴾: فيه تَرغيبٌ فيها، وترهيبٌ منها، وتَزهيدٌ في الدنيا.

وقولُهُ: ﴿ يَستعجِلُ بها الذين لا يُؤمِنُون بها ﴾، أي: يقولُون: ﴿ متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكُفراً وعِناداً. ﴿ والذين آمنوا مُشفِقُون منها ﴾، أي: خائِفون وَجِلُون من وُقُوعِها ﴿ ويعلَمُون أنها الحقُّ ﴾، أي: كائنةٌ لا محالة، فهم مُستعِدُّونَ لها عامِلُون من أجلِها.

وقد رُوِي من طُرُقٍ تبلغُ درجةَ التواتر، في الصِّحاح والحسانِ، والسُّنَن والمسانيدِ، وفي بعضِ ألفاظِه: أن رَجُلاً سأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ بصوت جَهْوَرِيٍّ، وهُو في بعضِ أسفارِه، فناداه فقال: يا محمدُ. فقالَ له النبي ـ ﷺ ـ نحواً من صوته ـ «هاؤم». فقال: متى الساعةُ؟ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ويحكَ! إنها كائنةٌ، فما أعددتَ لها»؟. فقال: حُبَّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببتَ»[(١)].

فقولُهُ في الحديثِ: «المرءُ معَ مَن أَحبَّ»، هذا متواترٌ لا محالةَ، والغرضُ أنه لم يُجبه عن وقتِ الساعةِ، بل أمره بالاستعداد لها.

وقولُهُ: ﴿ ألا إنَّ الذين يمارُون في الساعة ﴾، أي: يُحاجُّون في وُجُودِها ويدفعُون وُقوعَها، ﴿ لَفِي ضلالٍ بعيدٍ ﴾، أي: في جهلٍ بيِّنٍ، لأن الذي خلق السمواتِ والأرضَ قادرٌ على إحياءِ الموتى بطريقِ الأولى والأحرى، كما قال: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيدُه وهو أهونُ عليه ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن لُطفه بِخَلْقِه في رَزْقه إياهم عن آخرهم، لا يَنسى أحداً منهم، سواءٌ في رَزْقه البرُّ والفاجرُ، كقوله تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رِزقُها ويعلمُ مُستقرَّها ومُستودَعها كُلٌّ في كتابٍ مُبينٍ ﴾، ولها نظائرُ كثيرةٌ.

وقولُهُ: ﴿ يرزقُ مَن يشاء ﴾، أي: يُوسِّع على مَن يشاءُ، ﴿ وهو القويُّ العزيزُ ﴾، أي: لا يُعجزُه شيءٌ.

ثم قال: ﴿ من كان يُريد حرثَ الآخرة ﴾، أي: عَملَ الآخرة، ﴿ نَزِد له في حَرْثِهِ ﴾، أي: نُقَوِّيه ونُعينُه على ما هو بِصَدَدِه، ونُكثِرُ نماءَه، ونُجزيه بالحسنةِ عشرَ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضعفٍ، إلى ما يشاءُ الله. ﴿ وَمن كان يُريدُ حَرثَ الدنيا نُؤتِهِ منها، وما له في الآخرةِ من نصيب ﴾، أي: ومن كان إنما سعيُه ليحصُلَ له شيءٌ من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همَّةٌ ألبتة بالكلية، حرَمَه الله الآخرَة، والدنيا إن شاءَ أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصُل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النيَّة بالصفقةِ الخاسِرَة في الدنيا والآخرة.

والدليلُ على هذا أن هذه الآية هاهنا مُقيَّدة بالآية التي في (سُبحان) وهي قوله تعالى: ﴿ من كان يُريد العاجلة عَجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نُريد ثم جعلنا له جهَنَّم يصلاها مَذْمُوماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهُم مشكوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاءِ ربِّك وما كان عطاءُ ربِّك محظوراً * انظر كيف فَضَّلنا بعضَهم على بعض وللآخرةُ أكبرُ دَرَجاتٍ وأكبر تَفضِيلا ﴾[١].

قال الثوريُّ، عن مُغيرَةَ، عن أبي العاليةِ، عن أُبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بَشِّر هذه الأمة بالسَّناءِ والرِّفعةِ، والنَّصرِ والتمكينِ في الأرضِ، فمن عَمِل منهم عَمَل الآخرةِ للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»[٢].

وقولُهُ: ﴿ أم لهم شركاءُ شَرَعوا لهم من الدِّين ما لم يأذَنْ به الله ﴾، أي: هم لا يَتَّبِعون ما شَرَع الله لك من الدين القَويم، بل يَتَّبِعون ما شَرَع لهم شياطينُهم من الجنِّ والإنس، من تحريم ما حَرَّموا عليهم، من البَحِيرة والسائبة والوصيلةِ والحام، وتَحليلِ المَيْتَةِ والدَّمِ والقمار. إلى نحو ذلك من الضلالاتِ والجهالةِ الباطلة. التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليلِ والتحريم، والعباداتِ الباطلة، والأقوالِ الفاسدةِ. وقد ثبت في الصحيح أن رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «رأيت عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ يَجُرّ قُصْبَه في النار»[٣]. لأنه أول من سَيَّب السوائب. وكان هذا الرجل أحد مُلوك خُزَاعَةَ، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَل قريشاً على عبادةِ الأصنام ـ لعنه الله وقبحه ـ ولهذا قال: ﴿ ولولا كلمةُ الفصل لَقُضِي بينهم ﴾، أي: لَعُوجِلُوا بالعقوبة، لولا ما تقدَّم من الإنظارِ إلى يوم المعادِ، ﴿ وإنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليمٌ ﴾، أي: شَديدٍ مُوجعٍ في جَهَنَّم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿ تَرَى الظالمين مُشفِقين مما كَسَبُوا ﴾، أي: في عَرَصاتِ القيامةِ، ﴿ وهو واقعٌ بهم ﴾، أي: الذي يَخافُون منه واقعٌ بهم لا محالةَ، هذا حالُهم يوم مَعادِهم، وهُم في هذا الخوفِ والوجل، ﴿ والذين آمنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ في رَوضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءُون عند ربهم ﴾، فأين هذا من هذا؟! أين من هُو في

---

(١) سورة الإسراء، الآيات ١٨ ـ ٢١.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٥٥ من سورة النور وخرجناه هنالك.
(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة، وخرجناه هنالك.

العَرَصات في الذُّلِّ والهَوانِ والخَوفِ المحقَّق عليه بظلمه، مِمَّن هو في روضاتِ الجنَّاتِ، فيما يشاءُ من مآكِلَ ومشارِبَ وملابِسَ ومساكِنَ ومناظِرَ ومناكِحَ ومَلاذَّ، فيما لا عين رَأت، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطر على قلبِ بَشرٍ.

قال الحسن بن عَرَفة: حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي طَيْبَة قال: إن السِّرْبَ[1] من أهلِ الجَنَّة لَتُظِلُّهم السحابةُ فتقول: ما أمطِرُكم؟ قال: فما يدعُو داعٍ من القوم بشيءٍ إلا أمطَرَتهمُ، حتى إن القائلَ منهم ليقول: أمْطِرينا كواعبَ أتراباً. رواه ابنُ جَريرٍ، عن الحسن بن عَرَفَة، به[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك هو الفضلُ الكبيرُ ﴾، أي: الفوزُ العظيمُ، والنعمةُ التامَّة السابغةُ الشاملةُ العامَّةُ.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى لما ذَكر روضاتِ الجَنَّةِ لعباده الذين آمنوا وعَملوا الصالحات: ﴿ ذلك الذي يُبَشِّر الله عبادَه الذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ ﴾، أي: هذا حاصلٌ لهم، كائنٌ لا محالَةَ، ببشارةِ الله لهم به.

وقولُهُ: ﴿قُل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القربى﴾، أي: قُل ـ يا محمد ـ لهؤلاءِ المشركين من كفار قريش: لا أسألُكم على هذا البلاغ والنُّصح لكم مالاً تُعطُونيه، وإنما أطلبُ منكم أن تَكُفُّوا شَرَّكم عني، وتَذَرُوني أبلغ رسالة ربي، إن لم تنصُروني فلا تُؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

قال البخاريُّ: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عبد الملك بن مَيْسَرَة قال: سمعتُ طاوساً عن ابن عباس: أنه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿ إلا المودَّة في القُربى ﴾، فقال سعيد بن جُبَير: قُربى آل محمدٍ. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبي ـ ﷺ ـ لم يكُن بطنٌ من قريشٍ إلا كان له فيهم قرابةٌ، فقال: إلا أن تَصِلُوا ما بيني وبينكُم من القَرَابةِ. انفردَ به البخاريُّ[3].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا رَوَى عامر الشعبيُّ، والضَّحَّاك، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي، ويوسف بن مهران، وغيرُ واحد، عن ابن عباسٍ، مثلَه. وبه قال مجاهدٌ، وعِكرمةُ، وقتادةُ، والسُّدِّيُّ، وأبو مالك، وعبد الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ، وغيرُهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدثنا هاشم بن مَرْثَدٍ الطبراني وجعفر القَلانسي قالا: حدثنا آدمُ بنُ أبي إياس، حدثنا شَرِيكٌ، عن خُصَيف، عن سعيد بن جُبَيرٍ، عن ابن عباس قال: قال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني في نفسِي لقرابتي منكم، وتحفظُوا القرابةَ التي بيني وبينكم»[4].

(١) كذا في نسخة مضبوطاً. وفي أخرى: الشرب، بالشين. وما أثبتناه موافق لما في الدرّ المنثور ٣٤٥/٧. والمعروف ان السِّرب ـ بالسين ـ يطلق على القطيع من الظباء والقطا والنساء والشاء.

(٢) لم نجده في تفسير الطبري عند هذه الآية. ولعل راويه «عن الحسن بن عرفة هو ابن أبي حاتم، والله أعلم.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة حمٓ عسٓقٓ ٥٦٤/٨.

(٤) المعجم الكبير ٤٣٥/١١.

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعني ابن سُوَيد ـ وابن أبي حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سُوَيد ـ عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا أسألُكم على ما آتيتكم من البيناتِ والهُدى أجراً، إلا أن تُوادُّوا الله، وأن تقرَّبوا إليه بطاعته»(١). وهكذا روَى قتادةُ عن الحسن البصري، مثله.

وهذا كأنه تفسيرٌ بقولٍ ثانٍ، كأنه يقولُ: ﴿ إلا المودَّة في القُربى ﴾، أي: إلا أن تعمَلُوا بالطاعةِ التي تُقَرِّبكم عند الله زُلفى.

وقولٌ ثالث، وهو ما حكاه البخاريُّ وغيرُه، رواية عن سعيد بن جُبَير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تَوَدُّوني في قرابتي، أي: تُحسِنُوا إليهم وتَبَرُّوهم.

وقال السُّدِّيُّ، عن أبي الدَّيلم قال: لما جيءَ بعلي بنِ الحُسَين أسيراً، فأُقيم على دَرَج دمشق، قام رجلٌ من أهل الشام فقال: الحمدُ لله الذي قَتلكم واستأصلكم، وقَطع قَرْنَ الفِتنة. فقال له علي بن الحُسَين: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حمّ؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حمّ. قال: ما قرأت: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القُربى ﴾. قال: وإنكم أنتم هم؟ قال: نَعَم(٢).

وقال أبو إسحاق السَّبيعي: سألت عَمْرو بن شُعَيب عن قوله تعالى: ﴿ قُل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودَّة في القربى ﴾، فقال: قُربَى النبي ﷺ. رواهما ابن جرير(٢).

ثم قال ابنُ جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبدُ السلام، حدثني يزيدُ بن أبي زياد، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصارُ: فَعَلنا وفعَلنا ـ وكأنهم فَخَرُوا ـ فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شك عَبد السلام ـ: لنا الفضلُ عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فأتاهُم في مجالسهم فقال: يا معشَرَ الأنصار، ألم تكونوا أذلّةً فأعزَّكم الله بي؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: [ألم تكُونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال]: أفلا تجيبوني؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: ألا تقولون: ألَم يُخرجْكَ قومُك فآويناك؟ أوَلم يُكَذِّبوك فصدقناك؟ أولـم يَخذُلوك فَنَصرنـاك؟ قال: فما زال يقولُ حتى جَثَوا على الرُّكَبِ، وقالوا: أموالُنا وما في أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿ قُل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودَّة في القربى ﴾(٢).

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن عَلي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد ـ وهو ضعيفٌ ـ بإسنادِه مثلَه، أو قريباً منه.

وفي الصحيحين في قَسْمِ غنائم حُنَينٍ قريبٌ من هذا السياق(٣)، ولكن ليس فيه ذكرُ نُزولِ هذه الآيةِ. وذكرُ نُزولها في المدينة فيه نظرٌ؛ لأن السورةَ مكيةٌ، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياقِ مناسبةٌ، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدثنا علي بن الحسين، حدثنا رَجلٌ سَمَّاه، حدثنا حُسَين الأشقر، عن قيس، عن الأعمشِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودَّة

(١) مسند الإمام أحمد ١/٢٦٨.
(٢) أخرجه الطبري ٢٥/٢٥.
(٣) فتح الباري، كتاب المغازي ٨/٤٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٣٣ وما بعدها.

في القُربى ﴾، قالوا: يا رسولَ اللهِ، مَن هؤلاء الذين أمر الله بمودَّتهم؟ قال: فاطمةُ وولدُها عليهم السلام.

وهذا إسنادٌ ضَعيفٌ، فيه مبهم لا يُعرَفُ، عن شيخٍ شيعيٍّ مُحترق(١)، وهو حُسَين الأشقر، ولا يقبل خبره في هذا المحل. وذكْرُ نزولِ هذه الآية في المدينة بعيدٌ، فإنها مكيَّةٌ ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولادٌ بالكلِّية، فإنها لم تتزوَّج بعليٍّ إلا بعد بدر من السنة الثانيةِ من الهجرَةِ.

والحقُّ تفسيرُ الآيةِ بما فَسَّرها به الإمام حَبرُ الأمة وتَرجُمان القرآن، عبدُ الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري ـ رحمه الله ـ ولا تُنكر الوَصاةُ بأهلِ البيت، والأمرُ بالإحسان إليهم، واحترامُهم وإكرامُهم، فإنهم من ذُرِّية طاهرةٍ، من أشرفِ بيتٍ وُجد على وجه الأرض، فخراً وحَسباً ونسباً، ولا سيَّما إذا كانوا مُتَّبعين للسنة النبويَّة الصحيحة، الواضِحَةِ الجليَّة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبَنِيه، وعليٍّ وأهل بيته وذويه، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال في خُطبتِهِ بغديرِ خُمٍّ: «إني تارك فيكُم الثقلين: كتابَ الله وعترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عَلَيَّ الحوضَ»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن هارون، أخبرنا إسماعيلُ بنُ أبي خالد، عن يزيدَ بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العبَّاس بن عبد المطلب قال: قلتُ: يا رسولَ الله، إن قُريشاً إذا لَقِي بعضُهم بعضاً لَقوهُم بِبِشرٍ حَسَن، وإذا لَقُونا لَقُونا بوجوهٍ لا نَعرفها؟ قال: فَغَضِب النبي ـ ﷺ ـ غضباً شديداً، وقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ الرجلِ الإيمانُ حتى يحبَّكم لله ولرسُوله»(٣).

ثم قال أحمد: حدثنا جَريرٌ، عن يزيدَ بن أبي زيادٍ، عن عبد الله بن الحارثِ، عن عبد المطلب بن رَبيعةَ قال: دخل العباسُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: إنا لنخرج فنرى قُريشاً تُحدِّث، فإذا رأونا سَكَتُوا. فَغَضِبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ودَرَّ عِرقٌ(٤) بين عينه، ثم قال: «والله لا يدخلُ قلبَ امرىءٍ إيمانٌ حتى يُحِبَّكم لله ولقرابتي»(٥).

وقال البخاريُّ: حدثنا عبدُ الله بنُ عبدِ الوهاب، حدثنا خالدٌ، حَدَّثنا شعبةُ، عن واقدٍ قال: سَمِعتُ أبي يحدِّث عن ابن عمر، عن أبي بكر هو الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: ارقُبوا محمداً ـ ﷺ ـ في أهل بيتِهِ(٦).

وفي الصحيح: أن الصدِّيق قال لعلي ـ رضي الله عنهما ـ: واللّهِ لَقَرابةُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أحبُّ إليَّ أن أصِلَ من قرابتي(٦).

وقال عُمَر بن الخطاب للعباس ـ رضي الله عنهما ـ: والله لإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطابِ لو أسلَمَ، لأنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسولِ الله من إسلامِ الخطابِ.

فحالُ الشيخين ـ رضي الله عنهما ـ هو الواجب على كلِّ أحد أن يكونَ كذلك، ولهذا كانا أفضلَ المؤمنين بعد النبيِّين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائرِ الصحابةِ أجمَعِين.

---

(١) أي: هالك.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ١٨٧٣/٤، والنسائي في كتاب المناقب من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢٠٣/٣.

(٣) مسند أحمد ٢٠٧/١.

(٤) درَّ العِرقُ: امتلأ دماً.

(٥) مسند أحمد ٢٠٧/١ ـ ٢٠٨.

(٦) فتح الباري، كتاب فضائل الصحابة ٧٨/٧.

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حَيَّان التيمي، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقتُ أنا وحُسَين بن ميسَرَة، وعُمَر بن مُسلِم إلى زيدِ بن أرقَمَ، فلما جلسنا إليه قال له حُصَين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً، رأيتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ، وسَمِعت حديثَه، وغَزوتَ معه، وصَلَّيتَ معه. لقد رأيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً. حَدِّثنا يا زيدُ ما سَمِعتَ من رسول الله ـ ﷺ ـ. فقال: يا ابن أخي، والله لقد كَبُرَت سنّي وَقَدُمَ عَهدِي، ونَسيتُ بعض الذي كنت أَعِي من رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فما حدثتُكم فاقبَلوه، وما لا فلا تُكَلِّفُونيه. ثم قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً خَطِيباً فينا، بماء يدعى خُمًّا ـ بين مَكَّة والمدينة ـ فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، وذَكَّر ووَعَظَ، ثم قال: «أما بعد، ألا أَيُّها الناسِ إنما أنا بَشَرٌ يُوشِك أن يأتيني رسولُ رَبِّي فَأُجِيبَ. وإني تارك فيكم ثَقَلَين، أولهما: كتابُ الله، فيه الهُدَى والنور، فَخُذُوا بكتاب الله واستمسِكُوا به» فَحَثَّ على كتابِ الله ورَغَّب فيه ـ وقال: «وأهلُ بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أُذَكِّركم الله في أهلِ بيتي». فقال له حُصَين: ومن أهل بيتِه يا زيدُ؟ أليس نساؤه من أهل بيتِه؟ قال: إن نساءَه من أهلِ بيته، ولكنَّ أهلَ بيته من حُرِمَ الصدقةَ بعده. قال: ومَن هُم؟ قال: آل علي، وآل عَقِيل، وآلُ جعفرٍ، وآلُ العباس. قال: أَكُلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقَةَ؟ قال: نعم[(١)].

وهكذا رواه مسلم في الفضائل، والنسائيُّ من طُرقٍ عن يزيد بن حَيَّانَ به[(٢)].

وقال أبو عيسى الترمذيُّ: حَدَّثنا علي بن المنذر الكُوفي، حدثنا محمد بنُ فضَيل، حَدَّثنا الأعمش، عن عَطِيَّة، عن أبي سعيد ـ والأعمش، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن زيد بن أرقَمَ ـ قال: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني تارك فيكم ما إن تَمَسَّكتم به لن تَضِلّوا بعدي، أحدُهما أعظمُ من الآخر: كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهلُ بيتي، ولن يتفرّقا حتى يَرِدا على الحوضِ، فانظروا كيفَ تخلفوني فيهما»[(٣)].

تَفرَّد بروايته الترمذيُّ، ثم قال: «هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ».

وقال الترمذيُّ أيضاً: حَدثنا نصرُ بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في حَجَّتِه يومَ عَرَفَةَ، وهو على ناقته القَصواءِ يخطبُ، فَسمِعتُه يقول: «يا أيها الناسُ، إني تركتُ فيكم ما إن أخذتُم به لن تَضِلُّوا، كتابُ الله وعِترتي أهلُ بيتي».

تفرَّد به الترمذيُّ أيضا، وقال: حسنٌ غريبٌ، وفي الباب عن أبي ذرٍّ، وأبي سعيدٍ، وزيد بن أرقَمَ، وحُذَيفة بن أسيد[(٣)].

ثم قال الترمذيُّ: حدثنا أبو داودَ سُليمان بنُ الأشعثِ، حدثنا يحيى بن مَعِين، حدثنا هشامُ بن يوسفَ، عن عبد الله بن سليمان النَّوفلي، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جَدِّه عبدِ الله بن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أحِبُّوا الله لما يَغذُوكم من نِعَمِه، وأَحِبُّوني بحبِّ الله، وأَحِبُّوا أهل بَيْتي بِحُبِّي».

ثم قال: «حَسَنٌ غريبٌ إنما نعرفه من هذا الوجه»[(٣)].

---

(١) مسند أحمد ٤/٣٦٦ ـ ٣٦٧، وانظر رواية مسلم عند تفسير الآية ٣٣ من سورة الأحزاب، فقد خرجناه هنالك.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) أخرجهما الترمذي في الكتاب المتقدم ١٣/١٩٩ ـ ٢٠١.

وقد أوردنا أحاديثَ أُخَرَ عند قوله تعالى: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[1]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُوَيد بن سَعِيدٍ، حدثنا مُفَضَّل بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن حَنَش قال: سَمِعتُ أبا ذَرٍّ وهو آخِذٌ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناسُ، من عَرفني فقد عَرفني، ومن أنكرَني فأنا أبو ذَرٍّ، سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنما مَثَلُ أهل بيتي فيكم مَثَل سفينةِ نُوحٍ، من دخلها نَجا، ومن تَخلَّف عنها هلك».

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقولُهُ: ﴿ ومن يقترف حَسَنةً نزد له فيها حسناً ﴾، أي: ومن يعملْ حسنةً ﴿ نَزِد له فيها حسناً ﴾، أي: أجراً وثواباً، كقوله: ﴿ إن الله لا يظْلِمُ مثقالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنةً يُضاعِفْها ويُؤتِ مِن لدنه أجراً عَظيماً ﴾.

وقال بعض السلف: إنَّ من ثواب الحَسَنةِ الحسنةَ بعدَها، ومن جزاءِ السَّيِّئةِ السيئةَ بعدها.

وقولُهُ: ﴿ إن الله غفورٌ شكورٌ ﴾، أي: يغفِرُ الكثيرَ من السيئاتِ، ويُكثِرُ القليلَ من الحسناتِ، فَيَستُرُ ويغفِرُ، ويُضاعفُ فَيشكُر.

وقولُهُ: ﴿ أم يقولون افترى على الله كَذِباً فإن يشإِ الله يختم على قلبك ﴾، أي: لو افتريتَ عليه كَذِباً كما يزعُم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِم على قَلبِكَ ﴾، أي: لَطَبَع على قلبِكَ وسَلَبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ولو تَقوَّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لَقَطعنا منه الوتينَ * فما منكُم من أحدٍ عنه حاجِزين ﴾، أي: لانتقمنا منه أشدَّ الانتقام، وما قَدَر أحدٌ من الناسِ أن يَحجُزَ عنه.

وقولُهُ: ﴿ويمحُ الله الباطلَ﴾، ليس معطوفاً على قوله ﴿يَختمْ﴾ فَيكُونَ مجزوماً، بل هو مرفوعٌ على الابتداء، قاله ابنُ جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» في رسم المُصحَفِ الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾، وقوله: ﴿ ويدعُ الإنسانُ بالشرِّ دعاءَه بالخير ﴾[2].

وقولُهُ: ﴿ ويُحِقُّ الحقَّ بكلماته ﴾. معطوف على ﴿ ويمحُ الله الباطل ويحقُّ الحقَّ ﴾، أي: يُحققه ويُثبته ويُبيِّنه ويُوضِحه بكلماته، أي بِحُجَجِه وبراهينه، ﴿ إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ ﴾، أي: بما تُكِنُّه الضمائرُ، وتَنْطوي عليه السرائرُ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى ممتنًا على عباده بقبولِ توبتهم إليه إذا تابُوا ورجعُوا إليه: أنه من كَرَمه وحِلمه أنه يعفُو ويصفَحُ

(١) انظر تفسير آية الأحزاب ٣٣.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/٢٧.

ويسترُ ويغفِرُ، كقوله: ﴿ ومن يعمل سُوءاً أو يظلِم نفسَه ثم يستغفِرِ الله يجدِ الله غفوراً رَحِيماً ﴾، وقد ثَبت في صَحِيح مسلمٍ ـ رحمه الله ـ حيث قال:

حدثنا محمد بن الصباح وزُهَير بنُ حَربٍ قالا: حدثنا عُمر بن يونس، حدثنا عِكرمةُ بن عَمَّار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحةَ، حدثني أنسُ بن مالك ـ وهو عَمُّه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «للهُ أشدُّ فرحاً بتوبةِ عبدِه حين يتوب إليه مِن أحدِكم كان راحلتُه بأرضٍ[1] فلاةٍ فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فأَيِس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها، قد أَيِس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هُو بها قائمةً عندَه، فأخذ بِخطامها ثم قال مِن شدَّةِ الفَرَح: اللهُمَّ، أنت عبدِي وأنا ربُّك ـ أخطأ من شِدَّة الفَرَح»[2].

وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوُه[2].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزُّهريِّ في قوله: ﴿ وهو الذي يقبَلُ التوبةَ عن عباده ﴾: إنَّ أبا هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «للهُ أشد فَرَحاً بتوبة عبدِه من أحدِكم يجد ضالَّته في المكان الذي يخافُ أن يقتُلَه فيه العطش»[2].

وقال هَمَّام بن الحارث: سُئِل ابنُ مسعود عن الرجل يفجُر بالمرأة ثم يَتزوَّجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿ وهو الذي يقبل التوبةَ عن عبادِه ﴾... الآية. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث شَريك القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيمَ النخَعِيِّ، عن همام، فذكره[3].

وقولُهُ: ﴿ ويعفُو عن السيئاتِ ﴾، أي: يقبل التوبةَ في المستقبل، ويعفُو عن السيئات في الماضي، ﴿ ويعلَم ما تفعلون ﴾، أي: هو عالمٌ بجميع ما فعلتُم وصنعتُم وقلتُم، ومع هذا يتوبُ على مَن تاب إليه.

وقولُهُ: ﴿ ويَستجيبُ الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحات ﴾، قال السُّدِّيُّ: يعني يستجيبُ لهم. وكذا قال ابنُ جرير: معناه يستجيبُ الدعاءَ لهم ولأصحابهم وإخوانِهم. وحكاه عن بعضِ النُّحاة، وأنه جعلَها كقوله: ﴿ فاستجاب لهم ربُّهم ﴾[4].

ثم رَوَى هو وابن أبي حاتم، من حديث الأعمش، عن شَقِيق بن سَلَمة، عن سَلَمَةَ بن سَبْرَةَ قال: خَطَبَنا معاذٌ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهلُ الجنة. والله إني لأرجو أن يُدخل الله مَن تَسْبُونَ مِن فارسَ والرومِ الجنةَ، وذلك بأنَّ أحدكم إذا عمل له ـ يعني أحدُهم عملاً ـ قال: أحسنتَ رحِمك الله، أحسنتَ باركَ الله فيك، ثم قرأ: ﴿ ويَستجِيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويَزِيدُهم من فَضْلِهِ ﴾[4].

وحكى ابنُ جرير[4] عن بعضِ أهل العربية أنه جعله [مثل] قوله، ﴿الذين يَستَمِعُون﴾ أي: هم الذين يستجيبُون للحقِّ ويتبعونه: كقوله ﴿ إنما يستجيب الذين يسمَعُون والموتى يَبعثُهم الله ﴾، والمعنى الأولُ أظهرُ، لقولِه: ﴿ ويَزِيدُهم من فَضلِهِ ﴾ أي: يَستَجيبُ دُعاءَهم ويَزيدُهم فوق ذلك، ولهذا قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصَفَّى، حدثنا بقيةُ، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكِنْدي، حدثنا الأعمش، عن شَقِيق، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ويَزِيدُهم من فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعةُ لمن وَجَبت له النَارُ مِمَّن صَنَع إليهم مَعرُوفاً في الدنيا».

---

(١) في المطبوع من صحيح مسلم: «كان على راحلته».

(٢) مسلم، كتاب التوبة ٤/٢١٠٢ ـ ٢١٠٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/٢٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٥/٢٩.

وقال قتادةُ عن إبراهيم النَّخعي(١) في قوله تعالى: ﴿وَيَستجِيبُ الذين آمنُوا وعَملوا الصالحات﴾، قال: يَشفعُون في إخوانهم، ﴿ وَيزيدُهم من فَضْلِه ﴾، قال: يَشفعُون في إخوانِ إخوانِهم(٢).

وقولُهُ: ﴿ والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ ﴾، لَمَّا ذَكر المؤمنين وما لَهم من الثواب الجزيلِ ذَكَر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذابِ الشديدِ المُوجع المؤلم يومَ مَعادِهم وحسابِهم.

وقولُهُ: ﴿ ولو بَسَط الله الرزقَ لعبادِه لبَغوا في الأرض ﴾، أي: لو أعطاهُم فوقَ حاجَتِهم من الرِّزقِ لَحملهم ذلك على البغي والطُّغيان من بعضِهم على بعضٍ، أشراً وبَطراً.

قال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يُلهيكَ ولا يُطغيك(٢). وذكر قتادةُ حديثَ: «إنما أخاف عليكم ما يُخرِجُ الله من زَهرةِ الحياةِ الدنيا»، وسؤالَ السائلِ: أيأتي الخيرُ بالشَّر؟... الحديث(٢).

وقولُهُ: ﴿ ولكن يُنزِّل بقَدرٍ ما يشاءُ إنه بعبادِه خبيرٌ بصيرٌ ﴾، أي: ولكن يرزقُهم من الرزقِ ما يختاره مما فيه صلاحُهم، وهو أعلَمُ بذلك، فَيُغني مَن يَستحِقُّ الغنى، ويُفقِر مَن يَستحِقُّ الفقر. كما جاء في الحديث المرويِّ: «إنَّ مِن عبادي لَمَنْ لا يُصلِحُه إلا الغنى، ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دِينه. وإنَّ مِن عبادي لَمَنْ لا يُصلِحهُ إلا الفقرُ، ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دينه»(٣).

وقولُهُ: ﴿ وهو الذي ينزل الغيثَ من بعد ما قَنطُوا ﴾، أي: من بعد إياسِ الناسِ من نزولِ المطر، يُنزِله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿ وإن كانُوا من قبلِ أن يُنزَّل عليهم من قبله لَمُبلِسين﴾.

وقولُهُ: ﴿ وينشُر رحمته ﴾، أي: يَعُمُّ بها الوجودَ على أهل ذلك القُطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذُكِر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، قَحطَ(٤) المَطرُ وقَنط النَّاسُ؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: مُطِرتُم، ثم قرأ: ﴿ وهو الذي يُنزِّل الغيث من بعد ما قَنطُوا وينشُرُ رَحْمتَه ﴾(٥).

﴿ وهو الوليُّ الحميدُ ﴾، أي: هو المتصرِّف لخلقه بما ينفعُهم في دُنياهم وأُخراهم، وهو المحمودُ العاقبةِ في جميعِ ما يُقدِّره ويَفعلُه.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ومِن آياتِهِ الدالَّةِ على عَظَمتِه وقُدرته العظيمة وسُلطانه القاهِرِ ﴿ خَلْقُ السموات والأرضِ وما بثَّ فيهما ﴾، أي: ذَرَأ فيهما، أي: في السمواتِ والأرضِ، ﴿ من دابَّةٍ ﴾، وهذا يشمَلُ الملائكةَ والجنَّ والإنسَ وسائرَ الحيوانات، على اختلافِ أشكالِهم وألوانِهم ولُغاتِهم، وطباعهم وأجناسِهم وأنواعهم، وقد فرَّقهم

(١) في نسخة الأزهر: إبراهيم النخعي اللخمي. وفي أخرى: إبراهيم اللخمي. وفي الدر المنثور ٣٥١/٧: «أبي إبراهيم اللخمي».
(٢) تفسير الطبري ٢٩/٢٥.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الإسراء.
(٤) أي: احتبس.
(٥) تفسير الطبري ٣١/٢٥.

في أرجاءِ أقطارِ السمواتِ والأرض، ﴿ وهو ﴾ مع هذا كلِّه ﴿ على جَمعِهم إذا يشاءُ قَديرٌ ﴾، أي يومَ القيامةِ يجمَعُ الأولين والآخرين وسائرَ الخلائقِ في صعيدٍ واحدٍ يَسمِعُهُم الداعي، ويَنْفُذهم البصر، فَيحكُم فيهم بحكمه العَدْلِ الحق.

وقولُهُ: ﴿ وما أصابكُم مِن مصيبةٍ فبِمَا كَسَبت أيديكُم ﴾، أي: مهما أصابكم أيُّها الناسُ من المصائبِ فإنما هُو عن سَيِّئاتٍ تَقَدَّمت لكم، ﴿ ويعفُو عن كثيرٍ ﴾، أي: من السيئاتِ، فلا يُجازيكم عليها بل يعفُو عنها، ﴿ ولو يُؤاخِذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يُصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حُزن إلا كَفَّر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكةِ يُشاكُها»(1).

وقال ابنُ جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيّة، حدثنا أيُّوبُ قال: قرأت في كتاب أبي قِلابَةَ قال: نَزَلت: ﴿ فَمَن يَعْمَل مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَه * ومَن يعملْ مِثقالَ ذَرةٍ شرّاً يَرَه ﴾، وأبو بكر يأكلُ، فأمسكَ وقال: يا رَسول اللَّهِ، إني لَرَاءٍ ما عملتُ من خيرٍ وشرٍ؟ فقال: «أرأيتَ ما رأيتَ مما تكرَهُ، فهو من مثاقيل ذَرِّ الشرِّ، وتُدَّخَرُ مثاقيلُ الخير حتى تُعطَاه يومَ القيامةِ». قال: قال أبو إدريسَ: فإني أرَى مصدَاقها في كتابِ الله: ﴿ وما أصابكُم من مُصيبةٍ فبما كَسَبت أيديكم ويعفُو عن كثيرٍ ﴾(2).

ثم رواه من وجه آخر، عن أبي قِلابَة، عن أنسٍ، قال: والأوَّلُ أصح.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطبَّاع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخَضِرِ بن القَوّاس البَجَليِّ، عن أبي سُخَيلَةَ، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: ألا أُخبِرُكم بأفضل آيةٍ في كتاب الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وحَدَّثنا به رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: ﴿ما أصابكم من مُصيبةٍ فَبِما كَسَبت أيديكم ويعفُو عن كثير ﴾. وسأفسِّرها لَكَ يا علي: ما أصابكُم من مَرَضٍ أو عقوبةٍ أو بلاء في الدنيا، فبما كَسَبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبةَ في الآخرة، وما عَفَا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرمُ من أن يعودَ بعد عفوه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبي سُخَيلة قال: قال علي. . . فذكر نحوه مرفوعاً(3).

ثم رَوَى ابن أبي حاتم، من وجه آخر موقوفاً فقال:

حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مُزَاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضَّاح، عن أبي الحسنِ، عن أبي جُحَيفة قال: دخلت على عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: ألا أُحدِّثكم بحديثٍ ينبغي لكلِّ مؤمن أن يَعِيَه؟ قال: فسألناه، فَتَلا هذه الآية: ﴿ وما أصابكم من مُصيبةٍ فبما كَسَبت أيديكم ويعفُو عن كثير ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلَمُ من أن يُثَنِّي عليه العقوبَة يوم القيامة، وما عَفَا الله عنه في الدنيا فالله أكرمُ من أن يعودَ في عَفْوه يومَ القيامة.

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا يعلَى بن عُبَيد، حدثنا طلحةُ ـ يعني ابنَ يحيى ـ عن أبي بُردَةَ، عن معاوية

---

(1) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٣ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.

(2) تفسير الطبري ٣٢/٢٥.

(3) مسند الإمام أحمد ٨٥/١.

ـ هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما ـ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من شيءٍ يُصِيب المؤمنَ في جَسَدِه يؤذِيه إلا كَفَّر الله عنه به من سيئاته»[1].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حُسين، عن زائدةَ، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كَثُرت ذنوبُ العبدِ، ولم يكن له ما يُكَفِّرها، ابتلاه الله بالحُزن ليُكَفِّرها»[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ، حدثنا أبو أُسامةَ، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال في قوله: ﴿ وما أصابكُم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيديكم ويعفو عن كثيرٍ ﴾، قال: لَمَّا نَزلت قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما من خَدْش عُودٍ، ولا اختلاجِ[3] عِرْقٍ، ولا عثرةِ قدمٍ، إلا بذنبٍ، وما يعفو الله عنه أكثر».

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن علي، حدثنا هُشَيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حُصَين ـ رضي الله عنه ـ قال: دَخَل عليه بعضُ أصحابه وقد كان ابتُلِي في جَسَده، فقال له بعضُهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نَرى فيك. قال: فلا تَبتئِس بما تَرى، فإنَّ ما تَرى بذنبٍ، وما يعفُو الله عنه أكثرُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وما أصابكُم من مصيبةٍ فبما كَسَبت أيديكم ويعفُو عن كثير ﴾

وحدثنا أبي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدثنا جَرير، عن أبي البلادِ قال: قلتُ للعلاءِ بن بدرٍ: ﴿ وما أصابكُم من مُصِيبةٍ فبما كَسَبت أيديكم ﴾، وقد ذَهَب بصري وأنا غلامٌ؟ قال: فَبِذُنوبِ والديك.

وحدثنا أبي: حدثنا علي بن محمد الطَّنَافسي، حدثنا وكيعٌ، عن عبد العزيز بن أبي رَوَّادٍ، عن الضحَّاكِ قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآنَ ثم نَسِيه إلا بِذَنْبٍ، ثم قرأ الضحَّاكُ: ﴿وما أصابكُم من مصيبةٍ فَبِما كَسَبت أيديكُم، ويعفُو عن كثيرٍ﴾. ثم يقول الضحَّاك: وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ من نسيانِ القرآن[4]؟!.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ومن آياتِهِ الدالَّة على قُدرته وسُلطانه تسخيرُه البحرَ لتجري فيه الفلكُ بأمره، وهي الجواري في البحرِ كالأعلام، أي: كالجبالِ، قاله مجاهد، والحسنُ، والسُّدِّيُّ، والضحَّاك، أي: هي في البحر كالجبالِ في البرِّ، ﴿ إن يشأ يُسكِنِ الريحَ ﴾، أي: التي تَسِير بالسُّفنِ، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرَّكَ السفنُ، بل تظلُّ راكدةً لا تجيء ولا تذهَبُ، بل واقفة على ظهرِه، أي: على وجه الماءِ، ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ ﴾، أي: في الشدائد، ﴿ شكور ﴾، أي: إن في تسخيره البحرَ وإجرائه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لَدَلالاتٍ على نِعَمِهِ تعالى على خلقه ﴿ لكلِّ صبارٍ ﴾، أي: في الشدائد، ﴿ شكورٍ ﴾ في الرخاء.

وقولُهُ: ﴿ أو يُوبِقهنَّ بما كَسَبوا ﴾، أي: ولو شاء لأهلك السُّفُنَ وغَرَّقَها بذُنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ﴿ ويعفُ عن كثيرٍ ﴾ أي: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذُنوبهم لأهلك كلَّ من رَكِب البحر.

(١) مسند الإمام أحمد ٩٨/٤.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٥٧/٦.
(٣) اختلج العِرْقُ: تحرك واضطرب.
(٤) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وغيره ٣٥٥/٧.

وقال بعضُ علماء التفسير: معنى قوله ﴿ أو يُوبِقهُنّ بما كَسَبُوا ﴾، أي: لو شاء لأرسلَ الريح قوية عاتيةً، فأخذت السفنَ وأحالتها عن سيرها المستقيم، فَصَرفتها ذاتَ اليمينِ أو ذاتَ الشمالِ، آبقةً لا تَسير على طريقٍ، ولا إلى جِهةٍ مَقصِدٍ.

وهذا القولُ هو يَتَضمَّن هلاكها، وهو مناسبٌ للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسَكّن الريحَ فَوَقفت، أو لقوّاه فشَردت وأبقت وهَلكت. ولكن من لُطفه ورحمتِه أنه يُرسله بحَسب الحاجةِ، كما يُرسل المطرَ بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لَهَدَمَ البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرعَ والثمار، حتى إنه يُرسل إلى مثل بلادِ مصر سَيحاً من أرضٍ أُخرى غيرها، لأنهم لا يحتاجون إلى مطرٍ، ولو أنزل عليهم لَهَدَم بُنيانَهم، وأسقط جُدرانهم.

وقولُهُ: ﴿ ويعلَمَ الذين يُجادِلُون في آياتنا ما لهم من مَحِيصٍ ﴾، أي: لا مَحِيدَ لهم عن بَأسِنا ونِقْمَتِنا، فإنهم مَقهُورون بِقُدرَتنا.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُحقّراً لشأنِ الحياة الدُّنيا وزينتها، وما فيها من الزُّهرة والنعيم الفاني، بقوله: ﴿ فما أُوتيتُم من شيءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا ﴾، أي: مهما حَصَّلتم وجَمعتُم فلا تغترُّوا به، فإنما هو متاعُ الحياةِ الدنيا، وهي دار دنيئةٌ فانيةٌ زائلةٌ لا محالَةَ، ﴿ وما عند الله خيرٌ وأبقى ﴾، أي: وثوابُ الله خيرٌ من الدنيا، وهو باقٍ سَرمَديٌّ، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي. ولهذا قال: ﴿ للذين آمنوا ﴾، أي: للذين صَبرُوا على تَركِ الملاذِّ في الدنيا، ﴿ وعلى رَبِّهم يتوكَّلون ﴾، أي: لِيُعينَهم على الصَّبرِ في أداء الواجباتِ وتَركِ المحرَّماتِ.

ثم قال: ﴿ والذينَ يجتنِبُون كبائرَ الإثم والفواحِشَ ﴾، وقد قدَّمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف[1]، ﴿ وإذا ما غَضِبُوا هم يَغفِرون ﴾، أي: سَجِيَّتُهم تقتضي الصفح والعفوَ عن الناس، ليس سَجِيَّتُهم الانتقامَ من الناس. وقد ثبتَ في الصحيح: «أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ما انتقمَ لنفسه قطُّ، إلا أن تُنتهَكَ حُرُماتُ الله»[2]. وفي حديث آخر: «كان يقولُ لأحدنا عند المَعْتَبَةِ: ما له؟ تَرِبت جَبِينُهُ»[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيانُ، عن زائدةَ، عن منصورٍ، عن إبراهيمَ قال: كان المؤمنونَ يكرهُون أن يُستَذَلُّوا، وكانوا إذا قَدَرُوا عَفَوا[4].

وقولُهُ: ﴿ والذين استجابُوا لربِّهم ﴾، أي: اتَّبعُوا رُسُلَه وأطاعُوا أمرَه، واجتنبُوا زَجْرَه، ﴿ وأقامُوا الصلاةَ ﴾، وهي أعظمُ العباداتِ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ وأمرُهم شُورَى بينهم ﴾، أي: لا يُبرمُون أمراً حتى يتشاوَرُوا فيه، ليتساعَدُوا بآرائهم في مثل الحروب وما جَرَى مجراها، كما قال تعالى: ﴿ وشاوِرْهُم في الأمرِ فإذا عَزَمت فتوكَّل على الله ﴾، ولهذا كان ـ عليه السلام ـ يُشاوِرهم في الحروب ونحوها، لِيُطيِّب بذلك قلوبهم.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٥١ من سورة الأنعام، والآية ٣٢ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥٢٤ـ٥٢٥، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، فتح الباري ١٠/٤٥٢. والإمام أحمد في مسنده ٣/١٢٦، ١٤٤، ١٥٨.

(٤) أخرجه السيوطي في الدّر عن سعيد بن منصور، وعَبْد بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ٧/٣٥٧.

وهكذا لما حَضَرت عُمَرَ بن الخطاب الوفاةُ حين طُعِن جَعَل الأمرَ بعده شُورى في ستةِ نفر، وهم: عثمانُ، وعليٌّ، وطلحةُ، والزبيرُ، وسَعدُ، وعبدُ الرحمٰن بن عوف ـ رضي الله عن جميعهم ـ فاجتمع رأيُ الصحابةِ كلِّهم على تقديم عثمان عليهـم ـ رضي الله عنهـم ـ ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلْقِ الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقولُهُ: ﴿ والذين إذا أصابهم البَغيُ هم يَنتصِرُونَ ﴾، أي: فيهم قوةُ الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بَغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قَدَروا عَفَوا، كما قال يوسف ـ عليه السلام ـ لإخوته: ﴿ لا تَثْريبَ عليكُم اليومَ يَغفِرُ الله لكم ﴾، مع قُدرته على مُؤاخذتِهم ومُقابلَتِهم على صَنيعهم إليه، وكما عفا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أولئك النَفر الثمانين الذين قَصَدُوه عـام الحُدَيبية، ونزلُوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام. وكذلك عَفْوه عن «غَورَثِ بن الحارث» الذي أراد الفتك به ـ عليه السلام ـ حين اخترطَ سيفَه وهو نائم، فاستيقظ ـ عليه السلامُ ـ وهو في يده صَلْتاً[1]، فانتهره، فَوَضعه من يده، وأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ السيفَ من يَدِهِ، ودعا أصحَابه ثم أعلَمَهم بما كان من أَمْرِه وأَمْرِ هذا الرجلِ، وعفا عنه[2]. وكذلك عفا عن لَبيد بن الأعصم الذي سحره ـ عليه السلام ـ ومع هذا لم يعرِض له ولا عاتَبه مع قُدرته عليه وكذلك عفوهُ ـ عليه السلام ـ عن المرأة اليهودية ـ وهي زينبُ أخت مَرْحَب اليهوديِّ الخَيْبَريِّ الذي قتله محمود بنُ مسلمة، التي سَمَّت الذِّراع يوم خيبر ـ فأخبره الذراعُ بذلك، فدعاها فاعترفَت، فقال: «ما حَمَلكِ على ذلك؟» قالت: أردتُ إن كنتَ نبيًّا لم يَضُرَّك، وإن لم تكن نبيًّا استرحنَا منك[3]. فأطلقها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكن لما ماتَ منه بِشرُ بنُ البَرَاء قَتَلها به، والأحاديثُ والآثارُ في هذا كثيرةٌ جدًّا، ولله الحمد والمنَّةُ.

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قولُهُ تعالى: ﴿ وجزاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مثلُها ﴾، كقوله تعالى: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمثلِ ما اعتدَى عليكم ﴾، وكقوله: ﴿ وإن عاقبتُم فَعَاقِبُوا بمثل ما عُوقِبتُم به ولئن صَبرتُم لَهو خيرٌ للصابرين ﴾، فَشرع العدلَ وهو القِصاصَ، ونَدَب إلى الفضلِ وهو العفوُ، كقوله: ﴿ والجروحَ قِصاصٌ فمن تَصدَّق به فهو كفَّارةٌ له ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ فمن عَفَا وأصلح فأجْرُه على الله ﴾، أي: لا يَضيع ذلك عند الله كما صَحَّ في الحديث: «وما زاد الله عبدا بِعَفوٍ إلا عِزًّا»[4]. وقولُهُ: ﴿ إنه لا يُحِبّ الظالمين ﴾، أي: المُعتَدِين، وهو المبتدِئ بالسيئة.

ثم قال: ﴿ وَلَمن انتَصَر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سَبِيلٍ ﴾، أي: ليس عليهم جُناحٌ من الانتصارِ ممن ظَلَمهم.

(١) أي: مجرَّداً من غِمْدِهِ مسلولاً.
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٢٦، ٤٢٩، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٧٨٦ ـ ١٧٨٧.
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الديات ٤/١٧٣ ـ ١٧٤.
(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر ٤/٢٠٠١، والترمذي في أبواب البر، عارضة الأحوذي ٨/١٨٤ وانظر فيما تقدم تفسير الآية ١٤٩ من سورة النساء، ٢٩ من سورة الإسراء.

قال ابنُ جرير: حَدَّثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا مُعاذ بن مُعاذ، حدثنا ابن عَون قال: كنت أسألُ عن الانتصار: ﴿ وَلَمن انتصر بعد ظُلمِه فأولئك ما عَلَيهم من سبيل ﴾، فحدثني علي بن زيد بن جُدعانَ، عن أم محمد، امرأةِ أبيه، قال ابنُ عَونٍ: زعموا أنها كانت تدخلُ على أم المؤمنين عائشة ـ قالت: قالت أمُّ المؤمنين: دَخَل علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وعندنا زينبُ بنتُ جَحش، فَجَعَلَ يصنَعُ بيده شيئاً فلم يَفْطِن لها، فَقُلتُ[1] بيده حتى فطَّنته لها، فأمسَكَ. وأقبلت زينبُ تَقَحَّم[2] لعائشةَ، فَنَهاها، فأبت أن تَنْتَهي. فقال لعائشةَ: سُبِّيها. فَسَبَّتها فَغَلَبتها، وانطلقت زينبُ فأتت علياً فقالت: إن عائشةَ تَقع بكم، وتفعَلُ بكم. فجاءت فاطمة فقال لها: «إنها حِبَّةُ أبيكِ وربِّ الكعبة». فانصرفت، وقالت لعليٍّ: إني قلتُ له كذا وكذا، فقال لي كَذَا وكَذَا. قال: وجاء علي إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فكلَّمه في ذَلِكَ[3].

هكذا وَرَد هذا السياقُ، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه نَكارَةٌ، والحديثُ الصحيحُ خلافُ هذا السياقِ، كما رَواه النسائيُّ وابنُ ماجه من حديث خالد بن سَلَمة الفَأْفَا، عن عبد الله البَهِيِّ، عن عُروَةَ قال: قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: ما علمتُ حتى دخلَتْ عَلَيَّ زينبُ بغير إذنٍ وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ـ ﷺ ـ: حَسْبُكَ إذا قَلَبت لك ابنة أبي بكر ذُرَيِّعَتَيها[4]... ثم أقبلت عليَّ فأعرضت عنها، حتى قال النبي ـ ﷺ ـ: «دُونَك فانتصري». فأقبلت عليها حتى رأيتُها وقد يَبِسَ ريقُها في فمها، ما تَرُدّ عليَّ شيئاً. فرأيت النبي ـ ﷺ ـ يَتَهلَّلُ وجهُه[5]. وهذا لفظ النسائيُّ.

وقال البَزَّارُ: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حَمزة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن دعا عَلَى من ظَلَمه فقد انتصر».

ورواه الترمذيُّ من حديث أبي الأحوصِ، عن أبي حَمْزَة ـ واسمه مَيمُونٌ ـ ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديثه، وقد تُكلِّم فيه من قِبَلِ حِفْظِه»[6].

وقولُهُ: ﴿ إنما السبيلُ ﴾، أي: إنما الحرجُ والعنتُ ﴿ على الذين يظلِمُون الناس ويبغُون في الأرض بغير الحقِّ ﴾، أي: يبدءون الناس بالظُّلم. كما جاء في الحديث الصحيح: «المستبَّان ما قالا، فعَلى البادِىء ما لم يَعتدِ المظلومُ»[7].

﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾، أي: شديد موجع، قال أبو بكر بن أبي شيبة:

حدثنا الحسنُ بن موسى، حدثنا سَعيدُ بن زيد ـ أخو حَمَّاد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحَّامُ، حدثنا محمدُ بن واسع قال: قَدِمتُ مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة[8]، فأُخِذْتُ، فانطُلِق بي إلى مَرْوان بن المُهَلب، وهو

---

(١) أي: أمسكت بيده. والعرب تطلق القول على جميع الأفعال.

(٢) أي: تتعرض لشتمها من غير رويّة.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/٣٩.

(٤) الذُّرَيْعة: تصغير الذراع، وارادت بالذُّرَيْعتين الساعدين. تقول: زينب: يكفيك فعل عائشة حين قلبت لك ذراعيها أي: كأنك لشدة حُبِّك لها لا تنظر إلى أمرٍ آخر!

(٥) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء وكتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/١٤ ـ ١٥، وابن ماجه في كتاب النكاح ١/٦٣٧.

(٦) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٦٦.

(٧) أخرجه مسلم في كتاب البر ٤/٢٠٠٠، وأبو داود في كتاب الأدب ٤/٢٧٤، والترمذي في أبواب البر ٨/١٥١.

(٨) في مصنف ابن أبي شيبة: قنطرة. والمنظرة: موضع الحَرَس، وتكون في رأس الجبل.

أمير على البصرة، فقال: حاجتَكَ يا أبا عبد الله، قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عَدِيٍّ. قال: ومَن أخو بني عدي؟ قال: العَلاء بن زياد، استعمَل صديقاً له مرَّةً على عمل، فكتب إليه: (أما بعدُ فإنِ استطعت ألَّا تبيتَ إلا وظهرُك خفيفٌ، وبطنُك خميصٌ، وكَفُّك نقيةٌ من دماء المسلمين وأموالِهم، فإنك إذا فعلتَ ذلك لم يكن عليكَ سبيلٌ، ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغُون في الأرض بغير الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم﴾. قال مَروانُ: صَدَق واللهِ وَنَصح ثم قال: ما حاجتُك يا أبا عبدِ الله؟ قلت: حاجَتِي أن تُلحِقَني بأهلي. قال: نعم[1]. رواه ابن أبي حاتم.

ثم إنه تعالى لما ذَمَّ الظلم وأهله وشَرَع القِصَاصَ، قال نادباً إلى العفوِ والصَّفحِ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾، أي: صَبَر على الأذى وَسَتر السيِّئة، ﴿ إن ذلك لمن عَزْمِ الأمور ﴾.

قال سعيد بن جُبَير: لمن حَقِّ الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأُمورِ المشكورة والأفعال الحَميدة التي عليها ثواب جزيل وَثَناءٌ جميلٌ؟

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عِمْرانُ بن مُوسَى الطَّرَسُوسيُّ، حدثنا عبدُ الصَّمد بن يزيدَ ـ خادم الفُضَيل بن عِياضٍ ـ قال: سَمعت الفُضَيل بن عِياضٍ يقول: إذا أتاك رجلٌ يشكُو إليكَ رجلاً فقل: يا أخي، اعفُ عنه. فإن العفوَ أقربُ للتقوى، فإن قال: لا يحتمِلُ قلبي العفوَ، ولكن أنتصِرُ كما أَمرني الله ـ عَزَّ وجَلَ ـ. قال له الفُضَيل: إن كنتَ تُحسِن أن تنتصِر وإلَّا فارجع إلى باب العفو، فإنه بابٌ واسعٌ، فإنه مَن عفا وأصلَح فأجره على الله، وصاحبُ العفوِ ينام على فِرَاشِهِ باللَّيلِ، وصاحبُ الانتصارِ يُقلِّبُ الأمور.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعني ابنَ سعيدٍ القَطَّانَ ـ عن ابن عَجْلانَ، حدثنا سَعيدُ بن أبي سَعِيدٍ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَّ: رَجُلاً شَتم أبا بكر والنبيُّ ـ ﷺ ـ جالسٌ فَجعل النبيُّ ـ ﷺ ـ يَعْجب ويبتَسِمُ، فلما أكثر رَدَّ عليه بعضَ قولِه، فَغضِب النبي ـ ﷺ ـ وقام، فَلَحِقه أبو بكر فقال: يا رسولَ الله، إنه كانَ يشتُمني وأنتَ جالسٌ، فلما رَددتُ عليه بعضَ قوله غَضِبتَ وقُمتَ! قال: «إنه كان معك مَلَك يَرُدُّ عنك، فلما رَددت عليه بعضَ قوله حَضر الشيطانُ، فلم أكن لأقعُدَ مع الشيطانِ. ثم قال: يا أبا بكر، ثلاثٌ كُلُّهنَّ حَق، ما من عبد ظُلِم بمظلمةٍ فَيُغضِي عنها لله إلا أعَزَّ الله بها نَصْرَهُ، وما فَتَح رجلٌ باب عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بها صلةً إلا زاده الله بها كثرةً، وما فتح رجل باب مسألةٍ يريد بها كثرةً إلا زادَه الله بها قِلَّةً[2].

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حَمَّادٍ، عن سُفيانَ بن عُيَينَةَ. قال: وَرواه صفوانُ بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عجلان. ورواه من طريق الليثِ، عَن سعيد المَقبُري، عَن بَشير بن المُحرَّر، عن سعيد بن المسيَّب مرسلاً[2]. وهذا الحديث في غاية الحُسنِ في المعنى، وهو مُناسِبٌ للصدِّيق.

﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد ١٤/٦٣ ـ ٦٤.
(٢) مسند أحمد ٢/٤٣٦، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٧٤.

يقولُ تعالى مخبراً عن نفسِه الكريمةِ: إنه ما شاءَ كانَ ولا رَادَّ له، وما لم يشأ لم يكُن فلا مُوجِدَ له، وأنَّه من هَدَاه فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، كما قال: ﴿ وَمَن يُضلِل فلن تجدَ له وليًّا مُرشِداً ﴾.

ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركُون بالله ﴿ لما رَأَوُا العذاب ﴾، أي: يومَ القيامةِ يَتمنَّون الرجعةَ إلى الدنيا، ﴿ يقولُون هَل إلى مَرَدٍّ مِن سَبيلٍ ﴾، كما قال: ﴿ ولو تَرَى إذ وُقِفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكذِّبَ بآيات رَبِّنا ونكونَ من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذِبُونَ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وَتَراهُم يُعرَضون عليها ﴾، أي: على النارِ ﴿ خاشِعين من الذُّلِّ ﴾، أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفُوا من عِصيانِ اللّهِ، ﴿ يَنظُرون مِن طَرْفٍ خَفيٍّ ﴾، قال مجاهد: يعني ذَليلٍ. أي ينظرون إليها مُسارَقَةً خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقعٌ بهم لا مَحالَةَ، وما هو أعظم مما في نُفوسِهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿ وقال الذين آمنوا ﴾، أي: يقولُون يومَ القيامةِ: ﴿ إنَّ الخاسرين ﴾، أي: الخَسارَ الأكبَر ﴿ الذين خَسِرُوا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة ﴾، أي: ذُهِبَ بهم إلى النار، فَعَدِمُوا لَذَّتهم في دارِ الأبدِ، وَخَسِرُوا أنفُسهم، وفُرِّق بينهم وبين أحبابِهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم، فَخَسِرُوهم، ﴿ ألا إنَّ الظالمين في عذابٍ مُقيمٍ ﴾، أي: دائم سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ، لا خُروجَ لهم منها ولا محيدَ لهم عنها.

وقولُهُ: ﴿ وما كان لهم من أولياءَ يَنصُرونَهم من دُونِ الله ﴾، أي: يُنقِذُونهم مما هُم فيه من العذابِ والنَّكال، ﴿ ومَن يُضلِلِ الله فما له من سَبيلٍ ﴾، أي: ليس له خلاص.

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما يكونُ في يوم القيامة من الأهوالِ والأمورِ العظام العائلةِ حَذَّر منه وأمر بالاستعدادِ له، فقال: ﴿ استجيبُوا لربِّكم من قبل أن يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ له مِن الله ﴾، أي: إذا أمر بكونه فإنه كَلَمحِ البَصَرِ يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقولُهُ: ﴿ ما لَكُم من ملجإٍ يومئذٍ وما لَكُم من نكيرٍ ﴾، أي: ليس لكم حِصْنٌ تَتحصَّنون فيه، ولا مكانٌ يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بَصَره ـ تباركَ وتعالى ـ بل هو مُحيطٌ بكم بعِلْمِه وبَصَرِه وقُدرَته، فلا ملجأَ منه إلا إليه، ﴿ يقولُ الإنسان يومئذٍ أينَ المفرُّ. كلَّا لا وَزَرَ. إلى ربِّك يومئذٍ المُستقرُّ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ فإن أعرَضُوا ﴾، يعني المشركين. ﴿ فما أرسلناكَ عليهم حَفيظاً ﴾، أي: لستَ عليهم بمُصيطِرٍ، وقال تعالى: ﴿ ليس عليكَ هُداهم ولكنَّ الله يهدِي مَن يشاءُ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحسابُ ﴾. وقال هاهنا: ﴿ إنْ عليكَ إلا البلاغُ ﴾، أي: إنما كلفناكَ أن تُبلغهم رسالَةَ الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رحمةً فَرِح بها ﴾، أي: إذا أصابَه رَخاءٌ ونعمةٌ فَرِح بذلك، ﴿ وإن تُصِبهم ﴾ يعني الناسَ ﴿ سَيِّئةٌ ﴾، أي: جَدْبٌ ونقمةٌ وبلاءٌ وشدةٌ، ﴿ فإن الإنسان كفورٌ ﴾، أي: يجحد ما تقدَّم من النعمة ولا يعرف إلا الساعةَ الراهنةَ، فإن أصابته نعمةٌ أَشِر وبَطِر، وإن أصابته محنةٌ يَئِس وقَنَط. كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ للنِّساء: «يا معشرَ النِّساءِ، تَصدَّقن فإني رأيتكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ». فقالت امرأةٌ: ولم يا

رسُول الله؟ قال: «لأنكن تُكثِرْنَ الشّكاية، وتَكفُرن العَشير(١)، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهر ثم تركت يوماً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قطُّ»(٢). وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمَه رُشدَه، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، فالمؤمنُ كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن أصابته سَرَّاء شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ»(٣).

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى أنه خالقُ السمواتِ والأرضِ ومالِكُهما والمتصرِّف فيهما، وأنه ما شاء كانَ، وما لم يَشأ لم يَكُن، وأنه يُعطِي مَن يشاء، ويَمنَعُ مَن يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا مُعطِي لما منَع، وأنه يخلُق ما يشاء، و﴿ يَهَبُ لمن يشاءُ إناثاً ﴾، أي: يرزقه البناتِ فقط ـ قال البَغَويُّ(٢): ومنهم لوط عليه السلام ـ ﴿ وَيَهَبُ لمن يشاء الذكُورَ ﴾، أي: يرزُقه البنين فقط. قال البَغَويُّ: كإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿ أو يُزوِّجهم ذُكراناً وإناثاً ﴾، أي: ويُعطِي مَن يشاءُ مِن الناس الزوجَين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا، قال البَغَويُّ كمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾، أي: لا يولد له. قال البَغَويُّ: كيحيى وعيسى عليهما السلام(٤). فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يُعطِيه البنات، ومنهم من يُعطِيه البَنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنَعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له، ﴿ إنه عليم ﴾، أي: بمن يَستحِقُّ كل قسم من هذه الأقسام، ﴿ قديرٌ ﴾، أي: على ما يشاءُ من تفاوت الناس في ذلك.

وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالى عن عيسى: ﴿ وَلنجعلَه آيةً للناس ﴾، أي: دلالةً لهم على قُدرته ـ تعالى وتقدَّس ـ حيث خلَق الخلق على أربعةِ أقسام، فآدمُ ـ عليه السلام ـ مخلوقٌ من تُراب، لا من ذَكرٍ ولا أُنثى، وحواءُ ـ عليها السلام ـ من ذَكرٍ بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذَكرٍ وأنثى، وعيسى ـ عليه السلام ـ من أنثى بلا ذكر، فتمَّت الدلالة بخلق عيسى ابنِ مريمَ عليهما السلام. ولهذا قال: ﴿ وَلنجعلَه آيةً للناسِ ﴾، فهذا المقامُ في الآباءِ، والمقامُ الأوَّل في الأبناءِ، وكل منهما أربعةُ أقسامٍ، فسبحانَ العليمِ القديرِ.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه مقاماتُ الوحي بالنسبة إلى جنابِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو أنه تعالى تارةً يقذِفُ في رُوعِ النبيِّ شيئاً لا

---

(١) أي: ينكرن إحسان أزواجهن ويجحدنه.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة بسياق مسلم، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، فتح الباري ٨٣/١.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة يونس، وخرجناه هنالك.

(٤) تفسير البغوي ١٣٢/٤.

يُتَمارى فيه أنه من الله ـ عَزَّ وجَلَّ. كما جاء في صحيح ابن حبَّان، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن رُوح القدس نَفَث في رُوعِي أن نفساً لن تَموت حتى تستكمِلَ رِزْقَها وأَجَلَها، فاتقوا الله وَأَجْمِلُوا في الطَّلَب»[١].

وقولُهُ: ﴿ أو من وراء حِجَابٍ ﴾، كما كُلِّم موسى ـ عليه السلام ـ فإنه سأل الرؤيةَ بعد التكليم، فَحُجِب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لجابر بن عبد الله: «ما كَلَّم الله أحداً إلا من وراء حِجَابٍ، وإنه كلم أباكَ كِفاحاً». . . الحديث[٢]، وكان قد قُتِل يومَ أُحُدٍ، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا.

وقولُهُ: ﴿ أو يُرسِلَ رسولاً فَيُوحِيَ بإذنه ما يشاء ﴾، كما يَنزلُ جبريلُ وغيره من الملائكة على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ﴿ إنه عليٌّ حكيمٌ ﴾، فهو عليٌّ عليمٌ خبيرٌ حكيمٌ.

وقولُهُ: ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ﴾، يعني القرآنَ، ﴿ ما كنتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ﴾، أي: على التفصيلِ الذي شُرِع لك في القرآن، ﴿ ولكن جعلناه ﴾، أي: القرآن ﴿ نُوراً نَهدِي به مَن نَشاء مِن عبادِنا ﴾، كقوله: ﴿ قُل هو للذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ والذين لا يُؤمِنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمًى أولئكَ يُنادَون من مكانٍ بعيدٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لتهدِي إلى صِرَاطٍ مُستقيم ﴾، وهو الخُلُق القويمُ، ثم فَسَّره بقوله: ﴿ صراطِ الله ﴾، أي: شَرعِهِ الذي أَمَر به الله، ﴿ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرض ﴾، أي: رَبُّهما ومالِكُهما والمتصرِّفُ فيهما، الحاكمُ الذي لا مُعقِّبَ لِحُكمِهِ، ﴿ ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمورُ ﴾، أي تَرجِعُ الأمورُ، فَيُفصِّلُها وَيحكُم فيها.

آخر تفسير سورة «الشورى» والحمد لله رب العالمين

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨٧ من سورة البقرة، وقال ابن كثير هنالك: «وفي صحيح ابن حبان، أظنه عن ابن مسعود». وذكره. وقد جهدت أخرجه من الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان، فلم يَتَيسَّر لي. بيد أن في كتاب الزكاة عن جابر بن عبد الله، من الإحسان ٥/٩٨ ـ ٩٩ قريباً من لفظ الحديث، وهو قوله ـ ﷺ ـ: «لا تستبطئوا الرزق فإنه لن يموت العبد حتى يبلغه آخرُ رِزْقٍ هُوَ له، فأجملوا في الطلب في الحلال وترك الحرام».

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران، عارضة الأحوذي ١١/١٣٨ ـ ١٣٩، وابن ماجه في المقدمة ١/١٣، والجهاد ٢/٩٣٦.

تفسير

سُورَةُ الزُّخْرُف

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾

يقولُ تعالى: ﴿حمٓ * والكتابِ المبينِ﴾، أي: البيِّنِ الواضحِ الجليِّ المعاني والألفاظِ، لأنه نزل بلُغةِ العربِ التي هي أفصحُ اللغاتِ للتخاطُبِ بينَ الناسِ، ولهذا قال: ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي: أنزلناهُ ﴿ قرآناً عربياً ﴾، أي: بلُغةِ العربِ فَصِيحاً واضحاً، ﴿ لعلَّكم تعقِلُونَ ﴾، أي: تفهمُونه وتتدبَّرُونه، كما قال: ﴿ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ ﴾.

وقولُهُ [تعالى: ﴿ وإنه في أمِّ الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾، بيَّن شرفَه في الملأ الأعلى، لِيُشرِّفَه ويُعظِّمه ويُطيعَه أهلُ الأرض، فقال تعالى]: ﴿ وإنه ﴾، أي: القرآنَ ﴿ في أمِّ الكتابِ ﴾، أي: اللوحِ المحفوظِ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لدينا ﴾، أي: عندنا، قاله قتادةُ وغيرُه، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أي: ذُو مكانةٍ عظيمةٍ وشرفٍ وفضلٍ، قاله قتادةُ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾، أي: مُحكَمٌ بَرِيءٌ من اللَّبسِ والزَّيغِ.

وهذا كلُّه تنبيهٌ على شرَفِه وفضلِهِ، كما قال: ﴿إنه لقرآنٌ كريمٌ * في كتابٍ مكنونٍ * لا يَمَسُّه إلا المُطهَّرون * تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾، وقال: ﴿كلا إنها تذكرةٌ * فمن شاء ذكره * في صُحُفٍ مُكرَّمةٍ * مرفوعةٍ مُطهَّرةٍ * بأيدي سَفَرةٍ * كرامٍ بَرَرَةٍ﴾، ولهذا استنبط العلماءُ ـ رحمهم الله ـ من هاتين الآيتين: أن المُحدِثَ لا يَمَسُّ المصحفَ، كما وَرَد به الحديثُ إن صحَّ، لأن الملائكةَ يُعظِّمون المصاحفَ المشتملةَ على القرآنِ في الملأ الأعلى، فأهلُ الأرضِ بذلك أولى وأحرى، لأنه نزَل عليهم، وخطابُه متوجِّهٌ إليهم، فهم أحقُّ أن يُقابِلُوه بالإكرامِ والتعظيمِ، والانقيادِ له بالقبولِ والتسليمِ، لقوله: ﴿ وإنه في أمِّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيمٌ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ أفنضربُ عنكم الذكر صَفْحاً أن كنتم قوماً مُسرفين ﴾، اختلف المفسِّرون في معناها، فقيل: معناها أتحسَبُون أن نصفَح عنكم فلا نُعَذِّبكم ولم تفعَلُوا ما أُمِرتُم به؟ قاله ابنُ عباس، ومجاهد، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، واختاره ابنُ جَريرٍ[1].

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ أفنضربُ عنكم الذكرَ صَفْحاً ﴾، والله لو أن هذا القرآنَ رُفِعَ حين رَدَّته أوائلُ هذه الأمةِ لَهَلكُوا، ولكن الله عاد بعائِدَته ورحمتِه، وكَرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيفُ المعنى جدًّا، وحاصِلُه أنه يقول في معناه: إنه تعالى من لُطفه ورَحمته بخلقه لا يتركُ دُعاءَهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مُسرفين مُعرضين عنه، بل أَمَر به لِيهتَدِيَ من قَدَّر هدايته، وتقومَ الحجة على من كَتَب شقاوَته.

ثم قال تعالى مُسلِّياً لنبيِّه في تكذيب مَن كَذَّبه من قومِه، وآمراً له بالصبر عليهم، ﴿ وكَم أرسلنا من نَبِيٍّ في الأولين ﴾، أي: في شِيَعِ الأَوَّلين، ﴿ وما يأتيهم من نَبِيٍّ إلا كانوا به يَستهزِءُونَ ﴾، أي: يُكَذِّبونه ويَسخَرون به.

وقولُهُ: ﴿ فأهلكنا أشدَّ منهم بطشاً ﴾، أي: فأهلكنا المُكَذِّبين بالرُسل، وقد كانوا أشدَّ بطشاً، من هؤلاء المكذِّبين لك يا محمد؟ كقوله: ﴿ أفلم يسيرُوا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أكثَرَ منهم وأشدَّ قوةً ﴾، والآيات في ذلك كثيرة.

وقولُهُ: ﴿ ومضى مثلُ الأَوَّلين ﴾، قال مجاهد: سُنَّتُهُم. وقال قتادة: عُقوبَتُهم. وقال غيرهما: عبرتُهم. أي: جعلناهم عبرةً لمن بعدهم من المكذِّبين أن يُصِيبَهم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾، وكقوله: ﴿ سُنَّةَ الله التي قد خَلَت في عبادِهِ ﴾، وقال: ﴿ ولن تَجِد لسنَّةِ الله تبديلاً ﴾.

﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ولئن سألتَ ـ يا محمَّدُ ـ هؤلاء المشركين بالله العابدينَ معه غيرَه: ﴿ مَن خلق السموات والأرض ليقولُنَّ خلقَهُنَّ العزيزُ العليمُ ﴾، أي: ليعترفُنَّ بأنَّ الخالقَ لذلك هُو الله وحدَه لا شَريك له، وهم مع هذا يعبدُون معه غيرَه من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿ الذي جَعَل لكم الأرضَ مِهاداً ﴾[2]، أي: فِراشاً قراراً ثابتةً، يَسيرُون عليها ويَقُومون وينامُون

(١) تفسير الطبري ٢٥/٤٩.

(٢) كذا في النسخ ﴿ مهاداً ﴾. وقد قرأ الكوفيون في سورة طه والزخرف ﴿ مَهْداً ﴾ والباقون بالإفراد. انظر التبصرة للصيمري ٢/٦٩٨.

ويتصرَّفون، مع أنها مخلوقةٌ على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تَميد هكذا ولا هكذا، ﴿ وجعَلَ لكم فيها سُبُلاً ﴾، أي: طُرُقاً بين الجبال والأودية، ﴿ لعلكم تهتدون ﴾، أي: في سيركم من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وقُطْرٍ إلى قُطْرٍ، وإقليمٍ إلى إقليمٍ. ﴿ والذي نَزَّل من السماء ماء بِقَدَرٍ ﴾، أي بحسب الكفاية لزُروعكم وثماركم، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وقولُهُ: ﴿ فَأنشرنا به بلدةً مَيْتاً ﴾، أي: أرضاً مَيْتة، فلما جاءها الماء اهتزَّت وربَت وأنبتَتْ من كلِّ زَوجٍ بَهيجٍ.

ثم نَبَّه بإحياءِ الأرضِ على إحياءِ الأجسادِ يومَ المعادِ بعد مَوْتها، فقال: ﴿ كَذَلِكَ تُخرَجُونَ ﴾.

ثم قال: ﴿ والذي خَلَق الأزواجَ كُلَّها ﴾، أي: مما تُنبتُ الأرضُ من سائر الأصنافِ، من نباتٍ وزُرُوعٍ وثمارٍ وأزاهيرَ، وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسِها وأصنافِها، ﴿ وجعَل لكم من الفُلكِ ﴾، أي: السُفُنِ ﴿ والأنعامِ ما تركَبُون ﴾، أي: ذَلَّلها لكم وسَخَّرها ويَسَّرَها لأكْلِكم لحومَها، وشُربكم ألبانها ورُكوبكم ظُهورَها، ولهذا قال: ﴿ لتستَوُوا على ظُهُوره ﴾، أي: لتستووا متمكنين مُرتَفقِين[1]، ﴿ على ظهوره ﴾، أي: على ظهورِ هذا الجنس، ﴿ ثم تَذكُروا نعمةَ رَبِّكم ﴾، أي: فيما سَخَّر لكم ﴿ إذا استويتُم عليه وتَقُولُوا سُبحانَ الذي سَخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرنينَ ﴾، أي: مُقاوِمين. ولولا تسخيرُ الله لنا هذا ما قَدَرْنا عَلَيهِ. قال ابن عباس[2]، وقتادةُ، والسُدِّيُّ، وابنُ زيدٍ: ﴿ مُقرنين ﴾، أي: مُطِيقينَ. ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلِبُونَ ﴾، أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرُنا الأكبرُ. وهذا من باب التنبيه بسَيرِ الدنيا على سَيرِ الآخرة، كما نَبَّه بالزاد الدُنيويِّ على الأُخرَويِّ في قوله: ﴿ وتزَوَّدُوا فإن خيرَ الزادِ التقوى ﴾، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله: ﴿ وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ ﴾.

ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ عند ركُوبِ الدابَّةِ

حديثُ أميرِ المؤمنِينَ عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال الإمام أحمدُ:

حدثنا يزيدُ، حدثنا شَريكُ بن عبد الله، عن أبي إسحاقَ، عن عليِّ بن ربيعةَ قال: رأيت علياً - رضي الله عنه - أُتِيَ بدابَّةٍ فلما وَضع رجله في الرِّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمدُ لله، ﴿ سبحانَ الذي سَخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرنين* وإنَّا إلى رَبِّنا لمنقلبونَ ﴾، ثم حَمِد الله ثلاثاً، وكَبَّر ثلاثاً، ثم قال: سُبحانَك، لا إلَه إلا أنت، قد ظَلَمْتُ نفسي فاغفر لي. ثم ضَحِك فقلت له: مِمَّ ضَحِكتَ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسولَ الله - ﷺ - فَعَل مثل ما فعلت. ثم ضَحِكَ. فقلت: مِمَّ ضَحِكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجَبُ الربُّ - عَزَّ وجَلَّ - مِن عَبدِه إذا قال: «ربِّ، اغفِرْ لي». ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»[3].

وهكذا رواه أبو داودَ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، من حديث أبي الأحوصِ - زاد النسائي: ومنصورٌ - عن أبي إسحاقَ السَّبيعي، عن عليِّ بن ربيعةَ الأسدِيِّ الوالبي، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح»[3].

---

(١) ارتفق القوم: صاروا رُفَقاء.

(٢) أخرجه الطبري ٢٥/٥٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٩٧. وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/٣٤، وعارضة الأحوذي أبواب الدعوات ١٣/٦، وأخرجه النسائي في كتاب السير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٧/٤٣٦.

وقد قال عبدُ الرحمن بن مَهديٍّ، عن شعبةَ قلتُ لأبي إسحاق السَّبيعي: ممن سَمِعتَ هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خبَّاب. فَلَقِيتُ يُونسَ بنَ خبَّابٍ فقلت: ممن سَمِعتَه؟ فقال: من رَجُلٍ سَمِعَه من عليٍّ بن ربيعةَ. ورواه[١] بعضُهم عن يونسَ بن خبَّابٍ، عن شقيقِ بن عُقبَةَ الأسدِيِّ، عن عليٍّ بن ربيعةَ الوالبيِّ، به.

حديثُ عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال الإمامُ أحمد:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أردفه على دابَّتِه، فلما استوى عليها كَبَّر رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً، وحَمِد ثلاثاً، وهَلَّل الله واحدةً. ثم استلقى عليه فَضحِك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرىء مسلم يركَبُ دابَّةً فيصنَع كما صنعتُ، إلا أقبل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عليه، فَضحِك إليه كما ضَحِكتُ إليكَ». تفرد به أحمد[٢].

حديث عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمدُ:

حدثنا أبو كامل، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن علي بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا رَكِب راحلته كَبَّر ثلاثاً ثم قال: ﴿ سبحان الذي سَخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرِنِينَ. وإنَّا إلى رَبِّنا لمنقلبونَ ﴾. ثم يقولُ: اللهُمَّ، إني أسألُكَ في سَفَرِي هذا البِرَّ والتقوى، ومِنَ العمَلِ ما تَرضَى. اللهُمَّ، هَوِّن علينا السفر واطْوِ لنا البعيدَ. اللهُمَّ، أنتَ الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في الأهل. اللهُمَّ، اصحَبنا في سَفَرِنا، وَاخلُفنا في أهلِنا». وكان إذا رَجَع إلى أهلِه قال: «آيبونَ تائبُونَ إن شاء الله، عابِدُونَ، لربنا حامِدُونَ»[٣].

وهكذا رواه مسلمٌ وأبو داود والنسائيُّ، من حديث ابن جُرَيج ـ والترمذيُّ من حَدِيثِ حَمَّادِ بن سَلَمة ـ كلاهُما عن أبي الزُّبَير، به[٣].

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا محمد بن إسحاقَ، عن محمدِ بن إبراهيم، عن عَمرو بن الحكم بن ثَوبان، عن أبي لاسٍ الخُزَاعِيِّ قال: حَمَلنا رسول الله ـ ﷺ ـ على إبلٍ من إبلِ الصدقةِ إلى الحجِّ، فقلنا: يا رسولَ الله، ما نَرى أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا في ذِرْوَتِه شيطانٌ، فاذكُروا اسم الله عليها إذا ركبتُمُوها كما آمركم، ثم امتَهِنُوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عَزَّ وجَلَّ»[٤].

أبو لاس اسمُه: محمد بن الأسود بن خَلَفٍ[٥].

[حديث آخر في معناه، قال أحمد: حدثنا عَتَّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعني ابن المبارك ـ أخبرنا أسامةُ بنُ زيدٍ، أخبرني محمد بن حَمزَةَ: أنه سَمِعَ أباه يقولُ: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «على ظهرِ كُلِّ بعيرٍ شيطانٌ، فإذا رَكِبتُموها فَسَمُّوا الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ثم لا تُقْصِرُوا[٦] عن حاجاتكم].

---

(١) في تحفة الأشراف ٤٣٦/٧: (رواه شعيب بن صفوان، عن يونس...).

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٣٠/١.

(٣) مسند الإمام أحمد ١٤٤/٢، ومسلم، كتاب الحج ٩٧٨/٢، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣٣/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٧/١٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، واليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ١٦/٦.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢٢١/٤.

(٥) انظر ترجمته في أسد الغابة ٨٠/٥، ٢٦٥/٦.

(٦) أقصر عن الشيء: كفَّ عنه وهو يقدر عليه. وهذا الحديث ساقط من أغلب النسخ.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عنِ المشركين فيما افتروه وكَذَّبوه في جَعلِهم بعضَ الأنعام لطواغيتهم وبعضَها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام، في قوله: ﴿ وجَعَلُوا لله مما ذَرَأ من الحرث والأنعام نَصِيباً فقالُوا هذا لله بزَعمهم وهذا لشركائنا فما كان لِشُركائهم فلا يَصِلُ إلى الله وما كان لِلّهِ فهو يَصِلُ إلى شركائهم ساءَ ما يحكُمُون ﴾. وكذلكَ جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنثى * تِلْكَ إذاً قسمةٌ ضِيزَىٰ ﴾. وقال هاهنا: ﴿ وَجَعلُوا له من عبادِه جُزءاً إن الإنسانَ لكفورٌ مُبِينٌ ﴾.

ثم قال: ﴿ أم اتخذ مما يخلقُ بناتٍ وأصفاكُم بالبنينَ ﴾، وهذا إنكارٌ عليهم غايةَ الإنكار. ثم ذكر تمامَ الإنكارِ فقال: ﴿ وإذا بُشّر أحدهُم بما ضَرَب للرحمنِ مثلاً ظَلَّ وجهُه مُسوداً وهو كَظِيم ﴾، أي: إذا بُشّر أحدُ هؤلاء بما جَعلُوه لله من البناتِ يأنفُ من ذلك غايةَ الأنفَةِ، وتعلوه كآبةٌ من سُوءِ ما بُشّر به ويَتَوارى من القوم من خَجَلِه من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتَنسُبونه إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ؟!

ثم قال: ﴿ أَوَمن يُنَشَّؤُا في الحليةِ وهُو في الخصام غيرُ مُبينٍ ﴾، أي: المرأةُ ناقصة يُكمَّل نقصُها بِلُبسِ الحُلِيِّ منذ تكون طفلةً، وإذا خاصَمَت فلا عبارةَ لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أومن يكون هكذا يُنسَبُ إلى جنابِ الله العظيم؟! (١ [فالأنثى ناقصةُ الظاهرِ والباطِنِ في الصورة والمعنى، فيُكمَّل نقصُ ظاهرِها وصُورتِها بِلُبسِ الحُلِيِّ وما في معناه، لِيَجبُرَ ما فيها من نقصٍ، كما قال بعضُ شعراءِ العَرَب:

وَمَا الحَلْيِ إلاَّ زينَةٌ مِنْ نَقيصةٍ ... يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا
وَأَمَّا إذا كَانَ الجَمَالُ مُوَفَّراً ... كَحُسْنِكِ لَمْ يَحْتَجْ إلَى أنْ يُزَوَّرا

وأما نقصُ معناها فإنها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا هِمَّةَ، كما قال بعض العرب وقد بُشّر ببنت: ما هي بِنِعْمَ الوَلَدُ: نَصرُها بالبكاء، وبِرها سَرِقَة]١).

وقولُهُ: ﴿ وجعَلُوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً ﴾، أي: اعتَقَدُوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولَهم ذلك، فقال: ﴿ أَشهِدُوا خَلْقَهم ﴾، أي: شاهَدُوه وقد خلَقَهُم الله إناثاً؟! ﴿ سَتُكتَبُ شهادتُهم ﴾، أي: بذلك، ﴿ ويُسأَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديدٌ شديدٌ، وَوَعِيدٌ أكيدٌ.

﴿ وقالوا لو شاءَ الرحمنُ ما عَبَدناهم ﴾، أي: لو أراد الله لَحَال بيننا وبين عبادةِ هذه الأصنام، التي هي على صُوَرِ الملائكة التي هي بناتُ الله، فإنه عالمٌ بذلك، وهو يُقرِّرنا عليه، فجَمَعُوا بين أنواعٍ كثيرةٍ من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولداً، وقد تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

الثاني: دعواهُم أنه اصطفى البناتِ على البنين، ﴿فجَعَلُوا الملائكةَ الذين هُم عباد الرحمن إناثاً﴾.

(١-١) ساقط من أغلب النسخ.

الثالث: عبادتُهم لهم مع ذلك كلِّه، بلا دليلٍ ولا برهانٍ، ولا إذنٍ من الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ بل بِمُجرَّدِ الآراءِ والأهواءِ، والتقليدِ للأسلافِ والكُبَراءِ والآباءِ، والخَبْطِ في الجاهلية الجَهْلاءِ.

الرابع: احتجاجُهم بتقريرهم على ذلك قَدَراً، وقد جَهلوا في هذا الاحتجاج جَهْلاً كَبيراً، فإنَّه تعالى قد أنكَر ذلك عليهم أشدَّ الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتبَ يأمرُ بعبادته وحدَه لا شريكَ له، وينهى عن عبادةِ ما سواه، قال: ﴿ ولقد بعثنا في كلِّ أمَّةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله واجتنبُوا الطاغوتَ فمنهم مَن هَدَى الله ومنهم مَن حَقَّت عليه الضلالةُ فسيروا في الأرض فانظُروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾. وقال تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبَدُون ﴾. وقال في هذه الآية بعد أن ذكر حُجَّتهم هذه: ﴿ ما لَهم بذلك من علمٍ ﴾، أي: بِصحَّةِ ما قالوه واحتجُّوا به، ﴿ إن هم إلا يَخرُصُونَ ﴾، أي: يكذِبون ويَتقوَّلون.

وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿ ما لهم بذلك من علمٍ إن هُم إلا يَخرصُونَ ﴾، يعني: ما يعلمُون قُدرَةَ اللهِ على ذلك[1].

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غيرَ الله بلا بُرهانٍ ولا دليلٍ ولا حُجَّةٍ: ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾، أي: من قبل شركهم، ﴿ فهم به مُستَمسِكون ﴾، أي: فيما هُم فيه. أي: ليس الأمرُ كذلك، كقوله: ﴿ أم أنزلنا عليهم سُلطاناً فهو يَتكلَّم بما كانوا به يُشركُون ﴾، أي: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿ بل قالوا إنا وَجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مُهتدُون ﴾، أي: ليس لهم مُستَنَدٌ فيما هم فيه من الشِّركِ سوى تقليدِ الآباءِ والأجدادِ، بأنهم كانُوا على أُمَّة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قولِه: ﴿ إنَّ هذِه أُمَّتكُم أُمَّةً واحدةً ﴾.

وقولُهم: ﴿ وإنا على آثارهم ﴾، أي: وَراءَهم ﴿ مُهتَدُون ﴾، دَعوى مِنهم بلا دليل.

ثم بيَّن تعالى أن مقالة هؤلاءِ قد سَبقَهم إليها أشباهُهم ونُظَراؤُهم من الأمم السالفة المُكَذِّبة للرسل، تَشابَهت قلوبُهم، فقالوا مِثلَ مقالتهم: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رَسُولٍ إلا قالُوا ساحرٌ أو مجنونٌ ۞ أتواصَوا به بل هم قوم طاغون ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وكذلك ما أرسلنا مِن قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُترفُوها إنا وَجدْنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مُقتدون ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قل ﴾ ـ أي: يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين ـ: ﴿ أوَلَو جِئتُكم بأهدَى مما وجدتُّم عليه آباءكم قالوا إنا بما أُرسِلتُم به كافِرُون ﴾، أي: ولو عَلِمُوا وتَيقَّنوا صِحَّة ما جِئتهم به لما انقادُوا لذلك بِسُوءِ قَصدِهم ومُكابرتِهم للحقِّ وأهلِه. قال الله تعالى: ﴿ فانتقمنا منهم ﴾، أي: من الأمَم المكذِّبة بأنواعٍ من

(١) أخرجه الطبري ٢٥/٥٩.

العذاب، كما فَصَّله تعالى في قِصَصهم، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذِّبين ﴾؟ أي: كيف بادُوا وهَلَكوا وكيف نَجّى الله المؤمنين؟

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عَبدِه ورسُوله وخَليلِه إمامِ الحُنفاء، ووالدِ مَن بُعِث بعدَه من الأنبياء، الذي تَنتسِبُ إليه قُرَيشٌ في نَسَبِها ومَذهبِها: أنه تبرَّأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿ إنني بَراءٌ مما تعبدُون * إلا الذي فَطَرني فإنه سَيهدين * وجَعَلها كلمةً باقيةً في عَقِبه ﴾، أي: هذه الكلمة، وهي عبادةُ الله وحده لا شريكَ له، وخَلْعُ ما سِواه من الأنداد، وهي: «لا إلَه إلا الله»، أي: جعلها دائمةً في ذُرِّيته يَقتَدِي به فيها مَن هداه الله من ذُرِّية إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ ﴿ لعلهم يَرجعُون ﴾، أي: إليها.

وقال عِكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿ وجَعَلها كَلِمةً باقيةً في عَقِبه ﴾، يعني: لا إلَه إلا الله، لا يزال في ذُرِّيته مَن يقولها. ورُوِي نحوُه عن ابن عَبّاسٍ. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام(١). وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿ بل مَتَّعتُ هؤلاءِ ﴾، يعني المشركين، ﴿ وآباءَهم ﴾، أي: فتطاول عليهم العمر في ضَلالِهم، ﴿ حتى جاءهم الحقُّ ورسولٌ مُبين ﴾، أي: بَيِّن الرِّسالةِ والنِّذارة.

﴿ ولمّا جاءهُم الحقُّ قالوا هذا سِحرٌ وإنا به كافِرُون ﴾، أي: كابَرُوه وعانَدُوه ودفَعُوه بالصُّدور والـراح كُفراً وحَسَداً وبَغياً، ﴿ وقالوا ﴾ كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتَقدَّس: ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القريتَين عظيمٍ ﴾، أي: هَلَّا كان إنزالُ هذا القرآنِ على رَجُلٍ عظيمٍ كبيرٍ في أعيُنهم من القريَتَين؟ يعنونَ مكّة والطائف. قاله ابنُ عباس، وعِكرمةُ، ومحمدُ بن كَعب القُرَظي، وقتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زيدٍ. وقد ذكر غيرُ واحد منهم: أنهم أرادوا بذلك الوليدَ بنَ المغيرةِ، وعُروةَ بنَ مسعودٍ الثَّقفي. وقال مالكٌ، عن زيد بن أسلَمَ، والضحّاكُ، والسُّدِّيُّ: يعنون الوليدَ بن المغيرة، ومسعودَ بن عَمرو الثَّقفي. وعن مجاهد: عُمَير بن عَمرو بن مَسعُودٍ الثقفي. وعنه أيضاً: أنهم يعنون عُتبَةَ بن ربيعة. وعن ابن عباس: جَبّارٌ من جَبابرة قريش. وعنه: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحَبيب بن عَمرو بن عُمَير الثقفي. وعن مجاهد: يَعنُون عتبةَ بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السُّدِّيُّ: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عَبْدِ عمرو بن عُمَير الثقفي. والظاهر أن مُرادهم رَجُلٌ كَبيرٌ من أيِّ البلدتين كان.

(١) أخرجه الطبري ٢٥/٦٣.

قال الله تعالى رادًّا عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أهم يَقسِمُون رَحمة ربك﴾، أي: ليس الأمر مَردوداً إليهم، بل إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - والله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِه، فإنه لا يُنزلها إلا على أزكَى الخَلْقِ قلباً ونَفساً، وأشرَفِهم بَيتاً، وأطهَرِهم أصلاً.

ثم قال تعالى مُبَيِّناً أنه قد فاوت بين خَلْقِهِ فيما أعطاهُم من الأموال والأرزاقِ والعُقول والفُهوم، وغير ذلك من القُوى الظاهرة والباطِنَةِ، فقال: ﴿نحن قَسمنا بَينَهم مَعِيشَتَهم في الحياةِ الدُنيا ورَفَعنا بعضَهُم فوقَ بعضٍ دَرَجاتٍ﴾.

وقولُهُ: ﴿ليَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخرِيًّا﴾، قيل: معناه لِيُسَخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياجِ هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السُدّيُّ وغيره. وقال قتادةُ، والضَحَّاكُ: لِيملِكَ بعضُهم بعضاً. وهذا راجعٌ إلى الأول.

ثم قال: ﴿وَرحمَةُ ربِّك خيرٌ مما يجمَعُون﴾، أي: رحمةُ اللّهِ بخلقِه خيرٌ لهم مما بأيديهم من الأموالِ ومتاعِ الحياةِ الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿ولولا أن يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدةً﴾، أي: لولا أن يعتقدَ كثيرٌ من الناس الجَهَلَة أن إعطاءها المال دليلٌ على مَحَبَّتنا لِمَن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال. هذا معنى قولِ ابن عَبَّاس، والحسنِ، وقتادة، والسُدِّي، وغيرهم، ﴿لَجَعلنا لمن يكفُر بالرَّحمنِ لِبُيوتهم سُقُفاً من فِضَّةٍ ومعارِجَ﴾، أي: سَلَالِم وَدَرَجاً من فِضَّةٍ، قاله ابن عباس، وقتادة، والسُدِّي، وابن زيد، وغيرهم، ﴿عليها يظهرون﴾، أي: يصعَدُون، ﴿وَلِبُيُوتِهم أبواباً﴾، أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وسُرُراً عليها يَتَّكِئُون﴾، أي: جميعُ ذلك يكونُ فِضَّةً، ﴿وزُخْرُفاً﴾، أي: وَذَهباً، قاله ابن عباس، وقتادةُ، والسُدِّي، وابنُ زيدٍ.

ثم قال: ﴿وإن كلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدُنيا﴾، أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحَقِيرَةِ عند الله، أي: يُعَجِّل لهم بِحَسَناتهم التي يَعمَلُونها في الدنيا مآكِلَ ومشارِبَ، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنةٌ يجزيهم بها، كما وَرَد به الحديثُ الصحيح[(١)]. وقد ورد في حديثٍ آخَرَ: «لو أن الدنيا تَزِن عند الله جناح بَعُوضَةٍ ما سَقَى منها كافراً شَربةَ ماءٍ»، أسنده البغويُّ من رواية زكريا بن مَنْظُور، عن أبي حازمٍ، عن سَهلِ بن سعدٍ، عن النبي - ﷺ -، فذكره[(٢)]. [(٣)وروا الطبراني من طريق زَمعَةَ بن صالح، عن أبي حازم، عن سَهلِ بن سعدٍ، عن النبي - ﷺ -: «لو عَدَلت الدنيا جناحَ بَعُوضَةٍ ما أعطى كافراً منها شيئاً»](٣).

ثم قال: ﴿والآخرةُ عند ربِّك للمُتَّقين﴾، أي: هي لهم خاصةٌ لا يُشارِكُهم فيها غيرُهم. ولهذا لما قال عُمَر بن الخطاب لرسول الله - ﷺ - حين صَعِدَ إليه في تلك المَشْرُبَة لما آلى من نسائه، فرآه على رُمَالِ حَصِير قد أثَّر بجنبه، فابتدَرَتْ عيناه بالبكاء، وقال: يا رسولَ اللّهِ، هذا كسرى وقيصرُ فيما هُما فيه، وأنت صفوةُ الله من خلقه! وكان رسول الله - ﷺ - مُتَّكِئاً فجلس وقال: أَوَفِي شك أنت يا ابنَ الخطاب؟ ثم قال: أولئك قوم عُجِّلت لهم طَيِّباتهم في حياتهم الدنيا. وفي رواية: أما ترضَى أن تكونَ لهم الدنيا ولنا الآخرة[(٤)]؟!. [وفي الصحيحَين أيضاً وغيرهما أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «لا تشرَبُوا في آنيةِ الذهبِ والفِضَّةِ، ولا تأكلوا في صِحَافها، فإنها لهم

---

(١) اخرجه مسلم في كتاب صفات القيامة ٤/٢١٦٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/١٣٨ - ١٣٩.

(٣ - ٣) ساقط من أغلب النسخ. وحديث الطبراني في المعجم الكبير ٦/١٧٨.

(٤) تقدم الحديث، وتخريجه، وشرح غريبه، عند تفسير الآية ١٣١ من سورة طه.

في الدنيا ولنا في الآخرة»(١). وإنما خوَّلهم الله تعالى في الدُّنيا لحقارتها، كما رَوَى الترمذيُّ وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سَهل بن سعدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جَناحَ بَعُوضةٍ ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»، قال الترمذيُّ: «حسن صحيح»(٢)].

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾، أي: يَتعامى ويَتغافل ويُعرِضْ ﴿ عن ذِكْر الرحمن ﴾، والعَشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا عَشَا البصيرة، ﴿ نُقَيِّض له شيطاناً فَهُو له قرينٌ ﴾، كقوله: ﴿ وَمَن يُشاقِقِ الرسولَ مِن بَعدِ ما تَبيَّن له الهُدَى وَيَتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولي ونُصلِه جَهنَّم وساءت مَصيراً ﴾، وكقوله: ﴿ فلما زاغُوا أزاغَ الله قلوبَهم ﴾، وكقوله: ﴿ وَقَيَّضنا لهم قُرَناءَ فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وحَقَّ عليهم القولُ في أُمَمٍ قد خلَت من قبلهم من الجنِّ والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ وإنَّهم لَيَصُدُّونهم عن السبيلِ ويحسَبُون أنهم مُهتَدُون * حَتَّى إذا جاءَنا ﴾، أي: هذا الذي تَغافَلَ عن الهُدَى نُقيِّضُ له من الشياطينِ من يُضِلُّه، ويَهديه إلى صراطِ الجَحيم. فإذا وافى الله يومَ القيامة يَتبرَّم بالشيطان الذي وُكِّل به، ﴿ قال يا ليتَ بيني وبينَكَ بُعدَ المشرقين فبئس القرينُ ﴾. وقرأ بعضُهم: ﴿ حَتَّى إذا جاءانا ﴾(٣)، يعني القرينَ والمقارَنُ.

قال عبدالرزَّاق: أخبرنا مَعمرٌ، عن سَعيد الجُرَيري قال: بَلَغنا أن الكافرَ إذا بُعث عن قَبره يومَ القيامة سَفَعَ(٤) بيده شَيطانٌ فلم يُفارقه، حتى يُصَيِّرهما الله إلى النار، فذلك حينَ يقولُ: ﴿يا ليت بيني وبينَكَ بُعدَ المشرِقين فبئسَ القرينُ﴾(٥).

والمرادُ بالمشرقين هُنا هو: ما بين المشرق والمغرب. وإنما استُعمِل هاهنا تغليباً، كما يقال: القَمَران، والعُمَران، والأبوان، قاله ابن جرير وغيره(٦).

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَن ينفَعَكُم اليومَ إذ ظلمتُم أنَّكُم في العذابِ مُشتَرِكُون ﴾، أي: لا يُغني عنكم اجتماعُكم في النار واشتراكُكم في العذاب الأليم.

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأطعمة ٦/٥٥٤، ومسلم، كتاب اللباس والزينة ٣/١٦٣٧.

(٢) أخرجاه في الزهد، عارضة الأحوذي ٩/١٩٧ ـ ١٩٨، وابن ماجه ٢/١٣٧٧.

(٣) قرأ بالتثنية الحرميان وابن عامر وأبو بكر. الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦١.

(٤) أي: أخذ بيده.

(٥) الدر المنثور ٧/٣٧٨.

(٦) تفسير الطبري ٢٥/٧٤.

وقولُهُ: ﴿ أفأنت تُسمعُ الصمَّ أو تهدِي العُميَ ومَن كان في ضلالٍ مبين ﴾، أي: ليس ذلك إليك، إنما عليكَ البلاغ، وليس عليكَ هُداهُم، ولكن الله يَهدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء، وهو الحَكَم العَدْلُ في ذلك.

ثم قال: ﴿ فإما نَذهَبنَّ بك فإنَّا منهُم مُنتقِمون ﴾، أي: لا بدَّ أن ننتقِمَ منهم ونعاقِبَهم، ولو ذهبتَ أنتَ، ﴿ أو نُرِيَنَّكَ الذي وعدناهُم فإنا عليهم مُقتَدِرُون ﴾، أي: نحن قادِرُون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله - ﷺ - حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحَكَّمه في نواصِيهم، ومَلَّكه ما تَضمَّنته صَياصِيهم(١). هذا معنى قول السُّدِّي، واختاره ابنُ جَرير.(٢).

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا ابنُ ثَور، عن معمَر قال: تلا قتادة ﴿ فإما نذهبَنَّ بك فإنا منهم مُنتقِمون ﴾ فقال: ذَهَب النبيُّ - ﷺ - وبَقِيت النقمة، ولم يُرِ الله نَبيَّه - ﷺ - في أُمَّته شيئاً يَكرَهُه حتى مضى، ولم يكُن نَبِيٌّ قطُّ إلا ورأى العقوبةَ في أُمَّته، إلا نَبيُّكم - ﷺ -. قال: وذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ الله - ﷺ - أُرِيَ ما يُصيبُ أُمَّته مِن بَعدِه، فما رُئِي ضاحِكاً مُنبسِطاً حتى قَبَضه الله - عزَّ وجَلَّ -.

وذَكَر من رواية سَعيدِ بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ نحوه. ثم رَوَى ابنُ جَرير عن الحسن نحوَ ذلك أيضاً.

وفي الحديث: «النجومُ أَمَنَةٌ للسماءِ، فإذا ذَهَبت النجومُ أَتَى السماءَ ما تُوعَدُ وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعَدُون»(٣).

ثم قال تعالى: ﴿ فَاستَمسِكْ بالذي أُوحِي إليك إنكَ على صِراطٍ مُستقيم ﴾، أي: خُذ بالقرآن المنزَّل على قَلْبِكَ، فإنه هُو الحقُّ، وما يَهدي إليه هو الحقُّ المُفضِي إلى صراطِ اللهِ المستقيمِ، الموصِّلِ إلى جناتِ النَّعيم، والخير الدائمِ المقيم.

ثم قال: ﴿ وإنَّه لذكرٌ لك ولقَومِكَ ﴾، قيل: معناهُ لَشَرفٌ لك ولقومِك، قاله ابنُ عباسٍ، ومُجاهِدٌ، وقتادةُ، والسُّديُّ، وابن زيد، ومعناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزلَ بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوَم الناس به وأعلمهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. واختارَه ابنُ جَرير، ولم يحكِ سواهُ.

وأورد البَغَويُّ هاهنا حديثَ الزُهري، عن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن معاوية قال: سَمِعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «إن هذا الأمر في قُريشٍ لا يُنازِعُهم فيه أحد إلا أكبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين»(٤). رواه البخاري(٤).

وقيل: معناه ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾، أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصُهم بالذكر لا ينفي مَن سِواهم. كقوله: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكرُكم أفلا تعقِلُون﴾، وكقوله: ﴿وأَنذِرْ عَشيرَتَك الأقربينَ﴾.

﴿ وسوف تسألون ﴾، أي: عن هذا القرآن وكيفَ كُنتم في العملِ به والاستجابةِ له.

وقولُهُ: ﴿ واسأل مَن ارسلنا مِن قبلِكَ من رُسُلِنا أَجعلنا من دُونِ الرحمنِ آلهةً يُعبَدُون ﴾؟ أي: جَمِيعُ الرُّسُلِ دَعَوا إلى ما دَعَوتَ الناسَ إليهِ مِن عبادةِ الله وحدَه لا شَريكَ له، ونَهَوا عن عبادةِ الأصنامِ والأندادِ.

---

(١) الصياصي: الحصون.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/٧٦.
(٣) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٤/١٩٦١.
(٤) تفسير البغوي ٤/١٤٠، وفتح الباري، كتاب الأحكام ١٣/١١٣-١١٤.

كقوله: ﴿ وَلَقد بعثنا في كلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أن اعبدوا الله واجتنِبُوا الطاغُوتَ ﴾، قال مجاهد: في قراءة عبدِ الله بن مسعُودٍ: ﴿ واسأل الذين أرسلنا إليهم قَبلك رُسُلَنا ﴾(١). وهكذا حكاه قتادة، والضحَّاك، والسُّدي، عن ابن مسعودٍ. وهذا كأنه تفسيرٌ لا تلاوةٌ، والله أعلم.

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلَمَ: واسألهم ليلةَ الإسراءِ فإنَّ الأنبياء جُمِعُوا له. واختارَ ابنُ جريرٍ الأوَّلَ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن عبدهِ ورسُوله موسى ـ عليه السلام ـ أنَّه ابتعثه إلى فِرعَون ومَلَئِه من الأمراء والوُزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبطِ وبني إسرائيل، يدعُوهُم إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وينهاهُم عن عبادةِ ما سواه، وأنه بعثَ معه آياتٍ عِظاماً، كَيَدِه وعَصاه، وما أرسلَ معه من الطُّوفان والجَراد والقُمَّل والضفادع والدَّمِ، ومِنْ نَقْصِ الزُّرُوع والأنفُسِ والثمراتِ، ومع هذا كُلِّه استكبَرُوا عن اتباعها والانقيادِ لها، وكَذَّبوها وسَخِروا منها، وضَحِكوا ممن جاءهم بها. وما تأتيهم من آيةٍ إلا هي أكبرَ مِن أُختِها، ومع هذا ما رَجَعُوا عن غيهم وَضَلالهم، وجَهلهم وخبالهم. وكُلَّما جاءتهم آيةٌ من هذه الآياتِ يَضرَعُون إلى موسى ـ عليه السلام ـ ويَتَلطَّفون له في العبارة بقولهم: ﴿ يا أَيُّها الساحرُ ﴾، أي: العالم، قاله ابنُ جرير(٢). وكان علماءُ زمانهم هم السحرةَ. ولم يكن السحرُ عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم، لأن الحالَ حالُ ضرورةٍ منهم إليه لا تُناسِب ذلك، وإنما هو تعظيم في زَعمِهم ففي كل مرة يَعِدُون موسى إنْ كَشَفَ عنهم هذا أن يؤمِنوا ويُرسِلُوا معه بني إسرائيل. وفي كلِ مَرَّةٍ ينكثُون ما عاهَدُوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدمَ آياتٍ مُفصَّلاتٍ فاستكبَرُوا وكانوا قوماً مُجرمين * ولما وقع عليهم الرجزُ قالوا يا موسى ادعُ لنا ربَّك بما عَهِد عندكَ لئن كشفتَ عنا الرجز لنؤمنَنَّ لكَ ولنرسِلَنَّ معكَ بني إسرائيل * فلما كَشَفنا عنهم الرجزَ إلى أجل هم بالِغُوه إذا هم ينكثُون ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرعَونَ وتمرُّدِه وعتوِّه وكُفرِه وعِنادِه: أنه جَمَع قومَه، فنادى فيهم مُتَبجحاً مُفتخِراً بمُلكِ مصرَ وتَصرُّفه فيها: ﴿ أليس لي ملكُ مِصرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي ﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنانٌ وأنهارُ ماءٍ، ﴿ أفلا تُبصِرُون ﴾، أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العَظَمة والمُلك، يعني: وموسى وأتباعه

(١) أخرجه الطبري ٢٥/٧٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/٨٠.

فُقَراءُ ضُعَفاءُ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشر فَنَادى * فقال أنا ربّكم الأعلى * فأخذَه الله نكال الآخرةِ والأُولىٰ﴾.

وقولُهُ: ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين ﴾، قال السُدِّيُّ: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مَهين. وهكذا قال بعض نُحاة البصرة: إن «أم» هنا بمعنى «بل». ويُؤيد هذا ما حكاه الفَرّاءُ[١] عن بعض القُرّاء أنه قرأها: ﴿ أَمَا أنا خير من هذا الذي هو مَهينٌ ﴾، قال ابن جَرير: ولو صَحَّت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضِحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرأوا: ﴿ أم أنَا خيرٌ من هذا الذي هو مَهين ﴾، على الاستفهام[٢].

قلتُ: وعلى كلِّ تقدير فإنما يعني فِرعون ـ عليه اللعنةُ ـ أنه خير من موسى ـ عليه السلام ـ وقد كَذَب في قوله هذا كَذِباً بَيِّناً واضِحاً، فعليه لعائن الله المتتابعةُ إلى يوم القيامةِ.

ويعني بقوله ﴿ مَهين ﴾ كما قال سفيان: حَقير. وقال قتادةُ، والسُدِّيُّ: يعني ضعيف. وقال ابنُ جَرير: يعني لا مُلْكَ له ولا سُلطانَ ولا مَالَ. ﴿ ولا يَكادُ يُبينُ ﴾، يعني: لا يكاد يُفصِحُ عن كلامِهِ، فهو عَيِيٌّ حَصِرٌ.

قال السُدِّيُّ: ﴿ ولا يَكادُ يُبينُ ﴾، أي: لا يَكادُ يُفهِمُ. وقال قتادةُ: والسُدِّيُّ، وابنُ جَرير: يعني عَيِيَّ اللسانِ. وقال سفيان: يعني في لسانه شيءٌ من الجَمْرَةِ حين وَضَعها في فِيه وهو صَغيرٌ.

وهذا الذي قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كَذِبٌ واختلاقٌ، وإنما حَمَله على هذا الكفرُ والعنادُ، وهو ينظرُ إلى مُوسى ـ عليه السلام ـ بعينِ كافرةٍ شَقيَّةٍ، وقد كان موسى ـ عليه السلام ـ من الجَلالة والعَظَمة والبَهاء في صورة يبهَر أبصارَ ذَوي الألباب. وقولُهُ: ﴿مَهينٌ﴾ كذبٌ، بل هو المهينُ الحَقير خِلْقَةً وخُلُقاً ودِيناً. ومُوسَى هو الشريفُ الرئيسُ الصادقُ البارُّ الراشدُ. وقولُهُ: ﴿ ولا يَكادُ يُبينُ ﴾ افتراءٌ أيضاً، فإنه وإن كان قد أَصَاب لسانَه في حال صِغَره شيءٌ من جهة تلك الجَمْرَةِ، فقد سأل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن يَحُلَّ عقدةً من لسانه لِيفقَهُوا قولَه، وقد استجاب الله له في قوله: ﴿ قد أُوتيتَ سُؤلَكَ يا مُوسَى ﴾، وبتقدير أن يكون قد بقي شيءٌ لم يسأل إزالَته، كما قاله الحسنُ البصريُّ، وإنما سَأل زوالَ ما يحصل معه الإبلاغُ والإفهامُ، فالأشياءُ الخِلْقية التي ليست من فعل العبد لا يُعابُ بها ولا يُذَمُّ عليها، وفِرْعَونُ وإن كان يفهَمُ وله عقلٌ فهو يَدري هذا، وإنما أراد الترويجَ على رَعيَّته، فإنهم كانوا جَهَلَةً أغبياءَ، وهكذا قوله: ﴿ فلولا أُلقيَ عليه أَساوِرةٌ[٣] من ذَهَب ﴾، أي: وهي ما يُجعَل في الأيدي من الحُليِّ، قاله ابنُ عباس وقتادةُ وغيرُ واحدٍ، ﴿ أو جاء معه الملائكة مُقتَرِنينَ ﴾، أي: يكتنِفُونه خَدَمةً له ويشهَدُون بتَصْديقه، نظرَ إلى الشَكلِ الظاهر، ولم يفهم السرَّ المعنويَّ الذي هو أظهرُ مما نظر إليه، لو كان يعلَمُ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاستخفَّ قومَه فأطاعُوه ﴾، أي: استخفَّ عقولَهم، فدعاهُم إلى الضلالة، فاستجابُوا له، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ آسفونا ﴾: أَسخَطُونا[٤]. وقال الضحَّاك، عنه: أغضَبُونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب القُرَظي، وقتادة، والسُدِّيُّ، وغيرهم من المفسرين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابنُ أخي ابن وَهْب، حدثنا عمِّي، حدثنا ابنُ لَهِيعَة، عن عقبة بن مسلم التُّجيبي، عن عقبة بن عامر، أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا رأيتَ اللَّهَ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يعطي العبدَ ما شاءَ وهو مُقيمٌ على

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/٣٥.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/٨٢.
(٣) قرأ حفص ﴿ أَسْوِرة ﴾. جمع سوار. وقرأ باقي السبعة ﴿ أساورة ﴾ جمع الجمع. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦١.
(٤) تفسير الطبري ٢٥/٨٤.

معاصيه، فإنما ذلك استدراجٌ منه له». ثم تلا: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾(١).

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدثنا قيسُ بن الربيع، عن قيسِ بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنتُ عند عبد الله فذُكِر عنده موتُ الفَجْأة، فقال: تخفيفٌ على المؤمن، وحَسْرَة على الكافِر. ثم قرأ: ﴿فلما آسفُونا انتقمنا منهم﴾.

وقال عُمَر بنُ عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: وجدت النقمةَ مع الغفلَةِ. يعني قوله: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهُم فأغرقناهُم أجمعين﴾.

وقولُهُ: ﴿فجعلناهم سلفاً ومَثلاً للآخرين﴾، قال أبو مِجْلَز: ﴿سَلَفاً﴾ لمثل مَن عَمِل بعملهم. وقال هو، ومجاهدٌ: ﴿ومثلاً﴾، أي: عبرةً لمن بعدَهم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن تعنُّتِ قريشٍ في كُفرهم وتعمُّدِهم العنادَ والجَدلَ: ﴿ولما ضُرب ابنُ مريَمَ مثلاً إذا قومُك منه يَصِدُّون﴾، قال غير واحد، عن ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحَّاكُ، والسُّديُّ: يَضحكُون، أي: أعجبُوا بذلك. وقال قتادة: يجزَعُون ويضحكونَ. وقال إبراهيم النخعي: يُعرضُون.

وكان السبب في ذلك ما ذكره محمَّد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجَلَس رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيما بَلَغني ـ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجدِ، فجاء النضرُ بن الحارث حتى جَلَس معهم، وفي المجلسِ غيرُ واحد من رجال قريش، فتكلم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فعَرض له النضرُ بن الحارث، فكلَّمه رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إنكم وما تعبُدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها وَارِدُون﴾ . . . الآياتِ. ثم قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأقبلَ عبدُ الله بن الزِّبَعْرَى التميميُّ، حَتى جَلَس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضْر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قَعَد، وقد زَعَم محمدٌ أنَّا وما نعبدُ من آلهتنا هذه حَصَبُ جهنَّم، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى: أما والله لو وَجدتُه لخَصَمْتُه، فَسَلُوا محمَّداً: أكلُّ ما يُعبَدُ من دُونِ الله في جهنَّم مع مَن عَبَده، فنحن نعبدُ الملائكةَ، واليهودُ تعبد عُزيراً، والنصارى تعبد المسيحَ ابن مريم؟ فَعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبَعْرَى، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصَم، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «كلُّ من أَحَبَّ أن يُعبَدَ من دُونِ الله فهُو مع مَن عَبَده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إن الذين سَبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبعَدُون﴾، أي: عيسى وعُزيرٌ ومن

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/١٤٥. وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الأنعام. وقد أخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير ١٧/٣٣٠ ـ ٣٣١. والبيهقي في الشعب كما في الدر المنثور ٧/٣٨٤.

عُبِدُوا من الأحبار والرهبان الذين مَضَوا على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فاتخذهم مَن يَعبُدهم من أهل الضلالةِ أرباباً من دون الله. ونَزَل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بناتُ الله، ﴿ وقالوا اتخذَ الرحمن ولداً سُبحانَهُ بل عباد مُكرَمون﴾. . . الآيات، ونَزَل فيما يُذكَر من أمْرِ عيسى وأنه يُعبدَ من دون الله. وعَجِب الوليد ومن حَضَره من حُجَّته وخُصُومته: ﴿ ولما ضُرِب ابنُ مريم مثلاً إذَا قومك منه يَصِدُّون ﴾، أي: يَصِدُّون عن أمرِكَ بذلك من قَوْله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجَعَلناه مثلاً لبني إسرائيل* ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكةً في الأرض يَخلُفون* وَإِنَّه لَعِلمٌ للساعَةِ ﴾، أي: ما وضعت على يديه من الآياتِ من إحياءِ الموتى وإبراءِ الأسقامِ، فَكَفى به دليلاً على علم الساعةِ، يقول: ﴿ فلا تَمترُنَّ بها واتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مستقيمٌ ﴾[1].

وذكر ابنُ جرير من رواية العَوفيِّ، عن ابن عباس قولَه: ﴿ ولما ضُرِبَ ابنُ مريَمَ مثلاً إذا قومُكَ منه يصِدُّون ﴾، قال: يعني قُرَيشاً، لما قيل لهم: ﴿ إنكم وما تعبدُون من دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّم أنتم لها وارِدُونَ ﴾ . . . إلى آخر الآيات، فقالت له قُرَيش: فما ابنُ مريَمَ؟ قال: ذاك عبدُ الله ورسُوله. فقالوا: والله ما يُريد هذا إلا أن نَتَّخِذه ربًّا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مَرْيَمَ رباً. فقال الله تعالى: ﴿ ما ضَربوه لك إلا جَدَلاً بل هُم قومٌ خَصِمُون ﴾[2].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبانُ، عن عاصم بن أبي النُّجود، عن أبي رَزِينٍ، عن أبي يحيى مولى ابن عَقِيل الأنصاريِّ قال: قال ابنُ عباس: لقد عَلِمتُ آيةً من القرآن ما سألني عنها رجلٌ قطُّ، فما أدري أَعَلِمها الناسُ فلم يسألوا عنها، أم لم يَفطِنُوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طَفِقَ يُحدِّثنا، فلما قام تلاوَمْنا ألاَّ نكونَ سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راحَ غداً. فلما راح الغد قلتُ: يا ابنَ عباس، ذكرتَ أمس أن آيةً من القرآن لم يسألك عنها رجلٌ قطُّ، فلا تَدري أعلمها الناسُ أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لقُرَيشٍ: يا معشرَ قُرَيشٍ، إنه ليس أحدٌ يُعبَدُ من دُونِ الله فيه خيرٌ. وقد علمت قُرَيشٌ أن النصارى تَعبدُ عيسى ابنَ مريَم. وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمدُ، ألستَ تزعُم أن عيسى كان نبيًّا وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنتَ صادقاً فإنه كان آلهتُهم لكما تقولُون؟ قال: فأنزل الله: ﴿ ولما ضُرِبَ ابنُ مريَمَ مثلاً إذا قومُكَ منه يَصِدُّون ﴾. قلت: ما يَصِدُّون؟ قال: يَضحَكُون، ﴿ وإنه لَعِلمٌ للساعَةِ ﴾، قال: هو خروجُ عيسى ابنِ مَرْيَمَ قبل القيامة[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا محمد بنُ يعقوبَ الدمشقي، حدثنا آدمُ، حدثنا شَيبانُ، عن عاصِم بن أبي النُّجود، عن أبي أحمدَ مولى الأنصار، عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا معشرَ قُرَيشٍ، إنه ليسَ أحدٌ يُعبَدُ من دون الله فيه خيرٌ». فقالوا له: ألست تَزعُم أن عيسى كان نَبيًّا وعبداً من عبادِ الله صالحاً، فقد كان يُعبَدُ من دون الله؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ ولما ضُرب ابن مَرْيَمَ مثلاً إذا قومُك منه يَصِدُّون ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ ولما ضُرب ابنُ مريَمَ مثلاً إذا قومُكَ منه يَصِدُّون ﴾، قالت قُرَيشٌ: إنما يريدُ محمدٌ أن نعبدَه كما عبَدَ قومُ عيسى عيسَى. ونحوَ هذا قال قتادةُ.

وقولُهُ: ﴿ وقالوا ءَآلهتُنا خيرٌ أم هُو ﴾، قال قتادةُ: يقولون: آلهتنا خيرٌ منه. وقال قتادةُ: قرأ ابنُ مسعودٍ[4]: ﴿ وقالوا ءَآلهتنا خيرٌ أم هذا ﴾، يعنونَ محمداً ﷺ[4].

(١) تقدّم هذا الأثر عند تفسير الآية ٩٨ من سورة الأنبياء، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ٢٥/٨٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٣١٨.

(٤) الذي في تفسير الطبري ٢٥/٨٨ ان قتادة يرويها عن أبي بن كعب.

وقولُهُ: ﴿ ما ضَرَبوه لك إلا جَدَلاً ﴾، يعني: مِرَاءً، وهم يعلَمُون أنه ليس بواردٍ على الآية، لأنها لما لا يعقِلُ، وهي قولُهُ: ﴿ إنكم وما تعبُدون من دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّم ﴾، ثم هي خطابٌ لِقُرَيش، وهم إنما كانوا يَعبُدون الأصنامَ والأندادَ، ولم يكونوا يَعبُدون المسيحَ حتى يُورِدُوه، فتعين أن مقالَتَهم إنما كانت جَدَلاً، مِنهُم لَيسُوا يَعتقِدُون صِحَّتَها.

وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا ابنُ نُمير، حدثنا حَجَّاجُ بن دينارٍ، عن أبي غالبٍ، عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما ضَلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلا أُورِثُوا الجَدَلَ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ ما ضَرَبُوه لك إلا جَدَلاً بل هم قوم خَصِمُون ﴾[1].

وقد رَوَاه الترمذيُّ، وابنُ ماجه، وابنُ جرير، من حديث حَجَّاج بن دينار، به. ثم قال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ لا نَعرِفُه إلا من حَدِيثه»[1]. كذا قال، وقد رُوِي من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادةٍ، فقال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا حُمَيد بن عَيَّاش الرملي، حدثنا مؤَمَّل، حدثنا حمَّاد، أخبرنا ابنُ مَخْزُوم، عن القاسِم أبي عبد الرحمن الشَّامي، عن أبي أُمامَةَ قال حَمَّاد: لا أدري رَفَعه أم لا؟ قال: ما ضَلَّت أُمَّةٌ بعد نَبِيِّها إلا كان أولُ ضلالها التكذيبَ بالقَدَرِ، وما ضَلَّت أمة بعد نَبِيِّها إلا أُعطُوا الجَدَل، ثم قرأ: ﴿ ما ضَرَبُوه لك إلا جَدَلاً بل هم قوم خَصِمُون ﴾.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أحمدُ بن عبد الرحمن، عن عَبَّاد بن عباد، عن جعفر[2]، عن القاسم، عن أبي أمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرَج على الناسِ وهم يتنازَعُون في القُرآن، فَغَضِب غضباً شَدِيداً حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخَلُّ، ثم قال: «لا تَضرِبُوا كتابَ الله بعضَه ببعضٍ، فإنه ما ضَلَّ قومٌ قطُّ إلا أُوتوا الجَدَل»، ثم تلا: ﴿ ما ضَرَبُوه لك إلا جَدَلاً بل هُم قوم خَصِمُون ﴾[3].

وقولُهُ: ﴿ إن هُو إلا عبدٌ أنعمْنا عَلَيه ﴾، يعني عيسى ـ عليه السلام ـ ما هو إلا عبد من عباد الله، أنعم الله عليه بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ، ﴿ وجعلناهُ مثلاً لبني إسرائيل ﴾، أي: دلالةً وحجةً وبرهاناً على قُدرتنا على ما نشاء.

وقولُهُ: ﴿ ولو نَشاء لَجَعلنا منكُم ﴾، أي: بَدَلكُم ﴿ ملائكةً في الأرض يخلُفون ﴾ ـ قال السُّدِّيُّ: يَخلُفونكُم فيها. وقال ابن عباس، وقتادةُ: يخلُف بعضُهم بعضاً، كما يخلُف بعضُكم بعضاً. وهذا القولُ يستلزِمُ الأول. وقال مجاهد: يَعمُرون الأرضَ بَدَلكُم.

وقولُهُ: ﴿ وَإنَّه لعلمٌ للساعةِ ﴾، تقدَّم تفسيرُ ابنِ إسحاقَ أنَّ المرادَ من ذلك ما بُعِثَ به عيسى ـ عليه السلامُ ـ من إحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ، وغَيرِ ذلك من الأسقامِ. وفي هذا نَظَرٌ. وأبعدُ منه ما حكاه قتادةُ، عن الحسنِ البصريِّ وسعيد بن جُبَير: أنَّ الضمير في ﴿ وإنَّه ﴾، عائدٌ على القرآن، بل الصحيحُ أنه عائدٌ على عيسى، فإنَّ السياقَ في ذِكْرِه، ثم المرادُ بذلك نُزولُه قبل يوم القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿ وإن من أهلِ الكتابِ إلا ليؤمِنَنَّ به قبل مَوتِهِ ﴾، أي: قبلَ مَوْتِ عيسى ثُمَّ ﴿ يوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾، ويُؤيِّد هذا المعنى القراءةُ الأخرى: ﴿ وإنه لَعَلَمٌ للسَّاعةِ ﴾[4]، أي: أمارةٌ ودليلٌ على وقوعِ الساعةِ، قال مجاهدٌ:

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الزخرف ١٢/١٣٢ ـ ١٣٤، وابن ماجه، المقدمة ١/١٩، وتفسير الطبري ٢٥/٨٨.

(٢) في إحدى النسخ وتفسير الطبري: «جعفر بن القاسم». وهو تحريف. وجعفر هو ابن الزُّبير الحنفي يروي عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي. انظر تهذيب الكمال ٥/٣٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/٨٨ ـ ٨٩.

(٤) قرأ بها ابن عباس وغير واحد، انظر روح المعاني للألوسي ٢٥/٩٥.

﴿ وإنه لعِلمٌ للساعةِ ﴾، أي: آيةٌ للساعة خروجُ عيسى ابن مَرْيَم قبل يوم القيامة. وهكذا رُوِي عن أبي هُرَيرة، وابنِ عبَّاس، وأبي العالية، وأبي مالكٍ، وعكرمةَ، والحسنِ، وقتادةَ، والضحَّاكِ، وغيرِهم.

وقد تواترتِ الأحاديثُ عن رسولِ الله - ﷺ - أنه أخبر بنُزول عيسى - عليه السلام - قبل يومِ القيامةِ إماماً عادلاً، وحَكماً مُقسِطاً.

وقولُهُ: ﴿ فلا تمترنَّ بها ﴾، أي: لا تَشُكُّوا فيها أنَّها واقعةٌ وكائنةٌ لا محالةَ، ﴿ واتبعونِ ﴾، أي: فيما أخبركم به ﴿هذا صراطٌ مستقيم * ولا يَصُدَّنكم الشيطان﴾، أي: عن اتباع الحق، ﴿إنه لكم عَدوٌّ مُبِينٌ * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتُكم بالحِكْمَةِ ﴾، أي: بالنُبُوَّة، ﴿ ولأبيِّنَ لكُم بعضَ الذي تَختلِفُون فيه ﴾، قال ابنُ جرير: يعني من الأمورِ الدينية لا الدنيوية[1]. وهذا الذي قاله حَسَنٌ جيِّد، ثم رَدَّ قولَ من زَعَم أن ﴿ بعض ﴾ هاهنا بمعنى «كُلّ»، واستشهد بقول لَبيد الشاعر[1]:

تَـرَّاكُ أَمْكِنَـةٍ إِذَا لَـمْ أَرْضَهـا أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُها

وأولوه على أنه أراد جميعَ النفوسِ. قال ابنُ جَرير: وإنما أراد نفسَه فقط، وعَبَّر بالبعضِ عَنها[2]. وهذا الذي قاله مُحتَمِلٌ.

وقولُهُ: ﴿ فاتقوا الله ﴾، أي: فيما أَمَرْكُم به، ﴿ وأطيعونِ ﴾، فيما جئتُكم به، ﴿ إن الله هو رَبِّي وربُّكم فاعبدُوه هذا صراطٌ مُستقِيمٌ ﴾، أي: أنا وأنتم عبيدٌ له، فُقَراء إليه، مُشتركُون في عبادَتِه وحدَه لا شَرِيكَ له، ﴿ هذا صراطٌ مستقيم ﴾، أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراطُ المستقيمُ، وهو عبادةُ الربِّ - عزَّ وجلَّ - وَحْدَه.

وقولُهُ: ﴿ فاختلفَ الأحزابُ مِن بَينِهم ﴾، أي: اختلفتِ الفِرَقُ وصاروا شِيَعاً فيه، منهم من يُقِرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه - وهو الحقُّ - ومنهم مَن يَدَّعي أنه وَلَدُ الله، ومنهم مَن يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم عُلُوًّا كبيراً - ولهذا قال: ﴿ فويلٌ للذين ظَلَمُوا مِن عذابِ يومٍ أليمٍ ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى: هل ينتظرُ هؤلاء المشركون المكذِّبون للرسُلِ ﴿ إلَّا الساعةَ أن تأتيَهم بغتةً وهُم لا يَشعُرون ﴾، أي: فإنها كائنةٌ لا محالةَ وواقعةٌ، وهؤلاءِ غافلون عنها غيرُ مُستعِدِّين. فإذا جاءت إنما تَجيء وهُم لا يَشعُرون بها، فحينئذٍ يَندَمُون كلَّ النَدمِ، حيثُ لا ينفعُهم ولا يدفعُ عنهم.

وقولُهُ: ﴿ الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ إلا المتَّقِين ﴾، أي: كلُّ صَداقةٍ وصَحابةٍ لغير الله فإنها تنقلبُ يومَ القيامة عداوةً إلا ما كان لله - عزَّ وجلَّ - فإنه دائمٌ بدَوامِهِ. وهذا كما قال إبراهيمُ - عليه السلامُ -

(١) تفسير الطبري ٢٥/٩٢-٩٣.

لِقومِه: ﴿ إنما اتخذتُم من دون الله أوثاناً مودَّة بينكم في الحياة الدنيا ثُمَّ يومَ القيامة يكفُر بعضُكم ببعضٍ ويلعَنُ بعضُكم بعضاً ومأواكُم النارُ وما لكم مِن ناصِرين ﴾.

وقال عبدُ الرزَّاق: أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارثِ، عن عليٍّ: ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ إلا المتَّقين ﴾، قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فَتُوفِّي أحدُ المؤمنَيْن وبُشِّر بالجنة فذَكر خليله، فقال: اللهمَّ، إنَّ فلاناً خليلي كان يأمُرني بطاعَتِك وطاعة رسولِك، ويأمُرني بالخير وينهاني عن الشرِّ، ويُنبئني أنّي مُلاقيك، اللهُمَّ فلا تُضِلَّه بعدي حتى تُريَه مثل ما أريتَني، وترضى عنه كما رَضِيت عنّي. فيُقال له: اذهَب فلو تعلَمُ ما له عندي لضَحكت كثيراً وبَكَيت قَليلاً. قال: ثم يموتُ الآخَرُ، فتجتمعُ أرواحُهما، فيُقال: لِيُثنِ أحدُكما على صاحِبه. فيقولُ كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: نعمَ الأخُ، ونعمَ الصاحبُ، ونعمَ الخليلُ. وإذا مات أحدُ الكافرَين وبُشِّر بالنار ذكَر خليله فيقول: اللهُمَّ، إن خليلي فلاناً كان يأمُرني بمعصيَتك ومَعصية رَسُولك، ويأمُرني بالشرِّ وينهاني عنِ الخير، ويُخبرني أنّي غيرُ ملاقيك، اللهُمَّ فلا تَهْدِه بعدي حتى تُريَه مثل ما أريتني، وتَسخَط عليه كما سَخِطت علي. قال: فيموت الكافرُ الآخر، فَيُجمَع بين أرواحِهما. فيقال: لِيُثْنِ كلُّ واحدٍ منكما على صاحِبه. فيقول كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: بِئْسَ الأخُ، وبِئْسَ الصاحبُ، وبِئْسَ الخليلُ. رواه ابن أبي حاتم[(١)].

وقال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ: صارت كلُّ خُلَّةٍ عداوةً يومَ القيامةِ إلَّا المتَّقين.

[وَرَوى الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة هشام بن أحمد، عن هشام بن عبد الله بن كثير: حَدَّثنا أبو جعفر محمدُ بن الخَضِر بالرَّقَّة، عن المُعافَى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو أنَّ رَجُلين تَحابًا في اللهِ، أحدُهما بالمشرِقِ والآخرُ بالمغرِب، لَجَمَع الله بينهما يوم القيامة، يقولُ: هذا الذي أحببتَه فيَّ»].

وقولُهُ: ﴿ يا عبادِ لا خوفٌ عليكُم اليومَ ولا أنتُم تحزنون ﴾، ثم بَشَّرهم فقال: ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانُوا مُسلِمينَ ﴾، أي: آمنت قلوبُهم وبواطنُهم، وانقادت لشرعِ الله جوارِحُهم وظَواهِرُهم.

قال المُعتمِر بن سُلَيمان، عن أبيه: إذا كان يومُ القيامةِ فإنَّ الناسَ حين يُبعَثُون لا يبقى أحدٌ منهم إلا فَزِع، فَيُنادِي منادٍ: ﴿ يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزَنُون ﴾ فيرجُوها الناسُ كلهم، قال: فيُتبِعُها: ﴿ الذين آمَنُوا بآياتنا وكانوا مُسلِمين ﴾، قال: فييأَسَ الناسُ منها غيرُ المؤمنين[(٢)].

﴿ ادخلُوا الجَنَّةَ ﴾، أي: يُقَال لهم: ادخلُوا الجنة، ﴿ أنتُم وأزواجكُم ﴾، أي: نُظَراؤكم ﴿ تُحبَرُون ﴾، أي تَنْعَمُون وتَسْعَدُون. وقد تقدَّم تفسيرها في سورة الروم[(٣)].

﴿ يُطافُ عليهم بِصِحافٍ من ذَهبٍ ﴾، أي: زَبَادِيّ[(٤)] آنية الطعام، ﴿ وأكوابٍ ﴾، وهي: آنيةُ الشراب، أي: من ذَهَبٍ، لا خَرَاطيمَ لها ولا عُرَى، ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفسُ ﴾ ـ وقرأ بعضُهم: ﴿ تشتهيه الأنفس ﴾[(٥)] ـ ﴿ وَتَلَذُّ الأعيُن ﴾، أي: طَيِّبُ الطعمِ والريحِ، وحَسَنُ المنظر.

---

(١) أخرجه غير واحد، انظر الدرّ المنثور ٧/٣٨٩، وتفسير الطبري ٢٥/٩٤.
(٢) أخرجه الطبري ٢٥/٩٥.
(٣) انظر تفسير الآية ١٥ من سورة الروم.
(٤) لم نجدها فيما أتيح لنا من المعاجم، ولعلها كلمة شامية.
(٥) هذه قراءة نافع وابن عامر وحفص. وقرأ باقي السبعة: ﴿ تشتهي ﴾ بهاء واحدة. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦١.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، أخبرني إسماعيلُ بن أبي سَعِيدٍ، عن عكرمةَ ـ مولى ابن عباس ـ أخبَره أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّ أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً وأسفلَهُم درجةً لَرَجُلٌ لا يدخُلُ الجنةَ بعدَه أحدٌ، يُفْسَحُ له في بَصَرِه مسيرةُ مائةِ عامٍ في قُصورٍ من ذَهَبٍ، وخيامٍ من لؤلؤ، ليس فيها موضعُ شبرٍ إلا معمورٌ يُغدَى عليه ويُراح بسبعين ألف صَحفةٍ من ذهبٍ، ليس فيها صَحْفَةٌ إلّا فيها لونٌ ليس في الأخرى مثلُه، شهوتُه في آخرها كشهوته في أوّلها، لو نزل به جميعُ أهلِ الأرضِ لَوَسَّع عليهم مما أُعطِي، لا يَنقُصَ ذلك مما أُوتيَ شيئاً»[١].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا عمرو بن سَوَادٍ السَّرْحي، حَدَّثنا عبدُالله بنُ وهبٍ، عن ابن لَهيعَة، عن عُقَيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هُرَيرةَ: أنّ أبا أُمامَةَ حَدَّثَ أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حَدَّثهم ـ وذَكَر الجنَّة ـ فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ليأخُذَنَّ أحدُكم اللُّقمَةَ فيجعلُها في فِيهِ، ثم يخطُر على بالِهِ طعامٌ آخَرُ، فيتحوَّل الطعامُ الذي في فِيهِ على الذي اشتهى» ثم قرأ: ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالدون ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسنٌ ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث[٢] الضرير، عن شهر بن حَوشَب، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أدنى أهلِ الجنة منزلةً إنَّ له لسبعَ درجاتٍ، وهو على السادسةِ وفوقه السابعةُ، وإن له لثلاثمائة خادم، ويُغدَى عليه ويُرَاح كلَّ يوم بثلاثمائة صَحْفَةٍ ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذَهَبٍ ـ في كل صَحفةٍ لونٌ ليس في الأخرى، وإنه لَيَلَذُّ أوَّله كما يَلَذُّ آخره، ومن الأشربةِ ثلاثُمائة إناءٍ، في كلِّ إناءٍ لونٌ ليس في الآخر، وإنه لَيَلَذُّ أوله كما يَلَذُّ آخِرَه وإنه ليقول: يا ربِّ، لو أذِنتَ لي لأطعمتُ أهلَ الجنةِ وسَقَيتُهم، لم ينقُص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجةً سوى أزواجِهِ من الدُنيا، وإنَّ الواحدةَ مِنهُنَّ ليأخذُ مقعدُها قدرَ ميل من الأرض»[٣].

﴿ وأنتم فيها ﴾، أي: في الجنةِ ﴿ خالدُون ﴾، أي: لا تخرُجون منها ولا تَبغُون عنها حِوَلاً. ثم قيل لهم على وجه التفضّل والامتنان: ﴿ وتلك الجنةُ التي أُورِثْتُموها بما كنتم تعملُون ﴾، أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشُمُولِ رَحمةِ الله إيّاكم، فإنه لا يُدخِلُ أحداً عملُه الجنةَ، ولكن بفضل من الله ورحمتِه. وإنما الدرجاتُ تفاوتُها بحسَبِ عملِ الصالحات.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرىء، حدثنا يوسف بن يعقوب ـ يعني الصفار ـ حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلّ أهلِ النار يَرَى مَنزلَه من الجنَّة حسرةً، فيقول: ﴿ لو أن الله هَدَاني لكنتُ من المتقين ﴾. وكلُّ أهلِ الجنَّة يَرَى مَنزلَه من النارِ فيقول: ﴿ وما كُنَّا لنهتديَ لولا أن هَدَانا الله ﴾، لِيكونَ له شُكراً». قال: وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن أحدٍ إلا وله مَنزلٌ في الجنة ومَنزلٌ في النار، فالكافر يَرِثُ المؤمنَ منزله من النار. والمؤمِنُ يَرِث الكافرَ منزله من الجنة». فذلك قولُه تعالى: ﴿ وتلك الجنةُ التي أُورِثْتُموها بما كنتم تعملون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ لكُم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ ﴾، أي: من جميع الأنواع، ﴿ مِنها تأكلُون ﴾، أي: مهما اخترتُم وأردتُم. ولما ذكر الطعامَ والشرابَ، ذكر بعده الفاكهة لِتَتِمَّ النعمةُ والغبطةُ.

(١) أخرجه عبد بن حميد، انظر الدر المنثور ٧/٣٩٠-٣٩١.
(٢) في نسخة: أبو الأشعث. وفي أخرى: عبد الأشعث. والمثبت عن المسند، وتهذيب الكمال ٣/٢٧٢، وهو: أشعث بن عبد الله بن جابر الحُدّاني.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٥٣٧.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

لما ذَكَر حال السُّعداء ثَنَّى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿ إنَّ المجرمين في عذاب جهنَّمَ خالدونَ * لا يُفَتَّرُ عنهم ﴾، أي: ساعةً واحدةً ﴿ وهم فيه مُبلِسُون ﴾، أي: آيِسُون من كلِّ خير، ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظَّالمين ﴾، أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحُجَج عليهم وإرسالِ الرُّسُل إليهم، فكَذَّبوا وعَصَوا، فجُوزُوا بذلك جزاءً وفاقاً، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ.

﴿ ونادوا يا مالكُ ﴾، وهو: خازن النار، قال البخاريُّ:

حدثنا حجَّاجُ بنُ مِنْهالٍ، حَدَّثنا سُفيان بنُ عُيينة، عن عَمْرو بن عطاء، عن صَفْوانَ بن يَعْلَى، عن أبيه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقرأ على المِنبرِ: ﴿ ونادوا يا مالكُ لِيَقضِ علينا ربُّك ﴾[1].

أي: لِيَقْبِض أرواحَنا فيُريحَنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ لا يُقضَى عليهم فيَموتُوا ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها ﴾، وقال: ﴿ ويتجنَّبُها الأشقى * الذي يصلَى النارَ الكبرى * ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا ﴾، فلما سألوا أن يموتُوا أجابهم مالك، ﴿ قال إنكم ماكِثُون ﴾، قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها ولا مَحِيدَ لكم عنها.

ثم ذَكَر سَبَبَ شِقْوَتِهم، وهو مخالفتهم للحقِّ ومعاندتُهم له فقال: ﴿ لقد جئناكم بالحقِّ ﴾، أي: بيَّنَّاه لكم ووضَّحناه وفسَّرناه، ﴿ولكن أكثركم للحقِّ كارِهُون﴾، أي: ولكن كانت سَجاياكم لا تقبلُه ولا تُقْبِلُ عليه، وإنما تنقادُ للباطلِ وتُعظِّمه، وتَصُدُّ عن الحقِّ وتأباه، وتُبغِضُ أهلَه. فعُودوا على أنفسكم بالمَلامةِ، واندَمُوا حيث لا تنفع الندامةُ.

ثم قال تعالى: ﴿ أم أبرمُوا أمْراً فإنَّا مُبرِمُونَ ﴾، قال مجاهدٌ: أرادوا كيدَ شرٍّ فكِدناهُم[2]. وهذا الذي قاله مجاهدٌ كما قال تعالى: ﴿ ومَكَرُوا مكراً ومَكَرنا مَكْراً وهم لا يَشعُرون ﴾، وذلك لأنَّ المشركين كانوا يَتحيَّلون في ردِّ الحقِّ بالباطلِ بحِيَلٍ ومَكْرٍ يَسلكُونه، فكادَهُم الله، وَرَدَّ وبالَ ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿ أم يحسَبُون أنا لا نسمَعُ سِرَّهم ونجواهم ﴾، أي: سِرَّهم وعلانيتهم، ﴿ بلى وَرُسُلنا لديهم يكتُبون ﴾، أي: نحن نعلَمُ ما هم عليه، والملائكةُ أيضاً يكتُبون أعمالهم، صَغيرَها وكَبيرَها.

﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ

(١) فتح الباري، تفسير سورة الزخرف ٨/٥٦٨.
(٢) أخرجه الطبري ٢٥/١٠٠.

﴿ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ قُل ﴾ يا محمدُ ﴿ إنْ كان للرحمنِ وَلَدٌ فأنا أولُ العابدينَ ﴾، أي: لو فُرِض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عَبِيده، مُطِيعٌ لجميع ما يأمُرني به، ليس عندي استكبارٌ ولا إباءٌ عن عبادته، فلو فُرِض كان هذا، ولكن هذا مُمتنعٌ في حَقِّه تعالى، والشرطُ لا يلزم منه الوقوع ولا الجوازُ أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ لو أراد الله أن يَتَّخِذ ولَداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سُبحانه هو الله الواحدُ القَهَّار ﴾.

قال بعضُ المفسرين في قوله: ﴿ فأنا أول العابدين ﴾، أي: الآنِفين. ومنهم سفيانُ الثَّوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال ﴿ أوَّلُ العابِدين ﴾: الجاحِدين، من عَبِدَ يَعْبَد[1].

وذكر ابنُ جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يُونُسَ بن عبدِ الأعلى، عن ابن وهبٍ: حَدَّثني ابنُ أبي ذئب، عن أبي قُسَيط، عن بَعْجَةَ بن زيدٍ الجُهَني: أن امرأةً منهم دَخَلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضاً ـ فَوَلدت له في ستة أشهُر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأمر بها أن تُرجَم، فدخل عليه عليُّ بن أبي طالب فقال: إنَّ الله يقولُ في كتابِهِ: ﴿ وَحَمْلُه وفصالُه ثلاثون شهراً ﴾، وقال: ﴿ وفِصَاله في عامين ﴾، قال: فوالله ما عَبِدَ عثمان ـ رضي الله عنه ـ أن بَعَث إليها: تردّ ـ قال: يونسُ: قال ابن وهب: عَبِدَ: استنكفَ[2].

قال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الوُدِّ يُصْرِمْ خَلِيلَهُ وَيَعْبَدْ عَلَيهِ لا مَحَالَةَ ظَالِماً

وهذا القولُ فيه نَظَرٌ، لأنه كيفَ يَلتئِمُ مع الشرطِ فيكون تقديرُه: إن كان هذا فأنا مُمتنعٌ منه؟ هذا فيه نظرٌ، فَلْيتأمل. اللهم إلا أن يقال: إنَّ «إن» ليست شرطاً، وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أولُ الشاهِدِينَ.

وقال قتادةُ: هي كَلِمةٌ من كلامِ العَرَبِ: ﴿ إن كان للرحمنِ وَلَدٌ فأنا أولُ العابِدِينَ ﴾، أي: إنَّ ذلك لم يَكُن فلا يَنبغِي.

وقال أبو صخر: ﴿ قُل إن كان للرحمن وَلَدٌ فأنا أول العابدين ﴾، أي: فأنا أوَّل من عبده بأن لا وَلَد له، وأول من وَحَّده. وكذا قال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ. وقال مجاهدٌ: ﴿ فأنا أوَّلُ العابدين ﴾، أي: أول مَن عَبَده ووحَّده وكَذَّبكُم. وقال البخاريُّ: ﴿ فأنا أوَّلُ العابدين ﴾: الآنِفين. وهما لغتان رجل عابدٌ وعَبِدٌ[1]. والأول أقربُ على أنه شرطٌ وَجَزاءٌ، ولكن هو ممتنعٌ؛ [وقال السُّديُّ: ﴿ قل إن كان للرحمنِ وَلَدٌ فأنا أوَّلُ العابدينَ ﴾، يقول: لو كان له ولدٌ كنتُ أولَ مَن عَبده، بأن له ولداً، لكن لا وَلَد له. وهو اختيار ابن جرير[3]، وَرَدَّ قولَ من زَعم أنَّ «إنْ» نافيةٌ]. ولهذا قال: ﴿ سُبحانَ ربِّ السموات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُون ﴾، أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه خالقُ الأشياءِ عن أن يكونَ له ولدٌ، فإنه فردٌ أحدٌ صَمَدٌ، لا نَظِيرَ له ولا كُفْءَ له، فلا وَلَد له.

وقولُهُ: ﴿ فَذَرهُم يَخُوضوا ﴾، أي: في جَهلِهم وضَلالهم ﴿ ويَلْعَبُوا ﴾ في دُنياهم ﴿ حتى يُلاقُوا يومَهم الذي يُوعَدُون ﴾، وهو يومُ القيامةِ، أي: فَسوفَ يعلمون كيف يكونُ مصيرُهم، ومآلُهم، وحالُهم في ذلكَ اليوم.

(١) فتح الباري، تفسير سورة الزخرف ٨/٥٦٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/١٠٢.
(٣) تفسير الطبري ٢٥/١٠٣.

وقولُهُ: ﴿ وهو الذي في السماءِ إلَه وفي الأرض إلَه ﴾، أي: هو إلَهُ مَن في السماءِ، وإلَهُ مَن في الأرضِ، يعبدُه أهلُهما، وكُلُّهم خاضِعُون له، أذِلاَّء بينَ يَدَيه، ﴿ وهو الحكيمُ العليمُ ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلَمُ سرَّكم وجهرَكم ويعلَمُ ما تكسِبُونَ ﴾، أي: هو المدعوُّ الله في السمواتِ والأرضِ.

﴿ وتباركَ الذي له مُلكُ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما ﴾، أي: هو خالِقُهما ومالِكُهما والمتصرِّف فيهما، بلا مدافعةٍ ولا ممانعةٍ، فسبحانَه وتعالَى عن الولدِ، و﴿ تبارك ﴾: أي استقرَّ له السلامةُ من العيوب والنقائص، لأنه الربُّ العَليُّ العَظِيمُ، المالك للأشياءِ، الذي بيده أزِمَّةُ الأمورِ نقضاً وإبراماً، ﴿ وعندَهُ علمُ الساعةِ ﴾، أي: لا يُجَلِّيها لوقتِها إلا هُو، ﴿ وإليه تُرجَعُون ﴾، أي: فَيُجازِي كُلًّا بعَمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ.

ثم قال تعالى: ﴿ ولا يَملِكُ الذي يدعُون من دُونِهِ ﴾، أي: من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعةَ ﴾، أي: لا يقدِرُون على الشفاعةِ لهم، ﴿ إلاَّ مَن شهد بالحقِّ وهم يعلَمُون ﴾، هذا استثناءٌ منقطعٌ، أي: لكن مَن شهد بالحق على بصيرةٍ وعلمٍ، فإنه تنفَعُ شفاعتُه عندَه بإذنه له.

ثم قال: ﴿ ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولُنَّ الله فأنى يُؤفَكُون ﴾، أي: وَلَئِن سألتَ هؤلاءِ المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خَلَقَهم ليقولُنَّ الله ﴾، أي: هم يَعترِفون أنه الخالقُ للأشياء جميعاً وحدَه لا شريك له في ذلك، ومَع هذا يعبدُون معه غيرَه ممن لا يملِكُ شيئاً ولا يقدِرُ على شَيءٍ، فَهُم في ذلك في غايةِ الجَهلِ والسفاهةِ وسخافةِ العقلِ، ولهذا قال: ﴿ فأنى يُؤفَكُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وَقِيلِه يا ربِّ إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يُؤمِنُون ﴾، أي: وقال محمد قيله، أي: شكا إلى رَبِّه شكواه من قومه الذين كَذَّبوه، فقال: يا ربِّ إن هؤلاء قومٌ لا يُؤمِنُون، كما أخبَرَ تعالى في الآية الأُخرَى: ﴿ وقال الرسولُ يا ربِّ إنَّ قَومي اتخذُوا هذا القرآنَ مَهجُوراً ﴾، وهذا الذي قُلناه هو قولُ ابنِ مسعودٍ، ومجاهِدٍ، وقتادَة، وعليه فسَّر ابنُ جَريرٍ[1].

قال البخاريُّ: وقرأ عبدُ الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ ﴿ وقال الرسولُ يا ربِّ ﴾[2]. وقال مجاهد في قوله: ﴿ وقيله يا ربِّ إنَّ هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾، قال: فأبرَّ الله قولَ محمد. وقال قتادةُ: هو قولُ نَبيِّكم ـ ﷺ ـ يشكُو قَومَه إلى رَبِّه عَـزَّ وجَـلَّ.

ثم حكى ابنُ جرير في قوله: ﴿ وقيله يا ربِّ ﴾ قراءتَين، إحداهُما النصبُ، ولها تَوجيهان: أحدُهما أنه معطوفٌ على قَولِهِ: ﴿ نَسمَعُ سرَّهُم ونَجواهُم ﴾. والثاني: أن يُقدَّر فِعلٌ، وقال قِيلَه. والثانيةُ: الخفضُ، وقِيلِه عطفاً على قوله ﴿ وعنده علمُ الساعةِ ﴾، تقديرُه: وعلمُ قيلِه[1].

وقولُهُ: ﴿ فاصفَح عنهم ﴾، أي: المشركين، ﴿ وقُل سلامٌ ﴾، أي: لا تُجاوِبهم بمثلِ ما يُخاطِبُونك به من الكَلاَمِ السيىء، ولكن تألَّفهم واصفَح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿ فسوفَ يعلَمُون ﴾، هذا تهديدٌ منه تعالى لهم، ولهذا أحلَّ بهم بأسَه الذي لا يُرَدُّ، وأعلَى دينَه وكَلِمته، وشَرَع بعد ذلك الجِهاد والجِلادَ، حتى دَخَل الناسُ في دِينِ الله أفواجاً، وانتشر الإسلامُ في المشارِقِ والمغاربِ.

آخِرُ تفسيرِ سُورَةِ الزُّخرُفِ

(١) تفسير الطبري ٢٥/١٠٦.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الزخرف ٨/٥٦٨.

تفسير

سُورَةُ الدُّخَانِ

وهي مكية

قال الترمذيُّ: حدثنا سُفيان بنُ وكيع، حدثنا زيدُ بن الحُبَاب، عن عُمَر بن أبي خَثْعَم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: مَن قرأ «حمٓ. الدُّخان» في ليلةٍ أصبحَ يَستغفِر له سبعُون ألف ملك.

ثم قال: غَريبٌ لا نَعرفه إلاَّ مِن هذا الوجهِ، وعمَر بن أبي خَثْعَمٍ يُضَعَّفُ. قال البخاري: مُنكَرُ الحَديث[1].

ثم قال: حَدَّثنا نصرُ بن عبد الرحمن الكُوفي، حدثنا زيدُ بنُ الحُبَاب، عن هِشَام أبي المِقْدامِ، عن الحسن، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من قرأ «حمٓ. الدّخانَ» في ليلة الجُمُعةِ غُفِر له.

ثم قال: غَريب لا نعرفه إلا من هذا الوجهِ، وهشامٌ أبو المقدام يُضَعَّف، والحسنُ لم يسمَع من أبي هُرَيرَة، كذا قال أيوب، ويونُس بن عُبَيد، وعليُّ بن زيد[1].

[وفي مُسنَدِ البَزَّار من رِواية أبي الطُّفَيل عامر بن واثلة، عن زيدِ بن حَارثة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لابن صَيَّاد: إني قد خَبَأت خَبْأً فما هو؟ ـ وخبأ له رسول الله ـ ﷺ ـ سورة الدخان ـ فقال: هو الدُّخّ فقال: «اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/١٨ ـ ١٩.

(٢) سقط حديث البزار من أكثر النسخ. وقد اختُلف في ابن صيَّاد كثيراً، وهو رجل من اليهود أو دَخيلٌ فيهم، واسمه صافٍ ـ فيما قيل ـ وكان عنده شيءٌ من الكهانة أو السحر، وجُملةُ أمره أنه كان فتنةً امتحن الله به عباده المؤمنين. قيل: إنه مات بالمدينة في الأكثر. وقيل: إنه فُقِد يوم الحَرَّة فلم يجدوه.

هذا والدُّخ ـ بفتح الدال وضمها ـ: الدخان.

والحديث أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، انظر فتح الباري، كتاب الجنائز ٢١٨/٣، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢٤٤/٤.

﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله في ليلة مباركةٍ، وهي ليلةُ القدرِ، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناهُ في ليلةِ القدر﴾، وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شهرُ رمضان الذي أُنزِل فيه القرآن﴾، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة»[1] بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلةُ النِّصفِ من شعبانَ، كما رُوِي عن عِكْرِمَةَ فقد أبعد النُّجعَة، فإنَّ نصَّ القرآن أنها في رمضان. والحديثُ الذي رَوَاه عبدُ الله بن صالح، عن اللَّيث، عن عُقَيلٍ، عن الزُهريِّ: أخبرني عثمان بن محمد بن المُغيرة بن الأخْنس أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «تُقطَع الآجال من شعبانَ إلى شعبانَ، حتى إنَّ الرجل لينكح ويُولَدُ له، وقد أخرج اسمه في الموتى»[2] فهو حديثٌ مرسل، ومثلُه لا تُعارَضُ به النصوصُ.

وقولُهُ: ﴿إنَّا كُنا منذِرين﴾، أي: مُعلِمين الناسَ ما ينفعُهم ويضُرُّهم شرعاً، لِتقُوم حُجّة الله على عبادِه.

وقولُهُ: ﴿فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم﴾، أي: في ليلة القدرِ يُفصَلُ من اللوح المحفُوظ إلى الكتبَةِ أمر السَّنَةِ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكونُ فيها إلى آخرها. وهكذا رُوِي عن ابن عمر،ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقولُهُ: ﴿حَكِيم﴾، أي: مُحكَم، لا يُبدَّل ولا يُغيَّر. ولهذا قال: ﴿أمراً من عندنا﴾، أي: جميع ما يكونُ ويُقدِّره الله تعالى وما يوحيه فبأمرِه وإذنِهِ وعِلْمِه، ﴿إنا كُنَّا مُرسِلين﴾، أي: إلى الناسِ رَسُولاً يتلُو عليهم آياتِ الله مُبيِّنات، فإنَّ الحاجَةَ كانت ماسَّة إليه. ولهذا قال: ﴿رحمةً من ربِّك إنه هو السميعُ العليمُ ٭ ربِّ السموات والأرض وما بينهما﴾، أي: الذي أنزل هذا القرآن [هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وخالقُهما ومالكُهما وما فيهما، ﴿إن كنتم موقنين﴾، أي: إن كنتم مُتحقِّقين].

ثم قال: ﴿لا إلَه إلا هُو يُحيي ويُميت ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين﴾، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ لا إلَه إلا هو يُحيي ويُميتُ﴾... الآية.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾

يقولُ تعالى: بل هؤلاء المشركون في شكٍّ يلعبُون، أي: قد جاءهم الحقُّ اليقينُ، وهم يشكُّون فيه ويمترُون، ولا يُصدِّقون به، ثم قال مُتوعِّداً لهم ومُتهدِّداً: ﴿فارتقب يومَ تأتي السماء بدُخانٍ مُبينٍ﴾.

قال سليمان بن مِهْرَانَ الأعمش، عن أبي الضُحى مُسلِم بن صُبيح، عن مَسرُوقٍ قال: دَخلنا المسجدَ ـ يعني مسجدَ الكوفة ـ عند أبواب كِنْدَة، فإذا رجلٌ يقصُّ على أصحابه: ﴿يوم تأتي السماء بدُخان مُبين﴾،

(١) انظر تفسير الآية ١٨٥ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الطبري ٢٥/١٠٩، والبيهقي في شعب الإيمان، انظر الدر المنثور ٧/٤٠١.

تدرُون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يومَ القيامةِ، فيأخذُ بأسماعِ المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزُكام، قال: فأتينا ابنَ مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مُضطجعاً ففزِع فقعد، وقال: إن الله - عزَّ وجلَّ - قال لنبيِّكم - ﷺ -: ﴿ قُل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المُتكلِّفين ﴾، إنَّ مِنَ العِلم أن يقولَ الرجلُ لما لا يعلَم: الله أعلم. سأحدِّثكم عن ذلك، إن قُريشاً لما أبطأَتْ عن الإسلام واستعصَتْ على رَسُولِ الله - ﷺ - دَعَا عليهم بسنين كسِني يُوسُفَ، فأصابهم من الجَهد والجُوع حتى أكلوا العظامَ والمَيتةَ، وجعلُوا يرفعُون أبصارَهُم إلى السماء فلا يَرَون إلا الدُخَان. وفي روايةٍ: فجعل الرجلُ ينظُر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئةِ الدُخَان من الجَهْدِ، قال الله تعالى: ﴿ فارتقِب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبين * يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ ﴾، فأُتِي رسولُ الله - ﷺ - فقيل: يا رسولَ الله، استسقِ الله لِمُضَرَ، فإنها قد هَلَكت. فاستسقَى لهم فَسُقوا، فأنزل الله: ﴿ إنا كاشِفُو العذابِ قليلاً إنكم عائدون ﴾. قال ابن مسعود: فيكشِفُ العذابَ عنهم يومَ القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادُوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿ يوم نبطِشُ البطشَةَ الكُبرى إنا مُنتقِمُونَ ﴾، قال: يعني يومَ بدر[1]. قال ابنُ مسعودٍ: فقد مضى خمسةٌ: الدُخان، والرومُ، والقمَرُ، والبطشة، واللِّزام. وهذا الحديث مُخرَّجٌ في الصحيحين[2].

ورواه الإمام أحمدُ في مُسنَده، وهو عند الترمذي والنسائيُّ في تفسيرهما[1]، وعند ابن جَرير وابن أبي حاتم من طرقٍ مُتعدِّدة، عن الأعمش، به. وقد وافَق ابنَ مسعود عليٍ تفسير الآية بهذا، وأنَّ الدخان مَضَى، جماعةٌ من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخَعِي، والضَّحاكِ، وعَطِيةَ العَوفيِّ، وهو اختيارُ ابنِ جرير[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حَسَّان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله: ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾، قال: كان يوم فتح مكة. وهذا القولُ غريبٌ جداً، بل مُنكَرٌ.

وقال آخرون: لم يمضِ الدُخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدَّم من حديث أبي سَرِيحة حُذَيفة بن أَسيدٍ الغِفَاري - رضي الله عنه - قال: أشرفَ علينا رسولُ الله - ﷺ - من غُرفةٍ ونحن نتذاكرُ الساعة، فقال: «لا تقومُ الساعة حتى تَرَوا عشر آياتٍ: طلوعَ الشمس من مَغربها، والدُخان، والدابة، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجَ عيسى ابن مَريَم، والدجالَ، وثلاثة خسوف، خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرجُ من قَعرِ عدن تسوقُ الناسَ - أو: تحشر الناس -: تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا». انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه[4].

وفي الصحيحَين أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال لابن صَيَّادٍ: إني خَبَأت لك خَبْئاً. قال: هو الدُخُّ. فقال له: «اخسَأْ فلن تعدُوَ قدرَكَ»، قال: وخبأ له رسولُ الله - ﷺ -: ﴿ فارتقِب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبين ﴾[5].

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابنُ صَيَّاد كاشف على طريقة الكُهَّان بلسانِ الجانِّ، وهم

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٠ - ٣٨١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الدخان ١٢/ ١٣٤ - ١٣٦، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٧/ ١٤٧.

(٢) تقدّم الحديث أول سورة الروم وخرجناه هنالك.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/ ١١٤.

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨٢ من سورة النمل، وخرجناه هنالك.

(٥) تقدم تخريجه في مقدمة تفسير هذه السورة.

يُقَرطِمُونَ(١) العبارة، ولهذا قال: «هو الدخُّ»، يعني: الدُّخَانَ. فعندها عَرَفَ رسول الله ـ ﷺ ـ مادَّته وأنها شيطانيَّةٌ، فقال له: «اخسأ فلن تعدُوَ قدرك».

وقال ابنُ جَرير: وحدَّثني عِصَامُ بنُ رَوَّاد بن الجَرَّاح، حدثنا أبي، حدثنا سُفيان بن سَعِيدٍ الثوريُّ، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِيّ بن حِرَاش قال: سَمِعتُ حُذَيفةَ بنَ اليمان يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أول الآيات الدجَّالُ، ونزولُ عيسى ابنِ مَرْيَم، ونارٌ تخرُج من قعر عَدَنِ أَبينَ، تسوقُ الناسَ إلى المحشر، تَقِيل معهم حيثُ قالوا، والدُّخَان ـ قال حُذَيفة: يا رسولَ الله، وما الدُّخانُ؟ فتَلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿ فارتَقِب يومَ تأتِي السماءُ بدُخَانٍ مُبينٍ * يغشَى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ ﴾ ـ يملأُ ما بين المشرق والمغرب، يمكثُ أربعين يوماً وليلةً، أما المؤمنُ فيصيبه منه كهيئة الزكام، وأما الكافر كمنزلة(٢) السكران، يخرج من مَنْخِرَيه وأُذنَيه ودُبُره»(٣).

قال ابنُ جرير: لو صَحَّ هذا الحديثُ لكانَ فاصِلاً، وإنما لم أشهد له بالصحَّة لأنَّ محمد بن خَلَفٍ العَسقلانِيَّ حَدَّثني أنه سأل رَوَّاداً عن هذا الحديث: هل سَمِعه من سُفيان؟ فقال له: لا. قال فقلت: أقرأتَه عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: أَقُرِىءَ عليه وأنت حاضر فأَقَرَّ به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أينَ جِئت به؟ فقال: جاءني به قومٌ فعَرضُوه عليَّ، وقالوا لي: اسمَعْهُ منا. فقَرءُوه عليَّ ثم ذَهَبُوا به، فحَدَّثُوا به عَنّي، أو كما قال(٣).

وقد أجاد ابنُ جرير في هذا الحديث هاهنا، فإنه موضوعٌ بهذا السند، وقد أكثر ابنُ جرير من سياقِه في أماكِنَ من هذا التفسير، وفيه مُنكَرات كثيرةٌ جدًّا، ولا سيما في أوَّلِ سُورَةِ «بني إسرائيل» في ذكر المسجدِ الأقصى، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليدُ، حدثنا خَلِيل، عن الحسن، عن أبي سعيد الخُدرِيِّ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يَهِيج الدُّخانُ بالناس، فأما المؤمنُ فيأخذُه كالزُّكمَةِ، وأما الكافر فينفخُه حتى يخرُج من كل مِسْمَعٍ منه».

(٤)[ورواه سَعيدُ بنُ أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، عن الحَسَنِ، عن أبي سَعيدٍ الخُدرِيِّ موقُوفاً. ورواه عَوْفٌ، عن الحسن قَوْلَه](٤).

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثني محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بنِ عَيَّاش، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ بن زُرعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيدٍ، عن أبي مالكٍ الأشعَرِيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ ربَّكم أنذَرَكُم ثلاثاً: الدُّخانُ يأخذُ المؤمنَ كالزُّكمَةِ، ويأخذ الكافرَ فينتفخُ حتى يخرجَ من كلِّ مِسْمَعٍ منه، والثانية الدابَّةُ، والثالثة الدجال»(٣).

---

(١) أي: يقطعونها.
(٢) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري: «وأما الكافر فيكون بمنزلة».
(٣) تفسير الطبري ٢٥/١١٤.
(٤ ـ ٤) عن نسخة الأزهر وحدها. فأما رواية أبي سعيد فقد أخرجها الطبري ٢٥/١١٣. وأما رواية عوف بن الحسن فأخرجها الطبري أيضاً، وعبد بن حميد. انظر الدرّ المنثور ٧/٤٠٧ ـ ٤٠٨.
وكان في مخطوطة الأزهر: «ورواه سعيد بن أبي عروبة عوف عن الحسن». ثم ضرب على «بن أبي عروبة». وصوابه ما أثبتناه.

(١[ورواه الطبراني عن هاشم بن مَرْثد. عن محمد بن إسماعيل بن عَيَّاش. به](١). وهذا إسناد جيدٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارثِ، عن عليٍّ قال: لم تَمْضِ آيةُ الدُّخانِ بعد، يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُّكام، ويَنْفُخ الكافرَ حتى ينفد(٢).

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البَيْلَماني، عن ابن عُمر قال: يخرج الدخانُ فيأخذ المؤمنَ كهيئة الزُّكمة، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحَنِيذ، أي: المَشْويّ على الرَّضْف(٣).

ثم قال ابنُ جَرير: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جُرَيج، عن عبد الله بن أبي مُلَيكَة قال: غدوتُ على ابن عباس ذاتَ يَوْم فقال: ما نِمتُ الليلةَ حتى أصبحتُ. قلت: لِمَ؟ قال: قالوا: طَلَع الكوكب ذو الذَّنَبِ، فخشيت أن يكون الدُّخان قد طَرَقَ، فما نِمْتُ حتى أصبحتُ(٣).

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَر، عن سُفيان، عن عبد الله بن أبي يَزيدَ، عن عبد الله بن أبي مُلَيكَةَ، عن ابن عَبّاسٍ فذكره. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عباس حَبْرِ الأمّةِ وتَرجُمانِ القرآنِ. وهكذا قولُ مَن وافقَه من الصَّحابة والتابعين أجمَعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصِّحاح والحِسَانِ وغيرهما، التي أوردناها مما فيه مَقْنَعٌ ودَلالةٌ ظاهرةٌ على أن الدُّخَان من الآيات المنتظَرة، مع أنه ظاهر القرآن. قال الله تعالى: ﴿ فارتقِب يومَ تأتي السماء بدُخانٍ مُبينٍ ﴾، أي: بَيِّنٍ واضحٍ يَرَاهُ كلُّ أحدٍ، وعلى ما فَسَّرَه ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ إنما هو خيالٌ رَأوه في أعيُنهم من شِدَّة الجُوع والجَهْدِ. وهكذا قولُه: ﴿ يغشى الناسَ ﴾، أي: يَتَغشَّاهم ويَعُمُّهم، ولو كان أمراً خَيَاليًّا يخصُّ أهلَ مكّة المشركينَ لما قيلَ فيه. ﴿ يَغْشَى الناسَ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ هذا عذابٌ أليمٌ ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿ يوم يُدَعُّونَ إلى نار جَهَنَّم دَعًّا* هذه النارُ التي كُنتم بها تُكَذِّبون ﴾ [أو يقولُ بعضُهم لبعضٍ ذلك].

وقولُهُ: ﴿ رَبَّنا اكشف عَنَّا العذاب إنا مُؤمِنُونَ ﴾، أي: يقولُ الكافِرُونَ إذا عايَنُوا عذابَ الله وعقابَه سَائِلينَ رفعه وكَشْفَه عنهم، كقوله: ﴿ ولو تَرى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ونَكُونَ من المؤمنين ﴾. وكذا قولُه: ﴿ وَأَنذِرِ الناسَ يومَ يأتيهم العذابُ فيقولُ الذين ظلمُوا رَبَّنا أخِّرنا إلى أجلٍ قَرِيبٍ نُجِب دعوتَكَ وَنَتَّبع الرُّسُلَ أَوَلَم تكونُوا أقسمتُم من قبلُ ما لكُم من زَوَالٍ ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ أَنَّى لهم الذكرى وقد جاءهُم رسولٌ مُبينٌ. ثم تَوَلَّوا عنه وقالوا مُعَلَّمٌ مجنونٌ ﴾. يقول: كيف لهم بالتذكُّر، وقد أرسلنا إليهم رَسُولاً بَيِّنَ الرِّسالةِ والنِّذَارةِ ومع هذا تَوَلَّوا عنه وما وافقوه بل كَذَّبوه وقالوا: مُعلَّم مجنونٌ. وهذا كقوله تعالى: ﴿ يوم يتذكَّرُ الإنسانُ وأنَّى له الذِّكرى يقولُ يا ليتني قَدَّمتُ لِحياتي ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولو تَرَى إذ فَزِعُوا فلا فوتَ وأُخِذُوا من مكانٍ قَريبٍ* وقالوا آمنَّا به وأنَّى لهم التناوشُ من مكان بعيدٍ* وقد كَفَرُوا به من قبلُ ويَقْذِفُونَ بالغيبِ من مَكانٍ بَعيدٍ. وحِيلَ بينهُم وبينَ ما يَشْتَهُون كما فُعِلَ بأشياعِهِم من قبلُ إنهم كانُوا في شكٍّ مُريبٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إنا كاشِفُوا العذاب قليلاً إنكم عائدُونَ ﴾، يَحتَمِلُ معنيين، أحدهما: أنه يقولُه تعالى: ولو

(١ ـ ١) عن نسخة الأزهر.
(٢) الدر المنثور ٧/٤٠٧.
(٣) تفسير الطبري ٢٥/١١٣. والرضفُ: الحجارة المحماة على النار.

كَشفنا عنكُم العذابَ ورَجَعناكم إلى الدار الدُنيا لَعدتُم إلى ما كُنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿ ولو رَحِمناهُم وكَشَفنا ما بِهم من ضُرٍّ لَلَجُوا في طُغيانِهِم يَعمَهُون ﴾، وكقوله: ﴿ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنَّهُم لكاذِبُون ﴾.

والثاني: أن يكون المرادُ: إنا مُؤَخِّرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد سَبَبِه ووصُوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطُغيان والضَّلالِ، ولا يلزَمُ من الكَشْفِ عنهم أن يكون باشَرهُم، كقوله تعالى: ﴿ إلاّ قومَ يونُسَ لما آمنوا كَشفنا عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا ومَتّعناهم إلى حينٍ ﴾، ولم يكن العذاب، باشَرَهُم واتَّصل بهم، بل كان قد انعقد سَبَبُه عليهم، ولا يلزمُ أيضاً أن يكونُوا قد أقلَعُوا عن كُفرهم ثم عادُوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿ لنخرجنك يا شُعَيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لَتعودُنَّ في ملتنا قال أوَلو كُنّا كارهين * قد افترينا على الله كَذِباً إن عُدنا في مِلَّتِكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾، وشعيب ـ عليه السلام ـ لم يكن قطُّ على مِلَّتهم وطَرِيقَتِهم.

وقال قتادةُ: ﴿ إنكم عائِدُونَ ﴾ إلى عذابِ الله.

وقولُهُ: ﴿ يوم نَبطِشُ البطشَةَ الكُبرى إنا مُنتَقِمُونَ ﴾، فَسَّر ذلك ابنُ مسعود بيوم بدر. وهذا قولُ جماعةٍ ممَّن وافق ابنَ مسعودٍ على تفسيره الدخان مما تقدَّم، وَرُوي أيضاً عن ابن عباسٍ من رواية العَوفيِّ، عنه. وعن أُبَيِّ بن كعبٍ وجماعة، وهو مُحتَملٌ. والظاهر أن ذلك يومُ القيامة، وإن كان يومُ بدرٍ يومَ بطشةٍ أيضاً.

قال ابنُ جرير: حَدَّثني يعقوبُ، حَدَّثنا ابنُ عُلَيَّة، حدثنا خالد الحذَّاء، عن عِكرِمة قال: قال ابنُ عباس: قال ابنُ مسعودٍ: البطشة الكبرى يومُ بدرٍ، وأنا أقول: هي يومُ القيامة[1].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ عنه، وبه يقولُ الحسنُ البَصْرِيُّ، وعِكرِمةُ في أصحِّ الروايتين عنه.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾
وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ولقد اختبرنا قَبلَ هؤلاء المشركينَ قومَ فِرْعونَ، وهم قِبطُ مِصْرَ، ﴿ وجاءهم رسولٌ كريمٌ ﴾. يعني موسى كليمَه ـ عليه السلامُ ـ: ﴿ أن أدُّوا إليَّ عبادَ الله ﴾، كقوله: ﴿ فأرسِلْ معنا بَني إسرائيل ولا تُعذِّبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهُدَى ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إني لكم رَسُولٌ أمينٌ ﴾، أي: مأمونٌ على ما أبلغكُموه.

وقولُهُ: ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾، أي: لا تَستكبرُوا عن اتِّباع آياته، والانقيادِ لحُجَجه والإيمانِ

(١) تفسير الطبري ٢٥/١١٧.

براهينه، كقوله: ﴿ إن الذين يَستكبِرُون عن عبادتي سَيدخلُون جَهَنَّم داخرين ﴾. ﴿ إني آتيكُم بِسُلطان ﴾، أي: بحجَّةٍ ظاهرةٍ واضحةٍ. وهي ما أرسلَه الله بِهِ من الآياتِ البيِّناتِ والأدلَّةِ القاطعاتِ. ﴿ وإني عُذتُ بربِّي وربِّكم أن ترجُمُونِ ﴾، قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرَّجمُ باللسانِ، وهو الشتمُ وقال قتادةُ: الرجمُ بالحجارةِ. أي: أعوذُ بالله الذي خَلقَنِي وخَلَقكُم أن تَصِلُوا إليَّ بسُوءٍ من قولٍ أو فِعلٍ. ﴿ وَإن لم تُؤمِنُوا لي فاعتزِلُونِ ﴾، أي: فلا تتعرَّضوا إليَّ وَدَعُوا الأمر بيني وبينكم مُسالمةً إلى أن يقضيَ الله بيننا. فلما طال مُقامهُ بين أظهُرِهم، وأقام حُجج الله عليهم، وكلُّ ذلك وما زادَهُم ذلِك إلاَّ كُفراً وعِناداً، دعا ربَّه عليهم دعوةً نَفَذَت فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وقال موسى ربَّنا إنك آتيتَ فِرعونَ وملأه زينةً وأموالاً في الحياةِ الدُّنيا ربَّنا لِيُضِلّوا عن سَبيلك رَبَّنا اطمِس على أموالهم واشدُد على قُلُوبهم فلا يُؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ * قال قد أُجيبَت دعوَتُكما فاستقِيما ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ فَدعا ربَّه أنَّ هؤلاءِ قومٌ مُجرِمُونَ ﴾، فعند ذلك أمَرَه الله تعالى أن يَخرُجَ ببني إسرائيل من بين أظهُرِهم من غير أمرِ فِرعَون ومُشاورته واستئذانه، ولهذا قال: ﴿ فأسْرِ بعبادِي ليلاً إنكم مُتَّبعونَ ﴾، كما قال: ﴿ ولقد أوحينا إلى مُوسَى أن أسْرِ بعبادِي فاضرب لهم طَريقاً في البحرِ يَبَساً لا تخافُ دَرَكاً ولا تَخشَى ﴾.

وقولُه هاهنا: ﴿ واترُكِ البحر رَهْواً إنهم جُندٌ مُغرَقُون ﴾، وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ لما جاوزَ هو وبنو إسرائيلَ البحرَ، أراد موسى أن يَضربه بعصاه حتى يَعُودَ كما كان، لِيَصير حائِلاً بينهم وبين فِرْعَون، فلا يَصِلَ إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، وبَشَّره بأنهم جُندٌ مُغرَقُون فيه، وأنه لا يخافُ دَرَكاً ولا يخشى.

قال ابنُ عباس: ﴿ واترُكِ البحر رَهْواً ﴾ كهيئَتِه وامضِه. وقال مجاهد: ﴿ رَهْواً ﴾ طريقاً يَبَساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجعُ، اتركه حتى يَرجِع آخرُهم. وكذا قال عِكْرِمَة. والربيعُ بن أنسٍ، والضحَّاك، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، وكعب الأحبار، وسِمَاكُ بن حَربٍ، وغير واحد.

ثم قال تعالى: ﴿ كم تَرَكُوا من جنات ﴾ ـ وهي البساتينُ ـ ﴿ وعُيُونٍ ﴾، والمراد بها الأنهارُ والآبارُ، ﴿ ومَقَام كريمٍ ﴾، وهي المساكنُ الأنيقةُ والأماكنُ الحَسَنَةُ. وقال مجاهد، وسعيد بن جُبَير: ﴿ ومقام كريم ﴾: المنابر.

وقال ابنِ لَهِيعة، عن وَهْب بن عبد الله المَعَافِري، عن عبد الله بن عَمْرٍو قال: نيلُ مصر سَيِّد الأنهارِ، سَخَّر الله له كلَّ نهر بينَ المشرقِ والمغرب، وذلَّله له. فإذا أراد الله أن يُجرِي نيلَ مصر أمَرَ كلَّ نهر أن يُمِدَّه، فأمدته الأنهارُ بمائها، وفجَّر الله له الأرضَ عُيوناً، فإذا انتهى جريُه إلى ما أراد الله أوحى الله إلى كلِّ ماءٍ أن يرجِعَ إلى عُنصُرِه.

وقال في قول الله: ﴿كم(١) تَرَكُوا من جَنَّاتٍ وعُيونٍ * وزُرُوعٍ ومَقام كَرِيم * ونَعمَةٍ كانوا فيها فاكهين﴾، قال: كانت الجنانُ بحافَّتَي هذا النيلِ من أوَّله إلى آخره في الشقَّين جميعاً، ما بين أُسوان إلى رَشِيدٍ، وكان له سَبْعُ(٢) خُلُجٍ: خليجُ الاسكندرية، وخليجُ دمياطَ، وخليج سَرْدوسَ، وخليج مَنْفٍ، وخليج الفَيُّوم، وخليج المَنْهَى، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قَدَّروا ودَبَّروا من قناطرها وجسورها وخلجها، ﴿ ونعمة

---

(١) في النسخ: ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴾. وهذه آية الشعراء ٥٧.
(٢) في النسخ: (تسع خلج). وهي في معجم البلدان (النيل) سبعة. وزاد: خليج عرشي.

كانوا فيها فاكهين﴾، أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾. وقال في موضع آخر: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعَفُون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعرِشُون﴾. وقال هاهنا: ﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾، وهم بنو إسرائيل كما تقدم.

وقولُهُ: ﴿فما بكَتَ عليهم السماءُ والأرضُ﴾، أي: لم تكن لهم أعمالٌ صالحةٌ تصعَد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا ألَّا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصري، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عُبَيدة، حدثني يزيد الرَّقاشي، حدثني أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرُج منه رزقُهُ، وباب يدخلُ منه عملهُ وكلامُه، فإذا مات فقداه وبكَيا عليه». وتلا هذه الآية: ﴿فما بكت عليهم السماءُ والأرضُ﴾، وذُكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم، فتبكي عليهم»[٣].

ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عُبَيدَةَ وهو الرَّبَذِيُّ.

وقال ابنُ جريرٍ: حدثني يحيى بن طلحةَ، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شُريحِ بن عُبَيدٍ الحضرميِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمنٌ في غربةٍ عنه فيها بواكيه إلا بَكَت عليه السماءُ والأرضُ». ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾. ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[٤].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عصام، حدثنا أبو أحمد ـ يعني الزُّبير ـ حدثنا العلاء بن صالحٍ، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجلٌ علياً ـ رضيَ الله عنه ـ: هل تبكي السماءُ والأرضُ على أحدٍ؟ فقال له: لقد سألتني عن شيءٍ ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس عبدٌ إلا له مُصَلًّى في الأرض، ومصعَدُ عَمَلِه من السماء. وإن آل فِرْعَونَ لم يكن لهم عمل صالحٌ في الأرض، ولا عَمَلٌ يصعَدُ في السماءِ، ثم قرأ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: ﴿فما بَكَت عليهم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرين﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا طَلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن مِنهالٍ، عن سعيد بن جُبير قال: أتى ابن عباس رجل فقال: يا أبا عباسٍ، أرأيتَ قولَ الله: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظَرين﴾، فهل تبكي السماءُ والأرضُ على أحدٍ؟ قال: نعم، إنه ليس أحدٌ من الخلائق إلا وله بابٌ في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يَصعَد عملُه، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعَدُ فيه عملُه وينزِلُ منه رزقه فَفَقده بكى عليه، وإذا فَقَده مُصَلاه من الأرض التي كان يُصَلِّي فيها ويذكُر الله فيها

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي ٤/١٥٧ ـ ١٥٨.
(٤) تفسير الطبري ٢٥/١٢٥.

بَكَت عليه، وإنَّ قومَ فرعون لم تكن لهم في الأرض آثارٌ صالحة، ولم يكن يصعَدُ إلى الله منهم خيرٌ، فلم تبك عليهم السماء والأرض(١).

وروى العَوفي، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثوري، عن أبي يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان يُقال: تبكي الأرضُ على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وغيرُ واحد.

وقال مجاهدٌ أيضاً: ما مات مؤمنٌ إلا بَكَت عليه السماءُ والأرضُ أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرضُ؟ فقال: أتعجَبُ؟ وما لِلأرضِ لا تبكي على عبدٍ كان يَعمُرها بالركوع والسجود؟. وما لِلسماءِ لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل(٢)؟!

وقال قتادةُ: كانوا أهونَ على الله من أن تبكِيَ عليهم السماء والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستوردُ بن سابق، عن عُبَيدٍ المُكتِب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماءُ منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لِعُبَيدٍ: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامُه حيث يصعَد عملُه. قال: وتَدري ما بكاء السماء؟ قلت: لا. قال: تحمرُّ وتصير وردةً كالدِّهان، إن يحيى بن زكريا لما قُتِل احمرَّت السماء وقَطَرت دَماً. وإنَّ حُسَين بن علي لما قتل احمرَّت السماء.

وحدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو، ـ زُنَيج ـ حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل حُسَين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ احمرَّت آفاقُ السماءِ أربعةَ أشهرٍ ـ قال يزيد: واحمرارُها بكاؤُها. وهكذا قال السُّدِّيُّ الكبيرُ.

وقال عطاءٌ الخُراساني: بكاؤُها أن تحمَرَّ أطرافُها.

وَذَكَروا أيضاً في مقتلِ الحُسَين أنه ما قُلِب حجر يومئذٍ إلا وُجِد تحته دَمٌ عَبيط(٣). وأنه كُسِفت الشمسُ واحمرَّ الأفقُ وسقطت حجارةٌ. وفي كل ذلك نَظَرٌ، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكَذِبهم، ليعظِّموا الأمرَ ـ ولا شكَّ أنه عظيمٌ ـ ولكن لم يقَع هذا الذي اختلقوه وكَذَبُوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحُسَين ـ رضي الله عنه ـ ولم يَقَع شيءٌ مما ذكروه، فإنه قد قُتِل أبوه عليُّ بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يكن شيءٌ من ذلك، وعثمانُ بن عفان قُتِل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك. وعُمَر بن الخطاب قُتِل في المحراب في صلاة الصبح، وكأنَّ المسلمين لم تطرُقهم مُصيبةٌ قبل ذلك، ولم يكن شيءٌ من ذلك. وهذا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو سَيد البشر في الدنيا والآخرة يومَ مات لم يكن شيءٌ مما ذَكَرُوه. ويوم مات إبراهيم ابنُ النبي ـ ﷺ ـ خُسِفت الشمس فقال الناس: خُسِفت لموت إبراهيم، فَصلَّى بهم رسول الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الكُسُوف، وخَطَبَهم وبيَّنَ لهم أنَّ الشمس والقمر لا يَنْخَسِفان لموت أحد ولا لحياته(٤).

وقولُهُ: ﴿ ولقد نَجَّينا بني إسرائيل من العذاب المُهين* من فِرْعونَ إنه كان عالياً من المُسرِفين ﴾: يَمْتَنُّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) أخرجه عَبْدُ بن حُمَيد، وأبو الشيخ في العظمة، الدر المنثور ٧/٤١٢.
(٣) دَمٌ عَبِيط: طَرِيٌّ.
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥٩ من سورة الإسراء، والآية ١٨ من سورة الحج، وخرجناه هنالك.

عليهم بذلك؛ حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهَانةِ فِرْعونَ وإذلالِه لهم، وتَسْخيره إيَّاهُم في الأعمال المُهِينة الشاقّة.

وقولُهُ: ﴿ من فِرْعونَ إنه كان عالياً ﴾، أي: مُستكبراً جَبَّاراً عَنِيداً ـ كقولِهِ: ﴿ إنَّ فِرْعَونَ عَلاَ في الأرض ﴾ وقولِهِ: ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ﴾ ـ مُسْرِفاً في أمره، سخيف الرأي على نفسه.

وقولُهُ: ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾، قال مجاهدٌ: ﴿ اخترناهُم على عِلْمٍ على العالَمِينَ ﴾، على مَنْ هُم بين ظَهْرَيه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله: ﴿ قال يا مُوسَى إني اصطفيتُكَ على الناس ﴾، أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿ واصطفاكِ على نساء العالمين ﴾، أي: في زمانها؛ فإنَّ خديجةَ أفضلُ منها وكذا آسيةُ بنت مُزاحم امرأةُ فِرعَونَ، أو مساوية لها في الفضل، وفضلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريد على سائر الطعام[1].

وقولُهُ: ﴿ وآتيناهم من الآياتِ ﴾ أي: الحُجَجِ والبراهينِ وخَوارِقِ العاداتِ ﴿ ما فيه بلاءٌ مُبِينٌ ﴾، أي: اختبار ظاهر جَلِيٌّ لمن اهتدَى به.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على المشركين في إنكارِهم البعثَ والمعادَ، وأنَّه ماثَمَّ إلا هذه الحياةُ الدنيا، ولا حياةَ بعد الممات، ولا بعث ولا نُشُورَ؛ ويحتجُون بآبائهم الماضين الذين ذَهَبُوا فلم يَرجِعُوا، فإن كان البعثُ حَقّاً ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتُم صادقين ﴾. وهذه حُجَّةٌ باطلة وشُبهةٌ فاسدةٌ، فإنَّ المعاد إنما هو يومَ القيامة لا في هذه الدار، بعد انقضائها وذَهابها وفَراغها يُعيدُ الله العالمين خَلقاً جَدِيداً، ويجعَلُ الظالمين لنار جَهَنَّم وقوداً، يوم تكونون شُهداء على الناسِ ويكونُ الرسولُ عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى مُتَهدِّداً لهم، ومتوعِّداً ومُنذراً لهم بأسه الذي لا يُرَدّ، كما حَلَّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تُبَّعٍ ـ وهم سَبأ ـ حيث أهلكم الله وخَرَّب بلادهم، وشرّدهم في البلاد، وفرقهم شَذَر مَذَر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شَبَّهَهم بأولئك، وقد كانوا عَرباً من قحطانَ كما أن هؤلاء عَرَبٌ من عَدنانَ، وقد كانت حِميرُ ـ وهم سَبأ ـ كلما مَلَك فيهم رَجُلٌ سَمَّوه تُبَّعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصرُ لمن ملك الروم، وفرعونُ لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تَبَابعتهم خَرَج من اليمن وسار في البلاد حتى وَصَل إلى سَمَرْقَندَ، واشتدَّ ملكه وعَظُم سلطانُه وجيشُه، واتسعت مملكتُه وبلادُه، وكَثُرت رعاياه وهو الذي مَصَّر الحيرة، فاتّفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتَلُوه بالنهار، وجعلوا يَقْرُونه[2] بالليل، فاستحيا منهم وكَفَّ عنهم، واستصحب معه حَبْرين من أحبار يهودَ كانا قد نَصَحاه وأخبراه أنه لا سبيلَ له على هذه البلدة، فإنها مُهاجَرُ نَبِيٍّ يكون في آخر الزمان، فَرجع عنهاوأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكّةَ أراد هَدْمَ الكعبة فَنَهياه أيضاً، وأخبراه بِعَظَمة هذا البيت، وأنه من بناية

(١) أخرجه الشيخان في كتاب فضائل الصحابة، فتح الباري ١٠٦/٧، ومسلم ١٨٩٥/٤.
(٢) قَرِيَ الضيف: أضافه وأكرمه.

إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ على يَدَيْ ذلك النبيِّ المبعوث في آخر الزمان، فعَظَّمها وطاف بها، وكساها المُلاء والوصائل والحِبَرَ[(١)]. ثم كرَّ راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهوُّد معه، وكان إذ ذاك دينُ موسى ـ عليه السلام ـ فيه مَن يكون على الهداية قبل بعثة المسيح ـ عليه السلام ـ فتهوَّد معه عامَّةُ أهل اليمن. وقد ذَكَر القصةَ بِطُولها الإمامُ محمدُ بن إسحاقَ في كتابه السيرة[(٢)]. وقد ترجمه الحافظُ ابنُ عساكر في تاريخه ترجمةً حافلةً، أوردَ فيها أشياءَ كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن. ثم ساق من طريق عبد الرزّاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المَقبُري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما أدري الحدُود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تُبّع لَعيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نَبِيًّا كان أم ملكاً؟»[(٣)] وقال غيرُه: «أعُزيرٌ كان نبيًّا أم لا؟». وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حَمّاد الطِّهْراني، عن عبد الرزّاق.

قال الدارقطني: تَفرَّد به عبد الرزاق، ثم رَوَى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعاً: «عُزيرُ لا أدري أنبياً كان أم لا ؟ ولا أدري ألَعِينً تُبَّعٌ أم لا؟». ثم أورد ما جاء في النهي عن سَبِّه ولَعْنَتِهِ كما سيأتي، وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلَم، وتابع دينَ الكَلِيم على يَدَيْ مَن كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بَعثَةِ المسيح ـ عليه السلام ـ وحجَّ البيت في زمن الجُرهُميِّين، وكساه المُلاء والوصائل من الحرير والحِبَر، ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعَظَّمه وأكرَمَه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قِصَّته بطولها الحافظُ ابنُ عساكرَ من طُرُقٍ متعددة مطولة مَبسُوطة عن أُبَيِّ بن كعب، وعبد الله بن سَلاَم، وعبد الله بن عباس وكعبِ الأحبار. وإليه المرجعُ في ذلك كُلِّه، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبتُ وأكبرُ وأعلَمُ. وكذا روى قصته وهبُ بن مُنَبِّه، ومحمد بنُ إسحاقَ في السِّيرةِ كما هو مشهور فيها، وقد اختلط على الحافظِ ابن عساكرَ في بعض السياقات ترجمة تُبّع هذا بترجمةِ آخَر متأخر عنه بدهرٍ طويلٍ، فإن تُبَّعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومُه على يَدَيه، ثم لما تُوفي عادوا بعده إلى عبادةِ الأصنامِ والنيرانِ، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سُورة سَبَأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمدُ والمِنّة.

وقال سَعِيد بن جُبَير: كَسا تُبَّعٌ الكعبةَ. وكان سعيدٌ ينهى عن سَبِّهِ[(٤)].

وتُبَّع هذا هو تُبَّعُ الأوسطُ، واسمه أسعدُ أبو كُرَيب بنِ مَلْكيكَرِب اليماني، ذَكَرُوا أنه مَلَك على قومه ثلاثمائة سنة وستًّا وعشرين سنةً، ولم يكن في حِمْيَر أطولُ مُدَّةً منه، وتُوُفِّي قبلَ مبعثِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بنحوِ من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحَبْران من يَهُودِ المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نَبِيٍّ آخَرَ في الزمان، اسمه أحمدُ قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويَرْوُونه خَلَفاً عن سَلَفٍ. وكان مِمَّن يحفَظُه أبو أيُّوب خالد بن زيد الذي نَزَل رسول الله ـ ﷺ ـ في دارِه، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدٍ أَنَّه ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ

---

(١) في نسخة: الحرير. وأخرى: الحبرة. وثالثة: والحَبير. والحِبَر ـ بكسر ففتح ـ: جمع حِبَرَة. ويقال أيضا: الحَبَرَ ـ بفتحتين ـ واحدها: حَبَرَة ـ بفتحات ـ: وهو ثوبٌ من قطن أو كتّان مُخطَّط كان يصنع باليمن. والحَبيرُ: الثوب الناعم المُوشّى. والمُلاءُ، واحدة: الملاءة، المِلْحَفة، وما يُفرشُ على السرير. والوصائل: ثياب يَمَنيَّة، يُوصَلُ بعضها ببعض.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٩ ـ ٢٨.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ٤/٢١٨، بإسناده إلى عبد الرزاق.

(٤) تفسير الطبري ٢٥/١٢٩.

فَلَو مُـدَّ عُمْري إلَى عُمْـرِه لَكُنْتُ وَزِيـراً لـه وابنَ عَـمّ
وَجَـاهَـدْتُ بـالسَّيف أعْـدَاءَهُ وَفَرّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَـمّ

وذكر ابنُ أبي الدنيا أنه حُفِر قبرٌ بصنعاء في الإسلام، فوجدُوا فيه امرأتين صَحِيحتين، وعند رُؤُوسهما لَوحٌ من فِضَّة مكتوب فيه بالذهب: (هذا قبرُ حُبَّى ولَميس) ـ ورُوِي: حُبَّى وتماضر ـ ابنتي تُبَّع، ماتتا وهما تَشهدانِ أن لا إلَه إلا الله ولا تُشرِكان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصَّالحون قبلهما. وقد ذكرنا في [سورة سبأ] شعر سبأ في ذلك أيضا[1].

قال قتادةُ: ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول في تُبَّع: نُعِتَ نَعْتَ الرجل الصالح، ذَمَّ الله تعالى قومه ولم يَذُمَّه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تَسُبُّوا تُبَّعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً[2].

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صَفوانُ، حَدَّثنا الوليد، حَدَّثنا عبد الله بن لَهيعة، عن أبي زُرْعَة ـ يعني عَمرو بن جابر الحضرمي ـ قال: سَمِعتُ سهلَ بن سعد الساعدي يقول: قال رسولَ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَسُبُّوا تُبَّعاً فإنه قد كان أسلم».

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به[3].

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأَبَّار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزّة، حدثنا مُؤَمل بن إسماعيل، حدثنا سُفيان، عن سِماك بن حَرْبٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تَسُبُّوا تُبَّعاً فإنه قد أسلم»[4].

ورواه ابن عساكر، من طريق زكريا بن يحيى البَدِّي، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ موقوفاً.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا عمران أبو الهُذَيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بنُ أبي رباح: لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن سَبِّه.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمرٌ، عن ابن أبي ذئْب، عن المقبري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما أدري تُبَّعٌ نبيًّا كان أم غير نبيٍّ؟

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر: لا أدري تُبَّعٌ كان لعيناً أم لا.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عَدْلِه وتنزيهه نَفْسَه عن اللَّعب والعَبَث والباطل، كقوله: ﴿ وما خلقنا السماء

(١) انظر هذا الشعر عند تفسير الآية ١٥ من سورة سبأ.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/١٢٨ ـ ١٢٩. وأخرج ابن أبي حاتم في المستدرك ٢/٤٥٠ بإسناده إلى عروة عن عائشة مثله، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٣٤٠.
(٤) المعجم الكبير للطبراني ١١/٢٩٦.

والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كَفَروا من النار﴾. وقال: ﴿أفحَسِبْتُم أنما خلقناكُم عبثاً وأنكُم إلينا لا تُرجَعُون* فتعالى الله الملك الحق لا إلَه إلا هو ربُّ العَرْشِ الكريم﴾.

ثم قال: ﴿إنَّ يوم الفصل﴾ وهو يومُ القيامة يَومٌ يفصِلُ الله فيه بين الخلائق، فيُعذِّبُ الكافرينَ ويُثِيبُ المؤمنين.

وقولُهُ: ﴿ميقاتهم أجمعين﴾، أي: يجمَعُهم كُلَّهم أوَّلهم وآخِرَهم، ﴿يوم لا يُغنِي مولىً عن مولىً شيئاً﴾ أي: لا ينفَعُ قَريبٌ قريباً. كقوله: ﴿فإذا نُفخ في الصور فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتساءلون﴾، وكقوله: ﴿ولا يسأل حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونهم﴾ أي: لا يَسأَلُهُ عن حاله وهو يراه عِياناً.

وقولُهُ: ﴿ولا هم يُنصَرونَ﴾، أي: لا ينصُر القريبُ قريبَه، ولا يأتيه نصرُه من خارجٍ.

ثم قال: ﴿إلاَّ مَن رَحِم الله﴾، أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمةُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لخَلْقِهِ ﴿إنه هو العزيزُ الرحيمُ﴾، أي: هو عزيزٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما يُعَذِّب به الكافرين الجاحِدِين للقائه: ﴿إنَّ شَجَرةَ الزقُّوم * طعامُ الأثيم﴾، والأثيمُ: أي في قوله وفعله، وهو الكافرُ. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شكَّ في دُخُوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصَّة به.

قال ابن جرير: حَدثنا محمدُ بن بَشَّار، حَدَّثنا عبدُ الرحمن، حَدَّثنا سفيانُ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يُقرِىء رجلاً: ﴿إنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طعام الأثيم﴾، فقال: طعامُ اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر.

أي: ليس له طعام من غيرها.

قال مجاهدٌ: ولو وقعت قَطرةٌ منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض مَعايِشهم. وقد تقدَّم نحوه مرفوعاً[1].

وقولُهُ: ﴿كالمُهلِ﴾، قالوا: كعَكَر الزيت ﴿تَغْلي[2] في البطون* كغَلْيِ الحَمِيم﴾، أي: من حَرارتها ورَدَاءتها.

وقولُهُ: ﴿خُذُوه﴾، أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوه﴾ ابتَدَره سبعُون ألفاً منهم. ﴿فاعتلوه﴾، أي: سُوقوه سَحْباً ودَفْعاً في ظَهْرِه. قال مجاهدٌ: ﴿خذوه فاعتلوه﴾، أي: خذوه فادفعوه. وقال الفرزدقُ[3]:

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦٢ من سورة الصافات، وخرجناه هنالك.
(٢) كذا في النسخ بالتاء. وقد قرأ ابن كثير وحفص بالياء، والباقون من السبعة بالتاء. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦٣.
(٣) ديوانه ٢/ ١٦٠، وتفسير الطبري ٢٥/ ١٣٣.

لَيسَ الكِرامُ بِناحِلِيكَ أَباهُمُ حَتَّى تُرَدَّ إِلَى عَطِيَّةَ تُعْتَلُ

﴿ إلى سَوَاء الجحيم ﴾، أي: وسطها، ﴿ ثم صُبُّوا فوقَ رأسه من عذابِ الحَمِيم ﴾، كقوله: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوقِ رُءوسهم الحميم * يُصهَرُ به ما في بُطُونهم والجلود ﴾. وتقدم أن المَلَكَ يَضربه بِمِقْمَعَة من حديد، تفتح دماغَه ثم يُصَبُّ الحَمِيم على رأسه فينزِل في بدنه، فيَسلِتُ ما في بطنه من أمعائه، حتى تَمرُق من كَعْبَيه. أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقولُهُ: ﴿ذُق إنَّك أنتَ العزيزُ الكريمُ﴾، أي: قولُوا له ذلك على وَجْهِ التهكم والتوبيخ. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: أي لستَ بعزيز ولا كريم.

وقد قال الأُمويُّ في مَغَازيه: حدثنا أسباطٌ، حدثنا أبو بكر الهُذَلي، عن عكرمة قال: لَقِي رسولُ الله ـ ﷺ ـ أبا جهل فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقولَ لك: ﴿ أولى لك فأولى * ثم أَولى لك فأولى ﴾» قال: فنزَع ثوبَه من يدِه وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبُك من شيء. ولقد عَلِمتَ أني أمنعُ أهل البطحاء، وأنا العزيزُ الكريمُ. قال: فقتله الله يوم بَدْرٍ وأذلَّه وعَيَّره بكَلِمته، وأنزل: ﴿ ذُق إنَّك أنت العزيز الكريم ﴾.

وقولُهُ: ﴿إن هذا ما كنتم به تَمترُون﴾، كقوله: ﴿يوم يُدَعُّون إلى نار جَهنَّم دعًّا * هذه النارُ التي كنتُم بها تُكَذِّبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿إنَّ هذا ما كنتُم به تمترون﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

لما ذَكَر تعالى حال الأشقياء عَطَف بذكر السُّعَداءِ ـ ولهذا سُمِّي القرآن مثاني ـ فقال: ﴿ إن المتَّقين ﴾، أي: لله في الدنيا ﴿ في مقامٍ أمينٍ ﴾. أي: في الآخرة وهو الجنةُ، قد أَمِنُوا فيها من الموتِ والخُرُوجِ، ومن كلِّ هَمٍّ وحَزَنٍ وجُوعٍ وتَعَبٍ ونَصَب، ومن الشيطان وكيدِه، وسائر الآفات والمصائبِ ﴿ في جَنَاتٍ وعُيُونٍ ﴾. وهذا في مقابلة ما أُولئك فيه من شَجَرِ الزَّقُّوم، وشُربِ الحَمِيم.

وقولُهُ: ﴿ يَلْبَسُون من سُنْدُسٍ ﴾، وهو: رَفِيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿ وَإِسْتَبرَقٍ ﴾، وهو: ما فيه بريقٌ ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش، ﴿ متقابلين ﴾، أي: على السُّرُرِ، لا يَجلِسُ أحدٌ منهم وظهرُه إلى غَيره.

وقولُهُ: ﴿ كذلكَ وزوَّجناهم بحُورٍ عِينٍ ﴾، أي: هذا العطاءُ مع ما قد منحناهم من الزوجات الحُورِ العِينِ الحسانِ اللاّتي ﴿لم يَطمِثهن إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ﴾، ﴿كأنهنَّ الياقوتُ والمَرجانُ﴾، ﴿هل جزاءُ الإحسان إلاَّ الإحسانُ﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا نوحُ بنُ حَبِيب، حدثنا نَصر بن مُزاحم العَطَّار، حدثنا عُمَر بن سعد، عن رجل، عن أنس ـ رفعه نوحٌ ـ قال: لو أنَّ حوراء بَزَقت في بحر لُجِّيٍّ لعَذُبَ ذلك الماءُ لعذوبة رِيقِها[١].

(١) أخرجه كذلك ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، الدرّ المنثور ٧/٤٢١.

وقولُهُ: ﴿ يَدعُون فيها بكلِّ فاكهة آمنين ﴾، أي: مهما طَلَبُوا من أنواع الثِّمار أُحضِر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضُر إليهم كُلَّما أرادُوا.

وقولُهُ: ﴿ لا يَذُوقون فيها الموتَ إلاَّ الموتةَ الأُولى ﴾، هذا الاستثناء يؤكد النفي، فإنه استثناءٌ منقطعٌ، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً. كما ثبت في الصحيحين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُؤتى بالموت في صورة كَبْشٍ أملَحَ، فَيُوقَفُ بين الجنة والنار ثم يُذبَحُ، ثم يُقالُ يا أهلَ الجنَّةِ: خلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النارِ، خلودٌ فلا مَوتَ». وقد تقدم الحديث في سورة مريم(١).

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيانُ الثوريُّ، عَن أبي إسحاقَ، عن أبي مسلم الأغرِّ، عن أبي سعيدٍ وأبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُقال لأهل الجنة، إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا، وإنَّ لكم أن تعيشُوا فلا تَموتُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعمُوا فلا تَبْأَسُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاقَ بن راهَويه وعبد بن حُمَيد، كلاهما عن عبد الرزاق، به(٢).

هكذا يقول أبو إسحاقَ وأهلُ العراق: «أبو مسلم الأغرّ»، وأهل المدينة يقولون: «أبو عبد الله الأغرّ».

وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمدُ بن حَفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن الحجّاج ـ هو ابن حَجّاج ـ عن قتادةَ، عن عُبَيد الله بن عَمْرو، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من اتقى الله دخل الجنة، يَنعَمُ فيها ولا يَيْأَسُ، ويحيا فيها فلا يموتُ، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنَى شبابُه».

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان بن عبد الله الدقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: سُئِلَ نَبيُّ الله ـ ﷺ ـ: أينام أهلُ الجنة؟ فقال: «النومُ أخو الموتِ، وأهلُ الجنةِ لا ينامون»(٣).

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره:

حدثنا أحمدُ بن القاسم بن صدقة المِصْريُّ، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون».

وقال أبو بكر البَزّار في مُسنَدِهِ: حدثنا الفضلُ بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفِرْيابيُّ، عن سفيانَ، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت».

ثم قال: «لا نعلَم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثوريُّ، ولا عن الثوريِّ، إلا الفِرْيابيُّ»(٤). هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ ووقاهُم عذابَ الجحيم ﴾، أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وَقاهـم وسَلَّمهم ونَجّاهم وزَحْزَحهم من العذاب الأليم في دَرَكات الجحيم، فحصل لهم المطلوبُ، ونَجّاهم من المرهوبِ. ولهذا قال:

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٨ من سورة هود، والآية ٣٩ من سورة مريم. وخرجناه هنالك.

(٢) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٢.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، مجمع الزوائد ١٠/٤١٥.

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/١٩٣.

﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾، أي: إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «اعملوا وسَدِّدوا وقارِبُوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخِلَه عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضل»[1].

وقولُهُ: ﴿ فإنما يَسَّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾، أي: إنما يسرنا هذا القرآن، أي: أنزلناه سهلاً واضحاً بَيِّناً جَلِيّاً بلسانك الذي هو أفصحُ اللغاتِ وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿ لَعلَّهم يَتَذكَّرون ﴾، أي: يتفهَّمون ويعلمون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس مَنْ كفَرَ وخالفَ وعانَدَ قال الله تعالى لرسوله مُسَلِّياً له وواعداً له بالنصر، ومُتَوعِّداً لمن كَذَّبه بالعطب والهلاك: ﴿ فَارتَقِبْ ﴾، أي: انتظر ﴿ إنهم مُرتَقِبُون ﴾، أي: فسيعلمون لمن يكون النصرُ والظفرُ وعُلُوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولأخوانِكَ من النبيِّين والمُرسَلِين ومَن اتَّبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورُسُلي إن الله قوي عزيز ﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفعُ الظالمين معذرتهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ ﴾.

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٥ من سورة فاطر، وخرجناه هنالك.

تفسير

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يُرشِدُ تعالى خَلْقَه إلى التفكُّر في آلائِهِ ونِعَمِهِ، وقُدرته العظيمة التي خَلَقَ بها السمواتِ والأرض، وما فيهما من المخلوقاتِ المختلفةِ الأجناسِ والأنواع، مِن الملائكةِ والجنِّ والإنس، والدوابِّ والطيورِ والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصنافِ المُتنوِّعة، واختلافِ الليل والنهار، في تعاقُبهما دائِبَيْنِ لا يَفتُران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السَّحابِ من المطرِ في وَقْت الحاجةِ إليه، وَسمَّاه رِزقاً لأنَّ به يحصلُ الرزقُ، ﴿فأحيا به الأرضَ بعد موتها﴾، أي: بعدما كانت هامدةً لا نباتَ فيها ولا شيء.

وقولهُ: ﴿ وَتصريفِ الرِّياح ﴾، أي: جَنُوباً وشآماً، ودَبُوراً وصَباً[1]، بحرية وبرية، ليلية ونهارية: ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو لِلِّقاحِ، ومنها ما هو غذاءُ الأرواح، ومنها ما هو عَقِيمٌ.

وقال أولاً: ﴿لآياتٍ للمؤمنين﴾، ثم ﴿يُوقنون﴾ ثم ﴿يَعقِلُون﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شَبيهةٌ بآية «البقرة» وهي قوله: ﴿ إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناسَ وما أنزلَ الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كلِّ دابة وتصريفِ الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾. وقد أورد ابن أبي حاتم ها هنا عن وَهبِ بن مُنبِّه أثراً طويلاً غريباً في خَلْقِ الإنسان من الأخلاطِ الأربعةِ.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) الصَّبا: ريح مَهَبُّها من مشرق الشمس، إذا استوى الليل والنهار وهي القَبُول. والدَّبُور: تَهُبُّ من المغرب، وتقابل القَبُول.

تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: هذه آياتُ الله ـ يعني القرآنَ بما فيه من الحُجج والبيِّنات ـ ﴿ نتلوها عليك بالحقِّ ﴾، أي مُتضمِّنةً الحقَّ مِن الحقِّ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادُون لها، فبأيِّ حديثٍ بعد الله وآياته يُؤمِنون؟! ثم قال: ﴿ ويلٌ لكلِّ أفاكٍ أثيمٍ ﴾، أي: أفاكٍ في قوله كذَّاب، حلاَّف مَهينٍ أثيم في فعله وَقيلِه كافر بآياتِ الله، ولهذا قال: ﴿ يسمَعُ آياتِ الله تُتلَى عليه ﴾، أي: تُقرأ عليه ﴿ ثم يُصِرُّ ﴾، أي: على كفره وجُحوده استكباراً وعِناداً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾، أي: كأنه ما سَمِعَها، ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾، أي: فأخبِرْه أنَّ له عندَ الله يومَ القيامةِ عذاباً أليماً مُوجعاً.

﴿ وإذا عَلِم من آياتنا شيئاً اتَّخذَها هُزُواً ﴾، أي: إذا حَفِظ شيئاً من القرآن كفَر به واتخذه سُخرياً وهُزُواً، ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾، أي: في مُقابلَةِ ما استهانَ بالقرآن واستهزأ به. ولهذا روى مسلم في صَحِيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُسافَرَ بالقرآن إلى أرضِ العَدُوِّ مخافة أن ينالَه العدوُّ[1].

ثم فَسَّر العذابَ الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿ من ورائهم جَهنَّم ﴾، أي: كلُّ مَن اتَّصفَ بذلك سَيَصِيرُون إلى جهنَّم يوم القيامة، ﴿ ولا يُغْنِي عنهم ما كَسَبُوا شيئاً ﴾، أي: لا تنفَعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، ﴿ ولا ما اتَّخذُوا من دُونِ الله أولياء ﴾، أي: ولا تُغنِي عنهم الآلهة التي عَبَدُوها من دُونِ الله شيئاً، ﴿ ولهم عذابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ هذا هُدًى ﴾ يعني القرآن، ﴿ والذين كَفَرُوا بآياتِ ربِّهم لهم عذابٌ من رِجْزٍ أليمٌ ﴾. وهو المؤلِمُ المُوجِعُ.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يذكرُ تعالى نِعَمه على عَبِيده فيما سَخَّر لهم من البحر ﴿لتَجريَ الفُلكُ ﴾، وهي السفنُ ﴿فيه بأمره﴾ تعالى، فإنه هو الذي أَمَرَ البحر أن يَحمِلَها ﴿ ولتبتغوا من فَضْلِهِ ﴾، أي: في المتاجرِ والمكاسِبِ، ﴿ ولَعلَّكُم تشكُرون ﴾، أي على حُصُولِ المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائيَةِ والآفاقِ القاصيةِ.

ثم قال: ﴿وسَخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾، أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفِعُون به، أي: الجميعُ من فَضْلِه وإحسانِه وامتنانِه. ولهذا قال: ﴿ جميعاً منه ﴾، أي: مِنْ عندِه وَحْدَه لا شَرِيكَ له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وما بِكُم من نِعمَةٍ فمن الله ثُمَّ إذا مَسَّكم الضرُّ فإليه تَجْأَرون ﴾.

(١) أخرجه الشيخان، مسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٩٠ ـ ١٤٩١، وفتح الباري، كتاب الجهاد ٦/١٣٣.

وَرَوى ابنُ جرير من طريق العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وسَخَّر لكم ما في السمواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه ﴾: كلُّ شيءٍ هُو من الله، وذلك الاسمُ فيه اسمٌ من أسمائه، فذلك جَميعاً منه، ولا يُنازِعُهُ فيه المنازِعُونَ، واستَيْقِن أنه كذلك[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا محمدُ بنُ خَلَفٍ العَسْقَلاني، حدثنا الفِريابي، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجلٌ عبد الله بن عَمْرو قال: مِمَّ خُلِق الخَلْقُ؟ قال: من النُور والنار، والظُلمة والثرى، قال: وائتِ ابن عباس فاسْأله. فأتاه فقال له مثلَ ذلك، فقال: ارجع إليه فَسَلْهُ: مم خُلِقَ ذلك كلُّه؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿ وسَخَّر لكم ما في السمواتِ وما في الأرضِ جَمِيعاً منه﴾. هذا أثرٌ غريبٌ، وفيه نكارةٌ.

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ قُل للذين آمنوا يَغْفِرُوا للذين لا يرجُون أيَّام الله﴾، أي: يَصفَحُوا عنهم ويَحمِلُوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداءِ الإسلام، أُمِرُوا أن يَصبِرُوا على أذَى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أَصَرُّوا على العناد شَرَع الله للمؤمنين الجِلادَ والجِهادَ. هكذا رُوِي عن ابن عباس، وقتادةَ[2].

وقال مجاهدٌ: ﴿ ولا يرجُون أيام الله ﴾: لا يَنالُون نِعَم الله.

وقولُه: ﴿ لِيجزيَ قوماً بما كانوا يكسِبُون ﴾، أي: إذا صَفَحُوا عنهم في الدنيا فإنَّ الله مجازيهم بأعمالهم السيِّئة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ مَن عَمِلَ صالحاً فلنفسه ومَن أساءَ فَعَليها ثم إلى ربِّكم تُرجَعُونَ ﴾، أي: تَعودُون إليه يومَ القيامةِ فتُعرَضُون بأعمالكم عليه، فَيَجزيكم بأعمالِكُم خيرِها وشرِّها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكرُ تعالى ما أنعَمَ به على بني إسرائيلَ من إنزالِ الكُتُب عليهم وإرسالِ الرُسُل إليهم، وجَعْلِهِ المُلْكَ فيهم. ولهذا قال: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيلَ الكتابَ والحُكم والنبوَّةَ ورَزَقناهُم من الطيِّبات ﴾، أي: من المآكِلِ والمشارِبِ، ﴿ وفَضَّلْنَاهُم على العالَمِين ﴾، أي: في زمانهم، ﴿ وآتيناهُم بَيِّناتٍ من الأمر﴾، أي: حُجَجاً وبراهين وأدلَّةً قاطعاتٍ، فقامت عليهم الحُجَجُ، ثم اختلفُوا بعد ذلك من بعدِ قيام الحُجَّة، وإنما كان ذلك بَغياً منهم على بَعضِهم بعضاً، ﴿إن ربَّك﴾ يا محمدُ ﴿يقضِي بينهم يومَ القيامة فيما كانُوا فيه يَختلِفُون﴾، أي: سَيفصِلُ بينهم بحكمه العَدْلِ. وهذا فيه تحذيرٌ لهذه الأمة أن تَسلُك مَسْلَكهم، وأن تَقصِد مَنهجَهُم. ولهذا قال: ﴿ ثم جعلناك على شَريعةٍ من الأمر فاتَّبِعها ﴾، أي: اتبع ما أُوحي إليك من ربِّك لا إلَه إلا هو، وأعرِضْ عن

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/١٤٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٥/١٤٤ ـ ١٤٥.

المشركين. وقال ها هنا: ﴿ ولا تتّبع أهواءَ الذين لا يعلَمُون*إنهم لن يُغنُوا عنكَ من الله شيئاً وإنَّ الظالمين بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾، أي: وماذا تُغني عنهم وَلَايَتُهم لبعضِهم بعضاً، فإنهم لا يَزيدُونهم إلا خَساراً ودَماراً وهَلاكاً، ﴿ والله وليّ المتقين ﴾. وهو تعالى يُخرجُهم من الظلماتِ إلى النُّورِ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يُخرجُونهم من النور إلى الظلمات.

ثم قال: ﴿ هذا بصائرُ للناس ﴾، يعني القرآن، ﴿ وهدًى ورحمةٌ لقوم يُوقنُونَ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿ لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنَّةِ أصحابُ الجنَّةِ هم الفائزون ﴾، وقال ها هنا: ﴿ أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾، أي: عَمِلوها وكَسَبوها ﴿ أن نجعَلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتُهم ﴾، أي: نُساويهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿ ساءَ ما يحكمون ﴾، أي: ساء ما ظَنُّوا بنا وبِعَدْلِنا أن نُساوِيَ بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار!

قال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا مُؤمَّل بنُ إهاب، حدثنا مُكَيَّر بن عثمان التَّنُوخيُّ، حدثنا الوَضِينُ بن عطاء، عن يزيدَ بن مَرْثَدٍ الباجي، عن أبي ذَرٍ رضي الله عنه قال: إن الله بَنَى دِينَهُ على أربعةِ أركانٍ، فمن [صَبر عليهنَّ و] لم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذَرٍّ؟ قال: يُسلِم حلال الله لله، وحَرام الله لله، وأمرَ الله لله، ونَهْيَ اللهِ لله، لا يُؤْتَمنُ عليهنَّ إلا الله. قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يُجتَنَى من الشوك العنب، كذلك لا ينالُ الفُجَّار منازلَ الأبرار». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجراً بمكة في أُسِّ الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل كما يُجتَنى من الشوكِ العِنبُ[1]!.

وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عَمرو بن مُرَّة، عن أبي الضُّحَى عن مَسْرُوق: أن تَميماً الداريَّ قام ليلة حتى أصبح يُردد هذه الآية: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿ ساء ما يحكمون ﴾، وقوله: ﴿ وخَلَق الله السموات والأرض بالحقِّ ﴾، أي: بالعدل، ﴿ وَلِتُجْزَى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾.

ثم قال: ﴿ أفرأيت مَن اتَّخذ إلَـهه هَواه ﴾، أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حَسَناً فَعَلَهُ، ومهما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يُستدَلُّ به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. وعن مالك فيما رُوي عنه من التفسير: لا يَهْوى شيئاً إلا عَبَده.

(١) تقدم الأثر عند تفسير الآية ٦٢ من سورة النحل، وخرجناه هنالك.

(٢) المعجم الكبير ٢/ ٥٠.

وقولُهُ: ﴿ وأضلَّه الله على علم ﴾، يَحْتَمِلُ قولَين، أحدها: وأضله الله لعلمه أنه يستَحِقُّ ذلك. والآخر: وأضلَّه الله بعد بُلوغِ العلم إليه، وقيام الحجَّة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿ وَختم على سَمْعِه وقَلْبه وجَعَل على بَصَره غِشاوَةً ﴾، أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يَعِي شيئاً يَهتدِي به، ولا يرى حُجَّةً يَستَضِيءُ بها. ولهذا قال: ﴿ فَمَن يَهدِيهِ مِن بعدِ الله أفلا تَذَكَّرون ﴾، كقوله: ﴿ من يُضلِل الله فلا هادِيَ له ويَذَرُهم في طغيانهم يَعْمَهُون ﴾.

﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عنِ قول الدَّهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العَربِ في إنكارِ المعادِ: ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونَحيا ﴾، أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدارُ، يموتُ قومٌ ويعيشُ آخرون، وما ثَمَّ معادٌ ولا قيامةٌ. وهذا يقوله مشركو العربِ المُنكِرون للمعادِ، ويقولُه الفلاسفةُ الإلَهيُّون منهم، وهم يُنكِرون البَدْأَةَ والرجعَةَ، ويقوله الفلاسفة الدَّهرِيَّةُ الدَّورِيَة المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنةٍ يعود كلُّ شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تَكَرَّر مراتٍ لا تتناهى، فكابروا المعقول وكَذَّبُوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿ وما يهلِكنا إلا الدهر ﴾، قال الله تعالى: ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يَظُنُّون ﴾، أي: يَتوهَّمُون ويَتخيَّلون. فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عُيَينة، عن الزُهري، عن سَعِيد بن المُسَيَّبِ، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : «يقولُ الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم؛ يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ، بِيَدِي الأمرُ، أُقلِّب ليلَه ونهاره»[(١)]. وفي رواية: «لا تَسُبُّوا الدهرَ فإن الله هو الدهر»[(٢)].

وقد أورَدَه ابنُ جَرير بسياقٍ غريبٍ جدًا فقال:

حدثنا أبو كريب، حدثنا سُفيان بن عُيَيْنَة، عن الزُهريِّ، عن سَعِيد بن المُسَيَّب، عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كان أهلُ الجاهلية يقولون: إنما يُهلِكُنا الليلُ والنهارُ، وهو الذي يُهلِكنا، يُميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكنا إلا الدهرُ﴾. ويَسُبُّون الدهرَ، فقال الله عز وجل: يُؤذيني ابنُ آدم، يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ، بيدي الأمر أُقلِّب الليل والنهار»[(٣)].

وكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيح بنَ النعمان، عن ابن عُيَينة، مثله: ثم رَوى عن يونس، عن ابن وَهبٍ [عن يونس][(٤)]، عن الزُهريِّ، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرَة: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله: يَسُب ابنُ آدم الدهرَ وأنا الدهرُ، بِيَدِي الليلُ والنهارُ». وأخرجه صاحبا الصحيح والنسائي، من حديث يونس بن يزيدَ، به[(٥)].

(١) فتح الباري، تفسير سورة الجاثية ٨/٥٧٤ ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب ٤/١٧٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في الكتاب السابق، والإمام أحمد في مسنده ٥/٢٩٩، ٣١١.
(٣) تفسير الطبري ٢٥/١٥٢.
(٤) عن نسخة. ويونس هذا هو ابن يزيد الأيلي. فأما يونس الأول فهو ـ والله أعلم ـ يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفي المصري أبو موسى، يروي عنه ابن أبي حاتم، ويروي هو عن عبد الله بن وهب. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٢٤٣، ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٥) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥٦٤، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب ٤/١٧٦٢.

وقال محمدُ بن إسحاقَ، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله: استقرضتُ عبدي فلم يُعطِني، وسَبَّني عبدي، يقول: وادهراه! وأنا الدهر»[1].

قال الشافعيُّ وأبو عُبَيدٍ وغيرُهما من الأئمة في تفسير قوله ـ عليه السلام ـ: «لا تَسُبُّوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهرُ». كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شِدَّة أو بلاء أو نكبةٌ، قالوا: يا خيبةَ الدهر، فَيُسندون تلك الأفعالَ إلى الدهر ويَسُبُّونه، وإنما فاعلُها هو الله، فكأنهم إنما سَبُّوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهِي عن سَبِّ الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله هو الدهرُ الذي يعنُونه ويُسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسنُ ما قيل في تفسيره، وهو المرادُ، والله أعلم. وقد غَلِطَ ابنُ حزم ومن نَحا نحوه من الظاهريَّة في عدِّهمُ الدهرَ من الأسماء الحسنى، أخذاً من هذا الحديث!

وقولُه تعالى: ﴿ وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بينات ﴾، أي: إذا استُدِلَّ عليهم وبُيِّن لهم الحقُّ، وأن الله قادرٌ على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرُّقها، ﴿ ما كان حُجَّتَهم إلا أن قالوا ائتُوا بآبائنا إن كُنتم صادِقين﴾، أي: أحيُوهم إن كان ما تقولونه حَقًّا. قال الله تعالى: ﴿ قل الله يُحييكم ﴾، أي: كما تُشاهِدُون ذلك يُخرجُكم من العدم إلى الوجود، ﴿ كيف تكفُرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾، أي: الذي قدر على البَدْأَة على الإعادةِ بطريقِ الأَوْلَى والأحرى. و ﴿هـو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهونُ عليه ﴾، ﴿ ثم يَجْمَعُكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه ﴾، أي: إنما يجمَعكُمْ ليوم القيامة لا يُعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿ ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾، ﴿ يوم يجمَعُكم ليوم الجمع ﴾، ﴿ لأي يوم أُجِّلت * ليوم الفصل ﴾، ﴿ وما نؤخره إلا لأجلٍ مَعدُود ﴾. وقال ها هنا: ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه ﴾، أي: لا شكَّ فيه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، أي: فلهذا يُنكِرون المعادَ، ويَستبعِدُون قيامَ الأجساد. قال الله تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾، أي: يرونَ وُقوعَه بعيداً، والمؤمنون يَرَون ذلك سهلاً قَريباً.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه مَالِكُ السموات والأرض، الحاكمُ فيهما في الدنيا والآخرة. ولهذا قال: ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿ يخسَر المُبطلون ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدُون ما أنزله على رُسُله من الآياتِ البيِّنات والدلائِل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قَدِم سُفيان الثوريُّ المدينةَ، فَسَمع الغافِرِيَّ[2] يتكلم ببعض ما يَضحكُ به الناسُ، فقال له: يا شيخ، أما علمتَ أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تُعرف في الغافِرِيِّ[2] حتى لحق بالله عز وجل. ذكره ابن أبي حاتم.

ثم قال: ﴿ وَتَرَى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً ﴾، أي: على رُكَبها من الشدَّة والعَظَمة، ويقال: إن هذا إذا جِيءَ بجهنم فإنها تَزفِرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جَثا لركبتَيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقولُ: نفسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألكَ مريم التي ولدتني.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٥/١٥٢.

(٢) كذا في نسخة، وفي أخرى: العافري، بالعين المهملة، وفي ثالثة: المعافريّ.

قال مجاهدٌ، وكعبُ الأحبارِ، والحسنُ البصريُّ: ﴿ كلُّ أمةٍ جاثيةً ﴾، أي: على الرُّكَبِ. وقال عكرمة: جاثية متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والأول أولى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المُقرىء، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباهِ: أن رسولَ الله قال: «كأني أراكم بالكَوم(١) جاثين دُونَ جهنَّمَ»(٢).

وقال إسماعيل بن رافع المَدنيُّ، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث الصُّورِ: فَيَتميز الناس، وتجثو الأمم، وهي التي يقول الله: ﴿ وترَى كلَّ أمة جاثية كلُّ أمة تدعى إلى كتابها ﴾(٣).

وهذا فيه جمعٌ بين القَولَين، ولا منافاة، والله أعلم.

وقولُه: ﴿كلُّ أمةٍ تُدعَى إلى كتابها﴾ يعني كتابَ أعمالِها. كقوله: ﴿ووُضِعَ الكتاب وجِيءَ بالنَّبِيِّين والشُّهَداءِ﴾، ولهذا قال: ﴿اليوم تُجزَون ما كنتم تعمَلُون﴾، أي: تُجازَون بأعمالِكم خيرها وشرِّها، كقوله: ﴿يُنبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّمَ وأخَّرَ * بل الإنسانُ على نفسه بَصِيرةٌ * ولو ألقى مَعاذيرَه﴾. ولهذا قال: ﴿ هذا كتابُنا ينطِقُ عليكمُ بالحقِّ ﴾، أي: يستحضِرُ جميعَ أعمالِكم من غير زيادةٍ ولا نَقصٍ، كقوله: ﴿ ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مُشفقين مما فيه ويقولونَ يا ويلتنا ما لِهذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحداً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إنا كنا نَستَنسِخُ ما كُنتم تعملون ﴾، أي: إنا كنا نأمرُ الحَفَظة أن تكتُبَ أعمالَكُم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تَكتُبُ الملائكةُ أعمالَ العباد، ثم تَصعدُ بها إلى السماء، فيقابِلُون الملائكةَ الذينَ في ديوان الأعمالِ على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظِ في كلِّ قدرٍ، مما كتبه الله في القِدَمِ على العبادِ قبل أن يخلُقَهم، فلا يزيدُ حرفاً ولا ينقصُ حرفاً. ثم قرأ: ﴿ إنا كنا نَستنسِخُ ما كنتم تعمَلُون ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى عن حُكمِه في خَلْقِه يومَ القيامة، فقال: ﴿ فأما الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ ﴾، أي: آمنت قلوبُهم وعَمِلت جوارحُهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصةُ الموافقة للشرع، ﴿ فيُدخلهم ربُّهم في رحمته ﴾، وهي الجنةُ، كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة: «أنتِ رحمتي، أرحمُ بكِ مَن أشاءُ»(٤).

(١) الكَوْم: الموضع المشرف كالتلّ.

(٢) أخرجه كذلك سعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، والبيهقي في البعث. الدر المنثور ٧/٤٢٨.

(٣) انظر الحديث وسنده عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام، وأول سورة الحج.

(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة ﴿ق﴾ ٨/٥٩٥، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٦ - ٢١٨٧.

﴿ ذلك هو الفوزُ المبينُ ﴾، أي: البيِّن الواضِحُ.

ثم قال: ﴿ وأما الذين كَفَرُوا أفلم تكُن آياتي تُتلَى عليكُم فاستكبرتُم ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قُرئت عليكم آياتُ الرحمن فاستكبرتُم عن اتباعها، وأعرضتُم عند سماعها، ﴿ وكنتُم قوماً مجرمين ﴾، أيْ: في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبُكم من التكذيب؟

﴿ وإذا قِيلَ إنَّ وعدَ الله حقٌّ والساعةُ لا ريبَ فيها ﴾، أي: إذا قال لكم المؤمنُون ذلك، ﴿ قلتُم ما نَدري ما الساعةُ ﴾، أي: لا نعرفها، ﴿ إن نظنُّ إلا ظناً ﴾، أي: إن نَتوهَّم وقوعَها إلا توهُّماً، أي مَرجُوحاً. ولهذا قال: ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾، أي: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿ وبدا لهم سيئاتُ ما عَمِلوا ﴾ أي: وظهر لهم عقوبةُ أعمالِهم السيِّئةِ، ﴿ وحاقَ بهم ﴾، أي: أحاطَ بهم ﴿ ما كانوا به يَستهزِءُون ﴾، أي: من العذاب والنَّكال، ﴿ وقيلَ اليومَ ننساكُم ﴾، أي: نعامِلُكم معاملةَ الناسي لكم في نار جَهنَّم، ﴿ كما نَسِيتُم لقاءَ يومِكُم هذا ﴾، أي: فلم تعمَلُوا له لأنكم لم تُصَدِّقوا به، ﴿ ومأواكم النارُ وما لكم من ناصرين ﴾. وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العَبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسَخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبع؟ فيقول: بلى، يا رب. فيقول: أفظننتَ أنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى. فاليوم أنساك كما نسيتني»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ ذلكم بأنكُم اتخذتُم آياتِ الله هُزُواً ﴾، أي: إنما جازيناكم هذا الجزاءَ لأنكم اتخذتم حُجَجَ الله عليكم سُخرِيًّا، تَسخَرُون وتَستهزِئُون بها، ﴿ وغرَّتكم الحياةُ الدنيا ﴾، أي: خَدَعَتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتُمْ من الخاسرين. ولهذا قال: ﴿ فاليوم لا يُخرَجُون منها ﴾، أي: من النار ﴿ ولا هم يُستَعتَبُون ﴾، أي: لا يُطلَبُ منهم العُتبى، بل يُعذَّبون بغير حساب ولا عِتابٍ، كما تدخُل طائفةٌ من المؤمنين الجنةَ بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حُكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿ فلله الحمدُ ربِّ السمواتِ وربِّ الأرضِ ﴾، أي: المالكُ لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿ رَبِّ العالمين ﴾.

ثم قال: ﴿ وله الكبرياءُ في السمواتِ والأرض ﴾، قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجَّد، الذي كلُّ شيءٍ خاضعٌ لَدَيه فقيرٌ إليه. وقد وَرَد في الحديث الصَّحِيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياءُ ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكنتُه ناري»[(٢)]. رواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هُرَيرة وأبي سعيد عن رسول الله ـ ﷺ ـ بنحوه[(٣)].

وقولُهُ: ﴿ وهو العزيزُ ﴾، أي: الذي لا يُغالَبُ ولا يمانَع، ﴿ الحكيمُ ﴾ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، تعالى وتَقدَّس، لا إِلَه إلا هو.

آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الجاثيةِ ولِله الحمدُ والمِنَّةُ

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٦ من سورة البقرة، ٥١ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب البر ٨/٣٥ ـ ٣٦، وابن ماجه في الزهد ٢/١٣٩٧، والإمام أحمد في مسنده ٢/٢٤٨، ٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢، ٦/١٩.

(٣) مسلم، كتاب البر ٤/٢٠٢٣.

تفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه نَزَّل الكتاب على عبدِه ورسوله مُحمَّدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ ووصَفَ نفسه بالعزَّة التي لا تُرام، والحكمةِ في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿ ما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ ﴾، أي: لا على وجه العبثِ والباطِل، ﴿ وأجلٍ مُسمًّى ﴾، أي: وإلى مُدَّةٍ مُعيَّنة مضروبةٍ لا تَزيد ولا تَنقُص.

وقولُهُ: ﴿ والذين كَفَرُوا عما أُنذِرُوا مُعرِضُونَ ﴾، أي: لاهُونَ عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابٌ وأُرسِلَ إليهم رسولٌ، وهم مُعرِضُون عن ذلك كله، أي: وسيعلَمُون غِبَّ ذلك.

ثم قال: ﴿ قُل ﴾، أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿ أرأيتم ما تدعُون من دُونِ الله أرُوني ماذا خلَقُوا من الأرض ﴾؟ أي: أرشِدُوني إلى المكانِ الذي استقلُّوا بخلقه من الأرض، ﴿ أم لهم شِرْكٌ في السموات ﴾، أي: ولا شِرْكَ لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملِكُون من قطمير، إن المُلْكَ والتصرُّفَ كُلَّه إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فكيف تعبدُون معه غيرَه، وتُشرِكُون به؟ مَن أرشدَكُم إلى هذا؟ مَن دعاكُم إليه؟ أهُو أمرَكُم به؟ أم هو شيءٌ اقترحتُموه من عندِ أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ ائتوني بكتابٍ من قَبْلِ هذا ﴾، أي: هاتوا كتاباً من كُتُبِ الله المُنزَّلة على الأنبياء ـ عليهم الصلاةُ والسلامُ ـ يأمركم بعبادةِ هذه الأصنام، ﴿ أو أثارةٍ من

علم ﴾، أي: دليل بيِّن على هذا المسلكِ الذي سَلَكتُموه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾، أي: لا دليلَ لكم نَقليًا ولا عَقليًّا على ذلك. ولهذا قرأ آخرون: ﴿ أو أثَرَة من علم ﴾[1]، أي: أو عِلم صحيح يأثُرونه عن أحدٍ ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ أو أثارة من علم ﴾: أو أحدٍ يأثُر علماً[2]. وقال العَوفي، عن ابن عباس: أو بَيِّنةٍ منَ الأمر[2].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سُلَيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس ـ قال سفيان: لا أعلمُ إلاّ عن النبي ـ ﷺ ـ: ﴿ أو أثَرَة من علم ﴾، قال: الخطّ[3].

وقال أبو بكر بن عَيَّاش: أو بَقِيَّة من علم. وقال الحسن البصري: أو أثارة شيء يَستخرِجه فَيُثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضاً: ﴿ أو أثارة من علم ﴾، يعني: الخط. وقال قتادة: ﴿ أو أثارة من علم ﴾: خاصة من علم.

وكلُّ هذه الأقوال متقاربةٌ، وهي راجعةٌ إلى ما قلناه، وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه[4].

وقولُهُ: ﴿ ومَن أضلُّ ممن يدعُوا من دُونِ الله مَن لا يَستجيبُ له إلى يوم القيامة وهُم عن دعائهم غافلون ﴾، أي: لا أضلَّ ممن يدعُو أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقولُ، لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَبطِشُ، لأنها جمادٌ، حِجَارةٌ صُمّ.

وقولُهُ: ﴿ وإذا حُشِر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، كقوله تعالى: ﴿ واتخذُوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عِزًّا* كلا سيكفُرون بعبادتهم ويكونُون عليهم ضِدًّا ﴾، أي: سَيخُونُونَهم أحوجَ ما يكونون إليهم، وقال الخليلُ: ﴿ إنما اتخذتُم من دُونِ الله أوثاناً مَودَّة بينِكم في الحياةِ الدُّنيا ثم يومَ القيامةِ يكفُر بعضُكم ببعضٍ ويلعَنُ بعضُكم بعضاً ومأواكُم النارُ وما لكم من ناصِرينَ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين في كُفرهم وعِنادهم: أنهم إذا تُتلَى عليهم آياتُ الله بيِّنات، أي: في حال بيانها ووُضوحها وجَلائها، يقولون: ﴿ هذا سحرٌ مبينٌ ﴾، أي: سحرٌ واضحٌ. وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفَرُوا. ﴿ أم يقولون افتراه ﴾، يعنُون محمداً ـ ﷺ ـ قال الله: ﴿ قل إن افتريتُه فلا تَملِكُون لي مِنَ اللّه شيئاً ﴾، أي: لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني ـ وليس كذلك ـ لعاقبني أشدَّ العُقوبة، ولم يَقْدِرْ أحد من أهل

---

(١) قُرِىءَ: ﴿ إثارة ﴾، بكسر الهمزة، وفُسِّرت بالمناظرة، فإنها تُثير المعاني. وقرأ علي وابن عباس ـ بخلاف عنهما ـ وغير واحد ﴿ أثَرَة ﴾ بغير ألف، جمعها أُثَرٌ. وقرأ علي أيضاً والسُّلَمي وقتادة بإسكان الثاء، وهي الفَعْلَةُ الواحدة مما يُؤثَر. وعن الكسائي ضم الهمزة وإسكان الثاء، ورُوي عنه أقرا أيضاً: ﴿ إثْرَة ﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء، وهي بمعنى الأَثَرة، بفتحتين. انظر روح المعاني للألوسي ٢٦/٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٦/٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٢٢٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٦/٣.

الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يُجيرني منه، كقوله: ﴿ قُل إني لن يُجيرني من الله أحدٌ ولن أجِدَ من دونه مُلتَحَداً * إلاَّ بَلاَغاً من الله ورِسَالاته﴾. وقال تعالى: ﴿ولَو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمينِ * ثم لقطعنا منه الوَتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجِزينَ ﴾.

ولهذا قال هاهنا: ﴿ قل إن افتريتُه فلا تَملِكُون لي من الله شيئاً هو أعلَمُ بما تُفيضُون فيه كَفَى به شهيداً بَيني وبينَكُم ﴾. هذا تهديدٌ لهم، ووعيدٌ أكيدٌ، وترهيبٌ شديدٌ.

وقولُهُ: ﴿ وهو الغفورُ الرحيمُ ﴾: تَرغيب لهم إلى التوبةِ والإنابةِ، أي: ومَعَ هذا كلِّه إن رجعتُم وتبتُم تاب عليكم وعفا عنكم، وغَفَر ورَحِم. وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿ وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ قل ما كنتُ بِدْعاً من الرسل ﴾، أي: لستُ بأوَّل رسولٍ طَرَق العالَم، بل قد جاءت الرسلُ من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظيرَ له حتى تَستنكِرُوني وتستبعدُوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميعَ الأنبياء إلى الأمم.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ: ﴿ قل ما كنتُ بِدعاً من الرسل ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحكِ ابنُ جريرٍ[١] ولا ابن أبي حاتم غيرَ ذلك.

وقولُهُ: ﴿ وما أدري ما يُفعلُ بي ولا بِكُم ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآيةِ: نَزَل بعدها ﴿ لِيغفِرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ﴾. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿ لِيَغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر ﴾، قالوا: ولمَّا نزلت هذه الآيةُ قال رجلٌ من المسلمين: هذا قد بَيَّن الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعلٌ بنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِيُدخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾.

هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هَنِيئاً لك يَا رسولَ اللَّهِ، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية[٢].

وقال الضحَّاك: ﴿ وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بِكُم ﴾: ما أدري بماذا أُومَرُ، وبماذا أُنهَىٰ بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهُذَلي، عن الحسن البصري في قوله: ﴿ وما أدري ما يُفعَل بي ولا بِكُم ﴾، قال: أما في الآخرة فمعاذَ الله قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يُفعَل بي ولا بِكُم في الدنيا، أُخرَجُ كما أُخرِجَتِ الأنبياءُ قبلي أم أُقتَلُ كما قُتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أَيُخسَفُ بكم أو تُرمَون بالحجارة[٣]؟

وهذا القولُ هو الذي عَوّل عليه ابنُ جرير، وأنه لا يجوزُ غيره، ولا شكَّ أن هذا هو اللائقُ به ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازمٌ أنه يَصير إلى الجنة هو ومن اتَّبعه، وأما في الدنيا فلم يَدرِ ما كان يَؤُول إليه أمرُه وأمرُ مشركي قُرَيشٍ إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفُرون فَيُعذَّبُون فَيُستَأْصَلُون بكفرهم؟ فأمَّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ وهي امرأة من

(١) تفسير الطبري ٢٦/٦.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفتح، عارضة الأحوذي ١٢/١٤٩، وقال: «حسن صحيح».
(٣) تفسير الطبري ٢٦/٧ ـ ٨.

نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعَت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار[1] لهم في السّكنى حين اقترعت الأنصارُ على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون فاشتكى عثمانُ عندنا فمرَّضناهُ، حتى إذا توفي أدْرَجناه في أثوابه، فدخل علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقلت: رحمةُ الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمَكَ الله. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: وما يُدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أما هو فقد جاءه اليقينُ من ربه، وإني لأرجُو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي! قالت: فقلت: والله لا أُزكّي أحداً بعدَه أبداً. وأحزنني ذلك، فَنِمْتُ فرأيت لعثمان عيناً تجري، فَجِئْتُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذاك عملُه»[2].

فقد انفرد بإخراجه البخاريُّ دونَ مُسلِم[2]، وفي لفظٍ له: «ما أدري وأنا رسولُ الله ما يُفعَلُ به». وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزنني ذلك». وفي هذا وأمثاله دلالةٌ على أنه لا يُقطَع لِمَعيَّنٍ بالجنة إلا الذي نص الشارعُ على تَعيينهم، كالعَشَرة، وابن سَلام[3]، والغُميصاء، وبلال، وسُراقة، وعبد الله بن عَمرو بن حَرَام والد جابر، والقراء السبعين الذي قُتِلوا ببئر معونة، وزيدِ بن حارثة، وجعفر، وابن رواحةَ، وما أشبه هؤلاء.

وقولُهُ: ﴿ إنْ أتَّبِع إلا ما يُوحَى إلي ﴾، أي: إنما أتَّبِعُ ما يُنَزِّله الله عليَّ من الوحي، ﴿ وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ ﴾، أي: بين النِّذارة، وأمري ظاهرٌ لكلِّ ذِي لُبٍّ وعقلٍ.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿قل﴾ يا محمدُ لهؤلاءِ المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أرأيتُم إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتُم به ﴾ أي: ما ظَنُّكم أن الله صانعٌ بكم إن كان هذا الكتابُ الذي جئتكم به قد أنزلَه عليَّ لِأبلغكُموه وقد كَفرتم به وكَذَّبتُموه، ﴿ وشَهِد شاهد مِن بني إسرائيل على مثله ﴾، أي: وقد شَهِدت بصدقه وصِحَّته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بَشَّرت به وأخبرت بمثل ما أخبَرَ هذا القرآنُ به.

وقولُهُ: ﴿ فآمن ﴾، أي: هذا الذي شَهِد بصدقِه من بني إسرائيلَ لمعرفته بِحقِّيته ﴿ واستكبرتُم ﴾ أنتم: عن اتباعِهِ.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهدُ بنَبيِّه وكتابه، وكفرتُم أنتم بِنَبيِّكم وكتابكم ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

---

(١) أي: وقع في سهمنا. قال في الفتح ١١٥/٣: «وذكره بعض المغاربة بالصاد. وهو صحيح من حيث المعنى إن ثبتت الرواية».

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٣٦/٦. وفتح الباري، كتاب الجنائز ١١٤/٣.

(٣) هو عبد الله بن سَلام بن الحارث الإسرائيلي، أسلم عند قدوم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، وشهد له بالجنة. وسيأتي ذكره في الآية التالية فأما الغميصاء ويقال لها: الرُّمَيصاء فهي أم أنس بن مالك، انظر أسد الغابة ٢١٢/٧.

وهذا الشاهد اسمُ جنس يعم عبدَ الله بن سَلَام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سَلَام. وهذه كقوله: ﴿ وإذا يُتلَى عليهم قالوا آمنَّا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كُنّا من قبله مسلمين ﴾. وقال: ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدا* ويقولون سبحانَ ربِّنا إن كان وعدُ ربِّنا لمفعولاً ﴾.

قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مَكِّيَّة، وإسلام عبد الله بن سَلَام، كانَ بالمدينة. رواه عنهما ابنُ جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير(١).

وقال مالك، عن أبي النَّضر، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سَلَام، قال: وفيه نزلت: ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾(٢).

رواه البخاريُّ ومسلم والنسائيُّ، من حديث مالك(٢)، به. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضَّحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سَلَام، وهلال بن يَسَاف، والسُّديُّ، والثوري، ومالك بن أنس، وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سَلَام.

وقوله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سَبَقُونا إليه ﴾، أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالاً وعمَّاراً وصُهَيباً وخباباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعَفين والعبيدِ والإماءِ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهةً وله بهم عناية. وقد غَلِطوا في ذلك غَلَطاً فاحشاً، وأخطئوا خَطَأً بَيِّناً، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك فَتَنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ﴾، أي: يَتعجَّبون كيف اهتَدَى هؤلاء دوننا. ولهذا قالوا: ﴿ لو كان خيراً ما سَبَقُونا إليه ﴾، وأما أهلُ السنةِ والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بِدْعةٌ، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركُوا خَصلةً من خِصَالِ الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقولُهُ: ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾، أي: بالقرآن ﴿ فسيقولون هذا إفكٌ ﴾، أي: كَذِبٌ ﴿ قَدِيمٌ ﴾، أي: مأثور عن الأقدمين، فَينتقصُون القرآنَ وأهله، وهذا هو الكبرُ الذي قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس»(٣).

ثم قال: ﴿ ومن قبله كتابُ موسى ﴾، وهو التوراةُ ﴿ إماماً ورحمةً وهذا كتابٌ ﴾، يعني القرآن ﴿ مُصدِّقٌ ﴾، أي: لما قبله من الكتب ﴿ لساناً عَرَبياً ﴾، أي: فَصِيحاً بَيِّناً واضِحاً، ﴿ لينذر الذين ظَلَمُوا وبُشرى للمُحسِنين ﴾، أي: مشتمل على النِّذارة للكافرين والبِشَارة للمؤمنين.

وقولُهُ: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقامُوا ﴾، تقدم تفسيرها في سورة «حمٓ. السجدة»(٤).

وقولُهُ: ﴿ فلا خوفٌ عليهم ﴾، أي: فيما يستقبلون، ﴿ ولا هم يحزنُون ﴾، على ما خَلَّفُوا، ﴿ أولئك أصحابُ الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعمَلُون ﴾، أي: الأعمالُ سببٌ لنيلِ الرحمةِ لهم وسُبُوغِها عَلَيهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/١٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٦/١٠، وفتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/٢٨، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٨/١٩٣٠.
(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٦١ من سورة البقرة، ٢٢ من سورة آل عمران. وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.
(٤) انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة «فصلت».

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيدَ له وإخلاص العبادة والاستقامةِ إليه، عَطَف بالوصيَّة بالوالدين، كما هو مقرونٌ في غير ما آيةٍ من القرآن، كقوله: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحسانا ﴾ وقال: ﴿ أن اشكُر لي ولوالديك إليَّ المصيرُ ﴾، إلى غير ذلك من الآياتِ الكثيرةِ. وقال هاهنا: ﴿ ووَصّينا الإنسانَ بوالديه حُسْناً ﴾[1]، أي: أمرناه بالإحسانِ إليهما والحُنوِّ عليهما.

وقال أبو داودَ الطيالسي: حدثنا شعبةُ، أخبرني سماكُ بن حرب قال: سَمِعت مُصْعَب بن سَعدٍ يُحدِّث عن سعد قال: قالت أمُّ سعدٍ لسعدٍ: أليس قد أمر الله بطاعةِ الوالدين، فلا آكلُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى تكفرَ بالله. فامتنعت من الطعام والشرابِ، حتى جعَلُوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآيةُ: ﴿ وَوَصّينا الإنسان بِوالدَيهِ حُسْناً ﴾ . . . الآية[2].

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابنَ ماجه، من حديث شُعبَةَ بإسناده، نحوه وأطولَ منه[2].

﴿ حَمَلته أُمُّه كُرْهاً ﴾، أي: قاست بِسَببه في حال حَمْله مشقةً وتعباً، من وِحام وغثيانٍ وثِقَلٍ وكَرْب، إلى غير ذلك مما ينال الحواملَ من التَّعبِ والمشقَّة، ﴿ وَوضعته كُرْهاً ﴾، أي: بِمشقَّةٍ أيضاً من الطَّلْقِ وشِدَّته، ﴿ وحَمْلهُ وفِصالُه ثلاثونَ شهراً ﴾.

وقد استدلَّ علي ـ رضي الله عنه ـ بهذه الآية مع التي في لُقمان: ﴿ وفصالُه في عامين ﴾[3]، وقولُهُ: ﴿ والوالدات يُرضِعْنَ أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعَةَ ﴾[3]، على أن أقلَّ مُدَّةِ الحملِ ستةُ أشهر، وهو استنباطٌ قويٌّ صَحِيحٌ. ووافقه عليه عثمانُ وجماعةٌ من الصحابةِ، رضي الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن يزيدَ بن عبد الله بن قُسَيط، عن بَعجَة بن عبد الله الجُهَنيِّ قال: تزَوّج رجلٌ منَّا امرأةً من جُهينةٍ، فوَلدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجُها إلى عثمانَ فذكر ذلك له، فَبعث إليها، فلما قامت لِتلبسَ ثيابَها بكت أختُها، فقالت: ما يُبكيكِ؟! فوالله ما التبسَ بي أحدٌ مِن خَلْقِ الله غيرُه قطُّ، فَيقضِي الله فيَّ ما شاء. فلما أُتي بها عثمانَ أمر برجمها، فبلَغ ذلك عليًّا فأتاه، فقال له: ما تصنعُ؟ قال: وَلَدت تماماً لستةِ أشهرٍ، وهل يكون ذلك؟! فقال له عليٌّ: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سَمِعت الله يقول: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾. وقال: ﴿ حَوْلين كاملين ﴾. فلم نجدْه بَقِي إلا ستةُ أشهر، قال: فقال عثمانُ: والله ما فَطِنْتُ لهذا، عَليّ بالمرأةِ. فوجدُوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغرابُ بالغراب، ولا البيضةُ بالبيضةِ بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني. والله لا أشكُّ فيه. قال: وأبلاه الله بهذه القَرْحَةِ، قَرْحَةِ الآكِلة[4]، فما زالت تأكلهُ حتى مات[5].

(١) قرأ الكوفيون ﴿ إحساناً ﴾، والباقون من السبعة ﴿ حُسْناً ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦٥.
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٢٨ ـ ٢٩. وقد تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية الثامنة من سورة العنكبوت.
(٣) سورة لقمان، آية ١٤، والبقرة، آية ٢٣٣.
(٤) الآكلة: الحِكّةُ.
(٥) وأخرجه أيضاً ابن المنذر، الدرّ المنثور ٧/٤٤١.

رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿ فأنا أول العابدين ﴾[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةُ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا علي بن مُسهر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعةِ أشهر كفاه من الرَّضاع أحدٌ وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثةٌ وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولَين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثُون شَهْراً ﴾[٢].

﴿ حتى إذا بلغ أشُده ﴾، أي: قَوِيَ وشَبَّ وارتجل ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾، أي: تناهَى عقلُه وكَمَلَ فهمُه وحِلمُه. ويقال: إنه لا يتغيَّر غالباً عما يكون عليه ابنُ الأربعين.

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يُؤخَذُ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين فَخُذْ حِذْرَكَ[٣].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عُبَيدالله القواريري، حدثنا عَزْرَة[٤] بن قيس الأَزْدِيُّ ـ وكان قد بلغ مائة سنة ـ حَدَّثنا أبو الحسن الكوفي عَمْرو بن أوس[٥] قال: قال محمد بن عمرو بنِ عثمان، عن عثمان، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «العبدُ المسلمُ إذا بلغَ أربعينَ سنةً خَفَّفَ الله حسابَه، وإذا بلغ سِتِّينَ سنةً رَزَقَه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعينَ سنةً أحبّه أهلُ السماء، وإذا بلغ ثمانينَ سنةً ثَبَّتَ الله حَسَناتِه ومحا سَيِّئاته، وإذا بلغ تسعين سنةً غَفَر الله له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ وما تأخَّر، وشَفَّعَه الله في أهل بيتِهِ، وكَتَب في السماء: أَسِيرُ الله في أرضِهِ»[٦].

وقد رُوِي هذا من غَيْرِ هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد[٧].

وقد قال الحجاجُ بن عبد الله الحَكَمِيُّ[٨] أحد أُمَراء بني أمية بدمشق: تركتُ المعاصي والذنوبَ أربعينَ سنةً حياءً من الناس، ثم تركتُها حياءً من الله ـ عَزَّ وجَلَّ.

وما أحسَنَ قولَ الشاعرِ:

صَبَا ما صَبَا حتى عَلاَ الشَّيبُ رأسَهُ ... فلمَّا عَلاه قالَ للباطِلِ: ابطُلِ

﴿ قال رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾، أي: أَلْهِمني ﴿ أن أشكُر نعمَتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ صالحاً ترضَاه ﴾، أي: في المستقبل، ﴿ وأصلح لي في ذُرِّيتي ﴾، أي: نَسْلي وعَقِبي، ﴿ إني تبتُ إليكَ وإني من المُسلِمينَ ﴾. وهذا فيه إرشادٌ لمن بَلَغ الأربعينَ أن يُجَدِّد التوبة والإنابةَ إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود في سُنَنِه، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُعَلِّمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهمَّ، أَلِّف بين قلوبنا، وأَصْلِحْ ذاتَ بَيْنِنا، واهدِنا سُبُل السلام، ونَجِّنا من الظلمات إلى النُور، وجَنِّبنا الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَن، وبارِكْ لنا في أسماعِنا وأبصارِنا وقُلوبِنا، وأزواجنا وذُرِّياتنا، وتُبْ

---

(١) انظر تفسير الآية ٨١ من سورة الزخرف.

(٢) أخرجه أيضاً سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، الدر ٤٤٢/٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر ٤٤٢/٧.

(٤) في بعض النسخ: عروة.

(٥) في نسخة الأزهر: «أبو الحسن السلولي عنه وزادني قال». وفي النسختين الأخريين: «عَمْرو بن أوس قال». وفي مسند أبي يعلى: عُمَر.

(٦) مسند أبي يعلى ١٥٨/١. ومجمع الزوائد ٢٠٥/١٠.

(٧) مسند الإمام أحمد، عن أنس ٢١٨/٣.

(٨) في نسخة: الحلمي، وأخرى: الحليمي. والمثبت يوافق ما في تاريخ الطبري ٧٠/٧.

علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرينَ لنعمتك، مُثنين بها قابليها، وأتِمّها علينا»[١].

قال الله تعالى: ﴿ أولئك الذين يُتقبل[٢] عنهم أحْسَنُ ما عملوا ويُتجاوز[٢] عن سيئاتهم ﴾، أي: هؤلاء المُتَّصِفُون بما ذُكِرَ، التائبون إلى الله المُنيبون إليه، المُستدرِكُون ما فات بالتوبةِ والاستغفارِ، هم الذين يُتقبَّل عنهم أحسنُ ما عملوا، ويُتجاوز عن سيئاتهم، فيُغفرُ لهم الكثيرُ من الزلل، ويتقبل منهم اليسيرُ من العمل، ﴿ في أصحاب الجنة ﴾، أي: هم في جملة أصحاب الجَنَّةِ، وهذا حكمُهم عند الله كما وَعَدَ الله مَن تاب إليه وأناب، ولهذا قال: ﴿ وَعْدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعَدُون ﴾.

قال ابنُ جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعتمِرُ بن سُلَيمان، عن الحكم بن أبانَ، عن الغِطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ عن الرُّوحِ الأمين ـ عليه السلام ـ قال: «يُؤتَى بحسَنَاتِ العبد وَسيِّئاته، فيُقتَصُّ بعضُها ببعض، فإن بقيت حسنةٌ وَسَّع الله له في الجنة». قال: فدخلت على يَزْدَادَ فَحُدِّث بمثل هذا، قال: قلت: فإن ذهبتِ الحسنةُ؟ قال: ﴿ أولئك الذين يُتقَبّل[٢] عنهم أحسَنُ ما عملوا ويُتجاوزُ[٢] عن سَيِّئاتهم في أصحاب الجنة، وَعْدَ الصدق الذي كانوا يُوعَدُون ﴾[٣].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله ـ وزاد: عن الرُّوحِ الأمين. قال: قال الربُّ ـ جَلَّ جلاله ـ: يُؤتى بحسناتِ العبدِ وسَيِّئاته... فذكره، وهو حديث غريبٌ، وإسنادٌ جيِّدٌ لا بأسَ به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُليمان بن مَعْبَدٍ، حدثنا عَمْرو بن عاصم الكِلاَبِيّ، حدثنا أبو عَوانة، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشية، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطبٍ قال: ونَزَل في داري حيث ظهر عليٌّ علىٰ أهلِ البصرة، فقال لي يوماً: لقد شهدتُ أمير المؤمنين علياً وعنده عَمَّارٌ، وصعصعةُ، والأشتر، ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمانَ فنالُوا منه، وكان عليٌّ على السَّرير، ومعه عُودٌ في يَدِه، فقال قائلٌ منهم: إنَّ عندكم مَن يَفْصِلُ بينكم. فسألُوه، فقال علي: كان عثمانُ من الذين قال الله: ﴿ أولئك الذين يُتَقَبَّل عنهم أحسنَ ما عملوا ويَتَجاوزُ عن سَيِّئاتهم في أصحابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعَدُون ﴾: قال: والله عثمانُ وأصحابُ عثمانَ. قالها ثلاثاً، قال يوسفُ: فقلتُ لمحمَّد بن حاطب: آلله لَسمعتَ هذا من عليٍّ؟ قال: آللهِ لَسمِعْتُ هذا من عليٍّ رضي الله عنه.

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٥٤.

(٢) كذا في النسخ ﴿ يُتَقَبَّل ﴾، ﴿ يُتجاوز ﴾، بالياء. وقرأ بالنون ﴿ نَتَقَبَّل ﴾، ﴿ نتجاوز ﴾ من السبعة حفصٌ وحمزة والكسائي. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/١٨.

لما ذكر تعالى حالَ الداعين للوالدين البارّين بهما وما لهم عندَه من الفوز والنجاة، عَطَف بحال الأشقياءِ العاقّين للوالدين فقال: ﴿ والذي قال لوالديه أُفٍّ لكُما ﴾. وهذا عامٌّ في كلِّ مَن قال هذا، وَمَن زَعَم أنها نَزَلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقولُه ضَعِيفٌ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلَم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

ورَوَى العَوفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابنٍ لأبي بكر الصديق[1]. وفي صِحَّة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر. قال ابن جُرَيج: وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر. وهذا أيضاً قولُ السُّديِّ. وإنما هذا عام في كل من عَقَّ والديه وكَذَّب بالحق، فقال لوالديه: «أف لكما»، عَقَّهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبدُ الله بن المديني قال: إني لَفِي المسجدِ حين خَطَب مَرْوانُ، فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيدَ رأياً حسناً، وَإن يستخلِفه فقد استخلَفَ أبو بكر وعُمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهِرَقليَّةٌ؟! إن أبا بكر والله ما جَعَلها في أحد من وَلَدِه، ولا أحدٍ من أهل بيتِه، ولا جَعَلها معاويةُ في ولده إلا رحمةً وكرامةً لِوَلَدِه. فقال مَرْوانُ: ألست الذي قال لوالديه: أُفٍّ لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألستَ ابنَ اللَّعِين الذي لَعَن أباك رســولُ الله ﷺ. قال: وسَمِعَتها عائشة فقالت: يا مَرْوان، أنت القائلُ لعبدِ الرحمن كذا وكذا؟ كذبتَ، ما فيه نزلَتْ، ولكن نَزَلت في فلانِ بن فلانٍ. ثم انتحَب مَرْوان، ثم نزل عن المِنبَر حتى أتى باب حُجرَتها، فَجَعل يُكَلِّمها حتى انصرفَ[2].

وَقد رَواه البخاريُّ بإسنادٍ آخرَ ولفظ آخَرَ فقال:

حدثنا موسى بنُ إسماعيل، حَدَّثنا أبو عَوانة، عن أبي بشر، عن يُوسُفَ بن مَاهَكَ قال: كان مَرْوانُ على الحِجَازِ، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب فَجَعَل يذكرُ يزيدَ بنَ معاوية لكي يُبايَعَ له بعدَ أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكرٍ شيئاً، فقال: خُذُوه. فَدَخل بيتَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلم يقدروا عليه، فقال مَرْوان: إنَّ هذا الذي أُنزل فيه: ﴿ والذي قال لوالديه أُفٍّ لكما أتَعِدانني أن أُخرَجَ وقد خلت القرون من قبلي ﴾. فقالت عائشة مِن وراء الحِجَابِ: ما أنزلَ الله فينا شيئاً من القُرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرِي[3].

طريقٌ أُخرَى، قال النسائيُّ:

حدثنا علي بن الحسين، حَدَّثنا أُميَّة بن خالد، حدثنا شعبةُ، عن محمد بن زيادٍ قال: لما بايَعَ معاويةُ لابنه قال مَرْوان: سُنَّةُ أبي بكر وعمر. فقال عبدُ الرحمن بن أبي بكر: سنةُ هِرَقْلَ وقَيْصَرَ. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿ والذي قال لوالديه أُفٍّ لكما ﴾... الآية، فَبَلغ ذلك عائشةَ فقالت: كَذَبَ مَرْوانُ، والله ما هُوَ به، ولو شِئتُ أن أُسمِّي الذي أُنزِلَتْ فيه لَسَمَّيته، ولكن رَسُول الله ـ ﷺ ـ لعن أبا مَرْوانَ ومَرْوانُ في صُلبِهِ، فَمَرْوانُ فَضَضٌ[4] من لَعْنَةِ اللهِ[5].

(١) أخرجه الطبري ٢٥/١٩.
(٢) أخرجه أيضاً ابن مَرْدُويه، الدر ٧/٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأحقاف ٨/٥٧٦.
(٤) أي: قطعة وطائفة منها.
(٥) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ١٢/٢٩٦.

وقولُهُ: ﴿ أَتَعِدانني أن أُخرَجَ ﴾، أي: أُبعَثَ ﴿ وقد خلت القرونُ من قبلي ﴾، أي: قد مضى الناسُ فلم يرجع منهم مُخبِر، ﴿ وهما يَسْتَغِيثانِ الله ﴾، أي: يسألان الله فيه أن يَهدِيَه ويَقُولان لولدهما: ﴿ ويلك آمن إنّ وعدَ الله حقٌّ فيقولُ ما هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾. قال الله: ﴿ أولئك الذين حَقَّ عليهم القولُ في أُمَمٍ قد خَلَت من قبلهم من الجنِّ والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾، أي: دَخَلوا في زُمرَةِ أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ.

وقولُهُ: ﴿ أولئك ﴾ بعدَ قَولِهِ: ﴿ والذي قَالَ ﴾ دليلٌ على ما ذكرناه من أنه جنسٌ يَعُمُّ كُلَّ مَن كان كذلك.

وقال الحسنُ، وقتادةُ: هو الكافرُ الفاجرُ العاقُّ لوالدَيه، المكذِّبُ بالبَعثِ.

وقد روى الحافظُ ابنُ عَساكر في ترجمة سَهل بن داود، من طريق هشام بن عَمّار: حدثنا حماد بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبي[1]، عن سُليمان بن حَبيب المحاربي، عن أبي أمامة الباهِلِيِّ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «أربعةٌ لعنهم الله من فَوقِ عَرْشِهِ، وأَمَّنت عليهم الملائكة: مُضِلُّ المساكين ـ قال خالد: الذي يَهْوي بيده إلى المسكين فيقول: هَلُمَّ أُعطِيك، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء ـ والذي يقول [2][للمكفوف: اتق الدابة][2] وليس بين يَدَيه شيءٌ، والرجُلُ يُسأَلُ عن دار القوم فَيَدُلُّونه على غيرها، والذي يَضرِب الوالِدَين حتى يَستَغيثا». غريب جداً.

وقولُهُ: ﴿ ولكلٍّ درجاتٌ مما عَمِلوا ﴾، أي: لِكُلٍّ عذابٌ بحسَبِ عَمَله، ﴿ وَلِيُوَفِّيَهم أعمالَهم وهم لا يُظلَمُون ﴾، أي: لا يَظْلِمُهم مثقالَ ذَرَّةٍ فما دُونها.

قال عبدُ الرحمن بنُ زَيدِ بن أسلَمَ: درجات النار تَذهَبُ سَفالاً، ودرجاتَ الجنة تذهَبُ عُلوًّا.

وقولُهُ: ﴿ ويومَ يُعرَضُ الذين كَفَرُوا على النار أذهبتُم طَيِّباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتُم بها ﴾، أي: يُقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً. وقد تورَّع أميرُ المؤمنين عُمَر بنُ الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ عن كَثيرٍ من طَيِّباتِ المآكل والمشارب، وتَنَزَّه عنها، ويقول: أخافُ أن أكونَ كالذين قال الله تعالى لهم وقَرَّعهم: ﴿ أذهبتُم طيباتكم في حياتِكم الدُّنيا واستمتعتم بها ﴾.

وقال أبو مِجلَزٍ: ليتفقَّدنَ أقوامٌ حَسَناتٍ كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿ أذهبتم طَيِّباتِكُم في حياتكم الدنيا ﴾.

وقولُهُ: ﴿ فاليوم تُجزَون عذابَ الهُون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كُنتم تفسُقون ﴾، فَجُوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحقِّ، وتعاطَوا الفِسْق والمعاصي، جازاهُم الله بعذابِ الهُونِ، وهو الإهانة والخِزي والآلام الموجعة، والحسرات المتابعة، والمنازلِ في الدركاتِ المُفْظِعَةِ، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا اللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ

(١) في نسخة: القُرَشِيُّ. وفي أخرى: العديني. والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/٣٣٢.

(٢ ـ ٢) مكانه في نسخة: «للملعوف ابن». وفي أخرى «أبو السوابق الدابة». وفي مصورة تاريخ دمشق لابن عساكر: «للمكفوف، أبو» ثم بياض بعده: «ابق الدابة». ولعل الصواب ما أثبتناه.

اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى مُسلّياً لنبيه في تكذيب من كذَّبه من قومه: ﴿ واذكر أخا عادٍ ﴾، وهو هودٌ ـ عليه السلام ـ بَعثه الله إلى عادٍ الأولى، وكانوا يسكنون الأحقافَ ـ جمع حِقْف وهو: الجبَل من الرَّمْلِ ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجَبلُ والغارُ. وقال علي بن أبي طالب ـ رضيَ الله عنه ـ: الأحقاف: واد بحضرمَوتٍ، يُدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادةُ: ذُكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن أهلَ رملٍ مُشرفين على البحرِ بأرضٍ يقال لها: الشِّحْر[١].

قال ابنُ ماجه: «بابٌ إذا دَعَا فَلْيَبدأْ بنفسِهِ»: حدثنا الحُسين بن علي الخَلَّال، حدثنا زيدُ بن الحُبابِ، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق[٢]، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يَرْحمُنا الله، وأخا عادٍ»[٣].

وقولُهُ: ﴿ وقد خلَت النُذُر من بين يَدَيه ومن خَلْفِهِ ﴾: يعني وقد أرسَلَ الله إلى مَن حَول بلادِهم من القُرى مُرسَلين ومُنذِرين، كقولِهِ: ﴿ فجعلناها نَكَالاً لما بين يَدَيها وما خَلْفها ﴾، وكقوله: ﴿ فإن أعرضُوا فَقُل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثَمودَ * إذ جاءَتْهم الرسلُ من بين أيديهم ومن خَلفهم ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾، أي: قال لهم هودٌ ذلك، فأجابه قومُه قائلين: ﴿ أجئتنا لِتأفِكنا ﴾، أي: لِتَصُدَّنا ﴿ عن آلهتنا فَأْتِنا بما تعِدنا إن كنتَ مِنَ الصَّادِقينَ ﴾، استعجَلُوا عذابَ الله وعقُوبته، استبعاداً منهم وُقُوعه، كقوله: ﴿ يَستَعجِلُ بها الذين لا يُؤمِنُون بها ﴾.

﴿ قال إنما العلمُ عندَ الله ﴾، أي: الله أعلمُ بكم إن كنتم مُستحِقّين لتعجيل العذابِ فيفعلُ ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أُبلغكُم ما أُرسِلْتُ به، ﴿ ولكنّي أراكُم قوماً تجهَلُونَ ﴾، أي: لا تَعقِلُونَ ولا تفهَمُونَ. قال الله تَعالى: ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبِلَ أودِيَتِهم ﴾، أي: لما رَأَوُا العذابَ مُستقبِلَهُم اعتقدُوا أنه عارضٌ ممطرٌ، ففرِحُوا واستبشَرُوا، وقد كانوا مُمحِلينَ محتاجِينَ إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿ بل هُو ما استعجلتُم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ ﴾، أي: هو العذابُ الذي قلتم: ﴿ فأتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادِقينَ ﴾.

﴿ تُدَمِّرُ ﴾، أي: تُخرِّب ﴿ كُلَّ شيءٍ ﴾ من بلادهم مما مِن شأنِهِ الخرابُ ﴿ بأمْرِ ربِّها ﴾، أي: بإذْنِ اللّهِ لها في ذلك، كَقوله: ﴿ ما تَذَرُ من شيءٍ أَتَتْ عليهِ إلا جَعَلَتْهُ كالرَّمِيم ﴾، أي: كالشيءِ البالي. ولهذا قال: ﴿ فأصبحوا لا يُرَى إلا مَسَاكِنُهُم ﴾، أي: قد بادوا كلُّهم عن آخِرهم ولم تبقَ لهم باقيةٌ، ﴿ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ﴾، أي: هذا حكمُنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا. وقد ورد حديثٌ في قِصَّتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديثِ وأفرادِه، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثني أبو المنذر سَلَّام بن سُليمان النحويُّ قال: حدثنا عاصِمُ بن أبي النُّجود،

(١) أخرجه الطبري ٢٦/٢٣. والشِّحر ـ بفتح الشين وكسرها ـ: ساحل البحر بين عُمان واليمن.

(٢) في النسخ: حدثنا علي بن إسحاق. والمثبت عن سنن ابن ماجه، وأبو إسحاق هو عَمْرو بن عبد الله أبو إسحاق السبيعي. انظر تحفة الأشراف للمزي ٤/١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الدعاء ٢/١٢٦٦.

عن أبي وائل، عن الحارث البَكْري قال: خرجتُ أشكو العلاءَ بنَ الحَضْرَميِّ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فمررت بالربَذَةِ، فإذا عجوزٌ من بني تميم مُنقطِعٌ بها، فقالت لي: يا عبدَ الله، إنَّ لي إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ حاجةً، فهل أنتَ مُبلغي إليهِ؟ قال: فحملتها فأتيتُ المدينة، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهلِه، وإذا رايةٌ سوداءُ تَخفُق، وإذا بلال مُتقلِّدٌ السيفَ بين يَدَيْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يُريد أن يبعَثَ عَمرو بن العاص وَجْهاً. قال: فجلستُ، فدخل منزله ـ أو قال: رَحْلَه ـ فاستأذنتُ عليه، فأذن لي، فدخلتُ فسَلَّمتُ، فقال: هل كان بينكم وبين تميم شيءٌ؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبَرَةُ عليهم، ومررت بعجُوزٍ من بني تميم مُنقطِعٍ بها، فسألتني أن أحمِلَها إليكَ، وها هي بالباب. فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيتَ أن تجعلَ بيننا وبين تميمٍ حاجِزاً فاجعل الدهناء. فَحَمِيَتِ العجوزُ واستوفزَتْ، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يُضْطَرُّ مُضَرُكَ؟ قال: قلت: إن مَثَلي ما قال الأول: «مِعْزَى حَمَلت حَتْفها»، حَمَلْتُ هذه ولا أشعرُ أنها كانت لي خَصْماً، أعوذ بالله ورسولِه أن أكونَ كوافدِ عادٍ. قال: «هِيه، وما وافدُ عادٍ؟» ـ وهو أعلَمُ بالحديث منه، ولكن يَسْتَطعِمُه ـ قلت: إن عاداً قُحِطُوا فَبَعثُوا وافداً لهم يقال له: قَيلٌ، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمرَ وتُغنّيه جاريتان ـ يقال لهما: الجرادتان ـ فلما مَضَى الشهر خَرَج إلى جبال مَهْرَةَ فقال: اللهُمَّ، إنكَ تعلمُ أني لم أجىء إلى مريضٍ فَأُداويَه، ولا إلى أسِير فأفادِيَه، اللهم اسق عاداً ما كنت تَسْقيه. فَمَرَّتْ به سحاباتٌ سُودٌ، فَنُودي منها: اخترْ. فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداءَ، فَنُودِيَ منها: «خذها رماداً رِمْدِداً، لا تُبقِي من عادٍ أحداً». قال: فما بلغني أنه أُرسِلَ عليهم من الريح إلا كَقَدْرِ ما يجري في خاتَمِي هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصَدَق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بَعَثُوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد»[1].

رواه الترمذي والنَّسائيُّ وابن ماجه، كما تَقَدم في «سورة الأعراف»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هارونُ بنُ مَعرُوفٍ، أخبرنا ابنُ وَهْب، أخبرنا عَمْرو: أن أبا النَّضر حَدَّثه عن سُلَيمان بن يَسار، عن عائشةَ أنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ مُستَجْمِعاً[2] ضاحكاً حتى أَرَى منه لَهَوَاتِه[2]، إنما كان يتبسم. قالت: وكانَ إذا رأى غَيماً ـ أو رِيحاً ـ عُرِف ذلك في وجهه، قالت: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رأوا الغيمَ فَرِحُوا رجاءَ أن يكون فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيته عُرِفَت في وَجهكَ الكراهيةُ؟ فقال: يا عائشةُ، ما يُؤمِنُني أن يكونَ فيه عذابٌ، قد عُذِّب قومٌ بالريحِ، وقد رَأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارِضٌ مُمطِرُنا[3]. وأخرجاه من حديث ابن وهب[3].

طريقٌ أُخرى، قال أحمدُ: حدثنا عبدُ الرحمن، عن سفيان، عن المِقدام بن شُرَيح، عن أبيه، عن عائشةَ أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ كان إذا رأى ناشئاً[4] في أُفق من آفاق السماء، تَرَك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهُمَّ، إني أعوذُ بك من شَرِّ ما فيه. فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطَرت قال: «اللهُمَّ، صيّباً نافعاً»[5].

طريقٌ أخرى، قال مُسلِمٌ في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابنُ وهب، سَمِعتُ ابن جُرَيج يُحدِّث عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا عَصَفَت الريحُ قال: اللهُمَّ، إني أسألُكَ خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأعوذُ بكَ من شَرِّها، وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَتْ بِهِ. قالت: وإذا

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف، وشرحنا غريبه، وخرجناه هنالك.

(٢) استجمع للرجل أموره: اجتمع له كلّ ما يَسُرُّه. واللهوات: جمع لَهَاةٍ، وهي اللحمة في سقف أقصى الفم.

(٣) مسند أحمد ٦٦/٦، وفتح الباري، تفسير سورة الأحقاف ٥٧٨/٨، ومسلم، كتاب الاستسقاء ٦١٦/٢ ـ ٦١٧.

(٤) في نسخة: رأى شيئاً. وفي أخرى: رأى ماشياً. والناشىء: الشيء الحادث.

(٥) مسند أحمد ١٩٠/٦.

تَخيَّلتِ(١) السماء تغيَّر لونُه، وخرج ودخل، وأقبلَ وأدبرَ، فإذا مطَرَتْ سُرِّي عنه، فعرفت ذلك عائشةُ فسألته فقال: لعلَّه يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فلما رأوه عارضاً مُستقبل أوديتهم قالـوا هذا عارضٌ مُمطِرُنا ﴾(٢).

وقد ذكرنا قصَّة هلاكِ عاد في سُورتي «الأعراف وهود»(٣) بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمدُ والمنَّة.

وقال الطَّبرانيُّ: حدثنا عَبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك، عن مُسلِم المُلائي، عن مجاهد وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما فُتح على عاد من الريح إلا مثلُ مَوضِع الخاتَم، ثم أرْسِلَتْ(٤) عليهم البَدْو إلى الحَضَر فلما رآها أهلُ الحضَرقالوا: هذا عارضٌ مُمطِرُنا مُستقبلُ أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فأُلقِي أهلُ البادية على أهل الحاضِرَة حتى هَلَكُوا. قال: عَتَتْ على خزَّانها حتى خَرجت من خِلالِ الأبْوابِ(٥).

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ولقد مَكَّنَّا الأُمَمَ السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهُم منها ما لم نُعطِكُم مثلَه ولا قَريباً منه، ﴿ وجعلنا لهم سَمْعاً وأبصاراً وأفئدَةً فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدَتُهم من شيءٍ إذ كانوا يجحَدُون بآيات الله وحاقَ بهم ما كانوا به يَستهزِءُون ﴾، أي: وأحاط بهم العذابُ والنَّكالُ الذي كانوا يُكذِّبون به ويَستبعِدُون وقوعَه، أي: فاحذروا أيُّها المخاطَبُون أن تكونوا مثلَهم، فيُصِيبَكم مثلُ ما أصابَهُم من العذابِ في الدُّنيا والآخِرَة.

وقولُهُ: ﴿ولقد أهلكنا ما حَولكم من القُرى﴾، يعني أهلَ مكَّةَ، قد أهلك الله الأُمَمَ المكذبة بالرُّسل مما حَولها كعادٍ، وكانوا بالأحقاف بحَضْرَموتِ عند اليمن، وثَمُود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سَبأٌ وهُم أهلُ اليمن، ومَدْيَنُ وكانت في طريقهم ومَمَرِّهم إلى غَزَّة، وكذلك بحيرة قوم(٦) لُوطٍ، كانوا يمرون بها أيضاً.

وقولُهُ: ﴿ وصَرَّفنا الآيات ﴾، أي: بيَّناها وَوَضَّحناها ﴿ لَعلَّهم يرجِعُون * فلولا نَصَرَهم الذين اتخذُوا من دُونِ الله قُرباناً آلهةً ﴾، أي: فهَلَّا نَصرُوهم عند احتياجهم إليهم، ﴿ بل ضَلُّوا عنهم ﴾، أي: بل ذَهَبُوا عنهم أحوجَ ما كانوا إليهم، ﴿وذلكَ إفكُهم﴾، أي: كَذِبُهم، ﴿وما كانوا يَفترون﴾، أي: وافتراؤُهم في اتِّخاذهم إيَّاهم آلهةً، وقد خابُوا وخَسِرُوا في عِبادَتِهم لها، واعتمادِهم عَلَيها.

---

(١) تخيَّلت: تهيأت للمطر.

(٢) مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء ٢/٦١٦.

(٣) انظر تفسير الآيات ٦٥ ـ ٧٢ من سورة الأعراف، ٥٠ ـ ٦٠ من سورة هود.

(٤) كذا في النسخ، وفي المعجم عند هذه الرواية: «ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر». وفي رواية ثانية في المعجم ١٢/٤٢٢: «فمرّت بأهل البادية فحملت مواشيهم وأموالهم، فحملتهم بين السماء والأرض».

(٥) المعجم الكبير ١٢/٤١ ـ ٤٢.

(٦) في نسخة: «وكذلك بحيرة طبرية قوم لوط».

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيان، حدثنا عَمْرو: سَمِعْتُ عِكْرِمَة، عن الزُبَير: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنا إليك نفراً من الجنِّ يَستَمِعُون القرآن ﴾، قال: بنخلَةَ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي العِشاءَ الآخِرَةَ، ﴿ كادوا يكونُون عليه لِبَداً ﴾، قال سُفيان: اللِّبَد: بعضُهم على بعض، كاللبد بعضُه على بَعْض[(١)].

تَفرَّد به أحمد، وسيأتي من رِوَاية ابنِ جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعةٌ من جنِّ نَصِيبِينَ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانة (ح) ـ وقال [الإمامُ الشهير] الحافظ أبو بكر البَيهقِيُّ في كتابه دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عَوَانَة ـ عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ على الجنِّ ولا رآهم، انطلق رسولُ الله ـ ﷺ ـ في طائفةٍ من أصحابِه عامِدِين إلى سوق عُكاظٍ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خَبَرِ السماء، وأُرسِلَت عليهم الشُهُب، فَرَجعت الشياطينُ إلى قومهم فقالوا: ما لَكُم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خَبَرِ السماء، وأرسلت علينا الشُهُبُ. قالوا: ما حال بينكم وبين خَبَرِ السماء إلا شيءٌ حَدَث، فاضربوا مشارِقَ الأرض ومَغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبَرِ السماءِ، فانطلقوا يضربون مشارِقَ الأرض ومَغاربها، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خَبَرِ السماء، فانصرف أولئك النفَرُ الذين توجَّهوا نحو تِهامَةَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بنخلَةَ عامِداً إلى سوق عُكَاظٍ، وهو يُصَلِّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سَمِعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا ـ والله ـ الذي حال بينكم وبين خَبَرِ السماء. فهنالك حين رَجَعُوا إلى قومهم ﴿ قالوا يا قومنا إنا سَمِعنا قرآناً عَجَباً. يَهدِي إلى الرُشدِ فآمَنَّا به ولن نُشرِكَ بربِّنا أحداً ﴾. وأنزل الله على نَبِيِّه ـ ﷺ ـ: ﴿ قل أُوحِي إلى أنَّه استمَعَ نَفَرٌ من الجنِّ ﴾، وإنما أُوحِي إليه قولُ الجنِّ[(٢)].

رواه البخاريُّ عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فَرُّوخ، عن أبي عَوَانة، به: رواه الترمذيُّ والنسائيُّ في التفسير، من حديث أبي عوانة[(٢)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا أبو أحمد][(٣)]، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباسٍ قال: كان الجنُّ يستمعون الوَحْي، فَيسمَعُون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكونُ ما سَمِعوا حقًّا وما زادُوا باطلاً، وكان النجومُ لا يُرمَى بها قبلَ ذلك، فلما بُعِثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ كان أحدُهم لا يأتي مقعدَه إلا رُمِيَ بشهابٍ يُحرِقُ ما أصاب، فشكَوا ذلك إلى إبليسَ فقال: ما هذا إلا من أمرٍ قد حَدَث. فبثَّ جُنودَه، فإذا

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٦٧/١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٥٢/١، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٣٨/٢ ـ ٢٣٩، وفتح الباري، كتاب الأذان ٢٥٣/٢ وتفسير سورة الجن ٦٦٩/٨، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٣١/١ ـ ٣٣٢، وعارضة الأحوذي تفسير سورة الجن ٢٢٠/١٢ ـ ٢٢٢، والنسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٣٩٨/٤.

(٣) سقط من بعض النُسَخ. . . وأبو أحمد هو محمد بن عبد الله بن الزبير، يروي عن إسرائيل بن يونس بن أبي إسحق السَبيعي، وعنه أحمد بن حنبل. انظر تهذيب الكمال ٤٣٩/١، ٥١٨/٢.

بالنبي - ﷺ - يُصَلِّي بين جَبَلي نَخْلَةَ، فأتوه فأخبرُوه، فقال: هذا الحَدَثُ الذي حَدَث في الأرض[١].

رَواه الترمذيُّ والنسائيُّ في كتابي التفسير من سُنَنَيهما، من حديث إسرائيلَ، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»[١] وهكذا رَواه أيوب عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس. وكذا رواه العَوفي، عن ابن عباس أيضا بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصري: إنه - عليه السلام - ما شعر بأمرهم حتى أنزلَ الله عليه بخبرهم[١].

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومان[٢]، عن محمد بن كعب القُرظَيّ قصَّةَ خُرُوجِ رسولِ الله - ﷺ - إلى الطائفِ ودُعَائه إيَّاهم إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - وإبائهم عليه. فَذَكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدُّعاءَ الحَسَن: «اللهمَّ، إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتي وقِلَّةَ حِيلَتِي»...[٢] إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلَةَ، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجنُّ من أهل نَصِيبِينَ[٢].

وهذا صحيحٌ، ولكنَّ قَوْلَه إن الجنَّ كان استماعهم تلك الليلة، فيه نَظَرٌ، لأن الجنَّ كان استماعهُم في ابتداء الإيحاء، كما دَلَّ عليه حديثُ ابن عباس المذكور، وخروجُه - عليه السلام - إلى الطائِف كان بعد موتِ عَمِّه، وذلك قبل الهجرَةِ بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره، والله أعلم.

وقال أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ: حدثنا أبو أحمد الزُّبيريّ، حدثنا سُفيان، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبدالله بن مَسعُودٍ قال: هَبَطوا على النبي - ﷺ - وهو يقرأُ القرآن ببطن نَخْلَةَ، فلما سَمِعوه قالوا: أَنصِتُوا - قالوا: صَهْ - وكانوا تسعةً أحدُهم زَوْبَعَةُ، فأنزل الله - عَزَّ وجَلَّ -: ﴿ وإِذْ صَرَفْنا إليكَ نفراً من الجنِّ يستَمِعُون القرآن فلما حَضَرُوه قالوا أنصِتُوا فلما قُضِي وَلَّوا إلى قَومِهِم مُنذِرين ﴾ إلى: ﴿ ضلالٍ مُبينٍ ﴾[٣].

فهذا مع الأول من روايةِ ابن عَبَّاس يَقتَضِي أن رسول الله - ﷺ - لم يشعر بحضُورهم في هذه المرَّةِ، وإنما استمَعُوا قراءته، ثم رَجَعُوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وَفَدُوا إليه أَرْسَالاً قوماً بعد قومٍ، وفَوجاً بعدَ فوجٍ، كما سيأتي بذلك الأخبارُ والآثارُ، مما سنوردها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً، عن أبي قُدَامة عبيدالله بن سعيد السَّرْخَسِيّ، عن أبي أسامة حَمَّاد بن أسامة، عن مِسْعَرِ بن كِدَام، عن مَعْنِ بن عبد الرحمن قال: سَمِعت أبي قال: سألت مسروقاً: من آذَنَ النبي - ﷺ - ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه آذنته بهم شَجرةٌ[٤]. فَيحتَمِلُ أن يكونَ هذا في المرَّةِ الأولى، ويكون إثباتاً مُقَدَّماً على نفي ابن عباس ويَحتَمِلُ أن يكونَ هذا في بعضِ المرَّاتِ المتأخرات، والله أعلم. ويَحْتَمِلُ أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرةُ، أي: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البَيهقيُّ: وهذا الذي حكاه ابنُ عباس - رضي الله عنهما - إنما هو أول ما سمعت الجنُّ قراءَةَ رسولِ الله - ﷺ - وعَلِمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يَرَهُم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ

(١) مسند أحمد ٢٧٤/١... وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الجن ٢٢٢/١٢ - ٢٢٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤٣٦/٤. وتفسير الطبري ٣٠/٢٦ - ٣١.

(٢) سيرة ابن هشام ٤١٩/١ - ٤٢٠. والذي في السيرة أن ابن إسحاق رواه عن يزيد بن زياد، وقد أخرج الأثر كذلك الواقدي وأبو نُعَيم كما في الدر المنثور ٤٥٣/٧.

(٣) أخرجه أيضاً الحاكم وصَحَّحه في كتاب التفسير ٤٥٦/٢، والبيهقي في الدلائل ٢٢٨/٢ وانظر الدر المنثور ٤٥٢/٧.

(٤) فتح الباري، كتاب المناقب ١٧١/٧، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٣٣/١.

عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ـ عَزّ وجَلَّ ـ كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[١].

ذكر الرواية عنه بذلك

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داوُد، عن الشَّعبي ـ وابنُ أبي زائِدَة، أخبرنا داود، عن الشَّعبيّ ـ عن عَلْقَمَةَ قال: قلتُ لعبدِ الله بن مسعُودٍ: هل صَحِبَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ليلة الجنّ منكم أحدٌ؟ فقال: ما صَحِبه منا أحدٌ، ولكنا فَقَدناه ذاتَ ليلة بمكّة، فقلنا: اغتيلَ؟ استُطير[٢]؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلما كان في وَجْهِ الصبح ـ أو قال: في السَّحَر ـ إذا نحنُ به يجيءُ من قِبَلِ حِرَاء، فقلنا: يا رسولَ الله ـ فذكروا له الذي كانوا فيه ـ فقال: إنه أتاني داعي الجنِّ فأتيتهم فقرأتُ عليهم. قال: فانطَلَق، فأرانا آثارَهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبي: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جنِّ الجَزِيرة، فقال: «كلُّ عَظمٍ ذُكِر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحماً، وكل بَعْرَةٍ أو رَوْثَةٍ عَلَفٌ لدوابكم. قال: فلا تستنجوا بهما، فإنهما زادُ إخوانكم من الجن»[٣].

وهكذا رواه مُسلم في صَحِيحه، عن علي بن حُجْرٍ، عن إسماعيل ابن عُلَيَّة، به نحوَه[٣].

وقال مُسلم أيضاً: حدثنا مُحمَّد بن المثنى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا داودُ ـ وهو ابنُ أبي هندٍ ـ عن عامرٍ قال: سألتُ علقمةَ: هل كان ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ شَهد مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ؟ قال: فقال علقمةُ: أنا سألتُ ابنَ مسعود فقلت: هل شَهد أحدٌ منكم مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ؟ قال: لا، ولكنا كُنّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ذاتَ ليلةٍ، فَفَقدناه فالتمَسناه في الأودِيَةِ والشِّعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هُو جاءٍ من قِبَلِ حراءٍ قال: فقلنا: يا رسولَ الله، فَقَدناك فطلبناكَ فلم نَجِدْكَ، فَبِتْنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ. فقال: أتاني دَاعِي الجنِّ، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآن. قال: فانطَلَق بنا فأرانا آثارَهم وآثار نِيرانِهم، وسألوه الزادَ فقال: كُلُّ عظم ذُكر اسم الله عليه يَقَع في أيديكم أوفَرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لدوابِّكم. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فلا تَستنجُوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانِكم»[٤].

طريقٌ أُخرَى عن ابنِ مسعودٍ، قال أبو جَعفرِ بنِ جريرٍ:

حدثني أحمد بنِ عبد الرحمن، حدثني عمّي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله أنَّ ابن مسعودٍ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «بتُّ الليلةَ أقرأ على الجن وقفاً[٥] بالحَجُونِ».

طريقٌ أُخرى فيها أنه كان معه ليلةَ الجنِّ، قال ابنُ جَريرٍ ـ رحمه الله ـ:

حدثني أحمدُ بنُ عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبدُ الله بن وهب، أخبرني يونُس، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان بن سَنَّة الخزاعي ـ وكان من أهلِ الشام ـ أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه وهو بمكة: «مَن أحبَّ منكم أن يحضر أَمْرَ الجنِّ الليلةَ فليفعل». فلم يحضُر منهم أحدٌ غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كُنّا بأعلَى مكّة خطَّ لي بِرجله خَطّاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فَغَشِيته أَسْوِدَةٌ كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صَوْتَه، ثم طَفِقُوا يَتقطعون مثلَ قِطَعِ السحاب

(١) انظر الدلائل ٢/٢٢٧.
(٢) أي: طارت به الجنّ.
(٣) مسند أحمد ١/٤٣٦، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٢.
(٤) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٢.
(٥) كذا في نسخة، وفي أخرى: رفعاً. وفي تفسير الطبري ٢٦/٣٣: ربعاً. وفي الدر المنثور ٧/٤٥٢: رفقاً.

ذَاهبين، حتى بَقِي منهم رَهْطٌ، فَفرغَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ مع الفجر، فانطلق فتبرّز، ثم أتاني فقال: «ما فعل الرهط؟». فقلت: هم أولئك يا رسولَ الله. فأعطاهم عَظْماً وروثا زاداً، ثم نَهى أن يَستطِيب أحدٌ بروث أو عظم[١].

ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عَبْدِ الحكم، عن أبي زُرعَةَ وهب الله بن راشد، عن يونس بن يَزيدَ الأيْليِّ، به[١] ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، عن يُونس، به[١]. وقد رَوَى إسحاق بن رَاهَوَيه، عن جَرير، عن قابوس بن أبي ظَبيانَ، عن أبيه، عن ابن مَسعُودٍ. فَذَكر نَحْوَ ما تَقدَّم. ورواه الحافظ أبو نُعَيم، من طَريق موسى بن عُبَيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضاً.

طريقٌ أُخرى، قال أبو نُعَيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عَفَّان وعكرمة قالا: حدثنا مُعتَمِر قال: قال أبي: حدثني أبو تَمِيمة، عن عَمرو ـ ولعله قد يكون قال: البِكاليُّ ـ يحدثه عَمرو، عن عبد الله بن مَسعُود ـ رضي الله عنه ـ قال: استتبعني رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فَخَطَّ لي خطاً فقال: «كن بين ظَهْري هذه لا تخرج منها؛ فإنكَ إن خَرجتَ منها هَلَكْتَ»... فذكر الحديث بِطُوله وفيه غَرابَةٌ شَديدةٌ.

طريقٌ أُخرى، قال ابنُ جرير: وحدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا ابن ثَور، عن مَعْمَرٍ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غَيلان الثقفي: أنه قال لابن مسعود: حُدِّثتُ أنك كنتَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة وَفَدَ الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديثَ كلَّه، وذكر أن النبي ـ ﷺ ـ خَطَّ عليه خطًّا، وقال: لا تبرح منها... فذكر مثلَ العَجَاجة[٢] السوداء غَشِيت رسولَ الله ـ ﷺ ـ فذُعِر ثلاث مرَّات، حتى إذا كان قريباً من الصبح، أتاني رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أَنِمْتَ؟ فقلت: لا والله، ولقد هَمَمْتُ مِراراً أن أستغيث بالناس حتى سَمعتُكَ تَقرَعهم بعصاك، تقول: اجلسوا. فقال: «لو خرجت لم آمن أن يَخطِفكَ بعضُهم. ثم قال: هل رأيتَ شيئاً؟ فقلت: نعم، رأيت رجالاً سُوداً مُسْتَنْفِرين بثياب بيض[٣]. قال: «أولئك جنّ نَصِيبينَ، سألوني المتاع ـ والمتاع: الزادُ ـ فَمتَّعهم بكل عظم حائل[٤]، أو بعْرةٍ، أو رَوثة ـ فقلت: يا رسول الله، وما يُغني ذلك عنهم؟ فقال: إنهم لا يَجدُون عظماً إلا وَجدُوا عليه لحمه يومَ أُكِل، ولا رَوثاً إلا وَجدُوا فيها حَبَّها يوم أُكِلت، فلا يَستنقِيَنَّ[٥] أحد منكم إذا خَرج من الخلاء بعظم ولا بَعْرَة ولا رَوْثةٍ»[٦].

طريقٌ أخرَى، قال الحافظُ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السُّلَمي وأبو نَصر بن قَتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن عُلَيّ بن رَبَاح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: إن نفراً من الجنِّ ـ خمسةَ عشرَ بني إخوة وبني عم ـ يَأْتونني الليلةَ، فأقرأ عليهم القرآنَ. فانطلقتُ معه

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/٣٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٣٠.
(٢) العجاج: الدخان والغبار، ورَعَاعُ الناس وغوغاؤهم. الواحد: عَجاجَةٌ.
(٣) كذا في نسخة. وفي أخرى: مستنفرين ثياب بياض. وفي ثالثة: مستنفرين ثياباً بيضاً. ولفظ الطبري: مستشعري ثياب بيض.
ومستنفرين: متفرقين.
(٤) الحائل: المتغيّر.
(٥) أي: لا يُنظِّفنّ.
(٦) تفسير الطبري ٢٦/٣٢.

إلى المكان الذي أرادَ، فَخَطَّ لي خطاً وأجلسني فيه، وقال لي: لا تخرُجْ من هذا. فبتّ فيه حتى أتاني رسول الله ـ ﷺ ـ مع السَّحَر في يده عظمٌ حائلٌ ورَوْثَةٌ وحُمَمَةٌ[1]، فقال لي: إذا ذهبتَ إلى الخلاء فلا تَسْتَنج بشيءٍ من هؤلاء. قال: فلما أصبحتُ قلت: لأَعْلَمَنَّ عِلْمِي حيثُ كان رسول الله ﷺ. قال: فذهبتُ فرأيتُ موضِعَ مَبْرَك سِتِّين بَعيراً[2].

طريقٌ أُخرى، قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوُّري، حدثنا عثمان بن عُمَر، عن المُستَمِرّ بن الريَّان، عن أبي الجَوزاءِ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: انطلقتُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ، حتى أتى الحَجُونَ، فخط لي خَطًّا، ثم تَقَدَّم إليهم فازدَحمُوا عليه، فقال سَيِّدٌ لهم يقال له وَرْدان: أنا أُرَحِّلُهم عنك. فقال: إني لن يُجيرني مِنَ الله أحَدٌ[3].

طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا سفيان، عن أبي فَزَارة العَبْسِيِّ، حدثنا أبو زيدٍ ـ مولى عَمْرو بن حُرَيث ـ عن ابن مسعودٍ قال: لما كان ليلةُ الجنِّ قال لي النبي ـ ﷺ ـ: أمعك ماءٌ؟ قلت: ليس معي ماءٌ ولكن معي إداوةٌ فيها نَبيذٌ. فقال النبي ـ ﷺ ـ تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ، وماءٌ طَهُورٌ[4].

ورواه أبو داود، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، من حديثِ أبي زيدٍ، به[4].

طريقٌ أُخرى، قال أحمدُ: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لَهيعة، عن قيس بن الحجَّاجِ، عن حَنَشٍ الصَّنعاني، عن ابن عَبَّاسٍ، عن عبدِ الله بن مسعودٍ أنه كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الجنِّ، فقال رسولُ الله: «يا عبد الله، أمعك ماءٌ؟» قال: مَعِي نبيذٌ في إداوةٍ فقال: اصبُبْ عليَّ. فَتَوضَّأَ، فقال النبي ـ ﷺ ـ يا عبدَ الله، شرابٌ وَطَهُورٌ[5].

تَفَرَّد به أحمدُ من هذا الوجه، وقد أورده الدرقطنيُّ من طريقٍ آخَرَ، عن ابن مسعود[5].

طريقٌ أُخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبدِ الله قال: كنتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ وفَدَ الجنُّ، فلما انصرفَ تَنَفَّس، فقلت: ما شأنُك؟ فقال: «نُعِيَتْ إليَّ نفسِي يا ابنَ مسعودٍ»[4].

هكذا رأيتُه في المسندِ مختصراً، وقد رواه الحافظُ أبو نُعَيمٍ في كتابِهِ دلائل النبوّةِ فقال:

حدثنا سُليمان بن أحمدُ بن أَيُّوبَ، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم ـ وحَدَّثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله ابن أحمدَ بن حنبلٍ، حدثنا أبي ـ قالا: حدثنا عبد الرزَّاق، عن أبيه، عن مِيناءٍ، عن ابن مسعود قال: كنتُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ لَيلةَ وَفَدَ الجِنُّ، فَتنفَّس، فقلت: ما لَكَ يا رسولَ الله؟ قال: نُعِيَتْ إليَّ نفسي يا ابنَ مسعود. قلت: استَخْلِفْ. قال: مَن؟ قلت: أبو بكر. فسكت ثم مَضَى ساعةً فَتَنفَّسَ، فقلت: ما شأنُك بأبي أنتَ وأُمي يا رسولَ الله؟ قال: نُعِيَتْ إليَّ نفسِي يا ابنَ مسعودٍ. قلت: استَخْلِفْ. قال: مَن؟ قلت: عُمَر. فَسَكت ثم مَضى ساعةٌ ثم تَنَفَّسَ فقلتُ: ما شأنُك؟ قال: نُعيَتْ إليَّ نفسي. قلت: فاستَخلِفْ. قال مَنْ؟ قلت: علي بن أبي

(١) في بعض النسخ: وحمة. والحُمَمُ: الفحم، والرُّماد، وكلّ ما احتَرَق من النار، واحدته: حُمَمَة.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٣١.

(٣) الدلائل ٢/٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٤٤٩، وأخرجوه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ١/٢١، وعارضة الأحوذي ١/١٢٧، وابن ماجه ١/١٣٥.

(٥) مسند أحمد ١/٣٩٨، وسنن الدراقطني، كتاب الطهارة ١/٧٦.

طالب. قال أما والذي نفسي بيده، لَئِن أطاعوه لَيَدخُلُنَّ الجنةَ أجمَعِين أكتَعين »[١].

وهو حديثٌ غريبٌ جدًّا وأَحْرِ به ألَّا يكون محفوظاً، وبتقدير صحته فالظاهرُ أن هذا بعد وفُودهم إليه بالمدينةِ على ما سَنُورده، فإنَّ في ذلك الوقت في آخر الأمر لما فُتِحت مَكَّة، ودخل الناسُ والجانُّ أيضاً في دينِ الله أفواجاً، نَزَلت سورة: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ * ورأيت الناسَ يدخلُون في دين الله أفواجاً * فَسَبِّح بحمدِ رَبِّك واستغفره إنه كانَ توَّاباً﴾، وهي السورةُ التي نُعِيت نفسُه الكريمةُ فيها إليه كما قد نَصَّ على ذلك ابنُ عباس، ووافقه عُمَر بن الخطاب عليه، وقد وَرَد في ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نُعَيم أيضاً عن الطبراني، عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن علي بن الحسين بن أبي بُردَة، عن يحيى بن يعلى[٢] الأسلمي، عن حرب بن صُبَيح، عن سعيد بن مَسْلَمة[٣]، عن أبي مُرَّةَ الصنعاني، عن أبي عبد الله الجَدَلي، عن ابن مَسعُودٍ، فذكره وذكر فيه قِصَّة الاستخلاف، وهذا إسناد غريب، وسياق عَجِيبٌ[٤].

طريق أخرى، قال الامامُ أحمدُ: حدثنا أبو سَعِيدٍ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيدٍ، عن أبي رافع، عن ابن مسعود: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الجنّ خطَّ حوله، فكان أحدُهم مثلَ سوادَ النَّخل، وقال: «لا تبرَحْ مكانك. فأقرأهم كتابَ الله» قال: فلما رأى الزُّطَّ[٥] قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبي ـ ﷺ ـ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به[٦].

طريقٌ أخرى مُرسَلةٌ، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطِّهْرانِيُّ، أخبرنا حفص بن عُمَر العَدَني، حدثنا الحكم بنُ أبانَ، عن عكرمةَ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفنا إليك نفراً من الجِنِّ ﴾، قال: هم اثنا عشر ألفاً جاءُوا من جزيرةِ الموصل، فقال النبي ـ ﷺ ـ لابن مسعود: انظُرني حتى آتيك. وخَطَّ عليه خطًّا، وقال: لا تبرح حتى آتيكَ. فلما خَشِيهم ابنُ مسعود كاد أن يذهَبَ، فذكر قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يَبرَحْ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «لو ذهبتَ ما التقينا إلى يوم القيامةِ».

طريقٌ أخرى مرسلةٌ أيضاً، قال سَعِيد بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادَة في قوله تعالى: ﴿ وإذ صَرَفنا إليك نفراً من الجنِّ ﴾، قال: ذُكر لنا أنهم صُرِفُوا إليه من نِينَوَى، وأَنَّ نبي الله ـ ﷺ ـ قال: إني أُمِرْت أن أقرأ على الجنِّ، فأيُّكم يَتْبَعني ؟ فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرَقُوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجلٌ: يا رسول الله، إنَّ ذاك لَذُو نَدْبَة. فأتبعه ابنُ مسعود أخو هُذَيل، قال: فدخل النبي ـ ﷺ ـ شعباً يقال له: شعب الحَجُون، وخطَّ عليه، وخطَّ على ابن مسعود لِيُثبته بذلك، قال: فجعلت أُهالُ وأَرى أمثالَ النُسور تَمشي في دُفُوفها[٧]، وسَمِعتُ لَغطاً شديداً حتى خِفتُ على نبيِّ الله ـ ﷺ ـ ثم تَلَا القرآن، فلما رَجع رسول الله ـ ﷺ ـ قلت: يا رسولَ الله، ما اللغطُ الذي سَمِعتُ؟ قال: «اختَصَمُوا في قتيلٍ، فَقُضِي بينهم بالحقِّ». رواه ابنُ جَرِيرٍ[٨]، وابنُ أبي حاتمٍ.

فَهذه الطرقُ كلُّها تَدلُّ على أنه ـ ﷺ ـ ذَهَب إلى الجنِّ قصداً، فَتلا عليهم القرآنَ، ودعاهُم إلى الله

---

(١) المعجم الكبير ٨٢/١٠.

(٢) في نسخة: يحيى بن سعيد. وفي أخرى: يحيى بن يعمر. والمثبت عن المعجم الكبير، ومصورة تهذيب الكمال ١٥٢٦.

(٣) في المعجم الكبير: «ابن مسلم».

(٤) المعجم الكبير ٨١/١٠ ـ ٨٢.

(٥) في نسخة: المزها. وثانية: الرفا. والمثبت عن المسند. والزطّ: جنس من السودان والهنود.

(٦) مسند أحمد ٤٥٥/١.

(٧) هال الأمر فلاناً: افزعه. ودفّ الطائر: إذا حرّك جناحيه ورجلاه في الأرض. والمعروف أن المصدر: دفٌّ ودَفِيفٌ.

(٨) تفسير الطبري ٣١/٢٦.

ـ عزَّ وجلَّ ـ وَشَرع الله لهم على لسانِهِ ما هم محتاجُون إليه في ذلك الوقت. وقد يَحتَمِلُ أنَّ أوَّل مرَّةٍ سَمِعُوه يقرأ القرآن لم يشعرُ بهم، كما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهمـا ـ ثم بعد ذلك وَفَدُوا إليه كما رواه ابن مسعود، وأما ابنُ مسعودٍ فإنَّه لم يكُن مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ حال مُخَاطبته للجنّ ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ـ ﷺ ـ أحدٌ سواه ومع هذا لم يشهدْ حال المخاطبة، هذه طريقةُ البيهقي. وقد يَحْتَمِلُ أن يكونَ أوَّل مَرَّةٍ خَرَج إليهم لم يكُن معه ابنُ مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمدَ، وهي عند مسلم؛ ثم بعد ذلك خَرَج معه ليلة أُخرى والله أعلم، كما روى ابنُ أبي حاتمٍ في تفسير ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ من حديث ابن جُرَيج قال: قال عبد العزيز بن عُمَر: أما الجن الذين لَقُوه بنخلَةَ فَجِنّ نِينَوَى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نَصِيبِينَ، وتَأَوَّله البيهقي على أنه يقول: «فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ»، على غير ابنِ مسعود ممن لم يَعْلَم بخروجه ـ ﷺ ـ إلى الجنّ، وهو مُحتَمَل على بُعدٍ، والله أعلم.

وقد قال الحافظُ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو مُحمَّد بن عبد الله الأديبُ، أخبرنا أبو بكر الإسماعيليُّ، أخبرنا الحسن بنُ سفيان، حدثني سُوَيد بن سَعيدٍ، حدثنا عَمرو بن يحيى، عن جَدِّه سعيد بن عمرو قال: كان أبو هُرَيرة يَتْبَع رسول الله ـ ﷺ ـ بإداوة لِوُضوئه وحاجَته، فأدركه يوماً فقال: ـ من هذا؟ قال: أنا أبو هريرة. قال: ائتني بأحجارٍ أَسْتَنْجي بها، ولا تأتني بعظم ولا رَوْثَةٍ. فأتيتُه بأحجارٍ في ثوبي، فوضعتُها إلى جَنبه حتى إذا فَرَغ وقام اتَّبَعْتُه، فقلت: يا رسولَ الله، ما بالُ العظم والرَّوثة؟ قال: «أتاني وَفدُ جنّ نَصِيبِينَ فسألوني الزاد، فدعوتُ الله لهم ألاَّ يمرُّوا بعظمٍ ولا بروثَةٍ إلا وَجَدُوا طعاماً»[١].

أخرجه البخاريُّ في صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عَمرو بن يحيى، بإسناده قريباً[١] منه. فهذا يدلُّ مع ما تَقَدَّم على أنهم وَفَدُوا عليه بعد ذلك. وسنذكُر ما يدلّ على تكرار ذلك.

وقد رُوِي عن ابن عباس غيرُ ما ذُكِر عنه أوَّلاً من وجهٍ جيِّدٍ، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحِمَّاني، حدثنا النَّضرُ بن عَرَبيٍّ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباسٍ في قولِهِ: ﴿ وَإِذ صَرَفنا إليكَ نفراً من الجِنِّ ﴾... الآية، كانوا سبعة نَفَرٍ من أهل نَصِيبِينَ، فَجَعَلهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ رُسُلا إلى قومهم[٢].

فهذا يدلُّ على أنه رَوَى القِصَّتين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسين، حدثنا سُوَيد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سمَّاه، عن ابن جُرَيج، عن مجاهدٍ: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾، قال: كانوا سبعةَ نَفَرٍ، ثلاثةٌ من أهل حَرَّانَ، وأربعةٌ من أهل نَصِيبين، وكانت أسماؤهم حسي وحسِّي ومسِّي، وشاصر وناصر، والأرد، وإيان، والأحقم[٣].

وذكر أبو حَمْزَة الثُّمالي أن هذا الحيَّ من الجنّ كان يُقال لهم: بنو الشَّيصبان، وكانوا أكثَرَ الجنِّ عدداً وأشرفَهم نَسَباً، وكانوا هم عامَّة جنود إبليس.

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن عاصمٍ، عن زرٍّ، عن ابن مسعُودٍ: كانوا تسعةً، أحدُهم زوبعةُ[٤]، أَتوه من أصلِ نخلَةَ.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٣٣، وفتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/١٧١.
(٢) تفسير الطبري ٢٦/٣٠ ـ ٣١.
(٣) انظر مفحمات الأقران للسيوطي ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٤) أخرجه البزار، كشف الأستار، تفسير سورة الأحقاف ٣/٦٨.

وتَقدَّم عنه أنهم كانوا خمسةَ عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستِّين راحلةٍ. وتقدَّم عنه أن اسم سَيِّدهم وَرْدَان. وقيل: كانوا ثلاثمائةٍ، وتقدَّم عن عكرمَة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلافَ دليلٌ على تكرُّر وِفادتهم عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومما يدلُّ على ذلك ما قاله البخاريُّ في صَحِيحه.

حدثنا يحيى بن سُليمان، حدثني ابنُ وهب، حَدَّثني عُمَر ـ هو ابن محمد ـ أَنَّ سَالِماً حدَّثه، عن عبد الله بن عُمَر قال: ما سَمِعتُ عُمَر يقول لشيءٍ قطُّ: إني لأظنُّه كذا، إلا كان كما يَظُنُّ، بينما عمرُ بنُ الخطاب جالسٌ إذْ مَرَّ به رجلٌ جَميل، فقال: لقد أخطأ ظَنِّي ـ أو: إنَّ هذا على دِينه في الجاهلية ـ أو: لقد كان كاهِنَهم ـ عَلَيَّ بالرجل. فَدُعِيَ له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيتُ كاليوم استُقبلَ به رجلٌ مُسلِمٌ. قال: فإني أعزِمُ[1] عليكَ إلاَّ ما أخبرتني. قال: كنتُ كاهنَهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيَّتُكَ؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرفُ فيها الفزَعَ فقالت:

أَلَم تَـرَ الجِنَّ وإِبْـلاَسَهـا ... وَيَـأْسَهـا مِنْ بَعْـد إنكَـاسِهَـا

وَلُحُوقَها بالقِلَاص وأحْلاسِهَا[2]

قال عمر: صَدَق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاءَ رجلٌ بِعِجْلٍ فذبحه، فَصَرخ به صارخٌ، لم أسمَع صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه، يقول: يا جَليحُ[3]، أمر نَجِيحٌ، رجل فصيحٌ يقول: «لا إلَه إلا الله»، قال: فوثب القوم فقلت: لا أبرحُ حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جَليحُ، أمر نَجِيحٌ، رجل فصيحٌ يقول: «لا إلَه إلا الله». فقمت ، فما نَشِبنا[4] أن قيل: هذا نبي[5].

هذا سياقُ البُخاريِّ، وقد رواه البَيهقيُّ من حديث ابن وَهبٍ، بنحوه، ثم قال: «وظاهرُ هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سَمِع الصارخ يصرُخ من العِجْلِ الذي ذُبِح، وكذلكَ هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر، وسائرُ الروايات تدلُّ على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رُؤيته وسماعه[5]، والله أعلم».

وهذا الذي قاله البيهقيُّ هو المُتَّجه، وهذا الرجُل هو سوادُ بنُ قاربٍ، وقد ذكرتُ هذا مُستقصىً في سيرة عمر ـ رضي الله عنه ـ فمن أراده فَلْيأخُذه من ثَمَّ، ولله الحمد.

قال البيهقي: «حديثُ سوادِ بنِ قاربٍ، ويُشبِهُ أن يكونَ هذا هو الكاهنَ الذي لم يُذْكَر اسمهُ في الحديثِ الصحيح»:

أخبرنا أبو القاسم الحسنُ بن محمد بن حَبيب المُفسِّر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفَّار الأصبهاني قراءةً عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمَّار الكوفيُّ، حدثنا زياد بن يزيد بن بادُويه أبو بكر القَصْرِيّ، حدثنا محمد بن نواس[6] الكوفي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن

(١) أي: أُلزِمُك.
(٢) الإبلاسُ: اليأس. والإنكاس: الانقلاب، والقِلاص: جمع قُلُص، وهو جمع قَلُوص، وهي الفَتِيَّةُ من النوق. والأحلاسُ: جمع حِلْس، وهو ما يُوضَع على ظهور الإبل تحت الرحل.
وهذا البيت الأخير غير موزون، وذكر في فتح الباري: «وفي رواية الباقر:
وَرَحْلها العِيْسَ بأحلاسها
وهذا موزون». والعيس: الإبل.
(٣) الجليح: الوقح المكافح بالعداوة، وقيل: يُحْتَمل أن يكون نادى رجلاً بعينه.
(٤) أي: لم نتعلق بشيء من الأشياء حتى سمعنا أن النبي ـ ﷺ ـ خرج.
(٥) فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ١٧٧/٧. ودلائل النبوة للبيهقي ٢٤٣/٢ ـ ٢٤٥.
(٦) في نسخة: محمد بن النواس السمعاني الكوفي. وفي الدلائل: محمد بن تراس.

البَرَاء قال: بينما عُمَر بن الخطاب يخطُب الناسَ على مِنْبَر رسول الله ـ ﷺ ـ إذ قال: أيُّها الناس، أفيكم سَوَادُ بنُ قاربٍ قال: فلم يُجبه أحد تلك السَّنة، فلما كانت السنة المُقبلة قال: أيُّها الناسُ، أفيكُم سوادُ بنُ قاربٍ؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سوادُ بنُ قاربٍ؟ قال: فقال: إنَّ سوادَ بنَ قاربٍ كان بَدءُ إسلامِهِ شيئاً عَجيباً، قال: فبينا نحن كذلك إذ طَلَع سوادُ بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حَدِّثنا بِبَدْءِ إسلامك، كيف كان؟ قال سوادٌ: فإني كنتُ نازلاً بالهند، وكان لي رَئِيٌّ من الجنّ، قال: فبينا أنا ذات ليلةٍ نائمٌ إذْ جاءني في منامي ذلك قال: قم فافهَمْ واعقِلْ إن كُنْتَ تعقِلُ، قد بُعِثَ رسولٌ من لُؤَيِّ بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَأَنْجَاسِهَا ... وشَدِّهَا العِيس بأحْلاَسِهَا
تَهْوِي إلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا مُؤمنو الجِنِّ كَأرْجَاسِهَا
فَانْهَض إلى الصَفْوَة مِنْ هَاشِمٍ ... وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسِهَا

قال: ثم أنبهَنِي فأفزَعَنِي، وقال: يا سوادُ بنُ قاربٍ، إن الله بَعَث نبياً فانهَضْ إليه تَهْتَدِ وتَرشُدْ، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فَأَنْبَهني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلاَبِهَا ... وَشَدِّهَا العِيسَ بأقْتَابِهَا[1]
تَهْوِي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... لَيس قُدامَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فَانْهَض إلى الصَفْوَة مِنْ هَاشِمٍ ... واسْمُ بِعَيْنَيكَ إلى نَابِهَا

فلما كان في الليلة الثانية أتاني فأنبهني، ثم قال:

عَجِبْتُ للجِنِّ وَتَخْبَارِهَا ... وَشَدِّهَا العِيسَ بأكْوَارِهَا[2]
تَهْوِي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... لَيس ذَوُو الشَّرِّ كأخيَارِهَا
فَانْهَض إلَى الصَفْوَة مِنْ هَاشِمٍ ... مَا مُؤمنُو الجِنّ كَكُفَّارِهَا

قال: فلما سَمِعتُه تكررَ ليلةً بعدَ ليلةٍ وَقَع في قلبي حُبُّ الإسلام من أمْرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ما شاء الله، قال: فانطلقتُ إلى رَحْلِي فشددتُه على راحلتي، فما حَلَلْتُ نِسْعَةً[3] ولا عقدتُ أخرى حتى أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو بالمدينةِ ـ يعني مَكَّةَ ـ والناسُ عليه كعُرُفِ الفَرَس، فلما رآني النبي ـ ﷺ ـ قال: مَرْحباً بكَ يا سوادَ بن قاربٍ، قد عَلِمنا ما جاء بك. قال: قلت: يا رسولَ الله، قد قلتُ شعراً، فاسمَعْه مني. قال سوادٌ: فقلت:

أتَانِي رَئِيٌّ بعدَ لَيْلٍ وهَجْعَةٍ ... ولَمْ يَكُ فيما قَدْ بَلَوْتُ بكَاذِبِ
ثلاثُ لَيَالٍ قَولُه كُلَّ لَيْلَةٍ: ... أتاكَ رسولٌ[4] من لُؤَيِّ بن غَالِبِ
فَشَمَّرتُ عَنْ سَاقِي الإزَارَ وَوَسَّطَتْ ... بي الدِّعلبُ الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسِبِ[5]
فَأشْهَدُ أنَّ اللَّهَ لاَ شيءَ غَيْرُهُ ... وأنَّكَ مَأمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ

---

(١) الأقتاب: جمع قَتَب، وهو: الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير.
(٢) الأكوار: جمع كُور، وهو: رَحْلُ الناقة.
(٣) النِّسعةُ: القطعة من النِّسْع، وهو: سيرٌ عريضٌ طويل تُشَدُّ به الحقائبُ أو الرحال أو نحوها.
(٤) في نسخة: نَبِيٌّ.
(٥) الدِّعْلبُ: الناقة القوية الشابة. والوجناء: العظيمة الوجنتين، والسباسب: القفار. وفي النسخ: غبر السباسب.

وأنك أدنى المرسلين شفاعةً إلى الله يا ابنَ الأكرمينَ الأطايب
فَمُرْنَا بمَا يأتيكَ يا خيرَ مُرْسَلِ[١] وَإنْ كَانَ فيما جاء شَيبُ الذَّوائبِ
وَكُنْ لي شَفيعاً يومَ لا ذُو شَفَاعَةٍ سِوَاك بمغنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فَضحكَ النبي ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجذُه وقال لي: أفلحتَ يا سواد. فقال له عُمَر: هل يأتيك رَئيُّك الآن؟ فقال: منذُ قرأتُ القرآن لم يأتني، ونعم العِوَضُ كتابُ الله من الجنّ[٢].

ثم أسنده البيهقي من وَجْهَيْنِ آخرين. ومما يدلُّ على وفادتهم إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعدما هاجَر إلى المدينة الحديثُ الذي رواه الحافظ أبو نُعيم في كتاب دلائل النبوة:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المَصِّيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سَلَّام، عن زيد بنِ أسلمَ: أنه سَمعَ أبا سلَّام يقول: حَدَّثني من حَدَّثه عَمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيتُ عبد الله بن مسعود فقلتُ له: حُدِّثتُ أنك كنتَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة وَفْد الجنُّ؟ قال: أجل. قلت: حدِّثني كيف كان شأنه؟ فقال: إنَّ أهلَ الصُفَّة أخذ كلُّ رجلٍ منهم رجلٌ يُعَشِّيه، وتُركتُ فلم يأخذْني أحدٌ منهم، فَمرَّ بي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: من هذا؟ فقلتُ: أنا ابنُ مسعودٍ. فقال: ما أخَذَكَ أحدٌ يُعشِّيك؟ فقلت: لا. قال: فانطلِقْ لَعَلِّي أجدُ لك شيئاً. قال: فانطلقنا حتى أتى حُجرَةَ أمِّ سَلَمَةَ فتركني وَدَخَلَ إلى أهله، ثم خرجت الجاريةُ فقالت: يا ابنَ مسعودٍ، إن رسولَ الله لم يَجدْ لك عشاءً، فارجعْ إلى مَضْجَعِكَ. قال: فرجعتُ إلى المسجد، فجمعت حصباءَ المسجد فَتوسَّدْتُه، والتففْتُ بثوبي، فلم ألبثْ إلَّا قليلاً حتى جاءت الجاريةُ، فقالت: أجِبْ رسولَ الله. فاتَّبعتها وأنا أرجُو العَشَاء، حتى [إذا] بلغت مقامي خرجَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ وفي يده عَسِيب[٣] من نخلٍ فعرض به على صدري فقال: انطلِقْ أنتَ معي حيث انطلقتُ؟ قلت: ما شاءَ الله! فأعادها عَلَيَّ ثلاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذلك أقول: ما شاء الله! فانطلَقَ وانطلقتُ معه، حتى أتينا بقيعَ الغَرْقَد، فَخَطَّ بعصاه خطًّا، ثم قال: اجلس فيها، ولا تَبْرَحْ حتى آتِيَكَ. ثم انطلقَ يمشِي وأنا أنظُر إليه خِلالَ النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت مثل العَجَاجة السوداء، فَفَرِقْتُ فقلت: ألحقُ برسول الله ـ ﷺ ـ فإني أظن هذه هوازنَ مَكَرُوا برسول الله ـ ﷺ ـ ليقتلوه، فأسعَى إلى البيوت، فأستغيثُ الناسَ. فذكرتُ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أوصاني ألَّا أبرحَ مكاني الذي أنا فيه، فَسمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ. نَقْرَعُهم بِعَصَاه ويقول: اجلِسُوا. فَجَلَسُوا حتى كاد ينشقُّ عمودُ الصُبح، ثم ثَارُوا وذَهَبُوا فأتاني رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أنمتَ بَعدِي؟ فقلت: لا، ولقد فَزِعت الفزعةَ الأولى، حتى رأيت أن آتِي البيوتَ فأستغيثَ الناسَ حتى سَمِعْتُك تَقْرَعُهم بعَصاك، وكنت أظنُّها هوازن مكرُوا برسول الله ـ ﷺ ـ ليقتلوه. فقال: لو أنَّكَ خرجتَ من هذه الحلقة ما آمنْتُ أنْ يَخْتَطِفَكَ بَعضُهُم، فهل رأيتَ من شيءٍ منهم؟ فقلت: رأيت رجالاً سُوداً مُسْتَثْفِرين بثيابٍ بيض، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أولئك وَفْدُ جِنِّ نَصِيبين، فسألوني الزادَ والمتاعَ، فمتَّعتُهم بكل عظم حائلٍ أوْ رَوْثَةٍ أو بعْرَةٍ» قلت: وما يُغني عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يَجدُون عظماً إلا وَجدُوا عليه لحمَه الذي كان عليه يَوْمَ أُكِلَ، ولا رَوْثَةً إلا وَجدُوا فيها حَبَّها الذي كان فيها يوم أُكِلت، فلا يَسْتنقِي أحدٌ منكم بعظمٍ ولا بَعْرَةٍ».

وهذا إسنادٌ غريبٌ جِدًّا، ولكن فيه رجلٌ مُبهَمٌ لم يُسَمّ. وقد رَوَى الحافظ أبو نُعَيم من حديث بقية بن

(١) في نسخة: يا خير من مشى. ومثله في الدلائل.
(٢) الدلائل ٢/٢٤٨ ـ ٢٥٨. (٣) العَسِيبُ: جريدة النخلِ المستقيمةُ يُكْشَطُ سَعَفُها.

الوليد، حدثني نُمير بن يزيد القيني[(١)]، حدثنا أبي، حدثنا قُحافة بن رَبيعة، حدثني الزُبير بن العوام قال: صلّى بنا رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الصُبح في مسجد المدينة فلما انصرف، قال: أيُّكم يَتْبَعُني إلى وفدِ الجنِّ الليلةَ؟ فأسكت القومُ، ثلاثاً، فمرَّ بي فأخذ بيدي، فجعلت أمشي مَعَه حتى خُنِسَت عنا جبالُ المدينة كلُّها، وأفضينا إلى أرضٍ بَرَازٍ فإذا رِجالٌ طِوالٌ كأنهم الرماحُ، مُسْتَثْفِرين بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتُهم غَشِيَتْني رِعدةٌ شَدِيدة. . . ثم ذكر نحوَ حديثِ ابن مسعودِ المتقدِّم. وهذا غريبٌ، والله أعلم.

ومما يتعلَّق بوفُودِ الجنِّ ما رَواه الحافظُ أبو نُعَيم: حدثنا أبو محمد بن حيان. حدثنا أبو الطيب أحمد بن رَوح، حدثنا يَعقُوب الدُّورقي، حدثنا الوليد بن بُكَير التميمي، حدثنا حُصين بن عمر، أخبرني عبيد المُكتِب، عن إبراهيم قال: خَرَجَ نفرٌ من أصحاب عبدالله يُريدون الحجَّ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحيَّةٍ تَنْثَنى على الطريق أبيض، يَنْفَحُ منه ريحُ المِسْك، فقلت لأصحابي: امضُوا، فلستُ ببارح حتى أنظُرَ إلى ما يصير إليه أمرُ هذه الحية. قال: فما لَبِثت أن ماتت، فعَمَدْتُ إلى خِرْقَةٍ بيضاء فلففتُها فيها ثم نَحيتُها عن الطريق فَدَفنتُها، وأدركت أصحابي في المُتعشَّى. قال: فوالله إنا لَقُعُودٌ إذ أقبلَ أربعُ نسوة من قِبَلِ المغرب، فقالت واحدةٌ منهنَّ: أيكم دَفَنَ عَمراً؟ قلنا: ومن عَمرو؟ قالت: أيُّكم دَفَنَ الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صَوَّاماً قَوَّاماً، يأمر بما أنزَلَ الله، ولقد آمَن بنبيِّكم، وسَمِع صفته من السماء قبل أن يُبعَث بأربعمائة عام. قال الرجل: فَحَمِدنا الله ثم قَضَينا حَجَّتنا ثم مررتُ بعُمَر بن الخطاب في المدينةِ فأنبأتُه بأمر الحيَّةِ، فقال: صدقتَ، سَمِعتُ رَسولُ الله يقول: «لقد آمن بي قبل أن أُبعَث بأربعمائة سنة».

وهذا غريبٌ جدًّا، والله أعلم.

قال أبو نُعَيم: وقد رَوَى الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن الشعبي، عن رَجُلٍ من ثَقِيفٍ، نحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطّهراني، عن صَفْوان بن المعطل ـ هو الذي نَزَلَ وَدَفَنَ تلك الحيةَ من بين الصحابة ـ وأنهم قالوا: أمَا إنه آخرُ التسعة موتاً الذين أتوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يستمعون القرآنَ.

وروى أبو نُعيمَ من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُونَ، عن عمِّه، عن معاذ بن عُبَيد[(٢)] الله بن مَعْمَر قال: كنتُ جالساً عند عثمانَ بن عفَّانَ فجاء رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين، إني كنت بِفَلاةٍ من الأرض، فَذَكَر أنه رأى ثُعبانين اقتتلا ثم قَتَلَ أحدُهما الآخر، قال: فذهبتُ إلى المُعتَرَك، فوجدتُ حياتٍ كثيرةً مقتولةً، وإذا يَنفَحُ من بعضِها ريحُ المِسك، فجعلتُ أشَمُّها واحدةً واحدةً، حتى وجدتُ ذلك من حَيَّةٍ صفراءَ دقيقة، فَلَفَفتُها في عِمامتي ودفنتُها. فبينا أنا أمشي إذ ناداني مُنَادٍ: يا عبدَ الله، لقد هُدِيتَ! هذانَ حَيَّان من الجنِّ بَنُو شعيبان وبنو أقيش التقَوا، فكان من القتلى ما رأيتَ، واستُشهِدَ الذي دفنته، وكان من الذينَ سَمِعُوا الوَحيَ من رسـولِ الله ﷺ. قال: فقال عثمانُ لذلك الرجل: إن كنتَ صادقاً فقد رأيتَ عَجَباً، وإن كنتَ كاذباً فعليكَ كَذِبُك.

فقولُه تعالى: ﴿ وإذْ صَرَفنا إليك نفراً من الجنِّ ﴾، أي: طائفةً من الجن ﴿ يستمعون القرآنَ فلما حَضَرُوه قالوا أنصِتوا ﴾ أي: استمِعُوا. وهذا أدبٌ منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حَدَّثنا الإمامُ أبو الطيِّب سهلُ بن مُحمَّد بن سُلَيمان، أخبرنا أبو الحسن

---

(١) في النسخ: القنبر. والمثبت عن ميزان الاعتدال ٢٧٣/٤، ومصورة تهذيب الكمال ١٤٢٤/٣.

(٢) في النسخ: «ابن عبد الله». والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢٤٧/٨، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١٩٧٩/٣.

محمد بن عبد الله الدقّاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجِي، حدثنا هِشَام بن عَمَّار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبدالله قال: قرأ رسولُ الله - ﷺ - «سورة الرحمن» حتى خَتَمها، ثم قال: «ما لي أراكُم سُكُوتاً؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسَنَ منكم ردًّا، ما قرأت عليهم هذه الآية من مَرَّةٍ: ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان ﴾، إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نِعَمِكَ ربَّنا نُكَذِّب، فَلَكَ الحمدُ»[1].

ورواه الترمذي في التفسير [عن أبي مُسلِم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به. قال: «خَرَجَ رَسولُ الله - ﷺ - على أصحابه، فقرأ عليهم سورةَ الرحمن. . . » فذكره، ثم قال الترمِذيُّ: غريبٌ لا نعرفهُ إلاَّ] من حَدِيثِ الوليد، عن زُهيرٍ»[1]. كذا قال. وقد رواه البَيهقيُّ من حديث مَرْوَانَ بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد، به مثله[1].

وقولهُ: ﴿ فلما قُضِي ﴾، أي فَرَغَ. كقوله: ﴿ فإذا قُضِيت الصلاةُ ﴾، ﴿ فقضاهُنَّ سَبعَ سمواتٍ في يومَين ﴾، ﴿ فإذا قَضَيتُم مناسككم ﴾.

﴿ وَلَّوا إلى قومهم مُنذِرين ﴾، رَجَعُوا إلى قومِهم فأنذروهم ما سَمِعُوه من رســول الله ﷺ، كقوله: ﴿ لِيتفقَّهُوا في الدين وَلِينذِرُوا قومَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهم لعلَّهُمْ يحذَرُون ﴾.

وقد استُدِل بهذه الآية على أنه في الجنِّ نُذُر، وليس فيهم رسلٌ. ولا شكَّ أن الجنَّ لم يَبعَثِ الله منهم رَسُولاً، لقوله: ﴿ وما أرسلنا من قَبلِكَ إلا رجالاً يُوحَى[2] إليهم من أهل القُرى ﴾. وقال: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاَّ إنهم ليأكُلُون الطعامَ ويمشُون في الأسواق ﴾.وقال عن إبراهيمَ الخَلِيل:﴿ وَجعلنا في ذُرِّيتِهِ النُّبوَّةَ والكتابَ ﴾. فَكُلُّ نبي بَعَثَه الله بعد إبراهيم فمن ذُرِّيته وسلالته، فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رُسُلٌ منكم ﴾، فالمراد من مجمُوع الجنسَين فَيصدُقُ على أحدهما وهو الإنسُ، كقوله: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمَرجان ﴾، أي: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجنِّ لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿ قالوا يا قومنا إنا سَمِعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾، ولم يذكروا عيسى لأن عيسى - عليه السلام - أُنزل عليه الإنجيلُ فيه مواعظُ وترقيقاتٌ وقليلٌ من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمِّم لشريعةِ التوراة، فالعمدة هو التوراةُ، فلهذا قالوا: ﴿ أُنزِلَ من بعد موسى ﴾، وهكذا قال وَرَقَةُ بن نَوفل، حين أخبَره النبي - ﷺ - بقصَّة نُزولِ جبريلَ عليه أول مرة، فقال: بَخٍ بَخٍ[3]، هذا الناموسُ الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكونُ فيها جَذَعاً[4].

﴿ مُصَدِّقًا لما بين يديه ﴾، أي: من الكتب المنزَّلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿ يهدِي إلى الحق ﴾، أي: في الاعتقادِ والأخبار، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾، في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين، خَبَر وطَلَب، فخبرُه صدقٌ، وطلبُه عدلٌ، كما قال: ﴿ وتمَّت كلماتُ رَبِّك صِدقاً وعَدْلاً ﴾، وقال: ﴿ هو الذي أرسَلَ رسُولَه بالهُدى ودِين الحَقِّ ﴾. فالهُدَى هو: العلم النافع، ودينُ الحقِّ: هو العملُ الصالحُ. وهكذا قالت الجنُّ: ﴿ يهدِي إلى الحقِّ ﴾ في الاعتقادات، ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾، أي: في العَمَليات.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٣٢. وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الرحمن ١٢/١٧٧ - ١٧٨.
(٢) كذا في النسخ وهي قراءة الجمهور، وقد قرأ حَفْصٌ ﴿ نُوحي ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٧٢.
(٣) بَخٍ بَخٍ: كلمة تقال للاستحسان.
(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٤٢.

﴿ يا قَوْمَنا أجيبُوا داعيَ الله ﴾، فيه دَلالةٌ على أنه تعالى أرسل محمداً ـ ﷺ ـ إلى الثَّقَلين الإنس والجنّ حيثُ دعاهُم إلى الله، وقرأ عليهم السورةَ التي فيها خطابُ الفريقين، وتكليفُهم ووعدُهم ووعيدُهم، وهي سورةُ الرحمنِ، ولهذا قال: ﴿ أجيبُوا داعِيَ الله وآمنُوا به ﴾.

وقولُهُ: ﴿يغفِر لكُم من ذُنُوبكم﴾، قيل: إن «مِنْ» ها هنا زائدة، وفيه نظرٌ، لأن زيادتها في الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿ ويُجركم من عذابٍ أليم ﴾، أي: وَيقِيكم من عَذابه الأليم.

وقد استَدَلَّ بهذه الآية مَن ذهب من العلماء إلى أن الجنَّ المؤمنين لا يدخُلون الجنة، وإنما جزاءُ صالحيهم أن يُجاروا من عذاب النار يوم القيامة، ولهذا قالُوا هذا في هذا المقامِ، وهو مقامُ تبجُّحٍ[1] ومُبالغةٍ، فلو كان لهم جزاءٌ على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حُدِّثت عن جَرير، عن لَيث، عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ قال: لا يدخلُ مؤمنو الجنِّ الجنةَ، لأنهم من ذُرِّية إبليسَ، ولا تدخلُ ذُرِّية إبليسَ الجنةَ.

والحقُّ أن مُؤمِنَهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنـة، كما هو مذهبُ طائفةٍ من السلفِ، وقد استدلَّ بعضُهم لهذا بقوله: ﴿ لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ﴾. وفي هذا الاستدلال نظرٌ، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿ ولمن خَاف مقامَ ربِّه جَنَّتانِ* فبأيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبان ﴾، فقد امتنَّ تعالى على الثقلَين بأن جَعل جزاءَ مُحسِنِهم الجنةَ، وقد قابلت الجنّ هذه الآيةَ بالشُكر القَولي أبلَغ من الإنس، فقالوا: «ولا بِشَيءٍ من آلائك رَبَّنا نُكَذِّب، فلك الحمدُ». فلم يَكُن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصُل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يُجازِي كافرهم بالنار ـ وهو مقامُ عَدْلٍ ـ فَلأن يجزيَ مُؤمِنَهُم بالجنة ـ وهو مقامُ فَضْلٍ ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل على ذلك أيضاً عمومُ قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كانت لهم جنات الفِرْدَوس نزلاً ﴾ وما أشبهَ ذلك من الآيات. وقد أفردتُ هذه المسألةَ في جُزْءٍ على حِدَةٍ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ. وهذه الجنةُ لا يَزال فيها فضلٌ حتى يُنْشِيء الله لها خَلْقاً، أفلا يسكُنها مَن آمن به وعَمِل له صالحاً؟ وما ذكروه هاهنا من الجَزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنةُ أو النارُ، فمنْ أجير من النار دخل الجنةَ لا محالةَ. ولم يَرِد معنا نصٌّ صريحٌ ولا ظاهرٌ عن الشارع أنَّ مؤمني الجنِّ لا يدخلُون الجنةَ وإن أُجِيروا من النار، ولو صَحَّ لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه: ﴿ يَغْفِر لكم من ذنوبكم ويُؤخركم إلى أجل مسمى ﴾، ولا خلاف أن مؤمني قَومِه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حُكِي فيهم أقوال غريبة. فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ[2] الجنة، وإنما يكونون في رَبَضِها وحَولَها وفي أرجائها. وفي الناسِ من زَعَم أنهم في الجنَّة يراهم بنُو آدم ولا يَرَون هم بني آدم عَكْسَ ما كانوا عليه في الدَّارِ الدنيا. ومِنَ الناس مَنْ قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربُون، وإنما يُلهَمُون التسبيحَ والتحميدَ والتقديسَ، عِوَضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جِنْسِهم. وكلُّ هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ ومن لا يُجِب داعيَ الله فليس بمُعجزٍ في الأرض ﴾، أي: بل قدرةُ الله شاملةٌ له ومحيطةٌ به، ﴿وليس له مِن دُونِه أولياءُ﴾ أي: لا يُجيرهم منه أحدٌ ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وهذا مقامُ تهديد

---

(١) تَبَجُّح: تباهي والفخر.
(٢) البُحْبُوحَةُ من كل شيءٍ: وَسَطُه وخياره. والرَّبَضُ: الناحية، وما حول المدينة.

وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيبِ والترهيبِ، ولهذا نَجع في كثير منهم، وجاءُوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفُوداً وُفُوداً، كما تَقدَّم بيانه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ أوَ لم يروا ﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يومَ القيامةِ، المُستبعِدُون لقيامِ الأجسادِ يومَ المَعادِ ﴿ أن الله الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ ولم يَعْيَ بخلقِهِنَّ ﴾، أي: ولم يَكْرُبْه[1] خلْقُهن، بل قال لها «كوني» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعةً مجيبةً خائفةً وَجِلة، أفليس ذلك بقادر على أن يُحيي الموتى؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلقِ الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾. ولهذا قال: ﴿ بلى إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾.

ثم قال مُتهدِّداً ومُتوعِّداً لمن كَفَر به: ﴿ ويوم يُعرَضُ الذين كفروا على النار أليسَ هذا بالحقِّ ﴾، أي: يقال لهم: أما هذا حقٌ؟ أفَسِحرٌ هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿ قالوا بلى ورَبِّنا ﴾ أي: لا يَسعُهم إلا الاعترافُ، ﴿ قال فَذُوقُوا العذابَ بما كنتُم تكفُرون ﴾.

ثم قال تعالى آمراً رَسُوله بالصبر على تكذيب مَن كَذَّبه مِن قَومِهِ، ﴿ فاصبر كما صَبَر أولوا العَزْمِ من الرُّسُلِ ﴾، أي: على تكذيبِ قومهم لهم. وقد اختلفوا في تَعدادِ أولي العَزْمِ على أقوال، وأشهرُها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى وخاتمُ الأنبياءِ كلِّهم محمـدٌ ﷺ. قد نصَّ الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتي «الأحزاب» و «الشورى»[2] وقد يَحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بأولي العَزْمِ جميعَ الرُّسُل، وتكون «مِن» في قوله: ﴿ من الرسل ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحَضْرمي، حدثنا السَّرِيُّ بن حَيَّان، حدثنا عَبَّاد بن عَبَّاد، حدثنا مجالد بن سَعيدٍ، عن الشعبيِّ، عن مَسْرُوقٍ قال: قالت لي عائشةُ: ظَلَّ رسول الله ـ ﷺ ـ صائماً ثم طَواه[3]، ثم ظلَّ صائماً ثم طَواه، ثم ظَلَّ صائماً ـ قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآل محمدٍ، يا عائشةُ، إن الله لم يرضَ مِن أُولي العَزْمِ مِن الرُّسُل إلا بالصَّبرِ على مَكْرُوهِها والصَّبرِ عن مَحبوبِها، ثم لم يَـرْضَ مِنِّي إلا أن يُكلِّفَني ما كَلَّفهم، فقال: ﴿ فاصبِرْ كما صَبَر أولوا العزم من الرسل ﴾. وإني ـ والله ـ لأصبِرَنَّ كما صَبَرُوا جَهدي، ولا قوة إلا بالله»[4].

﴿ ولا تَستَعجلْ لهم ﴾، أي: لا تَستعجِلْ لهم حُلُولَ العقوبة بهم. كقوله: ﴿ وذَرْني والمكَذِّبين أولي النَّعْمَةِ ومَهِّلْهم قليلاً ﴾، فمَهِّل كقوله: ﴿فمَهِّلِ الكافرين أمْهِلْهُم رُوَيداً﴾.

---

(١) كَرَثَه الأمرُ: اشتدَّ عليه.

(٢) آية الأحزاب هي: ٧، وآية الشورى هي: ١٣.

(٣) في الدر المنثور: ثم طَوَى. ويقال: طوى بطنه: أجاع نفسه أو تعمَّد الجوع وقَصَده. ومنه الحديث: «وكان يطوي بَطْنَه عن جاره»، أي: يُجيع نفسه ويُؤْثِرُ جاره بطعامه.

(٤) أخرجه أيضاً الديلمي كما في الدرّ المنثور ٧/٤٥٤.

﴿ كأنهم يوم يَرَون ما يُوعَدون لم يلبثُوا إلا ساعةً من نَهارٍ ﴾ كقوله: ﴿ كأنهم يوم يَرَونها لم يلبثُوا إلا عَشيّةً أو ضُحَاهَا ﴾، وكقوله: ﴿ ويوم يحشُرهم كأن لم يلبثُوا إلا ساعةً من النهار يتعارَفُون بينهم قد خسر الذين كذّبوا بلقاءِ الله وما كانُوا مُهتَدين ﴾.

وقولُهُ: ﴿ بلاغٌ ﴾، قال ابنُ جرير: يَحتَمِلُ مَعنَيَين، أحدهُما: أن يكونَ تقديرُه: وذلك لُبْثٌ بَلاغٍ والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآنُ بَلَاغٌ[1].

وقولُهُ: ﴿ فهل يُهلَك إلا القومُ الفاسِقُونَ ﴾، أي: لا يَهْلِكُ على الله إلا هالكٌ، وهذا من عَدْلِه تعالى أنه لا يُعَذِّبِ إلاّ من يَستَحِقُّ العذابَ.

آخر تفسير «سورة الأحقاف» ولله الحمد والمِنّةُ

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/٣٨.

تفسير

سُورَةُ مُحَمَّد

أو سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ الذين كفرُوا ﴾، أي: بـآياتِ الله، ﴿ وصدُّوا ﴾ غيـرَهم ﴿ عن سبيل الله أضـلَّ أعمالَهم ﴾، أي: أبطلَها وأذْهبَها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاءً، كقوله تعالى: ﴿ وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا من عَملٍ فجعلناه هَباءً منثُوراً ﴾.

ثُمَّ قال: ﴿ والذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ ﴾، أي: آمنت قلوبُهم وسرائرُهم، وانقادَتْ جوارحُهم وبواطنُهم وظواهرُهم، ﴿ وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ ﴾، عطفُ خاصٍّ على عامٍّ، وهو دليلٌ على أنه شَرْطٌ في صِحَّةِ الإيمانِ بعدَ بعثه صلوات الله وسلامه عليه.

وقولُهُ: ﴿ وهو الحقُّ من رَبِّهم ﴾ جملة مُعتَرضة حَسَنةٌ، ولهذا قال: ﴿ كَفَّر عنهُم سيئاتِهم وأصلَحَ بالَهم ﴾، قال ابن عباس: أي أَمْرَهم. وقال مجاهدٌ: شأنَهم. وقال قتادةُ وابنُ زيد: حالَهم. والكلُّ متقارب، وقد جاء في حديثِ تَشْميتِ العاطس: «يَهديكم الله، ويُصلحُ بالَكُم»[1].

ثم قال تعالى: ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعُوا الباطلَ ﴾، أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شئونهم، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق، ﴿ وأن الذين آمنوا اتبعُوا الحقَّ من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾، أي: يُبَيِّن لهم مآل أعمالِهم، وما يَصِيرون إليه في مَعادِهم.

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه في كتاب الأدب، سنن أبي داود ٤/٣٠٧ـ٣٠٨، وعارضة الأحوذي. ١٠/١٩٨ ـ ١٩٩، وابن ماجه ٢/١٢٢٤، والنسائي في اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/٤٣٠.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ
وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥)
وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾

يقول تعالى مُرشِداً للمؤمنين إلى ما يَعتمِدُونه في حُروبِهم مع المشركين، ﴿ فإذا لقيتُم الذين كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقاب ﴾، أي: إذا واجهتُموهم فاحصُدوهم حَصْداً بالسُّيوف، ﴿ حتى إذا أثخنتُموهُم ﴾، أي: أهلكتُموهم قتْلاً ﴿ فشُدُّوا ﴾ الأسارى الذين تأسِرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحربِ وانفصالِ المعركةِ مُخيَّرون في أمرِهم، إن شِئتُم مَننتُم عليهم فأطلقتُم أُسارَاهم مَجّاناً، وإن شئتم فاديتُموهم بمال تأخذونه منهم وتُشارِطُونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وَقعة بدر، فإنَّ الله سبحانه عاتَب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يَومئذٍ ليأخذُوا منهم الفِداء، والتقلُّل من القتل يومئذ فقال: ﴿ ما كان لِنبيٍّ أن يكونَ له أسرى حتى يُثخِن في الأرض تُريدُون عَرَضَ الدُّنيا والله يريدُ الآخرةَ والله عزيزٌ حكيم * لولا كتابٌ من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ ﴾.

ثم قد ادَّعى بعضُ العلماء أن هذه الآية المُخيِّرة بين مفاداة الأسِير والمنِّ عليه منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ فإذا انسلخ الأشهُر الحرم فاقتلوا المشركين حيثُ وجدتُموهم ﴾... الآية، رواه العَوفي عن ابن عباس[(١)]. وقاله قتادةُ، والضحاكُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ جُريج. وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست مَنسُوخةً. ثم قال بعضُهم: إنما الإمام مُخيَّر بين المنِّ على الأسيرِ ومُفاداتِه فقط، ولا يجوزُ له قتلُه.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتُلَه إن شاء، لحديثِ قتلِ النبي ـ ﷺ ـ النضرَ بن الحارث وعُقبةَ بن أبي مُعَيط من أُسارى بدر. وقال ثُمامة بن أُثال لرسول الله ـ ﷺ ـ حينَ قال له: «ما عندك يا ثُمامة»؟ فقال: إن تَقتُلْ تَقتُلْ ذا دَمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكرٍ، وإن كنت تُريد المال فَسَلْ تُعطَ منه ما شئت[(٢)].

وزاد الشافعي ـ رحمه الله ـ فقال: الإمام مُخيَّر بين قتلِه أو المنِّ عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً. وهذه المسألة مُحرَّرة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا «الأحكام»، ولله الحمدُ والمنةُ.

وقولُهُ: ﴿ حتى تَضَعَ الحربُ أوزارها ﴾، قال مجاهدٌ: حتى ينزل عيسى ابن مَرْيَم. وكأنه أخذه من قوله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهِرِين على الحقِّ حتى يُقاتِلَ آخرُهم الدجّالَ»[(٣)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيلُ بن عَيَّاش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبَير بن نُفَير أن سَلَمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إنِّي سَيَّبْتُ[(٤)] الخيلَ، وألقيتُ السلاحَ، ووضعتِ الحربُ أوزارَها، وقلت: لا قتالَ. فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «الآنَ جاء القتالُ، لا تزال طائفة من أمتي ظَاهِرين على الناس يُرفَع[(٥)] الله قلوبَ أقوام فيقاتلونهم، ويرزُقُهم الله منهم،

(١) تفسير الطبري ٢٦/٤١.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٣٨.
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ٣/٤.
(٤) أي: تركتها تسرح، تذهب وتجيء كما تشاء.
(٥) في نسخة: يُزيغ. ومعنى يُرفَع: يُقدِّم.

حتى يأتي أمرُ الله وهُم على ذلك. ألا إن عُقْرَ(١) دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة(٢).

وهكذا رواه النسائي من طريقين، عن جُبير بن نُفَير، عن سلمة بن نُفَيل السَّكُوني، به(٢).

وقال أبو القاسم البَغَويُّ: حدثنا داود بن رُشَيد، حدثنا الوليد، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبير بن نُفَير، عن النوَّاس بن سِمْعانَ قال: فُتح على رسول الله ـ ﷺ ـ فَتْحٌ فقالوا: يا رسولَ الله: سُيِّبت الخيلُ، ووُضعت السلاحُ، ووَضَعتِ الحربُ أوزارها، قالوا: لا قتالَ، قال: «كَذَبُوا، الآن جاء القتال، لا يَزَال الله يُرفَع قلوبَ قوم يقاتلونهم، فيرزُقهم منهم، حتى يأتي أمر الله وهُم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظُ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رُشَيد، به. والمحفوظ أنه من رواية سَلَمة بن نُفَيل كما تقدَّم. وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحَرْبِ إلى ألاَّ يبقى حربٌ.

وقال قتادةُ: ﴿ حتى تَضَع الحرب أوزارها ﴾، حتى لا يبقى شِرْكٌ. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لله ﴾. ثم قال بعضهم: ﴿ حتى تضعَ الحربُ أوزارها ﴾، أي: أوزارَ المحاربين، وهم المشركونَ، بأن يَتوبوا إلى الله عَزَّ وجَلَّ. وقيل: أوزارَ أهلِها بأن يبذلوا الوُسْعَ في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ.

وقولُهُ: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصَرَ منهم ﴾، أي: هذا ولو شاء الله لانتقَم من الكافرين بعقوبةٍ ونَكالٍ من عنده، ﴿ولكن ليبلوا بعضَكم ببعض ﴾، أي: ولكن شَرَع لكم الجهادَ وقتالَ الأعداءِ ليختَبِرَكم، ويبلُوَا أخبارَكم. كما ذكرَ حكمته في شرعيَّةِ الجهادِ في سورتَي «آلِ عِمران» و«براءةِ» في قوله: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾. وقال في سورةِ براءةٍ: ﴿ قاتلُوهم يُعذِّبهم الله بأيديكُم ويُخزِهم وينصُركم عليهم ويَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنين* ويُذْهِبْ غيظ قُلُوبهم ويتوبُ الله على مَن يشاء والله عليم حكيم ﴾.

ثم لما كان من شأنِ القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿ والذين قُتِلوا في سبيل الله فَلَن يُضِلَّ أعمالهم ﴾، أي: لن يُذهِبَها بل يُكثِّرها ويُنَمِّيها ويُضاعِفُها. ومنهم مَن يَجْري عليه عمله في طول بَرْزَخِهِ، كما ورد بذلك الحديثُ الذي رَواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَده، حيثُ قال:

حدثنا زيدُ بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابنُ ثوبان، عن أبيه، عن مكحولٍ، عن كثير بن مُرَّة، عن قيس الجُذامي ـ رجلٍ كانت له صحبةٌ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُعطى الشهيدُ ستَّ خصال: عند أوَّلِ قطرةٍ من دَمِهِ يُكَفِّر عنهُ كلَّ خطيئةٍ، ويَرى مَقْعَدَه من الجَنَّةِ، ويُزَوَّجُ من الحُورِ العِينِ، ويُؤَمَّن من الفَزَعِ الأكبرِ، ومن عذابِ القبرِ، ويُحَلَّى حُلَّةَ الإيمانِ»(٣). تفرد به أحمد رحمه الله.

حديثٌ آخرُ، قال أحمد أيضاً: حدثنا الحَكَمُ بن نافعٍ، حدثنا إسماعيلُ بن عَيَّاش، عن بَحِير بن سعد(٤)، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن المِقْدَامِ بن مَعدِ يكربِ الكِنْديِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن للشهيد عند الله

(١) أي: أصل دارهم.
(٢) مسند أحمد ١٠٢/٤، وسنن النسائي، كتاب الخيل ٢١٤/٦ ـ ٢١٥.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢٠٠/٤.
(٤) في النسخ: يحيى بن سعيد. والمثبت عن تهذيب الكمال ٢٠/٤، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١٥٨/١.

ستُّ خصالٍ: أن يغفر له في أول دَفْعَةٍ[1] من دَمِه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حلْيَةَ الإيمان، ويُزَوَّج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويَأمَن من الفَزَع الأكبر، ويُوضَعُ على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويُزَوَّجَ اثنتين وسبعين زوجةً من الحُور العِين، ويُشَفَّع في سبعينَ إنساناً من أقاربه»[2].

وقد أخرجه الترمذيّ وصَحَّحَه، وابنُ ماجه[2].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبي قتادةَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُغفَر للشهيد كلُّ شيءٍ إلا الدَّيْن»[3] ورُوي من حديث جماعة من الصحابة. وقال أبو الدَّرداء: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»[4]. رَوَاه أبو داود. والأحاديث في فضل الشهيد[5] كثيرةٌ جِدًّا.

وقولُهُ: ﴿ سَيَهديهم ﴾، أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ يَهديهم ربُّهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾.

وقولُهُ: ﴿ ويُصلِحُ بالَهُم ﴾، أي: أَمْرَهم وحالَهم، ﴿ ويُدخِلُهم الجنةَ عرَّفها لهم ﴾، أي: عرَّفهم بها وهَدَاهم إليها.

قال مجاهد: يَهتدِي أهلُها إلى بيوتهم ومساكِنهم، وحيث قَسَم الله لهم منها، لا يُخطِئون كأنهم ساكِنُوها منذ خُلِقوا، لا يستدلون عليها أحداً[6]. ورَوَى مالكٌ عن ابن زيدِ بن أسلَمَ نحوَ هذا. وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتَهم إذا دخلُوا الجنةَ، كما تعرفون بيوتَكُم إذا انصرفتُم من الجُمُعة.

وقال مقاتل بنُ حَيَّان: بَلَغنا أنَّ الملَكَ الذي كان وُكِل بحفظ عَمَلِه في الدنيا يمشِي بين يَدَيه في الجنة، ويَتْبَعُه ابنُ آدمَ حتى يأتي أقصى منزلٍ هُو له، فيعرِّفه كلَّ شيءٍ أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزلِهِ في الجنةِ دَخَل مَنزله وأزواجه، وانصرفَ الملَكُ عنه، ذكرهُنَّ ابنُ أبي حاتمٍ رَحِمَه الله[7].

وقد ورد الحديثُ الصحيحُ بذلك أيضاً، رَوَاه البخاريُّ من حديث قتادةَ، عن أبي المتوكِّل الناجي، عن أبي سَعيدٍ الخُدري أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا خَلَصَ المؤمنون من النار حُبِسُوا بقنطرة بين الجنَّةِ والنار يَتَقاصُّونَ مظالِمَ كانَت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيدِه إنَّ أحدَهُم بمنزلِه في الجنة أهدَى منه بمنزله كان في الدنيا»[8].

ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا إن تَنصُروا الله ينصُرْكم ويُثَبِّت أقدامَكُم ﴾، كقوله: ﴿ ولينصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾، فإن الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ، ولهذا قال: ﴿ ويُثَبِّت أقدامكم ﴾، كما جاء في الحديث: «من بَلَّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغَها، ثَبَّت الله قَدَمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾، عكسُ تثبيتِ الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله

---

(١) في نسخة: دفقةٍ. وأخرى: خفقة.
(٢) مسند أحمد ١٣١/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل الجهاد ١٦١/٧، وابن ماجه، كتاب الجهاد ٩٣٥/٢ ـ ٩٣٦.
(٣) مسلم، كتاب الإمارة ١٥٠٢/٣.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ١٥/٣.
(٥) في نسخة: الشهادة، وأخرى: الشهداء.
(٦) أخرجه الطبري ٤٤/٢٦.
(٧) الدر المنثور ٤٦٢/٧.
(٨) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٤٣ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك.

ـ ﷺ ـ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تَعِسَ عبد القطيفة، تعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقَش»[1]، أي: فلا شفاه الله.

وقولُه: ﴿ وأضلَّ أعمالهم ﴾، أي: أحبطَها وأبطلَها. ولهذا قال: ﴿ ذلك بأنهم كَرِهُوا ما أنزل الله ﴾، أي: لا يُرِيدُونه ولا يُحِبُّونه، ﴿ فأحبطَ أعمالَهُم ﴾.

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ أفلم يَسِيرُوا ﴾ ـ يعني المشركين بالله المكذِّبين لرسوله ـ ﴿ في الأرض فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم ﴾، أي: عاقبَهم بتكذيبهم وكُفرهم، أي: ونجَّي المؤمنين من بين أظهُرهم. ولهذا قال: ﴿ وللكافِرينَ أمثالُها ﴾. ثم قال: ﴿ ذلك بأنَّ الله مولى الذين آمنُوا وأنَّ الكافرين لا مولَى لهم ﴾، ولهذا قال أبو سُفيان صَخرُ بنُ حَربٍ رئيس المشركين يوم أُحُد حين سأل عن النبيِّ ـ ﷺ ـ وعن أبي بكر وعُمَر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هَلَكُوا. وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبتَ يا عَدُوَّ الله، بل أبقى الله لك ما يَسوءُك، وإن الذين عَددت لأحياءٌ. فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بَدْرٍ، والحربُ سِجَالٌ، أما إنكم سَتجِدُون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني[2]، ثم ذَهَب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ألا تُجيبوه»؟ قالوا: يا رسولَ الله، وما نقولُ؟ قال قولُوا: «الله أعلى وأجلُّ». ثم قال أبو سفيان: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم. فقال: «ألا تُجِيبوه»؟ قالوا: وما نقولُ يا رسولَ الله؟ قال قولُوا: «الله مولانا ولا مولَى لكم»[3].

ثم قال تعالى: ﴿ إن الله يُدخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جَنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ والذين كفروا يَتمتَّعون ويأكُلون كما تأكل الأنعامُ ﴾، أي: في دُنياهم، يَتمتَّعُون بها ويأكلون منها كأكلِ الأنعام، خَضْماً وقَضْماً، ليس لهم هِمَّةٌ إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمنُ يأكُل في مِعًى واحدٍ، والكافرُ يأكُل في سبعة أمعاءٍ»[4].

ثم قال: ﴿ والنار مثوىً لَهم ﴾، أي: يومَ جَزائِهم.

وقولُه: ﴿ وكأيِّن من قريةٍ هي أشدُّ قوةً من قريتِكَ التي أخرجتكَ ﴾، يعني مَكَّة، ﴿ أهلكناهم فلا ناصِرَ لهم ﴾، وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لأهل مَكَّة، في تكذيبهم لرسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو سيِّدُ المرسلين وخاتَم الأنبياء. فإذا كان الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ قد أهلك الأُمَمَ الذين كذَّبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشدَّ قوةً من هؤلاء، فماذا ظَنُّ هؤلاء أن يفعلَ الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثيرٍ منهم العقوبةَ في الدنيا لبركة

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

(٢) في نسخة: ولم آنه عنها.

(٣) تقدم الحديث من غير وجه عند تفسير آية آل عمران ١٥٢، وشرحنا غريبه وخرجناه هنالك.

(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأطعمة ٩/٥٣٦، ومسلم، كتاب الأشربة ٣/١٦٣١.

وُجودِ الرسول نَبيِّ الرحمةِ، فإنَّ العذابَ يُوفَّر على الكافرين به في معادهم، ﴿ يُضاعَفُ لهم العذاب ما كانُوا يستطيعون السمعَ وما كانوا يُبصِرُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ من قريتك التي أخرجتك ﴾، أي: الذين أخرجُوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ لما خرج من مكة إلى الغار، وواراه، فالتفتَ إلى مكة ـ وقال: «أنتِ أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأنت أحبُّ بلاد الله إليَّ، ولو أنَّ المشركين لم يخرجُوني لم أخرُج منكِ». فأعدى الأعداء من عَدَا على الله في حَرَمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول[1] الجاهلية، فأنزل الله على نبيِّه ـ ﷺ ـ: ﴿ وكأين من قرية هي أشدّ قوةً من قَرْيَتِكَ التي أخرجتكَ أهلكناهُم فلا ناصِرَ لهم ﴾[2].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم (١٤) مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥) ﴾

يقولُ: ﴿ أفمن كان على بَيِّنَةٍ من ربِّه ﴾، أي: على بصيرةٍ ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزلَ الله في كتابه من الهُدَى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفِطرة المستقيمة، ﴿ كمن زُيِّن له سوء عمله واتَّبعُوا أهواءهم ﴾، أي: ليس هذا كهذا. كقوله: ﴿ أفمن يعلم أنما أُنزِلَ إليكَ من ربِّك الحقُّ كمن هو أعمى ﴾. وكقوله: ﴿ لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنةِ هم الفائزون ﴾.

ثم قال: ﴿ مثلُ الجنة التي وُعِد المتقون ﴾ ـ قال عكرمة: ﴿ مثل الجنة ﴾، أي: نعتُها. ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾، قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير مُتغيِّر. وقال قتادة، والضحَّاك، وعطاء الخراساني: غير مُنتِنٍ. والعرب تقول: أَسِنَ الماء: إذا تَغيَّر ريحُه.

وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم: ﴿ غير آسن ﴾: يعني الصافي الذي لا كَدَر فيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا وكيعٌ، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنةِ تَفجَّر من جَبَل من مِسْكٍ.

﴿ وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يَتغيَّر طعمُه ﴾، أي: بل في غاية البياضِ والحلاوة والدسُومة. وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوعِ الماشية».

﴿ وأنهارٌ من خَمْر لَذَّةٍ للشاربين ﴾، أي: ليست كريهةَ الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنةَ المنظر والطعم والرائحة والفِعْلِ، ﴿ لا فيها غَولٌ ولا هم عنها يُنزَفون ﴾، ﴿ لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون ﴾، ﴿ بيضاءَ لَذَّة للشاربين ﴾، وفي حديث مرفوع: «لم تَعصِرْها الرجال بأقدامها».

﴿ وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصفًّى ﴾، أي: وهو في غايةِ الصفاءِ، وحُسنِ اللونِ والطعمِ والرِّيح، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بُطون النحل».

---

(١) الذُحُول: الأحقاد، جمع ذَحْل.
(٢) أخرجه أيضاً عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه. الدر المنثور ٧/٤٦٣.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بنِ هارونَ، أخبرنا الجُرَيري، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: «في الجَنَّةِ بحرُ اللبنِ، وبحرُ الماءِ، وبحرُ العَسَلِ، وبحرُ الخمرِ، ثمَّ تَشقق الأنهارُ منها بعد»(١).

ورواه الترمذيُّ في (صِفَةِ الجنَّةِ)، عن محمد بن بَشَّارٍ، عن يزيدَ بن هارونَ، عن سعيدِ بن إياسٍ الجُرَيريِّ، به. وقال: (حَسَنٌ صحيحٌ)(١).

وقال أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثنا أحمدُ بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيد أبو قُدَامة الإياديُّ، حدثنا أبو عِمران الجَوْني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قَيس، عن أبيه قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «هذه الأنهار تَشخُبُ من جَنَّة عدنٍ في جَوْبَة، ثم تَصَدَّعُ بعد أنهاراً»(٢).

وفي الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألُوه الفِرْدَوس، فإنه أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنةِ، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مُصعَبُ بن إبراهيمَ بن حمزَةَ الزُّبَيري، وعبد الله بن الصقر السُكَّري(٤) قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عَيَّاش، عن دَلْهَم بن الأسود (٥[بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المُنتَفِق العُقَيلي، عن أبيه، عن عَمِّه لَقيط بن عامر]٥) - قال دلهم: وحدثنيه أيضاً أبي الأسود، عن عاصم بن لَقِيط أن لَقِيط بنَ عامرٍ خَرَج وافداً إلى رسول الله - ﷺ - قلت: يا رسولَ الله، فَعَلام نَطَّلِعُ من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مُصَفَّى، وأنهار من خَمر ما بها صُدَاع ولا نَدَامة، وأنهار من لبنٍ لم يَتغيَّر طعمُه، وماءٍ غير آسن، وفاكهة لَعَمْرُ إلَهك ما تعلَمُون وخيرٌ من مثله، وأزواجٍ مُطَهَّرة». قلت: يا رسولَ الله، أو لنا فيها أزواجٌ مُصْلِحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تَلَذُّونهن مثلَ لذَّاتكم في الدنيا ويَلَذُّونكم، غير أن لا تَوَالُدَ»(٦).

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوبُ بن عُبَيدٍ، عن يزيدَ بن هارون، أخبرني الجُرَيري، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، عن أَنَس بن مالكٍ قال: لَعلَّكُم تَظنُّون أنَّ أنهار الجَنَّةِ تجري في أُخدُودٍ في الأرض، والله إنها لَتجري سائحةً على وجهِ الأرضِ، حافَاتُها قِبابُ اللؤلؤ، وطِينُها المِسْكُ الأَذْفَرُ(٧).

وقد رواه أبو بكر بـن مَرْدُويه، من حديث مهدي بن حكيم، عن يزيد بن هارُونَ، به مرفوعاً.

وقولُهُ: ﴿ ولهم فيها من كلِّ الثَّمَراتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدعُون فيها بكلِّ فاكهةٍ آمِنين ﴾. وقولُهُ: ﴿ فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجان ﴾.

وقولُهُ: ﴿ ومغفرةٌ من ربهم ﴾، أي: من ذلك كلِّه.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٥، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ٤١/١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والدارمي بإسنادهما إلى أبي قدامة، المسند ٤١٦/٤، وسنن الدارمي، كتاب الرقاق ٢٤٠/٢.
وتَشْخُب: تسيل. والجَوْبَةُ: الحفرة المستديرة الواسعة.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران، ١٠٧ من سورة الكهف، ١١ من سورة المؤمنون، وخرجناه هنالك.

(٤) في المعجم الكبير: العسكري. وهو تحريف. انظر تهذيب الكمال ٢٠٨/٢، ترجمة إبراهيم بن المنذر.

(٥ - ٥) عن مسند الإمام أحمد. وانظر مجمع الزوائد ٣٤٠/١٠.

(٦) المعجم الكبير ٢١١/١٩ - ٢١٤، ومسند الإمام أحمد ١٣/٤ من حديث طويل.

(٧) المسك الأذفر: الجيِّد إلى الغاية.

وقولُهُ: ﴿ كَمَن هو خالدٌ في النارِ ﴾، أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنّة كمن هو خالدٌ في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس مَن هو في الدرجات كمن هو في الدركَات، ﴿ وسُقوا ماءً حميماً ﴾، أي: حارًا شديدَ الحرِّ، لا يُستطاعُ، ﴿ فقطَّع أمعاءهم ﴾، أي: قَطَّع ما في بطُونهم من الأمعاءِ والأحشاءِ، عِياذاً بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلَّةِ فَهْمِهم، حيث كانوا يَجلِسُون إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ ويَستمِعُون كلامه ولا يفهَمُون منه شيئاً، فإذا خَرجُوا من عنده ﴿ قالوا للذين أُوتُوا العلمَ ﴾ من الصحابة: ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾، أي: الساعة، لا يَعقِلون ما يُقال، ولا يَكترِثُون له! قال الله تعالى: ﴿ أولئك الذين طَبَع الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءهم ﴾، أي: فلا فهمٌ صحيحٌ، ولاَ قصدٌ صحيحٌ.

ثم قال: ﴿ والذين اهتدَوا زادهُم هُدًى ﴾، أي: والذين قَصدُوا الهداية وَفَّقهم الله لها فَهداهم إليها، وثَبّتهم عليها وزادَهُم منها، ﴿ وآتاهُم تَقواهم ﴾، أي: ألهَمهم رُشْدَهم.

وقولُهُ: ﴿ فهل يَنظُرون إلا الساعةَ أن تأتِيَهم بغتةً ﴾، أي: وهم غافِلُون عنها، ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾، أي: أماراتُ اقترابها، كقوله تعالى: ﴿ هذا نذيرٌ من النُّذُر الأُولى. أزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾، وكقوله: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾، وقولُهُ: ﴿ أتى أمرُ الله فلا تَستعجِلُوه ﴾، وقولُهُ: ﴿ اقتربَ للناس حسابُهم وهُم في غفلةٍ مُعرِضُون ﴾، فَبَعثةُ رسول الله ـ ﷺ ـ من أشراطِ الساعة، لأنه خاتَمُ الرسُلِ الذي أكمَل الله به الدينَ، وأقام به الحُجَّةَ على العالمين. وقد أخبَر ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأماراتِ الساعة وأشراطِها، وأبانَ عن ذلك وأوضحَهُ بما لم يُؤتَه نبيٌّ قبلَه، كما هو مبسوطٌ في موضعه.

وقال الحسن البصري: بَعثةُ محمد ـ ﷺ ـ من أشراطِ الساعة. وهو كما قال، ولهذا جاء في أسمائه ـ عليه السلام ـ أنه نَبيُّ التوبة، ونبي المَلْحَمَة، والحاشر الذي يُحشَر الناس على قَدَميه، والعاقِب الذي ليس بعدَه نبي[1].

وقال البخاريُّ: حدثنا أحمدُ بن المِقدام، حدثنا فُضَيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم[2]، حدثنا سهلُ بن سعد قال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال بإصبعَيه هكذا، بالوُسطى والتي تَليها: «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتَين»[3].

ثم قال تعالى: ﴿ فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهُم ﴾، أي: فكيفَ للكافرين بالتذكُّر إذا جاءتهم القيامة،

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة الصف ٨/ ٦٤٠ ـ ٦٤١، ومسلم، كتاب الفضائل، ٤/١٨٢٨ ـ ١٨٢٩، والإمام أحمد في مسنده عن أبي موسى ٤/ ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٧، وعن حذيفة ٥/ ٤٠٥.

(٢) في النسخ: حدثنا أبو رجاء. والمثبت عن الصحيح.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة النازعات ٨/ ٦٩١. وقد أخرجه البخاري بإسناده إلى أبي حازم عن أبيه في كتاب الطلاق ٩/ ٤٣٩، وفي كتاب الرقاق ١١/ ٣٤٧.

حيث لا ينفعُهم ذلك. كقوله تعالى: ﴿ يومئذٍ يتذكَّر الإنسانُ وأنَّى له الذكرى ﴾، ﴿ وقالوا آمنَّا به وأنَّى لهم التناوُشُ من مكانٍ بعيدٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ فاعلم أنَّه لا إلَه إلا الله ﴾: هذا إخبار بأنه لا إلَه إلا الله، ولا يتأتَّى كونه آمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «اللهُمَّ اغفِر لي خَطِيئتي وجَهلي، وإسرافِي في أمري، وما أنتَ أعلَمُ به منِّي. اللهُمَّ اغفِرْ لي هَزْلي وجِدِّي، وخَطَئي وعَمْدِي، وكلُّ ذلك عِنْدِي »[(١)]. وفي الصحيح أنه كان يقولُ في آخرِ الصَّلاة: «اللهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررْتُ وما أعلنتُ، وما أسرَفْتُ، وما أنت أعلَمُ به مني، أنت إلَهي لا إلَه إلا أنت»[(٢)].
وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها النَّاسُ، تُوبُوا إلى ربِّكم فإنِّي أستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرَّةً»[(٣)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عاصم الأحول قال: سَمِعتُ عبد الله بن سَرْجِسَ قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأكلتُ معه من طَعامِهِ فقلت: غَفَرَ الله لك يا رسول الله [(٤)][قال: ولَكَ. قلت][(٤)]: أَستغفَرَ لَكَ [رسول الله][(٥)]؟ قال: نَعَم، ولكم. وقرأ: ﴿ واستغفِرْ لذنبِكَ وللمُؤمنين والمؤمناتِ ﴾ ثم نظرت إلى نُغْض[(٦)] كَتِفِه الأيمن ـ أو: كَتِفه الأيسر، شُعبةُ الذي شَكَّ ـ فإذا هو كهيئة الجُمْع[(٦)] عليه الثآليل[(٧)].

ورواه مسلمٌ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من طُرُق، عن عاصم الأحول. به[(٧)].

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلَى: حدثنا مُحرز[(٨)] بنَ عَونٍ، حدثنا عثمان بن مَطَر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نَصِيرَةَ، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «عليكم بلا إلَه إلا الله والاستغفارِ، فأكثِرُوا منهما، فإن إبليسَ قال: أهلكتُ النَّاسَ بالذنُوبِ، وأهلكوني بـ«لا إلَه إلا الله» والاستغفارِ. فلما رأيتُ ذلك أهلكتُهم بالأهواء، فهم يَحسَبُون أنهم مهتدون»[(٨)].

وفي الأثر المرويِّ: «قال إبليسُ: وعزتك وجلالك لا أزالُ أُغويهم ما دامت أرواحُهم في أجسادِهم. فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: وعزَّتي وجَلالي ولا أزال أغفِرُ لهم ما استغفَرُوني»[(٩)].

والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً.

وقولُهُ: ﴿ والله يعلم مُتقلَّبكم ومثواكم ﴾، أي: يعلَمُ تصرُّفكم في نهاركم ومُستَقَرَّكم في ليلكم، كقوله:

---

(١) أخرجه الشيخان في كتاب الدعوات، فتح الباري ١١/١٩٦، ومسلم ٤/٢٠٨٧.
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٧١، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ١/٥٣٢ ـ ٥٣٦.
(٣) أخرجه مسلم بإسناده إلى الأغرّ المُزَني في كتاب الذكر ٤/٢٠٧٥ ـ ٢٠٧٦، والبخاري بنحوه بإسناده إلى أبي هريرة في كتاب الدعوات ١١/١٠١.
(٤-٤) مكانه في المسند: (فقلت).
(٥) ليس في المسند. وبعده في المسند: (قال شُعبة، أو قال له رجل).
(٦) النُّغض: أعلى الكتف. والجُمْع: جُمْعُ الكَفِّ، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها. والثآليل: جمع ثُؤْلُول، وهو بَثْرٌ صَغِيرٌ صُلْبٌ مستديرٌ يظهر على الجلد كالحِمَّصة.
(٧) مسند الإمام أحمد ٥/٨٢، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٢٣ ـ ١٨٢٤، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/١٢٠، والنسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمِزِّيّ ٤/٣٤٩ ـ ٣٥٠، وتفسير الطبري ٢٦/٥٤.
(٨) في النسخ: محمد بن عون، والصواب ما أثبت، وقد تقدم الحديث بسنده عند تفسير الآية ١٣٥ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك، كما أخرجه الحافظ ابن أبي عاصم في كتاب السنة ١/٩ عن محرز بن عون.
(٩) تقدّم عند تفسير الآية ١٣٥ من سورة آل عمران، ١٧ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.

﴿ وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلَمُ ما جَرحتُم بالنهار ﴾. وكقوله: ﴿ وما مِن دابَّةٍ في الأرض إلا على الله رزقُها ويعلَمُ مستقرَّها ومستودعَها كلٌ في كتابٍ مبينٍ ﴾. وهذا القول إليه ذهب ابن جُرَيج، وهو اختيارُ ابن جرير. وعن ابن عباس: مُتقلَّبكُم في الدنيا، ومَثْواكم في الآخرة. وقال السُّديُّ: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قُبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تَمَنَّوا شرعية الجهاد، فلما فَرَضه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأمر به نَكَل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين قِيلَ لهم كُفُّوا أيديَكُم وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاة فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريق منهم يخشَون الناس كخشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً وقالوا ربَّنا لم كتبتَ علينا القتال لولا أخَّرتنا إلى أجلٍ قريبٍ قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تُظلَمُون فتيلاً ﴾.

وقال هاهنا: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سُورةٌ ﴾، أي: مشتملة على حُكم القتال، ولهذا قال: ﴿ فإذا أنزلت سورةٌ محكَمَةٌ وذُكِر فيها القتالُ رأيتَ الذينَ في قُلوبهم مَرضٌ ينظرون إليكَ نَظَرَ المغشيِّ عليه مِن الموتِ ﴾، أي: من فزَعهم ورُعبهم وجُبنهم من لقاءِ الأعداءِ. ثم قال مُشجِّعاً لهم: ﴿فأولى لهم ✽ طاعةٌ وقولٌ معروفٌ ﴾، أي: وكان الأولى بهم أن يسمَعُوا ويُطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿ فإذا عَزَم الأمرُ ﴾، أي: جَدَّ الحال، وحَضَر القتال، ﴿ فلو صَدَقُوا الله ﴾، أي: أخلصُوا له النيةَ، ﴿ لكان خيراً لهم ﴾.

وقولُهُ: ﴿ فهل عَسَيتم إن توليتُم ﴾، أي: عن الجهاد ونَكَلتُم عنه، ﴿ أن تُفسِدُوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامَكم ﴾، أي: تعودُوا إلى ما كنتم فيه من الجاهليةِ الجهلاءِ، تسفِكُون الدماءَ، وتقطَعُون الأرحامَ. ولهذا قال: ﴿ أولئك الذي لَعَنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارَهُم ﴾، وهذا نهي عن الإفسادِ في الأرض عُموماً، وعن قطع الأرحام خُصُوصاً، بل قد أمر تعالى بالإصلاحِ في الأرضِ وصِلَة الأرحام، وهو الإحسانُ إلى الأقاربِ في المَقال والفِعال وبَذْلِ الأموالِ. وقد وردت الأحاديثُ الصِّحاح والحسان بذلك عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ من طُرُقٍ عَديدةٍ، ووجُوهٍ كثيرةٍ:

قال البخاريُّ: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سَعيد بن يَسار، عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «خَلَق الله الخلقَ، فلما فَرَغ منه قامت الرحم فأخذت، بِحَقْوِ[1] الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقال: مَهْ! فقالت: هذا مقامُ العائذِ بكَ من القطيعةِ. فقال: ألا تَرْضَين أن أصِلَ من وَصَلَك، وأقطعَ من قَطَعَك؟ قالت: بلى. قال: فذاكِ. قال أبو هُريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فهل عَسَيتُم إن تولَّيتم أن تُفسِدُوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامَكُم ﴾.

ثم رواه البخاريُّ من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مُزَرِّد، به، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «واقرءوا إن

(١) في بعض النسخ: بِحَقْوَى. ويقول ابن حجر: إنها رواية الطبري. والحَقْوُ: مَعْقِدُ الإزار وهو الموضع الذي يستجار به، لأنه من أحق ما يُحامى عنه ويُدفَعُ.

شتَّتم: ﴿ فهل عَسَيتُم إن تولَّيتم أن تُفسِدُوا في الأرض وتُقطِّعُوا أرحامَكُم﴾. ورواه مُسلِمٌ من حديث معاوية بن أبي مُزَرِّد به[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ، أخبرنا عُيَينةُ بنُ عبد الرحمن بن جَوشَنٍ، عن أبيه، عن أبي بَكْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من ذنبٍ أحرَى أن يُعجِّل الله عقوبَتَهُ في الدنيا مع ما يَدَّخِرُ لصاحبه في الآخرة، من البَغي وقَطيعةِ الرَّحِم»[٢].

رواه أبو داود والترمذيُّ وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَية ـ به. وقال الترمذيُّ: هذا حديث صحيحٌ[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المَرئِيُّ، حدثنا محمد بنُ عَبَّاد المخزوميّ، عن ثَوبان، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «من سَرَّه النَّساءُ في الأجل، والزيادةُ في الرزقِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[٣]. تفرَّد به أحمدُ، وله شاهدٌ في الصَّحيح.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حَجَّاج بن أرطاةَ، عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي ذَوِي أرحام، أَصِلُ ويقطَعُون، وأعفو ويظلِمُون، وأُحسنُ ويُسيئُون، أفأكافِئُهم؟ قال: «لا، إذن تُترَكُون جميعاً، ولكن خُذ بالفَضْلِ وصِلْهم، فإنَّه لن يزالَ معك ظهيرٌ من الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ ما كنتَ على ذلِكَ»[٤].

تَفَرَّد به من هذا الوجهِ، وله شاهدٌ من وجهٍ آخَر.

وقال أحمَدُ: حدثنا يعلى، حدثنا فِطْرٌ، عن مُجاهِدٍ، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الرحم مُعلَّقَةٌ بالعرش، وليس الواصلُ بالمكافِىء، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَت رَحِمه وَصَلها»[٥]، رواه البخاري[٥].

وقال أحمد: حدثنا بَهزٌ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبي ثُمَامَة الثقفي، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تُوضَعُ الرَّحِمُ يوم القيامة لها حُجْنَة كحُجنَة المِغزَلِ، تتكلم بِلِسانٍ طَلَقٍ ذُلَقٍ، فَتَصِلُ مَن وَصَلها وتقطَعُ من قَطَعها»[٦].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سفيانُ، حدثنا عَمرو، عن أبي قابوسَ، عن عبد الله بن عَمرو ـ يَبْلُغُ به النَّبي ـ ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحَمُهم الرحمن، ارحمُوا أهل الأرض يرحَمْكم أهل السماء، والرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِن الرحمن، مَن وَصَلها وصلَتْه، ومن قَطَعها بَتَّتْه»[٧].

وقد رواه أبو داودَ والترمذيُّ، من حديث سُفيانَ بنِ عُيَينةَ، عن عَمرو بن دينارٍ. وهذا هو الذي يَرْوِي بتَسلسُلِ الأَوَّلِيَّة، وقال الترمذيُّ: (حَسَنٌ صَحيح)[٧].

(١) فتح الباري، تفسير سورة محمد ـ ﷺ ـ ٨/٥٧٩ ـ ٥٨٠، ومسلم، كتاب البرّ ٤/١٩٨١.
(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٣١ من سورة المائدة، ٢٣ من سورة يونس، ٩٠ من سورة النحل، وخرجناه هنالك.
(٣) مسند أحمد ٥/٢٧٩. والنَّساءُ: التأخير.
(٤) المسند ٢/١٨١.
(٥) مسند أحمد ٢/١٦٣، وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٢٣.
(٦) مسند أحمد ٢/١٨٩. والحُجْنَةُ: صُنّارة المِغْزَل، وهي المُعْوجَّة في رأسه. ولسانٌ طَلَقٌ ذُلَقٌ: فصيح. ويقال أيضاً: طَلِقٌ ذَلِقٌ، وطُلُق ذُلُق، وطَلِيق ذَلِيق.
(٧) مسند أحمد ٢/١٦٠، وسُنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٨٥، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ٨/١١١. والشُّجنَةُ في الأصل: شُعبَةٌ في =

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيد بن هارون، حَدَّثنا هشامُ الدَّستوائيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ: أن أباه حَدَّثه: أنه دخل على عهد الرحمن بن عوف وهو مريضٌ، فقال له عبدُ الرحمن: وَصَلتك رَحِمٌ، إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنا الرحمنُ، خَلَقتُ الرَّحِم وشَقَقتُ لها من اسمِي، فَمَن يَصِلُها أَصِلُه، ومن يقطَعُها أقطَعُه فَأَبتُّه ـ أو قال: من بَتَّها أَبتُّه»[١].

تَفَرَّد به من هذا الوجه. ورواه أحمدُ أيضاً من حديث الزُهريِّ، عن أبي سَلَمة، عن الرداد ـ أو أبي الرَّدَّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف[٢]، به. ورواه أبو داود والترمذي، من رواية أبي سَلَمة، عن أبيه[٢]. والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال الطَّبَراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن يونس، عن الحجاح بن يونس، عن الحَجّاج بن الفُرافِصَة، عن أبي عُمَر البصري، عن سَلْمانَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، فما تعارَفَ منها ائتلفَ، وما تناكَرَ منها اختلفَ»[٣].

وبه قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا ظَهَر القولُ، وخُزِن العمَلُ، وائتلفت الألسنةُ، وتباغضتِ القلوبُ، وقَطَع كلُّ ذي رَحِمٍ رَحِمَه، فعند ذلك لَعَنهم الله فأصمَّهم وأعمَى أبصارَهم»[٣].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً بتدبُّر القرآن وتفهُّمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾، أي: بل على قلوبٍ أقفالُها، فهي مُطْبَقَة لا يخلصُ إليها شيءٌ من معانيه.

قال ابنُ جرير: حدثنا بشر، [قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيدٌ قال]: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً: ﴿ أفلا يَتدبَّرون القرآنَ أم على قلوبٍ أقفالُها ﴾، فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل عليها أقفالُها حتى يكونَ الله يَفتحُها أو يُفرِّجُها. فما زال الشابُّ في نفسِ عُمر ـ رضي الله عنه ـ حتى وُلِّي، فاستعان به[٤].

ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ ارتدُّوا على أدبارِهم ﴾، أي: فارقُوا الإيمانَ ورجعُوا إلى الكفر، ﴿ من بعد ما

= غُصنٍ من غُصُون كثيرة. والمراد بها هنا: قرابةٌ مشتبكة.
وتَسَلْسُلَ الأوليَّةِ هو: ما تتابعت فيه الرواية على الكيفية التالية، وهي أن يقول كلُّ راوٍ لتلميذه: حَدَّثني فلان، وهو اول حديث سمعته منه. ولا يشترط أن يستمرَّ التسلسل في وسط السند، كحديث الرحمة الذي معنا، فقد انتهى التسلسل فيه إلى عبد الله بن عَمْرو. انظر قواعد التحديث للقاسمي ١٢٦ ـ ١٢٧، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ٣٨١.

(١) مسند أحمد ١/١٩١.
(٢) مسند أحمد ١/١٩٤، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/١٣٢، وعارضة الأحوذي، أبواب البرّ ٨/٩٩ ـ ١٠٠.
(٣) المعجم الكبير ٦/٢٦٣ ـ ٢٦٤. وانظر مجمع الزوائد ٧/٢٨٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٦/٥٨، وما بين القوسين عنه.

تبيَّن لهم الهُدى الشيطانُ سَوَّل لهم ﴾، أي: زيَّن لهم ذلك وحسَّنه، ﴿ وأملى لَهم ﴾، أي: غرَّهم وخدَعَهم، ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كَرِهُوا ما نزَّل الله سَنُطِيعكم في بعض الأمر ﴾، أي: مالئوهم وناصحُوهم في الباطِن على الباطِل، وهذا شأنُ المنافِقين يُظهِرون خلافَ ما يُبطِنون، ولهذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ والله يعلمُ إسرارَهُم ﴾، أي: ما يُسِرُّون وما يُخفُون، الله مُطَّلِعٌ عليه وعالِمٌ به، كقوله: ﴿ والله يكتبُ ما يُبيِّتون ﴾.

ثم قال: ﴿ فكيفَ إذا توفَّتهم الملائكةُ يَضرِبُون وُجوهَهُم وأدبارَهُم ﴾، أي: كيف حالُهم إذا جاءتهم الملائكةُ لِقَبْضِ أرواحِهم وتَعَصَّت الأرواحُ في أجسادِهم، واستخرجتها الملائكة بالعُنفِ والقَهْرِ والضَّرْب، كما قال: ﴿ ولو تَرَى إذ يَتَوفَّى الذين كفروا الملائكةَ يَضرِبُون وجوهَهُم وأدبارَهُم ﴾ . . . الآية، وقال: ﴿ ولو تَرَى إذ الظالمون في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ باسِطُوا أَيْديهم ﴾، أي: بالضرب ﴿ أَخرِجُوا أنفُسَكم اليومَ تُجزَون عذابَ الهُون بما كنتم تَقولُون على الله غير الحقِّ وكنتم عن آياته تَستكبِرُون ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذلك بأنهم اتَّبعُوا ما أَسخَطَ الله وكَرِهُوا رِضوانه فأَحبَطَ أعمالَهُم ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ أم حَسِبَ الذين في قُلوبِهم مرضٌ أن لَن يُخرِجَ الله أضغانَهم ﴾، أي: أيعتقدُ المنافقون أن الله لا يكشِفُ أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سَيُوضِّح أمرهم ويُجلِّيه حتى يَفهَمَهُم ذَوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سُورةَ [براءة]، فبيَّن فيها فضائحهم وما يَعتمِدُونه من الأفعال الدالَّة على نِفاقِهم، ولهذا إنما كانت تُسمَّى الفاضحةَ. والأضغانُ: جَمْعُ ضِغْنٍ، وهو ما في النُّفوسِ من الحَسَد والحِقْدِ للإسلام وأهلِه والقائمين بنَصْره.

وقولُهُ: ﴿ ولَو نَشاءُ لأريناكَهُمْ فَلَعرفتَهُم بسيماهُم ﴾ يقول تعالى: ولو نشاءُ ـ يا محمدُ ـ لأريناكَ أشخاصَهم، فعرفتهم عِياناً، ولكن لم يفعل تعالى في جميع المنافقين سَتراً منه على خَلْقِهِ، وحَمْلاً للأمور على ظاهِرِ السلامةِ، وردًّا للسرائرِ إلى عالِمها، ﴿ ولَتعرفنَّهم في لَحْنِ القولِ ﴾، أي: فيما يبدُو من كلامهم الدال على مقاصِدِهم، يفهم المتكلِّمُ من أيِّ الحزبين هو بمعاني كلامِهِ وفحواه، وهو المرادُ من لَحْنِ القولِ، كما قال أمير المؤمنين عثمانُ بنُ عفان ـ رضي الله عنه ـ: «ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صَفَحاتِ وَجْهِهِ، وفَلَتَاتِ لِسَانِهِ». وفي الحديث: «ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا كساه الله جلبابها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ»[1]. وقد ذكرنا ما يُستَدَلُّ به على نفاقِ الرجُلِ. وتكلَّمنا على نفاقِ العَمَلِ والاعتقادِ في أول (شرح البخاري)، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد وَرَد في الحديث تعيينُ جماعةٍ من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن سَلَمة، عن عِياض بن عياض، عن أبيه، عن أبي مسعود عُقبَة بن عَمْرو ـ رضي الله عنه ـ قال: خَطَبَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ خطبةً فحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: «إنَّ منكم منافِقين، فمن سَمَّيتُ فَلْيقُم. ثم قال: قُم يا فلان، قُم يا فلان، قُم يا فلان ـ حتى سَمَّى ستةً وثلاثين رجلاً ـ ثم قال: إن فيكم

---

(١) أخرجه الدارقطني في المعجم الكبير بإسناده إلى جندب بن سفيان ٢/١٧١. وسيأتي عند تفسير الآية ٢٩ من سورة الفتح مسنداً. وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٢٥.

ـ أو: منكم ـ فاتَّقُوا الله». قال: فمرَّ عُمَر بِرجُلٍ ممن سُمِّي مُقنَّعٍ قد كان يعرفه، فقال: مالك؟ فَحدَّثه بما قال رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: بعداً لك سائِرَ اليوم»(١).

وقولُهُ: ﴿ولنبلوَنَّكم﴾، أي: ولنختبرنَّكم بالأوامرِ والنواهِي، ﴿حتى نعلم المجاهِدين منكم والصابِرينَ ونبلُوَا أخباركُم﴾. وليس في تَقدُّمِ علم الله تعالى بما هو كائنٌ أنه سيكونُ شكٌّ ولا رَيْبٌ، فالمراد: حتى نعلَم وُقوعَه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلاَّ لِنعلَمَ، أي: لِنَرى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

يُخبر تعالى عمن كَفَرَ وصَدَّ عن سبيل الله، وخالَفَ الرسولَ وشاقَّه، وارتدَّ عن الإيمان من بعد ما تَبيَّن له الهُدى: أنه لن يَضُرَّ الله شيئاً، وإنما يضرُّ نفسَه ويَخسَرُها يوم مَعادِها، وسَيُحبِطُ الله عَمَله فلا يُثيبه على سالِفِ ما تقدَّم من عَمَلِه الذي عَقَّبه بردَّته مِثقالَ بعوضةٍ من خيرٍ، بل يُحْبطه ويمحَقُه بالكُليَّة، كما أن الحسناتِ يُذهِبنَ السيئاتِ.

وقد قال الإمامُ محمدُ بن نَصر المَرْوَزيُّ في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قُدامَةَ، حَدَّثنا وكيعٌ، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحابُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يَظنُّون أنه لا يَضُرُّ مع (لا إلَه إلا الله) ذنبٌ، كما لا ينفَعُ مع الشركِ عملٌ، فنزلت: ﴿أطيعُوا الله وأطيعُوا الرسُولَ ولا تُبطِلُوا أعمالَكم﴾، فخافُوا أن يُبطِلَ الذنبُ العَملَ.

ثم رَوَى من طريقِ عبد الله بن المبارك: أخبرني بُكَير بن معروف، عن مقاتِل بن حَيَّان، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: كنا ـ معشَرَ أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ نرى أنه ليس شيءٌ من الحسناتِ إلا مقبولٌ حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولاَ تُبطِلُوا أعمالكم﴾. فقلنا: ما هذا الذي يُبطِل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائرُ الموجباتُ والفواحش، حتى نَزَلَت: ﴿إن الله لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فلما نزلت كَفَفنا عن القولِ في ذلك، فكُنَّا نخاف على مَنْ أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يُصِبها.

ثم أمر تعالى عبادَه المؤمنين بطاعته وطاعَة رسُوله التي هي سعادتُهم في الدنيا والآخرة، ونهاهُم عن الارتدادِ الذي هو مُبطِلٌ للأعمالِ، ولهذا قال: ﴿ولا تُبطِلُوا أعمالَكُم﴾، أي: بالرِدَّة. ولهذا قال بعدها: ﴿إن الذين كَفَرُوا وصَدُّوا عن سبيلِ الله ثم ماتُوا وهُم كفارٌ فلن يَغفِرَ الله لهم﴾، كقوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء﴾. . . الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فلا تَهِنُوا﴾، أي: لا تَضعُفُوا عن الأعداء، ﴿وتَدعُوا إلى السَّلْم﴾، أي: المُهادَنةِ والمُسالَمةِ وَوَضْعِ القتالِ بينكم وبين الكفار في حال قُوَّتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُم، ولهذا قال: ﴿فلا تَهِنُوا وتدعُوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾، أي: في حال عُلُوِّكم على عدوِّكم، فأما إذا كان الكفارُ فيهم قوَّةٌ وكثرةٌ بالنِّسبة إلى جَميعِ المسلمين، ورأى الإمامُ في المعاهَدَةِ والمهادَنةِ مصلحةً، فله أن يفعلَ ذلك، كما فَعَل

(١) مسند أحمد ٥/٢٧٣.

رسول الله ـ ﷺ ـ حين صدّه كفارُ قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووَضْعِ الحرب بينهم وبينه عَشْرَ سنين فأجابهم إلى ذلك.

وقولُهُ: ﴿ والله مَعَكُم ﴾: فيه بِشارةٌ عظيمة بالنصر والظَفَر على الأعداء، ﴿ ولن يَتِرَكُم أعمالَكُم ﴾، أي: ولن يُحبِطَها ويُبطِلَها ويَسْلُبكم إيّاها، بل يُوَفِّيكم ثوابَها ولا يَنقُصكُم منها شيئاً.

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتَهويناً لشأنها: ﴿ إنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ ﴾، أي: حاصِلُها ذلك إلا ما كان منها لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولهذا قال: ﴿ وإن تؤمنوا وتتَّقوا يُؤتِكُم أُجُورَكم ولا يَسألكُمْ أموالَكُم ﴾، أي: هو غَنِيٌّ عنكم لا يطلُب منكم شيئاً، وإنما فَرَض عليكم الصدقاتِ من الأموالِ مواساةً لإخوانِكم الفُقَراء، ليعودَ نفعُ ذلك عليكم، ويرجعَ ثوابُه إليكم.

ثم قال: ﴿ إن يسألكموها فَيُحفِكُم تبخَلُوا ﴾، أي: يُجْهِدْكم[1] تبخلوا: ﴿ ويُخرِجِ أضغانَكُم ﴾، قال قتادة: «قد علم الله أن في إخراجِ الأموالِ إخراجَ الأضغانِ»[2]. وصَدَق قتادةُ، فإن المالَ محبوبٌ، ولا يُصرَفُ إلا فيما هو أحبُّ إلى الشخصِ منه.

وقولُهُ: ﴿ ها أنتم هؤلاءِ تُدعَون لِتُنفِقُوا في سبيلِ الله فَمِنكُم مَن يبخَلُ ﴾، أي: لا يُجيبُ إلى ذلِكَ، ﴿ ومَن يبخَلْ فإنما يَبْخَلُ عن نفسه ﴾، أي: إنما نَقَصَ نفسَه من الأجر، وإنما يعودُ وبالُ ذلك عليه، ﴿ والله الغَنِيُّ ﴾، أي: عن كلِّ ما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه دائماً. ولهذا قال: ﴿ وأنتمِ الفقراءُ ﴾، أي: بالذاتِ إليه. فوصفُه بالغِنى وصفٌ لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكُّون عنه.

وقولُهُ: ﴿ وإن تتولَّوا ﴾، أي: عن طاعته واتِّباع شَرْعه ﴿ يَستبدِل قوماً غيرَكُم ثم لا يكونُوا أمثالَكم ﴾؛ أي: ولكن يكونون سامعين مُطيعين له ولأوامره.

وقال ابنُ أبي حاتم، وابنُ جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابنُ وَهبٍ، أخبرني مُسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا هذه الآيةَ: ﴿ وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾، قالوا: يا رسولَ الله، من هؤلاء الذين إن تَوَلَّينا استبدَلَ بنا ثم لا يكونُوا أمثالَنا؟ قال: فضرَبَ بيدِه على كَتِفِ سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومُه، ولو كان الدينُ عند الثريا لتناوله رجالٌ من الفرس»[3].

تَفَرَّد به مسلمُ بنُ خالدٍ الزَّنجيّ، ورواه عنه غيرُ واحدٍ، وقد تكلَّم فيه بعضُ الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة محمد ـ ﷺ ـ

---

(١) في النسخ: يحوجكم. وهو بعيد. والمثبت عن تفسير الطبري ٢٦/٦٥، والبغوي ٤/١٨٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر. الدر المنثور ٧/٥٠٥.

(٣) وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير بإسناده أبا العلاء ١٢/١٤٥ ـ ١٤٦، والبيهقي في الدلائل ٦/٣٣٤. وأخرجه كذلك عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والطبري ٢٦/٦٦، وانظر الدر المنثور ٧/٥٠٦.

تفسير

سُورَةُ الفَتْحِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا شعبةُ، عن معاويةَ بن قُرَّةَ قال: سَمِعتُ عبد الله بن مُغَفَّلٍ يقول: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عام الفتحِ في مَسيرِه سورةَ الفَتح على راحِلَته فَرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أني أكرهُ أن يجتَمع الناس علينا لَحكَيتُ لكم قراءَتَه[1]. أخرجاهُ من حَديث شُعبةَ به[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

نَزلت هذه السورةُ الكريمةُ لما رَجَع رسول الله ـ ﷺ ـ من الحُدَيبية في ذي القِعدة من سنة ستٍّ من الهجرة، حين صَدَّه المشركُون عن الوصولِ إلى المسجدِ الحرام ليقضيَ عُمرتَه فيه، وحالُوا بينه وبين ذلك، ثم مالُوا إلى المصالَحةِ والمهادَنةِ، وأن يرجعَ عامَه هذا ثم يأتي من قَابلٍ، فأجابهم إلى ذلك على تَكرُّهٍ من جماعةٍ من الصحابة، منهم عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كما سيأتي تفصيلُه في موضعه من تفسير هذه السورة، إن شاء الله. فلما نَحر هَدْيَه حيثُ أُحصِرَ ورجَع، أنزلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه السورةَ فيما كان من أمْرِه وأمْرِهم، وجعل ذلك الصلحَ فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمرُ إليه، كما رُوِي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أو غيره أنه قال: إنكم تعدُّون الفتحَ فتحَ مكَّةَ، ونحن نعدُّ الفتحَ صُلحَ الحُدَيبيةِ.

وقال الأعمشُ، عن أبي سُفيانَ، عن جابرٍ قال: ما كنا نعدُّ الفتحَ إلا يومَ الحُدَيبيةِ[2].

وقال البخاريُّ: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن البَراءِ قال: تَعُدُّون أنتم

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٤، وفتح الباري، تفسير سورة الفتح ٨/٥٨٣، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٤٧. وقد تقدم الحديث أول التفسير في كتاب فضائل القرآن. وذكر ابن كثير هنالك تفسير البخاري للترجيع.

(٢) أخرجه الطبري ٢٦/٧٠.

الفتحَ فتحَ مكَّةَ، وقد كان فتحُ مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحُدَيبية، كُنَّا مَعَ رسول الله - ﷺ - أربعَ عَشرة مائة، والحُدَيبيةُ بئرٌ، فنزحناها فلم نَتْرُكْ فيها قطرة، فبلغ ذلكَ رسولَ الله - ﷺ - فأتاها فجلسَ على شَفيرِها، ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ فتوضَّأ، ثم تَمَضْمَضَ ودعَا، ثم صَبَّه فيها، فتركناها غيرَ بعيدٍ، ثم إنها أصدرَتْنا ما شِئنا نحنُ ورَكائبُنا[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو نُوح؛ حدثنا مالكُ بن أنس، عن زيدِ بن أسلَم، عن أبيه، عن عُمَر بن الخطاب قال: كُنَّا مع رسولِ الله - ﷺ - في سَفرٍ، قال: فسألتُه عن شيءٍ - ثلاث مرات - فلم يَرُدَّ عليَّ، قال فقلتُ لنفسي: ثكلتكَ أُمُّكَ يا ابنَ الخطاب، نَزَرْتَ[2] رسولَ الله - ﷺ - ثلاث مرَّات فلم يَرُدَّ عليك؟ قال: فَركِبتُ راحلتي فَتَقدَّمتُ مخافَةَ أن يكون نزل فِيَّ شيءٌ، قال: فإذا أنا بمنادٍ: يا عُمَر. قال: فرجعتُ وأنا أظنُّ أنه نَزَل فِيَّ شيءٌ، قال: فقال النبيُّ - ﷺ -: «نَزَلت» عليَّ الليلةَ سورةٌ هي أحبُّ إليَّ مِن الدُّنيا وما فيها: ﴿ إنَّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً ۞ لِيغفِرَ لك الله ما تَقَدَّم من ذَنبِكَ وما تأخَّرَ﴾[3].

وَرواه البخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ من طُرُقٍ، عن مالك رحمه الله[3]. وقال علي بن المَدِيني: هذا إسنادٌ مَدِينيٌّ لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: نزلت على النبيِّ - ﷺ -: ﴿ ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخَّرَ ﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيبية، قال النبيُّ - ﷺ -: «لقد أنزلت عليَّ آية أحبُّ إليَّ مما على الأرض». ثم قرأها عليهم النبيُّ - ﷺ - فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبيَّ الله بيَّن الله - عزَّ وجلَّ - ما يُفعَلُ بك، فماذا يُفعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿ فوزاً عظيماً ﴾. أخرجاه في الصحيحَين من رواية قتادَةَ به[4].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثنا مُجَمِّع بنُ يعقوب قال: سمعتُ أبي يحدث عن عَمِّه عبد الرحمن بن يزيدَ الأنصاري، عن عمه مُجَمِّع بن جارية الأنصاري - وكان أحدَ القُرَّاء الذين قرَءُوا القرآن - قال: شهدنا الحُدَيبية فلما انصرفنا عنها إذا الناسُ يُنفِرُونَ[5] الأباعِرَ، فقال الناسُ بعضُهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أُوحِيَ إلى رسولِ الله - ﷺ -. فخرجنا مع الناس نُوجِفُ، فإذا رسولُ الله - ﷺ - على راحلته عند كُرَاعِ الغَمِيم[6]، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾، قال: فقال رجلٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ -: أيْ رسولَ الله، وَفتحٌ هو؟ قال: إيْ والذي نفسُ محمدٍ بيَدِهِ، إنه لفتحٌ. فَقُسِّمت خيبرُ على أهلِ الحديبية لم يدخل معهم فيها أحدٌ إلاَّ من شهد الحُدَيبية؛ فَقَسَّمها رسولُ الله - ﷺ - على ثمانيةَ عشرَ سهماً، وكان الجيشُ ألفاً وخمسمائةِ فارسٍ، فأعطى الفارسَ سَهْمَين، وأعطى الراجل سهماً[7].

رواه أبو داودَ في الجهاد عن محمدِ بن عيسى، عن مُجَمِّعِ بن يعقوبَ، به[7].

---

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٤٤١/٧. وأصْدرتنا: رجعنا عنها وقد رَوينا.
(٢) أي: ألححْتَ عليه.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣١/١. وفتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٥٨/٩، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الفتح ١٤٧/١٢ - ١٤٩. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ٦/٨.
(٤) مسند أحمد ١٩٧/٣.
(٥) أنْفَرَ الدابة: جعلها نافرةً. وفي سنن أبي داود: يَهُزُّون الأباعر: أي يحرّكون رواحلهم والمعنى أنهم يدفعونها للسير.
(٦) كُرَاع الغَمِيم: موضع بالحجاز بين مكة والمدينة.
(٧) مسند الإمام أحمد ٤٢٠/٣، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٧٦/٣.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا أبو بحرٍ، حدثنا شعبةُ، حدثنا جامعُ بن شدَّادٍ، عن عبد الرحمن بن أبي عَلقمَةَ قال: سَمِعتُ عبدَ الله بن مسعودٍ يقول: لما أقبلنا من الحُدَيبية أعرَسْنا فنِمنا، فلم نَستيقِظ إلَّا بالشمس قد طَلَعت، فاستيقظنا ورسولُ الله ـ ﷺ ـ نائمٌ ـ قال: فقلنا: اهضِبُوا[1]. فاستيقظ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: افعلُوا كما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي. قال: وفَقَدنا ناقةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فطلبناها فوجدناها قد تَعلَّق خِطَامُها[2] بشجرةٍ، فأتيته بها فرَكِب، فبينا نحن نَسيرُ إذ أتاه الوحيُ، قال: وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فلما سُرِّي عنه أخبرنا أنه أُنزِلَ عليه: ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾[3].

وقد رَوَاه أحمدُ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ، من غير وجهٍ، عن جامع بن شدَّادٍ، به[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيان، عن زياد بن عِلاَقَةَ قال: سمعتُ المغيرةَ بن شعبة يقول: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يُصَلِّي حتى تَرِمَ قَدَماه، فقيل له: أليسَ قد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[4]؟

أخرجاه وبقيةُ الجماعَة إلا أبا داود، من حديث زيادٍ، به[4].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هارونُ بنُ معروفٍ، حدثنا ابنُ وهبٍ، حدثني أبو صَخْرٍ، عن ابن قُسَيطٍ، عن عُروةَ بن الزبير، عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا صلَّى قامَ حتى تَتَفطَّر رجلاه، فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، أتصنَعُ هذا وقد غَفَر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشةُ، أفلا أكون عبداً شكوراً»[5]؟!

أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا عبد الله بن عَون الخرَّاز ـ وكان ثقةً بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر، حدثنا مِسْعَرٌ، عن قتادةَ، عن أنسٍ، قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى تورَّمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فَقِيلَ له: أليسَ قد غَفَر الله لكَ ما تقدَّم من ذنْبكَ وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شَكُوراً». غريبٌ من هذا الوجه[6].

فقولُهُ: ﴿ إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾، أي: بَيِّناً ظاهراً، والمراد به صلحُ الحُدَيبية، فإنه حَصَل بسببه خيرٌ جزيلٌ، وآمن الناسُ واجتمع بعضُهم ببعض، وتكلَّم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلمُ النافعُ والإيمان.

وقولُهُ: ﴿ ليغفِرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ﴾، هذا من خصائصه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ التي لا يُشارِكه فيها غيره. وليس في حديث صحيحٍ في ثوابِ الأعمالِ لغيرِهِ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريفٌ عظيمٌ لرسول الله ـ ﷺ ـ وهو ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ في جميع أُموره على الطاعة والبرِّ

---

(١) وردت هذه الكلمة محرفة في النسخ وفي تفسير الطبري. وهضب في الحديث وأهضب: اندفع فيه، كرهوا أن يوقظوه، فأرادوا أن يستيقظ بكلامهم.

(٢) الخِطَام: الزمام.

(٣) تفسير الطبري ٢٦/٦٩، ومسند أحمد ١/٤٦٤، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٢٢، وأخرجه النسائي في كتاب السِّيَر من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٧/٧٧ـ٧٨.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٢٥٥، وفتح الباري، تفسير سورة الفتح ٨/٥٨٤، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٧١ـ٢١٧٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/٢٠٥، والنسائي، كتاب قيام الليل ٣/٢١٩، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ١/٤٥٦.

(٥) مسند أحمد ٦/١١٥. ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٧٢.

(٦) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣/٢٢٢ عن عبد الله بن عون، به. وانظر مجمع الزوائد ٢/٢٧١

والاستقامة التي لم يَنَلْها بَشَرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكملُ البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوعَ خلقِ الله لله، وأشدَّهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقةُ: «حَبَسها حابسُ الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يُعظِّمون به حرُماتِ الله إلا أجبتُهم إليها»[1]. فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصُّلح، قال الله له: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ويتمَّ نعمتَه عليك﴾، أي: في الدنيا والآخرة ﴿ويهديَك صراطاً مستقيماً﴾، أي: بما يشرعُه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وينصرَك الله نصراً عزيزاً﴾، أي: بسبب خُضوعك لأمر الله يرفعُك الله وينصرُك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعه الله»[2]. وعن عمرَ بن الخطاب أنه قال: «ما عاقبتَ أحداً عصى الله تعالى فيك بمثلِ أن تُطيعَ الله فيه».

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ
عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾

يقولُ تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينةَ﴾، أي: جعل الطُّمأنينةَ. قاله ابنُ عباس، وعنه: الرحمة[3]. وقال قتادةُ: الوقار في قُلوب المؤمنين. وهم الصحابةُ يومَ الحُدَيبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادُوا لحُكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبُهم بذلك واستقرَّت زادَهم الله إيماناً مع إيمانهم. وقد استدلَّ بها البخاريُّ وغيرُه من الأئمة على تفاضُل الإيمانِ في القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال: ﴿ولله جنودُ السموات والأرض﴾، أي: ولو أرسلَ عليهم مَلَكاً واحداً لأباد خَضْراءهم، ولكنه تعالى شَرَع لعباده المؤمنين الجهادَ والقتالَ، لما له في ذلك من الحكمةِ البالغةِ والحجَّةِ القاطعةِ، والبراهينِ الدامغةِ، ولهذا قال: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ ثم قال تعالى: ﴿ليُدخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها﴾، وقد تقدَّم حديث أنس حين قالوا: هنيئاً لك يا رسولَ الله، هذا لَكَ فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ليُدخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿ويُكفِّر عنهم سيئاتِهم﴾ أي: خطاياهُم وذنوبَهم، فلا يُعاقِبهم عليها، بل يعفو ويصفَحُ ويغفِرُ، ويسترُ ويرحَم ويشكُر، ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾. كقوله: ﴿فمن زُحزِحَ عن النار وأُدخِل الجنةَ فقد فاز وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾.

وقولُه: ﴿ويُعذِّب المنافقين والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ الظانِّين بالله ظنَّ السَّوء﴾، أي: يَتَّهِمُون الله في حُكمِه، ويظنُّون بالرسول وأصحابه أن يُقتَلُوا ويَذهَبُوا بالكُلِّية، ولهذا قال: ﴿عليهم دائرةُ السَّوء

(١) سيأتي الحديث بطوله عند تفسير الآية ٢٨ من هذه السورة.

(٢) تقدم عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الشورى، وخرجناه هنالك.

(٣) أخرجه الطبري ٢٦/٧٢، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل. الدر المنثور ٧/٥١٤.

وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين: ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾، أي: على الخلق، ﴿ومبشراً﴾، أي: للمؤمنين، ﴿ونذيراً﴾، أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب(1). ﴿ليؤمنوا(2) بالله ورسوله ويعزّروه﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعظّموه. ﴿ويوقّروه﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام. ﴿ويسبّحوه﴾، أي: يسبّحون الله ﴿بكرة وأصيلاً﴾، أي: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾، كقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ـ ﷺ ـ كقوله: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين: حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من سلّ سيفه في سبيل الله فقد بايع الله».

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المُغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في الحَجَر: «والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسانٌ ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحقّ، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يُبايعون الله يدُ الله فوقَ أيديهم﴾.

ولهذا قال هاهنا: ﴿فمن نكث فإنما ينكُث على نفسه﴾، أي: إنما يعود وبالُ ذلك على الناكث، والله غنيٌّ عنه، ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيُؤتيه أجراً عظيماً﴾، أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرِّضوان، وكانت تحت شجرة سَمُرٍ(3) بالحديبية، وكان الصحابةُ الذين بايعوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ قيل: ألفٌ وثلثُمائةٍ. وقيل: وأربعُمائةٍ. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصحُّ.

---

(1) انظر تفسير الآية ٤٥ من سورة الأحزاب.

(2) كذا في بعض النسخ بالياء في هذا الفعل وما عطف عليه، وقرأ بذلك من السبعة ابن كثير وأبو عمرو. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦٩.

(3) السَّمُر: ضرب من شجر الطلح، وهو شجر عظام ترعاه الإبل.

ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في ذلكَ

قال البخاريُّ: حدثنا قُتَيبة، حدثنا سُفيان، عن عَمرو، عن جابرٍ قال: كُنّا يوم الحديبية ألفاً وأربعَمائةٍ(١).

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عُيَينة، به(١). وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن جابر قال: كُنّا يومئذٍ ألفاً وأربعمائة، ووضَع يده في ذلك الماء، فَنَبع الماء من بين أصابعه، حتى رُوُوا كلُّهم(٢).

وهذا مختصرٌ من سياقٍ آخَرَ حين ذكر قِصَّة عطشهم يوم الحُدَيبية، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ أعطاهم سَهماً من كِنانته فوضعُوه في بئر الحُدَيبية، فجاشَتْ(٣) بالماء، حتى كَفَتهم، فَقِيلَ لجابرٍ: كم كُنتم يومَئذٍ؟ قال: كنّا ألفاً وأربعَمائة، ولو كنّا مائة ألفٍ لكفانا(٤). وفي روايةٍ في الصحيحين عن جابر أنهم كانوا خمسَ عشرةَ مائةً(٥).

ورَوَى البخاري من حديث قتادَةَ قلتُ لسعيد بن المسيَّب: كم كان الذين شَهِدُوا بيعةَ الرِّضوان؟ قال: خمسَ عشرةَ مائةً. قلت: وإنَّ جابر بن عبد الله قال: كانوا أربعَ عشرَةَ مائةً. قال: رَحِمَه الله وَهِم، هو حدثني أنهم كانوا خمسَ عشرَةَ مائةً(٦).

قال البَيهقيُّ: هذه الروايةُ تدلُّ على أنه كان في القديم يقولُ: خمسَ عشرةَ مائةً، ثم ذكر الوَهْمَ فقال: أربع عشرة مائة(٧).

وروى العَوفيُّ، عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفاً وخمسَمائةٍ وخمسةً وعِشرينَ. والمشهور الذي رواه غيرُ واحدٍ عنه أربع عشرةَ مائةً، وهذا هو الذي رَواه البَيهقيُّ، عن الحاكم، عن الأصمِّ، عن العباس الدُّوري، عن يحيى بن مَعين، عن شَبابة بن سَوَّار، عن شُعبةَ، عن قتادَةَ، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبيه قال: كنّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرةِ ألفاً وأربعمائة(٨). وكذلك هو في رواية سَلَمة بن الأكوع ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وقد أخرجَ صاحبا الصحيح من حديث شُعبَة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سَمِعتُ عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وأربعَمائةٍ، وكانت أسْلَمُ يومئذ ثُمُنَ المهاجرين(٩).

وروى محمد بن إسحاقَ في السيرة، عن الزهريِّ، عن عُروةَ بن الزُّبير، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة ومَرْوانَ بن الحكم أنهما حَدَّثاه قالا: خَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ عامَ الحُدَيبية يُريد زِيارة البيتِ، لا يُريد قتالاً، وساقَ معه الهَدْيَ سبعين بَدَنَةً، وكان الناسُ سبعمائةِ رجلٍ، كلُّ بَدَنةٍ عن عشرة نَفَرٍ، وكان جابرُ بن عبد الله ـ فيما بَلَغني عنه ـ يقول: كُنّا أصحابَ الحُدَيبية أربعَ عشرَةَ مائةً(١٠).

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الفتح ٥٨٧/٨، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٨٤/٣.
(٢) فتح الباري، كتاب الأشربة ١٠١/١٠، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٨٤/٣.
(٣) أي: فارت.
(٤) فتح الباري، كتاب المناقب ٥٨١/٦.
(٥) فتح الباري، كتاب المغازي ٤٤١/٧، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٨٤/٣.
(٦) فتح الباري، كتاب المغازي ٤٤٣/٧.
(٧) دلائل النبوة ٩٧/٤.
(٨) الدلائل ٩٨/٤.
(٩) فتح الباري، كتاب المغازي ٤٤٣/٧، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٨٥/٣.
(١٠) سيرة ابن هشام ٣٠٨/٢ - ٣٠٩.

كذا قال ابن إسحاق وهو معدودٌ من أوهامه، فإنَّ المحفوظ في الصحيحَين أنهم كانوا بضعَ عشرةَ مائةً.

ذِكْرُ سَبَب هذه البيعةِ العظيمةِ

قال محمدُ بنُ إسحاقَ بن يَسَارٍ في السيرة: ثم دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عُمَر بن الخطاب ليبعثَه إلى مكّةَ؛ فَيُبلِّغَ عنه أشرافَ قُرَيشٍ ما جاء له، فقال: يا رسولَ الله، إني أخافُ قريشاً على نفسي، وليس بمكّة من بني عَدِيّ بن كعب مَن يَمنعُني، وقد عَرَفت قريشٌ عداوتي إياها، وغِلَظي عليها، ولكني أدلك على رجلٍ أعزّ بها مني، عثمانَ بنِ عفانَ. فَبعثه إلى أبي سفيان وأشرافِ قُرَيشٍ، يُخبِرُهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه إنما جاءَ زائراً لهذا البيتِ، ومُعَظِّماً لحرمته.

فَخَرج عثمانُ إلى مَكَّةَ، فلقيه أبانُ بنُ سَعِيدِ بن العاص حين دخلَ مكّةَ، أو قبل أن يدخُلَها، فحمله بين يَدَيه، ثم أجاره حتى بَلَّغ رسالة رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعُظَماء قُرَيشٍ، فَبَلَّغهم عن رسول الله ـ ﷺ ـ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فَرَغ من رسالة رسول الله ـ ﷺ ـ إليهم: إن شئتَ أن تَطُوفَ بالبيت فَطُفْ. فقال: ما كنتُ لِأفعَلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله. واحتبسته قُرَيشٌ عندها، فبلَغ رسولَ الله ـ ﷺ ـ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل.

قال ابن إسحاق: فَحَدَّثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال حين بلغه أن عُثمانَ قد قتل: «لا نَبرحُ حتى نُناجزَ القومَ». ودعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناسَ إلى البيعةِ، فكانت بيعةُ الرِّضوان تحت الشجَرة، فكان الناسُ يقولون: بايَعهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ على الموت. وكان جابرُ بنُ عبدِ الله يقول: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لم يُبايِعْهم على الموتِ، ولكن بايعَنا على ألاَّ نَفِرَّ.

فبايَعَ الناسَ ولم يتخلَّف أحدٌ من المسلمين حَضَرها إلا الجَدّ بن قيس أخو بني سَلِمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظرُ إليه لاصقاً بإبطِ ناقته، قد ضَبَأ[1] إليها يَستَتِرُ بها من الناسِ. ثم أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ أن الذي كان من أمر عثمان باطلٌ»[2].

وذكر ابن لَهِيعة، عن الأسودِ، عن عُروَةَ بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان سُهَيلَ بنَ عمرو، وحُويطب بن عبد العُزَّى، ومكرزِ بن حفص إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وترامَوا بالنَّبل والحجارة، وصاحَ الفريقان كِلاهُما، وارتهن كلٌ من الفريقين مَنْ عنده من الرسل، ونادى منادِي رسول الله ـ ﷺ ـ: ألَا إنَّ رُوح القُدُسِ قد نَزَلَ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وأمر بالبيعةِ، فاخرجُوا على اسم الله فَبايِعُوا. فسار المسلمون إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو تحت الشجرة، فبايَعُوه على ألاّ يفِرُّوا أبداً. فأرعب ذلك المشركين، وأرسلُوا مَن كان عندَهُم من المسلمين، ودَعَوا إلى المُوادَعةِ والصلح[3].

وقال الحافظُ أبو بكر البَيهَقِيُّ: أخبرنا علي بن أحمدَ بن عَبدان، أخبرنا أحمد بن عُبَيد الصفَّار. حدثنا تَمتامٌ[4]، حدثنا الحسن بن بشر، حَدَّثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادةَ، عن أنسِ بن مالك قال: لما أُمِرَ

(١) أي: لصق بها.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣١٥ ـ ٣١٦.

(٣) الأثر في دلائل النبوة للبيهقي ٤/١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤) في بعض النسخ: تمام. وهو تحريف، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٦١٥، ٣/٨٧٦.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ ببيعة الرضوان كان عثمانُ بن عفان رسولَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إلى أهل مكّةَ، فبايع الناسُ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اللهُمَّ إنَّ عثمانَ في حاجةِ الله وحاجةِ رسولِه». فَضَرَب بإحدى يَدَيه على الأخرى، فكانت يدُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ لعثمانَ خيراً من أيديهم لِأنفُسِهم.

قال ابنُ هشام: وحدَّثني من أثِقُ بِهِ عمَّن حَدَّثَه بإسنادٍ له، عن ابنِ أبي مُلَيكَةَ، عن ابنِ عُمَرَ: بايَعَ لعثمانَ، فَضَرب بإحدى يَدَيه على الأخرَى[١].

وقال عبد الملك بنُ هِشام النحويُّ: «فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشَّعبي: أنَّ أول مَن بايَعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بيعةَ الرِّضوان أبو سِنَانٍ الأسَدِي».

وقال أبو بكر عبد الله بن الزُّبير الحُمَيدي: حدثنا سفيانُ، حدثنا ابنُ أبي خالد، عن الشَّعبي قال: لما دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناس إلى البيعة، كان أولَ مَن انتهى إليه أبو سِنَانٍ، فقال: ابسُط يَدَكَ أبايِعْكَ. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «علامَ تُبايِعُني»؟. فقال أبو سِنَانٍ: على ما في نفسِكَ[٢]. هذا أبو سنان بنُ وَهبٍ الأسدي.

وقال البخاريُّ: حدثنا شُجاع بن الوليد سَمِعَ النَّضْرَ بن محمد: حدثنا صخر[٣]، عن نافع قال: إن الناسَ يتحدثونَ أن ابن عُمَر أسلَمَ قبلَ عُمَر، وليس كذلك، ولكنْ عُمَرَ يومَ الحُدَيبية أرسل عبدَ الله إلى فَرَسٍ له عند رجل من الأنصار أن يأتي به لِيُقاتِلَ عليه، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يُبايِعُ عند الشجرةِ، وعُمَر لا يدري بذلك، فبايَعَه عبدُ الله ثم ذهب إلى الفَرَس فجاء به إلى عُمَر، وعُمَر يَستَلْئِمُ[٤] للقتال، فأخبره أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ يُبايع تحتَ الشجرة، فانطلَقَ فذَهبَ معه حتى بايَعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهي التي يتحدَّث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر[٥].

ثم قال البخاريُّ: وقال هشامُ بنُ عَمّار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عُمَر بن محمد العُمَري، أخبرني نافع، عن ابن عُمَر: أن الناس كانُوا معَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ [يوم الحديبية] قد تفرقوا في ظلالِ الشجَر، فإذا الناسُ مُحدِقُونَ بالنبي ـ ﷺ ـ فقالَ ـ يعني عمر ـ: يا عبدَ الله، انظُر ما شأنُ الناسِ قد أحدَقُوا برسولِ الله ـ ﷺ ـ. فوجَدَهُم يُبايِعُون، فبايع ثم رَجَع إلى عُمَر فَخرج فَبايَعَ[٥].

وقد أسندَه البيهقيُّ عن أبي عَمرو الأديبِ، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سُفيان، عن دُحَيم: حدثني الوليد بن مسلم، فذكره.

وقال الليثُ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: كُنّا يومَ الحُدَيبية ألفاً وأربعمائة، فبايعناه، وعُمَرُ آخذٌ بيدِه تحتَ الشجرةِ وهي سَمُرَةٌ، وقال: بايعناه على ألَّا نفِرَّ، ولم نُبايِعه على الموتِ. رواه مسلمٌ، عن قُتَيبة، عنه[٦].

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيدَ بن زُرَيع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله الأعرج، عن مَعقِل بن يَسار قال: لقد رأيتُني يومَ الشجَرةِ والنبيُّ ـ ﷺ ـ يُبايع الناس، وأنا رافعٌ غُصناً من أغصانها عن رأسِهِ،

---

(١) الحديث في سيرة ابن هشام بعد الأثر التالي ٢/٣١٦. وقد أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، بإسناده إلى حبيب بن أبي مليكة، عن ابن عمر، به نحوه، ٣/٧٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل، بإسناده إلى أبي بكر الحميدي ٤/١٣٧.

(٣) في النسخ: صخر بن الربيع. والمثبت في الصحيح: «حدثنا صخر عن نافع». ويقول ابن حجر: صخر بن جُوَيرية.

(٤) أي: يَلْبَس اللأمة، وهي السلاح.

(٥) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٦) مسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٨٣.

ونحن أربعَ عشرةَ مائةٌ، قال: ولم نُبايِعه على الموتِ، ولكن بايعناهُ عَلَى ألَّا نفرَّ[١].

وقال البخاريُّ: حدثنا المَكّيُّ عن إبراهيم، عن يَزيد بن أبي عُبَيدٍ، عن سَلَمة بن الأكْوَع قال: بايعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرة ـ قال يزيد: قلت: يا أبا مُسلِمٍ، على أيِّ شيءٍ كنتم تُبايعون يومئذٍ؟ قال: على الموت[٢].

وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يَزيد بن أبي عُبَيد، عن سَلَمةَ قال: بايعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية ثم تَنَحَّيتُ، فقال: «يا سلمةُ ألا تُبايع»؟ قلتُ: قد بايعتُ. قال: «أقبل فَبايع». فدنوتُ فبايعته، قلتُ: علام بايعتَه يا سلمةُ؟ قال: على الموتِ[٣].

وأخرجه مسلمٌ من وجهٍ آخرَ عن يزيدَ بن أبي عُبَيد[٣]. وكذا رَوَى البخاري عن عَبَّاد بن تَمِيم [عن عبد الله بن زَيد][٤]: أنهم بايعُوه على الموتِ.

وقال البَيهقِيُّ: أخبرنا أبو عبدِ الله الحافظُ، أخبرنا أبو الفضل بنُ إبراهيم، حدثنا أحمدُ بن سَلَمة، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العَقَديُّ عبدُ الملك بن عَمرو، حدثنا عِكْرِمَةُ بن عَمَّار اليَمامِيُّ، عن إياس بن سَلَمة، عن أبيه سَلَمة بن الأكوع قال: قَدِمنا الحُدَيبيَةَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن أربعَ عَشرةَ مائةً، وعليها خمسُون شاةً لا تُرْويها، فَقَعد رسول الله ـ ﷺ ـ على جَبَاها ـ يعني الرَّكِيَّ[٥] ـ فإما دَعَا وإما بَصَق فيها، فجاشَت فَسَقينا واستَقَينا. قال: ثم إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ دَعَا إلى البيعة في أصلِ الشجرة، فبايعتُه أوَّلَ الناس، ثم بايعَ وبايَع، حتى إذا كان في وسط الناس قال: بايعني يا سلمةُ. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قد بايعتُك في أول الناس. قال: وأيضاً. قال: ورآني رسول الله ـ ﷺ ـ عَزِلاً[٦] فأعطاني حَجفَةً ـ أو دَرَقَةً ـ ثم بايَعَ حتى إذا كان في آخر الناس قال: ألا تُبايعُ يا سَلَمةُ؟ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قد بايعتُك في أوَّلِ الناس وأوسَطِهم. قال: وأيضاً. فبايعتُه الثالثةَ، فقال: يا سلمةُ، أين حَجفَتُكَ أو دَرَقَتُكَ التي أعطيتُك[٧]؟. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، لقيني عامر عَزِلاً فأعطيتُها إياه، فَضَحِك رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال: إنكَ كالذي قال الأولُ: اللهُمَّ أَبْغِني[٨] حَبيباً هو أحبُّ إليَّ من نفسي. قال: ثم إنَّ المشركين من أهلِ مكَّةَ راسلُونا في الصُّلح حتى مَشَى بعضنا في بعضٍ فاصطلحنا. قال: وكنتُ خادماً لطلحةَ بن عُبَيد الله، أسقي فرسه وأَجْنُبُه[٩] وآكل من طعامه، وتركتُ أهلي ومالي مُهاجراً إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهلُ مكة، واختلط بعضُنا ببعض، أتيتُ شجرة فَكَسَحْتُ[١٠] شوكَها، واضطجَعْتُ في أصلها في ظلِّها، فأتاني أربعةٌ من مشركي أهلِ مكة، فجعلوا يَقَعُون في رسول الله ـ ﷺ ـ فَأَبغَضتُهم، وتحوَّلت إلى شَجرةٍ أُخرَى فَعلَّقوا سِلاحَهُم واضطَجَعُوا، فبينما هُم

---

(١) مسلم، الكتاب السابق ٣/١٤٨٥.

(٢) فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/١١٧.

(٣) فتح الباري، كتاب الأحكام ١٣/١٩٩، ومتن الحديث مختلف، ومسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٨٦.

(٤) عن الصحيحين: فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/١١٧، ومسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٨٦.

(٥) الجَبَا: ما حول البئر. والرَّكِيُّ: البئر. وجاشت: ارتفعت وفاضت.

(٦) العَزِلُ: الذي ليس معه سلاحٌ.

(٧) الحَجَفَةُ أو الدرقة: التُّرس من جُلُودٍ بلا خشب ولا رباط من عَصَبٍ.

(٨) أَبْغِني: أَعطني.

(٩) كذا في النسخ: وأَجْنُبُه. ومعناه أصيرُ إلى جَنْبه، يقال: جانَب الفرسَ وجَنَبَه: صار لو مشى إلى جنبه. ولفظ الدلائل: وأَحُسُّه. ومثله في مسلم، ومعناه: أَحُكُّ ظهره بالمِحَسَّة، لأزيل عنه الغبار.

(١٠) أي: كنست ما تحتها من الشوك.

كذلك إذ نادى منادٍ من أسفلِ الوادي: يا لَلمهاجرين، قُتِل ابنُ زُنَيم. فاخترطتُ[١] سَيفي، فشددتُ على أولئك الأربعة وهم رُقودٌ، فأخذتُ سلاحهم وجعلته ضِغثاً[٢] في يدي، ثم قلت: والذي كرّم وَجهَ محمدٍ - ﷺ - لا يرفعُ أحدٌ منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه. قال: ثم جئتُ بهم أسوقُهم إلى رسول الله - ﷺ -، قال: وجاء عَمّي عامر برجُل من العَبَلات[٣] يقال له: «مِكْرَز» من المشركين يقودُه، حتى وقفنا بهم على رسول الله - ﷺ - في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسولُ الله - ﷺ - وقال: «دعُوهم يَكُنْ لهم بَدْءُ الفجور وثِناه»[٤]. فَعفا عنهُم رسولُ الله - ﷺ - وأنزلَ الله: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديَهم عنكُم وأيديَكُم عنهم بِبَطنِ مكّةَ من بعد أن أظفرَكُم عَلَيهم ﴾[٥]. . . الآية.

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهَوَيه، بسنده نحوه، أو قريبا منه[٥].

وثَبَت في الصحيحَين من حديث أبي عَوَانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيَّب قال: كان أبي ممَّن بايع رسولَ الله - ﷺ - تحت الشجَرةِ، قال: فانطلقنا من قابلٍ حاجِّين، فَخَفِي علينا مكانها، فإن كان تَبَيَّنَتْ لكم فأنتُم أعلم[٦].

وقال أبو بكر الحُمَيدي: حدثنا سُفيان، حدثنا أبو الزُبير، حدثنا جابر قال: لما دَعَا رسولُ الله - ﷺ - الناسَ إلى البيعةِ وَجدنا رَجُلاً منا يقال له «الجَدُّ بن قَيس» مختبئاً تحت إبطِ بعيره[٧].

رواه مسلم من حديث ابن جُرَيج، عن ابن الزبير، به[٧].

وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سُفيان، عن عَمرو سَمع جابراً قال: كُنّا يومَ الحُدَيبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسولُ الله - ﷺ - «أنتم خيرُ أهلِ الأرضِ اليومَ». قال جابر: لو كنتُ أُبصِر لأريتُكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[٨].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يونُس، حدثنا اللّيث، عن أبي الزّبيرِ، عن جابرٍ، عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: «لا يدخلُ النارَ أحدٌ ممن بايَعَ تحتَ الشجرةِ»[٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفَلّاس المُخَرِّمي، حدثنا سَعيدُ بن عمرو الأشعَثِيُّ، حدثنا محمد بن ثابت العَبْدِي، عن خِداش بن عَيَّاش، عن أبي الزُّبَير، عن جابر قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «يدخل مَن بايع تحت الشجرة كلُّهم الجنةَ إلا صاحبَ الجَمَل الأحمر». قال: فانطلقنا نَبْتَدِرُه فإذا رجلٌ قد أضلَّ بعيرَه، فقلنا: تعالَ فَبايع. فقال: أُصِيبُ بَعيري أَحَبُّ إليَّ مِن أن أُبايعَ.

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عُبَيد الله بن مُعاذ، حدثنا أبي، حدثنا قُرّة، عن أبي الزُّبير، عن جَابر؛ عن

---

(١) أي: سَلَلْتُه.
(٢) الضِّغثُ: الحُزمةُ. يريد أنه أخذ سلاحهم، وجمع بعضه إلى بعض، حتى جعله في يده حُزمَةً.
(٣) العَبَلات: من قريش، وهم أُمَيَّة الصُغرَى.
(٤) البَدْءُ: الابتداء. وأما ثِنَاه فمعناه العودة الثانية.
(٥) دلائل النبوة ١٣٨/٤ - ١٤١، ومسلم، كتاب الجهاد ١٤٣٣/٣ - ١٤٣٥.
(٦) فتح الباري، كتاب المغازي ٤٤٧/٧، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٨٥/٣.
(٧) أخرجه البيهقي في الدلائل بإسناده إلى الحميدي ١٣٦/٤، ومسلم في كتاب الإمارة ١٤٨٣/٣.
(٨) فتح الباري، كتاب المغازي ٤٤٣/٧، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٨٤/٣، وأخرجه البيهقي في الدلائل بإسناده إلى سفيان بن عيينة، به ٩٧/٤.
(٩) مسند أحمد ٣٥٠/٣.

النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن يصعَد الثَّنيَّة ثَنِيَّة المُرار[1] فإنه يُحطّ عنه ما حُطّ عن بني إسرائيل». فكان أولُ من صَعِد خيلَ بني الخزرج، ثم تبادَرَ الناسُ بعدُ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: كُلُّكم مغفورٌ له إلا صاحبَ الجَملِ الأحمر». فقلنا: تعال يَستغفِر لك رسولُ الله. فقال: والله لأن أجِد ضالَّتي أحبُّ إليّ من أن يَستغفِرَ لي صاحبُكم. فإذا هُوَ رجلٌ يَنْشُدُ ضالَّةً. رواه مسلم عن عُبَيد الله به[2].

وقال ابنُ جُرَيج: أخبرني أبو الزُّبير، أنه سَمع جابراً يقول: أخبرتني أم مُبَشِّر أنها سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ عند حَفْصَةَ: لا يدخلُ النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرةِ الذين بايعُوا تحتها أحدٌ. قالت: بلى يا رسول الله. فانتَهرها، فقالت لحفصَةَ: ﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾، فقال النبي ـ ﷺ ـ: قد قال الله: ﴿ ثم نُنَجّي الذين اتقوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا ﴾. رواه مسلم[3].

وفيه أيضاً عن قُتَيبة، عن اللَّيث، عن أبي الزُّبير، عن جابر: أنَّ عبداً لحاطب بن أبي بلتَعة جاء يشكُو حاطباً، فقال: يا رسولَ الله، ليدخلَنَّ حاطبٌ النارَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كذبتَ! لا يدخلُها، فإنه قد شَهِد بدراً والحديبية»[3].

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿ إن الذين يُبايعونك إنما يبايعُونَ الله يدُ الله فوقَ أيديهم فمن نَكَثَ فإنما ينكُث على نفسِه ومَن أوفى بما عاهَدَ عليه الله فسيُؤتيه أجراً عظيماً ﴾، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ لقد رَضِي الله عن المؤمنين إذ يُبايِعُونك تحت الشجَرةِ فَعَلِم ما في قُلوبهم فأنزل السكينةَ عَليهِم وأثابَهُم فتحاً قريباً ﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً لرسُوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بما يَعتذِر به المُخَلَّفون من الأعرابِ الذينَ اختارُوا المُقَام في أهليهم والشُّغل بهم، وتركُوا المَسيرَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ فاعتذَرُوا بشُغلهم بذلك، وسَألُوا أن يستغفِرَ لهم الرسولُ ـ ﷺ ـ وذلك قولٌ منهم لا على سَبيل الاعتقادِ، بل على وَجْهِ التَّقِيَّةِ والمُصَانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿ يقولُون بألسِنَتهم ما ليسَ في قُلوبهم قُلْ فمَن يملكُ لكُم مِنَ الله شيئاً إن أرادَ بكُم ضرًّا أو أراد بكُم نَفْعاً ﴾، أي: لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَرُدَّ ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليمُ بِسَرائِرِكُم وضَمائِرِكُم، وإن صانعتُمونا وتابعتُمونا. ولهذا قال: ﴿ بل كان الله بما تعمَلُون خبيراً ﴾.

ثم قال: ﴿ بل ظننتُم أن لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنونَ إلى أهليهم أبداً ﴾، أي: لم يكن تَخلُّفكم تخلُّفَ

---

(١) ثَنِيَّة المرار: هي مهبط الحديبية.

(٢) مسلم، كتاب صفات المنافقين ٤/٢١٤٤ ـ ٢١٤٥.

(٣) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٩٤٢.

معذورٍ ولا عاصٍ، بل تَخلّف نِفاقٍ، ﴿ بل ظننتُم أن لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنونَ إلى أهليهم أبداً ﴾، أي: اعتقدتُم أنهم يُقتَلون وتُستأصل شأفتهم، وتُستَبادُ خضراؤهم، ولا يرجعُ منهم مُخبِرٌ، ﴿ وظننتم ظنَّ السوءِ وكنتم قوماً بوراً ﴾، أي: هَلْكَى. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ وغير واحد. وقال قتادةُ: فاسِدينَ. وقيل: هي بلغة عُمَان.

ثم قال: ﴿ وَمَن لم يُؤمِن بالله ورسوله ﴾، أي: من لم يُخلِصِ العملَ في الظاهر والباطِن لله فإنَّ الله تعالى سَيُعذِّبه في السعير، وإن أظهرَ للناسِ ما يعتَقِدون خِلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

ثم بيَّن تعالى أنه الحاكمُ المالكُ المتصرِّفُ في أهلِ السمواتِ والأرضِ: ﴿ يَغفِر لمن يشاءُ ويُعذِّب مَن يشاء وكان الله غفوراً رحيماً ﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب، وخَضَع لديه.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تَخلَّفوا عن النبي - ﷺ - في غزوة الحُدَيبية، إذْ ذَهب النبي - ﷺ - وأصحابهُ إلى خيبَر يفتحونها: أنهم يسألونَ أن يخرُجوا معهم إلى المغنم، وقد تَخلَّفوا عن وقت محاربة الأعداء ومُجالَدتهم ومُصابَرتهم، فأمر الله رسولَه - ﷺ - ألاَّ يأذنَ لهم في ذلك، معاقبةً لهم من جنسِ ذَنْبهم، فإنَّ الله تعالى قد وعد أهلَ الحُديبية بمغانم خَيبر وحدَهم لا يَشْرَكُهم غيرُهم من الأعراب المتخلِّفين، فلا يَقعُ غيرُ ذلك شرعاً وقدراً، ولهذا قال: ﴿ يُريدون أن يُبَدِّلوا كلام الله ﴾، قال مجاهد، وقتادةُ، وجُوَيبر: وهو الوعد الذي وَعَد به أهلَ الحُدَيبية. واختاره ابن جرير(١).

وقال ابنُ زيد: هو قوله: ﴿ فإن رَجَعك الله إلى طائفةٍ فاستأذنوكَ للخروج فَقُل لن تخرجُوا معي أبداً ولن تُقاتلوا معي عدُوًّا إنكم رَضِيتم بالقُعود أول مَرَّةٍ فاقعدوا مع الخالِفين ﴾.

وهذا الذي قاله ابنُ زيد فيه نظرٌ؛ لأن هذه الآية التي في [براءة] نزلت في غزوة تَبُوك، وهي متأخرة عن عُمْرَة الحُدَيبية.

وقال ابن جُرَيج: ﴿ يُريدون أن يُبدِّلوا كلام الله ﴾، يعني بتثبيطِهم المسلمين عن الجِهاد.

﴿ قُل لن تتبعونا كذلكُم قال الله من قبل ﴾، أي: وَعَد الله أهلَ الحُديبية قبل سؤالكم الخُروج معهم، ﴿ فسيقولون بل تَحسُدوننا ﴾، أي: أن نَشْرككم في المغانم، ﴿ بل كانوا لا يفقَهُون إلا قليلا ﴾، أي: ليس الأمرُ كما زَعمُوا، ولكن لا فَهْمَ لهم.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

اختلف المفسِّرون من هؤلاء القوم الذين يُدْعَون إليهم، الذين هم أولوا بأسٍ شديدٍ، على أقوال:

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/ ٨٠.

أحدها: أنهم هَوَازِن. رواه شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، أو عكرمة ـ أو جَميعاً ـ ورواه هُشَيم عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادةُ في روايةٍ عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. ورُوي مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاءٌ، ومجاهدٌ، وعكرمَةُ ـ في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادةَ: هم فارسُ والرومُ. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجالٌ أولوا بأس شديد، ولم يُعَيِّن فرقة. وبه يقول ابنُ جُرَيج، وهو اختيار ابن جرير[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشجُّ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القَوَاريري، عن معمَر، عن الزُهري في قوله: ﴿ سَتُدعَون إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ ﴾، قال: لم يأتِ أُولئك بعدُ.

وحدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سُفيان، عن ابن أبي خالدٍ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَة في قوله: ﴿ سَتُدعون إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ ﴾، قال: هم البارِزُون.

قال: وحدثنا سفيانُ، عن الزهريِّ، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تقُوم الساعة حتى تقاتِلُوا قوماً صغار الأعين ذُلْفَ[2] الآنُفِ، كأن وجوهَهُم المَجانُّ المُطْرَقَةُ». قال سفيان: هم التُرك.

قال ابن أبي عمر: وجدتُ في مكانٍ آخرَ: ابن أبي خالد عن أبيه قال: نَزَل علينا أبو هُرَيرة فَفَسَّر قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ: «تُقَاتِلون قوماً نِعالُهُم الشَعَر»، قال: هم البارِزُون، يعني: الأكرادَ.

وقولُهُ: ﴿ تُقَاتِلُونهم أو يُسلِمُون ﴾، يعني يُشرَعُ لكم جِهادهم وقتالُهم، فلا يزالُ ذلك مستمرًّا عليهم، ولكم النصرةُ عليهم، أو يُسلِمُون فيدخُلُون في دينكم بلا قتالٍ بل باختيارٍ.

ثم قال: ﴿ فإن تُطيعوا ﴾، أي: تَستَجيبُوا وتَنفِرُوا في الجهاد وتُؤدّوا الذي عليكم فيه، ﴿ يُؤتكم الله أجراً حسناً وإن تَتَولَّوا كما تولَّيتم من قبل ﴾، يعني زمن الحُدَيبية حيث دُعِيتم فَتخلَّفتُم، ﴿ يُعذِّبكم عذاباً أليماً ﴾.

ثم ذكر تعالى الأعذارَ في تَرْكِ الجهاد، فمنها لازمٌ كالعمَى والعرَجِ المستمِرّ، وعارِضٌ كالمَرَضِ الذي يطرَأ أياماً ثم يَزُول، فهو في حال مَرَضِه مُلحَقٌ بذوي الأعذار اللازمة حتى يَبرَأ.

ثم قال تعالى مُرَغِّباً في الجهاد وطاعةِ الله ورسوله: ﴿ ومن يُطِعِ الله ورسولَه يُدخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومَن يَتولَّ ﴾، أي: يَنكُلُ عن الجهادِ ويُقبِلُ على المعاشِ ﴿ يُعَذِّبه عذاباً أليماً ﴾، في الدُنيا بالمذلَّة، وفي الآخِرَة بالنارِ.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

(١) تفسير الطبري ٢٦/٨٣ ـ ٨٤.

(٢) ذُلْفَ: جمع أَذْلَف، وهو قصير الأنف مُنْبَطِحه، وقيل: الذَّلَفُ: غِلَظٌ في أَرْنَبة الأنف، وقيل: تطامنٌ فيها. والمَجَانُّ: جَمْعُ مِجَنٍّ، وهو التُرْسُ، والمُطْرَقَةُ: هي التي أُلبِسَت العَقَبَ وأُطرِقَت به طاقةٌ فوق طاقة. والمعنى: تشبيه وجوه التُرْكِ في عرضها وتلوُّن وجناتها بالتَرَسة ـ جمع تُرْسٍ ـ المطرقة.
والحديث أخرجه الشيخان بإسنادهما إلى سفيان، فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/١٠٤، ومسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٣٣.

وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحتَ الشجرةِ، وقد تقدم ذكر عِدَّتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة ، وأن الشجرةَ كانت سَمُرَةً بأرضِ الحُدَيبية .

قال البخاريُّ : حدثنا محمودٌ، حدثنا عُبَيد الله ، عن إسرائيلَ ، عن طارقِ بن عبد الرحمن قال: انطلقتُ حاجًا فمررتُ بقوم يُصَلُّون، فقلت: ما هذا المسجدُ؟ قالوا: هذه الشجرةُ، حيث بايعَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيعةَ الرِّضوان. فأتيتُ سعيدَ بن المسيَّب فأخبرتُه، فقال سَعيد: حدثني أبي أنه كان فيمَن بايعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نَسِيناها فلم نَقدِرْ عليها ، فقال سعيدٌ : إن أصحاب محمد ـ ﷺ ـ لم يعلَمُوها وعَلِمتموها أنتم، فأنتم أعلم[1]!.

وقولُهُ: ﴿ فعَلِم ما في قُلوبهم ﴾، أي: من الصِّدق والوفاء، والسمعِ والطاعةِ، ﴿ فأنزل السكينةَ ﴾ ، وهي الطمأنينةُ، ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾، وهو ما أجرَى الله على أيديهم من الصُّلح بينهم وبين أعدائهم. وما حَصَل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتصل بفتح خيبر وفتح مكةَ، ثم فتح سائرِ البلادِ والأقاليم عليهم، وما حَصَل لهم من العزِّ والنصرِ والرِّفعة في الدنيا والآخرة . ولهذا قال: ﴿ ومغانم كَثيرةً يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القَطَّان ، حدثنا عُبيد الله بن موسى ، أخبرنا مُوسى ـ يعني ابن عُبَيدة ـ حدثني إياس بن سَلَمة ، عن أبيه قال: بينما نحن قائلُون إذ نادى منادِي رسول الله ـ ﷺ ـ: أيها الناس، البيعةَ البيعةَ، نزلَ روحُ القُدُس. قال: فثُرنا إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو تحت شجرةِ سَمُرةٍ فبايعناه، فذلك قولُ الله تعالى : ﴿ لقد رَضِيَ الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾، قال: فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس: هَنيئاً لابن عَفَّان، يطوفُ بالبيتِ ونحن هاهنا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو مَكَث كذا كذا سنةً ما طافَ حتى أطوفَ»[2].

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿ وعدكُم الله مغانمَ كثيرة تأخذونها ﴾، هي جميعُ المغانِمِ إلى اليومِ ، ﴿ فعجَّل لكم هذهِ ﴾، يعني فتحَ خيبر. وروى العَوفي، عن ابن عباس: ﴿ فَعَجَّل لكم هذه ﴾، يعني صُلحَ الحُدَيبية .

﴿ وكفَّ أيديَ الناس عنكُم ﴾، أي: لم يَنلكم سوءٌ مما كان أعداؤكم أضمَرُوه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كفَّ أيديَ الناس الذين خلَّفتموهم وراء ظهُركم عن عيالِكم وحَرِيمكم، ﴿ ولِتَكُونَ آيةً

---

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٤٧ . يقول ابن حجر: «قال سعيدٌ هذا الكلام منكراً. وقوله: ﴿ فأنتم أعلم ﴾ هو على سبيل التهكم».
(٢) أخرجه الطبري ٢٦/٨٦، وابن مردويه. انظر الدر المنثور ٧/٥٢١.

للمؤمنينَ ﴾، أي: يَعتبرُونَ بذلك، فإن الله حافظُهم وناصرُهم على سائر الأعداءِ، مع قِلَّةِ عَدَدِهم، وليعلَمُوا بصنيع الله هذا بهم أنه العليمُ بعواقبِ الأمورِ وأن الخِيَرَةَ فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كَرِهوه في الظاهِر، كما قال: ﴿ وعسَى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ﴾.

﴿ وَيهدِيَكم صراطاً مستقيماً ﴾، أي: بسبب انقيادِكم لأمره واتِّباعكم طاعتَه، ومُوافَقتِكم رسولَه.

وقولُهُ: ﴿ وأُخرى لم تَقدِرُوا عليها قد أحاطَ الله بها وكان الله على كلِّ شيءٍ قَديراً ﴾، أي: وغنيمةٌ أخرى وفتحٌ آخر مُعيَّنٌ لم تكونوا تَقدِرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاطَ بها لكم، فإنه تعالى يرزُق عبادَه المُتَّقين له من حيثُ لا يَحتَسِبُون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغَنيمة، ما المرادُ بها؟ فقال العَوفي، عن ابن عباس: هي خيبرُ. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿ فَعَجَّل لكم هذه ﴾: إنها صلحُ الحديبية. وقاله الضحَّاكُ، وابنُ إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير[1]. وقال ابن أبي ليلى، والحسن البصري: هي فارسُ والرومُ. وقال مجاهد: هي كلُّ فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داودَ الطيالسي: حدثنا شعبةُ، عن سِمَاكٍ الحَنَفي، عن ابن عباس: ﴿ وأُخرَى لم تقدِرُوا عليها قد أَحاطَ الله بها ﴾، قال: هذه الفتوحُ التي تَفتَح إلى اليوم[1].

وقولُهُ: ﴿ ولو قاتلكم الذين كفرُوا لولَّوا الأدبارَ ثم لا يَجِدُون وليًّا ولا نَصِيراً ﴾ يقولُ تعالى مُبَشِّراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجَزَهُم المشركُون لنَصَر الله رسولَه وعبادَه المؤمنين عليهم، وَلانهزَمَ جيشُ الكفار فارًّا مُدبِراً لا يَجِدُون وليًّا ولا نَصِيراً، لأنهم مُحارِبُون لله ولرسوله ولِحزبِهِ المؤمنين.

ثم قال: ﴿ سُنَّةَ الله التي قد خَلَت مِنْ قبلُ وَلَـن تَجِد لِسُنَّةِ الله تَبديلاً ﴾، أي: هذه سُنَّةُ الله وعادتُه في خَلقه، ما تقابلَ الكفر والإيمان في موطنٍ فَيْصَلٍ إلا نَصَرَ الله الإيمان على الكفر، فَرَفَعَ الحقَّ ووَضَعَ الباطلَ، كما فعل تعالى يومَ بدرٍ بأوليائه المؤمنين، نَصَرهم على أعدائه من المشركين، مع قِلَّةِ عَدَدِ المسلمين وعُدَدِهم، وكثرة المشركين ومَدَدِهم.

وقولُهُ: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديَهم عنكُم وأيدِيَكُم عنهُم ببطن مكَّةَ من بعد أن أظفَرَكُم عليهم وكان الله بما تعمَلُون بَصِيراً ﴾. هذا امتنانٌ من الله على عِبادِه المؤمنين حين كَفَّ أيدِيَ المشركين عنهُم، فلم يَصِل إليهم منهُم سوءٌ، وكَفَّ أيديَ المؤمنين من المشركين فلم يُقاتِلُوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقَين، وأوجدَ بينهم صُلحاً فيه خِيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبةٌ لهم في الدنيا والآخرة. وقد تَقَدَّم في حديث سَلَمة بن الأكوع حين جاءُوا بأولئكَ السبعين الأَسَارى فأوقَفُوهم بين يَدَي رسول الله ـ ﷺ ـ، فنظر إليهم وقال: «أرسلُوهم يكن لهم بدءُ الفجُور وثِنَاه». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديَهم عنكُم وأيديَكم عنهُم ﴾... الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن هارُونَ، حدثنا حَمَّاد، عن ثابتٍ، عن أنس بن مالك قال: لما كان يومُ الحُدَيبيَةِ هَبَط على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وأصحابه ثمانُون رَجُلًا من أهل مكَّة في السِّلاح من قِبَل جَبَل التنعيم يُريدون غِرَّةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فدعا عليهم فأُخِذُوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونَزَلت هذه الآية: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديهم عنكُم وأيديَكُم عنهم ببطن مكَّة من بعد أن أظفَرَكُم عليهم[2].

---

(١) أخرجه عبد بن حُمَيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، الدر المنثور ٥٢٥/٧.

(٢) مسند أحمد ١٢٢/٣، ١٢٤ـ١٢٥، ٢٩٠، ومسلم، كتاب الجهاد ١٤٤٢/٣، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٦١/٣، وعارضة =

ورواه مسلمٌ وأبو داودَ في سُنَنه، والترمذيُّ والنسائيُّ في التفسير من سُنَنَيهما، من طُرقٍ، عن حمّادِ بن سَلَمَة، به[1].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا زيدُ بن الحُبَاب، حدثنا الحُسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَاني، عن عبد الله بن مُغَفَّل المُزَني قال: كنّا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في أصلِ الشَّجرةِ التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يَقَع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسولِ الله ـ ﷺ ـ، وعليُّ بن أبي طالب وسُهَيلُ بن عمرو بين يَدَيه، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فأخذ سُهَيل بيدِه وقال: ما نعرفُ الرحمنَ الرحيمَ. اكتب في قَضِيَّتنا ما نعرفُ. قال: «اكتب باسمِكَ اللهُمَّ». وكَتَب: هذا ما صالح عليه محمَّدٌ رسولُ الله أهلَ مكة». فأمسكَ سُهَيل بن عَمرو بيده وقال: لقد ظلمناكَ إن كنت رسولَه، اكتُب في قَضِيَّتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمدٌ بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خَرَج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاحُ، فثارُوا في وُجُوهنا. فدعا عليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ. فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «هل جئتُم في عَهْدِ أحَدٍ؟ أو: هل جعل لكم أحدٌ أماناً؟». فقالوا: لا. فَخَلَّى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيدِيَهُم عنكم وأيديَكُم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفرَكُم عليهم وكان الله بما تعلَمُون بصيراً﴾[2]. رَواه النسائيُّ من حديث حُسَين بن واقد، به[2].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ حُمَيد، حدثنا يَعقوبُ القُمِّي، حدثنا جعفرٌ، عن ابن أَبْزَى قال: لما خَرَج النبيُّ ـ ﷺ ـ بالهَدي وانتهى إلى ذِي الحُلَيْفة قال له عُمَر: يا نَبيَّ الله، تدخُلُ على قوم لَكَ حَرْبٍ بغير سلاح ولا كُرَاع[3]؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعاً ولا سِلاحاً إلا حَمَله، فلما دنا من مكة منعُوه أن يدخُلَ، فسار حتى أتى مِنًى، فنزل بمنى، فأتاه عينُه أن عِكْرِمةَ بنَ أبي جهل قد خَرَج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالدُ، هذا ابنُ عَمِّك أتاك في الخيل». فقال خالدٌ: أنا سيفُ الله، وسيفُ رسوله ـ فيومئذ سُمِّي سيفَ اللهِ ـ يا رسولَ الله، ارم بي أينَ شِئْتَ. فبعثه على خَيلٍ، فَلَقِي عِكْرِمَةَ في الشِّعب فَهزَمه حتى أدخله حِيطانَ مكَّةَ، ثم عاد في الثانية فَهزَمه حتى أدخله حِيطان مكَّة، ثم عاد في الثالثة فَهزَمه حتى أدخلَه حِيطانَ مَكَّةَ، فأنزل الله: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديهم عنكُم وأيديكُم عنهم ببطن مكة ﴾، إلى ﴿ عذاباً أليماً ﴾. قال: فَكَفَّ الله النبيَّ عنهم من بعد أن أظفرَه عليهم، لبقَايَا من المُسلمين كانوا بَقُوا فيها، كراهيةَ أن تَطَأَهُم الخيلُ[4].

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أَبْزَى بنحوه. وهذا السياقُ فيه نظر؛ فإنه لا يجوزُ أن يكونَ عامَ الحُدَيبية، لأن خالداً لم يكن أسلم، بل قد كان طليعةَ المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عُمرةِ القضاء لأنهم قاضَوه على أن يأتيَ من العام القابل فَيَعتمِرَ ويُقيم بمكَّة ثلاثة أيام، ولما قَدِم لم يُمانِعُوه ولا حارَبُوه ولا قاتَلُوه. فإن قيل: فيكونُ يومَ الفتح؟ فالجواب: ولا يجوزُ أن يكونَ يومَ الفتح، لأنه لم يَسُق عام الفتح هَدْياً، وإنما جاء مُحارباً مقاتلاً في جيشٍ عَرَمْرَم. فهذا السياق فيه خَلَلٌ، وقد وقع فيه شيء، فَلْيُتأمَّلْ، والله أعلم.

وقال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثني مَن لا أتَّهِم، عن عكرمةَ مولى ابن عباس: أن قُرَيشاً بعثوا أربعينَ رَجُلاً منهم أو

ـ الأحوذي، تفسير سورة الفتح ١٢/١٤٩ ـ ١٥٠، وأخرجه النسائي في كتابي التفسير والسِّير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١/١١٦.

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٨٦ ـ ٨٧. وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٧/١٧٢.

(٣) الكُرَاع: الخيل.

(٤) تفسير الطبري ٢٦/٩٥.

خمسين، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسولِ الله ـ ﷺ ـ ليُصيبوا من أصحابه أحداً، فأخِذوا أخذاً، فأُتِي بهم رسولَ الله ـ ﷺ ـ فعَفا عنهُم وخلّى سبيلهم، وقد كانوا رَمَوْا إلى عسكر رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالحجارة والنَّبلِ. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزلَ الله: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديَهُم عنكم وأيديَكُم عنهم ﴾ . . . الآية[1].

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أن رَجُلاً يقال له: «ابن زُنَيم» اطَّلع على الثنِيَّةِ من الحُدَيبية، فَرَماه المشركونَ بسهم فقتلُوه، فبعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيلاً فأتوه باثني عشرَ فارساً من الكُفَّار، فقال لهم: «هل لكم عليَّ عهدٌ؟ هل لكم عليَّ ذمَّةٌ؟» قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله في ذلك: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديَهم عنكُم وأيديَكُم عنهُم ﴾ . . . الآية[2].

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفَّار من مشركي العرب من قُرَيش ومن مالأهم على نُصرَتهم على رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ هم الذين كَفَرُوا ﴾، أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿ وصدُّوكم عن المسجد الحرام ﴾، أي: وأنتم أحقُّ به، وأنتم أهلُه في نفسِ الأمر، ﴿ والهديَ معكوفاً أن يَبلُغَ مَحِلَّهُ ﴾، أي: وصَدُّوا الهدي أن يَصِل إلى مَحِلّه، وهذا من بَغْيِهم وعِنَادِهم، وكان الهديُ سبعينَ بدنَةً، كما سيأتي بيانُه.

وقولُهُ: ﴿ ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات ﴾، أي: بين أظهُرهم ممن يكتُم إيمانه ويُخفيه منهم خيفَةً على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فَقَتَلتُموهم وأبدتُم خَضْراءَهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوامٌ لا تعرفونهم حالةَ القتل، ولهذا قال: ﴿ لم تعلَموهم أن تَطَئُوهم فَتُصِيبكم منهم مَعَرَّةٌ ﴾، أي: إثم وغرامَةٌ ﴿ بغير علم لِيُدخِلَ الله في رحمته من يشاء ﴾، أي: يُؤَخِّر عقوبَتَهُم لِيُخَلِّص من بين أظهرهم المؤمنينَ، وَليرجِعَ كثيرٌ منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿ لو تَزَيَّلُوا ﴾، أي: لو تميز الكفارُ من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لَعذَّبنا الذين كفروا منهُم عذاباً أليماً ﴾، أي: لسلَّطناكم عليهم فَلَقتلتُموهم قتلاً ذَريعاً.

قال الحافظُ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدثنا أبو الزِّنباع ـ رَوحُ بن الفَرَج ـ حدثنا عبدُ الرحمن بن أبي عباد المكِّي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ حدثنا حَجَر بن خلف: سَمِعت عبد الله بن عوف[3] يقول: سَمِعتُ جُنَيْدَ بن سَبُع يقول: قاتلتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أوَل النهار كافراً وقاتلتُ معه آخر النهار مسلماً، وفينا نزلت: ﴿ ولولا رجالٌ مؤمنونَ ونساءٌ مؤمناتٌ ﴾، قال: كنا تسعةَ نفر: سبعةَ رجالٍ وامرأتينَ[4].

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكِّي به، وقال فيه: عن أبي جمعة جُنَيد بن سَبُع . . .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣١٤، وتفسير الطبري ٢٦/٩٤.
(٢) أخرجه عَبْدُ بن حُمَيدٍ، والطبري، الدرّ المنثور ٧/٥٢٧، وتفسير الطبري ٢٦/٩٤ ـ ٩٥.
(٣) في النسخ: عبد الله بن عمرو. والمثبت عن المعجم الكبير، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/١٠٢.
(٤) المعجم الكبير ٢/٢٩٠.

فذكره[1]، [2][والصواب أبو جمعة: حبيب بن سباع][2]. ورواه ابنُ أبي حاتم من حديث حَجَر بن خَلَفٍ، به. وقال: كنا ثلاثة رجالٍ وتسع نسوةٍ، وفينا نزلت: ﴿ ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جَبَلَة، عن أبي حَمْزَة، عن عطاء، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ لو تَزيَّلوا لعذَّبنا الذين كَفَروا منهم عذاباً أليما ﴾، يقول: لو تَزيَّل الكفارُ من المؤمنين لَعذَّبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقولُهُ: ﴿ إذ جَعلَ الذين كفَروا في قلُوبهم الحميَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليةِ ﴾، وذلك حين أَبَوا أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم)، وأبوا أن يكتبُوا: (هذا ما قاضي عليه محمدٌ رسولُ الله)، ﴿ فأنزل الله سكينَته على رسُوله وعلى المؤمنين وألزَمَهُم كَلِمةَ التقوى ﴾، وهي قولُ (لا إله إلا الله)، كما قال ابن جرير، وعبد الله بن الإمام أحْمد:

حدثنا الحسن بن قَزَعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثُوَيْرٍ، عن أبيه، عن الطفيل - يعني ابنُ أُبَيِّ بن كعب - عن أبيه: سَمع رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: ﴿ وألزَمَهُم كَلِمة التقوى ﴾، قال: «لا إلّه إلا الله»[3].

وهكذا رواه الترمذيُّ عن الحسن بن قَزَعة، وقال: «غَريبٌ لا نَعرِفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرعَةَ عنه فلم يَعرِفه إلا من هذا الوجه»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّماديُّ، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شِهاب، عن سعيد بن المُسيَّب: أن أبا هُرَيرة أخبره أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولُوا لا إلّه إلا الله، فمن قال: لا إلّه إلا الله، فقد عَصَم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابُه على الله»، وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً فقال: ﴿ إنهم كانُوا إذا قيل لهم لا إلّه إلا الله يستكبرون ﴾. وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها ﴾، وهي «لا إلّـه إلا الله، محمدٌ رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحُدَيبية، وكاتَبهم رسولُ الله - ﷺ - على قَضِيَّة المُدَّة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابنُ جرير من حديث الزُّهرِيِّ[4]. والظاهر أنها مُدرَجةٌ من كلام الزُّهرِيِّ، والله أعلم.

وقال مجاهدٌ: ﴿ كَلِمةُ التقوى ﴾: الإخلاصُ. وقال عطاءُ بن أبي رَباح: هي لا إلّه إلا الله وحدَه لا شَريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وقال يونس بن بُكَير، عن ابن إسحاقَ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَةَ، عن المِسْوَارِ: ﴿ وألزَمَهُم كَلِمة التقوى ﴾، قال: لا إلّه إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثَّوري، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن عَبَاية بن رِبْعيٍّ، عن علي: ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾، قال: لا إلّه إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابنُ عُمَر.

---

(١) المعجم الكبير ٤/٢٤.
(٢) ما بين القوسين سقط من أغلب النسخ.
(٣) مسند أحمد ١٣٨/٥، وتفسير الطبري ١٠٤/٢٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الفتح ١٢/١٥٠ - ١٥١.
(٤) تفسير الطبري ١٠٣/٢٦ - ١٠٤.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ وألزمَهُم كَلِمة التَّقوى ﴾، قال: يقولُ: شهادةُ أن لا إلّه إلا الله، وهي رأسُ كلِّ تقوَى.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾، قال: لا إلّه إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي لا إلّه إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الزُّهري: ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾، قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادةُ: ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾، قال: لا إلّه إلا الله، كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها[١].

﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾، أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

وقد قال النسائيُّ: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شَبَابة بن سَوَّار، عن أبي زَبْرٍ عبد الله بن العلاء بن زَبْرٍ، عن بُسْر بن عُبَيد الله، عن أبي إدريس، عن أُبَيٍّ بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿ إذ جَعَل الذين كَفرُوا في قلوبهمُ الحَمِيَّة حَمِيَّة الجاهلية ﴾، ولو حَمِيتُم كما حَمُوا لفسد المسجدُ الحرام. فبلغ ذلك عُمر فأغلظَ له. فقال: إنك لتعلَم أني كنتُ أدخلُ على رسول الله ـ ﷺ ـ فيُعلِّمني مما عَلَّمه الله. فقال عُمَر: بل أنتَ رجلٌ عندَك علم وقرآن. فاقرأ وعَلِّم مما عَلَّمك الله ورسولُه[٢].

وهذا ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في قِصَّة الحُدَيبية وقَضِية الصُّلح

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَارٍ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَة بن الزُّبير، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومَروان بن الحكم قالا: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ[٣] يُريدُ زيارَةَ البيتِ لا يُريد قتالاً، وساق معه الهَدْي سبعين بَدَنَة، وكان الناس سبعمائة رجلٍ، فكانت كل بَدَنَةٍ عن عَشَرةٍ، وخرجَ رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كان بعُسْفان لقيه بِشْرُ بن سفيانَ، الكَعبي، فقال: يا رسولَ الله، هذه قريشٌ قد سَمِعت بمسيرك فخرجَت معها العُوذ المطافيل[٤]، قد لَبِست جُلُودَ النمور، يُعاهِدُون الله ألَّا تدخلَها عليه عَنوةً[٥] أبداً، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ في خَيلِهم قد قَدَّموه إلى كُرَاع الغَمِيم[٦]. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا ويحَ قريشٍ! قد أكلتهُم الحربُ، ماذا عليهم لو خَلَّوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلُوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهِدُهم على الذي بَعَثني الله به حتى يُظهِرَني الله أو تنفردَ هذه السالفة»[٧]. ثم أمر الناسَ فَسلَكوا ذاتَ اليمين بين ظهرَي الحَمْض[٨] على طريق تخرجه على ثَنِيَّة المُرَارِ والحُدَيبية من أسفل مكة. قال: فسلَكَ بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قُرَيش قَتَرَة[٩] الجيش قد خالفُوا عن طريقهم، رَكَضُوا راجعين إلى

(١) أخرجه الطبري ٢٦/١٠٦.
(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ١/٢٠ ـ ٢١.
(٣) بعده في المسند: (عام الحديبية).
(٤) أي: الإبل معها أولادها. يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها.
(٥) أي: قهراً وغلبةً.
(٦) كُراعُ الغَمِيم: موضع بالحجاز بين مكة والمدينة.
(٧) السالفة: صفحة العنق، وهما سالفتان من جانبيه، وكنى بانفرادها عن الموت، لأنها لا تَنْفَرِد عما يليها إلا بالموت.
(٨) كذا، ومثله في الروض الأنف ٢/٢٢٦. وفي سيرة ابن هشام ٢/٣١٠: ظَهْرِي الحَمْش.
(٩) أي: غُبَاره.

قريش. فخرج رسولُ الله - ﷺ - حتى إذا سلك ثَنِيَّةَ المُرار، بَرَكت ناقته، فقال الناس: خَلأَت[1]. فقال رسولُ الله - ﷺ -: ما خَلأت، وما ذلك لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل عن مكةَ، والله لا تدعُونني قريشُ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صِلَةَ الرحم إلاّ أعطيتُهم إيّاها، ثم قال للناس: انزلوا. قالوا: يا رسولَ الله، ما بالوادي من ماءٍ يَنزل عليه الناسُ. فأخرج رسولُ الله - ﷺ - سهماً من كنانته فأعطاه رَجُلاً من أصحابه، فنزل في قَليب من تلك القُلُب، فَغرزه فيه فجاش بالماء[2] حتى ضَرَب الناس عنه بعَطَنٍ. فلما اطمأنَّ رسولُ الله - ﷺ - إذا بُدَيل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزاعَةَ، فقال لهم كقوله لِبشر بن سُفيان، فَرَجَعُوا إلى قُرَيشٍ فقالوا: يا معشَر قريشٍ، إنكم تَعجَلون على محمد، وإن محمداً لم يأتِ لقتالٍ، إنما جاء زائراً لهذا البيتِ مُعظِّماً لحقِّه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزُّهريُّ: كانت خُزَاعة[3] في عَيْبة رَسُولِ الله - ﷺ - مُشرِكها ومُسلِمها، لا يُخفُون على رسولِ الله - ﷺ - شيئاً كان بمكّة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلُها أبداً علينا عَنوة، ولا يتحدَّث بذلك العربُ. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حَفْصٍ أحدَ بني عامر بن لُؤَيٍّ، فلما رآه رسولُ الله - ﷺ - قال: هذا رجل غادر. فلما انتهى إلى رسول الله - ﷺ - كَلَّمه رسولُ الله - ﷺ - بنحوٍ ممَّا كَلَّم به أصحابه، ثم رَجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسولُ الله.

فبعثوا إليه الحُلَيسَ بن علقمَةَ الكناني، وهو يومئذ سيدُ الأحابيش، فلما رآه رسولُ الله - ﷺ - قال: «هذا من قوم يَتألَّهون[4]، فابعثوا الهَدْيَ». [في وجهه، فبعثوا الهدي][5] فلما رأى الهَدْي يَسِيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن مَحلِّه، رَجَع ولم يَصِل إلى رسول الله - ﷺ - إعظاماً لما رأى. فقال: يا معشرَ قُرَيش، قد رأيتُ ما لا يحل صَدُّه، الهدي في قلائده قد أكل أوباره من طُولِ الحبس عن مَحلّه. قالوا: اجلس، إنما أنتَ أعرابيٌّ لا علمَ لك. فبعثوا إليه عروةَ بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشرَ قُرَيش، إني قد رأيتُ ما يَلْقى منكم مَن تبعثون إلى مُحمَّد إذا جاءكم من التعنيف وسوءِ اللفظ، وقد عَرَفتم أنكم والدٌ وأني وَلَدٌ، وقد سَمِعت بالذي نابكُم، فَجمعت مَن أطاعني مِن قومي، ثم جئتُ حتى آسيتُكم بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمُتَّهم. فَخرج حتى أتى رسولَ الله - ﷺ - فجلس بين يَدَيه، فقال: يا محمدُ، جَمَعت أوباشَ الناس ثم جئتَ بهم لِبيضَتِك لِتَفُضَّها[6]، إنها قريشٌ قد خَرَجت معها العُوذ المطافيل، قد لَبِسُوا جلود النمور، يُعاهِدُون الله ألاّ تدخلها عليهم عَنوةً أبداً، وأيمُ اللّهِ لَكأنّي بهؤلاء قد انكشفُوا عنك غداً - قال: وأبو بكر قاعِدٌ خلفَ رسول الله - ﷺ -، فقال: امصُصْ بَظْر اللات[7]! أنحنُ نَنكشِفُ عنه؟! قال: من هذا يا محمدُ؟ قال: هذا ابنُ أبي قُحافَة. قال: أما والله لولا يدٌ كانت لك عندِي لكافأتك بها، ولكن هذه بها - ثم تناول لحية

(١) أي: بَرَكت. قال أبو ذر الخُشَني: (الخِلاء في الإبل بمنزلة الحِرَانِ في الدَّوابِّ).
(٢) جاش: ارتفع، والقَلِيبُ: البئر. والعَطَن: مبرك الإبل حول الماء.
(٣) لفظ السيرة ٢/٣١٢: (كانت خُزاعة عَيْبَة رسول الله). وفي نسخة منها: (عيبة نصح رسول الله). والعَيْبة في الأصل: وعاء من أدَم - جلدٍ - تجعل فيه الثياب والمتاع. والعرب تكنى عن الصُّدور والقلوب التي تحتوي على الضمائر المخفاة بالعياب، لأن الرجل يضع في عيبته حُرَّ متاعه. ويَكتم في صدره أخصَّ أسراره، فَعَيْبَةُ الرجل: هم موضع سِرِّه.
(٤) أي: يتعبدون ويعظمون الإله.
(٥) عن المسند.
(٦) بيضة الرجل: أهله وعشيرته. وتَفُضها: تكسرها. والكلام تمثيل.
(٧) البَظْرُ: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة. واللاّت: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سَبِّ عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه.

رسولِ الله ـ ﷺ ـ والمغيرةُ بن شُعبَةَ واقفٌ على رأس رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالحديد(١)، قال: فَقرَع يده(٢). ثم قال: أمسِك يَدَك عن لحيةِ رسول الله ـ ﷺ ـ قَبْلَ والله ـ لا تصِلُ إليك. قال: ويحكَ! ما أفظَعَكَ وأغلظَكَ! فتبسَّم رسول الله ـ ﷺ ـ قال: مَن هذا يا محمد؟ قال ـ ﷺ ـ «هذا ابنُ أخيكَ المغيرةُ بنُ شعبةَ». قال: أغُدَرُ، وهل غَسَلْت سوأتَكَ إلا بالأمس؟! قال: فَكَلَّمه رسول الله ـ ﷺ ـ بمثل ما كلَّم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأتِ يُريدُ حرباً. قال: فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنَعُ به أصحابه، لا يتوضَّأ وُضوءاً إلا ابتَدَرُوه، ولا يبصُق بصاقاً إلا ابتَدرُوه، ولا يسقطُ من شَعْرِهِ شيءٌ إلا أخذوه. فرجَعَ إلى قريش فقال: يا معشرَ قريش، إني جئتُ كسرى في مُلكه، وجئت قيصرَ والنجاشيَّ في ملكهما، والله ما رأيت مَلِكاً قطُّ مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسلِمُونه لشيءٍ أبداً، فَرَوا رأيَكُم. قال: وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ قبل ذلك بَعث خِراشَ بن أُمَيَّةَ الخُزَاعي إلى مكة، وحَمَله على جَمَلٍ له يقال له: الثعلبُ، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خِرَاش، فمنعتهُم الأحابيشُ حَتَّى أتَى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فدعا عُمَر ليبعثه إلى مكَّة، فقال: يا رسولَ الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بَني عديّ أحدٌ يمنعني. وقد عَرَفت قريشٌ عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلُّك على رجل هو أعَزُّ مني: عثمانُ بنُ عفَّان. قال: فدعاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فبعثه يُخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، مُعَظِّماً لحرمته. فخرج عثمانُ حتى أتى مكة، فلقيه أبانُ بنُ سَعيد بن العاص، فنزل عن دابَّته وحَمَله بين يَدَيه ورَدِفَ خَلْفَه، وأجاره حتى بَلَّغ رسالةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعُظَماء قريش، فَبَلَّغهم عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ ما أرسَلَه به، فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فَطُفْ به. فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسول الله قال: واحتبسته قريشٌ عندها، قال: وبَلَغ رسول الله أن عُثمان قد قُتِل.

قال محمد: فَحَدَّثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سُهَيل بن عمرو وقالوا: ائت محمداً فصالحه، ولا يكون في صُلحِه إلا أن يرجع عنَّا عامَه هذا، فوالله لا تَحدَّثُ العربُ أنه دَخَلها علينا عَنوَةً أبداً. فأتاه سُهَيلُ بنُ عَمرو، فلما رآه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: قد أراد القومُ الصلحَ حين بَعثُوا هذا الرجل. فلما انتهى إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ تكَلَّما وأطالا الكلام، وتراجَعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمرُ ولم يبقَ إلا الكتابُ، وثَبَ عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أوَليس برسُولِ الله؟ أوَلسنا بالمسلمين؟ أوَلَيسُوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطَى الذِلَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غَرْزَه(٣) حيث كان فإني أشهدُ أنه رسولُ الله. قال عُمر: وأنا أشهدُ. ثم أتى رسولَ الله فقال: يا رسولَ الله، أوَلسنا بالمسلمين؟ أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعْطَى الذِلَّة في ديننا؟ فقال: أنا عبدُ الله ورسولُه، لن أخالفَ أمره ولن يضيعني. ثم قال عمر: ما زلتُ أصومُ وأصلِّي وأتصدَّق وأعتِقُ من الذي صنعتُ مخافَةَ كلامي الذي تَكلَّمت به يومئذ حتى رجوت أن يكونَ خيراً.

قال: ثم دَعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عليَّ بن أبي طالب فقال: اكتُب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سُهَيل: لا أعرِفُ هذا، ولكن اكتُب: باسمك اللهُمَّ. فقال رسولُ الله: «اكتُب باسمِكَ اللهُمَّ. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله». فقال سُهَيلُ بن عمرو: لو شَهدت أنك رسول الله لم أقاتِلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، على وضع الحرب عَشْرَ سنين، يأمن فيها الناسُ، ويكُفُّ بعضهم عن بعض على أنه من أتى رسولَ الله من أصحابه بغير إذن وَلِيِّه رَدَّه عليهم، ومن أتى قُرَيشاً ممن معَ رسول الله لم يَرُدُّوه عليه،

---

(١) أي: بسلاحه. وفي صحيح البخاري: بالسيف.

(٢) أي: ضربها.

(٣) الغَرْزُ للإبل بمنزلة الرِّكاب للفرس، والمراد التمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفرس فلا يفارقه.

وأن بيننا عيبةً مكفوفةً[١]، وأنه لا إسلالَ ولا إغلالَ، وكان في شرطهم حين كَتبوا الكتاب: أنه مَن أحبَّ أن يدخُلَ في عَقدِ محمد وعَهدِه، دَخَل فيه، ومن أحبَّ أن يدخُل في عَقد قريش وعَهدهم، دخل فيه. فتواثبت خُزاعةُ فقالوا: نحن في عَقد رسول الله وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عَقد قُريشٍ وعَهدهم. وأنك ترجعُ عنَّا عامَنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عامٌ قابلٌ خرجنا عنك فتدخُلها بأصحابك، وأقمتَ بها ثلاثاً معكَ سلاحُ الراكبِ، لا تدخُلها بغير السيوف في القِرَب، فبينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يكتبُ الكتابَ إذْ جاءه أبو جندلٍ بن سُهَيل بن عمرو في الحديد قد انفلتَ إلى رسولِ الله، قال: وقد كان أصحابُ رسول الله خرجُوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ـ ﷺ ـ فلما رَأَوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تَحمَّل رسول الله على نفسِه، دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيم، حتى كادُوا أن يَهلكُوا. فلما رأى سُهيل أبا جندل قام إليه فضرَبَ وجهه وقال: يا محمد، قد تَمَّت[٢] القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقتَ. فقام إليه فأخذ بتلابيبه ـ قال: وصرَخ أبو جندلٍ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشركِ فَيَفتِنُوني في ديني؟ قال: فزاد الناسَ شرًّا إلى ما بهم، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يا أبا جندل اصبر واحتَسِب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معكَ من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؛ إنا قد عَقَدنا بيننا وبين القوم صُلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نَغدِرَ بهم. قال: فوثَب إليه عُمَر بن الخطاب فجعل يَمشي مع أبي جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر أبا جندلٍ، فإنما هم المشركون، وإنما دمُ أحدهم دمُ كلب. قال: ويُدني قائمَ السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذَ السيف فيضرب به أباه قال: فَضَنَّ الرجلُ بأبيه. قال: وَنَفَذتِ القضية، فلما فَرَغا من الكتاب، وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصلي في الحرم، وهو مُضطَرب في الحِلّ[٣]، قال: فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا أيها الناسُ، انحَرُوا واحلِقُوا. قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل ثم عاد بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسولُ الله ـ ﷺ ـ فدخل على أُمِّ سَلَمة فقال: يا أُمَّ سلمة، ما شأنُ الناس؟. قالت: يا رسولَ الله، قد دخلهم ما رأيتَ، فلا تُكلِّمَنَّ منهم إنساناً، واعمِد إلى هَديك حيث كان فانحَره واحلِق، فلو قد فعلتَ ذلك فعلَ الناسُ ذلك. فخرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ لا يُكلِّم أحداً حتى أتى هَديه فنحَره، ثم جلسَ فَحلَق، قال: فقام الناسُ ينحَرُون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مَكَّةَ والمدينةِ في وسط الطريق نزلت سورةُ الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه[٤]، وهكذا رواه يُونسُ بن بُكَير وزيادُ البَكّائي عن ابن إسحاق بنحوه[٤] وفيه إغراب. وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، به نحوه[٤] وخالفه في أشياء. وقد رواه البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه، فساقه سياقةً حسنةً مطوَّلةً بزياداتٍ جَيِّدةٍ، فقال في كتاب الشروط من صَحيحه:

حدثنا عبدُ الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمرٌ، أخبرني الزُهريُّ، أخبرني عروةُ بن الزبير، عن المِسْوَر بن مَخْرَمةَ ومَرْوان بن الحكم، يُصَدِّق كلُّ واحدٍ منهما حديثَ صَاحِبه، قالا: خَرج رسولُ الله

(١) مضى أول الحديث تفسير العَيْبَة. ومعنى مكفوفة: مَشْدُودة على ما فيها، والمعنى أن بينهم صدراً نقياً من الغِلِّ والخداع، مطويًّا على الوفاء والصلح.

ومعنى (لا إسلال ولا إغلال)، الإسلالُ: السرقة الخفية، والإغلال: الخيانة.

(٢) كذا في النسخ، وفي المسند: (قد لَجّتِ القضية). ومعنى لجّت: وجبت.

(٣) أي: كانت أبنيته مضروبة في الحِلّ، وكانت صلاته في الحرم، لقرب الحديبية من الحرم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٢٣/٤ ـ ٣٢٦، وسيرة ابن هشام ٣٠٨/٢ ـ ٣١٩، والمسند ٣٢٨/٤ ـ ٣٣١.

ـ ﷺ ـ زَمَن الحديبية [(١)في بضعَ عَشرةَ مائةَ من أصحابه، فلما أتى ذا الحُلَيفة قلّد الهدي وأشعَره(٢)، وأحرم منها بعُمْرة وبَعث عيناً له من خُزاعَة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط(٣) أتاه عينُه فقال: إن قريشاً جَمعُوا لك جُمُوعاً، وقد جَمعوا لك الأحابيشَ، وهم مقاتلوكَ وصادُّوكَ ومانعُوكَ. فقال: أشيرُوا أيُّها الناس عَليَّ، أتَرونَ أن نَميل على عيالهم. وذراريِّ هؤلاء الذين يُريدُون أن يَصُدُّونا عن البيت؟ ـ وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذَرَارِيِّ هؤلاء الذين أعانوهم ـ فإن يأتونا كان الله قد قَطعَ عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين. وفي لفظ: (فإن قعدوا قعدُوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عُنُقاً قَطعها الله، أم تَرَون أن نَؤمَّ البيت فمن صَدّنا عنه قاتلناه؟. فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجتَ عامِداً لهذا البيتِ لا نُريد قتل أحدٍ ولا حَرباً، فتوجّه له، فمن صدنا عنه قاتلناه ـ وفي لفظٍ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: الله ورسولُه أعلَم أنما جئنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن مَن حَال بيننَا وبينَ البيتِ قاتلناه. فقال النبي ـ ﷺ ـ: فروحوا إذن ـ وفي لفظ: فامضوا على اسم الله](١).

حتى إذا كانُوا ببعضِ الطريقِ، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إنَّ خالد بن الوليد في خَيلٍ لقُرَيشٍ طليعةً، فَخُذوا ذاتَ اليمين». فوالله ما شَعَر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة(٤) الجيش، فانطلق يركضُ نذيراً لقُريشٍ، وسار النبيُّ ـ ﷺ ـ حتى إذا كانَ بالثنيَّةِ التي يُهبطُ عليهم منها بَرَكت به راحلتُه، فقال الناس: «حَلْ حَلْ»(٥)، «فألَحّت، فقالوا: خَلأت(٦) القَصْواء، خَلأتِ القَصْواء. فقال النبي ـ ﷺ ـ: ما خَلأت القصواءُ، وما ذاكَ لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألُوني خُطّة(٧) يُعظِّمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتُهم إيَّاها. ثم زَجَرها فَوَثَبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحُدَيبية على ثَمَدٍ قليل الماء يَتبرَّضُه(٨) الناسِ تَبرَضاً، فلم يلبث الناس حتى نَزَحُوه، وشُكي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ العطشُ، فانتزع من كِنَانته سَهماً ثم أمرهم أن يجعلُوه فيه، فوالله ما زال يَجيش لهم بالرِّي حتى صَدُّوا عنه. فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن وَرْقاء الخُزاعي في نَفَرٍ من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ(٩) نُصح رسول الله من أهل تهامة، فقال: إني تركتُ كَعْب بن لُؤَيّ وعامر بن لُؤَيٍّ، نزلوا أعدادَ مياهِ الحُدَيبية معهم العُوذ المَطافيلَ، وهم مُقاتِلُوك وصادُّوك عن البيت. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إنا لم نَجِيءْ لقتالِ أحدٍ، ولكن جئنا مُعتَمِرين، وإن قُرَيشاً قد نَهَكَتْهُمُ الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاءُوا ماددتُهم مُدّة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءُوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فَعلُوا، وإلا فقد جَمُّوا(١٠)، وإن هم أبَوا فوالذى نفسي بيده لأقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتى تَنفَرِد سالفتي. وَلَيُنفِذَنَّ الله أمره».

(١ ـ ١) ما بين القوسين غير ثابت في كتاب الشروط، وقد أورده البخاري في كتاب المغازي، الفتح ٧/٤٥٣، وبعض الروايات في مسند أحمد ٤/٣٢٨.

(٢) إشعار الهَدْي: أن يشق أحد جانبي سَنَام البَدَنَة حتى يسيل دمها، ويجعل ذلك علامةً يُعرف بها أنها هَديٌ. وتقليد الهدي: أن يُجعَلَ في عنقها ما يعلم به أنها هَدْيٌ.

(٣) غدير الأشطاط: موضع قريب من عُسفان. وعُسفانُ على مرحلتين من مكة.

(٤) القَتَرة: الغبار الأسود الذي يُثيره الجيش.

(٥) حَلْ حَلْ: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.

(٦) الخلاءُ للإبل كالحِرَانِ للخيل. وقال ابن قُتيبة: لا يكون الخلاء إلا للنوق خاصّةً. وقال ابن فارس: لا يقال للجمل: خَلأ، لكن: ألَحّ. والقصواء: ناقة رسول الله.

(٧) أي: خصلةً.

(٨) أي: حفيرة فيها ماء مَثْمُود، أي: قليل. والتَّبرُّض: الأخذ قليلاً قليلاً.

(٩) تقدم تفسير العيبة في الحديث السابق.

(١٠) أي: استراحوا.

قال بُدَيل: سَأُبلِغُهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قُريشاً فقال: إنا قد جئنا من عندِ هذا الرجل، وسَمِعناه يقول قولاً، فإن شئتُم أن نعرضَه عليكم فعلنا. فقال سُفهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تُخبرَنا عنه بشيءٍ. وقـال ذَوُو الرأي منهم: هات ما سَمِعتَه يقول. قال: سَمِعتُه يقول كذا وكذا. فَحدَّثهم بما قال رسول الله ـ ﷺ ـ، فقام عروةُ بنُ مسعودٍ فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالدِ؟ قالوا: بلى. قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استَنْفَرْتُ أهل عُكاظَ، فلما بَلَّحوا[1] عليَّ جئتكُم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشد فاقبلوها ودَعُوني آتِه. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يُكلِّم النبي ـ ﷺ ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ له نحواً من قوله لبُدَيل بن ورقاء. فقال عُروةُ عند ذلك: أيْ محمد، أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك، هل سَمِعت بأحدٍ من العرب اجتاح أصلَه قبلَك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وُجُوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً[2] من الناس خليقاً أن يَفِرُّوا ويَدَعوك. فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: امصُص بَظْر اللاتِ! أنحنُ نَفِرُّ وندعُهُ؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يَدٌ كانت لَكَ عندي لم أجزك بها لأجبتُكَ. قال: وجَعل يُكلِّم النبي ـ ﷺ ـ فكلما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بنُ شعبةَ ـ رضي الله عنه ـ قائم على رأس النبي ـ ﷺ ـ ومعه السيف وعليه المِغْفَر[3] فكلما أَهْوى عُروَةُ بيده إلى لحية النبي ـ ﷺ ـ ضَرَب يدَه بنعل[4] السيف، وقال له: أخِّر يدك عن لحية النبي ـ ﷺ ـ. فرفع عُروَةُ رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرةُ بنُ شعبةَ. فقال: أي غُدَرُ، ألست أسعَى في غَدْرتك[5]؟! وكان المغيرةُ بن شُعبَةَ صَحِب قوماً في الجاهلية فقَتَلهم وأخذَ أموالهم، ثم جاء فأسْلَمَ. فقال النبي ـ ﷺ ـ: أما الإسلام فَأقبلُ، وأما المالُ فلستُ منه في شيء[4]. ثم إن عُروَةَ جعل يرمُق أصحابَ النبيِّ ـ ﷺ ـ بعينَيه، قال: فوالله ما تَنَخَّم رسول الله نُخامة إلا وقعت في كَفِّ رجُلٍ منهم، فَدَلك بها وجهَه وجِلْدَه، وإذا أمَرَهم ابتدَرُوا أمرَه، وإذا توضأ كادوا يَقتَتِلون على وَضُوئه، وإذا تَكَلَّم[7] خَفَضُوا أصواتَهم عنده، وما يُحِدُّون النَظَر إليه، تعظيماً له. فَرجَع عُروَةُ إلى أصحابه فقال: أيْ قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على كسرى وقيصرَ والنجاشي، والله إنْ رأيتُ ملكاً قط يُعظِّمه أصحابه ما يُعظِّم أصحابُ محمد محمداً، والله إن تَنَخَّم نُخامة إلا وَقَعت في كَفِّ رجل منهم، فَدَلك بها وجهه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتدرُوا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه، وإذا تكلم خَفَضُوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون النظر إليه تعظيماً له. وإنه قد عَرَض عليكم خطّة رُشْدٍ فاقبلوها. فقال رجل منهم من بني كِنانَة: دَعُوني آتِه. فقالوا: ائتِه. فلما أشرفَ على النبيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابِهِ قال النبي ـ ﷺ ـ: هذا فلانٌ، وهو من قوم يُعظِّمون البُدْنَ، فابعثوها له. فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبّون، فلما رأى ذلك قال: سُبحَانَ اللَّهِ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت. فلما رَجَع إلى أصحابِهِ قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأُشْعِرَت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حَفص»، فقال: دعوني آتِهِ. فقالوا: ائتِهِ. فلما أشرف عليهم قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رجل فاجر. فجعل يُكَلِّم النبي ـ ﷺ ـ فبينما هو يُكلِّمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

---

(١) أي: اجتمعوا.
(٢) الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى.
(٣) المِغْفَر: زَرَدٌ يُنسج من الدُّرُوع على قدر الرأس، يُلْبس تحت القلنسوة.
(٤) نَعْلُ السيف: ما يكون أسفل القراب من فِضَّة أو غيرها.
(٥) أي: ألست أسعى في دفع شرِّ غدرتك.
(٦) يريد ـ عليه السلام ـ أنه يقبل منه الإسلام، فأما ما أخذه من مال فلا نتعرّض له لكونه أخذه غدراً.
(٧) في بعض نسخ الصحيح: تكلّموا.

وقال معمر: أخبرني أيوبُ، عن عِكْرِمَة أنه قال: لما جاء سُهَيلُ بنُ عمرو قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: قد سَهُل لكم من أمرِكم.

قال معمرٌ: قال الزُهريُّ في حديثه: فجاء سُهَيلُ بن عمرو فقال: هاتِ اكتُب بيننَا وبينكَ كتاباً. فدعا النبيُّ ـ ﷺ ـ الكاتبَ، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهَيلٌ: أما (الرحمنُ) فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: (باسمِكَ اللهُمَّ)، كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: والله لا نكتبُها إلا: (بسم الله الرحمن الرحيم). فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اكتب: باسمِكَ اللهُمَّ». ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله». فقال سُهَيلٌ: والله لو كُنّا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صَدَدناك عن البيتِ ولا قاتلناكَ، ولكن اكتُب: (محمدُ بنُ عبدِ الله). فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «والله إني لرسولُ الله وإن كَذَّبتموني. اكتُب: محمدُ بن عبد الله». قال الزُهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خُطَّةً يُعَظِّمون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها». فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فَنطُوفَ به. فقال: سُهَيل: والله لا تتحدَّثُ العربُ أنا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[1]، ولكن ذلك من العام المُقبلِ. فكتب، فقال سُهَيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رَجُلٌ وإن كان على دِينك إلا رَدَدْته إلينا. فقال المسلمون: سُبحانَ الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندلِ بن سهيل بن عمرو يرسُفُ[2] في قُيوده، قد خرج من أسفل مكَّةَ حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سُهَيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدَّه إليّ. فقال النبي ـ ﷺ ـ «إنا لم نَقْضِ الكتابَ بعدُ». قال: فوالله إذاً لا أُصالِحُك على شيءٍ أبداً. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: فأجِزْه لي. فقال: ما أنا بمجيزِ ذلكَ لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعلٍ. قال مِكْرَز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشَرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟ ألا تَرَوْن ما قد لقيتُ؟! وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله ـ عزَّ وجلّ ـ. قال عُمر ـ رضي الله عنه ـ: فأتيتُ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ؟ قال: بلى. قلتُ: فَلِم نُعطى الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصِري. قلت: أولستَ كنتَ تُحَدِّثنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنَا نأتيه العام؟. قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَّوِّفٌ به. قال: فأتيت أبا بكر فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قلتُ: فلم نُعطى الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: أيُّها الرجلُ، إنه رسولُ الله، وليس يعصِي رَبَّه، وهو ناصرُه، فاستمسِك بغرْزِه، فوالله إنه على الحقِّ، قلت: أوَلستَ كان يحدثنا أنا سنأتي البيتَ ونَطُوف به؟ قال: بلى. قال: أفأخبرَكَ أنكَ تأتيه العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتَطُوف به.

قال الزهريُّ: قال عُمَر: فَعَملت لِذلِكَ أعمالاً. قال: فلما فَرَغ من قَضِيَّةِ الكتاب قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: قوموُا فانحَروُا ثم احلِقُوا. قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاثَ مرات!! فلما لم يَقُم منهم أحدٌ دخل على أم سَلَمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت أمُّ سَلَمة: يا نبي الله، أتُحِبُّ ذلك؟ اخرُج ثم لا تُكَلِّم أحداً منهم كلمةً حتى تنحَرَ بُدْنَكَ وتدعوَ حالِقَكَ فَيحلِقَكَ. فخرَجَ فلم يُكَلِّم أحداً منهم حتى فَعَل ذلك، نَحَر بُدنه، ودعا حَالِقَه فَحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فَنحروا وجعل بعضُهم يَحلِقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتلُ بعضاً غمًّا، ثم جاءه نِسوةٌ مؤمناتٌ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿ بِعِصَمِ الكَوافِرِ ﴾. فطَلَّق عُمَر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوَّج إحداهما

(١) ضُغْطَة: قهراً.
(٢) أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب القيد.

معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي - ﷺ - إلى المدينة، فجاءه أبو بَصِير - رجلٌ من قُرَيش - وهو مسلم، فأرسلُوا في طَلَبه رَجُلَين، فقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا. فدفعه إلى الرجلين فخرجَا به حتى بلغا ذا الحُلَيفة، فنزلوا يأكلون من تَمرٍ لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرَى سَيفَك هذا يا فلانُ جيداً، فاستلَّه الآخرُ، فقال: أجَل! والله إنه لجَيِّدٌ، لقد جَرَّبت منه ثم جَرَّبتُ فقال أبو بَصِير: أرِني أنظرْ إليه. فأمكنه منه فَضَربه حتى بَرَدَ[١] وفرَّ الآخرُ حتى أتى المدينةَ، فدخلَ المسجدَ يعدُو، فقال رسولُ الله - ﷺ - حين رآه: لقد رأى هذا ذُعْراً. فلما انتهى إلى النبي - ﷺ - قال: قُتِل - والله - صاحبي، وإني لمقتولٌ. فجاء أبو بَصير فقال: يا رسولَ الله، قد - والله - أوفى الله ذِمَّتك، قد رَدَدتني إليهم ثم نجاني الله منهم. فقال النبيُّ - ﷺ -: وَيلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ[٢]! لو كان له أحدٌ. فلما سَمع ذلك عَرَف أنه سَيَرُدُّهُ إليهم، فخرج حتى أتى سِيْفَ البحر[٣]، قال: وتفلّت منهم أبو جندل بن سُهَيل، فَلَحِق بأبي بَصِير، فَجَعل لا يخرُج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لَحِق بأبي بَصير، حتى اجتمعت منهم عصابةٌ، فوالله ما يَسمَعُون بعير خَرجَت لقُرَيش إلى الشام إلا اعترضُوا لها فَقتلُوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قُرَيشُ إلى النبيِّ - ﷺ - تُناشده الله والرَّحِم لَمَّا أرسل إليهم: «فمن أتاه منهُم فهو آمن». فأرسل النبيُّ - ﷺ - إليهم، وأنزلَ الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وهو الذي كَفَّ أيديهم عنكُم وأيديكُم عنهم ببطن مكة ﴾ حتى بلغ: ﴿ حَمِيَّةَ الجاهلية ﴾، وكانت حَمِيَّتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه رسولُ الله، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالُوا بينهم وبين البيت.

هَكَذا ساقَه البُخاريُّ هاهنا[٤]. وقد أخرَجه في التفسير، وفي عُمْرة الحُدَيبية، وفي الحجِّ، وغير ذلك من حديث معمر وسُفيان بن عيينة، كلاهما عن الزُهريّ، به، ووقع في بعض الأماكن عن الزُهري، عن عروة، عن مَرْوان والمِسْوَرِ بن مُخْرَمة، عن رجالٍ من أصحابِ النبيِّ - ﷺ - بذلك. وهذا أشبَهُ والله أعلم. ولم يَسُقه أبسط من هاهنا، وبينَه وبين سياق ابن إسحاق تَبَايُنٌ في مواضع، وهناك فوائد يَنْبَغي إضافتُها إلى ما هاهنا، ولذلك سُقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعانُ وعليه التُكلان، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العزيزِ الحكيمِ.

وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمدُ بن إسحاقَ السُّلَمِيُّ، حدثنا يَعْلَى، حدثنا عبد العزيزبن سِيَاه، عن حَبِيب بن أبي ثابت قال: أتيتُ أبا وائل أسألُه فقال: كنا بصِفِّينَ فقال رجلٌ: ألم تَرَ إلى الذين يُدْعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نَعَم. فقال سَهل بن حُنَيف: اتَّهِمُوا أنفُسَكم، فلقد رأيتُنا يومَ الحُدَيبية - يعني الصُلحَ الذي كان بين النبي - ﷺ - والمشركين، ولو نَرَى قِتالاً لَقَاتلنا، فجاء عُمَر فقال: ألسنا على الحقِّ وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجَنَّة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى. قال: ففيم نُعْطَى الدنيَّة في دِيننا ونَرجِعُ ولَمَّا يحكم الله بَيننا؟ فقال: يا ابن الخَطَّاب، إني رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَني الله أبداً. فرجع مُتَغَيِّظاً فلم يَصبِرْ حتى جاء أبَا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنَا على الحقِّ وهُم على الباطل، فقال: يا ابنَ الخَطَّابِ، إنه رسولُ الله، ولَن يُضَيِّعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح[٥].

وقد رَواه البُخاريُّ أيضاً في مواضِعَ أُخر، ومسلم، والنسائيُّ، من طُرُق أُخر عن أبي وائل شَقِيق بن

---

(١) أي: خمدت حواسُّه، وهو كناية عن الموت، لأن الميِّت تسكُن حركتُه، وأصل البَرْد السكونُ.

(٢) وَيْلُ أمِّه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم. وسَعَر الحرب: أوقدها، يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير لها. والمِسْعَرُ في الأصل: ما تُحرَّك به النار من آلة الحديد.

(٣) أي: شاطئه.

(٤) فتح الباري، كتاب الشروط ٥/٣٢٩ - ٣٣٣، وكتاب الحج ٣/٥٤٢، وكتاب المحصر ٤/١٠، وكتاب المغازي ٧/٤٤٤، ٤٥٣.

(٥) فتح الباري، تفسير سورة الفتح ٨/٥٨٧.

سَلَمَةَ، عن سَهْلِ بن حُنَيف، به. وفي بعض ألفاظه: «يا أيها الناسُ، اتهموا الرَّأي، فلقد رأيتُني يومَ أبي جندلٍ ولو أقدر على أن أَرُدَّ على رسول الله ـ ﷺ ـ أمرَه لرددته». وفي رواية: «فنزلت سُورة الفتح، فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عُمَر بن الخطاب فقرأها عليه»(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد، عن ثابتٍ، عن أنسٍ أن قُرَيشاً صالَحُوا النبيَّ ـ ﷺ ـ فيهم سُهَيل بن عمرو، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ لعليٍّ: «اكتُب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سُهَيل: لا نَدري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتُب ما نعرف: باسمك اللهُمَّ. فقال: «اكتُب: من محمدٍ رسولِ الله». قال: لو نعلم أنَّك رسولُ الله لاتبعناك، ولكن اكتُب اسمَك واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «اكتُب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبي ـ ﷺ ـ أن مَن جاء منكم لا نَرُدُّه عليكم، ومن جاءكم منا رَدَدتُموه علينا. فقال: يا رسول الله، أتكْتب هذا؟ قال: «نَعم، إنه من ذَهب منا إليهم فأبعدَه الله»(٢).

رواه مسلم من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، به(٢).

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بنُ مَهدِيٍّ، حدثنا عِكْرِمَةُ بن عَمَّار قال: حدثني سِمَاك، عن عبد الله بن عَبَّاسٍ قال: لما خَرجَتِ الحُرورِيَّةُ اعتزلُوا، فقلت لهم: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم الحُدَيبية صالَحَ المشركين، فقال لِعلي: اكتُب يا علي: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله». قالوا: لو نعلم أنَّك رسولُ الله ما قاتلناك. فقال رسولُ الله: امحُ يا علي، اللهُمَّ إنك تَعلم أني رسولُك، امحُ يا عليُّ واكتُب: هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبد الله. والله لَرَسُول الله خيرٌ من علي، وقد محا نَفْسه، ولم يكن محوُه ذلك يَمْحَاهُ من النُّبوَّةِ، أَخرَجْتُ من هَذِهِ؟ قالوا: نعم(٣).

ورواه أبُو داود من حديثِ عِكْرِمَةَ بن عَمَّار اليَمَامِيِّ، بنحوه(٣).

وروى الإمامُ أحمدُ، عن يحيى بن آدَمَ: حدثنا زُهَير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لَيْلى، عن الحَكَم، عن مِقْسم، عن ابن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نَحَرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم الحُدَيبية سبعينَ بَدَنةً فيها جَمَلٌ لأبي جهلٍ، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّت كما تَحِنُّ إلى أولادِها(٤).

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد أُرِيَ في المنام أنه دَخَل مَكَّة وطافَ بالبيت، فأخبر أصحابَه بذلك وهو بالمدينة،

---

(١) فتح الباري، كتاب الجزية ٦/٢٨١، وكتاب الاعتصام ١٣/٢٨٢، وكتاب المغازي ٧/٤٥٧. ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤١١ ـ ١٤١٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/١٠٠.

(٢) مسند أحمد ٣/٢٦٨، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤١١.

(٣) مسند أحمد ١/٣٤٢، وسُنَن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٤٥.

والحَرُورِيَّة: طائفة من الخوارج منسوبون إلى حَرُوراء، وهو موضع بالكوفة، وكان خروجهم على الإمام علي. وكان وفدُ الشام قد اعترض عند كتابة وثيقة التحكيم على وصف الإمام علي بأنه أمير المؤمنين، فأمر علي ـ رضي الله عنه ـ بمحوها، وقد حاجَّهم عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ بما كان من رسول الله ـ ﷺ ـ في كتابة وثيقة الحديبية.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٣١٤ ـ ٣١٥.

فلما ساروا عام الحُدَيبية لم يَشُكَّ جماعةٌ منهم أن هذه الرُّؤيا تَتَفسَّر هذا العام، فلما وَقع ما وَقع من قَضِيَّة الصُّلح ورجعُوا عامَهم ذلك على أن يَعُودُوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيءٌ، حتى سأل عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكُن تُخبرنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: بلى، أفأخبرتكَ أنك تأتيه عامَك هذا؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. وبهذا أجاب الصديقُ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً حَذو القُـذةُ بالقُذَّة[١]. ولهذا قال تعالى: ﴿ لقد صَدَقَ الله رسولَه الرُّؤيا بالحقِّ لتدخُلنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله ﴾: هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقولُهُ: ﴿ آمنين ﴾، أي: في حال دخُولكم. وقولُهُ: ﴿ مُحلِّقين رُءُوسَكم ومُقصِّرين ﴾، حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا مُحلِّقين ومُقصِّرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم مَن حَلَق رأسه ومنهم مَن قَصَّره. وثبت في الصحيحين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «رَحِم الله المُحَلِّقين». قالوا: والمُقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «رَحِم الله المُحلِّقين»... قالوا: والمقصِّرين يا رسولَ الله؟ قال: «رَحِم الله المُحَلِّقين». قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة[٢].

وقولُهُ: ﴿ لا تَخافُون ﴾: حالٌ مُؤكِّدة في المعنى، فأثبت لهم الأمنَ حالَ الدُّخول، وَنفَى عنهم الخوفَ حال استقرارهم في البَلَد لا يخافُون من أحدٍ. وكان هذا في عُمرَة القضاء في ذي القِعدة سنة سَبع؛ فإن النبيَّ ـ ﷺ ـ لما رَجَع من الحُدَيبية في ذي القِعدة رَجَع إلى المدينة فأقام بها ذا الحِجَّةِ والمحرَّم، وخَرَج في صَفَر إلى خيبرَ ففتحَها الله عليه، بعضها عَنوةً وبعضَها صلحاً، وهي إقليمٌ عظيمٌ كثيرُ النخل والزُّروع، فاستخدم مَن فيها مِن اليهود عليها على الشطر، وقَسَّمها بين أهل الحُدَيبية وحدهم، ولم يشهدها أحدٌ غيرهم إلا الذين قَدِموا من الحبشة، جعفرُ بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يَغِب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دُجانة سِماكَ بن خَرَشة. كما هو مُقرَّر في موضعه. ثم رَجَع إلى المدينة. فلما كان في ذي القعدة سِنة سبع خَرَج إلى مكّة معتمراً هو وأهل الحُدَيبية، فأحرم من ذي الحُلَيفة، وساق معه الهَدْي، قيل: كان سِتِّين بَدَنة. فلَبَّى وسار وأصحابُه يُلَبّون. فلما كان قَريباً من مَرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامَه. فلما رآه المشركون رُعِبُوا رُعباً شَدِيداً، وظنُّوا أن رسول الله ـ ﷺ ـ يغزُوهم، وأنه قد نكث العهدَ الذي بينه وبينهم مِن وَضْع القتال عشر سنين، وذَهَبُوا فأخبروا أهلَ مكّة، فلما جاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ فنزل بمرِّ الظهران[٣] حيث ينظرُ إلى أَنصاب الحرم بَعثَ السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطنِ يَأجَجَ[٤]، وسار إلى مكّة بالسيوف مُغمَدَة في قُرُبها، كما شارَطهُم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بَعثَت قريشٌ مِكْرَز بن حَفص فقال: يا مُحمد، ما عَرَفناك تنقُض العهدَ. قال: وما ذاك؟ قال: دخلتَ: علينا بالسلاح والقِسِيِّ والرماح. فقال: لم يكن ذلك، وقد بَعثنا به إلى يَأجَج. فقال: بهذا عَرَفناك، بالبرِّ والوفاء. وخَرَجت رُءُوس الكُفّار من مكّة لئلا ينظرُوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وإلى أصحابه غيظاً وحَنَقاً. وأما بَقيَّة أهلِ مكّةَ من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطُّرُق وعلى البُيُوتِ ينظرون إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وأصحابِه، فَدَخلها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين يَدَيه

---

(١) القُذَّة: ريشة الطائر كالنَّسر والصقر بعد تسويتها وإعدادها لِتُركَّب في السهم، وفي الحديث: «لتركبُنَّ سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة»، يُضرَبُ مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. وكانت القُذَّة تقدَّر على قدر صاحبتها.

(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٩٦ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

(٣) مَرّ: قرية، والظَّهران: واد. وبِمَرٍّ عيون كثيرة ونخل وجُمَّيز، وهو لأسْلَم وهُذَيل وغاضِرَة، وبينه وبين مكة خمسة أميال. والأنصاب: جمع نُصُب، وهو: علامة تُنصَبُ عند الحدّ أو الغاية، وكانت هذه الأنصاب تُحدِّد الحرم وتُميِّزه من الحل.

(٤) يأجج: اسم موضع على ٨ أميال من مكة.

أصحابُه يُلَبُّون، والهَدْيُ قد بَعَثه إلى ذي طُوَى[١]، وهو راكبٌ ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحُدَيبية، وعبد الله بن رَوَاحة الأنصاري آخذٌ بزِمام ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ يقودها، وهو يقول[٢]:

باسْمِ الذي لا دينَ إلا دينُهُ   باسْمِ الذي مُحمدٌ رَسُولُه
خلّوا بَني الكُفّارِ عَنْ سَبيلِه   اليومَ نَضْرِبْكم على تأويلِه
كَمَا ضَرَبْناكُم عَلى تَنْزيلِه   ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عَنْ مَقيلِهِ
وَيُذْهِلُ الخَليلَ عَنْ خَليلِه   قَدْ أَنْزَل الرَّحْمَنُ في تَنْزيلِه
في صُحُفٍ تُتْلى عَلى رَسُولِه   بأنّ خَيرَ القَتْلِ في سَبيلِهِ
يا رَبِّ إني مُؤمنٌ بقيلِه

فهذا مجموعٌ من رواياتٍ مُتفرِّقةٍ.

قال يونس بن بُكير، عن محمد بن إسحاقَ: حدثني عبدُ الله بن أبي بكر بن حَزْم قال: لما دَخَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ مكة في عُمرةِ القضاء، دخلها وعبد الله بن رَوَاحة آخذٌ بخطام ناقته ـ ﷺ ـ، وهو يقول:

خلّوا بَني الكُفّارِ عَنْ سبيله   إنّي شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلّوا فَكُلُّ الخَيْرِ في رَسُوله   يَا رَبِّ إنّي مُؤمنٌ بقيلِهِ
نَحنُ قَتَلْناكم على تأويلِهِ   كَمَا قَتَلْناكُمْ عَلَى تَنْزيلِه
ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عَنْ مَقيلِه   وَيُذْهِلُ الخليلَ عَنْ خَليلِه[٣]

وقال عبد الرزاق[٤]: أخبرنا معمر، عن الزُّهري، عن أنس بن مالك قال: لما دَخَل رسول الله ـ ﷺ ـ مَكّة في عُمرةِ القَضاء مَشَى عبدُ الله بن رواحة بين يَدَيه، وفي رواية: وابنُ رَوَاحةَ آخِذٌ بغَرْزِهِ، وهو يقول:

خلّوا بَني الكُفّارِ عَنْ سَبيلِهِ   قَدْ نَزّلَ الرَّحْمَنُ في تَنْزيلِهِ
بأنَّ خَيْرَ القَتْلِ في سَبيلِه   يَا رَبِّ إنّي مُؤمنٌ بِقيلِهِ
نَحنُ قَتَلْناكُمْ على تأويله   كَمَا قَتَلْناكُمْ عَلَى تَنْزيلِه
ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عَنْ مَقيلِهِ   وَيُذْهِلُ الخَليلَ عَنْ خَليلِهِ

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمَّد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعني ابنَ زكريا ـ عن عبد الله ـ يعني ابنَ عثمان ـ عن أبي الطُّفَيل، عن ابن عباس أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما نزل مَرَّ الظهران في عُمرته بَلَغ أصحابَ رسول الله ـ ﷺ ـ أن قريشاً تقول: ما يتباعَثُون من العَجَفِ[٥]. فقال أصحابُه: لو انتحرنا من ظَهرنا فأكلنا من لَحمِه، وحَسَونا من مَرَقِه أصبحنا غداً حين ندخُل على القوم وبنا جَمامَةٌ[٦]. قال: لا تفعلُوا ولكنِ اجمَعُوا لي من أزوادكم. فجمعوا له وبَسَطوا الأنطاعَ[٧]، فأكلوا حتى تَرَكُوا[٨] وحَثَا كلُّ واحدٍ منهم في جِرَابه. ثم أقبل

(١) ذو طُوَى: موضع بمكة.
(٢) انظر المغازي للواقدي ٢/٧٣٥ ـ ٧٣٦، والبداية والنهاية ٤/٢٣١، ٥/٢٩٢.
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/٣٧١.
(٤) أخرجه أبو يعلى بإسناده إلى عبد الرزاق، المسند ٣/٤٣٢. وانظر فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٥٠١.
(٥) لعل المعنى: ما يستطيعون الاستيقاظ من الهزال.
(٦) الجمامة: الراحة.
(٧) الأنطاع: جمع نِطْع، وهو: بساط من جلدٍ.
(٨) في المسند: حتى تولّوا.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى دخل المسجدَ وقعدت قُرَيشٌ نحو الحِجْرِ، فاضطبع بردائه، ثم قال: لا يَرى القومُ فيكم غَمِيزةً[1]. فاستلم الركن ثم رَمَل حتى إذا تَغيَّب بالركن اليَماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قُرَيشٌ: ما ترضَون بالمشي، أما إنكم لَتنقُزُون[2] نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أطوافٍ، فكانتْ سُنَّة. قال أبو الطُّفَيل: فأخبرني ابنُ عباسٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَعَل ذلك في حَجَّةِ الوداع[3].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا حَمَّاد بنُ زيدٍ، حدثنا أَيُّوبُ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قَدِم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأصحابُه مَكَّة وقد وَهَنتهم حُمَّى يَثربَ، ولَقُوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدَم عليكم قومٌ قد وهَنَتهُم حُمَّى يَثربَ ولَقُوا منها شرًّا. وجلس المشركون من الناحية التي تَلِي الحِجْرَ، فأطلع الله نبيَّه ـ ﷺ ـ على ما قالوا، فأمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يَرمُلوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جَلَدهم، قال: فَرَملُوا ثلاثةَ أشواطٍ، وأمرهم أن يَمشُوا بين الرُّكنَين حيث لا يراهُم المشركون، ولم يَمنَع النبي ـ ﷺ ـ أن يرمُلُوا الأشواط كلَّها إلا إبقاءً عليهم، فقال المشركون: أهؤلاءِ الذين زعمتُم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلَدُ من كذا وكذا[4].

أخرجاه في الصحيحين من حديث حَمَّاد بن زيد، به[5] ـ وفي لفظٍ: قَدم النبيُّ ـ ﷺ ـ وأصحابُه صَبيحةَ رابعةٍ ـ أي من ذي القِعدَة ـ فقال المشركون: إنه يقدَمُ عليكم وفدٌ قد وَهَنتهُم حُمَّى يثربَ. فأمرهم النبي ـ ﷺ ـ أن يرملُوا الأشواطَ الثلاثةَ، ولم يمنعهم أن يرمُلوا الأشواط كُلَّها إلا الإبقاءُ عليهم.

قال البخاريُّ: وزاد ابنُ سَلَمة ـ يعني حَمَّاد بن سَلَمة ـ عن أَيُّوب، عن سعيدِ بنُ جَبير، عن ابن عباس قال: لما قَدم النبي ـ ﷺ ـ لِعَامِهِ الذي استأمَنَ قال: ارمُلُوا. لِيُريَ المشركين قوتهم، والمشركونَ من قِبَلِ قُعَيقعَانَ[6].

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن عَمرو بن دينار، عن عطاءٍ، عن ابن عباس قال: إنما سَعَى النبيُّ ـ ﷺ ـ بالبيت وبالصَّفا والمروةِ، لِيُري المشركين قُوَّته[5].

ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائيُّ، من طرق، عن سفيان بن عُيَينة، به[7].

وقال أيضاً: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيانُ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمعَ ابنَ أبي أَوْفَى يقولُ: لما اعتمَرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ سَتَرناه من غلمانِ المشركين ومنهُم، أن يؤذوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ انفرد به البخاري دون مسلم[8].

وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا محمدُ بن رافع، حدثنا سُرَيج بن النعمان، حدثنا فُلَيحُ ـ (ح) ـ وحدثني محمد بن الحُسَين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فُلَيحُ بن سليمان ـ عن نافع، عن ابن عُمَر أن رسولَ الله

---

(١) الغَمِيزَةُ: العيبُ. والرَّمَل: الإسراع في المشي مع هَزِّ المنكبين.
(٢) النَّقْزُ: الوَثْبُ، يقال: نَقَز الظبي وغيره في عَدْوِهِ نَقْزاً ونَقَزاناً: وَثَبَ صُعُداً وقَفَزَ.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣٠٥/١.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢٩٥/١.
(٥) فتح الباري، كتاب المغازي ٥٠٨/٧ ـ ٥٠٩، ومسلم، كتاب الحج ٩٢٣/٢.
(٦) قُعيقعان: جبل بمكة، وهو يشرف على الركنين الشاميَّين، ومن كان به لا يرى ما بين الركنين اليمانيَّين.
(٧) فتح الباري، كتاب الحج ٥٠٢/٣، ومسلم، كتاب الحج ٩٢٣/٢، والنسائي، كتاب المناسك ٢٤٢/٥.
(٨) فتح الباري، كتاب المغازي ٥٠٨/٧.

ـ ﷺ ـ خرج مُعتمِراً، فحال كفارُ قُرَيش بينه وبين البيتِ، فنحر هَدْيَه، وحلق رأسه بالحُدَيبية، وقاضاهم على أن يَعتمِرَ العامَ المقبلَ، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سُيُوفاً، ولا يُقِيم بها إلا ما أَحَبُّوا. فاعتمرَ مِنَ العامِ المقبلِ، فدخلها كما كان صالحَهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج، فخرج[1]. وهو في صحيح مسلم أيضاً[2].

وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا عُبيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء قال: اعتمَرَ النبي ـ ﷺ ـ في ذي القِعدَةِ، فأبى أهلُ مكة أن يَدَعُوه يدخلُ مكَّة حتى قاضَاهُم على أن يُقِيم بها ثلاثةَ أيام، فلما كتبُوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضانا عليه محمدٌ رسولُ الله. قالوا: لا نُقرُّ بهذا، ولو نعلم أنك رسولُ الله ما مَنَعناك شيئاً، ولكن أنت محمدُ بن عبد الله. قال: أنا رسولُ الله، وأنا محمد بن عبد الله. ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امحُ رسولَ الله». قال: لا، والله لا أَمحوك أبداً. فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ الكتابَ، وليس يحسِن يَكتُبُ، فكَتَب: هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبد الله: لا يُدْخِلُ مكة السلاحَ إلا السيفَ في القِرَاب، وألَّا يَخرُجَ من أهلِها بأحد [إنْ] أراد أن يَتَّبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يُقيم بها». فلما دَخلها ومضى الأجلُ أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرُج عنا فقد مضى الأجلُ. فخَرَج النبيُّ ـ ﷺ ـ فتَبِعتْه ابنةُ حمزةَ تُنادي: يا عمِّ يا عمِّ. فتناولها عليٌّ فأخذَ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنةَ عمك. فَحَمَلتها[3]، فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ، فقال عليّ: أنا أخذتُها وهي ابنة عمي. وقال جعفر: ابنةُ عمي وخالتها تحتي. وقال زيدٌ: ابنةُ أخي. فقَضَى بها النبي ـ ﷺ ـ لخالتها، وقال: «الخالةُ بمنزلة الأم». وقال لعلي: أنتَ منِّي وأنا منك. وقال لجعفر: أشبهتَ خَلقي وخُلُقي. وقال لزيد: أنتَ أخونا ومولانا. قال علي: ألا تتزوجُ ابنةَ حمزة؟ قال: إنها ابنةُ أخي من الرضاعة. انفرد به من هذا الوجه[4].

وقولُهُ: ﴿ فَعَلِم ما لم تعلَمُوا فجعَل من دُونِ ذلك فتحاً قريباً ﴾، أي: فعلم الله تعالى من الخِيَرَةِ والمصلحة في صَرْفكم عن مَكَّة ودخُولكم إليها عامَكُم ذلك ما لم تعلَمُوه أنتم، ﴿ فَجعَل من دون ذلك ﴾، أي: قبلَ دخولكم الذي وُعِدتُم به في رؤيا النبي ـ ﷺ ـ ﴿فتحاً قريباً﴾، وهو الصلحُ الذي كان بينكُم وبين أعدائكُم من المشركين.

ثم قال تعالى مُبَشِّراً للمؤمنين بنصرة الرسول ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ على عَدُوِّه وعلى سائر أهلِ الأرض: ﴿ هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحقِّ ﴾، أي: بالعلم النافع والعَمَل الصالح، فإن الشريعةَ تَشتَمِلُ على شيئين: عِلْمٍ وعَمَلٍ، فالعلم الشرعيُّ صَحِيحٌ، والعمل الشرعيُّ مقبول، فإخباراتُها حقٌّ وإنشاءاتها عدلٌ، ﴿ لِيُظهِرَه على الدِّين كُلِّه ﴾، أي: على أهلِ جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عَرَبٍ وعَجَم، ومِلِّيين ومُشرِكين، ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾، أي: أنَّهُ رسولُه، وهو ناصِرُه.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٩٩.
(٢) كذا، ولم يقع لنا في مسلم، وذكره المزي في تحفة الأشراف ٦/١٩٣ عن البخاري وحده.
(٣) أي: فأمسكتها عندها.
(٤) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٩٩.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن مُحمَّدٍ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنه رسُوله حقًّا بلا شكٍّ ولا رَيب، فقال: ﴿ محمدٌ رسولُ الله ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كُلِّ وصفٍ جَميل. ثم ثَنَّى بالثناءِ على أصحابه فقال: ﴿ والذين معه أشداءُ على الكفار رُحَماءُ بينهم ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فَسوف يأتي الله بقوم يُحبُّهم ويُحبونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين ﴾. وهذه صفةُ المؤمنين أن يكون أحدهُم شديداً عنيفاً على الكفار، رَحيماً بَرّاً بالأخيار، غَضُوباً عَبُوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتِلُوا الذين يَلُونكم من الكُفَّار ولْيَجدُوا فيكم غِلظَةً ﴾، وقال النبي ـ ﷺ ـ: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتَراحُمِهم كمثل الجَسَد الواحِد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائِرُ الجسد بالحُمَّى والسهر»[(١)]. وقال: «المؤمن للمؤمنِ كالبُنيان يَشدُّ بعضُه بعضاً. وشبَّك بين أصابعه»[(٢)]. كلا الحديثين في الصحيح.

وقولُهُ: ﴿ تراهُم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورِضواناً ﴾، وصفَهم بكثرة العمل وكثرةِ الصلاة، وهي خيرُ الأعمال. ووَصَفهم بالإخلاص فيها لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ والاحتسابِ عند الله جزيلَ الثوابِ، وهو الجنةُ المشتملةُ على فضل الله، وهو سَعَةُ الرزق عليهم، ورِضاه تعالى عنهم، وهو أكبرُ من الأول، كما قال: ﴿ ورضوانٌ من الله أكبر ﴾.

وقولُهُ: ﴿ سيماهُم في وجُوههم من أثَر السجود ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: سيماهُم في وجوههم، يعني: السَّمْتَ الحَسَن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخُشوع والتواضع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا حُسَين الجُعفِيُّ، عن زائدةَ، عن منصورٍ، عن مجاهد: ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾، قال: الخشوعُ. قُلْتُ: ما كنتُ أراه إلا هذا الأثَر في الوجه. فقال: رُبَّما كان بين عَيْنَي من هو أقسى قلباً من فِرعَوْنَ.

وقال السُّديُّ: الصلاة تُحَسِّن وجوهَهم. وقال بعضُ السلف: من كَثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار. وقد أسنده ابن ماجه في سُنَنه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحي، عن ثابت بن موسى، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من كَثُرت صلاتُه بالليلِ حَسُن وجهُه بالنهار»[(٣)]. والصحيح أنه موقوف.

وقال بعضُهم: إنَّ للحسنةِ نوراً في القلب، وضياءً من الوجهِ، وَسعَةً في الرزقِ، ومحبَّةً في قُلوبِ الناس.

وقال أميرُ المؤمنين عثمانُ: ما أسرَّ أحدٌ سَريرَةً إلا أبداها الله على صَفحات وجهه، وَفَلتَاتِ لِسانه.

والغرضُ أن الشيءَ الكامِنَ في النفس يظهَرُ على صفحاتِ الوجه، فالمؤمنُ إذا كانَت سريرتُه صحيحةً مع الله أصلحَ الله ظاهِرَه للناس، كما رُوي عن عُمَرَ بن الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: مَن أصلحَ سَريرَتَه أصلَحَ الله علانِيَتَه.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمودُ بن محمد المرَوَزيُّ، حدثنا حامد بن آدم المَروزِيُّ، حدثنا

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٨٤ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.
(٢) تقدم كذلك عند تفسير الآية ٧١ من سورة براءة، وخرجناه هنالك.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ١/٤٢٢.

الفضلُ بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَميِّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن جندب بن سفيان البجلي: قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «ما أسر أحد سَرِيرةً إلا ألبسه الله رداءَها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ»(١). العرزَميُّ متروك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا ابنُ لَهِيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أنَّ أحدكم يعمَلُ في صخرةٍ صمَّاءَ ليس لها بابٌ ولا كُوَّةٌ لخرَج عملهُ للناس كائناً ما كان(٢).

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا زُهَير، حدثنا قَابوسُ بن أبي ظَبيان: أن أباه حَدَّثه عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الهَدْيَ الصالحَ والسمْتَ الصالحَ والاقتصادَ جزءٌ من خَمسة وعشرين جزءاً من النبوة»(٣) ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زُهَير، به(٣)

فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ خَلَصَت نياتُهم وحَسُنت أعمالُهم، فكلُّ من نَظَرَ إليهم أعجَبُوه في سَمْتِهِمْ وهَدْيهم.

وقال مالك رحمه الله: بَلَغني أن النصارى كانُوا إذا رأَوُا الصحابةَ الذين فَتَحُوا الشامَ يقولون: «والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بَلَغنا». وصَدَقُوا في ذلك، فإن هذه الأمة مُعظَّمة في الكُتُب المتقدِّمة، وأعظمها وأفضلُها أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد نوَّه الله بذكرهم في الكتُبُ المنزَّلة والأخبارِ المُتداوَلة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذلك مثلُهم في التوراة ﴾، ثم قال: ﴿ ومثلُهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أخرج شَطْأَه ﴾، أي: فِراخه(٤)، ﴿ فآزَرَهُ ﴾، أي: شدَّه ﴿ فاستغلظَ ﴾، أي: شَبَّ وطال ﴿ فاستوى على سُوقِه يُعجِبُ الزرَّاع ﴾، أي: فكذلك أصحابُ محمد ـ ﷺ ـ ازرُوه وأيَّدوه ونَصرُوه فهم معه كالشَّطْءِ مع الزَّرْعِ، ﴿ لِيَغيظَ بهمُ الكفارَ ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمامُ مالك ـ رحمه الله، في رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يُبغِضُون الصحابة، قال: لأنهم يَغِيظُونهم، ومن غاظ الصحابةَ فهو كافرٌ لهذه الآية. ووافقه طائفةٌ من العُلماء على ذلك. والأحاديثُ في فَضائل الصحابة والنهي عن التعرُّض لهم بمساءةٍ كثيرةٌ، ويكفيهم ثناءُ الله عليهم، ورضاهُ عنهم.

ثم قال: ﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملُوا الصالحاتِ منهُم ﴾، من هذه لبيان الجنس ﴿ مغفرة ﴾، أي: لذنوبهم، و﴿ وأجراً عظيماً ﴾، أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعدُ الله حقٌّ وصدقٌ، لا يُخلَفُ ولا يُبَدَّلُ، وكلُّ من اقتفى أثَر الصحابة فهو في حُكمهم، ولهم الفضلُ والسبقُ والكمالُ الذي لا يَلحَقهُم فيه أحدٌ من هذه الأمة، رَضِي الله عنهُم وأرضاهُم، وجعل جناتِ الفِرْدَوْسِ مثواهم، وقد فَعَلَ.

قال مسلمٌ في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَسُبّـوا أصحابي، فوالذي نفسي بيَدِه لو أنَّ أحدَكُم أنفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما أدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصِيفَه»(٥)

آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الفتحِ، ولله الحمدُ والمنَّةُ

(١) المعجم الكبير ١٧١/٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٨/٣. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة لقمان.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٩٦/١، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٤٧/٤.

(٤) الزرع ما دام في البذر فهو الحب، فإذا انشقَّ الحبُّ عن الورقة فهو الفَرْخ، فإذا طلع رأسه فهو الحقل.

(٥) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٦٧/٤. والمُدُّ: ربع الصاع. والنَّصيف: النصف.

تفسير

سورة الحجرات

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

هذه آدابٌ أدَّبَ الله بها عبادَه المؤمنين فيما يُعامِلُون به الرسولَ - ﷺ - من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا لا تُقدِّموا بين يَدَي الله ورسوله ﴾، أي: لا تُسرِعُوا في الأشياءِ بين يدَيه، أي قبله، بل كونُوا تَبعاً له في جميع الأمور حتى يدخُلَ في عموم هذا الأدب الشرعيِّ حديثُ معاذ، قال له النبي - ﷺ - حين بَعثه إلى اليمن: بم تحكُم؟ قال: بكتابِ الله، قال: فإن لم تَجِدْ؟. قال: بِسُنَّةِ رسول الله. قال: فإن لم تَجِد؟. قال: أجتهدُ رأيي. فضرب في صدرِه وقال: الحمدُ لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضِي رسولَ الله.

وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه(١). فالغرضُ منه أنه أخَّر رأيه ونَظَره واجتهادَه إلى ما بعد الكتاب والسُّنَّة، ولو قدَّمه قبلَ البحثِ عنهما لكان من باب التقديم بين يَدَي الله ورسوله.

قال عليُّ بن أبي طَلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ لا تُقدِّموا بين يدي الله ورسُولِهِ ﴾، لا تقولوا خلافَ الكتابِ والسنَّة. وقال العَوفيّ عنه: نَهى أن يَتكلَّموا بين يَدَي كَلامه.

وقال مجاهدٌ: لا تَفتاتُوا على رسول الله - ﷺ - بشيءٍ حتى يقضِي الله على لسانه. وقال الضحَّاكُ: لا تقضَوا أمراً دون الله ورسولِه من شرائعِ دينِكم. وقال سفيانُ الثوري: ﴿لا تُقدِّموا بين يَدَي الله ورسوله﴾ بقولٍ ولا فِعْلٍ. وقال الحسن البصري: ﴿لا تُقدِّموا بين يَدَيِ الله ورسُولِهِ﴾، قال: لا تدعُوا قبلَ الإمامِ.

(١) مسند أحمد ٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢، وسنن أبي داود، كتاب الأقضية ٣/٣٠٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الأحكام ٦/ ٦٨ - ٦٩، وابن ماجه، المقدّمة ١/ ٢١.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أُنزِلَ في كذا كذا. وكذا لو صُنع كذا، فكره الله ذلك وتقدَّم فيه[١].

﴿ واتقوا الله ﴾، أي: فيما أمركُم به، ﴿ إن الله سميعٌ ﴾، أي: لأقوالكم، ﴿ عليم ﴾ بنيَّاتِكُم.

وقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا لا ترفعُوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبيِّ ﴾: هذا أدبٌ ثانٍ أدَّب الله به المؤمنين ألَّا يرفعُوا أصواتهم بين يَدَي النبي ـ ﷺ ـ وقد رُوي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعُمَر رضي الله عنهما:

قال البخاريُّ: حدثنا يَسْرَةُ بنَ صفوان اللَّخميُّ، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مُلَيكَةَ قال: كاد الخَيِّران أن يَهْلِكَا، أبو بكر وعُمَر ـ رضي الله عنهما ـ رَفَعا أصواتَهُما عند النبيِّ ـ ﷺ ـ حين قَدِم عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخرُ برجُلٍ آخَرَ ـ قال نافع: لا أحفَظُ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خِلافي. قال: ما أردت خِلَافَكَ. فارتفعت أصواتُهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا ترفعُوا أصواتكم فوقَ صوتِ النبيِّ ولا تجهرُوا له بالقول كَجَهْرِ بعضِكم لبعض. . . ﴾ الآية. قال ابنُ الزبير: فما كان عمرُ يُسمِعُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعدَ هذه الآية حتى يَسْتَفهِمَه، ولم يذكر[٢] ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر، ـ رضي الله عنه ـ. انفرد به دون مسلم[٣].

ثم قال البخاريُّ: حدثنا الحسنُ بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيج، حدثني ابن أبي مُلَيكة: أن عبدَالله بن الزُّبيرِ أخبره: أنه قَدِمَ رَكْبٌ من بني تَمِيم على النبي ـ ﷺ ـ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاعَ بن مَعْبَدٍ، وقال عمر: بل أمِّر الأقرَعَ بْن حابس. فقال أبو بكر: ما أردتَ إلَى ـ أو: إلاَّ ـ خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خِلافَك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما، فنزلت في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين يَدَي الله ورَسُولِهِ﴾، حتى انقضت الآيةُ: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم. . .﴾ الآية[٤].

وهكذا رواه ها هنا منفرداً به أيضاً.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار في مُسنَدِه: حدثنا الفضل بن سهل، حَدَّثنا إسحاقُ بن منصور، حدثنا حُصَين بن عُمَر، عن مُخَارِقٍ، عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصدِّيق قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَرفعُوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبيِّ ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أُكَلِّمك إلا كأخي السِّرَارِ[٥].

حُصَين بن عُمَر هذا ـ وإن كانَ ضَعِيفاً ـ لكن قد رَوَيناه من حديثِ عبد الرحمن بن عَوف، وأبي هُرَيرة بنحو ذلك، والله أعلم.

وقال البُخَارِيُّ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهَرُ بن سَعد، أخبرنا ابنُ عَون، أنبأني مُوسَى بن أنس، عن أنس بن مالك أن النبي ـ ﷺ ـ افتقد ثابتَ بنَ قيس فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أنا أعلمُ لك عِلْمَه. فأتاه فوجَده في بيته مُنَكِّساً رأسَه، فقال له: ما شأنُك؟ فقال: شَرٌّ، كان يَرْفَعُ صَوتَه فوقَ صوتِ النبي ﷺ، فقد حَبِط عَمَلُه، فهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبره أنه قال كذا وكذا ـ قال موسى: فرجع إليه المَرَّة الآخِرَة ببشارة عظيمةٍ فقال: اذهب إليه فَقُل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّكَ من أهل الجنة. تفرد به البخاري من هذا الوجه[٣].

(١) تفسير الطبري ٢٦/١١٦ ـ ١١٧.

(٢) في رواية الترمذي: (وما ذكر ابن الزبير جدّه، يعني أبا بكر). وإطلاق الأب على الجدّ مشهور.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الحجرات ٨/٥٩٠.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة الحجرات ٨/٥٩٤.

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٩.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا هاشم، حدثنا سُلَيمان بن المُغيرة، عن ثابتٍ، عن أنس قال: لما نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا لا ترفعُوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبي ﴾ إلى: ﴿ وأنتم لا تَشعُرونَ ﴾ - وكان ثابت بن قَيس بن الشَّمَّاسِ رفيعَ الصوتِ فقال: أنا الذي كنتُ أرفَعُ صوتي على رسولِ الله - ﷺ - حَبِطَ عملي، أنا من أهل النارِ. وجَلَسَ في أهله حزيناً، ففقده رسولُ الله - ﷺ - فانطلق بعضُ القوم إليه فقالوا له: تَفَقَّدكَ رسولُ الله - ﷺ - ما لك؟ قال: أنا الذي أرفعُ صَوتي فوقَ صوتِ النبي - ﷺ - وأجهَرُ له بالقول، حَبط عملي، أنا من أهل النار. فأتَوا النبيَّ - ﷺ - فأخبَروه بما قال. فقال: لا، بل هُو من أهل الجَنَّةِ. قال أنس: فَكُنَّا نراهُ يَمشِي بين أظهُرِنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يومُ اليمامَةِ كان فينا بعضُ الانكشاف، فجاء ثابتُ بنُ قَيسِ بن شَمَّاسٍ وقد تَحنَّطَ ولبسَ كَفَنه، فقال: بِئسَما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتِلَ[1].

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبَةَ، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: لما نَزَلَت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا لا ترفعُوا أصواتكم فَوْقَ صَوْتِ النبيِّ ﴾. . . إلى آخر الآية جَلَس ثابت في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبسَ عن النبي - ﷺ -، فقال النبي - ﷺ - لسعد بن مُعَاذٍ: يا أبا عَمرو، ما شأن ثَابتٍ؟ اشتكى؟ فقال سعدٌ: إنه لَجَارِي، وما عَلِمتُ له بشكوَى. قال: فأتاه سعد فذكَر له قولَ رسولِ الله - ﷺ -، فقال ثابت: أُنزِلَت هذه الآية، ولقد عَلِمتُم أني من أرفَعِكم صَوتاً على رسولِ الله - ﷺ - فأنا من أهل النار. فَذَكر ذلك سعدٌ للنبي - ﷺ - فقال رسولُ الله - ﷺ -: بل هو من أهلِ الجَنَّةِ[2].

ثم رواه مسلم عن أحمدَ بن سعيدٍ الدارميِّ، عن حَبَّان بن هلال، عن سُلَيمان بن المغيرة، به قال: ولم يذكر سعدَ بنَ مُعاذٍ. وعن قَطَنِ بن نُسَير، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، بنحوه. وقال: ليس فيه ذِكرُ سعدِ بنِ مُعاذٍ[2].

حَدَّثنا هُرَيم بن عبد الأعلى الأَسَدي، حدثنا المعتمرُ بن سُلَيمان، سَمِعت أبي يذكُر [عن ثابتٍ]، عن أنسٍ قال: لما نزلت هذه الآية. . . واقتصَّ الحديثَ، ولم يذكر سعدَ بن معاذ وزاد: فكنا نَراهُ يمشي بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة[2].

فهذه الطرق الثلاث مُعَلَّلة لرواية حَمَّاد بن سَلَمة فيما تَفَرَّد به من ذِكرِ سَعد بن معاذٍ. والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعدُ بنُ معاذٍ موجوداً، لأنه كان قد مات بعد بني قُرَيظة بأيام قلائل سنةَ خَمْسٍ، وهذه الآية نَزَلت في وفد بني تَميم، والوفود إنما تَوَاتَرُوا في سنة تسع من الهجرةِ، والله أعلم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثنا أبو ثابت بنُ ثابت بن قيس بن شَمَّاس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿ لا ترفَعُوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبي ولا تجهَرُوا له بالقول ﴾، قال: قَعَد ثابت بنُ قيس في الطريق يبكي، قال: فَمرَّ به عاصمُ بنُ عديٍّ من بني العَجلان فقال: ما يُبكيك يا ثابتُ؟ قال: هذه الآية أتخوَّف أن تكونَ نَزَلَتْ فيَّ وأنا صَيِّتٌ رَفيعُ الصوتِ. قال: فمضى عاصم بن عَدِيٍّ إلى رسولِ الله - ﷺ - قال: وغلَبه البكاءُ، فأتى امرأتَه جَميلَة ابنة عبدِ الله بن أُبَيِّ بن سَلُول فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسِي فَشُدِّي عَلَيَّ الضَبَّة بمسمار، فَضَربَتْه بمسمارٍ حتى إذا خَرج عَطفه، وقال: لا أخرُج حتى يَتوفَّاني الله - عَزّ وجَلّ - أو يرضى عَنّي رسول الله ﷺ.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/١٣٧.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان ١/١١٠ - ١١١.

قال: وأتى عاصمٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأخبرَه خَبرَه، فقال: اذهَب فادعُه لي. فجاء عاصم إلى المكان فلم يَجده، فجاء إلى أهله فوجَدَه في بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله ـ ﷺ ـ يدعُوك. فقال: اكسِر الضبَّةَ. قال: فخرجا: فأتيا النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال: أنا صَيِّتٌ وأتخوَّف أن تكون هذه الآية نزلت فيَّ: ﴿ لا ترفعُوا أصواتَكم فوق صَوتِ النبي ولا تجهَرُوا له بالقول ﴾. فقال له النبي ـ ﷺ ـ: أما ترضَى أن تَعِيش حَميداً، وتُقتَل شهيداً وتدخلَ الجنة؟. فقال: رَضِيتُ بِبُشرَى الله ورسوله ـ ﷺ ـ، ولا أرفَعُ صوتي أبداً على صوتِ رسولِ الله. قال: وأنزل الله: ﴿إن الذين يَغضُونَ أصواتَهُم عندَ رَسُولِ الله أولئك الذين امتَحَنَ الله قلوبَهُم للتقوى﴾. . . الآية[١].

وقد ذكر هذه القصةَ غيرُ واحد من التابعين كذلك، فقد نَهى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عن رَفع الأصواتِ بحَضرَةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، وقد رَوَينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سَمع صَوتَ رجلين في مسجد النبي ـ ﷺ ـ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتَدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أينَ أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهلِ المدينة لأوجعتكما ضَرباً[٢].

وقال العلماء يُكرَه رفعُ الصوتِ عنده قَبره، كما كان يُكرَه في حياته، لأنه محترمٌ حيًّا وفي قبره صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً. ثم نهى عن الجَهر له بالقول كما يجهر الرجلُ لمخاطَبه ممن عَدَاه، بل يُخاطَب بسكينةٍ ووقارٍ وتعظيمٍ ، ولهذا قال: ﴿ ولا تجهروا له بالقول كَجَهر بعضِكم لبعض ﴾، كما قال: ﴿ لا تجعلُوا دعاءَ الرسولِ بينكم كَدُعاءِ بعضِكم بعضاً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ أن تحبَطَ أعمالكُم وأنتم لا تشعُرون ﴾، أي: إنما نهيناكُم عن رَفع الصوتِ عنده خشيَةَ أن يغضَب من ذلك، فيغضبَ الله لِغَضَبه، فَيُحبِط الله عملَ مَن أغضبه وهو لا يَدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجُلَ ليتكلَّم بالكَلِمَةِ من رِضوَانِ الله لا يُلقي لها بالاً يكتُب له بها الجنة. وإنَّ الرجُلَ ليتكلَّم بالكلمةِ مِن سُخطِ الله لا يُلقِي لها بالاً يهوِي بها في النار أبعدَ ما بين السموات والأرض»[٣].

ثم نَدَب الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خَفضِ الصوت عنده، وحَثَّ على ذلك وأرشَد إليه ورَغَّب فيه، فقال: ﴿ إن الذين يَغضُّون أصواتهم عند رسولِ الله أولئك الذين امتَحَن الله قلوبَهُم للتقوى ﴾، أي: أخلَصَها لها وجَعَلها أهلاً وَمَحلاً، ﴿ لهم مَغفِرةٌ وأجرٌ عَظيمٌ ﴾.

وقد قال الإمام أحمدُ في كتابِ الزُهدِ: حدثنا عبد الرحمن، حَدَّثنا سفيانُ، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ قال: كُتِب إلى عمر: يا أميرَ المؤمنينَ، رَجلٌ لا يشتهي المعصيةَ ولا يعمل بها أفضلُ، أم رجلٌ يشتهي المعصية ولا يعمَلُ بها؟ فكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ: إن الذين يشتَهُون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أولئك الذين امتحَن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾[٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

(١) تفسير الطبري ١١٨/٢٦.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، فتح الباري ٥٦٠/١.
(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٥ من سورة النور، وخرجناه هنالك.
(٤) الدر المنثور ٥٥٢/٢٦.

ثُمَّ إنه تعالى ذَمَّ الذين يُنادُونه من وَرَاءِ الحُجُرات، وهي بيوتُ نسائِهِ، كما يَصنَعُ أجلافُ الأعراب، فقال: ﴿ أكثرُهم لا يعقِلون ﴾. ثم أرشدَ إلى الأدبِ في ذلك فقال: ﴿ ولو أنهم صَبَرُوا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾، أي: لكان لهم في ذلك الخِيَرَةُ والمصلحةُ في الدُّنيا والآخرةِ. ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿ والله غفور رحيم ﴾. وقد ذُكِر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميميِّ فيما أوردَه غيرُ واحدٍ، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عَفَّان، حدثنا وُهَيب، حدثنا موسى بن عُقْبَةَ، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس: أنه نادى رسولَ الله ـ ﷺ ـ [من وَرَاءِ الحُجُراتِ] فقال: يا محمدُ، يا محمدُ ـ وفي رواية: يا رسولَ الله ـ فلم يُجبه. فقال: يا رسولَ الله، إنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ، وإن ذَمِّي لَشينٌ. فقال: ذاك الله عَزَّ وجَلَّ[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عَمَّار الحسين بن حُرَيث المروزي، حدثنا الفضلُ بن موسى، عن الحُسَين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء في قوله: ﴿ إن الذين يُنادونك من وراء الحُجُرات ﴾ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله فقال: يا محمد، إن حَمْدِي زينٌ وذَمِّي شينٌ. فقال: «ذاك الله عَزَّ وجَلَّ»[(٢)]. وهكذا ذكره الحسن البصري، وقتادة مرسلاً.

وقال سُفيان الثَّوري، عَن حَبيب بن أبي عَمْرَة قال: كان بِشْر بن غالب ولَبِيد بن عُطَارِدٍ ـ أو بِشْرُ بنُ عُطَارِدٍ ولبيدُ بن غالب ـ وهما عند الحجَّاج جالسان ـ فقال بشْرُ بن غالب لِلَبيدِ بن عُطَارد: نَزَلَت في قومِكَ بني تميم: ﴿ إن الذين يُنادونك من وراء الحُجُرات ﴾، قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جُبَير فقال: أما إنه لو عَلِم بآخر الآية أجابه: ﴿ يَمنُّون عليك أن أَسلَمُوا ﴾، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن عَلي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سُلَيمان: سمعت داود الطُّفاوي يحدثُ عن أبي مُسلِمٍ البَجَليِّ، عن زيد بن أرقَمَ قال: اجتمع أناسٌ من العَرَب فقالوا: انطلِقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحنُ أسعد الناس به، وإن يَكُ مَلِكاً نَعِشْ بجَنَاحه. قال: فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأخبرتُه بما قالوا، فجاءوا إلى حُجرَته فجعلُوا يُنادُونه وهو في حُجرته: يا محمدُ، يا محمدُ. فأنزل الله: ﴿ إن الذين يُنادونَكَ من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون ﴾. قال: فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ [بأذني فمدَّها] فجعل يقول: «لقد صَدَّقَ الله قولَكَ يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد». ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عَرَفَة، عن المُعتمر بن سليمان، به[(٤)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨ ﴾

يأمر تعالى بالتثبُّتِ في خبر الفاسق لِيُحتاطَ له، لئلا يحكم بقوله فيكون ـ في نفس الأمر ـ كاذباً أو

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٤٨٨، ٦/٣٩٣ـ٣٩٤، وما بين القوسين منه.
(٢) تفسير الطبري ٢٦/١٢١.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٦/١٢٢، وكذلك ابن المنذر. الدر المصون ٧/٥٥٣.
(٤) تفسير الطبري ٢٦/١٢١.

مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه. وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قرَّرْتُ هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين أن هذه الآية نَزَلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيط، حينَ بعثه رسولُ الله ـ ﷺ ـ على صَدَقاتِ بني المُصطَلِق. وقد رُوِي ذلك من طُرُق، ومن أحسنها ما رَواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِه من رواية مَلِك بني المصطلق، وهو الحارثُ بن ضِرار، والد جُوَيرية بنتِ الحارث أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، قال الإمام أحمد:

حدثنا محمدُ بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سَمِع الحارث بنَ ضِرارٍ الخُزَاعِيَّ يقول: قَدِمتُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَدَعاني إلى الإسلام، فَدَخلتُ فيه وأقررتُ به. ودَعاني إلى الزكاة فأقررتُ بها، وقلت: يا رسولَ الله، أرجعُ إليهم فأدعوهم إلى الإسلامِ وأداءِ الزكاةِ، فَمَن استجابَ لي جمعتُ زَكاته. ويُرسِل إليَّ رسولُ الله رسولاً لإبَّانِ كذا وكذا ليأتِيَكَ ما جمعتُ من الزكاة. فلما جمعَ الحارث الزكاةَ ممَّن استجابَ له، وبلغ الإبَّانُ الذي أراد رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرسولُ فلم يأتِه، فَظنَّ الحارثُ أنه قد حَدَث فيه سَخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسَرَواتِ[1] قومه فقال لهم: إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان وَقَّت لي وقتاً يُرسِلُ إليَّ رسولَه ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسولِ الله ـ ﷺ ـ الخُلْفُ، ولا أرى حَبْسَ رسولِه إلا من سَخْطَةٍ. فانطَلِقُوا فَنَأتِيَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وبعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ الوليد بن عُقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جَمَع من الزكاة، فلما أن سار الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطريق فَرِق ـ أي: خاف ـ فرجَع فأتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الحارث مَنَعني الزكاةَ وأراد قتلي. فَضَرَبَ رسول الله ـ ﷺ ـ البعثَ إلى الحارث، وأقبل الحارثُ بأصحابه حتى إذا استقبل البعثَ وفَصَل عن المدينةِ لَقِيَهم الحارث، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعِثتم؟ قالوا: إليكَ. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث إليكَ الوليدَ بن عُقبَةَ، فزعم أنك منعتَه الزكاةَ وأردتَ قتلَه. قال: لا، والذي بعثَ محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارثَ على رسول الله ـ ﷺ ـ قال: مَنَعتَ الزكاةَ وأردتَ قَتلَ رَسُولي؟ قال: لا، والذي بَعَثك بالحقِّ ما رأيتُه ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتَبَسَ عليَّ رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، خَشِيت أن يكونَ كانت سَخْطَةٌ من الله ورسولِهِ. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنُوا إن جاءكم فاسقٌ بِنَبَإٍ﴾ إلى قوله: ﴿حكيم﴾[2].

ورواه ابن أبي حاتم عن المُنذر بن شاذانَ التمار، عن مُحمَّد بن سابق، به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق، به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصوابُ: الحارثُ بن ضِرارٍ، كما تقدم[3].

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جَعفرُ بن عَون، عن موسى بن عُبَيدَةَ، عن ثابت مولى أمِّ سلمة، عن أم سَلَمة قالت: بعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَجُلاً في صَدقات بني المُصطَلِق بعد الوَقْعَةِ[4] فَسمع بذلك القومُ، فَتلقَّوه يُعَظِّمون أَمْرَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، قالت: فَحدَّثه الشيطانُ أنهم يُريدون قتله، قالت: فرجَعَ إلى رسول الله

(١) أي: أشرافهم.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧٩.
(٣) المعجم الكبير ٣/٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٤) في بعض النسخ: الوقيعة. والمراد غزوة بني المصطلق، انظرها في سيرة ابن هشام ٢/٢٨٩ وما بعدها.

ـ ﷺ ـ فقال: إن بني المصطلق قد مَنعُوا صَدَقاتِهم. فَغَضِبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ والمسلمون، قالت: فبلغ القومَ رجوعُهُ فأتوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَصَفُّوا له حين صَلَّى الظهر، فقالوا: نعوذُ بالله من سَخَط الله وسَخَط رسُوله، بعثتَ إلينا رَجُلاً مُصَدِّقاً[1] فَسُررنا بذلك، وقَرَّت به أعيُننا. ثم إنه رَجَع من بعضِ الطريق، فَخَشِينا أن يكونَ ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يُكَلِّمونه حتى جاء بلالٌ فأذَّن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إن جاءكُم فاسقٌ بنبإٍ فَتبيَّنوا أن تُصيبُوا قوماً بجهالة فَتُصبِحُوا على ما فعلتُم نادمين ﴾[2].

ورَوَى ابنُ جرير أيضاً من طريق العَوفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسُول الله ـ ﷺ ـ بعثَ الوليد بن عُقبَةَ بن أبي مُعَيطٍ إلى بني المُصطَلِق ليأخذَ منهم الصدقات، وإنَّهم لما أتاهم الخَبرُ فرِحُوا وخَرَجُوا يَتلقَّون رسولَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وإنه لما حُدِّثَ الوليد أنهم خَرَجُوا يَتلقَّونه رَجع الوليدُ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إن بني المُصطَلِق قد مَنعُوا الصدقَةَ. فَغضِب رسولُ الله ـ ﷺ ـ من ذلك غضباً شديداً، فبينا هو يُحدِّث نفسه أن يغزُوهم إذ أتاه الوفدُ فقالوا: يا رسولَ الله، إنا حُدِّثنا أنَّ رسولَكَ رَجع من نِصْفِ الطريق، وإنا خَشِينا أن ما رَدَّه كتابٌ جاء منك لِغَضَبٍ غَضِبْتَهُ علينا، وإنا نَعوذُ بالله من غَضَبِه وغَضَبِ رَسُولِه. وإنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ استغشَّهم وهَمَّ بهم، فأنزل الله عُذرَهم في الكتاب، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فتبينوا ﴾ . . . إلى آخر الآية[3].

وقال مجاهدٌ وقتادةُ: أرسل رسولُ الله الوليدَ بن عُقبَةَ إلى بني المُصطَلِق لِيُصَدِّقَهُم[4]، فَتلقَّوه بالصَدَقةِ، فرجع فقال: إن بني المُصطَلِق قد جَمَعت لك لِتُقاتِلَكَ ـ زاد قتادة: وإنهم قد ارتدُّوا عن الإسلام ـ فبعث رسولُ الله خالدَ بن الوليد إليهم، وأمره أن يَتثَبَّت ولا يَعْجَل. فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فَبعث عُيونَه، فلما جاءوا أخبَرُوا خالداً أنهم مُستَمسِكون بالإسلام، وسَمِعُوا أذانَهم وصَلاتَهم، فلما أصبحُوا أتاهم خالدٌ فرأى الذي يُعجبه، فرجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآيةَ. قال قتادةُ: فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «التَّبيُّنُ من الله، والعَجَلةُ من الشيطان»[5].

وكذا ذكر غيرُ واحد من السلف، منهم: ابنُ أبي ليلى، ويزيدُ بن رُومَانَ، والضحَّاكُ، ومقاتِلُ بن حَيَّانَ، وغيرهم في هذه الآية: أنَّها نزَلَت في الوليد بن عُقبَةَ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ واعلَمُوا أنَّ فيكُم رسولَ الله ﴾، أي: اعلموا أن بين أظهُركم رسولَ الله فَعَظِّموه ووقِّروه، وتأدَّبوا معه، وانقادُوا لأمره، فإنه أعلَمُ بمصالحكم، وأشفَقُ عليكُم منكُم، ورأيه فيكُم أتَمُّ من رأيِكم لأنفُسِكم، كما قال تعالى: ﴿ النبيُّ أولَى بالمؤمنين من أنفُسِهم ﴾.

ثم بيَّن أنَّ رأيَهم سخيفٌ بالنسبة إلى مُراعَاةِ مصالحهم فقال: ﴿ لَوْ يُطِيعكُم في كَثِير من الأمر لَعَنِتُّم ﴾، أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدَّى ذلك إلى عَنَتِكم وحَرَجِكم، كما قال تعالى: ﴿ ولو اتَّبع الحقُّ أهواءَهُم لَفسَدتِ السمواتُ والأرضُ ومن فيهنَّ بل أتيناهُم بِذِكْرِهم فَهُم عن ذِكْرِهم مُعرِضُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إليكُم الإيمانَ وزَيَّنه في قُلُوبكم ﴾، أي: حَبَّبه إلى نفوسكم وحَسَّنه في قُلُوبكم.

---

(١) المُصَدِّق: جامع الزكاة.

(٢) تفسير الطبري ٢٦/١٢٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٦/١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) أي: يجمع الزكاة.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٦/١٢٤.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا بهزٌ، حَدَّثنا علي بن مسعَدَة، حدثنا قتادةُ، عن أَنس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلب». قال: ثم يُشير بِيَدِه إلى صَدْرِه ثلاث مرات، ثم يقول ـ: التقوى هاهُنا، التقوى هاهُنا»(١).

﴿ وكَرَّه إليكم الكفر والفسوق والعِصْيَان ﴾، أي: وبَغَّضَ إليكم الكفر والفُسوقَ ـ وهي: الذنوبُ الكِبَار، والعِصيانُ وهي جميع المعاصي. وهذا تدريجٌ لكمال النعمة.

وقولُهُ: ﴿ أولئكَ هُمُ الراشِدُونَ ﴾، أي: المُتَّصِفُون بهذه الصِفَةِ هم الراشدُون الذين قد آتاهم الله رُشْدَهُم.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا مَرْوان بن مُعاوِيَةَ الفَزَارِيُّ، حدَّثنا عبد الواحد بن أَيْمَن المكّي، عن ابن رِفَاعَةَ الزُّرَقي، عن أبيه قال: لما كان يومُ أُحدٍ وانكفأ المشركون، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «استَوُوا حتى أُثنيَ على ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ». فصاروا خَلْفَه صفوفاً، فقال: «اللهُمَّ، لك الحمد كلُّه. اللهُمَّ، لا قابضَ لما بَسَطتَ، ولا باسِطَ لما قبضتَ، ولا هادِيَ لمن أَضْلَلتَ، ولا مُضِلَّ لمن هَدَيت. ولا مُعطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ. ولا مُقرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قرَّبتَ. اللهُمَّ، ابسُط علينا من بَرَكاتِكَ ورحمَتِكَ وفَضْلِك ورزْقِك. اللهُمَّ إني أسألُكَ النعيمَ المُقِيم الذي لا يَحُولُ ولا يَزُول. اللهُمَّ، إني أسألُكَ النعيمَ يوم العَيلة(٢)، والأمنَ يوم الخوف. اللهم، إني عائذ بك من شَرِّ ما أعطيتنا، ومن شَرِّ ما مَنَعتنا. اللهُمَّ، حَبِّب إلينا الإيمانَ وزَيِّنه في قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكُفرَ والفُسوقَ والعصيانَ، واجعلنا من الراشدينَ. اللهُمَّ، تَوَفَّنا مُسلمين وأَحيِنا مُسلمين، وأَلحِقنا بالصالحين، غير خَزَايا ولا مَفْتونين. اللهُمَّ، قاتِل الكفرَةَ الذي يُكَذِّبون رُسُلَك ويَصُدُّون عن سَبِيلِكَ، واجعل عليهم رِجْزَكَ وعَذَابك. اللهُمَّ، قاتل الكفرَة الذين أُوتُوا الكِتَابَ، إلَهَ الحقِّ»(٣).

ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَروان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أَيمَن، عن عُبَيد بن رفاعة، عن أبيه، به(٣). وفي الحديثِ المرفُوعِ: «من سَرَّته حَسَنَتُه وساءته سَيِّئَتُه فَهو مُؤمِنٌ»(٤).

ثم قال: ﴿ فضلاً من الله ونعمةً ﴾، أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ والله عليم حكيم ﴾، أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ ﴾

يقولُ تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض: ﴿ وإن طائفتانِ من المؤمنين اقتتلُوا فأصلِحُوا بينهما ﴾، فسمَّاهم مؤمنينَ مع الاقتتال. وبهذا استدلَّ البخاري وغيرُه على أنه لا يخرُج من الإيمان بالمعصيةِ وإن عَظُمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعَهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثَبت في

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٤/٣ ـ ١٣٥.
(٢) العَيْلَةُ: الفقر والحاجة.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤٢٤/٣، وتحفة الأشراف للمزي ١٧١/٣.
(٤) أخرجه الترمذي في أبواب الفتن، عارضة الأحوذي ٨/٩ ـ ٩، والنسائي في عشرة النساء من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٦٢/٨ ـ ٦٣. والإمام أحمد في مسنده ١٨/٦، ٢٦، ٤٤٦/٣.

صَحيح البُخاري من حديث الحَسَن، عن أبي بَكْرَةَ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ خَطَب يوماً ومعه على المنبر الحسنُ بن علي، فَجعل ينظُر إليه مرةً وإلى الناس أخرَى ويقول: «إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلِحَ به بين فِئَتَين عَظِيمتَين من المُسلِمينَ»[(١)]. فكان كما قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعاتِ المَهُولَة.

وقولُهُ: ﴿ فإن بَغَت إحداهُما على الأُخرى فقاتِلُوا التي تَبغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أمرِ اللهِ ﴾، أي: حتى تَرجِعَ إلى أمر الله وتَسْمَع للحقِّ وتُطيعه، كما ثَبت في الصحيح عن أنس أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «انصُر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً». قلتُ: يا رسولَ الله، هذا نصرتُه مظلوماً فكيف أنصرُه ظالماً؟ قال: «تمنعُه من الظُّلم فذاكَ نصرُكَ إيَّاه»[(٢)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عارمٌ، حدثنا مُعتَمِرٌ قال: سَمِعتُ أبي يُحدِّث أن أنساً قال: قيلَ للنبيِّ ـ ﷺ ـ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيٍّ؟ فانطَلَقَ إليه نَبِيُّ الله ـ ﷺ ـ ورَكِب حماراً، وانطلقَ المسلمون يمشُون، وهي أرض سَبِخَةٌ، فلما انطلق إليه النبيُّ ـ ﷺ ـ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريحُ حِمَارِك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمارُ رسولِ الله أطيبُ ريحاً منكَ. قال: فَغَضِبَ لعبدِالله رجالٌ من قومه، فَغَضِب لكلِّ واحدٍ منهما أصحابُه، قال: فكان بينهم ضربٌ بالجَريد والأيدِي والنِّعالِ، فبلغنا أنه أُنزِلت فيهم: ﴿ وَإن طائفتان من المؤمنين اقتَتَلُوا فأصلِحُوا بينهما ﴾[(٣)].

ورواه البخاريُّ في (الصلح) عن مُسَدِّدٍ، ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهُما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه[(٣)].

وذكر سعيد بن جُبَير أن الأَوْسَ والخزرجَ كان بينهما قتالٌ بالسعَفِ والنعالِ، فأنزل الله هذه الآيةَ، فأمر بالصُّلح بينهما.

وقال السُّديُّ: كان رجلٌ من الأنصار يقال له: عمران، كانت له امرأة تُدعَى أُمَّ زيد، وإنَّ المرأة أرادت أن تَزُورَ أهلَها فَحَبسها زوجُها وجَعلها في عُلِّيَّةٍ[(٤)] له لا يدخُل عليها أحدٌ من أهلها. وإنَّ المرأة بَعَثت إلى أهلِها، فجاء قومُها وأنزلوها لِينطَلِقُوا بها، وإن الرجل قد كان خَرَج، فاستعان أهلُ الرجل، فجاء بنو عَمِّه لِيَحُولوا بين المرأة وبين أهلِها، فتدافعوا واجتلدُوا[(٥)] بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآيةُ. فبعث إليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأصلح بينهم، وفاءُوا إلى أمر الله.

وقولُهُ: ﴿ فَإن فاءت فَأَصلِحُوا بينهما بالعَدْلِ وأَقسِطُوا إن الله يُحِبُّ المقسطين ﴾، أي: اعدِلُوا بينهم فيما كان أصابَ بعضُهم لبعض، بالقِسْطِ، وهو العَدْلُ، ﴿ إن الله يُحِبُّ المُقسِطين ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمرٍ، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المُسَيَّب، عن عبد الله بن عَمْرٍو أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المُقسِطينَ في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يَدَي الرحمن، بما أَقسَطُوا في الدنيا»[(٦)].

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٨٦ من سورة الأنعام، وخرجناه هنالك.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية من سورة المائدة، وخرجناه هنالك.
(٣) مسند الإمام أحمد ١٥٧/٣، ٢١٩، وفتح الباري، كتاب الصلح ٢٩٧/٥، ومسلم، كتاب الجهاد ١٤٢٤/٣.
(٤) العُلِّيَّة: الغرفة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها.
(٥) أي: تضاربوا بها.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري، الدر المنثور ٥٦٠/٧ ـ ٥٦١، وتفسير الطبري ١٢٨/٢٦ ـ ١٢٩.

وَرَواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به. وهذا إسنادٌ جيِّدٌ قويٌّ، رجالُه على شَرْطِ الصَّحِيح[١].

وَحَدَّثنا محمدَ بن عبد الله بن يَزيدَ، حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن عَمرو بن دينار، عن عَمرو بن أَوْسٍ، عن عبد الله بن عَمرو، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «المُقسِطُون عند الله يوم القيامة على مَنابِرَ من نُورٍ على يمين العرش، الذين يَعدِلُون في حُكمِهم وأهاليهم وما وَلُوا».

رَواه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عُيَينة، به[٢].

وقولُهُ: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾، أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يُسلِمُه»[٣]. وفي الصحيح: «والله في عَون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٤]. وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظَهر الغَيبِ قال الملك: آمين، ولك بمثله»[٥]. والأحاديث في هذا كثيرة. وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمِهم وتواصُلِهم كمثل الجَسَد الواحِد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجَسَد بالحُمَّى والسَّهَرِ»[٦]. وفي الصحيح أيضاً: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيان يَشُدُّ بعضُه بعضاً. وشَبَّك بينَ أصابعِه»[٧].

وقال أحمد: حدثنا أحمدُ بن الحجاج، حدثنا عبدُ الله، أخبرنا مُصعَبُ بن ثابت، حدثني أبو حازِم قال: سَمِعتُ سهلَ بن سعدٍ الساعدي يُحدِّثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المؤمن من أهلِ الإيمانِ بمنزلة الرأسِ من الجَسَد، يألَمُ المؤمنُ لأهل الإيمان كما يألم الجَسَد لما في الرأس»[٨]. تَفرَّد به ولا بأس بإسنادِهِ.

وقولُهُ: ﴿ فأصلِحُوا بين أَخَويكم ﴾، يعني الفِئَتين المُقتَتِلَتَين، ﴿ واتقُوا الله ﴾، أي: في جَمِيع أموركم ﴿ لعلكم تُرحَمُون ﴾، وهذا تحقيقٌ منه تعالى للرحمةِ لمن اتَّقاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾

ينهَى تعالى عن السُّخرية بالناس، وهو احتقارُهم والاستهزاءُ بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْصُ الناس ـ ويُروَى: وغَمْطُ الناس»[٩]. والمرادُ من ذلك احتقارُهم واستصغارُهم، وهذا حَرامٌ، فإنه قد يكون المُحتقَر أعظَمَ قدراً عند الله وأحبَّ إليه من الساخر منه المُحتقِر له،

(١) أخرجه النسائي في كتاب القضاء من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٦/٣٠٠.
(٢) مسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٥٨، والنسائي، كتاب آداب القضاة ٨/٢٢١ ـ ٢٢٢. وقد تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢٥ من سورة صَ، الآية الثامنة من سورة الممتحنة.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥٣ من سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر ٤/٢٠٧٤، وأبو داود في كتاب الأدب ٤/٢٨٧، وابن ماجه، المقدمة ١/٨٢.
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية السابعة من سورة غافر، وخرجناه هنالك. وانظره أيضاً في سنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٨٩.
(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨٤ من سورة البقرة، ٧١ من سورة التوبة، ٢٩ من سورة الفتح، وخرجناه هنالك.
(٧) تقدم كذلك عند تفسير الآية ٧١ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.
(٨) مسند الإمام أحمد ٥/٣٤٠.
(٩) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦١ من سورة البقرة، ٢٢ من سورة آل عمران، ١١ من سورة الأحقاف، وخرجناه هنالك.

ولهذا قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخر قومٌ من قَوْم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نِساءٌ من نِساءٍ عَسَى أن يَكُنَّ خيراً مِنهُنَّ ﴾، فَنصَّ على نَهْيِ الرجال، وعَطَفَ بِنَهْيِ النساءِ.

وقولُهُ: ﴿ ولا تَلمِزُوا أَنفُسَكم ﴾، أي: لا تَلمِزُوا الناس. والهمَّاز اللمَّاز من الرجال مذمومٌ ملعونٌ، كما قال: ﴿ ويـل لكل هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ فالهَمْزُ بالفعل، واللَّمْزُ بالقول، كما قال: ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾، أي: يَحْتَقِرُ الناسَ ويَهْمِزُهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: «اللَّمْزُ بالمقال، ولهذا قال ها هنا: ﴿ولا تَلمِزُوا أنفُسَكم﴾، كما قال: ﴿ولا تقتُلُوا أنفسكم﴾، أي: لا يقتلُ بعضُكم بعضاً.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ، ومقاتل بن حيان: ﴿ ولا تَلمِزُوا أنفُسَكم ﴾، أي: لا يطعُن بعضُكم على بعض.

وقولُهُ: ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾، أي: لا تَتداعُوا بالألقاب، وهي التي يَسُوء الشخصَ سماعُها.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيل، حدثنا داودُ بن أبي هِنْدٍ، عن الشَّعبيِّ: حَدَّثني أبو جَبِيرَةَ بن الضحَّاك قال: فينا نزلت في بني سَلِمة: ﴿ ولا تنابزُوا بالألقاب ﴾، قال: قَدِم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينةَ وليس فينا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحدٌ منهم باسم من تلك الأسماءِ قالوا: يا رسولَ الله، إنه يَغضَبُ مِن هذا. فنزلت: ﴿ ولا تنابزُوا بالألقابِ ﴾[(١)].

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وُهَيب، عن دَاود، به[(١)].

وقولُهُ: ﴿ بئس الاسمُ الفسوقُ بعد الإيمانِ ﴾، أي: بئس الصفةُ والاسم الفسوقُ وهو: التنابزُ بالألقاب، كما كان أهلُ الجاهلية يتناعَتُون بعد ما دخلتم في الإسلام وعَقَلتُموه. ﴿ومن لم يَتُب﴾، أي: من هذا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى ناهياً عبادَه المؤمنين عن كثير من الظنِّ، وهو التُهمَة والتَخوُّن للأهل والأقارب والناس في غير مَحلِّه، لأن بعضَ ذلك يكونُ إثماً محضاً، فَلْيُجتَنب كثيرٌ منه احتياطاً، وَروينا عن أمير المُؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ولا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خَرجت من أخيك المُسلِم إلا خيراً، وأنت تَجدُ لها في الخير مَحملاً.

وقال أبو عبد الله بنُ ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضَمْرة نصرُ بن محمد بن سُلَيمان الحِمْصِيُّ، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس النَّصْري، حدثنا عبد الله بن عُمَر قال: رأيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يطوفُ بالكعبة ويقولُ: «ما أطيبك وأطيبَ ريحَكِ! ما أعظَمَك وأعظَم حُرمَتَكِ. والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لَحُرمة المؤمنِ أعظمُ عند الله حُرمَةً منك، مالِه ودَمِه، وأن تَظُنَّ به إلا خيراً»[(٢)]. تَفرَّد به ابنُ ماجه من هذا الوجه.

وقال مالكٌ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إيَّاكُم والظنَّ،

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٦٠، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٢٩٧.

فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تَحسَّسُوا ولا تَجسَّسُوا ولا تنافسُوا ولا تَحاسدُوا ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً».

رَواه البخاريُّ عن عبد الله بن يُوسُفَ، ومسلمٌ عن يحيى بن يحيى، وأبو داودَ عن القَعْنَبيِّ، ثلاثتُهم عن مالك، به[1].

وقال سفيانُ بن عُيَيْنَة، عن الزُهريِّ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تقاطَعُوا ولا تدابَرُوا ولا تباغَضُوا ولا تحاسَدُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً. ولا يَحلُّ للمسلمِ أن يَهجُر أخاه فوقَ ثلاثةِ أيامٍ».

رواه مسلمٌ والتِّرمذي ـ وصَحَّحه ـ من حديث سُفيان بن عُيَيْنَةَ، به[2].

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القُرمطي العَدَويّ، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المَدَني، حدثنا إسماعيلُ بن قَيسٍ الأنصاريُّ، حَدَّثني عبد الرحمنِ بنِ محمد بنُ أبي الرِّجال، عن أبيه، عن جَدِّه حارثةَ بن النعمانِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثٌ لازماتٌ لأُمَّتي: الطِّيرة، والحَسَدُ، وسوءُ الظن». فقال رجلٌ: ما يُذهِبُهنَّ يا رسولَ الله ممن هُنَّ فيه؟ قال: «إذا حَسَدْتَ فاستغفِرِ الله، وإذا ظَنَنتَ فلا تَحقَّقْ، وإذا تَطَيَّرت فامضِ»[3].

وقال أبو داود: حَدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبَةَ، حدثنا أبو مُعَاوية، عن الأعمش، عن زيدٍ قال: أُتِيَ ابنُ مسعودٍ فقيل: هذا فلان تَقطِر لحيتُه خَمراً. فقال عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسُّس، ولكن إن يظهَرْ لنا شيءٌ نَأخُذْ به[4].

سَمَّاه ابنُ أبي حاتم في روايَتِه الوليدَ بن عُقبَةَ بن أبي مُعَيط.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم، حدثنا ليثٌ، عن إبراهيم بن نَشيطٍ الخَوْلاني، عن كعب بن عَلْقَمةَ، عن أبي الهَيثم، عن دُخَين كاتب عُقبَةَ قال: قلت لعقبة: إنَّ لنا جيراناً يَشرَبُون الخمرَ، وأنا داعٍ لهم الشُّرَطَ فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عِظْهُم وتَهدَّدْهُم. قال: فَفَعل فلم يَنْتَهُوا. قال: فجاءه دُخَين فقال: إني قد نهيتُهم فلم ينتهُوا، وإني داعٍ لهم الشُّرطَ فَتَأخُذُهم. فقال له عُقبَةُ: وَيحكَ لا تفعَلْ! فإني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «مَن سَتَر عورَةَ مؤمنٍ فكأنما استحيا مَوءودَةً من قَبرِها»[5].

ورواه أبو داود والنسائي من حديثِ الليثِ بن سَعْدٍ، به نحوَه[5].

وقال سُفيان الثوري، عن ثَور، عن راشِد بن سعد، عن معاويةَ قال: سَمِعتُ النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إنك إن اتبعت عَوْرَاتِ الناس أفسدتَهُم، أو: كِدْتَ أن تُفسِدَهم». فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سَمِعها معاويةُ من رسول الله ـ ﷺ ـ نَفَعه الله بها. رواه أبو داودَ منفرداً به من حديث الثَّوريِّ، به[6].

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة النساء، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب ٤٨٤/١٠، ومسلم في كتاب البر ١٩٨٥/٤، وأبو داود، كتاب الأدب ٢٨٠/٤.
والتحسُّس: الاستماع لحديث القوم. والتجسُّس: البحث عن العورات.

(٢) مسلم، كتاب البرّ ١٩٨٣/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ١٢٠/٨ ـ ١٢١.

(٣) المعجم الكبير ٢٢٨/٣، وانظر مجمع الزوائد ٧٨/٨.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٧٢/٤ ـ ٢٧٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ١٥٣/٤، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٧٣/٤. وأخرجه النسائي في المحاربة والرجم من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٣٠٦/٧ ـ ٣٠٧.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٧٢/٤.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عَمْرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنا ضَمْضَمُ بن زُرعَةَ، عن شريح بن عُبَيد، عن جُبَير بن نُفَير، وكُثَيِّر بن مُرَّة، وعَمرو بن الأسود، والمقدام بن مَعدِ يكرب، وأبي أمامة، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبة في الناسِ أفسدهم»[١].

﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾، أي: على بعضِكم بعضاً. والتجسُّس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسُوس. وأما التحسُّس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿ يا بنيَّ اذهبوا فَتَحَسَّسُوا من يوسف وأخيه ولا تيأسُوا من روح الله ﴾، وقد يُستعمَلُ كل منهما في الشرِّ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تجسَّسُوا ولا تحسَّسُوا ولا تباغَضُوا ولا تدابَرُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً»[٢].

وقال الأوزاعي: التجسُّسُ: البحثُ عن الشيء. والتحسس: الاستماعُ إلى حديثِ القوم وهُم له كارِهُون، أو يَتَسمَّعُ على أبوابهِم. والتدابُر: الصَّرْمُ. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُهُ: ﴿ ولاَ يَغْتَب بعضُكم بعضاً ﴾: فيه نَهيٌ عن الغَيبة، وقد فَسَّرها الشارعُ كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود:

حدثنا القعنبيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العَلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قيل: يا رسولَ الله، ما الغَيبةُ؟ قال: «ذِكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[٣].

ورواه الترمذي عن قُتَيبة، عن الدَّراوَرْدِيِّ، به. وقال: (حسنٌ صحيحٌ). ورواه ابنُ جرير عن بُندارٍ، عن غُنْدَر، عن شُعبَةَ، عن العَلاءِ[٣]. وهكذا قال ابنُ عُمَر، ومسروقٌ، وقتادةُ، وأبو إسحاقَ، ومعاوية بن قُرَّةَ.

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمَر، عن أبي حُذَيفة، عن عائشةَ قالت: قلت للنبيِّ - ﷺ - حَسْبُكَ من صَفِيَّةَ كذا وكذا! - قال غير مُسَدَّد: تعني قَصِيرةً - فقال: «لقد قلتِ كَلِمَةً لو مُزِجت بماء البحرِ لَمَزَجَتْه». قالت: وحَكَيتُ له إنساناً فقال - ﷺ -: ما أُحِبُّ أني حكيتُ إنساناً وإنَّ لي كذا وكذا»[٤].

ورواه الترمذيُّ من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِي، ووكيع، ثلاثتُهم عن سُفيانَ الثوريُّ، عن علي بن الأقمر، عن أبي حُذَيفة سَلَمَة بن صُهَيبة الأَرْحَبي، عن عائشةَ، به. وقال: (حسنٌ صحيحٌ)[٤].

وقال ابنُ جرير: حدثني ابن أبي الشوارب: حدثنا عبدُ الواحد بن زياد، حدثنا سُلَيمان الشيباني، حدثنا حَسَّان بنُ المُخَارِق أنَّ امرأةً دخلَت على عائشةَ فلما قامت لتخرُجَ أشارَت عائشةُ بيَدِها إلى النبيِّ - ﷺ - أي: إنها قَصِيرةٌ - فقال النبي - ﷺ - «اغْتَبْتِها»[٥].

والغَيْبَةُ محرَّمة بالإجماع، ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رَجَحت مصلحتُه، كما في الجرح والتَّعديل

(١) المصدر السابق.
(٢) تقدم الحديث وتخريجه أول تفسير هذه الآية.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٦٩/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ١٢٠/٨، وتفسير الطبري ١٣٦/٢٦.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٦٩/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٣٠٩/٩ - ٣١٠.
(٥) تفسير الطبري ١٣٦/٢٦.

والنَّصيحة، كقوله ـ عليه السلام ـ لما استأذن عليه ذلك الرجلُ الفاجرُ: «ائذَنوا له، بِئْسَ أخُو العَشيرة»[(١)]. وكَقَوله لفاطمَة بنتِ قَيسٍ وقد خَطَبها معاويةُ وأبو الجَهْم: «أما مُعَاويةُ فصُعلوكٌ، وأما أبو الجَهْم فلا يَضَع عَصَاه عن عَاتِقِه»[(٢)] وكذا ما جَرَى مجرى ذلك، ثم بَقِيَّتُها على التحريم الشديد، وقد وَرَد فيها الزجر الأكيدُ، ولهذا شبَّهها تعالى بأكلِ اللَّحم من الإنسان الميِّت، كما قال تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أحدُكم أن يأكلَ لَحْمَ أَخِيه مَيْتاً فكرهتُموه ﴾[(٣)]، أي: كما تكرَهُون هذا طبعاً، فاكرَهُوا ذاك شرعاً؛ فإنَّ عُقُوبَته أشدُّ من هذا. وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال ـ عليه السلام ـ في العائدِ في هِبَتِهِ: «كالكَلْبِ يَقِيءُ ثم يَرْجِع في قَيْئِه»[(١)]، وقد قال: «ليس لنا مثَلُ السَّوءِ»[(٤)]. وثَبَت في الصِّحاح والحِسَان والمسانيد من غير وجه أنه ـ عليه السلام ـ قال في خطبة حَجَّةِ الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حَرَامٌ كحرمةِ يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[(٥)].

وقال أبو داودَ: حدثنا واصلُ بن عبد الأعلى، حدثنا أسباطُ بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلَمَ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ المسلِم على المسلِم حَرَامٌ، مالُه وعرضه وَدَمُه، حَسْبُ امرىءٍ من الشرِّ أن يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ»[(٦)].

ورواه الترمذي عن عُبَيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال: (حَسَنٌ غَرِيبٌ)[(٦)].

وحدثنا عثمان بن أبي شَيبة، حدثنا الأسودُ بن عامر، حدثنا أبو بكر عَيَّاش، عن الأعمش، عن سَعِيد بن عبد الله بن جُرَيج، عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا معشَرَ من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه، لا تغتابوا المسلمين ولا تَتَّبِعوا عَوراتِهم، فإنه من يَتَّبِع عوراتِهم يَتَّبِع الله عورَتَه، ومن يَتَّبِع الله عَوْرَتَه يفضَحْه في بيته»[(٧)]. تفرد به أبو داود. وقد رُوي من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده:

حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مُصعَبُ بن سلام، عن حَمزَة بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن البراء بن عازب قال: خَطبَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى أسمعَ العَوَاتق في بيوتها ـ أو قال: في خُدُورها ـ فقال: «يا مَعْشَر مَن آمَن بلسانِهِ، لا تغتابُوا المسلمين ولا تَتَّبعوا عَوْرَاتهم؛ فإنه من يَتَّبِع عورةَ أخِيه يَتَّبِع الله عَوْرَته، ومن يَتَّبِع الله عورَته يَفْضَحْه في جَوْفِ بيته»[(٨)].

طريق أخرى عن ابن عُمَر، قال أبو بكر أحمدُ بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحُسَين بن واقد، عن أوفى بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عُمَر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يا معشرَ مَن آمَنَ بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابُوا المسلمين

(١) أخرجه الشيخان في كتاب الأدب، فتح الباري ٤٥٢/١٠، ومسلم ٢٠٠٢/٤.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود في كتاب الطلاق، مسلم ١١١٤/٢، وأبو داود ٢٨٥/٢ ـ ٢٨٦، والنسائي في كتاب النكاح ٧٥/٦ ـ ٧٧، وانظر عارضة الأحوذي ٧١/٥.

ومعنى صُعْلُوك: فقير في الغاية. ومعنى أنه لا يضع العصا على عاتقه: أنه كثير الأسفار، أو: إنه كثير الضرب للنساء. والعاتق: ما بين العنق إلى المنكب.

(٣) أخرجه الشيخان في كتاب الهبة، فتح الباري ٢٣٤/٥، ومسلم ١٢٤٠/٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، فتح الباري ٢٣٤/٥ ـ ٢٣٥، والترمذي في أبواب البيوع، عارضة الأحوذي ٣٠١/٥ ـ ٣٠٣.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، فتح الباري ١٥٧/١ ـ ١٥٨، وانظر أطرافه هناك. ومسلم في كتاب الحج ٨٨٩/٢.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٧٠/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ١١٤/٨ ـ ١١٥.

(٧) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٧٠/٤.

(٨) مسند أبي يعلى ٢٨٥/٣ ـ ٢٨٦.

ولا تتبعوا عَوْراتِهم، فإنه من يَتْبع عورات المسلمين يَتْبع الله عَوْرَته، ومَن يَتْبع الله عَوْرَته يَفْضحه ولو في جَوْفِ رَحْلِهِ». قال: «ونظر ابنُ عُمَر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمَكِ وأعظمَ حُرمتك، ولَلْمؤمن أعظمُ حرمةً عندَ الله مِنْكِ»[(١)].

قال أبو داود: وحدثنا حيوةُ بن شُرَيح، حدثنا بَقِيَّة، عن ابنِ ثَوبان، عن أبيه، عن مكحُولٍ، عن وَقَّاص ابن ربيعةَ، عن المُستَورِدِ أنه حَدَّثه: أن النبي - ﷺ - قال: «مَن أَكَل برجل مُسلم أَكْلَةً فإن الله يُطعِمُه مثلها في جَهَنَّم، ومَن كُسِيَ ثوباً بَرجلٍ مُسلِمٍ فإن الله يكسُوه مثلَه في جهَنَّم. ومَن قام بِرجُلٍ مقام سُمعَةٍ ورياءٍ فإنَّ الله يقُوم به مقامَ سُمعَةٍ ورِيَاءٍ يوم القيامة». تفرد به أبو داود[(٢)].

وحدَّثنا ابن مُصَفَّى، حدثنا بقيَّةُ وأبو المغيرة: حَدَّثنا صفوانُ، حدثني راشدُ بن سعد وعبد الرحمن بن جُبَير، عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لما عُرِج بي مَرَرْتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاس يَخمِشُون وُجوهَهُم وصُدورَهم، قلت: مَن هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلُون لحومَ الناس، ويَقعُون في أعراضهم»[(٣)].

تفرَّد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي. به[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العَمِّي، حدثنا أبو هارون العَبْديّ، عن أبي سعيد الخُدري قال: قلنا يا رسولَ الله، حدِّثنا ما رأيتَ ليلةَ أسريَ بك؟ قال: ثم انطُلِق بي إلى خَلْقٍ من خَلْق الله كثير، رجالٍ ونساءٍ مُوَكَّل بهم رجالٌ يَعمِدُون إلى عُرْض جَنب أحدهم فَيَحذُون منه الحُذْوَةَ[(٤)] مِن مثل النَّعلِ ثم يَضَعُونه في أَحَدِهم، فيقال له: كُل كما أَكَلْتَ. وهو يَجِدُ من أَكْلِه الموتَ - يا محمد - لو يَجِدُ الموت، وهو يُكرَه عليه. فقلت: يا جِبْريل، مَن هؤلاء: قال: هؤلاء الهَمَّازون اللَمَّازون أصحابُ النَّمِيمةِ. فَيُقال: ﴿ أَيُحِبُّ أحدُكم أن يأكلَ لَحْمَ أَخِيه ميتاً فَكَرِهتُموه ﴾، وهو يُكْرَه على أَكْلِ لَحمِه.

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سُقناه بطوله في أول تفسير [سورة سبحان] ولله الحمد والمنَّةُ.

وقال أبو داود الطيالسي في مُسنَده: حدثنا الربيعُ، عن يزيدُ عن أنس: أن رسولَ الله - ﷺ - أمر الناسَ أن يصومُوا يوماً ولا يُفطِرَنَّ أحدٌ حتى آذن له. فَصَامَ الناسُ، فلما أمسَوا جعل الرجلُ يجيء إلى رسول الله - ﷺ - فيقول: ظَلِلتُ منذُ اليوم صائماً، فائذن لي فَأُفطِرَ. فيأذنُ له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسولَ الله، إن فتاتين من أهلِك ظَلَّتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فَلْيُفطِرا. فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسولُ الله - ﷺ -: «ما صامتا، وكيف صامَ مَن ظلَّ يأكل لحومَ الناس؟ اذهب فَمُرهما إن كانتا صائمتَين أن يَستَقِيئا. ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقَةً[(٥)] فأتى النبي - ﷺ - فأخبره، فقال رسول الله - ﷺ -: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»[(٦)].

---

(١) أخرجه الترمذي بإسناده إلى الفضل بن موسى، عارضة الأحوذي، كتاب البر ٨/١٨٥ - ١٨٦.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٧٠.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٦٩. ومسند الإمام أحمد ٢/٢٢٤.
(٤) أي: القطعة بعد القطعة.
(٥) في مسند أبي داود: عَلَقَةً عَلَقَةً.
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٢٨٢.

إسنادُ ضَعِيفٌ، ومَتنُ غريبٌ. وقد رواه الحافظُ البيهقيُّ من حديث يزيدَ بن هارون: حدثنا سُليمان التيمي قال: سَمِعتُ رجلاً يُحدِّث في مجلس أبي عُثمانَ النَّهدي عن عُبَيد ـ مولى رسول الله ـ أن امرأتين صامتا على عَهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ وأن رجلاً أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إن هاهنا امرأتين صامَتا. وإنهما كادتا تَمُوتان من العَطَش [1-1][قال: فأعرَضَ عنه أو سكت، ثم عاد. قال][1-1] ـ أُرَاهُ قال: بالهاجرة ـ. فقال: يا نبيَّ الله، إنهما ـ والله ـ قد ماتَتا أو كادتا تَموتان. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فَجِيءَ بقَدَحٍ ـ أو عُسّ ـ فقال لإحداهما: قِيئِي. فقاءَت من قَيْحٍ ودَمٍ وصَدِيدٍ، حتى قاءَت نصفَ القَدَح ثم قال للأخرى: قيئي. فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً ودَماً عَبيطا[2] وغيره حتى ملأت القَدَح. فقال: إن هاتَين صامتا عَمَّا أحلَّ الله لهما، وأفطَرَتا على ما حَرَّم الله عليهما، جَلَست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس[3].

[4-4][وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلاهما عن سليمان بن طرخان التيمي، به مثله أو نحوه][4-4].

ثم رواه أيضا من حديث مُسَدَّدٍ، عن يحيى القطان، عن عُثمانَ بن غِياثٍ، حدثني رجل أَظُنُّه في حَلْقَةِ أبي عثمان، عن سعدٍ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ: أنهم أُمِروا بصيام، فجاء رجلٌ في نصفِ النهار فقال يا رسولَ الله: فلانةٌ وفلانةٌ قد بَلَغتا الجَهد. فأعرضَ عنه مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: ادعهما. فجاء بعُس ـ أو: قَدَحٍ ـ فقال لإحداهما: «قيئي» فقاءت لَحْماً ودَمًا عَبيطاً وقَيْحاً، وقال للأخرى مثلَ ذلك، قال: إنَّ هاتَين صامَتَا عما أَحلَّ الله لهما، وأفطرتا على ما حَرَّم الله عليهما، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحومَ الناس حتى امتلأت أجوافُهما قيحاً.

قال البيهقي: كذا قال «عن سعد»، والأول ـ وهو عبيد ـ أصحّ[5].

وقال الحافظ أبو يعلَى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير عن ابن عَمّ لأبي هُرَيرة[6] أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إني قد زَنَيتُ. فأعرضَ عنه، حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة قال: زنيتَ؟ قال: نعم. قال: وتَدْرِي ما الزنا؟ قال: نَعَم، أتيتُ منها حَرَاما ما يأتي الرجلُ من امرأته حلالاً. قال: ما تُريد إلى هذا القول؟ قال: أريد أن تُطَهِّرني. قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أدخلتَ ذلك منكَ في ذلك منها كما يَغيب المِيلُ في المُكحُلة والرِّشاء في البئر؟ قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر بِرَجْمِهِ فَرُجِم، فسمع النبي ـ ﷺ ـ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تَرَ إلى هذا الذي سَتَر الله عليه فلم تَدَعْهُ نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب. فسار النبي ـ ﷺ ـ ثُمَّ مَرَّ بجيفة حمار فقال: أين فلانٌ وفلانٌ؟ انزلا فَكُلا من جيفة هَذا الحِمار. قالا: غَفَر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟! قال: فما نِلتُما من أخيكما آنفاً أشدُّ أكْلاً منه، والذي نَفْسي بيده إنه الآنَ لَفِي أنهارِ الجَنَّة ينغمس[7] فيها [إسناد صحيح].

(١ ـ ١) عن دلائل النبوة للبيهقي. ومكانه في النسخ بعد قوله بعد (بالهاجرة).
(٢) دَمٌ عَبِيطٌ: طَرِيٌّ.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٦/١٨١.
(٤ ـ ٤) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٤٣١.
(٥) الدلائل ٦/١٨٧.
(٦) في نسخة: (عن ابن عمٍّ لأبي هريرة، عن أبي هريرة). والمثبت يوافق نصّ المسند.
(٧) في مسند أبي يعلى: (يَتَقَمَّص فيها). ويروى أيضاً: (يَتَغَمَّس فيها). وكلٌّ بمعنى. والحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده ٥/٤١٩ ـ ٤٢٠، =

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الصَّمد، حدثني أبي، حدثنا واصل ـ مولى ابن عُيَينة ـ حدثني خالد بن عُرفُطَةَ، عن طلحةَ بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كُنَّا مع النبي ـ ﷺ ـ فارتفعت ريحُ جيفةٍ مُنتِنَةٍ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتدرُون ما هَذِه الريحُ؟ هذه ريحُ الذي يَغتابُونَ النَّاسَ»[1].

طَرِيقٌ أُخرَى، قال عَبْدُ بن حُمَيدٍ في مُسنَدِهِ: حدثنا إبراهيمُ بن الأشعث، حدثنا الفُضَيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن جَابر قال: كُنَّا مع النبيِّ ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ فهاجَت ريحٌ مُنتِنة، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ نفراً من المنافقين اغتابُوا ناساً من المُسلمِينَ، فلذلك بُعِثت هذه الرِّيحُ». وربما قال: «فلذلك هاجَت هذه الريحُ».

وقال السُّديُّ في قوله: ﴿ أَيُحِبُّ أَحدُكم أن يأكلَ لحم أخيه ميتاً ﴾ زَعَم أن سَلْمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ في سَفَرٍ يخدُمهما ويَخِفُّ لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائماً، لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يَجِداه، فضربا الخباء فقالا: ما يُريد سلمان ـ أو: هذا العبد ـ شيئاً غيرَ هذا: أن يجيء إلى طعام مقدُورٍ[2]، وخباءٍ مضروبٍ! فلما جاء سَلْمان أرسلاه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يطلب لهما إداماً، فانطلقَ فأتى رسولَ الله ومعه قَدَح له، فقال: يا رسولَ الله، بعثني أصحابي لِتُؤدِمَهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنعُ أصحابُك بالأُدْمِ؟ قد ائتدموا». فرجَع سلمانُ يُخبرهما بقولِ رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلقا حتى أتيا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالا: لا، والذي بعثك بالحقِّ ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا. قال: «إنكما قد ائتدمتُما بسلمانَ بقولكما». قال: ونزلت: ﴿ أَيُحِبُّ أحدُكم أن يأكُل لحم أخيه مَيْتاً ﴾ إنه كان نائماً[3].

وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه (المختارة) من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العربُ تخدُم بعضُها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعُمَر رجل يخدُمهما، فناما فاستيقظا ولم يُهيِّء لهما طعاماً، فقالا: إن هذا [لَنؤوم][4] فأيقظاه فقالا له: ائتِ رسولَ الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يُقرئانك السلام، ويَستأدِمانك. فقال: «إنهما قد ائتدما». فجاءا فقالا: يا رسولَ الله، بأيِّ شيءٍ ائتدمنا؟ فقال: «بلَحْم أخيكما، والذي نَفسِي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا. استغفِرْ لنا يا رسولَ الله. فقال: «مُرَاه فلْيَستغفِرْ لكما»[5].

وقال الحافظ أبو يعلَى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن أكل من لحم أخيه في الدنيا قُرِّب له لحمهُ في الآخرة، فيقال له: كله مَيْتاً كما أكلته حياً. قال: فيأكله ويَكْلَح ويَصيح»[6]. غريب جداً.

وقولُهُ: ﴿ واتَّقوا الله ﴾، أي: فيما أمركُم به ونهاكُم عنه، فراقبُوه في ذلك واخشَوا منه، ﴿ إن الله توابٌ رحيمٌ ﴾ أي: تَوَّابٌ على من تاب إليه، رحيمٌ بمن رَجَع إليه، واعتَمَد عليه.

= وأخرجه أبو داود في كتاب الحدود ٤/١٤٨ بإسناده إلى ابن جريج، عن أبي الزبير، عن عبد الرحمن بن الصامت ابن عَمِّ أبي هريرة، عن أبي هريرة.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٣٥١، وفيه: (يغتابون المؤمنين).

(٢) أي: مطبوخ.

(٣) الأثر في الدر المنثور ٧/٥٧٠ عن ابن أبي حاتم.

(٤) في النسخ: (إن هذا ليوائم يوم نبيكم، فقالا). والمثبت عن الدر المنثور.

(٥) الدر المنثور ٧/٥٧٢.

(٦) الدر المنثور ٧/٥٧٢ عن أبي يعلى، وابن المنذر، وابن مَرْدُويه. والكُلوح: بُدُوُّ الأسنان عند العُبُوس.

قال الجمهور من العلماء طريقُ المغتاب للناس في توبته أن يُقلِعَ عن ذلك، ويعزمَ على ألا يعودَ. وهل يُشتَرَط الندمُ على ما فات؟ فيه نزاعٌ، وأن يتحلَّل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يُشتَرَط أن يَتحلَّله فإنه إذا أعلَمه بذلك رُبَّما تأذَّى أشدَّ مما إذا لم يعلَم بما كان منه، فطريقُه إذاً أن يُثنِيَ عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمُّه فيها، وأن يَرُدَّ عنه الغيبةَ بِحَسبِهِ وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بنُ أيُّوب، عن عبد الله بن سليمان: أن إسماعيل بن يحيى المَعَافِريَّ أخبره أن سَهْل بن معاذ بن أنس الجُهَني أخبره، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن حَمَى مؤمناً من منافق يَعِيبه بعثَ الله مَلَكاً يحمِي لحمَه يوم القيامة من نار جَهَنَّم. ومن رَمَى مؤمناً بشيء يُريد شَيْنَه حَبَسه الله على جِسْرِ جَهَنَّم حتى يخرج مما قال»[1].

وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ـ وهو ابن المبارك ـ به بنحوه[1].

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابنُ أبي مَريم، أخبرنا الليثُ: حدثني يحيى بن سُلَيم أنه سَمِع إسماعيل بن بَشِير يقول: سَمِعتُ جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سَهلِ الأنصاري يَقولان: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن امرئٍ يخذُل امرأً مسلماً في موضع تُنتَهك فيه حُرمَتُه ويُنتَقص فيه من عِرْضِه إلاَّ خَذَله الله في مواطن يحب فيها نُصرته. وما من امرئٍ ينصر امرأً مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عِرْضِه، ويُنتَهكُ فيه من حُرمَتِهِ إلا نَصره الله في مواطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً للناس أنه خَلَقهم من نفسٍ واحدةٍ، وجَعَل منها زوجَها، وهما آدمُ وحوَّاء، وجعلهم شعوباً وهي أعمُّ من القبائل، وبعدَ القبائل مراتبُ أُخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذِ، وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشُعوب بطونُ العجم، وبالقبائل بطونُ العرب، كما أن الأسباطَ بطونُ بني إسرائيل. وقد لَخَّصت هذا في مُقدِّمة مفردة جمعتها من كتاب (الإنباه) لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب (القَصْد والأُمَم في مَعرفة أنساب العربِ والعَجَم). فجميعُ الناس في الشرف بالنِّسبة الطينية إلى آدمَ وحَوَّاء سواءٌ، وإنما يتفاضلُون بالأمور الدِّينية، وهي طاعة الله ومتابعةُ رسوله ـ ﷺ ـ ولهذا قال تعالى بعد النَّهي عن الغيبَةِ واحتقار بعض الناس بعضاً، مُنَبِّهاً على تساويهم في البشرية: ﴿ يا أيها الناسُ إنا خلقناكُم من ذَكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعُوباً وقبائلَ لتعارفوا ﴾. أي: ليحصُل التعارفُ بينهم، كلٌ يرجع إلى قَبِيلته.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ لِتَعارَفُوا ﴾، كما يقال: فلانُ بن فلان من كذا وكذا. أي: من قبيلةِ كذا وكذا. وقال سُفيان الثَّوري: كانت حِمْيَرُ ينتسبون إلى مَخَالِيفِها[3] وكانت عَرَبُ الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وقد قال أبو عيسى الترمذيُّ: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك بن عيسى الثَّقفِي، عن يزيد ـ مولى المُنبَعِثِ ـ عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تَعلَّموا من أنسابكم ما

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٤٤١، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٧١.

(٣) المخاليف: هو الكُوَر، أو المديرية والمحافظة في الاصطلاح الحديث، جمع: مِخْلاَف.

تَصلون به أرحامَكُم؛ فإنَّ صِلَة الرَحم مَحبَّةٌ في الأهل، مَثْرَاةٌ في المال، مَنْسَأةٌ في الأثَرِ» ثم قال: «غريب، لا نَعرفه إلا من هذا الوجه»[(١)].

وقولُهُ: ﴿ إنَّ أكرَمَكُمْ عند الله أتقاكُم ﴾، أي: إنما تتفاضَلُون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وَرَدت الأحاديثُ بذلك عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ:

قال البخاري ـ رَحِمه الله ـ: حدثنا محمد بن سَلَام، حدثنا عَبْدَة، عن عُبَيد الله، عن سَعِيد بن أبي سعيد، عن أبي هُرَيرة قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ: أيُّ الناسِ أكرمُ؟ قال: «أكرمُهم عند الله أتقاهُم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرمُ الناسِ يوسف نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنُ خليلِ الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «فَعَن معادِن العربِ تَسألُوني»؟ قالوا: نعم! قال: «فخيارُكم في الجَاهلية خيارُكم في الإسلام إذا فَقِهُوا»[(٢)].

وقد رواه البُخاريُّ في غير مَوضِعٍ من طرق عن عَبْدَة بن سليمان. ورواه النسائيُّ في التفسير من حديث عُبَيد الله ـ وهو ابن عُمَر العُمَري ـ به.

حديث آخر، قال مسلم ـ رحمه الله ـ: حدثنا عَمْرو الناقد، حدثنا كَثِير بن هشام، حدثنا جعفر بن بُرْقان، عن يزيد بن الأصَمّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٣)].

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كَثير بن هشام. به[(٣)].

حديث آخر، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن أبي هِلال، عن بكر، عن أبي ذَرٍّ قال: إن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال له: «انظُر، فإنك لستَ بخيرٍ من أحمَرَ ولا أسوَدَ إلا أن تَفضُلَه بتقوَى». تفرد به أحمد[(٤)].

حديثٌ آخر، قال الحافظُ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عُبَيدة عبد الوارثِ بن إبراهيمَ العَسْكَريُّ، حدثنا عبد الرحمن بن عَمرو بن جَبَلة، حدثنا عُبَيد بن حُنَين الطائي، سَمعت محمد بن حَبيب بن خِرَاشٍ العَصَريَّ يُحدِّث عن أبيه: أنه سَمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «المسلمون إخوةٌ، لا فَضلَ لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى»[(٥)].

حديث آخر، قال أبو بكر البزّار في مُسنَده: حدثنا أحمد بن يحيى الكُوفي، حدثنا الحسن بن الحُسَين، حدثنا قيس ـ يعني ابن الربيع ـ عن شَبِيب بن غَرْقَدَة، عن المُستَظِلّ بن حُصَين، عن حُذَيفةَ قال: رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّكم بنو آدم وآدم خُلِق من تُراب، ولَيَنْتَهِيَنّ قوم يَفْخَرون بآبائهم أو لَيَكُونُنَّ أهونَ على الله من الجِعْلان»[(٦)].

ثم قال: لا نَعرِفُه عن حُذَيفة إلا من هذا الوَجه.

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب البرّ ٨/١٥٠. ويعني بقوله: (مَثْراة في المال)، أي: هو سَبَبٌ لكثرة المال. وبقوله: (مَنْسَأة في الأثر)، أي أنه سبب في زيادة العُمُر.

(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف، وخرجناه هنالك.

(٣) تقدّم الحديث في غير موضع، انظر تفسير الآية ٢٧٥ من سورة البقرة، ٥٣ من سورة الأنعام، ٣٧ من سورة الحج، ٣٧ من سورة سبأ. وخرجناه هنالك.

(٤) مسند أحمد ٥/١٥٨.

(٥) المعجم الكبير ٤/٢٥. وانظر مجمع الزوائد ٨/٨٤.

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الأدب ٢/٤٣٤ ـ ٤٣٥. والجِعْلان: جمع جُعَلٍ، وهو حيوان كالخُنْفُساء يكثر في المواضع النَدِيّة.

حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سُلَيمان، حدثنا أَسَدُ بن موسى، حدثنا يحيى بن زَكَريا لفظاً، حدثنا موسى بن عُبَيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر قال: طاف رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومَ فتح مَكّة على ناقتِه القَصواء يستلم الأركان بمِحْجَن[1] في يده، فما وجد لها مُناخاً في المسجِد حتى نَزَل ـ ﷺ ـ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المَسِيل فأُنيخت. ثم إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ خَطَبهم على راحِلَته، فَحمِدَ الله وأثنى عليه بما هو له أهلٌ، ثم قال: «يا أيها الناسُ، إن الله قد أذهبَ عنكم عُبِّيَّةَ[2] الجاهلية وَتَعَظُّمها بآبائها، فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كريم على الله. وفاجرٌ شقِيٌّ هَيِّن على الله، إن الله يقولُ: ﴿ يا أَيُّها الناسُ إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأُنثى وجعلناكُم شعوباً وقبائل لتعارَفوا إن أكرمَكُم عند الله أتقاكُم إن الله عليم خَبير ﴾. ثم قال: أقول قولي هذا وأَستغفِرُ اللهَ لي ولكم».

هكذا رَواه عَبْدُ بن حُمَيد، عن أبي عاصم الضحَّاكِ بن مَخْلَدٍ، عن مُوسى بن عُبَيدَة، به[3].

حديثُ آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابنُ لَهيعَةَ، عن الحارث بن يَزيدَ، عن عَلِيِّ بن رَبَاح، عن عُقْبَةَ بن عامِرٍ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أنسابكُم هذه ليسَتْ بمَسبَّةٍ على أحدٍ، كلّكُم بنو آدمَ طَفُّ الصاعِ[4] لم تملأُوه، ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بدينٍ وتقوَى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيًّا بخيلاً فاحشاً»[5].

وقد رواهُ ابنُ جرير، عن يونس، عن ابن وَهب، عن ابن لَهيعة، به. ولفظه: «الناسُ لآدم وحَوَّاء، طَفُّ الصاعِ لم يَمْلئوه، إنَّ الله لا يسألُكم عن أحسابكُم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إنَّ أكرمَكُم عندَ الله أتقاكُم»[6] وليس هو في شيء من الكتب السِّتَّةِ من هذا الوَجْهِ.

حديثُ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أحمدُ بن عبدالملك، حدثنا شريكٌ، عن سِمَاكٍ، عن عبدالله بن عَميرة زوج دُرَّة ابنة أبي لهب، عن دُرَّة بنت أبي لهب قال: قام رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ وهو على المنبر فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ فقال ـ ﷺ ـ: «خيرُ الناس أقرؤُهم، وأتقاهم لله ـ عَزَّ وجلَّ ـ، وآمَرُهم بالمعروفِ، وأنهاهُم عن المنكر، وأوصلُهم للرحم»[7].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمد: حدثنا حسنٌ، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا أَبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجبَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ شيءٌ من الدنيا، ولا أعجبه أحدٌ قطُّ، إلاَّ ذو تُقىً[8]. تفرد به أحمدُ رحمه الله.

وقولُهُ: ﴿ إنَّ الله عليمٌ خَبيرٌ ﴾ أي: عَلِيمٌ بكم، خَبِيرٌ بأموركم، فَيهدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء،

---

(١) المِحْجَنُ: كل مُعْوَجُ الراس كالصولجان.

(٢) أي: فخرها وتكبُّرها ونخوتها.

(٣) وأخرجه ابن أبي شيبة عن عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عُتْبة. المصنف ١٤/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤ كما أخرجه الترمذي بإسناده إلى عبد الله بن دينار، عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحجرات ١٢/١٥٥ ـ ١٥٧. وانظر الدر المنثور ٧/٥٧٩.

(٤) قال ابن الأثير: المعنى: كلُّكم في الانتساب إلى أبٍ واحدٍ بمنزلة واحدٍ في النقص والتقاصُر عن غاية التمام. وشَبَّههُم في نقصانهم بالكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال.

(٥) مسند الإمام أحمد ١٥٨/٤.

(٦) تفسير الطبري ١٤٠/٢٦.

(٧) مسند الإمام أحمد ٤٣٢/٦. وفي المسند: (عن عبد الله بن عميرة، عن زوج دُرَّة) وفي أسد الغابة ١٠٣/٧: (عن سماك، عن زوج درة، عن درة).

(٨) مسند الإمام أحمد ٦٩/٦.

ويرحَمُ مَن يشاء، ويُعذِّب من يشاء، ويُفضِّل مَن يشاء على مَن يشاء، وهو الحكيمُ العليمُ الخبيرُ في ذلك كلِّه. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ الكريمةِ وهذه الأحاديث الشريفةِ مَن ذهب مِن العُلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يُشتَرَط سوى الدين، لقوله: ﴿ إنَّ أكرَمكم عند الله أتقاكم ﴾. وذهبَ الآخرونَ إلى أدلَّةٍ أخرى مذكورةٍ في كتب الفقه، وقد ذكرنا طَرَفاً من ذلك في (كتاب الأحكام)، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقد رَوَى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سَمِع رَجُلاً من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسُول الله. فقال: غيرُك أولى به منك، ولك منه نَسَبُه.

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى منكراً على الأعراب الذين أوَّل ما دخلوا في الإسلام ادَّعَوا لأنفُسِهم مقام الإيمان، ولم يتمكَّن الإيمان في قُلُوبهم بعد: ﴿ قالتِ الأعرابُ آمنَّا قل لم تُؤمنُوا ولكن قُولُوا أَسْلَمنا وَلَمَّا يدخُلِ الإيمانُ في قُلوبكم ﴾. وقد استُفِيد من هذه الآية الكريمة أنَّ الإيمان أخصُّ من الإسلام، كما هو مذهبُ أهل السُّنةِ والجماعةِ، ويدلُّ عليه حديث جبريلَ ـ عليه السلام ـ حين سَأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان[١]. فترقَّى من الأعمِّ والأخصِّ، ثم للأخصِّ منه.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عامر بن سعد بن أبي وقَّاص، عن أبيه قال: أعطى رسولُ الله ـ ﷺ ـ رجالاً ولم يُعطِ رَجلاً منهم شيئاً، فقال سعدٌ: يا رسولَ الله، أعطيتَ فلاناً وفلاناً ولم تُعطِ فلاناً شيئاً، وهو مُؤمِنٌ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: أَوْ مسلمٌ ـ حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ـ ﷺ ـ يقول: أَوْ مسلمٌ ـ ثم قال النبي ـ ﷺ ـ: إني لأعطِي رجالاً وأَدَعُ مَـن هو أحبُّ إليَّ منهم فلا أعطيه شيئاً مخافة أن يُكَبُّوا في النار على وُجُوهِـهم». أخرجاه في الصحيحَين من حَديث الزُّهريِّ، به[٢].

فقد فرَّق النبي ـ ﷺ ـ بين المُسلِم والمؤمن فَدَلَّ على أن الإيمانَ أخصُّ من الإسلام. وقد قرَّرنا ذلك بأدلته في أول شَرْح كتاب الإيمانِ من (صحيح البخاريِّ) ولله الحمـدُ والمنَّةُ. وَدَلَّ ذلك على أنَّ ذاك الرجلَ كان مُسلِماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء ووكَلَه إلى ما هُو فيه من الإسلام، فَدَلَّ هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مُسلِمون لم يستحكِم الإيمانُ في قُلُوبهم، فادَّعوا لأنفُسِهم مقاماً أعلَى مما وصلُوا إليه، فأُدِّبوا في ذلك. وهذا معنى قولِ ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقتادةَ، واختاره ابن جرير[٣]. وإنما قُلنا هذا لأن البخاريَّ ـ رحمه الله ـ ذهب إلى أن هؤلاء كانُوا منافقين يُظهرونَ الإيمان وليسُوا

(١) أخرجه الشيخان في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/١١٤، ومسلم ١/٣٩.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/١٧٦، وأخرجاه في الإيمان، فتح الباري ١/٧٩، ومسلم ١/١٣٢. وانظره عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة.
(٣) تفسير الطبري ٢٦/١٤٢-١٤٣.

كذلك. وقد رُوِي عن سعيد بن جُبَير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾، أي: استسلمنا خوفَ القتلِ والسِّباءِ. قال مجاهد: نَزلت في بني أسدِ بن خُزَيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيحُ الأول: أنهم قومٌ ادَّعَوا لأنفسِهم مقام الإيمان، ولم يحصُلْ لهم بعد، فأُدِّبوا وأُعلِموا أن ذلك لم يَصِلُوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لَعُنِّفُوا وفُضِحُوا، كما ذكر المنافقين في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿ قل لم تُؤْمِنُوا ولكن قُولوا أسلمنا ولما يدخُلِ الإيمانُ في قلوبكم ﴾، أي: لم تَصِلُوا إلى حقيقةِ الإيمانِ بعدُ.

ثم قال: ﴿ وإن تُطِيعُوا الله ورسولَه لا يَلِتْكُم من أعمالكم ﴾، أي: لا ينقُصْكم من أُجُوركم ﴿ شيئاً ﴾، كقوله: ﴿ وما أَلَتناهم من عَمَلِهم من شيء ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إن الله غفورٌ رحيم ﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب.

وقولُهُ: ﴿ إنما المؤمنونَ ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمَّلُ ﴿ الذين آمنُوا بالله ورسُوله ثُمَّ لم يرتابُوا ﴾، أي: لم يَشكُوا ولا تَزَلْزَلوا بل ثَبَتُوا على حالٍ واحدةٍ، وهي التصديقُ المحضُ، وجاهَدُوا بأموالهم وأنفُسهم في سبيلِ الله ﴾، أي: وبَذَلُوا مُهَجهم ونفائس أموالِهم في طاعةِ الله ورِضْوانِهِ، ﴿ أولئكَ هُم الصادقُون ﴾، أي: في قولهم إذا قالوا: (إنَّهم مُؤمِنُون)، لا كبعض الأعرابِ الذين ليس مَعَهم من الدِّين إلا الكلمةُ الظاهرةُ.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيلان، حدثنا رِشدينُ، حدثني عَمرو بن الحارث، عن أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد قال: إن النبي ـ ﷺ ـ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسُوله ثم لم يرتابوا وجاهَدُوا بأموالهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله، والذي يأمنه الناسُ على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرَفَ على طَمَعٍ تركه لله عَزَّ وجَلَّ»[1].

وقولُهُ: ﴿ قل أتُعلِّمون الله بدينكُم ﴾، أي أتُخبِرُونه بما في ضمائركم، ﴿ والله يعلَمُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ﴾ أي: لا يخفَى عليه من مثقالِ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ، ﴿ والله بكُلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾.

ثم قال: ﴿يَمنُّون عليك أن أسلموا﴾، يعني الأعرابَ الذين يَمنُّون بإسلامهم ومُتابعتهم ونُصرتهم على الرسول، يقولُ الله رادًّا عليهم: ﴿ قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامَكُم ﴾، فإنَّ نَفْعَ ذلك إنما يعودُ عليكم، ولله المنَّةُ عليكُم فيه، ﴿ بل الله يَمُنُّ عليكم أن هَدَاكم للإيمان إن كُنتم صادِقِين ﴾. أي: في دَعْوَاكم ذلك، كما قال النبيِ ـ ﷺ ـ للأنصار يوم حُنَين: «يا معشرَ الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم مُتفرقين فألَّفَكُمُ الله بي؟ وعَالَةً فأغناكم الله بي؟». كُلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسولُه أَمَنُّ[2].

وقال الحافظُ أبو بكر البَزَّار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجَوْهَرِيُّ، حدثنا يحيى بن سَعيدٍ الأُمَوِيُّ، عن مُحمَّد بن قيس، عن أبي عَون، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال: جاءت بَنُو أسدٍ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا رسولِ الله، أسلمنا وقاتلتك العربُ، ولم نُقاتِلك. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنَّ فِقهَهم قليلٌ، وإن الشيطان

(١) مسند الإمام أحمد ٨/٣.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، ٦٣ من سورة الأنفال، ٧٤ من سورة براءة، ٢٣ من سورة الشورى. وخرجناه هنالك.

يَنْطِقُ على ألسنتهم. ونزلت هذه الآية: ﴿ يَمُنُّون عليك أن أسلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامَكُم بل الله يَمُنُّ عليكُم أن هَدَاكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾[1].

ثم قال: لا نعلَمُه يُروَى إلا من هذا الوَجْهِ، ولا نعلَمُ رَوَى أبو عون محمد بن عُبَيدالله، عن سعيد ابن جُبَير، غير هذا الحديث.

ثم كَرَّر الإخبار بِعِلْمِه بجميع الكائنات، وبَصَرِه بأعمال المخلوقات فقال: ﴿ إن الله يعلَمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ والله بصيرٌ بما تعمَلُون ﴾.

آخر تفسير الحجرات، ولله الحمد والمنة.

(١) أخرجه أيضاً النسائي، وابن مردويه. انظر الدر المنثور ٧/٥٨٤، وتحفة الأشراف للمزي ـ فقد أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى ـ ٤/٤٤١.

تفسير

سُورَةُ قٓ

وَهِيَ مكيةٌ

هذه السورةُ هي أوَّلُ الحزب المُفصَّل على الصحيح، وقيل: من الحُجُرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من (عَمّ)، فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماءِ المُعتَبَرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورةَ هي أول المفصَّل ما رواه أبو داود في سُنَنه، باب (تحزِيب القرآن) ثم قال:

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرّان بن تمام (ح) ـ وحدثنا عبدَ الله بن سَعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد سليمان بن حَيَّانَ ـ وهذا لفظُه ـ عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يَعْلَى، عن عثمانَ بن عبد الله بن أوسٍ، عن جده ـ قال عبد الله بن سعيد في حَدِيثِهِ ـ: أوس بن حُذَيفة ـ ثم اتفقا قال: قَدِمنا على رسول الله ـ ﷺ ـ في وَفْدِ ثَقِيفٍ، قال: فنزلتِ الأحلافُ على المُغيرة بن شعبة، وأنزلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بني مالك في قُبَّةٍ له ـ قال مُسَدَّدٌ: وكان في الوفد الذين قَدِموا على رسول الله ـ ﷺ ـ من ثقيف، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ كلَّ ليلةٍ يأتينا بعد العشاء يُحدِّثنا ـ قال أبو سعيد: قائماً على رجليه حتى يُرَاوِحَ[1] بين رجليه من طُول القيام، فأكثَرُ ما يُحدِّثنا ما لَقِي من قومه قُرَيش، ثم يقول: «لا سَوَاء[2] وكنا مُستضعَفين مستذلين ـ قال مُسَدَّد: بمكَّةَ ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سِجَالُ[3] الحرب بيننا وبينهم، نُدَال عليهم ويدالون علينا»[4]. فلما كانت ليلة أبطأ علينا[5] عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأتَ علينا الليلة! قال: «إنه طَرأ عليَّ حِزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أُتِمَّهُ». قال أوس: سألتُ أصحابَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: كيف تُحزِّبونَ القرآن؟ فقالوا: ثلاثٌ، وخمسٌ، وسبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرةَ، وثلاثَ عشرةَ، وحزبُ المفصل وحدَه[6].

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن يعلى، الطائفي به[6].

(١) أي: يعتمد على إحدى الرجلين مرَّةً، وعلى الأخرى مَرَّةً، ليوصل الراحة إلى كل منهما.

(٢) في النسخ: لا أساء.

(٣) السجال في الأصل: جمع سَجْلٍ، وهو الدلو العظيمة، مملوءةً، أو فيها ماءٌ قلّ أو كثر. وسِجالُ الحربِ: تمثيل، فالمعنى: نُصْرَتُنا بينهم متداولة، سَجْلٌ منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء.

(٤) أي: تكون لنا الدولة عليهم مرة، ولهم علينا أخرى.

(٥) ليست في السنن. وأثبتنا عن إحدى النسخ، وفي أخرى: أبطأ عنا.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٥٥ ـ ٥٦، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٤٢٧ ـ ٤٢٨، ومسند الإمام أحمد ٤/٩.

إذا عُلِم هذا عَدَدت ثمانياً وأربعين سورةً فالتي بعدهُنَّ سورة [قٓ]. بيانه ثلاثٌ: البقرةُ، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدةُ، والأنعامُ، والأعرافُ، والأنفالُ، وبراءةُ. وسبعٌ: يونسُ، وهودٌ، ويوسفُ، والرعدُ، وإبراهيمُ، والحِجْرُ، والنحلُ. وتسعٌ: سبحانَ، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ، والحجُّ، والمؤمنونَ، والنورُ، والفرقانُ. وإحدى عشرةَ: الشعراءُ، والنملُ، والقصَصُ، والعنكبوتُ، والرومُ، ولقمانُ، والمٓ السجدة، والأحزابُ، وسَبأ، وفاطر، ويسٓ. وثلاث عشرةَ: الصافاتُ، وصٓ، والزُمَرُ، وغافرُ، وحمٓ السجدة، وحمٓ عٓسٓقٓ، والزخرفُ، والدخانُ، والجاثيةُ، والأحقافُ، والقتالُ، والفتحُ، والحُجُرات. ثم بعد ذلك الحزبُ المفصَّلُ كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة [قٓ] وهو الذي قُلْناه، ولله الحمدُ والمنَّة.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي، حدثنا مالك، عن ضَمْرَة بن سعيد، عن عُبَيد الله بن عبد الله: أن عُمَر بن الخطابِ سأل أبا واقدٍ اللَّيْثيَّ: ما كان رسولُ الله - ﷺ - يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربَتْ[١].

وَرَواه مسلم، وأهلُ السُّنَن الأربعة، من حديث مالك به[١]. وفي رواية لمسلم، عن فُلَيح[٢] عن ضَمْرَة، عن عُبَيد الله، عن أبي واقد قال: سألني عُمَر. فذكره[١].

حديثٌ آخرُ، وقال أحمد: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرَارة، عن أمِّ هشام بنتِ حارثةَ قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي - ﷺ - واحداً سنتين، أو سنةً وبعضَ سنة، وما أخذتُ ﴿ قٓ والقرآنِ المجيدِ ﴾ إلا على لسانِ رسولِ الله - ﷺ -، كان يقرؤها كلَّ يوم جُمُعةٍ على المنبر إذا خَطَب الناس[٣]. رواه مسلم أيضاً من حديث ابن إسحاق، به[٣].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن خُبَيب[٤]، عن عبد الله بن محمد بن مَعْن، عن ابنة الحارث بن النُّعمان قالت: ما حَفظت (قٓ) إلا من فِي رسولِ الله - ﷺ - يخطُب بها كُلَّ جُمُعةٍ. قالت: وكان تَنُورنا وتَنُورُ رسولُ الله - ﷺ - واحداً[٥]. وكذا رواه مسلم، والنسائيُّ، وابن ماجه، من حديثِ شعبة، به[٥].

والقصدُ أنَّ رسولَ الله - ﷺ - كان يقرأ بهذه السورةِ في المجامعِ الكبار، كالعيد والجُمَع، لاشتمالها على ابتداء الخَلْق والبَعْثِ والنُّشور، والمعادِ والقيامِ، والحسابِ، والجنةِ والنارِ، والثوابِ والعقابِ، والترغيبِ والترهيب.

---

(١) مسند الإمام لحمد ٥/٢١٧ - ٢١٨، ومسلم، كتاب صلاة العيدين ٢/٦٠٧. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٣٠٠، وعارضة الأحوذي، أبواب العيدين ٣/٦، والنسائي، كتاب العيدين ٣/١٨٣ - ١٨٤، وابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٤٠٨.

(٢) في النسخ: (عن مالك، عن ضمرة. . .). والمثبت عن مسلم.

(٣) مسند الإمام احمد ٦/٤٣٥ - ٤٣٦، ومسلم، كتاب الجمعة ٢/٥٩٥. وتشير بقولها (وكان تنُّورنا. . .). إلى حفظها ومعرفتها بأحوال النبي - ﷺ - وقُرْبها من منزله.

(٤) في النسخ: (عن حبيب بن عبد الله. . .). وما أثبت هو الصواب. وخبيب هو ابن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي، يروى عن عبد الله بن محمد بن معن، وعنه: شعبة بن الحجاج. مترجم في تهذيب الكمال ٨/٢٢٧ - ٢٢٨.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٨٨، ومسلم، كتاب الجُمُعة ٢/٥٩٥، والذي وجدته في النسائي في كتاب الصلاة ٢/١٥٧ عن عمران بن يزيد، عن ابن أبي الرجال، عن يحيى بن سعيد، عن عَمْرة، عن أم هشام بنت حارثة. ولم أجده في سنن ابن ماجه. وانظر تحفة الأشراف للمزّي ١٣/١٠٨ - ١٠٩.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ قٓ ﴾: حرف من حروف الهجاء التي تقدم ذكرها في أوائل السُّوَرِ، كقوله: ﴿ صٓ ـ نٓ ـ الٓمٓ ـ حمٓ ـ طسٓ ﴾ ونحو ذلك، قاله مجاهدٌ وغيرهُ. وقد أسلفنا الكلامَ عليها، في أول [سورة البقرة] بما أغنى عن إعادته.

وقد رُوِي عن بعضِ السلَفِ أنهم قالوا ﴿ قٓ ﴾: جبَلٌ محيطٌ بجميع الأرض، يقال له: قاف. وكأنَّ هذا ـ والله أعلم ـ من خُرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس، لِما رأى من جوازِ الرواية عنهم فيما لا يُصدَّق ولا يُكذَّب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلَبِّسونَ به على الناس أمْرَ دِينهم، كما افترى في هذه الأمةِ ـ مع جلالةِ قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديثَ عن النبي ـ ﷺ ـ وما بالعهد من قِدَمٍ، فكيف بأمَّةِ بني إسرائيل مع طُول المدى، وقلَّة الحُفَّاظ النُّقَّاد فيهم، وشُربِهم الخمور، وتحريفِ عُلَمائهم الكَلِم عن مواضعه، وتَبديلِ كُتُبِ الله وآياتِه! وإنما أباحَ الشارعُ الروايةَ عنهم في قوله: «وحَدِّثوا عن بني إسرائيل، ولا حَرَجَ»[1]، فيما قد يُجوِّزُه العقل، فأمَّا فيما تُحيله العقول ويُحكم عليه بالبطلان، ويَغلب على الظنون كَذِبه، فليس من هذا القَبيلِ، والله أعلم.

وقد أكثر كثيرٌ من السَّلَف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخَلَف، من الحكاية عن كُتُب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمدُ والمنَّة، حتى إن الإمام أبا مُحمَّد عبدَ الرحمن بن أبي حاتم الرازيَّ ـ رحمه الله ـ أوردَ هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنَدُه عن ابن عباس فقال:

حَدَّثنا أبي قال: حُدِّثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي[2]: حدثنا ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خَلَق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خَلَق من وراء ذلك جبلا يقال له: (قاف) السماء الدنيا مرفوفةٌ عليه[3]. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبعَ مرَّاتٍ. ثم خَلَق من وراءِ ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له: (قاف) السماء الثانية مرفوفة عليه[3]، حتى عدَّ سبعَ أرضين، وسبعةَ أبحُرٍ، وسبعةَ أجبُلٍ، وسبعَ سَموات. قال: وذلك قولُه: ﴿ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾[4].

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاعٌ، والذي رواه ابنُ أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ قٓ ﴾: هو اسمٌ من أسماء الله عز وجل.

والذي ثبت عن مجاهد: أنه حرفٌ من حُروفِ الهجاء، كقوله: ﴿ صٓ ـ نٓ ـ حمٓ ـ طسٓ ـ الٓمٓ ﴾ ونحو ذلك. فهذه تُبعِد ما تقدَّم عن ابن عباس.

---

(١) تقدَّم الحديث في مقدّمة التفسير، وخرجناه هنالك.

(٢) كذا في النسخ، وفي الجرح والتعديل ٧/١٨٨: الزُّبيدي.

(٣) مرفوفة: مسقوفة.

(٤) الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم وحده ٧/٥٨٩.

وقيل: المراد «قُضِيَ الأمر والله»، وأن قوله: ﴿ قٓ ﴾ دلَّت على المحذُوفِ من بقية الكلم كقول الشاعر[١]:

قلت لها: قفي فقالت: قاف

وفي هذا التفسير نظرٌ؛ لأن الحذفَ في الكلام إنما يكون إذا دلَّ دليلٌ عليه، ومِن أين يُفهَمُ هذا من ذِكْرِ هذا الحرفِ؟!.

وقولُهُ: ﴿ والقرآنِ المجيدِ ﴾، أي: الكريمِ العظيمِ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفِهِ، ﴿تنزيلٌ من حَكِيم حَميدٍ﴾.

واختلفوا في جَوابِ القَسَم ما هو؟ فحكى ابنُ جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿ قد عَلِمنا ما تنقُص الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظ ﴾[٢].

وفي هذا نظرٌ، بل الجوابُ هو مضمونُ الكلام بعد القسم، وهو إثباتُ النبوَّة، وإثباتُ المَعَادِ، وتقريرُه وتحقيقُهُ وإن لم يكن القسم مُتلَقّى لفظاً، وهذا كثيرٌ في أقسامِ القرآن كما تقدَّم في قوله: ﴿ صٓ والقرآنِ ذي الذِّكر * بل الذين كَفَرُوا في عِزَّةٍ وشِقاقٍ﴾ وهكذا قال هاهنا: ﴿قٓ والقرآنِ المجيدِ * بل عَجِبُوا أن جاءهُم منذرٌ منهم فقال الكافِرُون هذا شيءٌ عَجِيب ﴾ أي: تعجبوا من إرسالِ رَسُولٍ إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿ أكانَ للناسِ عجباً أن أوحينَا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذِر الناسَ ﴾، أي: وليس هذا بعجيبٍ، فإن الله يَصطَفِي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم في تَعَجُّبِهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوُقوعِه: ﴿ أئذا متنا وكُنَّا تُراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ ﴾؟أي يقولون: أئِذا مِتْنا وبَلِينا وتقَطَّعت الأوصالُ منا وصرنا تُراباً، كيف يُمكِن الرجوعُ بعد ذلك إلى هذه البِنْيَةِ والتركيب؟ ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ أي: بعيدُ الوقوع، ومعنى هذا أنهم يَعتقِدُون استحالته وعدَم إمكانه، قال الله تعالى رَادًّا عليهم: ﴿ قد عَلِمنا ما تنقصُ الأرض منهم ﴾، أي: ما تأكلُ من أجسادهم في البِلى، نعلَم ذلك ولا يخفَى علينا أين تفرَّقت الأبدان، وأينَ ذَهبت، وإلى أين صارت؟ ﴿ وعندنا كتابٌ حَفِيظٌ ﴾، أي: حافظ لذلك، فالعلمُ شاملٌ، والكتابُ أيضاً فيه كلُّ الأشياءِ مَضْبُوطةً.

قال العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قد عَلِمنا ما تَنقُص الأرضُ منهم ﴾، أي: ما تأكل من لُحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادةُ، والضحَّاك، وغيرهم.

ثم بيَّن تعالى سببَ كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿ بل كَذَّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مَرِيج ﴾، أي: وهذا حالُ كلِّ مَن خَرج عن الحقِّ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريجُ: المُختلِف المُضطرب المُلتبِسُ المُنكرُ خِلالُه، كقوله: ﴿إنكم لفي قول مُختَلِف * يُؤفَكُ عنه من أُفِكَ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾

(١) تقدم عند مفتتح سورة البقرة.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٤٧.

يقولُ تعالى مُنبِّهاً للعبادِ على قُدرتِهِ العظيمةِ التي أظهَرَ بها ما هو أعظَمُ مما تَعجَّبوا مُستَبعِدين لوقُوعه: ﴿أفلم ينظُروا إلى السماء فوقَهم كيف بنيناها وزيَّناها﴾، أي: بالمصابيح، ﴿وما لها من فُروجٍ﴾ ـ قال مجاهد: يعني من شُقوقٍ. وقال غيره: فُتوق. وقال غيره: من صُدوعٍ. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الذي خَلق سَبع سمواتٍ طِباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوُت فارجِع البَصَر هل ترى من فُطور * ثم ارجِع البصر كَرَّتين يَنقلِبْ إليك البصرُ خاسئاً وهو حَسيرٌ﴾، أي: كَليل، أي: عن أن يَرى عيباً أو نقصاً.

وقولُهُ: ﴿والأرضَ مددناها﴾، أي: وَسَّعناها وفَرَشناها، ﴿وألقينا فيها رواسيَ﴾، وهي: الجبالُ، لئلا تَميدَ بأهلها وتضطربَ، فإنها مُقَرَّةٌ على تيّارِ الماءِ المحيطِ بها من جَميع جوانبها، ﴿وأنبتنا فيها من كُلِّ زوجٍ بَهيجٍ﴾ أي: من جَميعِ الزروعِ والثمارِ والنباتِ والأنواعِ، ﴿ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجَين لَعلَّكم تذكَّرون﴾، وقوله: ﴿بَهيجٍ﴾ أي: حَسَن نَضِر ﴿تبصِرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ مُنيبٍ﴾، أي: ومشاهدةُ خَلْق السمواتِ وما جُعِل فيهما من الآيات العظيمة تبصرةٌ ودلالةٌ وذكرى لكل عبد مُنيب، أي: خاضع خائفٍ وَجِلٍ رَجّاعٍ إلى الله عَزَّ وجَلَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ونَزَّلنا من السماء ماءً مُباركاً﴾، أي: نافعاً ﴿فأنبتنا به جَنّاتٍ﴾، أي: حدائقَ من بساتينَ ونحوها ﴿وحبَّ الحَصيد﴾، وهو: الزرع يُراد لحَبِّهِ وادِّخاره.

﴿والنخلَ باسقاتٍ﴾، أي: طوالاً شاهقاتٍ. وقال ابنُ عباس: ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسن، وقتادةُ، والسُّديُّ، وغيرهم: الباسقاتُ الطِّوالُ. ﴿لها طلعٌ نَضِيد﴾، أي: منضودٌ ﴿رزقاً للعباد﴾، أي: للخَلْقِ، ﴿وأحيينا به بلدةً ميتاً﴾، وهي الأرض التي كانت هامدةً، فلما نَزل عليها الماءُ اهتزَّت ورَبَت وأنبَتَتْ من كلِّ زوجٍ بَهيجٍ، من أزاهيرَ وغيرِ ذلك، مما يحار الطَّرْفُ في حُسنها، وذلك بعد ما كانت لا نباتَ بها، فأصبحت تَهتزُّ خَضراءَ، فهذا مثالٌ للبعثِ بعدَ الموتِ والهلاكِ، كذلك يُحيي الله الموتى. وهذا المُشاهَدُ مِن عَظيمِ قُدرتِهِ بالحِسِّ أعظمُ مما أنكرَه الجاحِدُون للبعثِ، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السمواتِ والأرض أكبرُ من خَلقِ الناس﴾. وقولِهِ: ﴿أوَ لم يَروا أنَّ الله الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ ولم يَعيَ بخلقهنَّ بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى بلى إنه على كل شيءٍ قدير﴾. وقال تعالى: ﴿ومن آياتِهِ أنَّك ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وَربَت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُتهدِّداً لِكُفّار قريشٍ بما أحلَّه بأشباههم ونُظَرائهم وأمثالهم من المكذِّبين قبلَهم، من النَّقِماتِ والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نُوحٍ وما عذَّبهم الله [به] من الغَرَق العامِّ لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرسِّ وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان: ﴿وثمودُ * وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ لُوطٍ﴾، وهم أمته الذين بُعِث إليهم من أهل سَدُومَ ومعاملتها في الغَورِ، وكيف خَسَفَ الله بهم الأرضَ، وأحال أرضَهم بُحَيرةً منتنةً خَبيثةً، بكفرهم وطُغيانهم ومُخالَفتِهم الحقَّ، ﴿وأصحابُ الأيكةِ﴾، وهم قوم شُعَيب ـ عليه السلام ـ، ﴿وقومُ تُبَّعٍ﴾، وهو اليماني. وقد ذكرنا من شَأنه في سُورة الدُّخان، بما أغنى عن إعادَته هاهنا، ولله الحمدُ.

﴿كُلٌّ كذَّب الرُّسلَ﴾، أي: كلٌّ مِن هذه الأمم وهؤلاء القُرون كَذَّب رَسُولَه، ومَن كذَّب رسولاً فكأنما كَذَّب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبت قومُ نوحٍ المرسلين﴾، وإنما جاءهم رسولٌ واحدٌ، فهم في نفس الأمر

لو جاءهم الرُسل كذَّبوهم، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، أي: فَحَقَّ عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنَّكالِ. فلْيحذرِ المُخاطَبُون أن يُصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذَّبوا رَسُولهم كما كذَّب أولئك.

وقولُهُ: ﴿ أَفَعَيِينا بالخَلْقِ الأوَّلِ ﴾، أي: أفأعْجزنا ابتداءُ الخلق حتَّى هُم في شَكٍّ من الإعادةِ، ﴿ بل هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جديد ﴾: والمعنى أن ابتداء الخلق لم يُعجزنا والإعادةُ أسهلُ منه، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يَبدأُ الخلق ثم يُعيده وهو أهونُ عليه ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وَضَرب لنا مثلاً ونَسِي خلقه قال من يُحيي العظامَ وهي رَميم * قُل يُحييها الذي أنشأها أوَّل مَرَّة وهو بكلِّ خَلْقٍ عَليم ﴾. وقد تَقَدَّم في الصَّحِيح: «يقولُ الله تعالى: يُؤذِيني ابنُ آدم، يقولُ: لن يُعيدني كما بَدأني، وليس أوَّلُ الخلْقِ بأهْوَنَ عليَّ من إعادَتِه»[١].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن قُدرته على الإنسان بأنه خالِقُه، وعِلْمُه محيطٌ بجميع أُموره، حتى إنه تعالى يعلَم ما تُوسوِسُ به نفوسُ بني آدم من الخير والشر. وقد ثبتَ في الصَّحِيح عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله تجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثت به أَنْفُسَها ما لم تقل أو تعمَل»[٢].

وقولُهُ: ﴿ ونحنُ أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيد ﴾، يعني ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حَبْلِ وَرِيدِه إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فرَّ لئلا يلزم حُلول أو اتِّحاد، وهما مَنْفِيَّان بالإجماع، تعالى الله وتقدَّس، ولكن اللفظ لا يَقتَضِيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوَرِيد، وإنما قال: ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾، كما قال في المُحْتَضَرِ: ﴿ ونحن أقربُ إليه منكم ولكن لا تُبصِرُون ﴾، يعني ملائِكته. وكما قال: ﴿ إنا نحن نَزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾. فالملائكة نَزَلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. وكذلك الملائكة أقربُ إلى الإنسان من حَبْلِ وريدِه إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ في الإنسان كما أنَّ للشَّيطانِ لَمَّةً[٣]، وكذلك: «الشيطانُ يجري من ابن آدمَ مجرَى الدم»[٤]، كما أخبر بذلك الصادقُ المصدوقُ. ولهذا قال هاهنا: ﴿ إذ يتلقَّى المُتلقِّيان ﴾، يعني المَلَكين اللَّذين يكتُبان عملَ الإنسان. ﴿ عن اليمينِ وعن الشمالِ قَعيدٌ ﴾، أي: مُرْصَدٌ ﴿ ما يلفظ ﴾، أي: ابنُ آدم ﴿ من قولٍ ﴾، أي: ما يتكلَّم بكلمة ﴿ إلاَّ لَدَيه رقيبٌ عَتِيدٌ ﴾، أي: إلاَّ ولها من يُراقبها، مُعَدٌّ لذلك يكتبها، لا يترك كلمةً ولا حركةً، كما قال تعالى: ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمُون ما تفعلون ﴾.

وقد اختلف العلماءُ: هل يكتُب المَلَكُ كلَّ شيءٍ من الكلام؟ وهو قولُ الحَسَنِ وقتادةَ، أو إنما يكتُب ما

---

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٧ من سورة الروم، وخرجناه هنالك، والحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، فتح الباري ٩/٢٨٧، والتفسير ٨/٧٣٩.

(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٨٤ من سورة البقرة، ١٥٧ من سورة الأعراف، ١٦ من سورة النور، وخرجناه هنالك.

(٣) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٦٨ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأحكام ١٣/١٥٨ ـ ١٥٩، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٢ ـ ١٧١٣.

فيه ثوابٌ وعِقابٌ كما هو قولُ ابنِ عباس؟ على قولين، وظاهر الآية الأولُ، لعموم قوله: ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لَدَيه رقيبٌ عَتيدٌ ﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبيه، عن جَدّه علقمةَ، عن بلال بن الحارث المُزَني قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الرجُلَ ليتكلّم بالكلمة من رِضوانِ الله تعالى ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغت، يكتُبُ الله له بها رِضوانَه إلى يوم يلقاهُ. وإنَّ الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكَلِمَة من سَخَط الله ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغت، يكتُبُ الله عليه بها سَخَطَه إلى يومِ يَلْقاه». قال: فكان عَلْقَمةُ يقول: كَم مِن كَلامٍ قد مَنَعنيه حديثُ بلالِ بن الحارث[1].

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو، به: وقال الترمذيُّ: (حسن صحيح). وله شاهد في الصحيح[1].

وقال الأحنفُ بن قيس: صاحبُ اليمين يكتُبُ الخيرَ، وهو أميرٌ على صاحبِ الشمال، فإن أصاب العبدُ خطيئةً قال له: أَمْسِك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتُبَها، وإن أبى كَتَبها. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الحسن البصريُّ وتلا هذه الآيةَ: ﴿ عَنِ اليمينِ وعَنِ الشمالِ قَعيدٌ ﴾: يا ابن آدم، بُسِطت لك صحيفةٌ، ووُكِّل بك مَلَكان كريمان، أحدُهما عن يَمينك، والآخرُ عن شِمالك، فأما الذي عن يَمينك فيحفَظُ حَسَناتِك، وأما الذي عن يَسارك فيحفَظُ سَيِّئاتك، فاعمل ما شِئْتَ، أَقلِلْ أو أَكثِر، حتى إذا مِتَّ طُوِيَت صَحِيفتك، وجُعِلت في عُنُقِك معَكَ في قَبرِك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه في عنقه ونُخرِج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كَفَى بنفسِكَ اليوم عليك حسيباً ﴾. ثم يقول: عَدَل ـ والله ـ فيك مَنْ جعلك حَسِيبَ نَفسِك[2].

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ ما يَلفِظُ من قَولٍ إلا لَدَيه رقيبٌ عَتِيدٌ ﴾، قال: يكتُبُ كُلَّ ما تَكلَّم به من خيرٍ أو شرٍّ، حتى إنه ليكتُبُ قولَهُ: (أكلتُ، شَربتُ، ذَهَبتُ، جِئتُ، رأيتُ)، حتى إذا كان يومُ الخميس عُرِض قولُهُ وعملُه، فأقرَّ منه ما كان فيه من خيرٍ أو شرٍّ، وأُلقِيَ سائرُه، وذلك قوله: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثبِتُ وعنده أم الكتاب ﴾.

وذُكِر عن الإمام أحمد أنه كان يَئِنُّ في مَرَضِه، فَبلغه عن طاوسَ أنه قال: يكتُبُ المَلَكُ كلَّ شيءٍ حتى الأنينَ. فلم يَئِنَّ أحمدُ حتى مات رحمه الله.

وقولُهُ: ﴿ وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كنتَ منه تَحِيد ﴾، يقول تعالى وجاءت ـ أيُّها الإنسانُ ـ سكرةُ الموتِ بالحقِّ، أي: كَشَفت لك عن اليقين الذي كنتَ تمتري فيه ﴿ ذلك ما كنتَ منه تَحِيد ﴾، أي: هذا هو الذي كُنتَ تفرُّ منه قد جاءك، فلا مَحِيدَ ولا مَناصَ، ولا فَكاكَ ولا خَلاصَ.

وقد اختلفَ المُفسِّرون في المخاطب بقوله: ﴿ وجاءت سَكرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كنتَ منه تَحِيدُ ﴾ فالصحيحُ أن المخاطب بذلك الإنسانُ من حيث هُو: وقيل: الكافرُ، وقيل غيرُ ذلك.

وقال أبو بكر بن أبي الدُّنيا: حدثنا إبراهيمُ بن زياد ـ سَبَلان ـ أخبرنا عَبّادُ بن عبّاد، عن محمد بن

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٦٩/٣. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢ من سورة الحجرات، ١٥ من سورة النور، وخرجناه هنالك.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٩/٢٦، وقد تقدم أيضاً عند تفسير الآية ١٣ من سورة الإسراء.

عَمْرِو بن علقمة، عن أبيه، عن جَدِّه علقمة بن وقاصٍ أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: حَضَرت أبي وهو يموتُ، وأنا جالسةٌ عند رأسه، فأخذته غَشْيَةٌ، فتمثَّلتُ ببيت من الشعر:

مَنْ لا يَـزَالُ دَمْعُـهُ مُقَنَّعـاً فـإنـه لا بُـدَّ مَرّة مَـدْفُـوقُ

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾.

وحدثنا خَلَف بنُ هشام؛ حدثنا أبو شِهاب، عن إسماعيلَ بن أبي خالد، عن البَهِيّ قال: لما أن ثَقُل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ جاءت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ فَتَمَثَّلت بهذا البيت[1]:

لَعَمْـرُكَ مَـا يُغْنِي الثَّـراءُ عَنِ الفَتَى إذَا حَشْرَجَتْ يَوماً وضَاقَ بها الصَّدْر

فكَشَفَ عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قُولي: ﴿ وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقِّ ذلكَ ما كنتَ منه تَحيدُ ﴾. وقد أوردت لهذا الأثر طُرُقاً في سيرَةِ الصِّديق عند ذكر وفاتِهِ، رضي الله عنه.

وقد ثَبَت في الصَّحِيح عن النبي ـ ﷺ ـ لما تغشاه الموت جعل يمسَحُ العرقَ عن وجهه ويقول: «سبحانَ الله! إن للموت لَسَكَرَاتٍ»[2].

[3]وفي قوله: ﴿ ذلك ما كنت منه تحيدُ ﴾ قولان:

أحدهما: أن (ما) ها هنا موصولة، أي: الذي كنتَ منه تحيدُ ـ بمعنى تَبْتَعِد وتنأى وتفِرُّ ـ قد حَلَّ بك ونَزَل بساحتك.

والقول الثاني: أن (ما) نافية بمعنى: ذلك ما كنتَ تقدُرُ على الفرار منه ولا الحَيْد عنه.

وقد قال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا محمد بن علي الصائغ المكيّ، حدثنا حفصُ بن عُمَر الجُدِّيُّ، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلي، عن يونسَ بن عُبَيدٍ عن الحسن، عن سَمُرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مثلُ الذي يَفِرُّ من الموتِ مثلُ الثعلب، تطلُبه الأرض بدَين، فجاء يسعى حتى إذا أعْيَا وابْتَهَرَ[4] دخل جُحْره، فقالت له الأرضُ: يا ثعلبَ، دَيني. فخرج وله حُصَاص[5]، فلم يزل كذلك حتى تَقَطَّعت عُنُقه ومات»[5].

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت][3].

وقولُه: ﴿ ونُفِخَ في الصُّور ذلك يومُ الوَعِيدِ ﴾، قد تَقَدَّمَ[6] الكلامُ على حديثِ النَّفخ في الصُّورِ والفَزَع والصَّعق والبعث وذلك يوم القيامة. وفي الحديثِ أن رسولَ الله ﷺ قال: «كيفَ أنعمُ وصاحِبُ القَرْنِ قد التَقَم القرنَ وحَنَى جَبْهَته، وانتظر أن يُؤذَن له». قالوا: يا رسولَ الله، كيف نقولُ؟؟ قال: «قولوا: حَسْبُنَا الله ونِعَم الوكيل». فقال القوم: «حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل»[7].

---

(١) البيت لحاتم الطائي، ديوان ٥٠، وهو في النهاية واللسان: حشرج.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، فتح الباري ٣٦١/١١.

(٣ ـ ٣) من هنا ساقط من بعض النسخ.

(٤) ابتهر: تتابع نَفَسُه. وحَصَّ الفرسُ ونحوه: اشتدَّ عَدْوُه في سُرعَةٍ.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢٢/٧. وقال في مجمع الزوائد ٣٢٠/٢: (رواه الطبراني في الكبير والأوسط).

(٦) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام، ٩٩ من سورة الكهف، ١٠٢ من سورة طه.

(٧) انظر الحديث وتخريجنا له عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران، ٩٩ من سورة الكهف.

﴿ وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ ﴾، أي: مَلَكٌ يسوقُه إلى المحشر، ومَلَكٌ يشهَدُ عليه بأعماله. هذا هو الظاهرُ من الآية الكريمة. وهو اختيارُ ابن جَرير[1]. ثم رَوَى من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن يحيى بن رافع ـ مولى لثقيف ـ قال: سَمِعتُ عثمانَ بن عفان يخطُب، فقرأ هذه الآيةَ ﴿ وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشَهيد ﴾، فقال: سائقٌ يسوقُها إلى الله، وشاهدٌ يشهدُ عليها بما عَمِلت. وكذا قال مجاهدٌ، وقَتادَةُ، وابنُ زيد.

وقال مُطَرِّفٌ، عن أبي جعفرٍ ـ مولى أشجَعَ ـ عن أبي هُرَيرة: السائقُ الملك، والشهيد العملُ. وكذا قال الضحاك والسُّديُّ.

وقال العَوفيّ عن ابن عباس: السائقُ من الملائكة، والشهيدُ الإنسانُ نفسُه، يشهَدُ على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً.

وحكى ابنُ جرير ثلاثةَ أقوالٍ في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿ لقد كنتَ في غَفلةٍ من هذا فَكَشفنا عنكَ غِطاءَك فَبصرُك اليومَ حَديدٌ ﴾، أحدُها: أن المرادَ بذلك الكافرُ. رَواه عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقولُ الضحّاكُ بنُ مُزَاحم وصالح بن كَيسان.

والثاني: أنَّ المرادَ بذلك كلُّ أحد من بَر وفاجرٍ، لأن الآخرةَ بالنسبةِ إلى الدنيا كاليَقَظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حُسَين بن عبد الله بنِ عُبَيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطبَ بذلك النبي ـ ﷺ ـ. وبه يقول زيدُ بن أسلم، وابنُه. والمعنى على قولهما: لقد كنتَ في غفلة من هذا القرآن قبل أن يُوحَى إليك، فكَشفنا عنك غطاءَك بإنزالِه إليكَ، فَبصرُك اليوم حديدٌ.

والظاهر من السياق خلافُ هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيثُ هو. والمراد بقوله: ﴿ لقد كنت في غَفلةٍ من هذا ﴾، أي: من هذا اليوم، ﴿ فكشفنا عنكَ غطاءَكَ فَبصرُك اليوم حديد ﴾، أي: قَويّ، لأن كل واحدٍ يومَ القيامة يكون مُستبصِراً، حتى الكفارُ في الدنيا يكونون يومَ القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفَعُهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِع بهم وأَبصِرْ يوم يَأتوننا﴾. وقال تعالى: ﴿ولو تَرَى إِذِ المجرِمُون نَاكِسُوا رُءوسهم عند ربِّهم رَبَّنا أَبصَرْنا وسَمِعنا فأَرجِعْنا نَعْمَل صالحاً إنا مُوقِنونَ﴾.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن المَلَك الموكل بِعَمَلِ ابنِ آدَمَ، أنَّه يشهد عليه يوم القيامة بما فَعَل، ويقول: ﴿ هذا ما لَدَيَّ عتيدٌ ﴾، أي: مُعَدٌّ مُحضَر بلا زيادةٍ ولا نُقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابنُ آدم الذي وَكَّلتني به، قد أحضرتُه. ـ وقد اختار ابنُ جرير أنه يَعُمُّ السائقَ والشهيدَ، وله اتجاهٌ وقوةٌ ـ فعند ذلك يحكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿ أَلقِيا في جَهَنَّم كُلَّ كَفَّار عَنيدٍ ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/١٦١.

وقد اختلفَ النحاة في قوله: ﴿ ألقيا ﴾، فقال بعضُهم: هي لغة لبعض العرب يخاطِبُون المفرد بالتثنية، كما روي عن الحجَّاج أنه كان يقول: يا حَرَسِيُّ، اضرِبا عُنُقه[1]. ومما أنشد ابنُ جرير على هذه اللغة قول الشاعر[2]:

فإن تَزْجُرَاني ـ يا ابن عفّان ـ أنزجرْ ... وإنْ تَتْرُكَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا

وقيل: بل هي نونُ التوكيد، سُهِّلت إل الألف. وهذا بعيدٌ، لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائقِ والشهيدِ، فالسائق أحضَره إلى عَرْصَةِ الحساب، فلما أدَّى الشهيدُ عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائِهِ في نار جَهَنَّم وبِئْسَ المصير.

﴿ ألقيا في جَهَنَّم كلَّ كَفَّار عَنِيدٍ ﴾، أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿ عَنِيدٍ ﴾: مُعانِدٍ للحق، معارضٍ له بالباطلِ مع عِلمِه بذلك. ﴿ مَنَّاعٍ للخير ﴾، أي: لا يُؤَدِّي ما عليه من الحُقُوق، ولا برٌّ فيه ولا صِلَةَ ولا صدقة، ﴿ مُعتَدٍ ﴾، أي فيما يُنفِقُهُ ويَصرِفه، يتجاوَزُ فيه الحد. وقال قتادة: ﴿ مُعتد ﴾ في منطِقه وسيرته وأمره.

﴿ مُرِيبٍ ﴾، أي: شَاكٌّ في أمره، مُرِيب لمن نظر في أمره. ﴿ الذي جَعَل مع الله إلَٰهاً آخَرَ ﴾، أي: أشرَكَ بالله فَعَبَد معه غيره، ﴿ فَأَلقِيَاه في العَذَابِ الشَّدِيد ﴾. وقد تَقَدَّم في الحديثِ أن عُنُقاً من النار يبرز للخلائق فينادي بصوتٍ يُسمعَ الخلائقَ: إني وُكِّلتُ بثلاثة، بكلِّ جبار عَنِيد، ومَن جعل مع الله إلَٰهاً آخَرَ، وبالمُصَوِّرين[3]. ثم يَنْطَوي عليهم.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا مُعاوية ـ هو ابن هشام ـ حدثنا شيبانُ، عن فِرَاسٍ، عن عطية، عن أبي سَعيد الخُدري، عن نَبيِّ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يخرج عُنُق من النار يَتَكلَّم، يقول: وُكِّلت اليومَ بثلاثةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ، ومَن جعل مع الله إلَٰهاً آخر، ومن قَتل نفساً بغير نفسٍ. فَتَنطِوي عليهم، فَتَقْذِفهم في غَمَرات جهنم»[4].

﴿ قال قرينُه ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرُهم، هو الشيطان الذي وُكِّل به، ﴿ رَبَّنا ما أطغيتُه ﴾، أي: يقولُ عن الإنسان الذي قد وافى القيامةَ كافراً، يَتَبرَّأ منه شيطانُه، فيقول: ﴿ رَبَّنا ما أطغيتُه ﴾، أي: ما أضلَلْتُهُ، ﴿ ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ ﴾، أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانِداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿ وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمر إنَّ الله وعَدَكم وعدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخلفتُكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي فلا تَلُومُوني ولومُوا أنفُسَكم ما أنا بِمُصْرِخِكم وما أنتم بِمُصْرِخِيَّ إني كفرتُ بما أشركتُمونِ من قبلُ إن الظالمين لهم عذابٌ أليمٌ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ قال لا تَخْتَصِمُوا لديَّ ﴾، يقوله الربُّ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ للإنسيِّ وقرينِه من الجِنِّ، وذلك أنهما يختصِمان بين يَدَيِ الحقِّ فيقول الإنسيُّ: يا ربِّ، هذا أضلَّني عن الذِّكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطانُ: ﴿ رَبَّنا ما أطغيتُه ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ ﴾، أي: عن منهجِ الحقِّ. فيقول الربُّ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لهما: ﴿ لا تختَصِمُوا لديَّ ﴾، أي: عِنْدي ﴿ وقد قَدَّمتُ إليكم بالوَعِيدِ ﴾، أي: قد أعذرتُ إليكم على ألسِنَة الرسُلِ، وأنزلتُ الكتبَ، وقامت عليكم الحُجَجُ والبيِّناتُ والبراهينُ.

---

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادي ٦/١٤٨، ٧/٥٤، ١١/١٨، وشرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر ابن الأنباري ١٧.

(٢) هو سُوَيد بن كراع، والبيت في معاني القرآن للفراء ٣/٧٨. والفراء هو النحوي الذي عناه الطبري في تفسيره عند هذه الآية ٢٦/١٦٥، ونقل عنه هذا البيت.

(٣) تقدّم الحديث، وشرح غريبه، وتخريجه عند تفسير الآية ١٥ من سورة إبراهيم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٤٠.

﴿ ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ ﴾، قال مجاهد: يَعني قد قَضيتُ ما أنا قاض، ﴿ وما أنا بظلَّامٍ للعبيدِ ﴾، أي: لستُ أُعَذِّب أحداً بذنبِ أحدٍ، ولكن لا أُعَذِّب أحداً إلَّا بذنبه، بعد قيام الحُجَّة عليه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ ﴾

يخبرُ تعالى أنه يقولُ لجهنَّم يوم القيامة: هل امتلأتِ؟ وذلك لأنَّه وَعَدها أن سيملأُها من الجنَّة والناس أجمَعين، فهو - سبحانه - يأمرُ بمن يأمرُ به إليها، ويُلقَى وهي تقول: ﴿ هل من مَزيدٍ ﴾، أي: هل بَقِي شيءٌ تزيدوني؟ هذا هو الظاهرُ من سياق الآية، وعليه تدلُّ الأحاديث:

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حَرَمِيُّ [بن عُمَارَة]، حدثنا شعبةُ، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك، عن النبي - ﷺ - قال: «يُلقَى في النار وتقولُ: هل مَن مَزيدٍ، حتى يَضَع قَدمه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ»(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، عن أنس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لا تَزالُ جَهنَّم يُلقَى فيها وتقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يضعَ ربُّ العزَّةِ فيها قدمَه، فيَنْزَوي بعضُها إلى بعضٍ، وتقول: قَطْ قَطْ، وعِزَّتك وكَرَمِكَ. ولا يزالُ في الجَنَّةِ فضلٌ حتى يُنشِىءَ الله لها خلقاً آخَرَ، فيُسكِنَهم في فُضُول الجَنَّة»(٢).

ثم رواه مسلم من حديث قتادةَ، بنحوه. ورواه أَبانُ العطَّار وسليمان التَّيمي، عن قتادةَ، بنحوه(٢).

حديثٌ آخَرُ، قال البخاريُّ: حدثنا محمد بن موسى القَطَّان، حدثنا أبو سفيان الحِمْيَري سَعيد بن يحيى بن مهدي، حدثنا عوفٌ، عن مُحمَّدٍ، عن أبي هُرَيرَةَ - رفعه، وأكثرُ ما كان يُوقِفُهُ أبو سفيان -: «يقال لجهنَّم: هل امتلأتِ، وتقول: هل مِن مَزيدٍ، فيضعُ الربُّ - عزَّ وجلَّ - قدَمَه عليها، فتقول: قَطْ قَطْ»(٣). رَوَاه أيُّوبَ وهشامُ بن حَسَّان. عن محمد بن سيرينَ، به(٣).

طريقٌ أُخرَى، قال البخاريُّ: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمرٌ، عن هَمَّام، عن أبي هُرَيرة قال: قال النبيُّ - ﷺ -: «تحاجَّت الجنَّةُ والنارُ، فقالت النارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين. وقالت الجنَّة: مَا لِي لا يدخُلني إلا ضُعَفاء الناس وسقَطُهم. قال الله - عزَّ وجلَّ - للجنة: أنتِ رَحمتي، أرحمُ بك مَن أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أُعَذِّبُ بكِ من أشاءُ من عبادِي. ولِكُلِّ واحدةٍ منكما مِلْؤُها، فأما النارُ فلا تَمتلِئُ حتى يَضَعِ رجله، فتقول: قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلئُ، ويُزوَى بعضُها إلى بعضٍ، ولا يظلم الله من خَلقِهِ أحداً، وأما الجَنَّة فإن الله يُنشِئُ لها خلقاً آخرَ»(٤).

حديث آخر، قال مسلمٌ في صَحِيحه: حدثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدثنا جَرير، عن الأعمش، عن أبي

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة ق ٨/٥٩٤.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٢٣٤. ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٧ - ٢١٨٨، وتفسير الطبري ٢٦/١٧١.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة ق ٨/٥٩٥، ومسند الإمام أحمد ٢/٥٠٧، وتفسير الطبري ٢٦/١٧٠.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة ق ٨/٥٩٥، وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٤ من سورة البقرة، ١٥ من سورة الإسراء.

صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «احتجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبِّرون. وقالت الجنةُ: فيَّ ضُعفاء الناس ومساكينُهم. فقضى بينهما، فقال للجنة إنما: أنتِ رَحْمَتي، أرحمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي. وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أُعذِّب بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها».

انفردَ به مسلمٌ دونَ البخاري(١)، من هذا الوجه، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد رواه الإمام أحمدُ من طريق أُخرى، عن أبي سعيدٍ بأبسطَ من هذا السياقِ فقال:

حدثنا حسنٌ ورَوحٌ قالا: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن عطاء بن السائب، عن عُبَيد الله بن عَبدِ الله بن عُتبَةَ، عن أبي سعيد الخُدْري أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «افتخَرت الجنةُ والنارُ، فقالت النارُ: يا ربِّ، يدخُلني الجبابرة والمتكبِّرون والملوك والأشراف. وقالت الجنةُ: أيْ ربِّ، يدخُلني الضعفاءُ والفقراءُ والمساكينُ. فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للنار: أنتِ عذابي، أُصيب بكِ مَن أشاء. وقال للجنة: أنتِ رحمتي، وَسِعَتِ كلَّ شيءٍ، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤُها فَيُلقى في النار أهلُها فتقول: هل من مزيدٍ؟ ويُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويُلقى فيها وتقولُ: هل من مزيدٍ؟ حتى يأتيها ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، فيَضَع قَدَمه عليها، فتَزْوَى وتقول: قَدْني، قَدْني. وأما الجنةُ فيبقَى فيها [أهلها](٢) ما شاء الله أن يبقَى، فينشىء الله لها خلقاً مَا يشاء»(٣).

حَديثٌ آخر، وقال الحافظ أبو يعلَى في مسنده: حدثنا عَقبة بن مُكْرَم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن زرّ بن حُبَيش، عن أُبيِّ بن كعبٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يُعَرِّفُني الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ نفسَه يومَ القيامة، فأسجدُ سجدةً يرضَى بها عنِّي، ثم أمدحُه مِدْحَةً يرضَى بها عني، ثم يُؤذَن لي في الكلام، ثم تَمرُّ أمتي على الصراط ـ مضروبٌ بين ظهرانَيْ جَهنَّم ـ فيَمُرُّون أسرع من الطَّرف والسَّهم، وأسرَعَ من أجودِ الخيل، حتى يخرجَ الرجلُ منها يحبُو، وهي الأعمال. وجَهنَّم تسأل المزيدَ، حتى يضَعَ فيها قدمَه، فَيَنزوِي بعضها إلى بعضٍ وتقول: قَطْ قَطْ! وأنا على الحوض» قيل: وما الحوضُ يا رسول الله؟ قال: «والذي نفسي بيده إنَّ شرابَه أبيضُ من اللَّبن، وأحلى من العَسَل، وأبردُ من الثلج، وأطيَبُ ريحاً من المسكِ. وآنيته أكثرُ من عددِ النجوم، لا يشرَب منه إنسانٌ فيظمأ أبداً، ولا يُصرَفُ فَيَروي أبداً»(٤). وهذا القول هو اختيار ابن جرير(٥).

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو يحيى الحِمَّاني، عن نَضْر الخَزَّاز، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ يوم نقولُ لجَهَنَّم هل امتلأتِ وتقولُ هـل من مزيدٍ ﴾، قال: ما امتلأتُ. قال تقول: وهل فِيَّ من مكان يُزَادُ فيَّ.

وكذا رواه الحَكَمُ بن أبانَ، عن عكرمة: ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾: وهل فِيَّ مدخلٌ واحدٌ؟ قد امتلأتُ!.

قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبي مريم أنه سَمع مجاهداً يقول: لا يزال يُقذَف فيها حَتَّى تقول: قد امتلأتُ فتقول: ﴿ هل من مزيدٍ ﴾. وعن عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ نحوُ هذا.

---

(١) مسلم، كتاب الجنة ٢١٨٧/٨.
(٢) عن المسند.
(٣) مسند الإمام أحمد ١٣/٣. وقدني قدني: حسبي، حسبي!.
(٤) الدرّ المنثور ٦٠٣/٧.
(٥) تفسير الطبري ١٧٠/٢٦.

فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿ هل امتلأت ﴾ إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوي وتقول حينئذ: هَلْ بقي فيَّ من مَزِيدٍ يسع شيئاً؟.

قال العوفي، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضعٌ يَسَعُ إبرةً، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ وأُزْلِفَتِ الجنةُ للمتقين غيرَ بعيدٍ ﴾، قال قتادةُ، وأبو مالك، والسُّديُّ: ﴿ أُزلفت ﴾: أُدنِيَت وقُرِّبت من المتقين ﴿ غيرَ بعيدٍ ﴾، وذلك يومَ القيامة، وليس ببعيدٍ، لأنه واقعٌ لا محالَةَ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ.

﴿ هذا ما توعدون لكل أوَّاب ﴾، أي: رجاع تائب مقلع، ﴿ حفيظ ﴾، أي: يحفظ العهدَ فلا ينقضُه وينكثُهُ. وقال عُبَيد بن عُمَير: الأوَّابُ الحفيظُ الذي لا يجلِس مجلساً فيقومُ حتى يستغفر الله عَزَّ وجَلَّ.

﴿ مَن خَشِيَ الرحمنَ بالغيب ﴾، أي: مَن خاف الله في سرِّه حيثُ لا يراهُ أحدٌ إلا الله. كقوله ـ عليه السلام ـ: «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه»(١).

﴿ وَجاء بقلبٍ مُنِيبٍ ﴾، أي: وَلَقِيَ الله يومَ القيامةِ بقلبٍ سَلِيم مُنِيبٍ إليه خاضعٍ لديهِ. ﴿ ادخُلوها ﴾، أي: الجنةَ ﴿ بسلامٍ ﴾، قال قتادة: سَلِمُوا من عذاب الله، وسَلَّم عليهم ملائكةُ الله.

وقولُهُ: ﴿ ذلكَ يومُ الخُلودِ ﴾، أي: يُخَلَّدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعَنون أبداً، ولا يبغُون عنها حِوَلاً.

وقولُهُ: ﴿ لهم ما يشاءُون فيها ﴾ أي: مهما اختارُوا وَجَدُوا، مِن أيِّ أصنافِ الملاذِّ طَلَبوا أُحضِرَ لهم.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عَمْرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّة، عن بَحِيرِ بن سعد، عن خالد بن مَعْدانَ، عن كُثَير بن مُرَّة قال: مِن المَزيد أن تَمُرَّ السحابةُ بأهلِ الجنّة فتقول: ماذا تُرِيدون فأمطِرَه لكم؟ فلا يَدعُونَ بشيءٍ إلا أَمطرتْهم. قال كُثَير: لئن أشهَدَني الله ذلك لأقولَنَّ: أَمطِرينا جواريَ مُزَيَّناتٍ(٢).

وفي الحديث عن ابن مسعودٍ أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال له: «إنَّك لَتشتَهي الطيرَ في الجَنَّةِ فيَخِرُّ بين يَدَيكَ مَشْوياً».

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن عامر الأحول، عن أبي بكرٍ الصِّديق، عن أبي سعيد الخُدريِّ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا اشتهى المؤمنُ الوَلَد في الجَنَّةِ كان حَمْلُه وَوَضْعُه وسِنُّهُ في ساعةٍ واحدةٍ»(٣).

وَرواه الترمذيُّ وابنُ ماجه عن بُندارٍ، عن معاذِ بن هشامٍ، به. وقال الترمذيُّ: (حسن غريبٌ)، وزاد: كما يَشْتَهي(٣).

وقولُهُ: ﴿ ولدينا مزيدٌ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ ﴾. وقد تقدم في صَحِيح مسلم عن صُهَيب بن سِنان الرُّومي: أنها النظرُ إلى وَجْهِ الله الكريم(٤). وقد روى البزَّار وابن أبي حاتم، من حديث

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأذان ١٤٣/٢٨، ومسلم، كتاب الزكاة ٧١٥/٢. وقد تقدَّم عند تفسير الآية ٢٧١ من سورة البقرة، ٣٣ من سورة يوسف، ٢٩ من سورة يسٓ.

(٢) الدر المنثور ٦٠٨/٧.

(٣) مسند الإمام أحمد ٩/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الجنة ٣٥/١٠ ـ ٣٦، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٥٢/٢.
ومعنى قوله: (وسِنُّه)، أي: كمالُ سِنِّه، وهو ثلاثون سنةً.

(٤) انظر تفسير الآية ٢٦ من سورة يونس.

شريك القاضي، عن عُثمان بن عمير أبي اليقظان، عن أنس بن مالكٍ في قوله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، قال: يظهرُ لهم الربُّ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في كل جُمُعةٍ[1].

وقد رواه الإمامُ أبو عبد الله الشافعيُّ مرفوعاً فقال في مُسنَده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عُبَيدة، حدثني أبو الأزهر معاويةُ بنُ إسحاقَ بن طلحةَ، عن عُبَيد الله عُمَير أنه سَمِع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيلِ بمرآة بيضاء فيها نُكتة[2] إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما هذِه؟. فقال: هذه، الجمعةُ، فُضِّلْتَ بها أنتَ وأُمَّتُك، فالناس لكم فيها تَبَعٌ، اليهودُ والنصارى، ولكُم فيها خيرٌ، ولكم فيها ساعة لا يُوافقُها مُؤمن يدعُو الله بخير إلا استُجيب له، وهو عندنا يومُ المزيد. قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: يا جبريلُ، وما يومُ المزيدِ؟ قال: إنَّ ربَّك اتخذ في الفِرْدَوس وادياً أفيحَ[3] فيه كُثُب المِسْكِ، فإذا كان يومُ الجُمُعة أنزلَ الله ما شاءَ من ملائكته، وحَوْلَهُ منابرُ من نُور، عليها مقاعدُ النبيِّين، وحَفَّ تلك المنابرَ بمنابر من ذَهب، مُكَلَّلةٍ بالياقوتِ والزبرجَدِ، عليها الشهداءُ والصدِّيقونَ. فجلسوا من وَرائهم على تلك الكُثُبِ، فيقولُ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: أنا ربُّكم، قد صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، فَسَلُوني أُعطِكم. فيقولون: ربَّنا، نسألك رِضْوانَك، فيقولُ: قد رَضِيتُ عنكم، ولكم عَلَيَّ ما تَمَنَّيْتُم، ولديَّ مزيدٌ. فهم يُحِبُّون يومَ الجمعة لما يُعطِيهم فيه ربُّهم من الخيرِ، وهو اليومُ الذي استوى فيه ربُّكم على العرشِ، وفيه خَلَقَ آدَمَ، وفيه تقومُ الساعة.

هكذا أورده الإمامُ الشافعيُّ في كتابِ (الجُمُعَةِ)[4] من الأمِّ، وله طُرُق عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ. وقد أورد ابنُ جريرٍ هذا من رواية عثمان بن عُمَير، عن أَنَسٍ بأبسَطَ من هذا، وذكر هاهنا أثراً مُطَوَّلاً عن أنسِ بن مالكٍ موقوفاً، وفيه غَرائِبُ كثيرةٌ[5].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَنٌ، حدثنا ابنُ لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الرجُلَ في الجَنَّة لَيَتَّكِيءُ في الجنَّةِ سبعينَ سنةً قبل أن يتحوَّل، ثم تأتيه امرأةٌ فتَضربُ على مَنْكِبِه، فينظر وجهَه في خدِّها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤةٍ عليها تُضِيء ما بين المشرقِ والمغربِ. فتُسَلِّم عليه، فيَردُّ السلامَ، فيسألها: من أنتِ؟ فتقول: أنا من المزيدِ. وإنه ليكون عليها سبعونَ حُلَّةً، أدناها مثلُ النعمان من طوبى، فَيَنفُذها بَصَرُه حتى يَرَى مُخَّ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان إنَّ أدنى لؤلؤةٍ منها لَتُضِيءُ ما بين المشرقِ والمغربِ»[6].

وهكذا رواه عبدُ الله بن وهب عن عَمْرِو بن الحارثِ، عن دَرّاجٍ، به[6].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار كتاب التفسير ٦٩/٣، وانظر مجمع الزوائد ١١٢/٧.

(٢) النكتة: الأثر في الشيء كالنقطة. وفي مسند الشافعي: وكتة، وهما بمعنى.

(٣) أي: واسعاً. والكُثُب: جمع كثيب، وهو التل.

(٤) الأم ١٨٥/١، وهو في ترتيب مسند الإمام الشافعي ١٣٦/١ ـ ١٣٧.

(٥) تفسير الطبري ١٧٣/٢٦ ـ ١٧٥.

(٦) مسند الإمام أحمد ٧٥/٣. وتفسير الطبري ١٧٥/٢٦ ـ ١٧٦.

يقولُ تعالى: ﴿ وَكَم أهلكنا ﴾ قبل هؤلاء المُنكِرين: ﴿ مِن قَرْنٍ هم أشدُّ منهم بطشاً ﴾، أي: كانوا أكثَرَ منهم وأشدَّ قوةً، وأثاروا الأرضَ وَعَمرُوها أكثر ممّا عَمَروها، ولهذا قال هاهنا: ﴿ فنقّبوا في البلاد ﴾، قال ابنُ عباس: أثَّروا فيها. وقال مجاهد: ﴿ فَنَقَّبوا في البلاد ﴾: ضَرَبُوا في الأرض. وقال قتادةُ: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغُون الأرزاقَ والمتاجرَ والمكَاسبَ أكثَرَ مما طفتم أنتم فيها. ويقال لمن طَوَّف في البلاد: نَقَّب فيها. قال امرؤ القيس[1]:

لَقَدْ نَقَّبْتُ في الآفَاقِ حَتّى   رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَة بالإيَابِ

وقولُهُ: ﴿ هل من مَحِيص ﴾، أي: هل من مَفَرٍّ كان لهم من قَضاءِ الله وقَدَره؟ وهل نَفَعُهم ما جَمَعُوه، ورَدَّ عذابَ الله إذ جاءهم لما كَذَّبُوا الرُّسُل؟ فأنتم أيضاً لا مَفَرَّ لكم ولا مَحِيد، ولا مَنَاصَ ولا محيص.

وقولُهُ: ﴿ إنَّ في ذلك لذكرى ﴾، أي: لعبرةً ﴿ لمن كان له قلبٌ ﴾، أي: لُبٌّ يَعِي به. وقال مجاهدٌ: عقلٌ، ﴿ أو أَلقَى السمع وَهُو شَهِيد ﴾، أي استَمَعَ الكلام فَوَعاه، وتَعَقَّله بقلبِهِ وتَفَهَّمه بلُبِّه.

وقال مجاهدٌ: ﴿ أو أَلْقَى السَّمْعَ ﴾، يعني: لا يُحدِّثُ نَفْسَه شاهدُ القلبِ[2].

وقال الضحّاكُ: العربُ تقول: ألقى فلان سمعَه: إذا استمع بأُذُنيه وهو شاهد، يقول غَيْرَ غائب. وهكذا قال الثوريُّ وغيرُ واحدٍ.

وقولُهُ: ﴿ ولقد خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيام وما مَسَّنا من لُغُوب ﴾، فيه تقريرُ المعاد، لأن مَن قَدَر على خَلْقِ السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهنّ قادرٌ على أن يُحييَ الموتى بطريقِ الأَوْلَى والأحرَى.

وقال قتادةُ: قالت اليهودُ - عليهم لعائنُ الله - خَلَق الله السمواتِ والأرضَ في ستّةِ أيام، ثم استراحَ في اليوم السابع، وهو يومُ السبت، وهم يُسمُّونه يومَ الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالُوه وتأوَّلوه: ﴿ وما مَسَّنا من لُغُوب ﴾[3]. أي: من إعياءٍ ولا نَصَب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَوَ لم يَرَوا أن الله الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ ولم يَعْيَ بخلقهنَّ بقادر على أن يُحييَ الموتى بلى إنه على كلِّ شيءٍ قدير ﴾، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلق الناس﴾، وقال: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بَنَاها﴾.

وقولُهُ: ﴿فاصبِر على ما يَقُولونَ﴾ يعني المُكَذّبين، اصبِرْ عليهم واهجُرهم هَجْراً جَمِيلاً، ﴿وسَبِّح بحمد ربك قبلَ طُلوع الشمس وقبلَ الغروبِ ﴾، وكانت الصلاةُ المفروضةُ قبل الإسراء، ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفَجر وقبلَ الغروبِ في وقتَ العصر، وقيامُ الليل كان واجباً على النبي - ﷺ - وعلى أُمّتِه حَوْلاً، ثم نُسِخَ في حَقِّ الأمّة وجوبُه. ثم بعد ذلك نَسَخَ الله ذلك كُلَّه ليلةَ الإسراءِ بخمس صلوات، ولكن مِنهنّ صلاة الصبح والعصرِ، فهما قبل طُلوع الشمسِ وقبلَ الغروبِ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا إسماعيلُ بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كُنّا جُلوساً عند النبيِّ - ﷺ - فنظر إلى القمر ليلةَ البَدرِ فقال: «أَمَا إنكم سَتُعرَضُون على ربكم

---

(١) ديوانه ٩٩، ويروى صدره:
وقد طوَّفتُ في الآفاقِ حتّى

(٢) أخرجه الطبري ٢٦/١٧٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٦/١٧٩.

فترونه كما تَرَون هذا القمر، لا تُضامُون فيه، فإن استطعتم ألّا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبلَ غُروبِها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿ وسَبِّح بحمد ربِّك قبل طُلوع الشمسِ وقبلَ الغُروب ﴾[1].

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيلَ، به[1].

وقولُه: ﴿ ومِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحه ﴾، أي: فَصَلِّ له، كقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَتهجَّد به نافلَةً لك عسى أن يبعَثك ربُّك مقاماً محمُوداً ﴾.

﴿ وأدبارَ السُّجُود ﴾ قال ابنُ أبي نَجيح، عن مُجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيحُ بعد الصلاة[2].

ويُؤيِّد هذا ما ثَبت في الصحيحَين عن أبي هريرة أنه قال: جاء فُقَراء المهاجرين فقالوا: يا رسولَ الله ذَهب أهلُ الدُّثور[3] بالدرجات العُلَى والنَّعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يُصَلُّون كما نُصَلِّي، ويَصُومون كما نَصومُ، ويَتصدَّقون ولا نَتصدَّق، ويَعتِقون ولا نَعتِق! قال «أفلا أُعَلِّمكم شيئاً إذا فَعَلتموه سَبَقتم مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلَّا مَن فَعَل مثل ما فعلتم؟ تُسَبِّحون وتحمَدُون وتُكبِّرون دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسولَ الله، سَمِع إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فَعَلنا. فَفَعَلُوا مثله. قال: «ذلك فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء»[4].

والقولُ الثاني: أنَّ المراد بقوله: ﴿ وأدبارَ السُّجودِ ﴾، هما الركعتان بعد المغرب، رُوِي ذلك عن عُمَر وعلي، وابنِه الحَسن وابنِ عَبَّاس، وأبي هُرَيرة، وأبي أُمامة. وبه يقولُ مجاهدٌ، وعكرمةُ، والشَّعبيُّ، والنخعيُّ والحَسَنُ وقتادةُ، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ وعبد الرحمن، عن سُفيانَ، عن أبي إسحاقَ، عن عاصم بن ضَمْرَةَ، عن عَليٍّ قال: كانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي على أَثَرِ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ ركعتَين إلاَّ الفجرَ والعصرَ. وقال عبد الرحمن: دُبُرَ كُلِّ صلاة[5].

وَرواه أبو داود والنسائيُّ، من حديث سُفيانَ الثَّوريِّ، به زاد النسائيُّ: ومُطَرِّف، عن أبي إسحاقَ، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاقَ الهَمْداني، حدثنا ابنُ فُضَيل، عن رِشدين بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: بِتُّ ليلةً عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَصَلَّى ركعتَين خَفيفتَين، اللتَين قبلَ الفَجْرِ، ثم خَرَجَ إلى الصلاة فَقال: يا ابنَ عبَّاسٍ، ركعتَينِ قبلَ صلاةِ الفجر إدبارَ النجوم، وركعتَين بعد المغرب إدبارَ السجودِ».

ورواه الترمذي عن أبي هِشام الرِّفاعِي، عن محمد بن فُضَيل، به. وقال: «غريب لا نعرِفه إلَّا من هذا الوجه»[6].

وحديثُ ابن عباس وأنه باتَ في بيتِ خالته مَيمُونةَ وصَلَّى تلك الليلة مع النبي ـ ﷺ ـ ثلاثَ عشرةَ ركعةً،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٦٥ ـ ٣٦٦. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٣٠ من سورة طه، وخرجناه هنالك.

(٢) أخرجه الطبري ٢٦/١٨٢.

(٣) الدُّثور: جمع دُثْر، وهو: المال الكثير.

(٤) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٣٢٥، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤١٦ ـ ٤١٧.

(٥) مسند الإمام أحمد ١/١٢٤، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٢٤، وأخرجه النسائي في كتاب الصلاة من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ٧/٣٨٩.

(٦) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الطور، عارضة الأحوذي ١٢/١٦٥ ـ ١٦٧، وابن جرير في تفسيره ٢٦/١٨١، والحاكم وصححه كما في الدر المنثور ٧/٦١٠.

ثابتٌ في الصحيحَين وغيرهما[١]. فأما هذه الزيادة فغريبة لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورِشْدينُ بن كُرَيب ضعيفٌ، ولعلَّه من كلام ابنِ عبَّاسٍ موقوفاً عليه، والله أعلم.

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ واستَمِع ﴾ يا محمدُ ﴿ يوم يُنادِ المنادِ من مكانٍ قريبٍ ﴾، قال قتادة: قال كعبُ الأحبار: يأمرُ الله مَلَكاً أن يُناديَ على صَخرةِ بيتِ المقدسِ: أيتُها العظامُ البالِيةُ، والأوصالُ المتقطعةُ، إن الله يأمرُكُنَّ أن تجتمِعْنَ لفَصْلِ القضاءِ[٢].

﴿ يومَ يَسمَعُون الصيحةَ بالحقِّ ﴾، يعني النفخةَ في الصُورِ التي تأتي بالحقِّ الذي كان أكثرُهم فيه يمترُون. ﴿ ذلك يومُ الخرُوج ﴾ أي: من الأجداثِ، ﴿ إنَّا نحنُ نُحيِي ونُميتُ وإلينا المصيرُ ﴾، أي: هو الذي يبدأُ الخلْقَ ثم يُعيده، وهو أهون عليه، وإليه مَصيرُ الخلائقِ كُلِّهم، فيجازي كُلًّا بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ.

وقوله: ﴿ يوم تشقَّق الأرضُ عنهم سِراعاً﴾، وذلك أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُنزِل مطراً من السماء تَنبُت به أجسادُ الخلائقِ في قبورها، كما يَنبُتُ الحبُّ في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجسادُ أمر الله إسرافيلَ فيَنفُخ في الصُور، وقد أُودعَتِ الأرواحُ في ثُقْبٍ في الصُور، فإذا نَفَخ إسرافيلُ فيه خَرجت الأرواحُ تتوهَّج بين السماء والأرض، فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: وعزتي وجلالي، لترجعَنَّ كل روحٍ إلى الجَسَد الذي كانت تعمُره، فترجع كلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها، فتَدِبُّ فيه كما يَدِبُّ السُّمُ في اللَّدِيغ وتنشق الأرضُ عنهم فيقومُون إلى موقفِ الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ مُهطِعين إلى الداعِ يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِرٌ ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتَستَجيبُون بحمْدِه وتظُنُّون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾. وفي صَحِيح مسلم، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا أول مَنْ تنشقُّ عنه الأرضُ»[٣].

وقولُهُ: ﴿ ذلك حشرٌ علينا يَسِيرٌ ﴾، أي: تلك إعادةٌ سهلةٌ علينا، يسيرةٌ لَدينا، كما قال تعالى: ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلَمْحٍ بالبصر ﴾. وقال تعالى: ﴿ ما خلْقُكم ولا بعثُكم إلا كنفسٍ واحدةٍ إن الله سَمِيعٌ بَصيرٌ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ نحنُ أعلَمُ بما يقولون ﴾، أي: نحنُ علمُنا محيطٌ بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يَهيدَنَّك ذلك، كقوله: ﴿ولقد نَعلَمُ أنك يَضِيقُ صدرُك بما يقولُون * فَسبِّح بحمدِ ربِّكَ وكُن من السَّاجدين * واعبُد ربَّك حتَّى يأتيَكَ اليقينُ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وما أنتَ عليهم بجبَّار ﴾، أي: ولستَ بالذي تجبرُ هؤلاءِ على الهُدَى، وليس ذلك مما كُلِّفت به. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ: ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾، أي: لا تَتجبَّر عليهم[٤].

(١) فتح الباري، كتاب الأذان ١٩١/٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٢٥/١ـ٥٢٦.
(٢) أخرجه الطبري ١٨٣/٢٦.
(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ١٧٨٢/٤ عن أبي هريرة.
(٤) أخرجه الطبري ٢٦ عن مجاهد وقتادة.

والقولُ الأوَّلُ أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكنْ جبَّاراً عليهم، وإنما قال: ﴿ وما أنتَ عليهمْ بجبَّارٍ ﴾، بمعنى: وما أنت بمُجبرهم على الإيمانِ إنما أنت مُبلِّغ. قال الفراء: سَمِعت العرب تقول: جَبَر فلانٌ [فلاناً] على كذا، بمعنى أجبَره(١).

ثم قال تعالى: ﴿ فَذَكِّر بالقرآنِ من يخافُ وَعيدِ ﴾، أي: بَلِّغ أنت رسالةَ ربِّك، فإنما يتذكَّر مَن يخافُ الله ووعيدَه ويرجُو وعدَه، كقوله: ﴿ فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحسابُ ﴾، وقوله: ﴿فَذَكِّر إنما أنت مُذَكِّرٌ * لستَ عليهم بمُسَيطرٍ ﴾. ﴿ ليس عليك هُداهم ولكن الله يَهدِي مَن يشاء ﴾، ﴿ إنك لا تَهدِي مَن أحببتَ ولكنَّ الله يهدِي مَن يشاء ﴾ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وما أنت عليهم بجبَّار فَذَكِّر بالقرآنِ من يخافُ وعيدِ ﴾. كان قتادةُ يقول: اللهُمَّ، اجعلنا ممن يخافُ وعيدَكَ، ويرجُو موعودَكَ، يا بارُّ يا رحيمُ.

آخر تفسير سُورَةِ ﴿ قٓ ﴾، والحمد لله رب العالمين

(١) معاني القرآن للفراء ٨١/٣، وتفسير الطبري ١٨٥/٢٩.

تفسير

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

وَهِيَ مكيةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قال شعبةُ بن الحَجَّاج، عن سِمَاكٍ، عن خالدِ بن عَرْعَرَة أنه سَمع عليًّا وشُعبة أيضاً، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي الطُّفَيل، سَمِعَ عليًّا. وثَبَت أيضاً من غير وَجْهٍ، عن أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالب: أنه صَعِد مِنْبَر الكُوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتابِ الله، ولا عن سُنَّة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكَوَّاء فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾؟ قال: الريحُ. قال: ﴿ فالحاملاتِ وِقراً ﴾؟ قال: السحابُ. قال: ﴿ فالجارياتِ يُسراً ﴾، قال: السُّفُن. قال: ﴿فالمُقَسِّماتِ أمْراً ﴾؟ قال: الملائكة[1].

وقد رُوِي في ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا إبراهيمُ بن هانِىءٍ، حدثنا سَعيد بن سلام العَطَّار، حدثنا أبو بكر بن أبي سَبْرَة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المُسَيِّب قال: جاء صَبِيغ التَّمِيمي إلى عُمَر بن الخطَّابِ فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرني عن ﴿ الذارياتِ ذَرْواً ﴾، فقال: هي الرياحُ، ولولا أني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُه ما قلتهُ. [2][قال: فأخبرني عن ﴿ الحاملاتِ وِقراً ﴾، قال: هي السَّحابُ، ولولا أني سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقوله ما قلته][2]. قال: فأخبرني عن المُقَسِّمات أمراً. قال: هي الملائكةُ، ولولا أني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقُوله ما قلتُه. قال: فأخبرني عن ﴿ الجاريات يسراً﴾. قال: هي السفُن، ولولا أني سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقوله ما قلتَه. ثم أمر به فَضُرِب مائة، وجُعِل في بيت، فلما بَرأ

(١) أخرجه غير واحد، الطبري ٢٧/١٨٦، والحاكم وصححه، المستدرك، تفسير سورة الذاريات ٢/٤٦٦ـ٤٦٧، وانظر الدر المنثور ٧/٦١٤.

(٢ ـ ٢) عن كشف الأستار.

دعا به فضربه مائةً أخرى، وحمله على قَتَب[1] وكَتَب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناسَ من مُجالسته. فلم يَزَل كذلك حتى أتى أبا موسى فَحَلف بالأيمان الغليظة ما يَجدُ في نفسه مما كان يَجد شيئاً. فكتب في ذلك إلى عُمَر، فكتب عُمَر: ما إخاله إلاَّ صَدَق، فَخَلِّ بينه وبين مُجالَسَةِ الناسِ[2].

قال أبو بكر البزَّارُ: فأبو بكر بن أبي سَبْرَةَ لَيِّنٌ، وسَعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديثِ.

قلت: فهذا الحديثُ ضَعيفُ رفعُه، وأقربُ ما فيه أنه موقوفٌ على عُمَر، فإنَّ قصةَ صَبيغِ بن عِسْلٍ مشهورةٌ مع عمر، وإنما ضَرَبه لأنه ظَهَر له من أمره فيما يسأل تعنُّتا وعِناداً، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صَبيغٍ مُطَوَّلةً، وهكذا فَسَّرها ابنُ عبَّاس، وابنُ عُمَر، ومجاهدٌ وسَعِيد بنُ جُبير، والحَسَنُ، وقَتادةُ، والسُّديُّ، وغيرُ واحدٍ. ولم يَحْكِ ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ غيرَ ذلك.

وقد قِيلَ: إنَّ المرادَ بالذارياتِ: الريحُ كما تقدم، وبالحاملاتِ وِقراً: السحابُ كما تقدم، لأنها تحملُ الماءَ، كما قال زيدُ بن عَمرو بن نُفَيل[3]:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالاً

فأما ﴿ الجاريات يُسراً ﴾ فالمشهورُ عن الجُمهور ـ كما تقدَّم ـ أنها السُّفنُ تَجري مُيسَّرةً في الماء جَرْياً سهلاً. وقال بعضُهم: هي النُّجوم تَجرِي يُسراً في أفلاكها، ليكونَ ذلك تَرَقِّياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلَى منه، فالرياحُ فوقها السحابُ، والنجومُ فوق ذلك، والمقسمات أمراً: الملائكة فوقَ ذلك، تَنزِلُ بأوامر الله الشرعية والكونيَّة. وهذا قَسَمٌ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على وقوع المَعَادِ، ولهذا قال: ﴿ إنَّما تُوعَدُون لَصادِقٌ ﴾، أي: لخبرُ صِدقٍ، ﴿ وإن الدِّين ﴾، وهو: الحسابُ ﴿ لواقعٌ ﴾ أي: لكائنٌ لا محالَةَ.

ثم قال: ﴿ والسماءِ ذات الحُبُكِ ﴾، قال ابنُ عباس: ذاتِ البَهاء والجَمال والحُسن والاستِواءِ. وكذا قال مجاهدٌ وعِكْرِمةُ، وسعيد بن جُبَير، وأبو مالكٍ، وأبو صالح، والسُّديُّ، وقتادةُ، وعَطِيَّة العوفيُّ، والربيعُ بنُ أنس، وغيرهم.

وقال الضحَّاك، والمنهالُ بن عمرو، وغيرهما: مثل تَجعُّد الماءِ والرملِ والزَّرعِ إذا ضَرَبته الريحُ، فَينسِجُ بعضُه بعضاً طرائقَ، فذلك الحُبك.

قال ابنُ جرير: حدثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُلَيَّة، حدثنا أيُّوبُ، عن أبي قِلابَة، عن رَجُلٍ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ من ورائكم الكَذَّابَ المُضِلَّ، وإنَّ رأسَه من وَرَائه حُبُك حُبُكٌ» يعني بالحبك: الجُعُودة[4].

وعن أبي صالح ﴿ ذاتِ الحُبُكِ ﴾: الشدَّة. وقال خُصَيف: ﴿ ذات الحُبُك ﴾: ذات الصَّفَاقةِ. وقال الحسنُ بن أبي الحسن البَصريُّ: ﴿ ذات الحُبُك ﴾: حُبِكَت بالنُّجوم.

وقال قتادةُ: عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدان بن أبي طلحة، عن عَمرو البَكَالي، عن عبد الله بن عَمرو: ﴿ والسماء ذات الحُبُك ﴾، يعني: السماء السابعة[5].

---

(١) القَتَبُ: الرحلُ الصغير على قَدْرِ سَنام البعير.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٩ ـ ٧٠.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٣١.

(٤) تفسير الطبري ٢٦/١٩٠.

(٥) أخرجه الطبري ٢٦/١٩١.

وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماءَ التي فيها الكواكبُ الثابتةُ، وهي عند كثير من عُلماء الهَيئة في الفَلَك الثامن الذي فوقَ السابع، والله أعلم. وكلُّ هذه الأقوال تَرْجع إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الحُسن والبَهاء، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فإنها من حُسنها مرتفعةٌ شفَّافةٌ صفيقةٌ، شديدةُ البناءِ، مُتّسِعة الأرجاءِ، أنيقةُ البَهاء، مُكَلَّلةٌ بالنجوم الثَّوابت والسيَّارات، مُوَشَّحة بالشمسِ والقَمَر والكواكب الزَّاهِرات.

وقولُهُ: ﴿ إنَّكُم لفي قولٍ مُختَلِفٍ ﴾، أي: إنكم ـ أيها المشركون المُكَذِّبون للرسل ـ لفي قولٍ مُختَلِفٍ مُضطَرِبٍ، لا يَلْتئم ولا يَجتمعُ. وقال قتادةُ: ﴿ إنكم لفي قولٍ مُختَلِفٍ ﴾، ما بين مُصَدِّقٍ بالقرآن ومُكَذِّبٍ به.

﴿ يُؤفَكُ عنه من أُفِكَ ﴾، أي: إنما يَرُوج على مَن هو ضَالٌّ في نفسه لأنه قولٌ باطلٌ، إنما ينقادُ له ويَضِلُّ بسببه ويُؤفك عنه مَن هو مأفوكٌ ضالٌّ غُمْرٌ لا فَهمَ له، كما قال تعالى: ﴿فإنكم وما تَعبدُون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلَّا مَن هو صالِ الجَحيم﴾.

قال ابنُ عباس، والسديُّ: ﴿ يُؤفَكُ عنه من أُفِكَ ﴾: يَضِلُّ عنه من ضَلَّ. وقال مجاهدٌ: ﴿ يُؤفَكُ عنه من أُفِكَ ﴾: يُؤفَن عنه من أُفِنَ[1]. وقال الحسنُ البصريُّ: يُصرَف عن هذا القرآن مَن كَذَّبَ به.

وقولُهُ: ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصون ﴾، قال مجاهدٌ: الكَذَّابون. قال: وهي مثلُ التي في عَبَس: ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه ﴾. والخَرَّاصون: الَّذين يقولون: لا نُبعَثُ، ولا يُوقِنون[2].

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُون ﴾، أي: لُعِنَ المرتابُون. وهكذا كان معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ يقول في خُطَبِه: هَلَكَ المرتابون. وقال قتادةُ: الخَرَّاصون أهلُ الغِرَّة والظُّنون.

وقولُهُ: ﴿ الذين هم في غَمْرةٍ ساهُون ﴾، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: في الكُفر والشكِّ غافلُون لاهُون.

﴿ يَسألُونَ أيانَ يومُ الدِّين ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيباً وعِناداً وشكّاً واستبعاداً. قال الله تعالى: ﴿ يومَ هُم على النار يُفتَنون ﴾. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، وغيرُ واحد: ﴿ يفتنون ﴾ يُعَذَّبون كما يُفتَن الذهبُ على النار. وقال جماعةٌ آخرون كمجاهدٍ أيضاً، وعكرمةَ، وإبراهيمَ النخعيِّ، وزيد بن أسلَمَ، وسُفيانَ الثوري: ﴿يُفتَنون﴾ يُحرَقُون.

﴿ ذُوقوا فِتنَتَكُم ﴾، قال مجاهدٌ: حَريقكم. وقال غيرُه: عَذابَكم. ﴿ هذا الذي كنتم به تَستَعجِلُون ﴾، أي: يُقَال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن المُتَّقين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ: إنَّهم يوم مَعادهم يكونُون في جناتٍ وعُيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنَّكال، والحَريق والأغلال.

وقولُهُ: ﴿ آخذينَ ما آتاهم ربُّهم ﴾، قال ابنُ جرير: أي عاملين بما آتاهم ربُّهم من الفرائض. ﴿ إنَّهم

---

(١) أفِن الرجل: ضَعُف رأيُه، وأفنه الله.

(٢) أخرجه الطبري ٢٦/١٩٢.

كانُوا قبلَ ذلك مُحسنِينَ ﴾. أي: قبل أن يَفْرِض عليهم الفرائضَ كانوا مُحسِنين في الأعمال أيضاً. ثم رَوَى عن ابن حُمَيد:

حدثنا مِهْرَان، عن سُفيان، عن أبي عُمَر، عن مُسلم البَطِين، عن ابن عباس في قوله: ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾، قال: من الفرائض. ﴿ إنهم كانوا قبل ذلكَ مُحسِنين ﴾: قبل الفرائِض يَعْمَلُون[١].

وهذا الإسنادُ ضعيفٌ، ولا يَصِحُّ عن ابن عباس. وقد رَواه عُثمان بنُ أبي شَيبة، عن معاوية بن هِشَام، عن سُفيان، عن أبي عُمَر البَزَّار، عن مُسلِم البَطِين، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فذكره.

والذي فَسَّر به ابنُ جرير فيه نظر، لأنَّ قولَه: ﴿ آخِذِينَ ﴾ حالٌ من قوله: ﴿ في جناتٍ وعُيُونٍ ﴾، فالمتَّقون في حالِ كَونِهم في الجناتِ والعُيُون آخِذُون ما آتاهم ربُّهم، أي: من النعيم والسُرورِ والغِبطَةِ.

وقولُهُ: ﴿ إنهم كانُوا قبلَ ذلك ﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿ مُحسِنين ﴾، كقولِه: ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيامِ الخالِيةِ ﴾. ثم إنه تعالى بَيَّن إحسانَهم في العمل فقال: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعُون ﴾، اختلفَ المفسِّرون في ذلك على قولَين:

أحدهما: أنَّ (ما) نافيةٌ، تقديرُه: كانُوا قليلاً من الليل لا يهجَعُونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضِي عليهم ليلةٌ إلا يأخذُون منها ولو شيئاً. وقال قتادة، عن مُطَرِّف بن عبد الله: قَلَّ ليلةٌ تأتي عليهم لا يُصَلُّون فيها لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، إمَّا من أوَّلِها وإمَّا من أوسَطِها. وقال مجاهِد: قَلَّ ما يرقُدون ليلة إلى الصباح لا يَتَهجَّدُون. وكذا قال قتادةُ. وقال أنس بن مالك، وأبو العالِية: كانوا يُصَلُّون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقِر: كانوا لا ينامُون حتى يُصَلُّوا العَتَمَةَ[٢].

والقولُ الثاني: أن (ما) مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هُجُوعُهم ونومُهم. واختارَهُ ابنُ جرير[٣].

وقال الحسنُ البصري: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعُون ﴾، كابَدُوا قيام الليل، فلا ينامُون من الليل إلا أقلَّه، ونَشِطوا فمَدُّوا إلى السَّحر، حتى كان الاستغفارُ بِسَحَر. وقال قتادة: قال الأحنفُ بن قيس: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعُون ﴾، كانوا لا ينامُون إلا قليلاً، ثم يقول: لستُ من أهل هذه الآية. وقال الحسنُ البصري: كان الأحنفُ بن قيس يقول: عرضت عَمَلي على عَمَل أهلِ الجَنَّة فإذا قومٌ قد باينُونا بَوناً بَعِيداً، إذا قومٌ لا نَبلُغ أعمالَهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعون. وعَرَضت عملي على عَمَل أهل النار فإذا قوم لا خيرَ فيهم يُكَذِّبون بكتابِ الله وبِرُسُلِ الله، يُكَذِّبون بالبعثِ بعد الموت، فوَجَدتُ مِن خيرنا منزلة قوماً خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيئاً.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: قال رجلٌ من بني تميم لأبي: يا أبا أسامَةَ، صفةٌ لا أجِدُها فينا، ذَكَرَ الله قوماً فقال: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعون ﴾، ونحن ـ والله ـ قليلاً من الليل ما نَقُوم. فقال له أبي: طُوبَى لمن رَقَد إذا نَعَس، واتَّقى الله إذا استيقظَ.

وقال عبدُ الله بن سَلَام: لما قَدِم رسولُ الله ـ ﷺ ـ المدينةَ انجفَلَ[٤] الناسُ إليه، فكنتُ فيمن انجفَلَ. فلما رأيتُ وجهَه عرفتُ أن وجهَهُ ليس بوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّاب، فكان أولُ ما سَمِعتُه يقول: «يا أيها الناسُ أطعِمُوا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وأفشُوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناسُ نيامٌ، تدخُلوا الجَنَّة بِسَلَامٍ»[٤].

(١) تفسير الطبري ٢٦/١٩٦.
(٢) العَتَمَةُ: وقت صلاة العشاء الأخيرة.
(٣) تفسير الطبري ٢٦/٢٠٠.
(٤) تقدّم عند تفسير الآية ١٧ من سورة يونس، وخرجناه هنالك.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن بن مُوسَى، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثني حُيَيّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمْرو أنّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «إن في الجنة غُرَفاً يُرى ظاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرها». فقال أبو موسى الأشعريُّ: لِمَن هيَ يا رسولَ الله؟ قال: لمن ألان الكَلام، وأطعَم الطعامَ، وباتَ لله قائماً والناسُ نيام»(١).

وقال معمرٌ في قوله: ﴿ كانُوا قليلاً من الليلِ ما يهجَعُون ﴾: كان الزُهريُّ والحسنُ يقولان: كانوا كثيراً من الليل ما يُصلُّون. وقال ابنُ عباس، وإبراهيمُ النَخعِيُّ: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعُون ﴾: ما ينامون. وقال الضحاك: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مُحسِنين * كانوا قليلاً﴾. ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ الليل ما يهجَعُون * وبالأسحارِ هم يستغفرون﴾(٢).

وقولُه - عَزَّ وجَلَّ -: ﴿ وَبِالأَسْحارِ هُم يَستغفِرُونَ ﴾، قال مجاهدٌ، وغيرُ واحد: يُصَلُّون. وقال آخرُون: قامُوا الليل، وأَخَّروا الاستغفارَ إلى الأسحارِ. كما قال تعالى: ﴿ والمُستغفِرِينَ بالأسحارِ ﴾، فإن كان الاستغفارُ في صَلاَةٍ فَهُو أحسَنُ. وقد ثَبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابةِ، عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: «إنَّ الله يَنزِلُ كلَّ ليلة إلى سماءِ الدنيا حين يبقَى ثلثُ الليلِ الأخير، فيقولُ: هل من تائبٍ فَأَتُوبَ عليه؟ هل مِن مُستغفِرٍ فَأَغفِرَ له؟ هل من سائِلٍ فَيُعطى سُؤْلَه؟ حتى يَطْلُعَ الفجرُ»(٣).

وقال كثيرٌ من المفسِّرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوبَ: أنه قال لِبَنِيه: ﴿ سوفَ أستغفِرُ لكم ربِّي ﴾، قالوا: أَخَّرهُم إلى وقتِ السحرَ(٤).

وقولُهُ: ﴿ وفي أموالهم حقٌّ للسائلِ والمحروم ﴾: لما وَصَفهم بالصلاة ثَنَّى بوَصْفِهم بالزكاةِ والبِرِّ والصِّلَةِ، فقال: ﴿ وَفي أموالِهم حقٌّ ﴾، أي: جزءٌ مقسُوم قد أفرَزُوه للسائِلِ والمحرومِ، أما السائلُ فمعروفٌ، وهو الذي يَبْتَدِيءُ بالسُؤَالِ، وله حقٌّ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيعٌ وعبد الرحمن قالا: حدثنا سُفيان، عن مُصعَب بن محمد، عن يعلَى بن أبي يحيى، عن فاطمةَ بنتِ الحُسَين، عن أبيها الحُسَين بن علي قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «للسائل حقٌّ وإن جاءَ على فَرَسٍ»(٥).

وَرَواه أبو داود من حديث سُفيانَ الثوري، به. ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب(٥). وروى من حديث الهِرْمَاسِ بن زيادٍ مَرْفُوعاً(٦).

وأما المحرومُ فقال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ: هو المُحارَفُ(٧) الذي ليس له في الإسلام سَهْمٌ. يعني لا سهْمَ له في بيتِ المالِ، ولا كَسْبَ له، ولا حِرْفَةَ يَتقَوَّت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يَتيَسَّر له مَكسَبُه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مالٌ إلا ذَهَب، قَضَى الله له ذلك. وقال أبو قلابة: جاء سَيْلٌ باليمامة فذهَبَ بمال رَجُلٍ، فقال رجل من الصحابة: هذا المحرومُ. وقال ابن عباس أيضاً،

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٣/٢، ويقدّم عند تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة، ٥٨ من سورة العنكبوت، وخرجناه هنالك.
(٢) أخرجه الطبري ١٩٩/٢٦.
(٣) تقدم عند تفسير الآية ١٧ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.
(٤) انظر تفسير الآية ٩٨ من سورة يوسف.
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٧٧ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.
(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠٣/٢٢ - ٢٠٤.
(٧) المحارَف: المحروم.

وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، ونافع ـ مولى ابن عمر وعطاء بن أبي رباح: المحرومُ المُحارَف. وقال قتادة، والزهريُّ، المحرومُ الذي لا يَسألُ الناسَ شيئاً، قال الزُهريُّ وقد قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذي تَرُدُّه اللقمة واللقمتان، والتمرةُ والتمرتان، ولكن المسكينُ الذي لا يَجدُ غِنىً يُغنِيه، ولا يُفطَنُ له فيتصدَّقَ عليه»[١].

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحهما من وجه آخر[١].

وقال سَعِيد بن جُبَير: هو الذي يَجِيء وقد قُسِم المَغنَمُ، فَيُرضَخُ له[٢].

وقال محمدُ بن إسحاقَ: حدثني بعضُ أصحابنا قال: كُنَّا مع عُمَر بن عبد العزيز في طريق مَكَّة فجاء كَلْبٌ فانتزع عُمَر كَتِف شاةٍ فَرَمى بها إليه، وقال: يقولُون: إنه المحرومُ.

وقال الشعبيُّ: أعياني أَن أعلَم ما المحرومُ.

واختار ابنُ جَرير أَنَّ المحروم هو الذي لا مالَ له بأيِّ سَبَب كان، قد ذَهَب مالُه، سواء لا يقدِرُ على الكَسْب، أو قد هلكَ مالُه أو ثَمَرُه بآفةٍ أو نحوها[٣].

وقال الثوريُّ، عن قيس بن مُسلِم، عن الحسن بن محمد أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعث سَرِيَّةً فَغَنِمُوا، فجاء قوم لم يشهَدُوا الغنيمةَ، فنزلت هذه الآية: ﴿ وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم ﴾[٤].

وهذا يقتضي أن هذه مَدَنيَّةٌ، وليس كذلك، بل هي مكيَّةٌ شاملَةٌ لما بعدَها.

وقولُهُ: ﴿ وفي الأرض آياتٌ للمُوقنين ﴾، أي: فيها من الآياتِ الدالَّةِ على عَظَمة خالقِها وقُدرتِه الباهرَة، مما قد ذَرَأ فيها من صنوف النباتِ والحيواناتِ، والمهادِ والجبالِ، والقِفَار والأنهارِ والبحار، واختلافِ أَلسِنةِ الناسِ وألوانِهم، وما جُبِلوا عليه من الإراداتِ والقُوَى، وما بينهم من التفاوُتِ في العقُول والفُهوم والحركاتِ، والسعادةِ والشقاوةِ، وما في تركيبهم من الحِكَم في وَضْع كُلِّ عضو من أعضائهم في المحَلِّ الذي هو محتاجٌ إليه فيه، ولهذا قال: ﴿ وفي أنفُسِكم أفلا تُبصِرُون ﴾، قال قتادة: من تَفَكَّر في خَلْقِ نفسه عَرَف أنه إنما خلق ولُيِّنَت مفاصِلهُ للعبادَة.

ثم قال: ﴿ وَفي السماءِ رزقكُم ﴾، يعني المطر، ﴿ وما تُوعَدُون ﴾، يعني الجَنَّة. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحدٍ.

وقال سفيانُ الثوريُّ: قرأ واصلُ الأحدبُ هذه الآيَة: ﴿ وفي السماء رزقُكُم وما تُوعَدُون ﴾، فقال: ألا أَرَى رِزْقِي في السماء وأنا أطلبُه في الأرض؟ فدخل خَرِبَةً فمكث ثلاثاً لا يُصِيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدَوخَلَةٍ[٥] من رُطَب ـ وكان له أخ أَحسَنَ نيَّةً منه، فدخل مَعَه فصارتا دَوخَلَتين، فلم يزل ذلك دأبَهما حتى فَرَّقَ الموتُ بينهما[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٦/٢٠٢. وقد تقدم الحديث مسنداً عند تفسير الآية ١٧٧، ٢٧٣ من سورة البقرة، ٦٠ من سورة التوبة. وخرجناه هنالك.

(٢) الرَّضْخُ: العَطِيَّةُ القليلَةُ.

(٣) تفسير الطبري ٢٦/٣٠٤.

(٤) أخرجه الطبري وغير واحد، تفسير الطبري ٢٦/٢٠٣، والدر المنثور ٧/٦١٦.

(٥) الدَّوْخَلَةُ: زَبِيلٌ من خُوصٍ يجعل فيه التمر.

(٦) أخرجه الطبري ٢٦/٢٠٥.

وقولُهُ: ﴿ فَوَرَبِّ السماءِ والأرضِ إنَّه لحقٌّ مثلَ ما أنَّكم تَنطقُون ﴾، يُقسِم تعالى بنفسه الكريمة أنَّ ما وَعَدَهم به من أمْرِ القيامةِ والبعثِ والجزاءِ كائنٌ لا محالةَ، وهو حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، فلا تَشُكُّوا في نُطقِكم حين تَنطِقُون. وكان معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ إذا حدَّثَ بالشيءِ يقولُ لصاحبِه: إنَّ هذا لحقٌّ كما أنَّك هاهنا.

قال مُسَدَّد، عن ابن أبي عَدِيٍّ، عن عوفٍ، عن الحسنِ البصريِّ قال: بَلَغني أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «قاتَلَ الله أقواماً أقسَمَ لهم ربُّهم ثم لم يُصدِّقُوا».

ورواهُ ابنُ جَرِيرٍ، عن بُندارٍ، عن ابن أبي عدي، عن عوف، عن الحسن، فذكره مُرسَلاً[1].

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذه القِصَّةُ قد تقدَّمت في سورة (هُود)، و(الحِجْرِ) أيضاً. وقولُه: ﴿ هل أتاك حَديثُ ضَيفِ إبراهيمَ المُكْرَمِينَ ﴾، فقولُه: ﴿ المُكْرَمِينَ ﴾، أي: الذين أَرْصَدَ لهم الكرامةَ. وقد ذَهَب الإمام أحمدُ وطائفةٌ من العلماء إلى وُجوبِ الضِّيافة للنزيلِ، وقد وَرَدت السنة بذلك، كما هو ظاهر التَّنزيل.

وقولُهُ: ﴿ قالوا سَلاماً قال سَلامٌ ﴾، الرفع أَقْوى وأثبتُ من النصب، فَرَدُّهُ أفضلُ من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإذا حُيِّيتم بتحيَّةٍ فَحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها ﴾، فالخليلُ اختارَ الأفضلَ.

وقولُهُ: ﴿ قَوْمٌ مُنكَرُون ﴾، وذلك أنَّ الملائكة وهم: جبريلُ وإسرافيلُ وميكائيلُ قَدِموا عليه في صُوَرِ شبابٍ حِسَانٍ، عليهم مَهابةٌ عَظِيمةٌ، ولهذا قال: ﴿ قومٌ مُنكَرُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ فَراغَ إلى أهلِه ﴾، أي: انسلَّ خِفْيَةً في سُرعَةٍ، ﴿ فَجاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾، أي: من خِيارِ مَالِه. وفي الآية الأخرى: ﴿ فما لَبِثَ أن جاء بِعِجْلٍ حَنيذٍ ﴾، أي: مَشْوِيٍّ على الرَّضْفِ، ﴿ فَقرَّبه إليهم ﴾، أي: أدناه مِنهُم، ﴿ قال ألا تأكُلونَ ﴾: تَلَطُّفٌ في العبارة وعَرْضٌ حَسَنٌ.

وهذه الآيةُ انتظمت آدابَ الضِّيافة، فإنه جاء بطعامه من حيثُ لا يشعُرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أوَّلاً فقال: «نأتيكم بطعام؟». بل جاء به بِسُرعَةٍ وخَفاءٍ، وأتى بأفضلِ ما وَجَد من ماله، وهو عِجْلٌ فَتِيٌّ سَمِينٌ مَشْوِيٌّ، فَقرَّبه إليهم، لم يَضَعْه، وقال: اقترِبُوا، بل وَضَعه بين أيديهم، ولم يأمُرهم أمراً يَشُقُّ على سامِعِه بصيغَةِ الجَزْمِ، بل قال: ﴿ ألا تأكُلون ﴾، على سبيل العَرْضِ والتلطُّفِ، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضَّل وتُحسِن وتَتَصدَّق فافعَلْ.

وقوله: ﴿فأوجَسَ منهم خِيفَةً﴾، هذا مُحالٌ على ما تقدَّم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿فلما رأى أيديَهم لا تَصِلُ إليه نَكِرَهُم وأوجَسَ منهم خِيفَةً قالوا لا تَخَفْ إنا أُرسِلْنا إلى قومِ لُوطٍ * وامرأته قائمةٌ فَضَحِكتْ﴾، أي: استبشرت بهلاكهم، لِتَمرُّدِهم وعُتُوِّهم على الله. فعند ذلك بَشَّرتها الملائكة بإسحاقَ ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ. ﴿قالت يا وَيْلَتا أألِدُ وأنا عَجُوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيءٌ عَجِيبٌ

(١) تفسير الطبري ٢٦/٢٠٦.

﴿ قالوا أتعجبينَ من أمرِ الله رَحْمَةُ الله وبركاته عليكُم أهلَ البيت إنه حَميدٌ مجيدٌ﴾. ولهذا قال ها هنا: ﴿وبَشَّرُوه بغلام عَليمٍ﴾، فَالبِشارةُ له هي بشارةٌ لها؛ لأن الولد منهما، فكُلٌّ منهما بُشِّر به.

وقولُهُ: ﴿ فأقبلت امرأتُه في صَرَّةٍ ﴾، أي: في صَرْخَةٍ وعَيْطَةٍ ورَنَّةٍ، قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وأبو صالح، والضحاك، وزيدُ بن أسلم، والثوريُّ، والسديُّ، وهي قولها: ﴿ يا وَيْلَتا ﴾. ﴿ فَصَكَّت وجهَها ﴾، أي: ضَربت بيدها على جَبينها، قاله مجاهد وابنُ سَابِطٍ.

وقال ابنُ عبَّاس: لَطَمت، أي تعجُّباً كما تتعجَّب النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالت عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾، أي: كيف أَلِد وأنا عجوز، وقد كنتُ في حال الصِّبا عَقِيماً لا أَحبَلُ؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربُّكِ إنه هو الحكيمُ العليمُ ﴾، أي: عليمٌ بما تَستحِقُّون من الكَرامة، حَكِيمٌ في أقواله وأفعاله.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قال الله مخبراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ فلما ذَهَب عن إبراهيمَ الروعُ وجاءته البُشرى يُجادِلُنا في قَومِ لُوطٍ ۞ إنَّ إبراهيمَ لَحَليمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۞ يا إبراهيمُ أعرِض عن هذا إنه قد جاء أمرُ رَبك وإنَّهم آتيهم عذابٌ غير مَردُودٍ ﴾. وقال هاهنا: ﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المرسلون ﴾، أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿ قالوا إنَّا أُرسِلْنا إلى قَومِ مُجرمين﴾، يَعنُون قومَ لُوطٍ، ﴿لِنُرسِلَ عليهم حجارةً من طِين ۞ مُسَوَّمةً﴾، أي: مُعَلَّمة ﴿عند ربِّكَ للمسرفين ﴾، أي: مُكتَتَبةً عنده بأسمائهم، كل حَجَرٍ عليه اسمُ صاحِبه، فقال في سورة العنكبُوت: ﴿ قال إنَّ فيها لوطاً قالُوا نحن أعلَمُ بمن فيها لننجِّيَنَّه وأهلَه إلاَّ امرأتَه كانَتْ مِنَ الغَابِرين ﴾. وقال هاهنا: ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾، وهم لوطٌ وأهلُ بيته إلاَّ امرأتَه، ﴿ فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين ﴾. احتجَّ بهذه الآية من ذَهَب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرِّق بين مُسمَّى الإيمان والإسلام، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيفٌ؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مُسلِمٌ ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصيَّة الحال، ولا يلزم ذلك في كلِّ حال.

وقولُهُ: ﴿ وتَرَكنا فيها آيةً للذين يخافُون العذابَ الأليمَ ﴾، أي: جعلناها عبرةً لما أنزلنا من العذابِ والنَّكالِ وحجارة السِّجِّيل، وجعلنا مَحِلَّتهم بُحَيرةً مُنتِنةً خَبيثةً، ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين، ﴿ الذين يخافُون العذابَ الأليمَ ﴾.

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وَفي مُوسى إذ أرسلناه إلى فِرعَونَ بسُلطانٍ مُبينٍ ﴾، أي: بِدَليلٍ باهرٍ وحُجَّةٍ قاطعةٍ،

﴿ فَتولّى بِرُكْنِهِ ﴾، أي: فأعرضَ فِرْعَونُ عما جاءه به مُوسَى من الحقِّ المبينِ استكباراً وعناداً.

وقال مجاهدٌ: تَعزَّزَ بأصحابه. وقال قتادةُ: غَلَبَ عَدُوَّ الله على قومه. وقال ابنُ زيد: ﴿ فتولّى بِرُكْنِهِ ﴾، أي: بِجُمُوعِهِ التي مَعَه، ثم قرأ: ﴿ لو أنَّ لي بكم قُوَّةً أو آوِي إلى رُكنٍ شَدِيدٍ ﴾[1].

والمعنى الأولُ قويٌّ كقوله: ﴿ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيل الله ﴾، أي: مُعرِضٌ عن الحق مُستَكْبِرٌ.

﴿ وقال ساحرٌ أو مجنون ﴾، أي: لا يخلُو أمرك فيما جئتني به من أن تكونَ ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿ فأخذناه وجنودَه فنبذناهُم ﴾، أي: ألقيناهُم في اليمِّ، وهو البحرُ، ﴿ وهو مُلِيمٌ ﴾، أي: وهو ملومٌ كافرٌ جاحدٌ فاجرٌ مُعانِدٌ.

ثم قال: ﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريحَ العَقِيم ﴾، أي: المُفسِدة التي لا تُنتِجُ شيئاً. قاله الضحاكُ، وقتادةُ، وغيرُهما. ولهذا قال: ﴿ ما تَذَرُ من شيءٍ أتت عليه ﴾، أي: مما تُفسِده الريحُ ﴿ إلا جَعَلته كالرَّمِيم ﴾، أي: كالشيءِ الهالكِ البالي.

وقد قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبيد الله ابنُ أخي ابنِ وَهب، حدثنا عمي عبدُ الله بنُ وهب، حدثني عبد الله يعني ابنَ عَيَّاش القِتْباني. حدثني عبد الله بن سُلَيمان، عن دَرّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفِي، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الريح مُسَخَّرةٌ من الثانيةِ ـ يَعني من الأرض الثانية ـ فلما أرادَ الله أن يُهلِكَ عاداً أمرَ خازنَ الريح أن يُرسِلَ عليهم ريحاً تُهلِكُ عاداً، قال: أيْ رَبِّ، أُرسِلَ عليهم الريح قَدْرَ مَنْخَرِ الثَّور؟ قال له الجبَّار: لا، إذاً تُكفَأُ الأرضُ ومَن عليها، ولكن أرسِلْ بِقَدر خاتَمٍ. فهي التي يقول الله في كتابه: ﴿ ما تَـذَرُ من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم ﴾»[2].

هذا الحديث رفعهُ منكر، والأقربُ أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عَمْرو، من زَامِلَتَيه اللَّتَين أصحابَهما يومَ اليَرْمُوكِ. والله أعلم.

قال سعيدُ بن المُسيَّب وغيرُه في قوله: ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريحَ العقيمَ ﴾، قالوا: هي الجَنُوب. وقد ثبت في الصحيح من رواية شُعبَة، عن الحكم، عن مجاهِدٍ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نُصِرْتُ بالصبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبُور»[3].

﴿ وفي ثَمودَ إذ قيل لهم تَمتَّعوا حتى حِينٍ ﴾، قال ابنُ جريرٍ: يعني إلى وقتِ فَناءِ آجالكم[4].

والظاهرُ أنَّ هذه كقوله: ﴿ وأما ثمودُ فهديناهم فاستَحبُّوا العَمَى على الهُدَى فأخذتهم صاعقةُ العذابِ الهُونِ ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وفي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لهُم تَمتَّعُوا حتى حِينٍ * فَعَتَوا عن أمرِ رَبِّهم فأخذتهُم الصاعقةُ وهم ينظُرون ﴾، وذلك أنهم انتظرُوا العذابَ ثلاثةَ أيام وجاءهم في صَبِيحةِ اليوم الرابع بُكرَةَ النهار، ﴿ فما استطاعُوا من قيامٍ ﴾، أي: من هَرَبٍ ولا نُهُوضٍ، ﴿ وما كانُوا مُنتصِرين ﴾، أي: ولا يَقدِرُون على أن يَنتَصِرُوا مما هُم فيه.

وقولُهُ: ﴿ وقومَ نُوحٍ من قبلُ ﴾، أي: وأهلكنا قومَ نوحٍ من قَبلِ هؤلاءِ، ﴿ إنَّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾. وكل هذه القِصَصِ قد تَقدَّمت مبسوطةً في أماكنَ كثيرةٍ، من سُوَرٍ مُتَعَدِّدةٍ.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧/٣.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤٨ من سورة الروم. وتُكفَأ: تُقلَب.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية التاسعة من سورة الأحزاب، وخرجناه هنالك.

(٤) يبدو أنه سقط من طبعة التفسير، انظر ٢٧/٥ ـ ٦.

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنبهاً على خلْقِ العالم العُلوي والسُّفلي: ﴿ والسماءَ بنيناها ﴾، أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿ بأيدٍ ﴾، أي: بقُوَّةٍ. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والثوريُّ، وغير واحد. ﴿ وإنا لَموسِعُون ﴾، أي: قد وسَّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عَمَدٍ، حتى استقلَّت كما هي، ﴿ والأرضَ فَرَشناها ﴾، أي: جعلناها فِراشاً للمخلُوقاتِ، ﴿ فَنِعمَ الماهِدُون ﴾، أي: وجعلناها مَهْداً[1] لأهلها، ﴿ ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زَوْجين ﴾، أي: جميعُ المخلوقات أزواجٌ: سَماءٌ وأرضٌ، وليلٌ ونهارٌ، وشَمسٌ وقمرٌ، وبَرٌّ وبحرٌ، وضِياءٌ وظَلامٌ، وإيمانٌ وكفرٌ، وموتٌ وحَياةٌ، وشَقاءٌ وسَعادةٌ، وجنةٌ ونارٌ، حتى الحيواناتُ والنباتات. ولهذا قال: ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾، أي: لِتعلَمُوا أن الخالقَ واحدٌ لا شَريكَ له، ﴿ فَفِرُّوا إلى الله ﴾، أي: الجأُوا إليه، واعتَمدُوا في أموركم عليه، ﴿ إني لكم منه نذيرٌ مُبينٌ ﴾. ﴿ ولا تجعلُوا مع الله إلَهاً آخرَ ﴾، أي: لا تُشرِكُوا به شيئاً، ﴿ إني لكم منه نذيرٌ مُبين ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُسلِّياً نبيَّه -ﷺ-: وكما قال لك هؤلاءِ المشركونَ، قال المُكذِّبون الأولون لِرُسُلِهم: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رَسُولٍ إلا قالوا ساحِرٌ أو مجنُون ﴾!. قال الله تعالى: ﴿ أتواصَوا به ﴾، أي: أوصَى بعضُهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿ بل هُم قومٌ طاغُونَ ﴾، أي: لكن هم قومٌ طُغاةٌ، تشابَهت قلوبُهم، فقال مُتأخِّرهم كما قال مُتقدِّمهم. قال الله تعالى: ﴿ فتولَّ عنهم ﴾، أي: فأعرِض عنهم يا محمدُ، ﴿ فما أنت بمَلُومٍ ﴾، يعني فما نَلُومك على ذلك، ﴿ وذَكِّر فإن الذِّكرى تنفعُ المؤمنين ﴾، أي: تنتفِعُ بها القلوبُ المؤمنة.

ثم قال تعالى: ﴿ وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيعبدُونِ ﴾، أي: إنما خلقتُهم لآمرَهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ إلاَّ لِيَعبدون ﴾، أي: إلاَّ لِيُقِرُّوا بعبادتي طَوعاً أو كَرهاً. وهذا اختيار ابنِ جرير[2].

وقال ابن جُرَيج: إلاَّ ليعرفونِ. وقال الربيعُ بن أنَسٍ: ﴿ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾، أي: إلاَّ للعبادةِ. وقال السُّديُّ: من العبادة ما ينفَعُ ومنها ما لا ينفَعُ، ﴿ ولئن سألتَهم ومَن خَلَق السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ الله ﴾، هذا منهم عبادةٌ، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحَّاكُ: المراد بذلك المؤمنون.

---

(١) المراد بالمَهْد هنا: الأرضُ السهلة المستوية.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٦٢.

وقولُهُ: ﴿ما أُرِيد منهُم من رزقٍ وما أريد أن يُطعِمُونِ * إن الله هو الرزّاق ذو القُوّة المتين﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيدَ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: أقرأني رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿إني أنا الرزاقُ ذُو القوَّة المتينُ﴾[(١)].

وَرواه أبو داودَ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من حديث إسرائيلَ، وقال الترمذيُّ: (حَسَنٌ صَحِيح)[(١)].

ومعنى الآيةِ أنَّه تعالى خلقَ العبادَ لِيعبدُوه وحدَه لا شريكَ له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاءِ، ومَن عصاه عَذَّبه أشدَّ العذابِ. وأخبر أنه غيرُ محتاجٍ إليهم، بل هُم الفقراء إليه في جَمِيع أحوالهم، فهو خالقُهم ورازقُهم.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمرانُ ـ يعني ابنَ زائدةَ بن نَشِيطٍ ـ عن أبيه، عن أبي خالدٍ ـ هو الوالبي ـ عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: قال الله: «يا ابنَ آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أَملأ صدركَ غِنىً، وأسدُّ فَقْرَك، وَإلاَّ تفعل ملأتُ صَدْرَك شُغلاً ولم أَسُدَّ فَقرَك»[(٢)].

ورواه الترمذيُّ وابنُ ماجه، من حديثِ عِمرَان بن زائِدةَ، وقال الترمذيُّ: (حَسَنٌ غَرِيبٌ)[(٢)].

وَقد رَوى الإمامُ أحمد، عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سَلاَّم أبي شُرَحبيل، سَمِعت حَبَّةَ وسَوَاءَ ابني خالد يقولان: أتينا رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو يعمَلُ عَملاً ـ: أو يبني بناءً ـ وقال أبُو معاويةَ: يُصلح شيئاً ـ فأعنَّاه عليه، فلما فَرَغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرِّزق ما تَهَزَّزت رُءُوسكما، فإنَّ الإنسان تَلِدهُ أُمُّه أحمَرَ ليس عليه قِشْرَةٌ، ثم يعطيه الله ويرزُقه»[(٣)].

وقد وَرَد في بعض الكتب الإلَهيَّة: يقول الله تعالى: «ابنَ آدم، خلقتُك لعبادَتِي فلا تَلْعبْ، وتَكفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فلا تَتْعَب، فاطلُبني تَجِدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإن فُتُّكَ فاتَك كلُّ شيءٍ، وأنا أَحبُّ إليكَ من كلِّ شيءٍ».

وقولُهُ: ﴿فَإِنَّ للذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً﴾، أي: نَصِيباً من العَذَابِ، ﴿مثلَ ذَنُوبِ أصحابِهم فلا يَستعْجِلُونِ﴾، أي: فلا يستعجلُوا ذلك، فإنه واقعٌ لا محالة ﴿فويلٌ للذين كَفَرُوا من يومِهم الذي يُوعَدُون﴾، يعني يومَ القيامةِ.

آخر تفسير سورة الذاريات

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٩٤/١، وسنن أبي داود، كتاب الحروف ٣٥/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب القراءات ٥٩/١١، وأخرجه النسائي في كتابي النعوت والتفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزّي ٨٦/٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٥٨/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٢٨٦/٩، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٣٧٦/٢.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير آية الروم ٤٠، وخرجناه هنالك.

تفسير

سورة الطور

وهي مكيّة

قال مالك عن الزُّهريِّ، عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن أبيه: سَمِعتُ النبيَّ - ﷺ - يقرأُ في المغربِ بالطُّور، فما سَمِعتُ أحداً أحسَنَ صوتاً - أو: قراءة - منه. أخرجاه من طريق مالك[١].

وقال البخاريُّ: حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن نَوْفَلٍ، عن عُروَةَ، عن زينبَ بنتِ أبي سَلَمة، عن أم سَلَمَة قالت: شَكَوتُ إلى رسولِ الله - ﷺ - أنّي أشتكي، فقال: «طُوفي من وَرَاءِ الناسِ وأنتِ راكبةٌ». فَطُفت ورسولُ الله - ﷺ - يُصَلّي إلى جنبِ البيتِ يقرأُ بـ: ﴿والطُّورِ وكتابٍ مَسْطُورٍ﴾[٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يُقسِم تعالى بمخلوقاته الدالَّة على قُدرتِه العظيمةِ: أنَّ عذابه واقعٌ بأعدائه، وأنه لا دافعَ له عنهُم. فالطُّورُ هو: الجبلُ الذي يكون فيه أشجارٌ، مثل الذي كَلَّم الله عليه موسى، وأرسلَ منه عيسى. وما لم يَكُن فيه شجَرٌ لا يسمى طُوراً، إنما يقال له: جبلٌ.

﴿ وكتابٍ مَسْطُورٍ ﴾، قيل: هو اللوحُ المحفوظ. وقيل: الكتبُ المنزَّلةُ المكتوبةُ التي تُقرأ على الناس

---

(١) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٤٧، وتفسير سورة الطور ٨/٦٠٣، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٣٨.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الطور ٨/٦٠٣.

جِهاراً، ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ * وَالبيتِ المعمُورِ﴾، ثبت في الصحيحين أَنَّ رسُول الله ـ ﷺ ـ قال في حديثِ الإسراء بعد مُجاوَزته إلى السماء السابعة: «ثم رُفع إلى البيتِ المعمُورِ، وإذا هو يدخلُه في كلِّ يومٍ سبعُون ألفاً لا يعودُون إليه آخرَ ما عليهم». يعني يَتعبَّدون فيه ويطوفون به، كما يطُوف أهلُ الأرضِ بكعبَتِهم. كذلك ذاكَ البيتُ، هو كعبةُ أهلِ السماء السابعة. ولهذا وُجد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مُسنِداً ظهره إلى البيت المعمُور، لأنه باني الكعبةِ الأرضيَّةِ، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيالِ الكعبةِ، وفي كلِّ سماءٍ بيتٌ يَتعبَّد فيه أهلُها، ويُصلُّون إليه، والذي في السماء الدُّنيا يقال له: بيتُ العِزَّةِ. والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا الوليدُ بن مُسلِم، حدثنا رَوحُ بن جَنَاح، عن الزُّهرِيِّ، عن سَعِيد بن المُسيَّب، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «في السماءِ بيتٌ يقال له: «المعمُور» بحيالِ الكعبة، وفي السماء الرابعة نهرٌ يقال له: «الحيوان»، يدخله جبريلُ كلَّ يوم، فَيَنْغَمِسُ فيه انغماسةً، ثم يخرجُ فينتفض انتفاضةً تَخِرُّ عنه سَبعُون ألف قطرةٍ، يخلُق الله من كلِّ قطرةٍ مَلَكاً يُؤمَرُون أن يأتُوا البيتَ المعمُور، فَيُصلُّون فيه، فيفعلُون، ثم يَخرُجون فلا يعودُون إليه أبداً، ويُولَّى عليهم أحدهم، يُؤمَرُ أن يَقِفَ بهم من السماء مَوقِفاً يُسبِّحون الله فيه إلى أن تَقُوم الساعةُ»[١].

هذا حديث غريب جداً، تفرد به رَوحُ بن جَنَاح هذا، وهو القُرَشِيُّ الأُمَوِيُّ مولاهم أبو سعيد[٢] الدمشقي، وقد أنكر هذا الحديثَ عليه جماعةٌ من الحُفَّاظ منهم: الجُوزجَاني، والعُقَيلي، والحاكم أبو عبد الله النَّيسابوري، وغيرهم، قال الحاكم: لا أصلَ له من حديثِ أبو هُرَيرة، ولا سعيد، ولا الزُّهرِيّ.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا هَنَّاد بن السَّري، حَدَّثنا أبو الأحوص، عن سِماكِ بن حَرْب، عن خالد بن عَرْعَرَةَ: أن رجلاً قال لعلي: ما البيتُ المعمورُ؟ قال: بيتٌ في السماءِ يقال له: «الضُّرَاحُ»، وهو بحيالِ الكعبةِ من فَوقِها، حُرمَتُه في السماء كَحُرمةِ البيت في الأرضِ، يُصلِّي فيه كلَّ يوم سَبعُون ألفاً من الملائكةِ، لا يَعودُون فيه أبداً[٣].

وكذا رواه شُعبَةُ وسفيان الثوريُّ، عن سماك. وعندهما أن ابنَ الكَوَّاء هو السائلُ عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبي كُرَيب، عن طَلْق بن غَنَّام، عن زائدَة، عن عاصم، عن عَلِيِّ بن ربيعة قال: سأل ابنُ الكَوَّاء عليًّا عن البيت المعمُور، قال: مَسجِدٌ في السماء يقال له «الضُّرَاحُ»، يدخلُه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودُون فيه أبداً. ورواه من حديث أبي الطفيل، عن علي بمثله[٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو بيتٌ حذاءَ العَرْشِ، تعمُره الملائكة، يُصَلِّي فيه كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودُون إليه. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهَدٌ، والربيعُ بن أنس، والسُّديُّ، وغيرُ واحدٍ من السلَفِ.

وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال يوماً لأصحابه: «هل تَدرُون ما البيتُ المعمورُ؟ قالوا: الله ورسولُه أعلمُ. قال: «فإنه مسجد في السماء بحيالِ الكَعْبَةِ، لو خَرَّ لَخَرَّ عليها، يُصَلِّي فيه كُلَّ يومٍ سَبعُون ألفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجُوا منه لم يَعُودوا آخِرَ ما عليهم»[٤].

(١) أخرجه أيضاً ابن المنذر، والعقيلي، وابن مردويه. الدر المنثور ٧/٦٢٧، وميزان الاعتدال ٢/٥٧.
(٢) كذا في النسخ، وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/٤٩٤: أبو سَعْد. وفي المغني للذهبي ١/٢٦٢: أبو سَعْد، وأبو سَعِيد.
(٣) تفسير الطبري ٢٧/١٦.
(٤) تفسير الطبري ٢٧/١٧.

وزعم الضحَّاك أنه يعمُره طائفةٌ من الملائكة يقال لهم الجنُّ، من قبيلة إبليسَ، فالله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ والسَّقفُ المَرْفُوع ﴾، قال سفيانُ الثَّوري، وشعبةُ، وأبُو الأحوص، عن سِمَاكِ، عن خالد بن عَرْعَرَة، عن عَلِيٍّ: ﴿ والسقفِ المرفوع ﴾، يعني: السماء. قال سفيانُ: ثم تلا: ﴿ وَجَعلنا السماءَ سَقفاً محفُوظاً وهُم عن آياتِها مُعرِضُونَ ﴾[١]. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسُّديُّ، وابن جُرَيج، وابنُ زيد، واختاره ابن جرير[٢].

وقال الربيعُ بنُ أَنَسٍ: هو العَرشُ. يعني أنه سَقْفٌ لجميع المخلوقات، وله اتِّجاهٌ، وهو مُرادٌ مع غيره كما قاله الجمهورُ.

وقولُهُ: ﴿ والبحرِ المسجُورِ ﴾، قال الربيعُ بنُ أَنَسٍ: هو الماءُ الذي تحت العَرشِ، الذي ينزِلُ منه المطرُ الذي تحيا به الأجسادُ في قُبورها يوم مَعادها. وقال الجمهور: هو هذا البحرُ. واختُلِف في معنى قوله المسجور، فقال بعضهم: المرادُ أنه يُوقَد يوم القيامة ناراً كقوله: ﴿ وإذا البحار سُجِّرت ﴾، أي: أُضرِمَت فتصير ناراً تتأجَّجُ، محيطةً بأهل الموقف. رواه سَعيد بن المُسَيِّب، عن علي بن أبي طالب، ورُوِي عن ابن عباس. وبه يقول سعيدُ بن جُبَير، ومجاهدٌ، وعبد الله بن عُبَيد بن عُمَير، وغيرهم.

وقال العلاءُ بن بدر: إنما سُمِّي البحرَ المسجُورَ لأنه لا يُشرَب منه ماءٌ، ولا يُسقَى به زرعٌ، وكذلك البحارُ يومَ القيامةِ. كذا رواه عنه ابنُ أبي حاتم.

وعن سَعيد بن جُبَير: ﴿ والبحر المسجُورِ ﴾، يعني: المرسَل. وقال قتادة: المسجور: المملوءُ. واختاره ابن جرير. وَوَجَّهَهُ بأنه ليس مُوقداً اليومَ فهو مملوءٌ.

وقيل: المرادُ به الفارغُ، قال الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء، عن ذي الرُّمَّة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ والبحرِ المسجور ﴾، قال: الفارغ؛ خَرَجت أَمَةٌ تَستَسقِي فَرجَعَت فقالت: «إنَّ الحوضَ مَسْجورٌ»، تعني: فارغاً. رواه ابن مَرْدُويه في مسانيدِ الشُّعراء[٣].

وقيل: المراد بالمسجُور الممنوعُ المكفُوف عن الأرض لئلا يغمُرَها فَيُغرِقَ أهلَها. قاله علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول السُّديُّ وغيره، وعليه يدلُّ الحديث الذي رَوَاه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مُسنَدِه فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا العَوَّامُ، حدثني شيخٌ كان مرابطاً بالساحل قال: لقيتُ أبا صالح مولَى عُمَر بن الخطاب فقال: حدثنا عُمَر بن الخطاب، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس من ليلةٍ إلا والبحرُ يُشرِف فيها ثلاثَ مَرَّات، يَستأذِنُ الله أن ينفَضِخَ عليهِم، فَيَكُفُّه الله عَزَّ وجَلَّ»[٤].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا الحسنُ بن سفيان، عن إسحاق بن راهَويه، عن يزيدَ ـ وهو ابن هارون ـ عن العَوَّام بن حوشب، حدثني شيخٌ مرابط قال: خرجتُ ليلةً لِحَرَسِي لم يخرُج أحدٌ من الحَرَس غيري، فأتيتُ الميناءَ فَصَعِدتُ، فَجعل يُخَيَّل إليَّ أن البحرَ يُشرف يحـاذي رُءُوسَ الجبالِ، فَعَل ذلك مِراراً وأنا

---

(١) أخرجه الحاكم بإسناده إلى سفيان، المستدرك، كتاب التفسير ٢/٤٦٨، وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٨.

(٣) في الدر المنثور ٧/٦٣٠ أنّ الشيرازي أخرجه في الألقاب.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٤٣.

مُستيقِظٌ، فلقيتُ أبا صالحٍ فقال: حدثنا عُمَر بن الخطاب أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ما مِن لَيلةٍ إلا والبحرُ يُشرِفُ ثلاثَ مراتٍ يَستأذِنُ الله أن ينفَضِخَ عليهم، فيَكُفُّه اللهُ عزَّ وجلَّ». فيه رجلٌ مُبهمٌ لم يُسَمَّ.

وقولُهُ: ﴿ إنَّ عذاب ربِّك لواقعٌ ﴾، هذا هو المقسَم عليه، أي: لـوَاقعٌ بالكافِرينَ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ما له من دافعٍ ﴾، أي: ليس له دافعٌ يدفَعُه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظُ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي، حدثنا مُوسَى بن داود، عن صالح المُرّي، عن جَعْفرِ بن زَيدٍ العَبْدِي قال: خَرج عُمَر يَعُسُّ المدينةَ ذاتَ ليلة، فمرَّ بدار رجلٍ من المسلمين، فوافقه قائماً يُصَلّي، فوقَف يستمعُ قراءته فقرأ: ﴿ والطُّور ﴾ حتى بلغ: ﴿إنَّ عذابَ ربك لواقِعٌ * ما له من دافعٍ ﴾، قال: قَسَمٌ ـ ورَبِّ الكعبةِ ـ حَقٌّ. فنزل عن حِمَاره واستند إلى حائطٍ، فمكَثَ مَليًّا ثم رَجَع إلى منزله، فمكَث شهراً يعودُه الناس، لا يدرون ما مَرَضُه، رضي الله عنه.

وقال الإمام أبو عُبَيد في «فضائلِ القرآن»: حدثنا مُحَمَّد بن صالحٍ، حدثنا هشام بن حَسَّان، عن الحسنِ: أن عُمَرَ قرأ: ﴿ إنَّ عذابَ رَبِّك لَوَاقِعٌ ﴾، فَرَبا لها رَبْوَةً عِيدَ منها عِشرِينَ يَوْماً[1].

وقولُهُ: ﴿ يومَ تَمُور السماءُ موراً ﴾ ـ قال ابن عباس وقتادةُ: تَتَحرك تحريكاً. وعن ابن عباس: هو تَشقُّقها، وقال مجاهد: تَدُور دوراً. وقال الضحَّاكُ: استدارتها وتحريكُها لأمر الله، وموجُ بعضِها في بعضٍ. وهذا اختيارُ ابنِ جَريرٍ أنه التحرُّك في استدارةٍ. قال وأنشد أبو عُبَيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى[2]:

كَـأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيتِ جَـارَتِها   مَورُ السَّحابَةِ، لا رَيثٌ ولا عَجَلُ

﴿ وَتَسِيرُ الجِبالُ سَيراً ﴾، أي: تذهَبُ فتصير هباءً مُنبثًّا، وتُنسَفُ نَسْفاً، ﴿ فَوَيلٌ يومئذ للمكذِّبين ﴾، أي: ويل لهم ذلك اليومَ من عذاب الله وَنكالِه بهم، وعِقابه لهم، ﴿ الذين هم في خَوْضٍ يَلْعَبُون ﴾، أي: هُم في الدنيا يخوضُون في الباطل، ويَتَّخِذُون دينَهم هُزُواً ولَعِباً، ﴿ يوم يُدَعُّون ﴾، أي: يُدفَعُون ويُسَاقُون ﴿ إلى نارِ جهنَّم دَعّاً ﴾. وقال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب، والضحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والثوري: يُدفَعُون فيها دَفعاً: ﴿ هذه النارُ التي كُنتُم بها تُكَذِّبون ﴾، أي: تقولُ لهم الزَّبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً، ﴿ أفَسِحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصِرُون * اصلَوْها﴾، أي: ادخُلوها دخولَ مَن تغمُره مِن جَميع جهاتِه، ﴿ فاصبِرُوا أو لا تَصْبِرُوا سواءٌ عليكم ﴾، أي: سواءٌ صَبَرتُم على عَذَابها ونَكالها أم لم تَصْبِروا، لا مَحِيدَ لكم عنها ولا خَلاصَ لكم منها، ﴿ إنما تُجزَوْن ما كنتُم تعملُون ﴾، أي: ولا يَظلِمُ الله أحداً، بل يُجَازِي كُلّاً بِعَمله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن حالِ السُّعداء فقال: ﴿ إنَّ المتَّقِين في جَنَّاتٍ ونَعيم ﴾، وذلك بِضدِّ ما أُولئكَ فيه من العذاب والنَّكال، ﴿ فَاكِهين بما آتاهم ربهم ﴾، أي: يَتَفكَّهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصنافِ الملاذّ، من مآكِلَ ومشارِبَ وملابِسَ ومساكِنَ ومراكِبَ وغير ذلك، ﴿ ووقاهم ربُّهم عذابَ الجَحِيم ﴾، أي: وقد نَجّاهم

(١) المراد بالرَّبْو: التهيُّج وتواتر النَّفَس، وهو داءٌ تضيق فيه شُعَيبات الرِّئة، فَيعسُر التنفُّس.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٣١، والبيت في ديوانه ٥٥، وتفسير الطبري ٢٧/ ٢٠.

من عذاب النار، وتلك نعمةٌ مُستقِلَّة بذاتها على حِدَتِها مع ما أُضيف إليها من دُخول الجنَّة، التي فيها من السُّرُور ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ.

وقولُهُ: ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هَنيئاً بما كنتُم تعمَلُون ﴾، كقولِهِ: ﴿ كُلُوا واشرَبُوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيام الخاليةِ ﴾، أي: هذا بذاك، تَفَضُّلاً منه وإحساناً.

وقولُهُ: ﴿ مُتَّكِئين على سُرُرٍ مَصفُوفةٍ ﴾، قال الثوري، عن حُصَين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السُّرُر في الحِجَال(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليَمَان، حدثنا صفوانُ بن عَمرو: أنه سَمِعَ الهيثَم بنَ مالك الطائي يقول: إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الرجُلَ لَيَتَّكِىءُ المُتَّكَأَ مقدارَ أربعينَ سنةً ما يَتَحوَّلُ عنه ولا يَمَلُّه، يأتيه ما اشتهت نفسُه ولذَّت عينُه».

وحدثنا أبي، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، عن سُليمان بن المغيرة، عن ثابتٍ قال: بَلَغنا أن الرجُلَ لَيَتَّكِىءُ في الجَنَّة سبعين سنة، عندَه مِن أزواجِه وخَدَمِه وما أعطاه الله من الكَرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرةٌ فإذا أزواجٌ له لم يكُن رَآهُنَّ قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعَلَ لنا منك نَصِيباً.

ومعنى ﴿ مَصفُوفةٍ ﴾، أي: وُجوهُ بعضِهم إلى بعضٍ، كقوله: ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾. ﴿ وزوَّجناهم بحُورٍ عينٍ ﴾، أي: وجعلنا لهم قريناتٍ صَالِحاتٍ، وزوجاتٍ حساناً من الحُورِ العين.

وقال مجاهد: ﴿ وزوَّجناهم ﴾: أنكحناهُم بحُورٍ عِينٍ، وقد تَقَدَّم وصفُهن في غير موضع بما أغنَى عن إعادَتِه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن فَضْله وكَرَمه، وامتنانه ولُطفه بخلقه وإحسانه: أنَّ المؤمنين إذا اتَّبعَتْهُم ذُرِّياتهم في الإيمان يُلحِقُهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغُوا عَمَلهم، لِتقَرَّ أعيُنَ الآباءِ بالأبناءِ عندَهم في منازلهم، فيجمَع بينهم على أحسَنِ الوجوه، بأن يرفَع الناقص العَمَل بكامِلِ العَمَل، ولا ينقُص ذاك من عَمَله ومَنزلته، لِلتَّساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿ ألحقنا بهم ذُرِّياتهم(٢) وَمَا أَلتناهُم من عَمَلهم من شيءٍ ﴾.

قال الثوريُّ، عن عَمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: إنَّ الله ليرفَعُ ذُرِّية المُؤمن في

---

(١) الحِجال: جمع حَجَلة، وهي: سِترٌ يُضرَب للعروس في جوف البيت.

(٢) قرأ أبو عمرو: ﴿ وأتبَعْناهم ذُرِّياتهم ﴾ و﴿ ألحقنا بهم ذُرِّياتهم ﴾. وقرأ نافع: ﴿ واتبعتهم ذُرِّيتهم ﴾ و﴿ ألحقنا بهم ذُرِّياتهم ﴾. فأما ابن عامر فقرأ: ﴿ واتبعتهم ذُرِّياتهم ﴾ و﴿ ألحقنا بهم ذُرِّياتهم ﴾. وقرأ الباقون: ﴿ واتبعتهم ذُرِّيتهم ﴾ و﴿ ألحقنا بهم ذُرِّيتهم ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٧٣.

دَرَجته، وإن كانوا دُونَه في العمل، لتَقرَّ بهم عينُه، ثم قرأ: ﴿ والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذُرِّياتِهم وما ألتناهُم من عملهم من شيءٍ ﴾[١].

رواه ابنُ جَرير وابن أبي حاتم من حديث سُفيان الثوري، به. وكذا رواه ابنُ جرير من حديث شُعبة عن عَمرو بن مُرّة به. ورواه البزّار، عن سهل بن بحر، عن الحسن بن حَمّاد الورّاق، عن قَيس بن الربيع، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن سَعِيد، عن ابن عباس مرفوعاً، فَذَكره، ثم قال: وقد رواه الثوريُّ، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن سَعِيد، عن ابن عباس موقوفاً[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيَدٍ[٣] البيرُوتي، أخبرني محمد بن شُعَيب، أخبرني شيبان، أخبرني ليث، عن حبيب بن أبي ثابت الأسدي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ والذين آمنوا وأتبعناهم ذُرِّياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذُرِّياتهم ﴾، قال: هم ذُرِّية المؤمن، يموتُون على الإيمان، فإن كانت منازلُ آبائِهم أرفعَ من منازلهم أُلحِقُوا بآبائهم، ولم يُنقَصُوا من أعمالهم التي عَمِلوا شيئاً.

وقال الحافظُ الطَّبَرانيُّ: حدثنا الحُسَين بن إسحاقَ التُّستري، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوَان، حدثنا شَريك، عن سالِم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس ـ أظُنُّه عن النبيِّ ﷺ ـ قال: «إذا دَخل الرجلُ الجنةَ سأل عن أبَويه وزَوْجَتِه وَوَلده، فيقال: إنهم لم يَبلغُوا دَرَجَتك. فيقول: يا ربِّ، قد عَمِلتُ لي ولهم. فَيُؤمَرُ بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿ والذين آمنُوا واتَّبعتهم ذُرِّيتُهم بإيمانٍ ﴾[٤]. . . الآية.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباسٍ في هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتَهم الإيمانَ فَعَمِلوا بطاعتي ألحقتُهم بإيمانِهم إلى الجَنَّة، وأولادهم الصِّغار تُلحَقُ بهم[٥].

وهذا راجعٌ إلى التفسير الأول، فإنّ ذاك مُفسَّرٌ أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبي، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيمُ، وقتادةُ، وأبو صالحٍ، والربيعُ بنُ أنسٍ، والضحَّاكُ، وابنُ زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبدُ الله ابنُ الإمامِ أحمدَ:

حدثنا عثمانُ بن أبي شَيبة، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن محمد بن عُثمان، عن زَاذانَ، عن علي قال: سَألت خَديجةُ النبيَّ ـ ﷺ ـ عن وَلَدين ماتَا لها في الجاهليَّة، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هما في النار. فلما رأى الكراهَة في وجهها قال: لو رأيتِ مكانَهما لأبْغَضْتِهما. قالت: يا رسولَ الله، فَولَدَيَّ منكَ. قال: في الجنَّة. قال: ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿والذين آمنوا وأتبعناهم ذُرِّياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾[٦].

هذا فضلُه تعالى على الأبناء ببَركة عمل الآباء، وأما فضلُه على الآباءِ ببَركَةِ دُعاءِ الأبناء، فقد قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يزيدُ، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن عاصم بن أبي النَّجود، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال

(١) أخرجه الحاكم، المستدرك ٢/٤٦٨، والطبري ٢٧/٢٤. وانظر الدر المنثور ٧/٦٣٢.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٠ ـ ٧١.
(٣) في النسخ: يزيد. انظر تبصير المُنْتَبه ٤/١٢٧٢، وترجمته في الجرح والتعديل ٦/٢١٤ ـ ٢١٥.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/٤٤٠ ـ ٤٤١ عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، به.
(٥) تفسير الطبري ٢٧/٢٥.
(٦) مسند الإمام أحمد ١/١٣٤ ـ ١٣٥، وقد تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٥ من سورة النساء.

رسولُ الله - ﷺ -: «إن الله ليرفعُ الدرجَة للعبدِ الصالح في الجَنَّة فيقولَ: يا ربِّ، أَنَّى لي هذه؟ فيقول: باستغفارِ ولدِك لك»(١).

إسنادُه صحيح، ولم يُخرِّجوه من هذا الوجه(١)، ولكن له شاهدٌ في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيرَةَ، عن رسولِ الله - ﷺ -: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلاّ مِن ثلاثٍ: صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعُو له»(١).

وقولُه: ﴿ كُلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾، لَمَّا أخبرَ عن مقامِ الفضلِ، وهو رفعُ دَرَجةِ الذُّرِّيَّةِ إلى منزلةِ الآباءِ من غير عملٍ يَقتضِي ذلك أخبَرَ عن مقامِ العَدْلِ، وهو أنه لا يُؤاخِذُ أحداً بذنبِ أحدٍ، بل ﴿ كُلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾، أي: مُرْتَهنٌ بعَمَله، لا يُحمَلُ عليه ذنبُ غيره من الناس، سواءٌ كانَ أباً أو ابناً، كما قال: ﴿ كُلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رهينةٌ * إلا أصحابُ اليمين * في جناتٍ يتساءَلُون عن المُجرِمين ﴾.

وقولُه: ﴿ وأمددناهُم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يَشتَهُون ﴾، أي: وألحقناهُم بفواكِهَ ولحومٍ من أنواعٍ شَتَّى، مما يُستَطابُ ويُشتَهى.

وقولُه: ﴿ يتنازَعُون فيها كأساً ﴾، أي: يَتَعاطَون فيها كأساً، أي: من الخَمْرِ. قاله الضحاك.

﴿ لا لَغْوٌ فيها ولا تأثِيمٌ ﴾، أي: لا يَتَكلَّمُون عنها بكلامٍ لاغٍ، أي: هَذَيانٍ، ولا إثم، أي: فُحْش، كما تَتَكلَّم به الشَّرَبَةُ من أهلِ الدنيا. وقال ابنُ عباس: اللغْوُ: الباطِلُ. والتأثِيمُ: الكَذِبُ. وقال مجاهد: لا يَستَبُّون ولا يُؤَثِّمُون. وقال قتادةُ: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان(٢). فنَزَّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فَنَفى عنها - كما تقدَّم - صُداعَ الرأس، ووَجَعَ البطن، وإزالةَ العقلِ بالكُلِّيَّةِ. وأخبَرَ أنها لا تحمِلُهم على الكلامِ السَّيِّءِ الفارغِ عن الفائدةِ المُتَضمِّنِ هَذَياناً وفُحْشاً، وأخبر بحُسنِ مَنْظَرِها، وطِيبِ طَعْمِها ومَخْبَرِها فقال: ﴿بيضاءَ لَذَّةٍ للشاربين * لا فيها غَولٌ ولا هم عنها يُنزَفُون ﴾، وقال: ﴿ لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون ﴾، وقال هاهنا: ﴿ يَتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ ﴾.

وقولُه: ﴿ ويطوفُ عليهم غلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنُونٌ ﴾: إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤُ الرطبُ المكنُون، في حُسنِهم وبَهائهم(٣) ونَظافَتِهم وحُسنِ مَلابِسِهم، كما قال: ﴿ يطوفُ عليهم ولدانٌ مُخلَّدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معينٍ﴾.

وقولُه: ﴿ وأقبل بعضُهم على بعض يتساءَلُون ﴾، أي: أقبلوا يتحادَثُون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدُّنيا، وهذا كما يتحادثُ أهلُ الشراب على شَرابهم إذا أَخَذ فيهم الشرابُ بما كان من أمرهم، ﴿ قالـوا إنا كُنّا قبلُ في أهلنا مُشفِقين ﴾، أي قد كنا في الدار الدُّنيا ونحن بين أهلنا خائفين من رَبِّنا مُشفِقِين من عذابِهِ وعِقابِه، ﴿ فَمنَّ الله علينا ووقانا عذابَ السَّموم ﴾، أي: فتصدَّق علينا وأجارنا مما نخافُ، ﴿ إنا كُنّا من قبلُ ندعُوه ﴾، أي: نتضرَّعُ إليه، فاستجابَ لنا وأعطانا سُؤلَنا، ﴿ إنه هو البَرُّ الرحِيمُ ﴾.

وقد وَرَد في هذا المقام حديثٌ، رواه الحافظ أبو بكر البزّار في مُسنَدِهِ فقال: حدثنا سَلَمةُ بنُ شَبيبٍ، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الرَّبيع بن صُبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا دَخَل

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٥٠٩. وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب بإسناده إلى حماد ٢/١٢٠٧. فأما حديث مسلم ففي كتاب الوصية ١٢٥٥/٣.

(٢) انظر الآثار في تفسير الطبري ٢٧/٢٩.

(٣) في نسخة: وبياضهم.

أهلُ الجنَّةِ الجنةَ اشتاقُوا إلى الإخوان، فَيجيءُ سَريرُ هذا حتى يُحاذِيَ سريرَ هذا، فيتحدَّثان، فيَتَّكِئُ هذا ويَتَّكِئُ هذا، فيَتحدَّثان بما كان في الدنيا، فيقولُ أحدُهما لصاحِبِه: يا فلان، تَدري أيَّ يومٍ غَفَرَ الله لنا؟ يومَ كُنَّا في موضعِ كذا وكذا، فَدَعونا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فغَفَر لنا».

ثم قال البزارُ: لا نعرفه يُروى إلا بهذا الإسنادِ(١).

قلت: وسَعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صَبيح قد تَكلَّم فيه غيرُ واحدٍ من جهَةِ حِفْظِه، وهو رجلٌ صالحٌ ثِقَةٌ في نَفْسِه(٢).

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا عَمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ، حدثنا وكيعٌ، عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مَسْرُوقٍ، عن عائشةَ: أنها قرأت هذه الآيةَ ﴿فَمنَّ الله علينا ووقانا عذابَ السَّموم * إنا كُنَّا من قبلُ ندعُوهُ إنه هو البرُّ الرحيم﴾، فقالت: اللهمَّ، مُنَّ علَينا وَقِنا عذابَ السَّموم * إنك أنت البرُّ الرحيمُ. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم(٣).

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأن يُبلِّغَ رسالتَه إلى عِبادِه، وأن يُذكِّرَهم بما أنزلَ الله عليه، ثم نَفَى عنه ما يَرْميه به أهلُ البُهتان والفُجور فقال: ﴿ فذكِّر فما أنتَ بنعمةِ ربِّك بكاهنٍ ولا مجنونٍ ﴾، أي: لستَ بحَمْدِ الله بكاهنٍ كما تقولُه الجهَلةُ من كُفَّار قريش. والكاهنُ: الذي يأتيه الرَّئِيُّ من الجانِّ بالكلمة يَتلقَّاها من خَبَرِ السَّماء، ﴿ ولا مَجنونٍ ﴾، وهو الذي يَتخبَّطُه الشيطانُ من المسِّ.

ثم قال تعالى مُنكِراً عليهم في قولهم في الرسُولِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿ أم يقولُون شاعرٌ نتربَّصُ به رَيْبَ المنون ﴾؟، أي: قَوارِع الدهر. والمنونُ: الموتُ. يقولُون: نَنْظُرُه ونَصْبِر عليه حتى يأتيَه الموتُ فنستريحَ منه ومن شأنِه، قال الله تعالى: ﴿ قل تَرَبَّصُوا فإنِّي معَكم من المتربِّصِينَ ﴾، أي: انتظِرُوا فإني منتظِرٌ معكم، وستعلَمُون لمن تكونُ العاقبةُ والنُّصرةُ في الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاقَ، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس: إنَّ قريشاً لما اجتمعُوا في دار النَّدْوَةِ في أمْرِ النبيِّ ـ ﷺ ـ قال قائلٌ منهم: احتَبِسُوه في وَثاقٍ، ثم تربَّصُوا به رَيْبَ المنُونِ حتى يَهلِكَ، كما هَلَكَ مَن هَلَكَ قَبلَه من الشُّعراءِ: زُهَيرٌ والنابغةُ، إنما هو كأحدِهم. فأنزَلَ الله في ذلك من قولهم: ﴿ أم يقولُون شاعرٌ نتربَّصُ به رَيْبَ المنونِ ﴾(٤).

ثم قال تعالى: ﴿ أم تأمُرهم أحلامُهم بهذا ﴾، أي: عقولُهم تأمُرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب صفة الجنة ٤/٢١١.
(٢) الجرح والتعديل ٤/١٨، ٣/٤٦٤ - ٤٦٥.
(٣) أخرجه غير واحد، الدر المنثور ٧/٦٣٤.
(٤) أخرجه الطبري ٢٧/٣١.

الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كَذب وزورٌ؟ ﴿ أم هُم قوم طاغُون ﴾، أي: ولكن هُم قومٌ ضُلاَّلٌ مُعانِدُون، فهذا هو الذي يحمِلُهم على ما قالوه فيك.

وقولُهُ: ﴿ أم يقولُون تقوَّله ﴾، أي: اختلقَه وافتراه مِن عند نفسِه، يعنونَ القرآنَ. قال الله: ﴿ بل لا يُؤمنون ﴾، أي: كفرُهم هو الذي يَحمِلهُم على هذه المقالةِ، ﴿ فَلْيَأْتوا بحديثٍ مثلِه إن كانوا صادِقين ﴾، أي: إن كانُوا صادِقين في قولِهم: «تقوَّله وافتراه»، فَلْيأتوا بمثل ما جاء به محمدٌ من هذا القرآن، فإنَّهم لو اجتمعُوا هم وجَميع أهلِ الأرضِ من الجنِّ والإنسِ ما جاءُوا بمثله، ولا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثلِه، ولا بِسُورةٍ من مثلِهِ.

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا المقامُ في إثباتِ الرُّبُوبيَّةِ وتَوحيدِ الأُلوهيَّةِ، فقال تعالى: ﴿ أم خُلِقُوا من غير شيءٍ أَمْ هُم الخالِقُون ﴾، أي: أُوجِدُوا من غير مُوجِدٍ أم هُم أوجدُوا أنفُسَهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلَقهم وأنشأهُم بعد أن لم يكونُوا شيئاً مذكوراً.

قال البخاريُّ: حَدَّثنا الحُميدِيُّ، حدثنا سُفيان قال: حَدَّثُوني عن الزُّهريِّ، عن محمد بن جُبَير بن مُطعِم، عن أبيه قال: سَمِعتُ النبيَّ - ﷺ - يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أم خُلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون * أم خَلَقُوا السموات والأرض بل لا يُوقِنُون * أم عندهُم خَزائنُ ربِّكَ أم هُم المُسَيطِرُون﴾ كاد قَلْبِي أن يَطِيرَ[١].

وهذا الحديث مُخرَّج في الصَّحيحين[١] من طُرُقٍ، عن الزُّهريِّ، به. وجُبَير بن مُطعِم كان قَدْ قَدِم على النبي - ﷺ - بعد وقعةِ بَدرٍ في فداءِ الأَسَارى، وكان إذ ذاك مُشرِكاً، وكان سماعُه هذه الآية من هذه السورة من جُملة ما حَمَله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ أم خَلَقُوا السمواتِ والأرضَ بل لا يُوقِنُون ﴾، أي: أَهُم خَلَقُوا السمواتِ والأرض؟! وهذا إنكارٌ عليهم في شِرْكِهم بالله، وهم يَعلَمُون أنه الخالقُ وحدَه، لا شَريكَ له. ولكنَّ عَدَم إيقانِهم هو الذي يَحمِلُهم على ذلك، ﴿ أم عندهُم خزائنُ ربِّك أم هم المُسَيطرون ﴾، أي: أَهُم يتصرَّفون في المُلكِ وبيدهم مفاتيحُ الخزائن، ﴿ أم هم المُسَيطِرُون ﴾، أي: المحاسِبُون للخلائق، ليس الأمرُ كذلك، بل الله - عزَّ وجَلَّ - هو المالكُ المتصرِّف الفعَّال لما يُريد.

وقولُهُ: ﴿ أم لَهُم سُلَّم يَستمِعُون فيه ﴾، أي: مِرقاةٌ إلى المَلأ الأعلى، ﴿ فَلْيأتِ مُستمِعُهم بسلطانٍ مبينٍ ﴾، أي: فَلْيَأْتِ الذي يستمع لهم بحجَّةٍ ظاهرةٍ على صِحَّةِ ما هم فيه من الفِعَال والمَقَال، أي: وليس لهم سبيلٌ إلى ذلك، فَلَيسُوا على شيءٍ، ولا لَهُم دليلٌ.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الطور ٨/٦٠٣. وقد تقدَّم تخريجه من الطرق الأخرى أول السورة.
هذا وقد قرأ ﴿ المُسَيطرون ﴾، بالسين: قُنبل وهشام وحفص إلا الهاشمي. كذا قال ابن الباذش في الإقناع ٢/٧٧٤. وقرأ حمزة بخلاف عن خلَّاد بين الصاد والزاي. وقد قرأ الباقون بالصاد خالصة، والسين هي الأصل في هذا الحرف.

ثم قال مُنكراً عليهم فيما نَسبُوه إليه من البنات، وجَعْلِهم الملائكةَ إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكُورَ على الإناثِ، بحيثُ إذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظَلَّ وجهُه مُسودًا وهو كَظِيم. هذا وقد جعَلُوا الملائكةَ بناتِ الله، وعَبَدُوهم مع الله، فقال: ﴿ أم له البناتُ ولكم البَنُون ﴾، وهذا تهديدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أكِيدٌ، ﴿ أم تسألُهم أجراً ﴾ أي: أجرةً على إبلاغِك إيَّاهم رسالةَ الله؟ أي: لستَ تسألُهم على ذلك شيئاً، ﴿ فَهم من مَغْرم مُثقَلون ﴾، أي: فهم من أدنى شيءٍ يَتبرَّمون منه، ويُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم، ﴿ أم عندهُم الغيبُ فهم يكتُبون ﴾، أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنه لا يعلَمُ أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيبَ إلا الله، ﴿ أم يُريدُون كيداً فالذين كَفرُوا هم المَكيدُون ﴾، يقول تعالى: أم يُريدُ هؤلاء بقولهم هذا في الرسُول وفي الدين غُرورَ الناس وكيدَ الرسولِ وأصحابه، فَكَيْدُهُم إنما يرجعُ وبالُه على أنفُسِهم، فالذين كَفرُوا هم المَكيدُون، ﴿ أم لهم إلَه غيرُ الله سُبحانَ الله عَمَّا يُشرِكون ﴾. وهذا إنكارٌ شديد على المشركين في عبادتِهم الأصنامَ والأندادَ مع الله. ثم نَزَّه نفسَه الكريمةَ عما يَقُولُون ويَفترُون ويُشرِكُون، فقال: ﴿ سُبحَانَ الله عَمَّا يُشرِكون ﴾.

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسُوس: ﴿ وإن يَروا كِسْفاً من السماءِ ساقِطاً ﴾، أي: عليهم يُعذَّبون به لَمَا صدَّقُوا ولَمَا أيقنوا، بل يقولُون: هذا ﴿ سَحابٌ مركُوم ﴾ أي: مُتراكِم. وهذه كقوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماءِ فَظَلُّوا فيه يَعرُجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارُنا بل نحنُ قومٌ مسحُورون ﴾. قال الله تعالى: ﴿ فَذَرهُم ﴾، أي: دَعْهُم ـ يا محمد ـ ﴿ حتى يُلاقُوا يومَهم الذي فيه يُصعَقُون ﴾، وذلك يومَ القيامة، ﴿ يوم لا يُغنِي عنهُم كيدُهم شيئاً ﴾، أي: لا يَنفعُهم كيدُهم ومكرُهم الذي استعمَلُوه في الدنيا، لا يُجدِي عنهم يومَ القيامة شيئاً، ﴿ ولا هُم يُنصَرُون ﴾.

ثم قال: ﴿ وإن للذين ظَلَمُوا عذاباً دون ذلك ﴾، أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهم من العذابِ الأدنى دُونَ العذاب الأكبر لَعلَّهم يرجِعُون ﴾. ولهذا قال: ﴿ ولكنَّ أكثرَهم لا يعلَمُون ﴾، أي: نُعَذِّبهم في الدنيا، ونَبْتَلِيهم فيها بالمصائب، لَعَلَّهم يرجِعُون ويُنِيبُون، فلا يَفهَمُون ما يُراد بهم، بل إذا جُلِّي عنهم مما كانوا فيه عادُوا إلى أسوإ ما كانوا عليه، كما جاء في بعض الأحاديث: «إنَّ المنافق إذا مَرِض وعُوفي مَثَلُه في ذلك كَمَثَل البعير، لا يَدري فيم عَقَلوه ولا فيم أرسلُوه»(١). وفي الأثر الإلَهي: (كم أَعْصِيك ولا تُعاقِبُني؟ قال الله: يا عبدِي، كما أُعاقِبُك وأنتَ لا تَدْرِي)؟.

وقولُه: ﴿وَاصبرْ لحُكم ربِّك فإنَّك بأعيُننا ﴾، أي: اصبِرْ على أذاهُم ولا تُبالِهم، فإنَّك بمَرأىً منَّا وتحت كَلاءَتِنا، والله يعصِمُك من الناس.

وقولُهُ: ﴿ وسَبِّح بحمد ربِّك حين تقومُ ﴾، قال الضَّحاكُ: أي إلى الصلاة: سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلَه غيرُك(٢). وقد رُوي مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

(١) أخرجه أبو داود، أول كتاب الجنائز ٣/١٨٢.
(٢) أخرجه الطبري ٢٧/٣٨، وابن أبي شيبة في كتاب الصلوات، المصنف ١/٢٣٢.

وَرَوى مسلم في صحيحه، عن عُمَر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة[1]. ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيد وغيره، عن النبي - ﷺ - أنه كان يقول ذلك[1].

وقال أبو الجَوزاء: ﴿ وَسَبِّح بحمدِ ربِّك حينَ تقومُ ﴾، أي: من نَوْمِك من فراشك. واختاره ابن جرير. ويتأيَّدُ هذا القولُ بما رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني عُمَير بن هانىء، حدثني جُنادة بنُ أبي أُمَيَّة، حدثنا عُبادةُ بن الصَّامتِ عن رسولِ الله - ﷺ - قال: «من تَعَارَّ[2] من الليل فقال: لا إلَه إلا الله، وحدَه لا شركَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. سبحَان الله، والحمدُ لله، ولا إلَه إلا الله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قُوّة إلا بالله، ثم قال: رَبِّ اغفر لي - أو قال: ثم دَعَا - استُجيب له، فإن عَزَم فتوضّأ ثم صلّى تُقُبِّلت صلاتُه»[3].

وأخرجه البخاري في صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به[3].

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ وسبِّح بحمد ربك حين تقوم ﴾، قال: من كلِّ مجلِسٍ.

وقال الثوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأَحْوَص: ﴿ وسبِّح بحمد ربِّك حينَ تَقُوم ﴾، قال: إذا أراد الرجلُ أن يقومَ من مجلسه قال: سُبحانَكَ اللهُمَّ وبحمدِكَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النَّضر إسحاق بن إبراهيم الدِّمشقي، حدثنا محمدُ بن شُعَيب، أخبرني طلحة بن عمرو الحَضْرَمي، عن عطاءِ بن أبي رَبَاح: أنه حَدَّثه عن قول الله: ﴿ وسبِّح بحمدِ ربِّك حينَ تَقُوم ﴾، يقول: حين تقومُ من كلِّ مجلِسٍ، إن كنتَ أحسنتَ ازددتَ خيراً، وإن كان غيرَ ذلك كان هذا كفارة له.

وقد قال عبد الرزاق في جَامِعه: أخبرنا معمرٌ، عن عبد الكريم الجَزَري، عن أبي عُثمَان الفَقِير: أن جبريلَ عَلَّم النبي - ﷺ - إذا قام من مَجْلِسه أن يقول: سُبحانَكَ اللهُمَّ وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلَه إلا أنتَ. أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ. قال معمر: وسَمِعتُ غيره يقول: هذا القولُ كَفّارةُ المجالِسِ[4].

وهذا مرسَلٌ، وقد وردَت أحاديثُ مُسْنَدَةٌ من طُرُق - يُقَوِّي بعضُها بعضاً - بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيج، [عن موسى بن عقبة][5]، عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي - ﷺ - أنه قال: «من جَلَس في مجلس فَكَثُر فيه لَغَطُهُ فقال قبل أن يقومَ من مجلسه: سبحانَكَ اللهم وبحمدِك، أشهد أن لا إلَه إلا أنت، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ، إلا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك».

رواه الترمذيُّ - وهذا لفظه - والنسائيُّ في اليوم والليلة، من حديث ابن جُرَيج. وقال الترمذيُّ: (حَسَنٌ صَحِيحٌ)[6]. وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: «إسناد على شرط مسلم، إلا أن البخاري علله»[6].

---

(١) مسلم، كتاب الصلاة ١/٢٩٩، ومسند الإمام احمد ٣/٥٠، وأخرجه أهل السُنَن في كتاب الصلاة، سنن أبي داود ١/٢٠٦، وعارضة الأحوذي ٢/٤٠ - ٤١، وسنن النسائي ٢/١٣٢، وابن ماجه ١/٢٦٤.

(٢) تَعَارَّ: استيقظ.

(٣) مسند الإمام احمد ٥/٣١٣، وفتح الباري، كتاب التهجُّد ٣/٣٩، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣١٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٢/٢٩٨، والنسائي في اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٢٤٣، وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء ٢/١٢٧٦.

(٤) الدرّ المنثور ٧/٦٣٧.

(٥) عن عارضة الأحوذي، وتحفة الأشراف للمزي ٩/٤١٩.

(٦) عارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٢/٣١٤ - ٣١٥. والمستدرك، كتاب الدعاء ١/٥٣٦ - ٥٣٧.

قلت: عَلَّلَهُ الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرعَةَ، والدارقطني، وغيرهم. ونَسَبُوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيج. على أن أبا داود قد رواه في سننه من طريق غير ابن جُرَيج إلى أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه[١]. ورواه أبو دواد ـ واللفظ له ـ والنسائيُّ، والحاكم في المستدرك، من طريق الحجَّاج بن دينار، عن هاشم، عن أبي العالية، عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول بأخَرَةٍ إذا أرادَ أن يَقُوم من المجلس: «سُبحانَكَ اللهُمَّ وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلَه إلا أنتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليك». فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنك لَتَقُولُ قولاً ما كنتَ تقولُه فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكونُ في المجلس»[١].

وقد روى مرسلاً عن أبي العالية، والله أعلم. وهكذا رَوَاه النسائيُّ والحاكمُ، من حديثِ الربيع بن أنس، عن أبي العاليةِ عن رافع بن خَديج، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله سواء[١]. ورُوِي مُرسلاً أيضاً، والله أعلم. وكذا رَوَاه أبو داود عن عبد الله بن عَمرو أنه قال: «كَلِماتٌ لا يتكلم بهنَّ أحدٌ في مَجلِسِه عند قيامِه ثلاثَ مرَّاتٍ إلا كُفِّر بِهِنَّ عنه، ولا يقولُهُنَّ في مجلس خيرٍ ومجلسِ ذكرٍ إلاَّ خُتِم له بهِنَّ كما يُختَمُ بالخاتم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إلَه إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[٢]. وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَير بن مطعم[٢]. ورواه أبو بكر الإسماعيليُّ عن أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب، كلُّهم عن النبي ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءاً على حِدَةٍ بذكرِ طُرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلَّق به ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقولُهُ: ﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحه ﴾، أي: اذكُره واعبُده بالتلاوةِ والصَّلاة في الليل، كما قال: ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهجَّد به نافلةً لَكَ عسى أن يبعَثَك ربُّك مقاماً محموداً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وإدبارَ النُّجومِ ﴾، قد تَقَدَّمت في حديثِ ابن عباس[٣] أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيبوبة. وقد وَرَدَ في حديث ابن سِيلاَنَ، عن أبي هُرَيرة مرفُوعاً: «لا تَدَعُوهما وإن طَرَدتْكُم الخيل»[٤]. يعني ركعتَي الفجر، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حُكِيَ عن بعض أصحابِ الإمام أحمدَ القولُ بوجوبهما، وهو ضعيفٌ لحديثِ: «خَمْسُ صلواتٍ في اليوم والليلةِ». قال: هل عليَّ غيرُها؟ قال: «لا إلا أن تَطَوَّع»[٥]. وقد ثبت في الصَّحِيحَين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: لم يكُن رسولُ الله ـ ﷺ ـ على شيءٍ من النوافل أشدَّ تعاهُداً منه على ركعتَي الفَجرِ[٦]. وفي لفظ لِمُسلم: «ركعتا الفَجْرِ خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٦].

آخر تفسير سورة الطور

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٦٥/٤، وأخرجه النسائي في (اليوم والليلة)، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/١٩، والحاكم في مستدركه ٥٣٧/١.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٦٤/٤ ـ ٢٦٥، والمستدرك ٥٣٧/١.

(٣) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ٤٠ من سورة ﴿ قٓ ﴾.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢٠/٢.

(٥) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١٠٦/١، ومسلم ٤٠/١ ـ ٤١.

(٦) فتح الباري، كتاب التهجد ٤٥/٣، ومسلم، كتاب الصلاة ٥٠١/١.

تفسير

سُورَةُ النَّجْمِ

وَهِيَ مكيَّةٌ

قال البخاريُّ: حدثنا نصرُ بن علي، أخبرني أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن الأسود بن يزيدَ، عن عبد الله قال: أول سُورة أُنزلَت فيها سَجْدَةٌ ﴿ والنَّجْم ﴾، قال: فَسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وسَجَد مَن خَلْفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تُرابٍ فَسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتِلَ كافراً، وهو أُميَّة بن خَلَفٍ[1].

وقد رَواه البخاريُّ أيضاً في مواضع، ومُسلِم، وأبو داود، والنسائيُّ، من طرق، عن أبي إسحاق، به[1]، وقولُه في المُمتَنع: إنه أميَّةُ بن خَلَفٍ في هذه الرواية، مُشْكِلٌ، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عُتبةُ بن رَبيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ ﴾

قال الشعبيُّ وغيرُه: الخالقُ يُقسِمُ بما شاء من خَلْقه، والمخلوقُ لا ينبغِي له أن يُقسِم إلا بالخالق. رواهُ ابن أبي حاتم.

واختلف المفسِّرون في معنى قوله تعالى: ﴿ والنجم إذا هَوَى ﴾ فقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: يعني بالنجم الثُّريَّا إذا سَقطت مع الفجر. وكذا رُوي عن ابن عباس، وسفيانَ الثَّوريِّ. واختارهُ ابنُ جَرير. وزعم السُّديُّ أنها الزُّهرَةُ.

وقال الضحاك: ﴿ والنجم إذا هَوى ﴾: إذا رُمِي به الشياطينُ. وهذا القولُ له اتجاهٌ.

وَرَوى الأعمشُ، عن مجاهدٍ في قوله: ﴿ والنجم إذا هَوَى ﴾، يعني: القرآن إذا نَزَل. وهذه الآية كقوله

(١) فتح الباري، تفسير سورة النجم ٨/٦١٤، وكتاب مناقب الانصار ٧/١٦٥، وكتاب المغازي ٧/٢٩٩، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٤٠٥، وسنن ابي داود، كتاب الصلاة ٢/٥٩، والنسائي، كتاب الصلاة ٢/١٦٠، وأخرجه في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٧/١٢ ـ ١٣.

تعالى: ﴿فلا أُقسِمُ بمواقع النجوم * وإنه لَقَسمٌ لو تعلمُون عظيم * إنه لقرآنٌ كريمٌ * في كتاب مكنونٌ * لا يمسُّه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين﴾.

وقولُهُ: ﴿ ما ضَلَّ صاحبُكم وما غوَى ﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادةُ للرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأنه بارٌّ راشِدٌ تابعٌ للحقِّ ليس بضَالٍّ، وهو: الجاهلُ الذي يَسلُك على غير طريقٍ بغير علم. والغاوي: هو العالمُ بالحقِّ العادلُ عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله ـ سبحانه تعالى ـ رسولَه وشَرْعَه عن مُشابهة أهل الضَّلالِ كالنَّصارى وطرائقِ اليهود، وعن عِلْمِ الشيءِ وكتمانه والعَمَل بخلافه، بل هو ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غايةِ الاستقامةِ والاعتدالِ والسَّدادِ، ولهذا قال: ﴿ وما ينطِقُ عن الهَوَى ﴾، أي: ما يقولُ قولاً عن هَوَى وغرَض، ﴿ إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحَى ﴾، أي: إنما يقولُ ما أُمِرَ به، يُبَلِّغه إلى الناسِ كاملاً مُوَفَّراً من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، كما رواه الإمام أحمد:

حدثنا يزيدُ، حدثنا حَريز بن عُثمان، عن عبد الرحمن بن مَيْسَرَةَ، عن أبي أمامة أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «لَيَدخُلَنَّ الجنةَ بشفاعةِ رجلٍ ليس بنبي مثلُ الحَيَّين ـ أو: مثل أحد الحَيَّين ـ: ربيعةَ ومُضَر». فقال رجل: يا رسولَ الله، أوَمَا ربيعةُ من مُضَرَ؟ قال: «إنما أقول ما أقولُ»(١).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عُبَيد الله بن الأخنَسِ، أخبرنا الوليدُ بن عبد الله، عن يوسف بن مَاهَك، عن عبد الله بن عَمرو قال: كنتُ أكتُب كلَّ شيءٍ أسمَعُه من رسولِ الله ـ ﷺ ـ أُريدُ حِفْظَه، فنهتني قريشٌ فقالوا: إنك تكتُب كلَّ شيءٍ تسمَعُه من رسول الله ورسولُ الله ـ ﷺ ـ بَشَرٌ يتكلَّم في الغَضَب. فأمسكْتُ عن الكتاب(٢)، فذكرتُ ذلك لرسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: «اكتُب، فوالذي نفسي بيدِه ما خَرَج مني إلا حَقٌّ»(٣).

ورواه أبو داود عن مُسَدَّد وأبي بكر بن أبي شَيبَةَ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّارُ: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلَمَ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «ما أخبرتُكم أنَّه الذي من عند الله فهو الذي لا شَكَّ فيه». ثم قال: لا نعلَمُه يُروَى إلا بهذا الإسنادِ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليثٌ، عن محمد، عن سَعيدِ بن أبي سَعيدٍ، عن أبي هُرَيرةَ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا أقولُ إلاّ حقًّا». قال بعضُ أصحابِه: فإنك تُداعِبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً»(٤).

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٧.
(٢) أي: عن الكتابة.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/١٦٢، وسنن أبي داود، كتاب العلم ٣/٣١٨.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٣٤٠.

يقولُ تعالى مخبراً عن عبدِه ورسُوله محمد ـ ﷺ ـ أنه عَلَّمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾، وهو جبريلُ ـ عليه السلام ـ كما قال: ﴿إِنَّه لقولُ رسولٍ كريم * ذِي قُوَّةٍ عند ذي العرش مَكِين * مُطاعٍ ثَمَّ أمين ﴾. وقال هاهنا: ﴿ ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو قُوَّةٍ. قاله مجاهد، والحسن، وابنُ زيد. وقال ابن عباس: ذو منظرٍ حَسَـنٍ. وقال قتادة: ذو خَلْقٍ طَوِيل حَسَنٍ.

ولا منافاة بين القولين، فإنه ـ عليه السلام ـ ذو منظرٍ حَسَنٍ، وقُوَّةٍ شَدِيدةٍ. وقد ورد في الحديث الصحيح من روايةِ أبي هُريرة وابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تحِلُّ الصدقةُ لِغَنِيٍّ، ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»(١).

وقولُهُ: ﴿فاستَوَىٰ﴾ يعني: جبريل عليه السلام. قاله مجاهدٌ والحسنُ وقتادةُ، والربيع بن أنس ﴿ وهو بالأُفق الأعلى ﴾، يعني: جبريلَ، استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمةُ وغيرُ واحدٍ. قال عكرمةُ: والأفقُ الأعلى الذي يأتي منه: الصبحُ. وقال مجاهد: هو مطلَع الشَّمسِ. وقال قتادةُ: هو الذي يأتي منه النهارُ. وكذا قال ابنُ زيدٍ، وغيرُهم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا مُصَرِّف بن عمرو اليامِيُّ أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحةَ بن مُصَرِّفٍ، حدثني أبي، عن الوليد ـ هو ابنُ قيس ـ عن إسحاقَ بن أبي الكَهْتَلَة ـ أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعودٍ ـ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لم يَرَ جبريلَ في صُورته إلا مَرَّتين، أما واحدةً فإنه سأله أن يراه في صُورته فَسَدَّ الأُفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيثُ صَعِدَ، فذلك قولُه: ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴾(٢)

وقد قال ابنُ جَرير هاهنا قولاً لم أره لغيره(٣)، ولا حَكاه هو عن أحدٍ، وحاصلُه: أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿ فاستَوَىٰ ﴾، أي: هذا الشديدُ القُوَىٰ ذو المِرَّة هو ومحمد ـ ﷺ ـ بالأُفق الأعلى، أي: استويا جميعاً بالأفق، وذلك ليلةَ الإسراءِ. كذا قال، ولم يُوافقه أحدٌ على ذلك. ثم شَرَع يُوَجِّه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَئِذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنا ﴾، فَعطف بالآباء على المكنّى في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهارِ (نحن)، فكذلك قوله: ﴿ فاستَوَىٰ وهو﴾. قال: وذَكَر الفرَّاءُ عن بعض العربِ أنه أنشدَه(٤):

ألم تَرَ أنَّ النبعَ يَصْلُبُ عُـودُه ولا يَسْتَوِي والخِرْوعُ المُتَقَصِّفُ

وهذا الذي قاله من جهة العربيةِ مُتَّجه، ولكن لا يُساعِده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤيَةَ لجبريل لم تكن ليلةَ الإسراءِ، بل قَبْلَها ورسولُ الله ـ ﷺ ـ في الأرض، فَهبط عليه جبريل ـ عليه السلام ـ وَتدلَّى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خَلَقه الله عليها، له ستمائة جَناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أُخرى عند سِدْرة المُنتهى، يعني ليلةَ الإسراء، وكانت هذه الرؤيةُ الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريلُ ـ عليه السلام ـ أَوَّل مرّة، فأوحى الله إليه صَدْرَ سورة اقرأ، ثم فَتَر الوحيُ فترةً ذهبَ النبي ـ ﷺ ـ فيها مِراراً ليتردَّى من رُؤوس الجبال، فكُلَّما هَمَّ بذلك ناداه جبريلُ من الهَواء: «يا محمدُ، أنتَ رسولُ الله حقاً، وأنا جبريل». فَيسكُنُ لذلك جاشُهُ، وتَقَرُّ عينُه، وكلما طال عليه الأمرُ عاد لمثلها، حتى تَبَدَّى له جبريلُ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ في الأبطَح في صُورَتِه التي خَلَقه الله عليها، له سِتُّمائة جَناحٍ قد سَدَّ عُظْم خَلْقِه الأُفقَ، فاقترب منه، وأوحى إليه عن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ما أمره به، فَعرف عند ذلك عظمةَ المَلَكِ الذي جاءه بالرسالة، وجَلالة قَدْره وعلوَّ مكانته عند خالِقه الذي بعثه إليه. فأما الحديثُ الذي رواه الحافظُ أبو بكر البزّار في مُسْنَدِه حيث قال:

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.
(٢) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى محمد بن طلحة، المسند ١/٤٠٧، وانظر الدر المنثور ٧/٦٤٣.
(٣) هذا كلام الفراء في معاني القرآن. وسيأتي تخريجه عند البيت.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/٩٥، والبيت لجرير، ديوانه ٢٩٨، والنقائض ٢/٥٩٦، وتفسير الطبري ٢٧/٤٣.

حدثنا سَلَمةُ بن شَبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عُبَيد، عن أبي عِمْران الجَوْني، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بينا أنا قاعدٌ إذ جاء جبريل ـ عليه السلام ـ فوكَز بين كَتِفَيَّ، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَي الطير، فقَعد في أحدهما وقعدت في الآخر. فسَمَتْ وارتفعتْ حتى سَدَّتِ الخافقَين وأنا أقلِّب طَرْفي، ولو شِئْتُ أن أمسَّ السماء لَمَسِسْتُ، فالتفت إليّ جبريل كأنه حِلْس لاطِيءُ فعَرفتُ فضلَ علمه بالله عَلَيّ. وفُتح لي بابٌ من أبواب السماء ورأيت النور الأعظَمَ، وإذا دونَ الحِجَابِ رفرفة الدُّرِّ والياقوتِ. وأوحى إليّ ما شاء الله أن يُوحَى»

ثم قال البزّارُ: لا يرويه إلا الحارث بن عُبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة[1].

قلتُ: الحارث بن عُبَيد هذا أبو قُدَامة الإيادي، أخرج له مسلمٌ في صَحِيحه إلا أن ابن مَعِين ضَعّفه، وقال: ليس هو بشيء. وقال الإمام أحمد: مضطربُ الحديثِ. وقال أبو حاتم الرزايّ: يُكتَبُ حَديثه ولا يُحتَجُّ به. وقال ابن حبان: كَثُر وَهَمه فلا يجوزُ الاحتجاجُ به إذا انفَرَد. فهذا الحديث من غرائبِ رِوَاياته، فإن فيه نَكَارة، وغَرَابةَ ألفاظٍ، وسياقاً عجيباً، ولعله منامٌ، الله أعلم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجّاجٌ، حدثنا شَريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رَأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ في صورته وله ستمائة جناح، كلّ جناح منها قد سَدّ الأفق، يسقُط من جناحِه من التهاويلِ والدُّرّ والياقوت ما الله به عليم. انفرد به أحمد[2].

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش، عن إدريس بن مُنَبّه، عَن وَهْب بن مُنَبّه، عن ابن عباس قال: سأل النبيُّ ـ ﷺ ـ جبريلَ أن يَرَاه في صورته، فقال: ادعُ ربَّك. فدعا ربَّه ـ عزّ وجلّ ـ فطَلع عليه سوادٌ من قبل المشرق، فجعل يرتفعُ وينتشرُ، فلما رآه النبيُّ ـ ﷺ ـ صَعِق، فأتاه فنَعَشَه ومسح البُزَاق عن شِدْقه[3].

انفرد به أحمدُ، وقد رواهُ ابن عساكر في ترجمة «عُتبَة بن أبي لَهَب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عُثمانَ بن عُروَةَ بن الزُّبَير، عن أبيه، عن هَبَّار بن الأسود قال: كان أبو لَهب وابنه عُتبَةُ قد تَجهزا إلى الشام، فَتجهَّزت معهما، فقال ابنه عُتبة: والله لأنطلقنَّ إلى محمد وَلأُوذِيَنَّهُ في ربِّه ـ سبحانه ـ فانطلق حتى أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: يا محمدُ، هو يكفُر بالذي دنا فتدلَّى، فكان قابَ قوسَين أو أدنى. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهُمَّ ابعث إليه كَلْباً من كِلابِكَ». ثم انصرف عنه فرجَع إلى أبيه فقال: يا بُنَيّ، ما قلتَ له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهُمَّ سَلِّط عليه كلباً من كلابك» قال يا بُنَيّ، والله ما آمنُ عليك دُعاءَه. فسِرنا حتى نزلنا الشرَاة ـ وهي مَأْسَدَةٌ ـ ونزلنا إلى صَوْمَعَةِ راهب، فقال الراهبُ: يا معشرَ العربِ، ما أنزلكم هذه البلادَ، فإنها تسرح الأُسْدُ فيها كما تَسْرَحُ الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عَرَفتُم كِبَر سِنّي وَحَقّي، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوةً ـ والله ـ ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعَةِ، وافرشُوا لابني عليها ثم افرشُوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فَشَمَّ وجوهَنا، فلما لم يجد ما يُريد تَقَبَّض، فَوَثب، فإذا هو فوق المتاع، فَشَمَّ وجهه ثم هَزَمه هَزْمةً[4] فَفَضَخ رأسه. فقال أبو لَهَب: قد عَرَفتُ أنه لا يَنفلِتُ عن دَعْوَةِ مُحمَّدٍ[5].

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الإيمان ١/٤٧. وقد تقدّم هذا الحديث عند مفتتح سورة الإسراء.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٩٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٣٢٢. ونَعَشَه: أنهضَه وأقامه. والشِّدْقُ: جانب الفم.

(٤) هزمه: ضربه، وفي النسخ: فَشَدَخ رأسه. والمثبت من الدلائل لأبي نُعَيم، والفَضْخُ: كَسْرُ الشيء الأجوف.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الدلائل، بإسناده إلى محمد بن إسحق ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

وقولُهُ: ﴿ فكان قابَ قوسين أو أدنى ﴾، أي: فاقترب جبريلُ إلى محمد لما هَبَط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمدٍ - ﷺ - قاب قوسين، أي: بقَدْرِهما إذا مُدَّا. قاله مجاهد، وقتادة. وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وَتَرِ القوسِ إلى كَبِدها[١].

وقولُهُ: ﴿ أو أدنى ﴾، قد تقدَّم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثباتِ المُخبَرِ عنه ونَفْي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ ثم قسَت قلوبكُم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً ﴾، أي: ما هي بألين من الحجَارة، بل هي مثلُها أو تزيدُ عليها في الشدة والقسوةِ. وكذا قوله: ﴿ يخشَون الناس كخَشْيةِ الله أو أشدَّ خشيةً ﴾، وقوله: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ أي: ليسُوا أقلَّ منها بل هم مائةُ ألفٍ حقيقةً، أو يَزيدون عليها. فهذا تحقيقٌ للمخبر به لا شكُّ ولا تَرَدُّدُ، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿ فكانَ قابَ قوسين أو أدْنى ﴾.

وهذا الذي قُلناه من أنَّ هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمد - ﷺ - إنما هو جبريلُ - عليه السلام -، هو قولُ أمِّ المؤمنين عائشةَ، وابن مسعود، وأبي ذَرٍّ، وأبي هُرَيرةَ، كما سَنُورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى. ورَوَى مسلم في صَحِيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى مُحمَّدٌ ربَّه بفؤاده مرَّتين»[٢]. فجعلَ هذه إحدَهما. وجاء في حديثِ شريك بن أبي نَمِرٍ، عن أنس في حديث الإسراء: «ثم دَنَا الجَبَّار رَبُّ العِزَّة فتَدَلى»[٣]. ولهذا تَكلَّم كثيرٌ من الناس في مَتْنِ هذه الرواية، وذكروا أشياءَ فيها من الغرابة، فإن صحَّ فهو محمول على وقت آخر وقصَّةٍ أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية، فإن هذه كانت ورسولُ الله - ﷺ - في الأرض لا ليلةَ الإسراءِ، ولهذا قال بعده: ﴿ولقد رآه نزلةً أُخرى * عند سِدْرَةِ المُنتَهى ﴾، فهذه هي ليلةُ الإسراءِ، والأولى كانَتْ في الأرضِ.

وقد قال ابن جرير: حدثنا مُحمَّد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سُلَيمان الشيباني، حدثنا زِرُّ بن حُبيش قال: قال: عبدالله بن مسعود في هذه الآية: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾، قال قال رسول الله - ﷺ -: «رأيت جبريل له سِتُمائةِ جَناحٍ»[٤].

وقال ابن وهب: حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن أبي الأسود، عن عُروَةَ، عن عائشةَ قالت: كان أول شأنِ رسولِ الله - ﷺ - أنه رأى في منامه جبريلَ بأجياد، ثم إنه خرَج ليقضِيَ حاجَتَه فَصرخَ به جبريلُ: يا محمدُ، يا محمَّدُ. فنظر رسول الله - ﷺ - يمينا وشِمالا فلم يَرَ شيئاً - ثلاثاً - ثم رفع بَصَره فإذا هو ثانٍ إحدى رجلَيه على الأخرى على أُفق السماء فقال: يا محمدُ، جبريلُ جبريلُ - يُسَكِّنه - فهَرب النبي - ﷺ - حتى دخل في الناس، فَنَظر فلم يَرَ شيئاً. ثم خرج من الناس، ثم نَظَر فرآه، فدخل في الناس فلم يَرَ شيئاً، ثم خرج فنظَرَ فرآه، فذلك قول الله - عَزَّ وجَلَّ - ﴿والنجم إذا هَوَى﴾. إلى قوله: ﴿ثم دَنا فتَدَلَّى﴾، يعني جبريل الى محمد، ﴿فكان قابَ قوسَين أو أدنى﴾. ويقولونَ: القابُ نِصفُ الإصبع. وقال بعضُهم: ذراعين كان بينهما.

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث ابن وَهْبٍ[٥]. وفي حديث الزُهري، عن أبي سَلَمة، عن جابر شاهد لهذا.

---

(١) كَبِدُ القوس: ما بين طرَفَي علاقتها.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٥٨.

(٣) انظر هذا الحديث في مفتتح سورة الإسراء. وانظره أيضاً في تفسير الطبري ٢٧/٤٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٧/٤٨ - ٤٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٧/٤٩.

ورَوَى البخاريُّ، عن طَلْق بن غَنَّام، عن زائدة، عن الشَّيباني قال: سألتُ زِرًّا عن قوله: ﴿ فكان قابَ قوسَين أو أدنى * فأوحَى إلى عبدِه ما أوحَى﴾، قال: حَدَّثنا عبدُ الله أن محمداً ـ ﷺ ـ رأى جبريل له ستمائة جناح[(١)].

وقال ابنُ جرير: حدثني ابن بَزيع البغدادي، حدثنا إسحاقُ بن منصورٍ، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيدَ، عن عبد الله: ﴿ ما كَذَبَ الفؤاد ما رَأى ﴾، قال: رأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ عليه حُلَّتا رَفْرَفٍ، قد مَلأ ما بينَ السماءِ والأرضِ[(٢)].

فَعَلى ما ذكرناه يكون قولُه: ﴿ فأوحَى إلى عَبْدِه ما أَوْحَى ﴾، معناه: فأوحى جبريلُ إلى عبد الله محمَّدٍ ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل. وكلا المعنيين صحيح. وقد ذُكِر عن سَعِيد بن جُبَير في قوله: ﴿ فأوحى إلى عَبْدِه ما أوحى ﴾، قال: أوحى إليه: (ألم أَجِدْكَ يتيما)، ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾.

وقال غيره: أوحى إليه أن الجَنَّة مُحَرَّمة على الأنبياء حتى تدخُلها، وعلى الأمم حتى تدخُلها أمتك.

وقولُهُ: ﴿ما كَذَبَ الفؤاد ما رَأى * أَفَتُمارُونَه على ما يَرَى﴾، قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حُصَين، عن أبي العالية، عن ابن عباسٍ: ﴿ ما كَذَبَ الفؤاد ما رأى ﴾، ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾، قال: رآه بفؤاده مرَّتين[(٣)].

وكذا رواه سِماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله[(٣)]. وكذا قال أبو صالح والسُّدِّي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرَّتين. وَقد خالفه ابنُ مسعود وغيره. وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولةٌ على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أَغْرَبَ، فإنه لا يصحُّ في ذلك شيءٌ عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقولُ البَغَويِّ في تفسيره: «وذهب جماعةٌ إلى أنه رآه بِعَينِه، وهو قول أَنَسٍ والحسنِ وعِكْرِمةَ»[(٤)]، فيه نظر، والله أعلم.

وقال التِّرمِذيُّ: حدثنا محمد بن عَمْرو بن نَبْهان بن صَفْوَان، حدثنا يحيى بن كَثِير العَنْبَرِيُّ، عن سَلْم بن جَعْفَرٍ، عن الحكم بن أَبَانَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاسٍ قال: رَأى محمدٌ ربَّه. قلت: أليس الله يقولُ: ﴿ لا تُدرِكه الأبصارُ وَهو يدرك الأبصار ﴾؟ قال: وَيْحَكَ! ذاكَ إذا تَجَلَّى بنُورِه الذي هو نُورُه، وقد رأى رَبَّه مرَّتين. ثم قال: «حَسَن غَرِيب»[(٥)].

وقال أيضاً: حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سُفيانُ، عن مُجَالِدٍ، عن الشَّعبي قال: لقي ابنُ عباس كعباً بعرفَة، فسأله عن شيء فَكَبَّر حتى جاوبته الجِبالُ[(٦)]، فقال ابنُ عباس: إنَّا بنو هاشم. فقال كعب: إن الله قَسَم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فَكَلَّم موسى مَرَّتين ورآه محمدٌ مَرَّتين. وقال مسروق: دخلتُ على عائشةَ فقلت: هل رأى مُحمَّدٌ ربَّه؟ فقالت: لقد تكلَّمتَ بشيءٍ قَفَّ[(٧)] له شَعْرِي. فقلتُ: رُوَيداً، ثم قرأتُ: ﴿ لقد

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة النجم ٨/٦١٠.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٤٩. وحُلَّتا رَفْرَفٍ، أي: حلتان من ديباج، وهو الحرير الخالص.

(٣) تقدم من قريب تخريج هذا الحديث، ورواية سماك في تفسير الطبري ٢٧/٥٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/٢٤٧.

(٥) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النجم ١٢/١٧٠ ـ ١٧١.

(٦) قال الحافظ أبو العلى في شرح تحفة الأحوذي ٩/١٦٦: أي: كبر تكبيرة مرتفعاً بها صوته حتى جاوبته الجبال بالصدى، كأن استعظم ما سأل عنه، فكبر لذلك، ولعل ذلك السؤال [عن] رؤية الله تعالى.

(٧) أي: وقف.

رأى من آياتِ رَبّه الكُبرى ﴾. فقالت: أين يُذهَبُ بك؟ إنما هو جبريل، مَن أخبرك أن مُحمَّداً رأى ربه أو كَتم شيئا مما أُمِرَ به، [أو يعلم الخَمْسَ التي] قال الله تعالى: ﴿ إن الله عندَه علمُ الساعة وينزل الغيث ﴾، فقد أعظم على الله الفريةَ، ولكنه رَأى جبريل، لم يَرَه في صُورته إلا مرَّتين، مرةً عند سِدْرةِ المُنتهَى ومرَّةً في جيادٍ، له سِتمائةِ جَنَاحٍ قد سَدَّ الأفق[1].

وقال النسائيُّ: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد عليهم السلام؟![2].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ: هل رأيتَ رَبَّك؟ فقال: «نورٌ أنَّى أراه». وفي رِوَايةٍ: «رأيت نُوراً»[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن كعبٍ قال: قالوا: يا رسولَ الله، رأيتَ رَبَّك؟ قال: «رأيتُه بفؤادي مَرَّتين» ثم قرأ: ﴿ ما كذَبَ الفؤادُ ما رَأى ﴾.

ورواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن مِهْرَان، عن موسى بن عُبَيْدَةَ، عن محمد بن كَعْب، عن بعض أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قال: قلنا: يا رسولَ الله، هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «لم أَرَه بعيني، ورأيته بِفُؤادِي مَرَّتين». ثم تلا: ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾[4].

ثم قال ابنُ أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصبَّاح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاريّ، أخبرني عَبَّاد بن منصور قال: سألتُ عِكْرِمَةَ: ﴿ ما كذبَ الفؤادُ ما رَأى ﴾، فقال عكرمةُ: تُريد أن أُخبِرَك أنه قد رآه؟ قلتُ: نعم. قال: قد رَآه. قال: فسألتُ عنه الحسنَ فقال: رَأى جَلالَه وعَظَمته ورِدَاءَه.

وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن مُجاهِد، حدثنا أبو عامر العَقَدي، أخبرنا أبو خَلدة، عن أبي العالية قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيت نهراً، ورأيت وراء النهرِ حجاباً، ورأيت وراءَ الحجابِ نوراً لم أرَ غيرَ ذلك». غَريبٌ جداً.

فأما الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن قَتادَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «رأيتُ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ»[5].

فإنه حديثٌ إسنادُه على شرْط الصحيح، لكنه مُختَصرٌ من حديث المنام كما رَواه الإمام أحمدُ أيضاً:

حَدَّثنا عبدَ الرزَّاق، حدثنا معمرٌ، عن أيوبَ، عن أبي قِلابَة عن ابن عباس: أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أتاني ربِّي الليلة في أحسَنِ صُورَةٍ ـ أحسَبه يعني في النوم ـ فقال: يا محمدُ، أتَدري فيم يَختَصِمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلتُ: لا. فَوَضع يده بين كتفيَّ حتى وجدتُ بَرْدَها بين ثديَيَّ ـ أو قال: نَحْري ـ فعلمت ما في

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النجم ١٢/١٦٨ ـ ١٧٠.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننِه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٥/١٦٥.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٦١. ومعنى قوله ـ عليه السلام ـ: «نورٌ أنَّى أراه». أن النور مَنَعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه. كأنه قال: حجابُه النورُ فكيف أراه؟!
هذا، وقد تقدَّم الحديث في مُفتَتح سورة الإسراء.

(٤) تفسير الطبري ٢٧/٤٦ ـ ٤٧.

(٥) مسند الإمام أحمد ١/٢٨٥.

السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمدُ، هل تَدْرِي فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلتُ: نعم، يختصِمُون في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات والدرجاتُ؟ قال: قلت: المكثُ في المساجدِ بعد الصلوات، والمشيُ على الأقدام إلى الجُمُعاتِ وإبلاغُ الوضوءِ في المَكاره[1]. من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم وَلَدته أُمُّه. وقال: قلْ يا محمدُ إذا صليتَ: اللهُمَّ، إني أسألك فِعْلَ الخيرات وتَرْكَ المنكراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وإذا أردتَ بعبادِكَ فتنةً أن تَقبِضَني إليك غير مفتُونٍ. قال: والدرجاتُ بذلُ الطعامِ، وإفشاءُ السلامِ، والصلاةُ بالليلِ والناسُ نيامٌ»[2].

وقد تقدَّم في آخر سُورَةِ «صٓ»، عن معاذ، نحوه[3]. وقد رواه ابنُ جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياقٌ آخَرُ وزيادةٌ غريبةٌ فقال:

حدثني أحمد بن عيسى التَّميمي، حدثني سليمان بن عُمَر[4] بن سَيَّار، حدثني أبي، عن سَعيد بن زَرْبي، عن عُمَر بن سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «رأيتُ رَبِّي في أحسن صورة فقال لي: يا محمدُ، هل تَدْرِي فيم يختصمُ الملأ الأعلى؟ فقلت: لا، يا ربِّ. فَوَضع يده بين كتفي فوجدت بَرْدَها بين ثَدْيَيَّ، فعلمتُ ما في السموات والأرض، فقلت: يا ربِّ، في الدرجاتِ والكفَّارات، ونَقْلِ الأقدام إلى الجُمُعاتِ، وانتظار الصلاةِ بعد الصلاةِ. فقلت: يا ربِّ، إنكَ اتخذتَ إبراهيمَ خليلاً، وكَلَّمتَ موسى تكليماً، وفَعَلتَ وفعلتَ. فقال: ألم أشرح لك صدرَكَ؟ ألم أضعْ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ ألم أفعَلْ بك؟ ألم أفعَلْ؟ قال: فأفضى إليَّ بأشياء لم يُؤذَن لي أن أُحدِّثكُمُوها. قال: فذاكَ قولُه في كتابه: ﴿ثم دَنَا فتدلَّى * فكان قاب قوسَيْنِ أو أدنَى * فأوحى إلى عبدِه ما أوحَى * ما كَذَبَ الفُؤَاد ما رأى﴾. فجُعِل نورُ بَصَرِي في فُؤَادي، فنظرتُ إليه بِفُؤَادي»[5]. إسناده ضعيف.

وقد ذكر الحافظ ابنُ عَسَاكِر بسنده إلى هَبَّار بن الأسود ـ رَضِي الله عنه ـ: أن عُتبَةَ بن أبي لَهَبٍ لما خَرَجَ في تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلموا أني كافرٌ بالذي دنا فتدلى. فَبلغ قولَهُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: سَلَّطَ الله عليه كلباً من كلابِه. قال هَبَّارٌ: فكنتُ معهم، فنزلنا بأرضٍ كثيرةِ الأسدِ، قال: فلقد رأيتُ الأسدَ جاء فجعل يَشَمُّ رءوسَ القوم واحداً واحداً، حتى تخطَّى إلى عُتبَة فاقتطع رأسَه من بينهم[6].

وذكر ابنُ إسحاق وغيرُه في السِّيرة: أن ذلك كان بأرضِ الزَّرقاءِ، وقيل بالسَّراة، وأنه خَافَ ليلتئذٍ، وأنهم جعلُوه بينهم وناموا من حَوْلِهِ، فجاء الأسد فجعل يَزْأرُ، ثم تَخطاهم إليه فَضَغَم[7] رأسه، لعنَه الله[8].

وقولُهُ: ﴿ولقد رآه نزلةً أُخرى * عند سِدْرَةِ المُنتَهى * عندها جَنَّةُ المأوَى﴾ هذه هي المرةُ الثانيةُ التي رأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيها جبريلَ على صُورتِه التي خَلَقَه الله عليها، وكانت ليلةَ الإسراءِ. وقد قَدَّمنا الأحاديثَ الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة «سُبحَان» بما أغنَى عن إعادتِه هاهنا، وتقدَّم أنَّ ابن عباس

(١) المكاره: جمع مَكْرَهٍ، وهو: ما يكرهه المرء. يريد: التوضأ مع شدة البَرْدِ والعلل التي يُتأذى معها بمَسِّ الماء، إلى غير ذلك.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٦٨.

(٣) تقدم في تفسير الآية ٦٩ من سورة ﴿صٓ﴾.

(٤) كذا في الأصول، وفي تفسير الطبري: عَمْرو.

(٥) تفسير الطبري ٢٧/٤٨.

(٦) تقدم من قريب هذا الأثر، وتخريجه.

(٧) أي: عضه شديداً بملء الفم.

(٨) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩.

ـ رضي الله عنهما ـ كان يُثبت الرؤيةَ ليلةَ الإسراءِ، ويستشهدُ بهذه الآية. وتابعَه جماعةٌ من السلَفِ والخلَفِ، وقد خالفه جماعاتٌ من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين وغيرُهم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسنُ بن موسى، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ، عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَد رَآه نَزْلَةً أخرى * عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى﴾، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «رأيت جبريلَ وله ستُّمائةِ جَناحٍ، ينتثرُ من ريشِه التهاويلُ: الدرُّ والياقوتُ»(١). وهذا إسناد جيد قوي.

وقال أحمدُ أيضا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شَرِيك، عن جامع بن أبي راشد، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: رأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ في صُورَتِه وله سِتُّمائةِ جَناحٍ، كلُّ جناحٍ منها قد سدَّ الأفقَ، يسقُط من جَناحه من التهاويل والدرِّ والياقوت ما الله به عليمٌ. إسنادُه حَسَنٌ أيضا(٢).

وقال أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا زيدُ بن الحُبَاب، حدثني حُسَين، حَدَّثني عاصمُ بن بَهْدَلَة قال: سمعت شَقِيقَ بن سَلَمة يقولُ: سَمِعتُ ابنَ مسعود يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «رأيتُ جبريل على سِدْرَة المنتهَى، وله ستُّمائة جَناح». سألت عاصماً عن الأجنحةِ، فأبى أن يُخبرَني، قال: فأخبَرَني بعضُ أصحابه أنَّ الجناح ما بينَ المشرقِ والمغرب(٣). وهذا أيضاً إسناد جيد.

وقال أحمدُ: حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثني حُسَين، حدثني عاصم بن بَهْدَلَة، حدثني شَقِيقٌ قال: سَمِعتُ ابن مسعود يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أتاني جبريلُ ـ عليه السلام ـ في خُضْرٍ معلق به الدر»(٣). إسناد جيد أيضاً.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى، عن إسماعيلَ، حدثنا عامر قال: أتى مسروقٌ عائشةَ فقال: يا أُمَّ المؤمنين، هل رأى محمدٌ ـ ﷺ ـ ربَّه عزَّ وجلَّ؟ قال: سبحانَ الله! لقد قَفَّ(٤) شعري لما قلتَ، أين أنتَ من ثلاثٍ من حَدثكهن فقد كذب: من حدَّثك أن محمداً رأى ربه فقد كَذب، ثم قرأت: ﴿لا تُدرِكُه الأبصار وهو يُدرِكُ الأبصار﴾، ﴿وما كان لِبَشرٍ أن يُكلِّمه الله إلا وحياً أو من وَرَاءِ حجاب﴾، ومن أخبرك أنه يعلَمُ ما في غد فقد كَذَب، ثم قرَأَتْ: ﴿إن الله عندَه علمُ الساعةِ ويُنَزِّل الغيثَ ويعلَمُ ما في الأرحام﴾... الآية، ومَن أخبرك أن محمداً قد كَتم فقد كَذَب، ثم قرأت: ﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك﴾. ولكنه رأى جبريل في صُورَتِه مرتين(٥).

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا مُحمَّد بن أبي عَدِيٍّ، عن داودَ، عن الشعبيِّ، عن مَسْرُوقٍ قال: كنتُ عند عائشةَ فقلت: أليس الله يقولُ: ﴿ولقد رآه بالأفقِ المُبِينِ﴾، ﴿ولقد رآه نزلةً أُخرَى﴾؟ فقالت: أنا أوَّلُ هذه الأمَّة سألَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عنها، فقال: إنما ذاكَ جبريلُ. لم يَرَه في صُورته التي خُلِق عليها إلا مَرَّتين. رآه مُنهَبِطاً من السماء إلى الأرضِ، ساداً عُظْمُ خَلْقِه ما بينَ السماء والأرضِ(٦). أخرجاه في الصحيحين، من حديث الشعبي، به(٦).

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٤٦٠. والتهاويل: المختلفة الألوان.
(٢) وقع لنا الحديث في المسند من رواية حجاج، عن شريك، عن عاصم ١/٣٩٥، وانظر المسند أيضاً ١/٣٩٤، ٤١٨.
(٣) المسند ١/٤٠٧.
(٤) أي: وقف.
(٥) المسند ٦/٤٩ ـ ٥٠.
(٦) مسند الإمام أحمد ٦/٢٤١، وفتح الباري، تفسير سورة النجم ٨/٦٠٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٥٩.

روايةُ أبي ذَرٍّ، قال الإمام أحمد: حدثنا هَمّام، حدثنا قتادةُ، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قلت لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لسألتُه. قال: وما كنتَ تسألُه؟ قال: كنت أسألُه: هل رأى ربَّه عَزَّ وجَلَّ؟ فقال: إني قد سألتُه فقال: «قد رأيته نوراً أنّى أراه؟!»[1].

هكذا وقع في رواية الإمام أحمدَ، وقد أخرجه مسلمٌ من طريقَين بلفظَين فقال:

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبَةَ، حدثنا وكيعٌ، عن يزيدَ بن إبراهيم، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شَقِيق، عن أبي ذَرٍّ قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ: هل رأيتَ ربك؟ فقال: «نورٌ أنّى أراه؟!»[1].

وقال: حدثنا محمد بن بَشّار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لسألتُه. فقال: عن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: قلتُ كنتُ أسألُه: هل رأيتَ ربَّك؟ قال أبو ذَرٍّ: قد سألتُ فقال: «رأيتُ نوراً»[1].

وقد حَكَى الخَلّالُ في عِلَلِه أن الإمَام أحمد سُئِل عن هذا الحدِيث فقال: ما زلتُ مُنكِراً له، وما أدري ما وجهه!

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عَون الواسطي، أخبرنا هُشَيم، عن منصور، عن الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: رآه بقلبه، ولم يَرَه بعينِه.

وحاول ابن خُزَيمة أن يَدَّعي انقطاعه بين عبدِ الله بن شَقِيق وبين أبي ذَرٍّ، وأما ابنُ الجَوزي فتأوَّله على أن أبا ذَرٍّ لعلَّه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ قبل الإسراءِ، فأجابه به، ولو سأله بعد الإسراءِ بالإثبات. وهذا ضعيفٌ جداً، فإن عائشةَ أمَّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قد سألت عن ذلك بعد الإسراءِ، ولم يثبت لها الرُّؤْية. ومن قال: إنه خاطبها على قدرِ عقلها. أو حاول تخطِئتها فيما ذهبَتْ إليه ـ كابن خُزَيمة في كتاب التوحيد ـ فإنه هو المُخطِىء، والله أعلم.

وقال النسائيُّ: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، عن منصور، عن الحكم، عن يَزِيدَ بن شَرِيك، عن أبي ذَرٍّ قال: رأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ ربَّه بقلبه، ولم يَرَه بِبَصَره[2].

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن علي بن مُسْهِر، عن عبد المَلِك بن أبي سُلَيمان، عن عطاء بن أبي رَباح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في قوله: ﴿وَلَقد رآه نَزْلَةً أُخرَى﴾، قال: رأى جبريلَ عليه السلام[3].

وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾، قال: رأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ في صورته مَرَّتين[4]. وكذا قال قتادةُ، والربيعُ بن أنس، وغيرُهم.

وقولُهُ: ﴿إِذْ يَغشى السِّدْرَةَ ما يَغشى﴾، قد تقدَّم في أحاديث الإسراء أنه غَشِيتها الملائكةُ مثل الغِرْبان، وغَشِيها نورُ الربِّ، وغَشِيها ألوانٌ ما أدري ما هي؟

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا مالك بن مِغْوَل، حدثنا الزُّبير بن عَدِيٍّ، عن طلحة، عن مُرَّةَ، عن عبد الله ـ هو

(١) مسند الإمام أحمد ١٤٧/٥، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥٩/١.
(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ١٩١/٩.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان ١٥٨/١.
(٤) أخرجه الطبري ٥١/٢٧.

ابن مسعود ـ قال: لما أُسري برسول الله ـ ﷺ ـ انتُهي به إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنتهي ما يُعرَج به من الأرض فَيُقبَضُ منها، وإليها يَنتهي ما يُهبَطُ به من فوقها فَيُقبض منها، ﴿ إذ يغشَى السدرةَ ما يغشى ﴾، قال: فَرَاشٌ من ذَهَب، قال: وأُعطي رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً: أُعطِي الصلواتِ الخمسِ، وأُعطِي خواتيمَ سُورَةِ البقرة، وغُفر لمن لا يُشرِك بالله شيئاً من أُمَّته المُقحِماتُ[1]. انفرد به مسلم[1].

وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي هُرَيرة أو غيره ـ شَكَّ أبو جعفر ـ قال: لما أُسري برسول الله ـ ﷺ ـ انتهى إلى السِّدرة، فقيل له: هذه السِّدرَةُ، فَغَشِيها نورُ الخلاّق، وَغَشِيتها الملائكة مثلَ الغِربان حين يَقَعْنَ على الشجر، قال: فَكَلَّمه عند ذلك، فقال له: سَلْ[2].

وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ إذ يغشَى السِّدرَةَ ما يغشَى ﴾، قال: كان أغصانُ السِّدرَةِ لؤلؤاً وياقوتاً وزَبرجَداً، فرآها محمدٌ، ورأى ربَّه بقلبه.

وقال ابنُ زيد: قيل: يا رسولَ الله، أيَّ شيءٍ رأيتَ يغشَى تلك السِّدرَةَ؟ قال: «رأيتُ يغشَاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ، ورأيتُ على كلِّ ورقةٍ مِن وَرَقِها مَلَكاً قائماً يُسَبِّح الله عَزَّ وجَلَّ».

وقولُهُ: ﴿ ما زاغَ البصرُ وما طَغَى ﴾، قال ابن عباس: ما ذَهَب يميناً ولا شمالاً، ﴿ وما طَغَى ﴾: ما جاوزَ ما أُمِر به.

وهذه صفةٌ عظيمةٌ في الثبات والطاعةِ، فإنه ما فَعَل إلا ما أُمِر به، ولا سَأَل فوق ما أعطى. وما أَحْسَن ما قال الناظمُ:

رَأَى جَنَّةَ المَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا، وَلَو رَأَى غَيرُه ما قَدْ رَآه لَتَاهَا

وقولُهُ: ﴿ لقد رأى من آياتِ ربِّه الكبرى ﴾، كقوله: ﴿ لِنُرِيَكَ من آياتِنَا ﴾، أي: الدالَّةِ على قُدرتنا وعَظَمتنا. وبهاتين الآيتين استدلَّ مَن ذهب من أهل السُّنة أن الرؤيةَ تلك الليلةَ لم تَقَع، لأنه قال: ﴿ لقد رَأَى من آياتِ ربِّه الكبرى ﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة «سبحان». وقال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبي الكَهْتَلَة ـ قال محمد: أظنه عن ابن مسعود ـ أنه قال: إنَّ محمداً لم يَرَ جبريلَ في صُورته إلا مَرَّتين، أما مَرَّةً فإنه سأله أن يُرِيَه نفسَه في صُورته، فأراه صُورتَه فَسَدَّ الأفق. وأما الأخرى فإنه صَعِد معه حين صَعِد به. وقولُهُ: ﴿وهُو بالأفق الأعلى * ثم دَنَا فتدلَّى * فكان قابَ قَوسَين أو أدنَى * فأوحَى إلى عبدِه ما أوحَى﴾، قال: فلما أَحَسَّ جبريلُ ربَّهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عاد في صورته وسجد. فقولُه: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى * عند سدرة المنتَهَى * عندها جنَّةُ المأوى * إذ يغشَى السِّدرَةَ ما يغشَى * ما زاغ البصرُ وما طغى * لقد رأى من آيات ربِّهُ الكبرى﴾، قال: خَلْقَ جبريلَ ـ عليه السلام ـ[3]. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٤٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٥٧. وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، ومفتتح سورة الإسراء.

والمقحمات: الذنوب العظام التي تورِدُ أصحابها النار.

(٢) أخرجه الطبري ٢٧/٥٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٤٠٧.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُقَرِّعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتِّخاذهم لها البيوتَ مُضاهاةً للكعبة التي بَنَاها خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ أفرأيتم اللات ﴾، وكانت (اللاَّتُ) صخرةٌ بيضاء منقوشة وعليها بيتٌ بالطائفِ له أستار وسَدَنَة، وحولَه فِناءٌ مُعَظَّمٌ عند أهل الطائفِ، وهم ثَقِيف ومَن تابعها يفتخرون بها على مَن عداهم مِن أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقُّوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللاَّت، يعنُون مؤنثةً منه - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - وحَكَي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قَرَءُوا (اللاَّتّ) بتشديد التاء، وفسَّروه بأنه كان رجلاً يَلُتّ للحَجيج في الجاهلية السويقَ، فلما مات عكفُوا على قبره فعبدُوه[(١)].

وقال البخاريُّ: حدثنا مسلم - هو ابن إبراهيم - حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاءِ، عن ابن عباس: ﴿ اللاَّتَ والعُزَّى ﴾، قال: كان اللاتَ رجلاً يلتُّ السَّويقَ سَوِيقَ الحاجِّ[(٢)].

قال ابنُ جرير: وكذا العُزَّى من العَزيز[(١)]. وكانت شجرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بنخلَةَ، وهي بين مكةَ والطائفِ، كانت قريشٌ يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أُحُد: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «قولوا: الله مولانا ولا مَوْلَى لكُم»[(٣)].

وَرَوى البخاريُّ من حديث الزُّهري، عن حُميد بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «مَن حَلَفَ فقال في حَلِفه: (واللاَّتِ والعُزَّى) فَلْيَقُل: (لا إِلَهَ إلا الله). ومَن قال لصاحبه: تعالَ أقامِرْك، فَلْيتصدَّقْ»[(٤)].

وهذا محمولٌ علىَ من سَبَق لسانُه في ذلك، كما كانت ألسنتُهم قد اعتادتْه: في زَمَن الجاهلية، كما قال النسائي:

أخبرنا أحمدُ بن بكَّار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَد، حدثنا يونُس، عن أبيه: حدثني مصعبُ بن سَعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: حَلَفتُ باللاَّت والعُزَّى، فقال لي أصحابي: بِئسَ ما قلتَ! قلتَ هُجراً! فأتيتُ رسولَ الله - ﷺ - فذكرتُ ذلك له، فقال: قُل: لا إِلَهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كل شيء قدير. وانفُث عن شِمالك ثلاثاً، وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تَعُدْ»[(٥)].

(١) تفسير الطبري ٢٧/٥٨ - ٥٩.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ والنجم ﴾ ٨/٦١١، ولفظه: «يلُتُّ سَويقَ الحاجِّ».
(٣) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية ١١ من سورة محمد
(٤) فتح الباري، تفسير سورة النجم ٨/٦١١.
(٥) النسائي، كتاب الأيمان ٨/٧.

وأما مَناة فكانت بالمُشَلَّل ـ عند قُدَيدٍ، بين مَكَّة والمدينة(١) ـ وكانت خُزاعةُ(٢) والأوسُ والخزرجُ في جاهليتها يعظمونها، ويُهِلّون منها للحجِّ إلى الكعبة. وَروَى البخاري عن عائشة نحوه(٣). وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيتُ أُخَر تُعظِّمها العرب كتعظيم الكعبةِ غير هذه الثلاثة التي نَصَّ عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرَدَ هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

قال ابنُ إسحاق في السيرةِ: وقد كانت العربُ اتخذت مع الكعبة طواغيتَ، وهي بيوتٌ تُعظِّمها كتعظيم الكعبة، بها سَدَنَةٌ وحُجَّابٌ، وتُهدى لها كما يُهدَى للكعبة، وتطوفُ بها كَطوفَانِها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضلَ الكعبةِ عليها، لأنها كانت قد عَرَفت أنها بيتُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومسجدَه. فكانت لِقُرَيشٍ وبني كنانَة العُزَّى بنخلَة، وكانت سدنتها وحُجَّابها بني شيبان من سُلَيم حلفاء بني هاشم(٤).

قلتُ: بعثَ إليها رسول الله ـ ﷺ ـ خالدَ بن الوليد فهدمها، وجَعَل يقول:

يَا عُزّ، كُفْرَانَك لا سُبْحَانَكْ ... إني رأيتُ الله قَدْ أهَانَكْ(٥)

وقال النسائيُّ: أخبرنا علي بن المنذر، أخبرنا ابنُ فُضَيل، حدثنا الوليد بن جُمَيع، عن أبي الطُّفَيل قال: لما فتح رسولُ الله ـ ﷺ ـ مكَّةَ بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزَّى، فأتاها خالدٌ وكانت على ثلاث سَمُراتٍ(٦)، فَقَطَع السَّمُرات، وهدَم البيتَ الذي كان عليها. ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ فأخبَره، فقال: «ارجِعْ فإنكَ لم تَصنَع شيئاً». فَرَجع خالد، فلما أبصرَتْه السَّدَنةُ ـ وهم حَجَبتُها ـ أمعنُوا في الجبَل وهم يقولُون: (يا عُزَّى، يا عُزَّى). فأتاها خالد فإذا امرأة عُريانة ناشرةٌ شعرها تَحفِنُ الترابَ على رأسها، فَغمسها بالسيفِ حتى قَتَلها، ثم رجع إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأخبرَه، فقال: «تلك العُزَّى»(٧).

قال ابنُ إسحاق: وكانت اللاَّتُ لثقيفَ بالطائفِ، وكان سَدَنتها وحُجَّابها بني مُعَتِّب(٨).

قلتُ: وقد بَعثَ إليها رسولُ الله ـ ﷺ ـ المُغيرةَ بن شُعبَةَ وأبا سفيان صَخْرَ بن حَرب، فَهَدَماها وجَعَلا مكانها مَسجِدَ الطائفِ.

قال ابنُ إسحاقَ: وكانت مناةُ للأوسِ والخزرجِ ومَن دَانَ بدِينهم من أهل يثربَ على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بِقُدَيد، فبعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ أبا سَفيان صَخْرَ بن حرب فهدمها. ويقال: عليّ بن أبي طالب(٨).

قال: وكانت ذُو الخَلَصةِ لِدَوسٍ وخَثْعَم وبَجيلَة، ومَن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالَةَ(٩).

قلتُ: وكان يقال لها: الكَعْبَة اليمانية، وللكعبة التي بمكَّةَ: الكعبةُ الشاميةُ.

---

(١) زاد في فتح الباري ٦١٣/٨: (وهو موضع من قُديد من ناحية البحر، وهو الجبل الذي يُهبَط منه إليها).
(٢) انظر الأصنام للكلبي ١٣.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ والنجم ﴾ ٦١٣/٨.
(٤) سيرة ابن هشام ٨٣/١ ـ ٨٤، ٤٣٦/٢.
(٥) الأصنام للكلبي ٢٦.
(٦) السَّمُرات: جمع سَمُرَة، وهي ضَرْبٌ من شجر الطلح: وهو شجر عظام ترعاه الإبل.
(٧) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢٣٥/٤.
(٨) سيرة ابن هشام ٨٥/١، وانظر الأصنام للكلبي ١٦.
(٩) تبالة: بين مكة واليمن.

فبعث إليه رسول الله ـ ﷺ ـ جرير بن عبد الله البَجلي فَهَدَمه[١].

قال: وكانت فَلْسُ لطيىء ولِمَن يليها بجبلَي طَيِّىء بين سلمى وأَجَا[٢].

قال ابن هشام: فَحَدَّثني بعضُ أهل العلم أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعث إليه عَلِيَّ بن أبي طالب فهدمَه، واصطفَى منه سَيْفَين: الرَّسُوبَ والمِخْذَم، فَنَفَّله إياهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ فهما سيفا علي.

قال ابنُ إسحاقَ: وكان لحمير وأهلِ اليَمَن بيتٌ بصنعاء يقال له: رِيَام[٣]: وَذَكر أنه كان به كَلبٌ أسودُ، وأن الحَبرين اللذين ذَهَبا مع تُبَّعٍ استخرجَاه وقَتَلاه، وهَدَما البيتَ[٤].

قال ابنُ إسحاقَ: وكانت «رُضَاءُ» بيتاً لبني رَبِيعة بن كعبِ بن سعدِ بن زيد مناةَ بن تَمِيم، ولها يقولُ المستوغر بنُ ربيعةَ بن كعب بن سَعد حين هَدَمها في الإسلام:

وَلَقَد شَدَدْتُ عَلَى رُضَاءِ شَدَّةً ... فَتَرَكْتُها قَفْراً بِقَاعٍ أَسْحَمَا

قال ابن هشام: ويُقَال إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة، وهو القائل:

وَلَقَد سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاة وَطُولِهَا ... وَعُمِّرْتُ مِن عَدَد السِّنِينَ مِئِينا
مائةً حَدَّتها بَعْدَها مِئَتَان لِي ... وازْدَدْتُ[٥] مِنْ عَدَدِ الشُّهور سِنِينا
هَلْ ما بَقِي إلاَّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا ... يَومٌ يَمُرُّ وَلَيلَةٌ تَحْدُونَا

قال ابنُ إسحاقَ: وكان ذو الكَعَبَاتِ لبكرٍ وتَغلِبَ ابني وائل، وإيادٍ بِسَنْداد[٦]، وله يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الخَوَرْنَقِ والسَّدِير وَبَارِقٍ ... والبيتِ ذِي الكَعَبَات مِنْ سَنْدَادِ[٧]

ولهذا قال تعالى: ﴿أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرَى﴾.

ثم قال: ﴿ألكُم الذكرُ وله الأنثى﴾، أي: أتجعلُون له ولداً، وتجعلون ولدَه أنثى، وتختارُون لأنفُسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوقٌ مثلكُم هذه القسمةَ لكانت ﴿قسمةً ضِيزَى﴾، أي: جَوراً باطلةً، فكيف تُقَاسِمونَ ربَّكُم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كان جَوراً وسَفَهاً.

ثم قال منكراً عليهم فيما ابتدعُوه وأحدثُوه من الكَذِب والافتراء والكفر، من عِبَادَةِ الأصنام وتَسْمِيتها آلهة: ﴿إن هي إلا أسماءٌ سَمَّيتمُوها أنتم وآباؤكم﴾، أي: من تلقاءِ أنفُسكم ﴿ما أنزل الله بها من سُلطانٍ﴾، أي: من حُجَّةٍ، ﴿إن يَتَّبعون إلا الظنَ وما تهوى الأنفسُ﴾، أي: ليس له مستندٌ إلا حُسن ظنهم بآبائهم الذين سَلَكُوا هذا المسلكَ الباطلَ قبلهم، وإلاَّ حظُّ نفوسِهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقد جاءهم من ربِّهم الهُدى﴾، أي: ولقد أرسلَ الله إليهم الرسلَ بالحقِّ المنير والحجَّةِ القاطعة، ومع هذا ما اتَّبعوا ما جاءُوهم به، ولا انقادُوا له.

---

(١) سيرة ابن هشام ٨٦/١.
(٢) في نسخة: من سلمى. وفي سيرة ابن هشام ٨٧/١: (يعني: سلمى وأجا).
(٣) سيرة ابن هشام ٨٧/١.
(٤) سيرة ابن هشام ٢٧/١ ـ ٢٨.
(٥) في النسخ: (وعُمِّرت). والمثبت عن السيرة.
(٦) سَنْدَاد: منازل لإياد أسفل سواد الكوفة.
(٧) سيرة ابن هشام ٨٧/١ ـ ٨٨.

ثم قال: ﴿ أم للإنسانِ ما تَمنَّى ﴾، أي: ليس كلُّ مَن تَمنَّى خيراً حَصَلَ له، ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب ﴾ ما كُلُّ مَن زعم أنه مهتدٍ يكونُ كما قال، ولا كلُّ مَن وَدَّ شيئاً يحصُلُ له.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عَوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا تَمنَّى أحدُكم فَلْينظُرْ ما يَتمنَّى، فإنه لا يَدْري ما يُكتَبُ له من أمنيته»(١). تفرَّد به أحمد.

وقولُهُ: ﴿ فلِلَّهِ الآخرةُ والأُولى ﴾، أي: إنما الامرُ كلُّه لله، مالِكُ الدنيا والآخرةِ، والمتصرِّف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يكن.

وقولُهُ: ﴿ وكم مِن مَلَكٍ في السموات لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلَّا من بعدِ أن يأذَنَ الله لمن يَشاءُ ويَرْضَى ﴾، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفَعُ عنده إلَّا بإذنه ﴾، ﴿ ولا تنفعُ الشفاعةُ عندَه إلا لمن أَذِنَ له ﴾، فإذا كان هذا في حَقِّ الملائكةِ المُقَرَّبين، فكيف ترجُون أيها الجاهلون شفاعَةَ هذه الأصنامِ والأندادِ عند الله، وهو لم يَشْرَع عبادتَها ولا أَذِنَ فيها، بل قد نَهَى عنها على ألسنة جَميع رسله، وأنزلَ بالنهي عن ذلك جَمِيعَ كُتُبه؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على المشركين في تَسْمِيتِهم الملائكة تسميةَ الأنثى، وجَعْلِهم لها أنها بناتُ الله كما قال: ﴿ وجعلوا الملائكةَ الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدُوا خلقهم ستُكتَبُ شهادتُهم ويُسألُونَ ﴾. ولهذا قال: ﴿ وما لَهُم به من علم ﴾ أي: ليس لهم علمٌ صحيحٌ يُصَدِّق ما قالوه، بل هو كَذِبٌ وزورٌ وافتراء وكفرٌ شَنِيع. ﴿ إن يَتَّبِعون إلا الظَّنَّ وإنَّ الظن لا يُغني من الحقِّ شيئاً ﴾، أي: لا يُجدِي شيئاً، ولا يقومُ أبداً مقامَ الحقِّ. وقد ثَبَت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إيَّاكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث»(٢).

وقولُهُ: ﴿ فأعرض عَن من تولَّى عن ذكرنا ﴾، أي: أعرِض عن الذي أعرَض عن الحقِّ واهجُرْه.

وقولُهُ: ﴿ ولم يُرِد إلا الحياة الدنيا ﴾، أي: وإنما أكثرُ هَمِّه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك ما لا خيرَ فيه. ولهذا قال: ﴿ ذلكَ مبلغُهم من العلم ﴾، أي: طلبُ الدنيا والسعيُ لها هو غايةُ ما وَصَلُوا إليه. وقد رَوَى الإمام أحمدَ، عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الدنيا دار مَن لا دار له، ومالُ مَن لا مال له، ولها يجمَعُ من لا عقل له»(٣) وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا، ولا مبلغَ عِلمنا»(٤).

وقولُهُ: ﴿ إن ربَّك هو أعلم بمن ضَلَّ عن سَبِيلـه وهو أعلَمُ بمَن اهتدى ﴾، أي: هو الخالقُ لجميع

(١) مسند الإمام أحمد ٣٥٧/٢.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة النساء، ١٢ من سورة الحجرات، وخرجناه هنالك.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة، ١٨ من سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.
(٤) أخرجه الترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٣١/١٣ ـ ٣٢. والنسائي في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزي ٣٤٣/٥، والمستدرك، كتاب الدعاء ٥٢٨/١.

المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وذلك كلُّه عن قُدرته وعِلمه وحِكمته، وهو العادلُ الذي لا يجورُ أبداً، لا في شرعِه ولا في قَدَرِه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ السموات والأرض، وأنه الغنيُّ عما سواه، الحاكمُ في خَلْقِه بالعَدل، وخَلَق الخلق بالحق، ﴿ ليجزي الذين أساءُوا بما عَمِلُوا ويجزيَ الذين أحسَنُوا بالحسنى ﴾، أي: يُجازي كُلًّا بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌ. ثم فَسَّر المحسنين بأنهم الذين يَجتَنِبُون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطَون المحرَّماتِ والكبائرَ وإن وَقَع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إن تَجتَنِبُوا كبائرَ ما تُنهون عنه نُكَفِّر عنكم سيئاتكم ونُدخِلكم مُدْخلاً كريماً ﴾. وقال هاهنا: ﴿ الذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ إلا اللَّمَمَ ﴾. وهذا استثناءٌ منقطعٌ، لأن اللَّمَم من صغائر الذنوب ومحقَّرات الأعمال.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيتُ شيئاً أشبَهَ باللمَم مما قال أبو هُريرة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله كَتَبَ على ابن آدم حَظّه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينِ النظرُ، وزنا اللسانِ النطقُ، والنفسُ تَمنَّى وتَشتَهي، والفرجُ يُصدِّق ذلك أو يُكذِّبه»[1].

أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الرزّاق، به[1].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ ثَورٍ، حدثنا معمَرٌ، عن الأعمش، عن أبي الضُّحى أن ابنَ مسعود قال: «زِنَا العَينينِ النظرُ، وزنا الشفتَينِ التقبيلُ، وزنَا اليدينِ البطشُ، وزنَا الرجلينِ المشيُ، ويُصدِّق ذلك الفرجُ أو يُكذِّبه، فإن تقدَّم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللَّمَمُ»[2]. وكذا قال مسروقٌ، والشعبيُّ.

وقال عبد الرحمن بن نافع ـ الذي يقال له: ابن لُبابة[3] الطائفي ـ قال: سألتُ أبا هريرة عن قول الله: ﴿ إلا اللَّمَمَ ﴾، قال: القُبلة، والغَمزة، والنَّظرة، والمُباشرة، فإذا مَسَّ الخِتانُ الخِتانَ فقد وجبَ الغُسل، وهو الزِّنا[4].

وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ المُثنَّى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهدٍ أنه قال: في هذه الآية: ﴿ إلَّا اللَّمَمَ ﴾، قال: الذي يُلِمُّ بالذنب ثم يَدَعُه، قال الشاعر:

إنْ تَغْفِـرِ اللهُمَّ تَغْفِـر جَمّـا وأيُّ عَبْـدٍ لَـكَ مـا ألَمّـا!

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٠ من سورة النور، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٦٥.

(٣) في النسخ: لبانة. وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/٢٩٤: (عبد الرحمن بن نافع بن لبينة). والمثبت عن تفسير الطبري.

(٤) أخرجه الطبري ٢٧/٦٦.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا جَرير، عن منصور، عن مجاهد في قول الله: ﴿ إلا اللَّمم ﴾، قال: الرجلُ يُلِمّ بالذنب ثم يَنزِعُ عنه، قال: وكانَ أهلُ الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إنْ تَغْفِـر اللهم تَغْفِـرْ جَمَّـا وَأيّ عَبـد لَـكَ مـا ألَمّـا!

وقد رواه ابنُ جرير وغيره مرفوعاً[1].

قال ابن جرير: حدثني سُليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زَكَريًا بنُ إسحاقَ، عن عَمرو بن دينار، عن عطاءٍ، عن ابنِ عَبّاسٍ: ﴿ الذين يَجتَنِبُون كبائر الإثم والفواحشَ إلا اللَّمَمَ ﴾، قال: هو الرجلُ يُلِمُّ بالفاحشةِ ثم يَتوب، وقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

إنْ تَغْفِـر اللهُمَّ تَغْفِـرْ جَمَّـا وَأيُّ عَبْـدٍ لَـكَ مَـا ألَمّـا[2]!

وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن عثمان أبي عثمان البصري، عن أبي عاصم النبيل. ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق»[2]. وكذا قال البزار: لا نَعْلَمُه يُروَى مُتَّصلاً إلا من هذا الوجه. وساقه ابنُ أبي حاتم والبَغَوِيُّ من حديث أبي عاصم النبيلِ، وإنما ذكره البغوي في تفسير «سورة تنزيل»[2]، وفي صِحَّتِهِ مرفوعاً نَظَرٌ.

ثم قال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزيع، حدثنا يَزيدُ بن زُرَيع، حدثنا يونُس، عن الحَسَن، عن أبي هُرَيرَة ـ أُراه رَفَعه ـ: ﴿ الذين يَجتَنِبُون كبائرَ الإثم والفواحشَ إلا اللَّمَمَ ﴾، قال: اللَّمَّةُ من الزنا ثم يتوبُ ولا يعود، واللَّمَّة من السَّرِقة، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمَّة من شُرب الخمر، ثم يتوبُ ولا يعود، قال: فذلك الإلمام[3].

وحَدَّثنا ابن بشار، حدثنا ابنُ أبي عَديّ، عن عَوفٍ، عن الحسن، في قول الله: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾، قال: اللمَمُ من الزنا أو السرقَةِ أو شُربِ الخمر، ثم لا يعودُ.

وحدثني يعقوبُ، حدثنا ابنُ علية، عن أبي رَجاءٍ، عن الحسن في قول الله: ﴿ الذي يَجتَنِبُونَ كبائِرَ الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾، قال: كان أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولون: هو الرجلُ يُصِيب اللَّمَّة من الزنا، واللَّمَّة من شرب الخمر، فَيَجتَنِبُها، ويتوبُ منها.

وقال ابنُ جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ إلا اللَّمَمَ ﴾: يُلِمُّ بها في الحِين. قلتُ: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوبُ.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابنُ عُيَينة، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس قال: اللَّمَم: الذي يلم المَرّةَ.

وقال السُّديُّ: قال أبو صالح: سُئِلتُ عن اللَّمم فقلتُ: هو الرجل يُصِيب الذنبَ ثم يتوبُ. وأخبرتُ بذلك ابنَ عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَك كريم. حكاه البغوي[4].

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٦٥ ـ ٦٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/٦٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة النجم ١٢/١٧٣ ـ ١٧٤، وتفسير البغوي، تفسير سورة الزُمَر ٣/٨٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٧/٦٦ ـ ٦٧. وقد سقط من سنده: يزيد بن زُرَيع.
(٤) تفسير البَغوي ٤/٢٥٢.

وروَى ابن جرير من طريق المُثنَّى بن الصباح ـ وهو ضعيفٌ ـ عن عمرو بن شُعَيب: أن عبدَ الله بن عَمرو قال: اللَّمَم، ما دون الشِّرْك.(١).

وقال سفيان الثوريُّ، عن جابر الجُعْفي، عن عطاءٍ، عن ابن الزبير: ﴿ إلا اللمم ﴾، قال: ما بين الحدَّين: حد الدنيا وعذاب الآخرة(٢). وكذا رواه شعبةُ، عن الحكم، عن ابن عباس، مثلَه سواء.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إلا اللمَمَ ﴾: كلُّ شيءٍ بين الحدَّين: حَدِّ الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلواتُ، وهو اللَّمَم، وهو دونَ كلِّ مُوجِب، فأما حد الدنيا فكلُّ حد فرض الله عقوبتَه في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيءٍ ختَمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة(٣). وكذا قال عكرمة، وقتادةُ، والضحاك.

وقولُهُ: ﴿ إن ربك واسعُ المغفرةِ ﴾، أي: رحمتُه وَسِعَت كلَّ شيءٍ، ومغفرتُه تَسع الذنوبَ كلَّها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قل يا عِبَادِيَ الذين أسرفُوا على أنفسهم لا تقنَطُوا من رحمةِ الله إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾.

وقولُهُ: ﴿ هو أعلَمُ بكم إذ أنشأكُم من الأرضِ ﴾، أي: هو بَصِيرٌ بكم، عليمٌ بأحوالكم وأفعالِكُم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكُم آدمَ من الأرض، واستخرجَ ذُرِّيته من صُلبِه أمثالَ الذَّرِّ(٣)، ثم قَسَمهم فريقين: فريقاً للجنةِ وفريقاً للسعير. وكذا قوله: ﴿ وإذ أنتم أَجِنَّةٌ في بطون أمهاتكم ﴾: قد كَتَب الملك الذي يُوكَّلُ به رِزْقَه وأَجلَه وعَمَله، وشَقِيٌّ أم سَعِيدٌ.

قال مكحول: كُنَّا أَجِنَّةً في بطون أمهاتنا، فَسَقط منا مَن سقط، وكُنَّا فيمن بقي ثم كُنَّا مَرَاضِعَ فهلَكَ منا من هلك. وكُنَّا فيمن بقي ثم صِرنا يَفَعَةً، فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقي ثم صرنا شُبَّاناً فهلك منا من هلك. وكنا فِيمَن بقي ثم صِرنا شُيُوخاً ـ إلا أبا لك ـ فماذا بعد هذا ننتظر؟! رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقولُهُ: ﴿ فلا تُزَكُّوا أنفُسَكم ﴾، أي: تَمدحُوها وتَشكروها وتَمُنُّوا بأعمالكم، ﴿ هو أعلَمُ بمنِ اتَّقى ﴾. كما قال: ﴿ ألم تر إلى الذين يُزكُّون أنفُسَهم بل الله يُزَكِّي مَن يشاء ولا يُظلَمُون فَتِيلاً ﴾.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عَمرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليثُ، عن يَزيد بن أبي حَبيب، عن محمد بن عمرو بن عَطَاء قال: سَمَّيتُ ابنتي بَرَّةَ، فقالت لي زينبُ بنتُ أبي سَلَمة: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ نَهى عن هذا الاسمِ وسُمِّيتُ بَرَّةَ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تُزَكُّوا أنفسكم، إن الله أعلَمُ بأهل البِرِّ منكم». فقالوا: بِمَ نُسَمِّيها؟ قال: «سَمُّوها زَيْنَب»(٤).

وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا عَفَّان، حدثنا وُهَيب، حدثنا خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَة، عن أبيه قال: مَدَحَ رجلٌ رجلاً عند النبي ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وَيْلَكَ! قطعتَ عنقَ صاحبك ـ مِراراً ـ إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسِبُ فلاناً ـ والله حَسِيبُه، ولا أُزَكِّي على الله أحداً ـ أَحْسِبه كذا وكذا، إن كان يعلَمُ ذلك»(٥).

(١) تفسير الطبري ٢٧/٦٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/٦٨.
(٣) الذرّ: النملُ الصغار.
(٤) مسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٨٨.
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٤٥ ـ ٤٦، ورواية غندر في المسند ٥/٤١. وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٧٦، ومسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٩٦، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٥٤، وابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٣٢.

ثم رواه عن غُنْدَرٍ، عن شُعبَةَ، عن خالد الحذاء، به[١]: وكذا رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن هَمَّام بن الحارث قال: جاء رجلٌ إلى عثمانَ فأثنى عليه في وَجهه، قال: فَجعل المِقدادُ بن الأسود يحثو في وجهه الترابَ ويقول: أمَرنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا لَقِينا المدَّاحين أن نحثُوَ في وُجُوههم التراب[٢].

وَرَواهُ مسلِمٌ وأبو داوُدَ، من حديثِ الثَّورِيِّ، عن منصُورٍ، به[٢].

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾

يقولُ تعالى ذامًّا لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فلا صَدَّق ولا صَلَّى * ولكن كَذَّب وتَوَلَّى﴾[٣]. ﴿وأعطى قليلاً وأَكْدَى﴾، قال ابن عباس: أعطى قليلاً ثم قَطَعه[٤]. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيدٌ: كمثل القوم إذا كانوا يحفِرُون بئراً، فَيجِدُون في أثناء الحَفْر صَخْرَةً تمنعهم من تَمَامِ العمل، فيقولون: «أكْدَينا»، ويتركُون العمل.

وقولَهُ: ﴿أعنده علمُ الغيبِ فَهُو يَرَى﴾، أي: أعندَ هذا الذي قد أمسكَ يدَه خشية الإنفاق، وقَطَع معرُوفَه، أعندهُ علمُ الغَيب أنه سينفَد ما في يَدِه، حتى قد أمسَكَ عن معرُوفِه، فهو يَرَى ذلك عِياناً؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسَكَ عن الصَّدَقةِ والمعروفِ والبرِّ والصلةِ بُخلاً وشُحًّا وهَلَعاً، ولهذا جاء في الحديث: «أنْفِق بلالُ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[٥]، وقد قال الله تعالى: ﴿ وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلِفه وهو خيرُ الرازقين ﴾.

وقولُهُ: ﴿أم لم يُنَبَّأ بما في صُحُف موسى * وإبراهيم الذي وفى﴾، قال سعيد بن جبير، والثَّوري: أي بَلّغ جَمِيع ما أُمِرَ به.

وقال ابنُ عباس: ﴿ وَفَّى ﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ وَفَّى ﴾ ما أمر به. وقال قتادة: ﴿ وَفَّى ﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيارُ ابن جرير[٦]، وهو يشمَل الذي قبله، ويشهَدُ له قوله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن قال إني جاعِلُك للناس إماماً ﴾، فقام بجميع الأوامر، وترَكَ جميعَ النواهي، وبَلّغ الرسالةَ على التمام والكمال، فاستحقَّ بهذا أن يكونَ للناس إماماً يُقتَدَى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتَّبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٦، ومسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٧/٤، وأبو داود، كتاب الأدب ٢٥٤/٤.

(٣) الآيتان ٣١ ـ ٣٢ من سورة القيامة.

(٤) أخرجه الطبري ٧١/٢٧.

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة، والحديث أخرجه البزار بإسناده إلى أبي هُريرة، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الزهد ٢٥١/٤.

(٦) تفسير الطبري ٧٣/٢٧.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا آدمُ بن أبي إياس العَسْقَلاني، حدثنا حمّاد بن سلمة، حدثنا جعفرُ بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامَةَ قال: تلا رَسُول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾، أتدري ما وفى؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وَفَّى عَمَلَ يومِه بأربع رَكَعات من أول النهار».

ورواه ابنُ جرير من حديث جَعفر بن الزُّبير، وهو ضَعِيفٌ[1].

وقال الترمذيُّ في جامعه: حدثنا أبو جعفر السِّمناني[2] حدثنا أبو مُسهر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن مَعْدَان، عن جُبَير بن نُفَير، عن أبي الدرداء وأبي ذَرٍّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه قال: «ابنَ آدم، اركَعْ لي أربعَ رَكَعات من أول النهار أكفِكَ آخره»[3].

قال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبي، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا زَبَّان بن فائدٍ، عن سَهل بن مُعَاذ بن أنس، عن أبيه، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ألا أُخبِرُكم لِمَ سَمَّى الله إبراهيم خَليله الذي وَفَّى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿ فسبحان الله حين تُمسُون وحين تُصبِحُون ﴾. حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن رِشْدِين بن سعد، عن زَبَّان، به[4].

ثم شرع تعالى يُبَيِّن ما كان أوحاه في صُحُف إبراهيم وموسى فقال: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى ﴾، أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرُها، لا يَحمِلُه عنها أحد كما قال: ﴿ وإن تدعُ مُثقلة إلى حملها لا يُحمَلُ منه شيءٌ ولو كان ذا قربى ﴾، ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سَعَى ﴾ أي: كما لا يُحمَل عليه وِزرُ غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كَسَب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي ـ رحمه الله ـ ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداءُ ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عَمَلهم ولا كسبهم. ولهذا لم يندُب إليه رسول الله ـ ﷺ ـ أمته ولا حَثَّهم عليه، ولا أرشدَهم إليه بنصٍّ ولا إيماء، ولم يُنقَل ذلك عن أحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القُرُبات يُقتَصَر فيه على النصوص، ولا يُتَصرَّف فيه بأنواع الأقيسة والآراءِ، فأما الدعاءُ والصدقةُ فذاك مُجمَعٌ على وصولهما، ومَنصُوصٌ من الشارع عليهما. وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا مات الإنسانُ انقطعَ عمله إلا من ثلاث: من ولدٍ صالح يدعُو له، أو صَدَقةٍ جاريةٍ من بعده، أو عِلْمٍ ينتفع به»[5]ـ فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سَعْيِهِ وكدِّه وعمله، كما جاءَ في الحديث: «إنَّ أطيبَ ما أكَلَ الرجلُ من كَسْبه، وإنَّ ولدَه مِنْ كَسْبِهِ»[6]. والصدقةُ الجاريةُ كالوقف ونحوه هي من آثار عَمَله ووَقْفه، وقد قال تعالى: ﴿ إنا نحنُ نُحيي الموتى ونكتُب مَا قدَّموا وآثارهم ﴾. . . الآية. والعلم الذي نَشَره في الناس فاقتدى به الناسُ بعدَه هو أيضاً من

(١) تفسير الطبري ٢٧/٧٣.

(٢) في طبعات الترمذي: (حدثنا أبو جعفر السمناني، حدثنا محمد بن الحسين، أخبرنا أبو مُسْهِر). والصواب ما هنا. وقد أورد المزي سَنَدَ الحديث في تحفة الأشراف ٨/٢١٩ فقال: «عن أبي جعفر محمد بن أبي الحسين السمناني، عن أبي مسهر». فأبو جعفر هو محمد بن جعفر بن أبي الحسين. انظر ترجمته في التهذيب ٣/١١٨٣.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢/٢٥٩.

(٤) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة، ١٩ من سورة الروم. وهو في تفسير الطبري ٢٧/٧٣.

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة البقرة، ١٢ من سورة يسٓ، ٢١ من سورة الطور. وخرجناه هنالك.

(٦) أخرجه النسائي في كتاب البيوع ٧/٢٤٠ ـ ٢٤١، وابن ماجه في التجارات ٢/٧٢٣.

سَعيه وعمله، وثبتَ في الصَّحِيح: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثلُ أُجور مَن اتبعَه، من غير أن ينقصَ من أُجورِهم شيئاً»(١).

وقولُهُ: ﴿ وأَنَّ سَعْيَه سوفَ يُرَى ﴾، أي: يومَ القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وقُل اعمَلُوا فسيَرَى الله عَملكُم ورسولُه والمؤمنون وستُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة فيُنبِّئكم بما كنتم تعملون ﴾، أي: فيخبركم به، ويَجزيكم عليه أتَمَّ الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشرٌّ. وهكذا قال هاهنا: ﴿ ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى ﴾، أي: الأوْفَر.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وأنَّ إلى ربِّك المُنتهَى ﴾، أي: المَعَادُ يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن بن سَابط، عن عمرو بن ميمون الأَوْديِّ قال: قام فينا معاذُ بن جبل فقال: يا بني أَوْدٍ، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلَمُون أن المعادَ إلى الله، إلى الجنةِ أو إلى النارِ.

وذكر البغوي من رواية أبي جَعفرٍ الرازيِّ، عن الربيع بن أنسٍ، عن أبي العاليةِ، عن أُبيِّ بن كعبٍ، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿ وأَنَّ إلى ربكَ المنتهَى ﴾، قال: لا فِكْرَةَ في الرَّبِّ(٢).

قال البغوي: وهذا مِثلُ ما رُوي عن أبي هُرَيرة مرفوعاً: «تَفكَّرُوا في الخَلْقِ ولا تَفكَّرُوا في الخالق، فإنه لا تُحيطُ به الفكرة»(٢).

كذا أورده، وليس بمحفوظٍ بهذا اللفظ، وإنما الذي في الصَّحيح: «يأتي الشيطانُ أحدَكُم فيقول: مَن خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خَلَق رَبَّك؟ فإذا بلغ أحدُكم ذلكَ فلْيستعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ»(٣). وفي الحديثِ الآخرِ الذي في السُّنَن(٤): «تَفكَّرُوا في مخلوقاتِ الله، ولا تَفكَّروا في ذاتِ الله، فإنَّ الله خَلَق مَلَكاً ما بين شَحْمَةِ أُذُنه إلى عاتِقِه مَسِيرةُ ثلاثمائة سنة»(٤). أو كما قال.

وقولُهُ: ﴿وأنه هو أضحكَ وأبكى﴾، أي: خَلَق في عباده الضَّحِكَ والبُكَاء وسَبَبَهُمَا، وهما مختلفان، ﴿وأنه هو أماتَ وأحيا﴾، كقوله: ﴿الذي خَلَق الموتَ والحياةَ﴾، ﴿وأنه خَلَق الزوجَين الذكَر والأُنثى * من نُطفَةٍ إذا تُمنَى﴾، كقوله: ﴿أيحسَبُ الإنسان أن يُترَكَ سُدًى * ألم يك نُطفَةً من مَنِيٍّ يمنَى * ثم كان علقة فخَلَق فسَوَّى * فجعَلَ منه الزوجَين الذكَرَ والأُنثى * أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتَى﴾.

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية من سورة المائدة، ٢٥ من سورة النحل، ١٣ من سورة العنكبوت، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير البغوي ٢٥٥/٤.

(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣٣٦/٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١٢٠/١.

(٤) كلمة (السنن) مكانها بياض في نسخة الأزهر. والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر، وقال الهيثمي في الزوائد ٨٦/١: (وفيه الوازع بن نافع، وهو متروك).

وقولُهُ: ﴿ وأنَّ عليه النشأةَ الأخرى ﴾، أي: كما خلَقَ البَدْأَةَ هـو قادر على الإعادةِ، وهي النشأةُ الآخرةُ يومَ القيامة. ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾، أي: مَلَّك عبادَه المال، وجعله لهم قُنْيَةً مُقيماً عندهم، لا يحتاجُون إلى بَيعه، فهذا تمامُ النعمةِ عليهم. وعلى هذا يدورُ كلامُ كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابنُ جرير[1]، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿ أغنى ﴾: مَوَّل، ﴿ وأقنى ﴾: أخدم. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس، ومجاهد أيضاً: ﴿ أغنى ﴾: أعطى، ﴿ وأقنى ﴾: رَضَّى. وقيل: معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق. وقيلَ: ﴿ أغنى ﴾ مَن شاء مِن خَلْقِه و﴿ أقنى ﴾: أفقرَ مَن شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير. وهما بَعِيدان من حيث اللفظ.

وقولُهُ: ﴿ وأنه هو ربُّ الشِّعرَى ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابنُ زيد، وغيرهم: هو هذا النجمُ الوقَّاد الذي يقال له: «مِرْزَمُ الجَوْزاءِ»، كانت طائفة من العرب يعبدونه[2].

﴿ وأنه أهلَكَ عاداً الأُولى ﴾، وهم: قومُ هود. ويقال لهم: عادُ بنُ إرَم بن سام بن نُوح، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيفَ فَعلَ ربُّكَ بعادٍ * إرمَ ذاتِ العِمَادِ * التي لم يُخلَق مثلُها في البلادِ﴾، فكانوا من أشدِّ الناس وأقواهُم وأعتاهُم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية * سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوماً﴾.

وقولُهُ: ﴿ وثَمودَ فما أبقَى ﴾، أي: دَمَّرهم فلم يُبقِ منهم أحداً، ﴿ وقومَ نوحٍ من قبلُ ﴾، أي: من قبل هؤلاء، ﴿ إنهم كانوا هم أظلَم وأطغَى ﴾، أي: أشدَّ تمرُّداً من الذينَ من بعدِهم، ﴿ والمؤتفِكَةَ أهوَى ﴾، يعني مدائنَ لُوطٍ، قَلَبها عليهم فَجَعلَ عالِيَها سافِلَها، وأمطَر عليها حجارةً من سِجِّيلٍ مَنضُودٍ. ولهذا قال: ﴿ فَغَشَّاها ما غَشَّى ﴾، يعني من الحجارةِ التي أرسَلَها عليهم، ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطَرُ المُنذَرين ﴾.

قال قتادة: كان في مدائن لُوطٍ أربعةُ آلافِ ألفِ إنسانٍ، فانضرم عليهم الوادي شيئاً[3] من نار ونِفْطٍ وقَطِرانٍ كفم الأتُونِ. رواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عَطِيَّة، عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيدٍ، عنه، به. وهو غَريبٌ جِدًّا.

﴿ فبأي آلاء ربِّك تتمارى ﴾؟، أي: ففي أيِّ نِعَم الله عليك أيها الإنسان تَمْتَري؟ قاله قتادةُ. وقال ابن جُرَيجٍ: ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾؟ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جَرِير[4].

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ هذا نذيرٌ ﴾، يعني محمَّداً ـ ﷺ ـ ﴿ من النُّذُرِ الأولى ﴾، أي: من جِنسِهم، أُرسِل كما أُرسِلُوا، كما قال تعالى: ﴿ قل ما كنتُ بدعاً من الرُّسُلِ ﴾.

﴿ أزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾، أي: اقتربتِ القَرِيبةُ، وهي القيامةُ، ﴿ ليس لها من دون الله كاشِفَةٌ ﴾، أي: لا يدفَعُها إذاً من دُون الله أحدٌ، ولا يَطَّلِعُ على عِلمِها سواهُ.

(١) تفسير الطبري ٢٧/٧٥.
(٢) أخرجه الطبري ٢٧/٧٧.
(٣) في بعض النسخ: «فانصرم عليهم الوادي سبعاً».
(٤) تفسير الطبري ٢٧/٨٠.

والنذير هو: الحَذِرُ لما يُعَايِنُ من الشرِّ الذي يَخشَى وقوعَه فيمن أنذرَهُم، كما قال: ﴿إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ﴾. وفي الحديث: «أنا النذيرُ العُريان». أي: الذي أعجَلَه شِدَّةُ ما عاين من الشرِّ عن أن يَلْبَسَ عليه شيئاً، بل بادَرَ إلى إنذار قومِه قبلَ ذلك، فجاءهم عُرْيانَ مسرعاً، مُناسِبٌ لقوله: ﴿أزفت الآزفة﴾، أي: اقتربت القريبةُ، يعني يوم القيامة. كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿اقتربت الساعة﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا أنسُ بن عيَّاضٍ، حدثني أبو حازمٍ ـ لا أعلم إلا عن سَهْل بن سَعدٍ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إيَّاكم ومُحقَّرات الذنوب، فإنما مثل مُحَقَّرات الذُّنوبِ كمثل قَوْمٍ نَزَلُوا بطنَ وادٍ، فجاء ذا بعُودٍ وجاء ذا بعُودٍ، حتى أنضجُوا خُبزَتَهم، وإن مُحقَّرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبُها تُهلِكه».

وقال أبو حازم: قال رسول الله ـ ﷺ ـ قال أبو ضَمْرَةَ: لا أعلمُ إلا عن سَهْلِ بن سَعْدٍ ـ قال: «مَثَلي ومثلُ الساعةِ كهاتَيْن» ـ وفرَّق بين أُصبُعَيه الوُسطَى والتي تَلِي الإبهام ـ ثم قال: «مثلي ومثلُ الساعةِ كمثل فَرَسَيْ رِهَانٍ»، ثم قال: «مثلي ومثلُ الساعة كمثلِ رَجُلٍ بَعَثه قومُه طَلِيعةً، فلما خشي أن يُسبَقَ ألاحَ بثوبه: أُتِيتم أُتِيتم». ثم يقول رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أنا ذلك». وله شواهدُ من وُجُوهٍ أُخَرَ من صِحَاحٍ وحِسَانٍ.

ثم قال تعالى مُنكِراً على المشركين في استماعهم القرآنَ وإعراضِهم عنه وتلَهِّيهِمْ: ﴿تَعْجَبُون﴾ من أن يكون صَحِيحاً.

﴿وتضحَكُون﴾ منه استهزاءً وسُخريَّة، ﴿ولا تَبكُون﴾، أي: كما يفعلُ المُوقِنُون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيخرُّونَ للأذقانِ يَبكُون ويَزِيدُهم خُشُوعاً﴾.

وقولُهُ: ﴿وأنتم سَامِدون﴾، قال سُفيان الثوريُّ، عن أبيه، عن عكرمة عن ابن عباس قال: الغناء هي يَمَانِيَةٌ، اسمِدْ لنا: غَنِّ لنا. وكذا قال عِكْرِمَةُ.

وفي رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُون﴾: مُعرِضُون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسنُ: غافِلُون. وهو رواية عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ. وفي رواية عن ابن عباس: تَستكبِرُون. وبه يقولُ السُّديُّ. ثم قال آمراً لعباده بالسجودِ له والعبادة المتابعة لرسوله ـ ﷺ ـ والتوحيد والإخلاص.

﴿فاسجُدوا لله واعبدُوا﴾، أي: فاخضَعُوا له وأخلِصُوا وَوَحِّدُوا.

قال البُخاريُّ: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبدُ الوارث، حدثنا أيُّوبُ، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: سَجَد النبي ـ ﷺ ـ بالنَّجمِ، وسَجَد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ. انفرد به دون مسلم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إبراهيمُ بن خالد، حدثنا رَبَاح، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوسٍ، عن عكرمةَ بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبي وَدَاعة، عن أبيه قال: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمكة سورةَ النَّجْمِ، فسجد وسَجَد مَن عنده، فرفعتُ رأسي وأبيتُ أن أسجُدَ، ولم يكن أسلَم يومئذ المُطَّلب، فكان بعد ذلك لا يسمَعُ أحداً يقرأ بها إلا سَجَد معه[1].

وقد رواه النسائي في الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمدَ بن حَنْبَلٍ[1] به.

آخرُ سورةِ النجمِ، ولله الحمدُ والمنّةُ

(١) مسند الإمام أحمد ٦/٣٩٩ـ٤٠٠، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٦٠.

تفسير

سُورَةُ القَمَرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قد تَقدَّم في حديثِ أبي واقدٍ[1]: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ بقاف، واقتربتِ الساعةُ، في الأَضْحى والفِطْرِ. وكان يقرأ بهما في المحافلِ الكبارِ، لاشتمالهما على ذِكْرِ الوعدِ والوعيدِ وبَدْءِ الخَلْقِ، وإعادَتِهِ، والتوحيد وإثباتِ النبوَّاتِ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ ﴾

يُخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفَرَاغِ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿ أتى أمرُ الله فلا تستعجِلُوه ﴾، وقال: ﴿ اقترب للناس حسابُهم وهم في غفلة مُعرِضُون ﴾. وقد وردت الأحاديثُ بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزَّار:

حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي قالا: حدثنا خَلَفُ بن موسى، حَدَّثني أبي، عن قتادةَ، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَطَب أصحابَه ذاتَ يوم، وقد كادت الشمسُ أن تَغْرُبَ فلم يَبْقَ منها إلا شِفٌّ[2] يسير، فقال: «والذي نفسي بيده ما بَقِي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيراً».

قلتُ: هذا حديثٌ مدارُه على خَلَفِ بن مُوسَى بن خَلَف العَمِّيِّ، عن أبيه. وقد ذكره ابنُ حِبَّانَ في الثِّقات، وقال: رُبَّما أخطأ.

(١) تقدم الحديث في مفتتح سورة ﴿ ق ﴾.
(٢) في النسخ: سف، بالسين. والمثبت عن النهاية لابن الأثير، وشِفُّ النهار، وشُفَافته: بقيته، وكذلك الشُّفَى.

حديث آخر يُعضِّد الذي قبله ويُفسِّره، قال الإمام أحمد:

حدثنا الفضل بن دُكين، حدثنا شَريك، حدثنا سَلَمةُ بن كُهَيْل، عن مجاهد، عن ابن عُمَر قال: كنا جلوساً عند النبي ـ ﷺ ـ والشمسُ على قُعَيقِعانَ بعد العصرِ، فقال: «ما أعمارُكم في أعمارِ من مَضَى إلا كما بَقِي من النهار فيما مَضَى»(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حُسَين، حدثنا محمد بن مُطَرِّف، عن أبي حازم، عن سَهل بن سَعدٍ قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «بُعِثْتُ والساعةُ هكذا». وأشار بأصبُعَيه: السبابةِ والوُسطَى(٢).

أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينارٍ(٢).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن أبي خالد، عن وهب السُّوَائي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهَذِه من هذه إن كادت لَتَسْبِقُني. وجَمَع الأعمشُ بين السَّبابةِ والوُسطى»(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو المُغيرة، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني إسماعيلُ بن عُبَيدِ الله قال: قَدِم أَنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك، فسأله: ماذا سَمِعتَ من رسول الله ـ ﷺ ـ يذكُر به الساعة؟ فقال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «أنتم والساعةُ كهاتَين»(٤).

تَفرَّد به أحمد، رحمه الله.

وشاهدُ ذلك أيضاً في الصحيح في أسماءِ رسُول الله ـ ﷺ ـ: أنه الحاشرُ الذي يُحشَرُ الناس على قدميه(٥).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا بَهْزُ بن أَسَدٍ، حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، حدثنا حُمَيد بن هلال، عن خالد بن عُمَير قال: خَطَب عُتبَةُ بن غَزوان ـ قال بَهْزٌ: وقال قبل هذه المرة ـ خَطَبَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: فحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنَت بصَرْمٍ(٦)، وولَّت حَذَّاءَ، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصُبَابة الإناء يَتَصابُّها صاحبها، وإنَّكم منتقلون منها إلى دار لا زوالَ لها، فانتقلُوا بخير ما بحَضْرَتكم، فإنه قد ذُكِرَ لنا أن الحَجَر يُلقَى من شَفِير جهنَّم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يُدرِك لها قعراً، والله لَتَمْلَئُنَّه، أفعجبتم! والله لقد ذُكِرَ لنا أن ما بين مِصراعَي الجنةِ مسيرةُ أربعينَ عاماً، ولَيَأتِينَّ عليه يومٌ وهو كَظِيظٌ(٧) الزِّحام»(٨)... وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم(٨).

وقال أبو جعفر بنُ جَرير: حدثني يعقوبُ، حدثني ابن عُلَيَّة، أخبرنا عطاءُ بن السائب، عن أبي عبد

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/١١٥ ـ ١١٦. وقُعَيقِعان: جبل بمكة.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٨، وفتح الباري، كتاب الرِّقاق ١١/٣٤٧ ومسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٦٨. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف، ١٨ من سورة محمد.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٣٠٩.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٢٢٣.

(٥) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المناقب ٦/٥٥٥، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٢٨. وقد تقدم الحديث بتمامه عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٦) صَرْم: انقطاع. وحَذَّاء: مسرعة. والصُّبابة: بقية قليلة، يتصابُّها: يَشْرَبُها.

(٧) أي: ممتلىء.

(٨) مسند الإمام أحمد ٤/١٧٤. ومسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٧٨ ـ ٢٢٧٩.

الرحمن السُّلمي قال: «نزلنا المدائنَ فكُنّا منها على فرسخ، فجاءت الجمعةُ، فحضر أبي وحضرتُ معه، فخطبنا حُذَيفة فقال: ألا إنّ الله يقولُ: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾، ألا وإنَّ الساعةَ قد اقتربَتْ، ألا وإنّ القمَرَ قد انشقّ، ألا وإنَّ الدنيا قد آذنت بفِراقٍ، ألا وإنَّ اليوم المِضمارُ[١] وغداً السباقُ، فقلت لأبي: أيستبق الناسُ غداً؟ فقال: يا بُنَيَّ، إنك لجاهلٌ، إنما هو السباقُ بالأعمال. ثم جاءت الجمُعة الأخرى فحضَرنا فَخطب حُذَيفة فقال: ألا إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يقولُ: ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمرُ ﴾، ألا وإنّ الدُّنيا قد آذنت بفراقٍ، ألا وإنَّ اليومَ المضمارُ وغداً السباقُ، ألا وإنّ الغاية النارُ، والسابقُ مَن سَبَق إلى الجنّة»[٢].

وقولُهُ: ﴿ وانشقَّ القمَرُ ﴾: قد كان هذا في زمانِ رسُولِ الله ـ ﷺ ـ كما ثَبت ذلك في الأحاديثِ المتواترةِ بالأسانيدِ الصَّحيحَةِ. وقد ثبتَ في الصحيح عن ابنِ مسعُودٍ أنه قال: «خمسٌ قد مَضين: الرُّوم، والدُّخان، واللِّزام، والبَطْشَةُ، والقَمَرُ»[٣]. وهذا أمر مُتّفقٌ عليه بين العلماء أن انشقاقَ القمرِ قد وَقَع في زمان النبي ـ ﷺ ـ وأنّه كان إحدى المعجزاتِ الباهراتِ.

ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك

روايةُ أنَس بن مالكٍ:

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمَرٌ، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك قال: سأل أهلُ مكّةَ النبي ـ ﷺ ـ آيةً، فانشقَّ القمَرُ بمكة مرّتين، فقالَ: ﴿ اقتَربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾[٤].

وَرواه مسلمٌ، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزّاق[٤].

وقال البُخاريُّ: حدثني عبدُ الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشرُ بن المفضَّل، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، أنّ أهل مكّة سألُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ أن يُرِيَهم آية، فأراهم القَمَر شِقّين، حتى رَأوا حِراءَ بينهما[٥].

وأخرجاه أيضاً من حديث يونُس بن محمد المؤدِّب، عن شَيبان، عن قتادةَ[٥]. ورواه مسلم أيضاً، من حديث أبي داودَ الطيالسي، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به[٥].

روايةُ جُبَير بن مُطعِم رضي الله عنه:

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن كَثير، حدثنا سليمان بن كَثير، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جُبير بن مُطعَم، عن أبيه قال: سَحَرنا محمدٌ. فقالوا: إن كان سَحَرَنا فإنه لا يستطيعُ أن يسحَرَ الناسَ كُلّهم[٦].

تَفرَّدَ به الإمامُ أحمدُ من هذا الوجه، وأسنده البَيهقيُّ في «الدلائل» من طريق محمد بن كَثِير، عن أخيه سُلَيمان بن كثير، عن حُصَين بن عبد الرحمن، به. وهكذا رواه ابنُ جرير من حديث محمد بن فُضَيل وغيره،

(١) المِضمارُ: المكان تضمَّر فيه الخيل، وتضمير الخيل للسباق ونحوه: أن تُربَط وتُعلَف وتُسقى كثيراً مُدّةً، ثم تركض في الميدان حتى تخِفَّ وتدِقّ. وكانت مدة التضمير عند العرب أربعين يوماً.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٨٦.

(٣) تقدم الحديث وتخريجه عند تفسير الآية الثالثة من سورة الروم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/١٦٥، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٥٩.

(٥) فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/١٨٢، وتفسير سورة ﴿ اقتربت الساعةُ ﴾ ٨/٦١٧، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٥٩.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤/٨١ ـ ٨٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٦٨، وتفسير الطبري ٢٧/٨٦.

عن حُصَين. ورواه البَيهقيُّ أيضاً من طريق إبراهيم بن طَهْمان وهُشَيم، كلاهما عن حُصَين، عن جُبَير بن محمد بن جُبَير بن مُطعِم، عن أبيه، عن جَدِّه، فذكره[1].

رواية عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما:

قال البخاريُّ: حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عِرَاك بن مالكٍ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتْبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ[2].

ورواه البخاريُّ أيضاً ومسلمٌ، من حديث بَكْر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عِرَاكٍ، به مثله[2].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ * وإن يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمِرٌّ﴾، قال: قد مَضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشقَّ القمرُ حتى رأَوا شِقَّيْه[3].

وروى العَوْفي، عن ابن عباس، نحو هذا[3].

وقال الطبرانيُّ: حدثنا أحمد بن عمرو البَزَّار، حدثنا محمد بن يحيى القُطَعِي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جُرَيج، عن عَمرو بن دينار، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: كُسِفَ القمر على عهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: سُحِرَ القَمَرُ. فنزلت: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القَمَر ﴾ إلى قوله: ﴿ مُستَمِرٌّ ﴾[4].

رواية عبد الله بن عُمَر:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدَّثنا أبو العباس الأصمُّ، حدثنا العباس بن محمد الدُّوريُّ، حدثنا وَهْب بن جَرير، عن شُعْبَةَ، عن الأعمش، عن مجاهدٍ، عن عبد الله بن عُمَرَ في قوله تعالى: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمَرُ ﴾، قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ انشقَّ فِلقَتَين: فِلقَةٌ من دُونِ الجَبَلِ، وفِلقَةٌ من خَلْفِ الجَبَل، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «اللهُمَّ اشهَدْ»[5].

وهكذا رواه مسلم والترمذيُّ، من طُرُق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود[5]. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»[5].

روايةُ عبدالله بن مسعود:

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَر، عن ابن مسعُودٍ قال: انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ شِقَّين حتى نظَرُوا إليه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اشهدُوا»[6].

وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث سفيان بن عُيَينة، به. وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَة، عن ابن مسعود، به[6].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾، وكتاب المناقب ١٨٢/٧، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٥٩/٤.

(٣) تفسير الطبري ٨٦/٢٧ ـ ٨٧.

(٤) أخرجه في المعجم الكبير ٢٥٠/١١، وانظر مجمع الزوائد ٢٠٩/٢.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ٢٦٧/٢، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٥٨/٤ ـ ٢١٥٩، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة القمر ١٧٦/١٢.

(٦) مسند الإمام أحمد ٣٧٧/١، وفتح الباري، تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ٦١٧/٨، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٥٨/٤.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: حَدَّثني عيسى بنُ عثمانَ بن عيسى الرَّمْلي، حدثنا عَمِّي يحيى بن عيسى، عن الأعمشِ، عن إبراهيم، عن رَجُلٍ، عن عبد الله قال: كُنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ بمنًى، فانشق القمر، فأخذَت فرقة خَلْفَ الجَبَل، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اشهدُوا، اشهَدُوا»[١].

قال البخاريُّ: وقال أبو الضحى، عن مسروق، عن عبد الله: بمكّةَ[١].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن المُغيرة، عن أبي الضّحى، عن مسرُوقٍ، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: «انشقَّ القمرُ على عَهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت قُريشٌ: هذا سِحْرُ ابن أبي كَبْشَةَ. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإنَّ محمداً لا يستطيعُ أن يسحَرَ الناس كُلَّهم. قال: فجاء السُّفَّار فقالوا ذلك»[٢].

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس مُحمَّد بنِ يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدُّوري، حدثنا سعيد بن سُلَيمان، حدثنا هُشَيمٌ، حدثنا مُغيرة، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله قال: «انشقَّ القمر بمكّة حتّى صار فِرْقَتين، فقال كُفّار قريش أهلِ مكّةَ: هذا سِحْرٌ سَحَرَكم به ابنُ أبي كَبْشَةَ، انظروا السُّفَّار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يَرَوا مثل ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحركم به. قال: فَسُئِلَ السُّفَّار، قال: وقَدِمُوا من كل وجهٍ، فقالوا: رأيناه»[٣].

وَرَواه ابنُ جَرِير من حديث المغيرة، به وزاد: فأنزلَ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ ﴾[٣]. ثم قال ابن جرير:

حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا أيوب، عن محمد ـ هو ابن سِيرينَ ـ قال: نُبِّئت أن ابنَ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ كان يقولُ: لقد انشق القمر[٤].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني مُحمَّد بن عُمَارة، حدثنا عَمرو بن حَمَّاد، حدثنا أَسباطٌ، عن سِمَاكٍ، عن إبراهيمَ، عن الأسود، عن عبد الله قال: لقد رأيت الجبل من فَرْجِ القَمَرِ حين انشقَّ[٤].

ورواه الأمامُ أحمدُ عن مُؤَمَّل، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ حتى رأيت الجبَلَ من بين فُرجَتَي القمَرَ[٥].

وقال ليث، عن مُجاهد: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فصار فِرْقَتَين، فقال النبي ـ ﷺ ـ لأبي بكر: «اشهَدْ يا أبا بكر». فقال المشركون: سَحَرَ القمرَ حتى انشقَّ[٦].

وقولُهُ: ﴿ وَإِن يَرَوا آيَةً ﴾، أي: دليلاً وحجّةً وبُرهاناً ﴿ يُعرِضُوا ﴾، أي: لا يَنقادُون له، بل يُعرِضُون عنه ويتركونه وَرَاء ظهورهم، ﴿ ويقولوا سِحرٌ مُستَمِرٌّ ﴾، أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحُجَج سِحْرٌ سَحَرنا به.

ومعنى ﴿ مُستمِرٌّ ﴾، أي: ذاهبٌ. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أي: باطلٌ مُضمَحِلٌ، لا دَوَامَ له.

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/٨٥. وفتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/١٨٢.
(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٣٨.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٦٦ ـ ٢٦٧، وتفسير الطبري ٢٧/٨٥.
(٤) تفسير الطبري ٢٧/٨٦، وروايته عن محمد بن عمارة في التفسير ٢٧/٨٥.
(٥) مسند الإمام أحمد ١/٤١٣.
(٦) أخرجه الطبري ٢٧/٨٧.

﴿ وكَذَّبوا واتبعوا أهواءَهم ﴾، أي: كذبوا بالحقِّ إذ جاءهم، واتبعُوا ما أمرتهم به آراؤُهم وأهواؤُهم من جَهلِهم وسَخافة عقلهم.

وقولُهُ: ﴿ وكلُّ أمرٍ مُستقِر ﴾، قال قتادة: معناه أن الخيرَ واقعٌ بأهلِ الخير، والشرُّ واقعٌ بأهلِ الشرِّ. وقال ابن جُرَيج: مُستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿ وكل أمر مستقِرٌ ﴾، أي: يوم القيامة. وقال السُّديُّ: ﴿ مستقر ﴾، أي: واقع.

وقولُهُ: ﴿ ولقد جاءهم من الأنباءِ ﴾، أي: من الأخبار عن قِصَص الأمم المكذبين بالرسل، وما حَلَّ بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يُتلى عليهم في هذا القرآن، ﴿ ما فيه مُزْدَجر ﴾، أي: ما فيه واعظٌ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.

وقولُهُ: ﴿ حكمةٌ بالغةٌ ﴾، أي: في هدايته تعالى لمن هَدَاه وإضلالِه لِمَن أضلَّه، ﴿ فما تُغني النُّذُر ﴾، يعني: أيُّ شيءٍ تغني النُّذُر عمَّن كَتَبَ الله عليه الشقاوةَ، وخَتَم على قلبه؟ فمن الذي يَهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قل فلله الحجَّةُ البالغة فلو شاء لهداكُم أجمعين ﴾. وكذا قوله تعالى: ﴿ وما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: فتولَّ يا محمدُ عن هؤلاء الذين إذا رَأَوا آيةً يُعرِضُون ويقولون: هذا سحرٌ مُستَمِرٌّ، أعرِض عنهم وانتظِر لهم ﴿ يوم يدعُ الداع إلى شيءٍ نُكُر ﴾، أي: إلى شيءٍ مُنكرٍ فَظيع، وهو موقفُ الحساب، وما فيه من البلاءِ، بل والزلازلِ والأهوال، ﴿ خُشَّعاً أبصارُهم ﴾، أي: ذَليلةً أبصارُهم، ﴿ يَخرجُون من الأجداث ﴾، وهي القبورُ، ﴿كأنهم جَرادٌ منتشر﴾، أي: كأنهم في انتشارهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى موقف الحساب إجابةً للداعي ﴿جرادٌ مُنتَشِرٌ﴾ في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مُهطِعين﴾، أي: مُسرعين ﴿إلى الداع﴾، لا يُخالِفُون ولا يَتأخَّرون، ﴿يقولُ الكافرون هذا يوم عَسِرٌ﴾، أي: يوم شديدُ الهولِ عبوسٌ قَمطرِيرٌ، ﴿فذلك يومَئِذٍ يومٌ عَسِيرٌ * على الكافرين غيرُ يَسيرٍ﴾.

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ كَذَّبت ﴾ قبلَ قومِك يا محمدُ ﴿ قومُ نوحٍ فكذَّبوا عبدَنا ﴾، أي: صَرَّحُوا له بالتكذيب واتهمُوه بالجنون، ﴿ وقالوا مجنونٌ وازدُجِرَ ﴾، قال مجاهد: ﴿ وازدُجِر ﴾، أي: استُطِير جُنوناً. وقيل: ﴿ وازدُجِر ﴾، أي: انتهرُوه وزَجرُوه وأوعدُوه: ﴿ لئن لم تنته يا نوحُ لتكونَنَّ من المرجُومين ﴾. قاله ابنُ زيد، وهذا مُتوجِّه حَسَن. ﴿ فدعا ربه أني مغلوبٌ فانتصِرْ ﴾، أي: إني ضعيفٌ عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿ فانتصِر ﴾ أنت لدِينِك. قال الله تعالى: ﴿ ففتحنا أبوابَ السماء بماء مُنهمِر ﴾، قال السُّديُّ: هو الكثير، ﴿ وفجرنا الأرض

عيوناً ﴾، أي: نَبَعت جَميعُ أرجاءِ الأرض حتى التنانيرِ التي هي مَحالُّ النيران نَبعت عُيوناً. ﴿ فالتقى الماء ﴾، أي: من السماء ومن الأرض ﴿ على أمرٍ قد قُدِر ﴾، أي: أمرٍ مُقدَّر.

قال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: ﴿ ففتحنا أبوابَ السماءِ بماءٍ مُنهمِرٍ ﴾ كثيرٍ، لم تُمطِر السماءُ قبل ذلك اليوم ولا بعدَه، إلا من السحاب؛ فُتِحت أبوابُ السماء بالماء من غير سَحابٍ ذلك اليومَ، فالتقى الماءان على أمرٍ قد قُدِر[1].

وروى ابنُ أبي حاتم أن ابن الكوَّاء سأل عليًّا عن المَجرَّةِ فقال: هي شَرْجُ السَّماءِ، ومنها فُتِحت السماءُ بماءٍ مُنهَمِرٍ[2].

﴿ وحملناه على ذات ألواح ودُسُر ﴾، قال ابنُ عباس، وسعيدُ بن جُبَير، والقُرَظي، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: هي المسامير. واختارَه ابنُ جرير، قال: وواحِدُها دِسار، ويقال: دَسِير كما يقال: حَبِيكٌ وحِبَاك، والجمعُ حُبُك[3].

وقال مجاهد: الدُّسر: أضلاعُ السفينة. وقال عكرمة والحسنُ: هو صدرُها الذي يُضرَبُ به الموجُ. وقال الضحاك: الدُّسُر: طرفاها وأصلُها. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها[4].

وقولُهُ: ﴿ تجري بأعيُننا ﴾، أي: بأمرنا بمرأًى منا وتحت حِفظنا وكَلاءتنا، ﴿ جزاءً لمن كان كُفِر ﴾، أي: جزاءً لهم على كُفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام.

وقولُهُ: ﴿ ولقد تركناها آية ﴾، قال قتادةُ: أبقى الله سفينةَ نُوحٍ حتى أدركها أوَّل هذه الأمة. والظاهرُ أن المراد من ذلك جنسُ السفن، كقوله تعالى: ﴿وآيةٌ لهم أنا حَمَلنا ذريتهم في الفلك المشحُون * وخَلَقنا لهم من مثله ما يركبون﴾. وقال: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكُم في الجارية * لنجعَلَها لكم تذكرةً وتَعِيَها أذنٌ واعيةٌ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿فهل من مُدَّكر﴾، أي: فهل من يَتَذكَّر ويتَّعظ؟

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجَّاج، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاق، عن الأسودِ، عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله - ﷺ -: ﴿ فهل من مُذَّكر ﴾. [فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأني رسول الله - ﷺ - مدَّكر ﴾][5].

وهكذا رَوَاه البخاريُّ: حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبي - ﷺ -: ﴿ فهل من مُذَّكر ﴾. فقال النبي - ﷺ -: ﴿ فَهل من مُدَّكِرٍ ﴾[5].

وروى البخاريُّ أيضاً من حديث شُعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله - ﷺ - يقرأ: ﴿ فَهل من مُدَّكِرٍ ﴾[5]؟

وقال: حدثنا أبو نُعيم، حدثنا زُهَير، عن أبي إسحاقَ: أنه سَمِع رَجُلاً يسأل الأسودَ: ﴿ فهل من مُدَّكر ﴾،

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦٧٥/٧.

(٢) الدر المنثور ٦٧٥/٧ عن ابن أبي حاتم، والبخاري في الأدب. وفي اللسان أن الشَّرج هو باب السماء، كهيئة القبَّة.

(٣) تفسير الطبري ٩٣/٢٧.

(٤) الكَلْكَلُ: الصدر من كلِّ شيء.

(٥) مسند الإمام أحمد ٣٩٥/١، وما بين القوسين عنه، وفتح الباري، تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ٦١٧/٨ - ٦١٨.

أو: ﴿ مُدَّكر ﴾؟ قال: سَمعت عبدَ الله يقرأ: ﴿ فهل من مُدَّكرٍ ﴾. وقال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤُها: ﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ دالاً[1].

وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبي إسحاق[1].

وقولُهُ: ﴿ فكيفَ كان عذابي ونُذُرِ ﴾، أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكَذَّب رُسُلي ولم يتَّعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرتُ لهم، وأخذت لهم بالثأر؟

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾، أي: سَهَّلنا لفظَه، ويسَّرنا معناه لمن أراده، ليتذكَّر الناسُ. كما قال: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مُبارَكٌ ليَدَّبروا آياته وليتذكَّر أولوا الألباب ﴾. وقال تعالى: ﴿ فإنما يَسَّرناه بلسانك لتُبشِّر به المتَّقين وتُنذِر به قوماً لُدًّا ﴾. قال مجاهد: ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآن للذكر ﴾، يعني: هَوَّنا قراءته. وقال السُّديُّ: يَسَّرنا تِلاوتَه على الألسُن. وقال الضحَّاك، عن ابنِ عبَّاسٍ: لولا أن الله يَسَّره على لسانِ الآدميين ما استطاع أحدٌ من الخلق أن يتكلم بكلام الله عزَّ وجَلَّ.

قلتُ: ومن تيسيره ـ تعالى ـ على الناس تلاوةَ القرآن ما تقدَّم عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن هذا القرآن أُنزلَ على سبعةِ أحرُفٍ»[2]. وأوردنا الحديث بطُرُقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنَّة.

وقولُهُ: ﴿ فَهَل من مُدَّكر ﴾، أي فَهَل من مُتَذكِّر بهذا القرآنِ الذي قد يَسَّر الله حِفظَه ومعناهُ؟.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: فهل من مُنزَجِرٍ عن المعاصي؟

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضَمرَة، عن ابن شوذب، عن مَطَرٍ ـ هو الورّاق ـ في قوله تعالى: ﴿ فهل من مُدَّكر ﴾: هل من طالب علمٍ فيُعان عليه؟

وكذا عَلَّقه البخاري بصيغة الجزم، عن مَطَر الورَّاق. ورواه ابنُ جرير، وروَى عن قتادة مثله[3].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عادٍ قوم هُودٍ أنهم كَذَّبوا رَسُولهم أيضاً، كما صَنَع قومُ نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿ عليهم ريحاً صرصراً ﴾، وهي الباردةُ الشديدةُ البرد، ﴿ في يوم نحسٍ ﴾، أي: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسُّديُّ، ﴿ مُستَمرٌ ﴾ عليهم نحسُه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي.

وقولُهُ: ﴿ تنزع الناسَ كأنهم أعجازُ نخل مُنقَعِر ﴾، وذلك أن الريحَ كانت تأتي أحدَهم فترفعه حتى تُغيِّبه عن الأبصار، ثم تَنكُسه على أُمِّ رأسه، فيَسقُطَ إلى الأرض، فتَثلغ[4] رأسَه فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعر * فكيف كان عذابي ونُذُرِ * ولقد يَسَّرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر﴾.

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ٦١٨/٨. وأخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ٥٦٥/١، وأبو داود في كتاب الحروف من سُننه ٣٥/٤، والترمذي في أبواب القراءات ٥٨/١١، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه كما في تحفة الأشراف للمزّي ١٢/٧.

(٢) تقدّم الحديث وتخريجُه في كتاب فضائل القرآن، أول التفسير.

(٣) تفسير الطبري ٩٧/٢٧.

(٤) أي: تُشدَخ.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

وهذا إخبارٌ عن ثمودَ أنهم كَذَّبوا رَسُولَهم صالحاً، ﴿ أبشراً منّا واحداً نَتّبِعُه إنا إذاً لَفِي ضَلالٍ وسُعُر ﴾، يقولون: لقد خِبنا وخَسِرنا إن سَلَّمنا كُلّنا قيادَنا لواحدٍ منا! ثم تَعَجَّبُوا من إلقاءِ الوحي عليه خاصّةً من دونهم، ثم رَمَوه بالكَذِب فقالوا: ﴿ بل هو كَذَّابٌ أشِرٌ ﴾، أي: مُتجاوزٌ في حَدِّ الكَذِب. قال الله تعالى: ﴿ سَيعلَمُون غداً مَنِ الكَذَّابُ الأشِرُ ﴾. وهذا تهديدٌ لهم شديد، ووَعِيدٌ أكيدٌ.

ثم قال تعالى: ﴿ إنا مُرسِلُو الناقةِ فتنةً لهم ﴾، أي: اختباراً لهم، أخرَجَ الله لهم ناقةً عظيمةً عُشَرَاء من صَخرَةٍ صَمّاءَ طِبْقَ ما سألوا، لتكونَ حُجَّةُ الله عليهم في تصديقِ صالح - عليه السلام - فيما جاءَهُم به.

ثم قال آمراً لعبدِه ورسُولِه صالح: ﴿ فارتَقِبهُم واصطَبِر ﴾، أي: انتظِر ما يَئُول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصرَ لك في الدنيا والآخرة. ﴿ونبِّئهم أن الماءَ قِسمَةٌ بينهم﴾، أي: يومٌ لهم ويومٌ للناقة. كقوله: ﴿ قال هذه ناقةٌ لها شِربٌ ولكم شِربُ يومٍ معلُومٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ كلُّ شِربٍ محتضَرٌ ﴾، قال مجاهد: إذا غابت حَضَروا الماء، وإذا جاءت حَضَرُوا اللبن[1].

ثم قال تعالى: ﴿ فَنادَوا صاحِبَهُم فتعاطَى فَعَقَر ﴾، قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمُه قُدار بنُ سالِفٍ، وكان أشقى قومه. لقوله: ﴿إذ انبعث أشقاهَا﴾. ﴿فتعاطى﴾، أي: فَجَسَر ﴿فعقر * فكيف كان عذابي ونُذُرِ ﴾؟ أي: فعاقبتُهم فكيف كان عذابي على كُفرهم بي وتكذيبهم رسولي؟ ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة فكانوا كهشِيم المُحتَظِر ﴾، أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمَد يَبِيسُ الزرع والنباتِ. قاله غير واحد من المفسِّرين. والمحتظِر - قال السُّديُّ -: هو المَرْعَى بالصحراء حين يَيْبَسُ ويحترق وتَسْفيه الرِّيح.

وقال ابنُ زيدٍ: كانت العربُ يجعلُون حِظاراً على الإبل والمواشِي من يَبِيس الشَّوكِ، فهو المرادُ من قوله: ﴿ كهَشِيم المُحتَظِر ﴾.

وقال سَعِيد بنُ جُبَير: ﴿ هَشِيم المُحتَظِر ﴾: هو الترابُ المتناثِرُ من الحائِطِ. وهذا قولٌ غريبٌ، والأوّلُ أقوى. والله أعلم.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قوم لُوطٍ كيف كذّبوا رسُولَهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيانِ الذُّكور، وهي

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧/١٠٢.

الفاحشةُ التي لم يَسبقهم بها أحد من العالمين. ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريلَ ـ عليه السلام ـ فَحمل مَدائنهم حتى وصلَ بها إلى عَنان السماء، ثم قَلَبها عليهم وأرسلَها، واتبعت بحجارةٍ من سِجِّيل منضودٍ، ولهذا قال هاهنا: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾، وهي: الحجارة، ﴿إلا آل لوطٍ نجيناهم بسَحَرٍ﴾، أي: خرجُوا من آخر الليل فَنجوا مما أصابَ قومَهم، ولم يُؤمِن بلوطٍ من قومه أحدٌ ولا رجلٌ واحد، حتى ولا امرأتُه، أصابَها ما أصابَ قومها. وخرج نبيُّ الله لوطٌ وبناتٌ له من بين أظهرهم سالماً لم يمسَسْه سوءٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك نُجزي من شَكَرَ * ولقد أنذرَهُم بطشتنا﴾، أي: ولقد كان قبلَ حُلولِ العذابِ بهم قد أنذرَهُم بأسَ الله وعذابَه، فما التفتُوا إلى ذلك، ولا أصغَوا إليه، بل شكُّوا فيه وتماروا به، ﴿ولقد راودُوه عن ضَيفِه﴾، وذلك ليلة وَرَد عليه الملائكةُ: جبريلُ، وميكائيلُ، وإسرافيلُ في صورة شَبابٍ مُردٍ حِسانٍ مِحنةً من الله بهم، فأضافَهُم لوطٌ ـ عليه السلام ـ وبعثَتِ امرأتُه العجوزُ السُّوءُ إلى قومها، فأعلمتْهُم بأضياف لوط، فأقبلُوا يُهرَعُون إليه من كلِّ مكان، فأغلقَ لوطٌ دونَهم البابَ، فجعلوا يُحاولُون كسرَ البابِ، وذلك عَشِيَّةً، ولوطٌ ـ عليه السلام ـ يُدافِعُهم ويُمانِعُهم دونَ أضيافِهِ، ويقول لهم: ﴿هؤلاءِ بَناتي﴾ يعني نساءَهُم، ﴿إن كنتم فاعلين * قالوا لقد عَلِمْتَ ما لنا في بَنَاتِكَ من حَقٍّ﴾، أي: ليس لنا فيهن أرَبٌ، ﴿وإنَّكَ لتعلَمُ ما نُريدُ﴾. فلما اشتدَّ الحالُ وأبَوا إلا الدُّخول، خرج عليهم جبريلُ ـ عليه السلام ـ فَضرَبَ أعيُنَهم بطَرَفِ جَناحه، فانطمست أعيُنُهم. يقال: إنها غارت من وجوهِهم. وقيل: إنه لم تبقَ لهم عيونٌ بالكُلِّيَّة، فرجَعُوا على أدبارِهم يتحسَّسُون بالحيطانِ، ويَتوعَّدُون لوطاً ـ عليه السلام ـ إلى الصباح.

قال الله تعالى: ﴿ولقد صَبَّحهم بُكرةً عذابٌ مُستقِرٌّ﴾، أي: لا محيدَ لهم عنه، ولا انفكاكَ لهم منه، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ * ولقد يَسَّرنا القرآنَ لِلذِّكرِ فهل من مُدَّكِرٍ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبراً عن فِرعَونَ وقومِهِ أنهم جاءهم رسولُ الله موسَى وأخوه هارون بالبِشارة إن آمنوا، والنِّذارة إن كَفَرُوا، وأيَّدهما بمعجزاتٍ عظيمةٍ وآياتٍ متعدِّدةٍ، فَكَذَّبوا بها كُلِّها، فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مُقتدرٍ، أي: فَأَبادهم ولَمْ يُبقِ منهم مُخبراً ولا عَيناً ولا أثراً.

ثم قال: ﴿أكفارُكم﴾، أي: أيُّها المشركون من كُفَّار قريش ﴿خيرٌ من أولئكم﴾، يعني من الذين تَقَدَّم ذكرُهم ممن أُهلِكُوا بسبب تكذيبهم الرُّسل، وكُفرهم بالكتب: أأنتم خيرٌ أم أولئك؟ ﴿أم لكم براءةٌ في الزُّبُرِ﴾، أي: أم معكُم من الله براءة ألَّا ينالَكُم عذابٌ ولا نَكال؟!

ثم قال مُخبراً عنهم: ﴿أم يقُولون نحنُ جميعٌ منتصِرٌ﴾، أي: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً، وأنَّ جَمْعَهم يُغني عنهم مَن أرادَهم بسوءٍ، قال الله تعالى: ﴿سيُهزَم الجمعُ ويُولُّون الدُّبُر﴾، أي: سيتفرَّقُ شَملُهم ويُغلَبُون.

قال البخاريُّ: حدثنا إسحاقُ، حدثنا خالدٌ، عن خالدٍ ـ وقال أيضاً: حدثنا محمد، حدثنا عفّان بن مسلم، عن وُهَيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي ـ ﷺ ـ قال: وهو في قُبَّةٍ له يوم بدرٍ: «أَنشُدك عهدكَ ووعدَك، اللهُمَّ إن شئتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليوم أبداً». فأخذ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بيده وقال: حسْبُك يا

رسول الله! أَلْحَحْتَ على رَبِّك. فخرج وهو يَثِبُ في الدِّرْعِ، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بل الساعةُ موعِدُهم والساعةُ أَدْهَى وأَمَرُّ﴾[1].

وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع، من حديث خالد ـ وهو ابنُ مهران الحذاء ـ به[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حَدَّثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حمَّاد، عن أيُّوبَ، عن عِكْرِمَةَ قال: لما نَزَلَتْ: ﴿ سَيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّون الدُّبُرَ ﴾، قال عمر: أيّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟ أي جَمْعٍ يُغلَبُ؟ قال عمر: فلما كان يومُ بدرٍ رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يَثِبُ في الدِّرْعِ، وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّون الدُّبُرَ ﴾. فَعَرفتُ تأويلَها يومئذ.

وقال البُخَارِيُّ: حدثنا إبراهيمُ بن موسى، حدثنا هشامُ بن يُوسُفَ: أن ابن جُرَيج أخبرهم: أخبرني يوسفُ بن ماهَكَ قال: إني عند عائشةَ أم المؤمنين، قالت: نَزَل على محمد ـ ﷺ ـ بمكَّةَ وإني لجارية أَلْعَبُ: ﴿ بل الساعةُ موعدُهم والساعةُ أدهى وأَمَرُّ ﴾[2].

هكذا رواه هاهنا مُختصراً. وَرواه في فضائل القرآن مُطوَّلاً[2]، ولم يُخرجه مسلم.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

يُخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضَلَالٍ عن الحق، وسُعُرٍ مما هُم فيه من الشُّكُوكِ والاضطرابِ في الآراء، وهذا يَشْمَلُ كُلَّ مَن اتَّصف بذلك من كافر ومُبتَدِعٍ من سائر الفرق.

ثم قال: ﴿ يوم يُسحَبُون في النار على وُجُوههم ﴾، أي: كما كانوا في سُعُر وشَكٍّ وتَرَدُّدٍ أورثَهُم ذلك النارَ، وكما كانوا ضُلَّالاً سُحِبُوا فيها على وجوههم، لا يَدرُون أين يَذْهَبُون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إنا كُلَّ شيءٍ خلقناهُ بقَدَرٍ ﴾، كقوله: ﴿ وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ فَقَدَّره تقديراً ﴾. وكقوله: ﴿ سَبِّح اسمَ رَبِّكَ الأعلى * الذي خَلَق فَسَوَّى * والذي قَدَّرَ فَهَدى﴾، أي: قَدَّر قَدَراً، وهدى الخلائق إليه. ولهذا يَستَدِلُّ بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنةِ على إثبات قَدَرِ الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبلَ كونها وكتابَتِه لها قبل بَرْئها، وَرَدُّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما وَرَد في معناها من الأحاديث الثابتاتِ على الفِرْقَة القَدَرية الذين نَبَغُوا[3] في أواخر عصر الصحابة. وقد تَكَلَّمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث في شَرْحِ (كتاب الإيمان) من (صحيح البُخاري) ـ رحمه الله ـ وَلْنذكر هاهنا الأحاديثَ المتعلِّقَةَ بهذه الآية الكريمة:

(١) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعةُ ﴾ ٦١٩/٨، وكتاب الجهاد ٩٩/٦، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُنَنِه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ١٢٧/٥.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ٦١٩/٨، وكتاب فضائل القرآن ٣٩/٩.
(٣) أي: ظهروا.

قال أحمدُ: حدثنا وَكيعٌ، حدثنا سُفيانُ الثّوري، عن زياد بن إسماعيل السّهمي، عن محمد بن عَبّاد بن جعفر، عن أبي هُرَيرة قال: جاء مشركو قُرَيش إلى النبي ـ ﷺ ـ يُخاصِمُونَه في القَدَر، فنزلت: ﴿يومَ يُسحَبُونَ في النار على وُجُوهِهم ذوقوا مَسَّ سَقَرَ * إنا كُلَّ شيءٍ خَلَقناه بقَدَرٍ﴾[1].

وهكذا رواه مُسلِمٌ والتِّرمذِيُّ وابنُ ماجَه، من حديث وكيع، عن سفيان الثوري، به[1].

وقال البَزّار: حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا الضحّاك بن مخلد، حدثنا يونس بن الحارث، عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدّه قال: «ما نَزَلت هذه الآية: ﴿إن المجرمين في ضلال وسُعُر * يوم يُسحَبُون في النارِ على وجُوهِهم ذوقوا مَسَّ سَقَرَ * إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَرٍ﴾، إلا في أهل القَدَر»[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَهل بن صالح الأنطاكي، حدثني قُرّةُ بن حَبيب، عن كِنانَة، حدثنا جَرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جَعدَةَ، عن ابن زُرَارة، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إنا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَرٍ﴾، قال: «نـزلت في أُناسٍ من أُمّتي يكونُون في آخِرِ الزمانِ، يُكَذِّبُون بقَدَرِ الله».

وحدثنا الحسَنَ بن عرفة، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجَزَري، عن عبد الملك بن جُرَيج، عن عطاء بن أبي رَباح قال: أتيتُ ابن عباس وهو يَنْزِع[3] من زَمْزَمَ، وقد ابتلّت أسافلُ ثيابه، فقلت له: قد تُكُلِّم في القَدَرِ. فقال: أوَ فَعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآيةُ إلّا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَر * إنا كلَّ شيءٍ خَلقناه بقَدَرٍ﴾، أولئك شِرارُ هذه الأمّةِ، فلا تعودُوا مَرْضَاهم، ولا تُصلُّوا على مَوْتاهم، إنْ رأيتَ أحداً منهم فَقَأتُ عينيه بإصبعَيَّ هاتَين.

وقد رواه الإمامُ أحمدَ من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، عن بعض إخوَته، عن محمد بن عُبَيد المكي، عن عبد الله بن عباس قال: قيل له: إنّ رَجُلاً قَدِم علينا يُكَذِّب بالقَدَرِ. فقال: دُلّوني عليه ـ وهو أعمى ـ قالوا: وما تصنَعُ به يا أبا عباس قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعَضّنّ أنفه حتى أقطعَه، ولئن وقعت رقبتُه في يدي لأدُقّنّها، فإني سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «كأني بنساء بني فِهرٍ يَطُفْنَ بالخزرج، تَصطَفِقُ أَلياتُهنّ مُشركات، هذا أول شرك هذه الأمة، والذي نفسي بيده لينتهِيَنّ بهم سوءُ رأيهم حتى يُخرِجُوا الله من أن يكون قَدَّر خيراً، كما أخرجوه من أن يكون قَدَّر شرًّا»[4].

ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة، عن الأوزاعي، عن العلاء بن الحجّاج، عن مُحمّد بن عبيد، فذكر مثله[4]. لم يُخرِجُوه.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بنُ أبي أيُّوبَ، حدثني أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عُمَر صَدِيقٌ من أهل الشام يُكاتِبُه، فكتب إليه عبدُ الله بن عُمَر: إنه بَلَغني أنك تكلمتَ في شيءٍ من

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٤٤٤، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة القمر ١٢/١٧٧، وابن ماجه، المقدمة ١/٣٢ ـ ٣٣.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٢ ـ ٧٣، وقال الهيثمي: (رواه البزار، وفيه يونس بن الحارث، وثقه ابن معين وابن حبان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات). مجمع الزوائد ٧/١١٧.

(٣) أي: يستقي بالدلو منها.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٣٣٠.

القَدَر، فإياك أن تكتبَ إليّ، فإن سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «سيكون في أُمّتي أقوام يُكَذِّبون بالقَدَرِ»[1].

رواه أبو داودَ، عن أحمدَ بن حَنْبَلٍ، به[1].

وقال أحمدُ: حدثنا قُتَيبة، حدثنا رِشْدين، عن أبي صخر حُمَيد بن زياد، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «سيكون في هذه الأمة مَسْخٌ، ألا وذاك في المُكَذِّبين بالقَدَر والزِّنديقية»[2].

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي صَخر حُمَيد بن زياد، به. وقال الترمذي: (حَسَنٌ صَحِيحٌ غريب)[2].

وقال أحمد: حدثنا أنسُ بن عِيَاضٍ، حدثنا عُمر بن عبد الله مولى غُفْرَةَ، عن عبد الله بن عُمَر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مجوسٌ، ومَجوسُ أُمّتي الذي يَقُولون: (لا قَدَر). إن مَرِضُوا فلا تَعُودوهم، وإن ماتُوا فلا تَشْهَدُوهم»[3].

لم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُب السِّتَّةِ من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليماني قال: سَمِعتُ ابنَ عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، حتى العَجْزِ والكَيْسِ»[4].

ورواه مسلم منفرداً به، من حديث مالك[4].

وفي الحديث الصحيح: «استعِنْ بالله ولا تَعْجِز، فإن أصابَكَ أمرٌ فقُل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَل، ولا تَقُل: لو أني فَعَلتُ لكان كَذا، فإن لو تفتحُ عَمَلَ الشيطانِ»[5].

وفي حديث ابن عبَّاسٍ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال له: «واعلم أن الأُمّة لو اجتمَعُوا على أن يَنفعُوك بشيء، لم يكتبه الله لكَ، لم ينفعوكَ. ولو اجتمَعُوا على أن يَضُرُّوك بشيء، لم يَكتُبه الله عَلَيكَ، لم يَضُرُّوك. جَفّتِ الأقلامُ وطُوِيَتِ الصُّحُف»[6].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا الحسنُ بن سَوَّارٍ، حدثنا الليثُ، عن معاويةَ، عن أيُوبَ بنِ زيادٍ، حدثني عُبادة بن الوليد بن عُبَادة، حدثني أبي قال: دخلتُ على عُبَادة وهو مريضٌ أتخايَلُ فيه الموتَ، فقلتُ: يا أبتاه، أَوْصِني واجتَهِدْ لي. فقال: أَجلِسُوني. فلما أجلَسُوه قال: يا بُنَيَّ، إنك لم تَطْعَم الإيمانَ، ولم تبلغ حَقَّ حقيقة العلم بالله، حتى تؤمِن بالقَدَر خَيْرِه وَشَرِّه. قلت: يا أبتاه، وكيفَ لي أن أعلَمَ ما خيرُ القَدَر وشرُّه؟ قال: تعلم أن ما أخطَأكَ لم يكن لِيُصِيبك، وما أصابَك لم يكن لِيُخطِئَكَ. يا بُنَيَّ، إني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن أول ما خَلَق الله القلم. ثم قال له: اكتُب. فَجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة». يا بُنَيَّ، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلتَ النار[7].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٩٠، وسنن أبي داود، كتاب السُّنّة ٤/٢٠٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٠٨، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣١٨، وابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٥٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٨٦.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/١١٠، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤٥.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب القدر ٤/٢٠٥٢، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه في المقدمة ١/٣١.

(٦) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة، عارضة الأحوذي ٩/٣١٩ ـ ٣٢٠، وقال: حسن صحيح. والإمام أحمد في مسنده ١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

(٧) مسند الإمام أحمد ٥/٣١٧، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣١٩ ـ ٣٢٠.

ورواه الترمذيُّ عن يحيى بن موسى البَلْخي، عن أبي داودَ الطيالسي، عن عبد الواحد بن سُلَيم، عن عطاء بن أبي رَبَاحٍ، عن الوليد بنُ عُبادَةَ، عن أبيه، به. وقال: (حَسَنٌ صَحِيحٌ غَريبٌ)[1].

وقال سُفيان الثَّوري، عن منصور، عن رِبْعي بن خراش، عن رَجُلٍ، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يُؤمن عبد حتى يُؤمن بأربع: يشهَدُ أن لا إلَه إلا الله، وأنّي رسولُ الله، بَعَثني بالحق، [ويؤمن بالموت]، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خَيرِه وشرِّه».

وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن شميل، عن شُعبَةَ، عن منصور، به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي، عن شُعبَة، عن منصور، عن رِبْعِيٍّ، عن علي فذكره وقال: (هذا عندي أصحُّ)[2]. وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربعي، عن علي[2]، به.

وقد ثَبَت في صحيح مُسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبي هانيء الخَوْلاَنِيِّ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله كَتَب مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلُقَ السمواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنة». زاد ابن وهب: ﴿ وكان عَرْشُه على الماء ﴾[3].

ورواه الترمذيُّ وقال: (حسن صحيح غريب)[3].

وقولُهُ: ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾. وهذا إخبارٌ عن نُفوذِ مَشيئته في خَلْقِهِ كما أخبر بِنُفوذِ قَدَره فيهم، فقال: ﴿ وما أَمرُنا إلا واحدةٌ ﴾، أي: إنما نأمر بالشيء مَرَّةً واحدةً، لا نحتاج إلى تأكيدٍ بثانيةٍ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصِلاً موجوداً كلَمْحِ البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء[4]:

إذَا مـا أَرادَ اللهُ أَمْـراً فَـإنَّمـا   يَقُولُ لَهُ: كُنْ، قَوْلَةً، فَيَكُـونُ

وقولُهُ: ﴿ ولقد أهلكنا أشياعَكُم ﴾، يعني أمثالَكُم وسَلَفكم من الأمم السالفة المُكَذّبين بالرُسُلِ، ﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾، أي: فهل من مُتّعِظٍ بما أخزى الله أولئك، وقَدَّر لهم من العذاب. كما قال: ﴿ وحِيلَ بينهم وبين ما يشتَهُون كما فُعِل بأشياعهم من قبلُ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وكلُّ شيءٍ فَعَلُوه في الزُّبُرِ ﴾، أي: مكتوبٌ عليهم في الكُتُبِ التي بأيدي الملائكة ـ عليهم السلامُ ـ ﴿ وكُلُّ صغيرٍ وكَبِيرٍ ﴾، أي: من أعمالهم ﴿ مُستَطر ﴾، أي: مجمُوعٌ عليهم ومُسَطَّر في صَحَائِفِهِم، لا يغادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عامر، حدثنا سَعِيد بن مُسلِم بن بَانَكَ: سَمِعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثني عَوفُ بن الحارث ـ وهو ابن أخي عائشة لأمها ـ عن عائِشَةَ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «يا عائشةُ، إياك ومُحقَّراتِ الذُنوبِ فإن لها من الله طالباً»[5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣١٢ـ٣١٣، وابن ماجه، المقدمة ١/٣٢.

(٣) مسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤٤، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣٢٠ـ٣٢١.

(٤) تقدم البيت عند تفسير الآية ٨١ من سورة يس.

(٥) مسند الإمام أحمد ٦/١٥١، وأخرجه النسائي في كتاب الرقائق من سُنَنِه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ١٢/٢٥٠، وابن ماجه في كتاب الزهد ٢/١٤١٧.

ورواه النسائي وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بَانَك المدني. وثقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم وغيرهم.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مُسلِم هذا من وجه آخر، ثم قال سعيد: فَحدَّثتُ بهذا الحديث عامرَ بن هشام فقال لي: ويحك يا سَعِيدَ بن مسلم! لقد حدثني سُلَيمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره، فأتاه آتٍ في منامه فقال له: يا سليمان:

لا تَحْقِرَنَّ منَ الذنُوبِ صَغيراً إنَّ الصغيرَ غداً يَعُودُ كَبيرا
إنَّ الصَّغِيرَ وَلَو تَقَادَمَ عَهدُهُ عِندَ الإلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرَا
فَازجُرْ هَواكَ عَنِ البَطَالَةِ، لا تَكُنْ صَعْبَ القِيَادِ، وشَمِّرَنْ تَشْمِيرا
إنَّ المُحِبَّ إذا أحَبَّ إلَهَهُ طَارَ الفُؤادُ وَأُلهِمَ التَّفْكِيرَا
فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الإلَهَ بِنِيَّةٍ فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيرَا

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾، أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضَّلال والسُّعُر، والسَّحب في النار على وُجُوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

وقوله: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾، أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفَضْلِه، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾، أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مُقْتَدِر على ما يشاء مما يطلُبون ويُريدون؛ وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عَمرو بن أوس، عن عبد الله بن عَمْرو - يَبْلُغُ به النبيَّ ﷺ - قال: «المقسطون عند الله على منابرَ من نُورٍ، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حُكمِهم وأهليهم وما وَلُوا»(١).

انفرد بإخراجه مسلم والنسائيُّ، من حديث سُفيَان بن عُيينة، بإسناده مثله(١).

آخرُ تفسير سورة «القمر»

(١) مسند الإمام أحمد ٢/١٦٠، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية ١٠ من سورة الحجرات.

تفسير

سُورَةُ الرَّحْمٰن

وَهِيَ مَدَنِيَّة

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، حدثنا حمَّاد، عن عاصم، عن زِرّ: أن رجلاً قال كيف تَعرفُ هذا الحرفَ: ﴿ماءٍ غيرِ ياسنٍ﴾ أو ﴿آسِنٍ﴾[1]؟ فقال: كُلَّ القرآنِ قد قرأتَ؟ قال: إني لأقرأُ المُفَصَّلَ في ركعةٍ واحدةٍ، فقال: أهذًّا كهذِّ الشعر[2]، لا أبا لك؟ قد علمتُ قرائنَ[3] النبيِّ - ﷺ - التي كان يَقرِنُ قرينتين قرينتين من أول المُفَصَّل. وكان أولُ مُفَصَّلِ ابنِ مسعود ﴿الرحمنُ﴾[4].

وقال أبو عيسى الترمذيُّ: حدثنا عبدُ الرحمن بن واقد أبو مسلم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر قال: خرج رسولُ الله - ﷺ - على أصحابه فقرأ عليهم [سورةَ الرحمن]، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: لقد قرأتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردودًا منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان﴾، قالوا: لا بشيءٍ من نعمك - ربَّنا - نكذِّب، فلك الحمدُ[5].

ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفُه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد». ثم حكى عن الإمامِ أحمد أنه كان يستنكرُ روايةَ أهلِ الشامِ عن زُهير بن محمد هذا.

وَرواه الحافظ أبو بكر البزَّار، عن عَمرو بن مالك، عن الوليد بن مسلم. وعن عبد الله بن أحمد بن شَبُّويَه، عن هشام بن عُمارة، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به. ثم قال: (لا نعرفه يُروى إلا من هذا الوجه).

وقال أبو جعفر بنُ جَرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى وعمرو بن مالك البصريّ قالا: حدثنا يحيى بن

---

(١) في النسخ: (آسن أو أسن). والمثبت من المسند، ومصادر التخريج. وفي مسند ابن أبي شيبة (يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرف أياءً تجده أم ألفاً...). وانظر البحر المحيط لأبي حيان ٨/٧٩.

(٢) أي: أتسرع به كما تسرع في قراءة الشعر؟!

(٣) أي: السُّور المتماثلة في المعاني كالموعظة أو الحِكَم أو القصص، لا المتماثلة في عدد الآيات. وانظر فتح الباري ٢/٢٥٩.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٤١٢. وأخرجه ابن أبي شيبة في مسنده ٢/٥٢٠، والبخاري في كتاب الأذان، فتح الباري ٢/٢٥٥، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ١/٥٦٣ - ٥٦٥.

(٥) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الرحمن ١٢/١٧٧ - ١٧٨.

سُلَيم، عن إسماعيل بن أُميّة، عن نافع، عن ابن عُمَر: أن رسول الله - ﷺ - قرأ «سورةَ الرحمن» - أو: قُرئت عنده - فقال: «ما لي أسمَعُ الجنَّ أحسن جواباً لربِّها منكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسولَ الله؟ قال: «ما أتيتَ على قول الله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكما تُكَذِّبان ﴾؟ إلا قالتِ الجنُّ: لا بشيءٍ من نِعمَةِ ربنا نُكَذِّب»[(١)].

ورواه الحافظ البزَّارُ، عن عَمرو بن مالك، به. ثم قال: «لا نعلَمُه يُروى عن النبي - ﷺ - إلا من هذا الوجه، بهذا الإسنادِ[(١)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ ﴾

يُخبر تعالى عن فَضله ورَحمتِه بخلقِه، أنَّه أنزل على عباده القرآن، ويَسَّر حفظَه وفهمَه على مَن رَحِمه، فقال: ﴿الرحمن * علم القرآن * خَلَق الإنسانَ * عَلَّمه البيان﴾ - قال الحسن: يعني النطقَ. وقال الضحَّاك، وقتادة، وغيرهما: يعني الخيرَ والشرَّ. وقولُ الحسن هاهنا أحسنُ وأقوى؛ لأن السياقَ في تعليمه تعالى القرآنَ، وهو أداءُ تلاوتِه، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخَلقِ وتسهيلِ خُروج الحروفِ من مواضِعها من الحَلق واللِّسانِ والشفتين، على اختلاف مخارجِها وأنواعِها.

وقولُه: ﴿ الشمسُ والقمرُ بحُسبانٍ ﴾، أي: يجريان متعاقبَين بحسابٍ مُقنَّنٍ لا يختلِفُ ولا يضطرِبُ، ﴿ لا الشمس يَنبغي لها أن تُدرِكَ القمَر ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌ في فَلَكٍ يسبحُون ﴾. وقال تعالى: ﴿ فالقُ الإصباحِ وجاعِلُ[(٢)] الليلِ سَكَناً والشمسَ والقمر حُسباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم ﴾.

وعن عِكْرِمَةَ أنه قال: لو جَعَل الله نُورَ جميع أبصارِ الإنسِ والجنِّ والدواب والطير في عينَي عبدٍ، ثم كَشَف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دُونَ الشمس، لما استطاع أن يَنظُرَ إليها. والشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي جزءٌ من سبعين جزءاً من نور العرش، ونورُ العرش جزءٌ من سبعين جزءاً من نور السِّتر. فانظر ماذا أعطى الله عبدَه من النور في عينَيه [وقت] النظر إلى وَجه ربِّه الكريم عياناً. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُهُ: ﴿ والنجمُ والشجرُ يسجُدان ﴾ - قال ابنُ جرير: اختلف المفسِّرون في معنى قوله ﴿ والنجمُ ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساقٍ، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ قال: النجمُ ما انبسَط على وَجْهِ الأرضِ. يعني من النباتِ[(٣)]. وكذا قال سعيد بن جُبَير، والسُّدِّيُّ، وسُفيانُ الثَّوري. وقد اختاره ابنُ جَرِيرٍ، رَحِمه الله.

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/١٢٣ - ١٢٤، وكشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٤.

(٢) قرأ الكوفيون: ﴿ وجعل الليل ﴾، وباقي السبعة: ﴿ وجاعِلُ الليل ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤١.

(٣) تفسير الطبري ٢٧/١١٦

وقال مجاهدٌ: النجمُ الذي في السماء. وكذا قال الحسنُ، وقتادةُ: وهذا القولُ هو الأظهر، والله أعلَمُ، لقوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله يسجدُ له مَن في السموات ومَن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجَرُ والدوابُّ وكثير من الناس ﴾... الآية.

وقولُهُ: ﴿ والسماءَ رَفعَها ووضَعَ الميزانَ ﴾، يعني العدلَ، كما قال: ﴿ لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ ألَّا تطغَوا في الميزانِ ﴾، أي: خلَق السمواتِ والأرضَ بالحقِّ والعَدْلِ، لِتكُونَ الأشياءُ كلُّها بالحقِّ والعدل. ولهذا قال: ﴿ وأقيمُوا الوزن بالقسط ولا تُخسِروا الميزانَ ﴾، أي: لا تَبْخَسوا الوَزْنَ، بل زِنُوا بالحقِّ والقِسْطِ، كما قال: ﴿ وزِنُوا بالقِسطاس المستقيمِ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ والأرضَ وضعَها للأنام ﴾، أي: كما رَفع السماء وضَعَ الأرضَ ومَهَدَها، وأرساها بالجبال الرَّاسياتِ الشامخاتِ، لتستقِرَّ لما على وَجهِها من الأنام، وهم: الخلائقُ المختلفةُ أنواعهُم وأشكالُهم وألوانُهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: الأنامُ: الخَلْقُ، ﴿ فيها فاكهةٌ ﴾، أي: مُختلفَةُ الألوانِ والطُّعوم والروائح، ﴿ والنخلُ ذاتُ الأكمام ﴾: أفرده بالذكر لشَرَفه ونفعه، رُطَباً ويابِساً. والأكمامُ ـ قال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: هي أوعيةُ الطَّلْع. وهكذا قال غير واحد من المفسِّرين، وهو الذي يطلعُ فيه القِنْوُ ثم يَنشَقُّ عن العنقود، فيكون بُسْراً، ثم رُطَباً، ثم يَنضَجُ ويَتَناهى يَنْعُه[١] واستواؤه.

قال ابنُ أبي حَاتم: ذُكِرَ عن عَمرو بن علي الصَّيرفي: حدثنا أبو قُتَيبة، حدثنا يونُس بنُ الحارث الطائفي، عن الشَّعبي قال: كَتَب قَيْصَرُ إلى عُمَر بن الخطاب: أُخبِرُكَ أنَّ رسلي أتتني من قِبَلك، فزعَمت أن قِبلكم شجرةً ليست بخليقةٍ لشيءٍ من الخير، تُخرجُ مثلَ آذانِ الحمير، ثم تَشقَّقُ مثلَ اللؤلؤ، ثم تخضرُّ فتكون كالزُّمرُّدِ الأخضر، ثم تحمرُّ فتكون كالياقوت الأحمر، ثم تينع وتنضُج فتكون كأطيب فالوذجٍ أكِل، ثم تيبَسُ فتكون عِصْمَةً للمقيم وَزاداً للمسافر، فإن تكن رسلي صَدَقتني فلا أرى هذه الشجرة إلا من شَجر الجنة. فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عُمَر أمير المؤمنين إلى قيصَرَ ملكِ الروم إنَّ رُسُلَك قد صَدَقتك، هذه الشجرةُ عندنا، وهي الشجرةُ التي أنبتها الله على مَرْيَم حين نُفِسَت بعيسى ابنِها، فاتَّقِ الله ولا تَتَّخِذ عيسى إلَهاً من دون الله فإن ﴿ مَثَلَ عيسَى عند الله كَمَثَل آدمَ خَلَقَه من تُرابٍ ثم قال له كُن فَيَكُونُ ● الحق من ربك فلا تكن من المُمتَرِينَ ﴾.

وقيل: الأكمامُ: رقابُها، وهو: الليفُ الذي على عُنُق النخلةِ. وهو قولُ الحسنِ وقتادة.

﴿ والحبُّ ذو العَصفِ والريحانُ ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ والحبُّ ذُو العصفِ ﴾، يعني: التِّبْنَ. وقال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿ العَصْفِ ﴾: ورقُ الزرع الأخضرِ الذي قُطِع رؤوسُه، فهو يُسمَّى العَصْفَ إذا يبِسَ. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تِبْنُه.

وقال ابنُ عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿ والريحانُ ﴾، يعني: الرِّزْق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ والريحانُ ﴾: خضرُ الزرْع.

---

(١) أي: نُضْجُه.

ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أن الحبَّ كالقَمْحِ والشعير ونحوهما له في حال نباته عَصْفٌ، وهو: ما على السُّنبلة، وريحان، وهو: الوَرَقُ الملتف على سَاقِهَا.

وقيل: العصفُ: الورق أول ما ينبت الزرع بقلاً. والريحانُ: الورق، يعني: إذا أَدْجَنَ وانعقد فيه الحبُّ، كما قال زَيد بنُ عَمرو بن نُفَيل في قصيدتِهِ المشهورة[1]:

وَقُولاَ له: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثَّرَى فَيُصْبِـحَ مِنه البَقْـلُ يَهْتَـزُّ رَابِيَـا؟
وَيُخْـرِجَ مِنْـه حَبَّـهُ في رُءُوسِـهِ فَفِي ذَاكَ آيَـاتٌ لِمَنْ كَـانَ وَاعِيَـا

وقولُهُ: ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكما تُكَذِّبان ﴾، أي: فبأي الآلاء ـ يا معشرَ الثَّقلَين، من الإنس والجنِّ ـ تُكَذِّبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدلُّ عليه السياقُ بعده، أي: النِّعَمُ ظاهرةٌ عليكم وأنتم مَغْمُورون بها، لا تَستطِيعُون إنكارها ولا جَحْدَها، فنحن نَقُول كما قالت الجنُّ المؤمنون: (اللهُمَّ، ولا بشيءٍ من آلائِكَ ربَّنا نُكَذِّب، فلك الحمدُ). وكان ابن عباس يقول: (لا، بأيِّها يا ربِّ)[2]. أي: لا نكذب بشيء منها.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبي الأسود، عن عُروَةَ، عن أسماء بنتِ أبي بكر قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو يقرأ، وهو يُصلِّي نحو الركن قبل أن يَصْدَع بما يُؤمَر، والمشركون يستمعون: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾[3].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يَذكُر تعالى خَلْقَه الإنسانَ من صَلْصَالٍ كالفخَّار، وخَلْقَه الجانَّ من مارجٍ من نارٍ، وهو: طرفُ لَهَبِها. قاله الضحَّاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عبَّاس: ﴿ من مَارجٍ من نَارٍ ﴾: من لَهَبِ النار، من أحسنها. وقال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ من مارجٍ من نارٍ ﴾: من خالصِ النارِ. وكذا قال عكرمةُ: ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وغيرهم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خُلِقت الملائكة من نورٍ، وخُلِق الجانُّ من مارجٍ [من نارٍ]، وخُلِق آدمُ مما وُصِفَ لكم»[4].

ورواه مسلمٌ، عن محمد بن رافع وعَبْد بن حُمَيد، كلاهُما عن عبد الرزاق، به[4].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٢٨.
(٢) أخرجه الطبري ٢٧/١٢٣.
(٣) مسند الإمام أحمد ٦/٣٤٩.
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/١٦٨، وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة الأعراف، ٢٧ من سورة الحجر، ٥٠ من سورة الكهف، وخرجناه هنالك.

وقولُهُ: ﴿ فَبِأَيِّ آلاء ربكما تُكَذِّبان ﴾؟، تقدم تفسيرُه. ﴿ ربُّ المشرقينَ وربُّ المغربَين ﴾، يعني مشرقَي الصيفِ والشتاءِ، ومغربَي الصيفِ والشتاءِ. وقال في الآية الأخرى: ﴿ فلا أُقسِمُ بربِّ المَشارقِ والمغارِب ﴾، وذلك باختلاف مطالعِ الشمس وتنقلها في كل يوم، وبُروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿ ربُّ المشرق والمغرب لا إِلَه إلا هُوَ فاتَّخِذه وكيلاً ﴾. وهذا المرادُ منه جنسُ المشارقِ والمغاربِ، ولما كان في اختلافِ هذه المشارقِ والمغاربِ مصالحُ للخلقِ من الجنِّ والإنس قال: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبان ﴾.

وقولُهُ: ﴿ مَرَجَ البحرَين يلتقيانِ ﴾، قال ابن عباس: أي أرسلَهُما.

وقولُهُ: ﴿ يَلتقيانِ ﴾، قال ابنُ زيدٍ: أي مَنَعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزَخِ الحاجز الفاصل بينهما[١].

والمرادُ بقوله: ﴿ البَحْرين ﴾، المِلْحَ والحُلْوَ، فالحُلو هذه الأنهار السارحةُ بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في «سورة الفرقان»[٢] عند قوله تعالى: ﴿ وهو الذي مَرَجَ البحرَين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أُجاجٌ وجَعَل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾. وقد اختار ابنُ جريرٍ هاهنا أنَّ المراد بالبحرَين: بحرَ السماءِ وبحرَ الأرضِ. وهو مروي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعطية، وابن أَبْزَى. قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماءِ، وأصدافِ بحر الأرض[٣]. وهذا وإن كان هكذا ليس المرادُ ما ذهب إليه، فإنه لا يُساعِده اللفظُ، فإنه تعالى قد قال: ﴿ بينهما برزخٌ لا يَبغِيان ﴾، أي: وَجَعل بينهما برزخاً، وهو: الحاجزُ من الأرض، لئلا يَبغِيَ هذا على هذا، وهذا على هذا، فَيُفسِدَ كل واحد منهما الآخر، ويُزيله عن صفته التي هي مقصودةٌ منه. وما بين السماءِ والأرضِ لا يُسمَّى برزخاً وحِجْراً محجُوراً.

وقولُهُ: ﴿ يخرُجُ منهما اللؤلؤُ والمرجانُ ﴾، أي: من مجموعهما، فإذا وُجد ذلك لأحدهما كَفَى، كما قال تعالى: ﴿ يا معشر الجنِّ والإنسِ ألم يأتكم رُسُلٌ منكم ﴾. والرسلُ إنما كانوا في الإنس خاصةً دون الجنِّ، وقد صَحَّ هذا الإطلاق. واللؤلؤُ معروف، وأما المَرجان فقيل: هو صغارُ اللؤلؤ. قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رَزِين، والضحاك. ورُوِيَ عن عَليٍّ. وقيل: كباره وجَيِّده. حكاه ابنُ جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وحكاه عن السُّديِّ عمن حَدَّثه، عن ابن عَبَّاسٍ. ورَوَى مثلَه عن عليٍّ، ومجاهد أيضاً ومُرَّة الهَمْدَانِي. وقيل: هو نوعٌ من الجَوَاهِر أحمرُ اللون. قاله السُّديُّ عن أبي مالك، عن مسروق، عن عبد الله قال: المرجان: الخرزُ الأحمرُ، قال السُّديُّ وهو البُسَّذ[٤] بالفارسية.

وأما قولُه: ﴿ ومن كلٍّ تأكلُون لحماً طَرِيًّا وتَستخرِجُون حليةً تَلبَسُونَها ﴾، فاللحمُ من كُلٍّ مِنَ الأُجاجِ والعَذْبِ، والحِلْيَةُ إنما هي من الملح دُونَ العَذْبِ.

قال ابن عباس: ما سقطت قطرةٌ من السماء في البحر، فوقعت في صَدَفةٍ إلاَّ صار منها لُؤلُؤةٌ. وكذا قال عكرمةُ، وزاد: فإذا لم تقع في صَدَفةٍ نبتت بها عَنْبَرةٌ. ورُوِيَ من غير وَجْهٍ عن ابن عباس نحْوه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: (إذا أمطرت السماء فتحت

(١) أخرجه الطبري ٢٧/١٢٩.
(٢) انظر تفسير الآية ٥٣ من سورة الفرقان.
(٣) تفسير الطبري ٢٧/١٢٨ ـ ١٢٩.
(٤) في النسخ: الكسد. والمثبت من المعرب للجواليقي ٢٧٧، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر. وقال: (هو حجر يتكوّن في قعر البحر).

الأصدافُ في البحرِ أفواهَها، فما وقع فيها يعني من قطر فهو اللؤلؤ)[1]. إسنادُه صحيحٌ.

ولما كان اتخاذُ هذه الحليةِ نعمةً على أهل الأرضِ امتنَّ بها عليهم فقال: ﴿ فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبان ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وله الجوارِ المُنشآت ﴾، يعني السفنَ التي تجري في البحر، قال مجاهدٌ: ما رُفِعَ قَلْعُه من السفن فهي مُنشأة، وما لم يُرفَع قلعه فليس بِمُنشأةٍ، وقال قتادة: ﴿ المُنْشَآتُ ﴾: يعني المخلوقات. وقال غيره: المُنشِئات ـ بكسر الشين ـ: يعني الباديات[2].

﴿ كالأعلام ﴾، أي: كالجبالِ في كِبَرها، وما فيها من المتاجر والمكاسِبِ المنقولة من قُطر إلى قُطر، وإقليمٍ إلى إقليم، مما فيه صلاح للناس في جَلْب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع. ولهذا قال: ﴿ فبأي آلاء ربِّكما تُكَذِّبان ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العَرَارُ بن سُوَيد، عن عُمَيرة بن سعد قال: كنتُ مع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على شاطىء الفُراتِ إذ أقبلت سفينةٌ مرفوعٌ شراعُها، فَبسط عليٌّ يديه ثم قال: يقول الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلامِ ﴾. والذي أنشأها تَجري في بُحورِهِ ما قتلتُ عُثمانَ، ولا مالأتُ على قَتْلِهِ[3].

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى أن جَميع أهلِ الأرضِ سَيذهبُون ويَمُوتون أجمعُون، وكذلك أهلُ السمواتِ، إلاَّ مَنْ شاء الله، ولا يبقَى أحدٌ سوى وجهه الكريم، فإن الربَّ ـ تعالى وتقدس ـ لا يموتُ، بل هو الحيُّ الذي لا يموتُ أبداً.

قال قتادة: أنْبأ بما خلق، ثم أنْبأ أنَّ ذلك كُلَّه فانٍ.

وفي الدعاء المأثور: (يا حَيُّ، يا قيُّوم، يا بديعَ السَّمٰواتِ والأرض، يا ذا الجَلالِ والإكرام، لا إلٰه إلا أنتَ، برحمتك نَستغيثُ، أصلِحْ لنا شأننا كُلَّه، ولا تَكِلْنا إلى أنفُسِنا طرفةَ عينٍ، ولا إلى أحدٍ من خَلْقِكَ).

وقال الشعبيُّ: إذا قرأتَ: ﴿ كلُّ من عليها فانٍ ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّك ذُو الجَلالِ والإكْرام ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه ﴾. وقد نَعتَ تعالى وجهه الكريمَ في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ ذو الجَلال والإكرام ﴾، أي: هو أهل أن يُجلَّ فلا يُعصَى، وأن يُطاعَ فلا يُخالَف، كقوله: ﴿ واصبر نفسَك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يُريدُون وجهه ﴾، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿ إنما نُطعِمُكم لوجه الله ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣٢/٢٧، وابن أبي الدنيا في كتاب المطر، وابن المنذر. الدر المنثور ٦٩٦/٧.

(٢) قرأ حمزة وأبو بكر ﴿ المُنْشِئاتُ ﴾، بكسر الشين. الإقناع لابن الباذش ٧٧٨/٢. ويقول الطبري ١٣٣/٢٧: (قرأته عامة أهل الكوفة ﴿ المُنْشِئات ﴾ بكسر الشين، بمعنى: الظاهرات السير اللاتي يُقبلن ويُدبِرنَ).

(٣) أخرجه عَبْدُ بن حُمَيد وغيره مختصراً. الدر المنثور ٦٩٨/٧.

قال ابن عباس: ﴿ذُو الجَلالِ والإكرام﴾: ذو العَظَمة والكِبْرياء[1].

ولما أخبَرَ عن تساوي أهل الأرض كُلِّهم في الوفاة، وأنهم سَيصِيرُون إلى الدارِ الآخرة، فَيحكُم فيهم ذُو الجَلالِ والإكرام بحكمِهِ العَدْلِ قال: ﴿فَبِأيِ آلاء رَبِّكما تكَذِّبان﴾.

وقولُهُ: ﴿يسألُه مَن في السموات والأرض كُلَّ يوم هو في شأنٍ﴾، وهذا إخبارٌ عن غِناهُ عما سواه، وافتقار الخلائِق إليه في جميع الآناتِ، وأنهم يسألونه بلِسانِ حالِهم وقالِهم، وأنه كُلَّ يومٍ هو في شأن.

قال الأعمشُ، عن مجاهد، عن عُبَيد بن عُمَير: ﴿كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ﴾، قال: مِن شأنه أن يُجِيبَ داعياً، أو يُعطِيَ سائلاً، أو يَفُكَّ عانِياً، أو يَشْفِيَ سَقِيماً.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قال: كُلَّ يوم هو يُجيب داعياً، ويكشِفُ كَرْباً، ويُجيبُ مُضطَرًّا، ويَغفِر ذَنْباً.

وقال قتادةُ: لا يَستغني عنه أهلُ السمواتِ والأرض، يُحيِي حَيّاً، ويُميت مَيْتاً، ويُرَبِّي صغيراً، ويَفُكُّ أسيراً، وهو مُنتَهَى حاجاتِ الصالحين وصَرِيخِهم، ومنتهى شَكْوَاهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحِمْصِي، حدثنا حَرِيزُ بن عثمان، عن سُوَيد بن جَبَلة ـ هو الفَزَارِيُّ ـ قال: إنَّ ربَّكم كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، فَيُعتِقُ رِقاباً، ويُعطِي رِغاباً، ويُقحِمُ عِقاباً.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن محمد بن عَمْرو الغَزّي، حدثني إبراهيم بن محمد بن يوسف الفِرْيابي، حدثني عمرو بن بكر السَّكْسَكِيُّ، حدثنا الحارث بن عَبْدَة بن رباح الغَسّاني، عن أبيه، عن مُنِيب بن عبد الله الأزْدِيِّ، عن أبيه قال: تَلَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿كُل يوم هُو في شأنٍ﴾، فقلنا: يا رسولَ الله، وما ذاك الشأنُ؟ قال: أن يغفِرَ ذنباً، ويُفرِّج كَرْباً، ويرفَع قوماً، ويضَع آخرين[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عَمّار، وسليمان بن أحمد الواسطي قالا: حدثنا الوزير بن صَبِيح الثقفي أبو روح الدمشقي ـ والسياقُ لهشام ـ قال: سَمِعتُ يونس بن مَيْسَرة بن حَلْبَس يُحدِّث عن أم الدَّرداء، عن أبي الدَّرداء[3]، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: وقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿كُلَّ يوم هو في شأنٍ﴾، قال: مِن شأنه أن يغفِرَ ذنباً، ويُفرِّج، كَرْباً ويَرْفَع قوماً، ويضعَ آخَرِين»[4].

وقد رَوَاه ابنُ عساكِرَ من طرق مُتَعدِّدة، عن هشام بن عَمّارٍ، به. ثم ساقه من حديث أبي [هَمّام][5] الوليد بن شجاع، عن الوَزِير بن صَبِيح قال: [ودَلَّنا][5] عليه الوليد بن مسلم، عن مُطَرِّف، عن الشعبيِّ، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي ـ ﷺ ـ، فذكره. قال: «والصحيح الأول»، يعني إسنادَه الأول.

قلت: وقد رُوِي موقوفاً، كما علقه البخاريُّ بصيغةِ الجَزْمِ، فجعله من كلام أبي الدَّرداء[6]، فالله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧/١٦٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٣٥.

(٣) سقط من بعض النسخ: (عن أم الدرداء) ومن أخرى: (عن أبي الدرداء).

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١/٧٣، عن هشام بن عمار، عن الوزير بن صبيح، به، وأخرجه البزار. انظر كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٣.

(٥) عن تاريخ ابن عساكر، وانظر المغني للذهبي ٢/٩٢٩.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة الرحمن ٨/٦٢٠.

وقال البزَّار: حدثنا محمد بن المُثَنَّى، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن البَيْلَماني، عن أبيه، عن ابن عُمَر، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿ كلَّ يوم هو في شأنٍ ﴾، قال: «يغفر ذنباً، ويكشِفُ كَرْباً»(١).

ثم قال ابنُ جَرير: وحدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن أبي حَمْزة الثُّمَالي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أن الله خلق لوحاً محفوظاً من دُرَّةٍ بيضاءَ، دفتاه ياقوتةٌ حمراءُ، قلمُه نور، وكتابُه نور، عرضُه ما بين السماء والأرض، ينظُر فيه كُلَّ يوم ثلثمائة وستين نظرةً، يَخلُق في كل نَظْرةٍ، ويُحيِي ويميت، ويُعِزُّ ويُذِلّ، ويفعلُ ما يشاء(٢).

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ سَنَفْرُغ لكم أَيُّهَ الثقلانِ ﴾، قال: وَعِيدٌ من الله للعباد، وليسَ بالله شُغلٌ وهو فارغٌ. وكذا قال الضحاك: هذا وَعِيدٌ. وقال قتادة: قَدْ دَنَا من الله فراغٌ لخلقه. وقال ابن جُرَيجٌ: ﴿ سنفرغ لكم ﴾، أي: سَنَقْضِي لكم.

وقال البخاريُّ: سَنُحاسِبُكم، لا يشغله شيءٌ عن شيءٍ، وهو معروفٌ في كلامِ العَرَبِ، يقال: (لأتفرَّغَنَّ لك)، وما به شُغْل، يقول: (لآخُذَنَّكَ على غِرَّتِكَ)(٣).

وقولُه: ﴿ أيها الثقلان ﴾، الثقلان: الإنسُ والجنُّ، كما جاء في الصحيح: (يَسْمَعُها كُلُّ شيء إلا الثقلَين)(٤). وفي رواية (إلا الجنَّ والإنس). وفي حديث الصُّور: (الثقلان الإنس والجن)(٥). ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾.

ثم قال: ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إن استطعتُم أن تنفذُوا من أقطارِ السمواتِ والأرض فانفذُوا لا تنفذُون إلا بسُلطانٍ ﴾، أي: لا تستطيعون هَرَباً من أمر الله وقَدَرِه، بل هو محيطٌ بكُم، لا تَقدِرُون على التخلُّص من حُكمِه، ولا النفوذِ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتُم أُحِيطَ بكم. وهذا في مقام المحشر، الملائكةُ مُحدِقَةٌ بالخلائق، سبعُ صفوفٍ من كل جانب، فلا يقدِرُ أحدٌ على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾، أي: إلا بأمر الله، ﴿يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المفرُّ * كلَّا لا وَزَرَ * إلى ربِّك يومئذ المستقرُّ﴾. وقال تعالى: ﴿والذين كَسَبُوا السيئاتِ جَزاءُ سيئة بمثلها وترهقهُم ذلة ما لهم من الله من عاصمٍ كأنما أُغشِيَتْ وُجُوهُهم قِطَعاً من الليل مُظلِماً أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون ﴾. ولهذا قال: ﴿ يُرسَلُ عليكما شُوَاظٌ من نار ونُحاسٌ فلا تنتصرانِ ﴾. قالَ عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عَبَّاس: الشُّوَاظُ: هو لَهَبُ النار. وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: الشُّواظ:

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٤.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٣٥.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الرحمٰن ٨/٦٢٠.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ٣/٢٠٥ من فتح الباري، ومسلم مختصراً في كتاب الجنة ٤/٢٢٠١.
(٥) انظر الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام. وفي نسخة: (الثقلان الأكرمون).

الدُّخانُ. وقال مجاهد: هو: اللَّهَبُ الأخضرُ المنقطع. وقال أبو صالح: الشُّواظ: هو اللَّهَبُ الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿شواظ من نار﴾: سَيْلٌ من نارٍ.

وقولُهُ: ﴿ونُحَاس﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ونُحَاسٌ﴾: دُخَانُ النار. ورُوِيَ مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جُبَير، وأبي سِنَان. وقال ابنُ جَرير: والعرب تسمي الدُّخان نُحاساً ـ بضمِّ النون وكسرها ـ والقراءُ مُجمِعَة على الضم، ومِن النُّحاس بمعنى الدخان قول نابغة بَني جَعْدَةَ[1]:

يُضِيءُ كَضَـوءِ سِـرَاجِ السَّليـ ـطِ، لَم يَجْعَل الله فيه نُحَاساً

يعني دُخَاناً، هكذا قال.

وقد روى الطَّبَرانيُّ من طريق جُوَيبِر، عن الضحاك: أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشُّواظ فقال: هو اللهَبُ الذي لا دُخَان معه. فسأله شاهداً على ذلك من اللغةِ، فأنشده قول أُمَيَّة بن أبي الصَّلت في حسَّان[2]:

أَلا مَن مُبلغٌ حَسَّانَ عَنّي مُغَلغَلَةً تَـدِبُّ إلى عُكَـاظِ[3]
أَلَيسَ أَبُـوكَ فِينَا كَـانَ قَينـاً لَدَى القَيْنَات فَسْلاً في الحِفَاظِ[4]
يَمَـانِيًّـا يَـظَلُّ يَـشُبُّ كِيـراً وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّـوَاظِ[5]

قال: صَدَقْتَ، فما النُّحاس؟ قال: هو الدُّخان الذي لا لَهَبَ له. قال: فهل تعرِفُه العربُ؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بني ذُبْيان يقول:

يُضِيءُ كَضَـوءِ سِـرَاجِ السَّليـ ـطِ، لَمْ يَجْعَل الله فيه نُحَاسا[6]

وقال مجاهدٌ: النُّحَاس: الصفر، يُذَاب فَيُصَبُّ على رءوسهم[7]. وكذا قال قتادةُ. وقال الضحَّاك: ﴿ونُحاس﴾: سَيْلٌ من نحاس.

والمعنى على كل قول: لو ذهبتُم هارِبين يوم القيامة لَرَدَّتكم الملائكةُ والزبانيةُ بإرسالِ اللَّهَبِ من النار والنُّحاس المُذَاب عليكم لترجِعُوا، ولهذا قال: ﴿فلا تَنْتَصِرَان * فبأي آلاء ربِّكما تكذبان﴾.

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) البيت في مجاز أبي عبيدة ٢/٢٤٤ ـ ٢٤٥، وفي تفسير الطبري ٢٧/١٤٤، بيد أن في مطبوعته أنه: نابغة بني ذبيان.
(٢) الأبيات في ديوان حسان واللسان منسوبة إلى أمية بن خلف.
(٣) المُغَلْغَلَةُ: الرسالة.
(٤) القَيْنُ: العبدُ، والحدّاد. والفَسْلُ: النَّذْلُ. والحِفاظ: المحافظة على المحارم.
(٥) يشُبُّ: يُوقد.
(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٣٠٤ـ٣٠٥، من حديث طويل.
(٧) أخرجه الطبري ٢٧/١٤٠.

يقولُ تعالى: ﴿ فإذا انشقَّت السماءُ ﴾ يومَ القيامة، كما دلّت عليه هذه الآيةُ مع ما شاكَلَها من الآيات الواردةِ في معناها، كقوله: ﴿وانشقَّتِ السماء فَهي يومئذٍ واهِيةٌ﴾، وقوله: ﴿ويومَ تَشقّق السماءُ بالغمامِ ونُزِّل الملائكة تنزيلاً ﴾، وقوله: ﴿ إذا السماءُ انشقَّتْ * وأذِنَتْ لرَبِّها وحُقَّت﴾.

وقولُهُ: ﴿ فكانت وردةً كالدِّهان ﴾، أي: تَذُوب كما يذوب الدُّرْدي والفضة في السَّبْك، وتَتَلوَّنُ كما تَتَلوَّنُ الأصباغ التي يُدهَن بها، فتارةً حمراءَ وصفراءَ وزرقاءَ وخضراءَ، وذلك من شدَّةِ الأمرِ وهَوْلِ يوم القيامةِ العظيمِ. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمدُ بن عبد الملك، حدثني عبدُ الرحمن بن أبي الصَّبهاء، حدثنا نافعُ أبو غالب الباهليُّ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُبعَثُ الناس يومَ القيامةِ والسماءُ تَطِشُّ عليهم»[1].

قال الجَوْهَرِيُّ: الطَّشُّ: المَطَرُ الضَّعيفُ.

وقال الضحَّاك، عن ابنِ عبَّاس في قوله: ﴿ وَرْدَةً كالدِّهَانِ ﴾، قال: هو الأَديم الأَحْمَرُ وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن قابوس، عنِ أبيه، عن ابن عَبَّاس: ﴿ فكانت وردةً كالدِّهان ﴾: كالفَرَسِ الوَرْدِ. وقال العَوْفي، عن ابن عباس: تَغيَّر لونُها. وقال أبو صالح: كالبِرْذَون الوَرْدِ، ثم كانت بعد كالدِّهان[2].

وَحَكَى البَغَوِيُّ وغيره: أن الفَرَسَ الوَرْدَ تكونُ في الربيع صَفْراء، وفي الشتاءِ حَمْرَاء، فإذا اشتد البردُ اغبرَّ لونها[3].

وقال الحسنُ البَصريّ: تكون ألواناً. وقال السُّدِّيُّ: تكون كَلَون البَغْلَةِ الوَرْدَةِ، وتكون كالمُهل كَدُرديّ الزيتِ، وقال مجاهد: ﴿كالدهان﴾: وكألوان الدِّهان. وقال عطاء الخراساني: كلون دُهْنِ الوَرْدِ في الصُّفرة. وقال قتادة: هي اليوم خضراءَ، ويومئذٍ لونها إلى الحُمْرَة، يومٌ ذي ألوانٍ. وقال أبو الجَوزاءِ: في صفاءِ الدُّهنِ. وقال ابن جُرَيج: تَصِير السماءُ كالدُّهن الذائب، وذلك حين يُصِيبها حَرُّ جهنم.

وقولُهُ: ﴿فيومئذٍ لا يُسأَل عن ذَنْبِه إنسٌ ولا جَانٌّ﴾، وهذه كقوله: ﴿هذا يومُ لا يَنطِقُون * ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون ﴾، فهذا في حال، وثَمَّ حال يُسأَل الخلائقُ عن جَمِيع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿ فوربك لنسألَنَّهم أجمعين * عما كانوا يعمَلُون﴾. ولهذا قال قتادةُ: ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبِه إنسٌ ولا جَانٌّ﴾، قال: قد كانت مسألةٌ، ثم خُتِم على أفواهِ القَوم، وتَكَلَّمت أيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: لا يسألهم: هل عَلِمتم كذا وكذا؟ لأنه أعلَمُ بذلك منهم، ولكن يقول: لِم عَمِلتُم كذا وكذا؟ فهذا قول ثانٍ.

وقال مجاهد في هذه الآية لا يسأل الملائكة عن المُجرِم، يُعرَفون بسيماهم. وهذا قول ثالث. وكأن هذا بعد ما يُؤمَر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يُقادُون إليها ويُلقَون فيها، كما قال تعالى: ﴿ يُعرَفُ المجرمون بسيماهُم ﴾، أي بعلامات تظهر عليهم.

وقال الحسن وقتادة: يَعْرِفونهم باسوداد الوُجوهِ وزرقة العيون.

قلتُ: وهذا كما يُعرَف المؤمنون بالغُرَّة والتحجيل من آثار الوضوء.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٧/١٤١.

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٤/٢٧٢.

وقولُهُ: ﴿ فيؤخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾، أي: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه في النار كذلك.

وقال الأعمش، عن ابن عباس: يُؤخذ بناصيته وقَدَمِه، فيُكسر كما يُكسر الحَطَب في التنور. وقال الضحاك: يُجمَع بين ناصيته وقدميه في سِلْسِلَةٍ من وراءِ ظهرِه. وقال السُّدّيُّ: يُجمَعُ بين ناصيةِ الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمِه، ويُفتَلُ ظهرُه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أبو توبة الرَّبيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سَلّام، عن أخيه زيد بن سلَّام، أنه سمع أبا سلّام ـ يعني جَدَّه ـ أخبرني عبد الرحمن، حدثني رجل من كِنْدَة قال: أتيتُ عائشةَ فدخلتُ عليها، وَبيني وبينها حِجابٌ، فقلت: حَدَّثك رسول الله ـ ﷺ ـ أنه يأتي عليه ساعةٌ لا يَملِك لأحدٍ فيها شفاعةً؟ قالت: نعم، لقد سألتُه عن هذا وأنا وهو في شِعَارٍ واحدٍ قال: «نعم، حين يُوضَع الصِّراط، لا أملِكُ لأحد فيها شفاعةً، حتى أعلم أين يُسلَك بي؟ ويوم تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسودُّ وجوهٌ، حتى أنظر ماذا يُفعَل بي ـ أو قال: يُوحَى ـ وعند الجِسْر حين يَستَحِدُّ ويستحِرُّ» فقالت: وما يَستَحِدُّ وما يَستحِرُّ؟ قال: يَستَحِدُّ حتى يكون مثلَ شَفْرَةِ السَّيف، ويَستحِرُّ حتى يكون مثل الجَمْرةِ، فأمَّا المؤمنُ فَيُجيزُه[١] لا يَضُرُّه، وأما المنافقُ فيتعلَّق حتى إذا بَلَغ أوسَطه خرَّ من قَدَمِه فَيَهْوِي بيدِه إلى قَدَمَيه ـ قالت: فهل رأيتَ من يسعَى حافياً فتأخذُهُ شوكةٌ حتى تكادُ تنفذُ قَدَمَيه، فإنها كذلك يَهْوِي بيدِهِ ورأسِه إلى قَدَمَيه، فَتَضْرِبه الزبانية بخطَّافٍ في ناصيتِه وقَدَمِه، فَتَقذفُه في جهنّم، فَيَهْوِي فيها مقدارَ خمسين عاماً. قلتُ: ما ثِقَلُ الرجلِ؟ قالت: ثقل عشر خَلِفات[٢] سِمَانٍ، فيومئذ يُعرَف المجرمُون بسيماهُم فيؤخَذُ بالنواصي والأقدام»[٣].

هذا حديث غريبٌ [جدًا]، وفيه ألفاظ مُنكَرٌ رفعُها، وفي الإسناد مَن لم يُسَمّ، ومثله لا يُحتَجُّ به، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ هذه جهنَّم التي يُكَذِّب بها المُجرِمُون ﴾، أي: هذه النارُ التي كنتُم تُكذِّبون بوجُودِها ها هي حاضرةٌ تُشاهِدُونها عياناً؛ يُقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً.

وقولُهُ: ﴿ يَطُوفون بينها وبين حَميمٍ آن ﴾، أي: تارة يُعذَّبون في الجحيم، وتارةً يُسقون من الحَميم، وهو الشرابُ الذي هو كالنُّحاس المُذاب، يُقطِّع الأمعاءَ والأحشاءَ. وهذه كقوله تعالى: ﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم والسلاسل يُسحَبُون ۝ في الحميم ثم في النار يُسجَرُون ﴾.

وقولُهُ: ﴿ آنٍ ﴾، أي: حَارٌّ، قد بلغ الغايَةَ في الحرارةِ، لا يُستطاع من شِدَّة ذلك.

قال ابنُ عباس في قوله: ﴿ يطوفُون بينها وبين حَميمٍ آن ﴾، أي: قد انتهى غَلْيُه، واشتد حَرُّه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بنُ جُبير، والضحَّاك، والحَسَن، والثوريُّ، والسُّديُّ.

وقال قتادةُ: قد أَنَى طبخُه منذ خَلَقَ الله السمواتِ والأرضَ. وقال محمد بن كعب القُرَظي: يؤخذُ العبد فَيُحرَّكُ بناصيتِه في ذلك الحَميم، حتى يذوبَ اللحمُ ويبقى العظمُ والعينانِ في الرأس. وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿ في الحميم ثم في النار يُسجَرون ﴾. والحميم الآن: يعني الحارَّ. وعن القرظي رواية أخرى: ﴿ حميم آنٍ ﴾ أي: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر، لا ينافي ما رُوِي عن القرظي أولاً أنه الحارّ،

---

(١) جَاز الموضِعَ وأجازَه: عَبرَه.
(٢) الخَلِفَات: الحوامل من النوق.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه كما في الدر المنثور ٧/٧٠٤.

كقوله تعالى: ﴿تسقى من عين آنية﴾، أي: حارّة شديدةِ الحرِّ لا تُستَطاع، وكقوله: ﴿غيرَ ناظِرينَ إناهُ﴾، يعني استواءه ونُضجَه. فقوله: ﴿ حَمِيم آنٍ ﴾، أي: حَمِيمٍ حارٌّ جدًّا. ولما كان معاقبةُ العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وَعَدْلِهِ ولطفهِ بخلقه، وكانَ إنذاره لهم عذابَه وبأسَه مما يَزجُرهم عمَّا هُم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال مُمتنًا بذلك على بَرِيَّتِه: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبان ﴾.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾

قال ابنُ شَوْذَبٍ، وعطاءُ الخراساني: نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿ ولمن خاف مقام ربِّه جَنَّتان ﴾ في أبي بكرٍ الصِّدِّيق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن مُصَفًّى، حدثنا بقيةُ، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، عن عطيةَ بن قيس في قولِهِ: ﴿ ولمنِ خاف مقام رَبِّه جَنَّتَانِ ﴾: نزلت في الذي قال: أَحْرِقوني بالنار لَعَلِّي أُضِلُّ الله[1]، قال: تاب يوماً وليلةً بعد أن تكلَّم بهذا، فَقَبِلَ الله منه، وأدخله الجنَّةَ[2].

والصحيح أن هذه الآيةَ عامَّةٌ، قاله ابنُ عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامَه بين يَدَي الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يوم القيامة، ﴿ ونهى النفسَ عن الهوى ﴾، ولم يَطْغَ ولا آثر الحياةَ الدنيا، وعَلِم أن الآخرَةَ خيرٌ وأبقى، فَأَدَّى فرائِضَ الله، واجتنَبَ محارِمَه، فله يومَ القيامةِ عند ربِّه جنتان، كما قال البخاري رحمه الله:

حدَّثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الصمد العَمِّي، حدثنا أبو عِمْرانَ الجَوْنِيُّ، عن أبي بكر بن عبد الله بن قَيس، عن أبيه: أَنَّ رسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «جَنَّتان من فِضَّةٍ، آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلَّا رداءُ الكبرياء على وَجْهه في جَنَّة عَدْنٍ»[3].

وأخرجه بقيَّةُ الجَماعةِ إلَّا أبا داودَ، من حَديث عبد العزيز، به[3].

وقال حمادُ بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه ـ قال حَمَّاد: ولا أعلمه إلا قد رَفَعه ـ في قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وفي قوله: ﴿ومن دُونهما جنتان﴾، قال: جنتان من ذَهَبٍ للمقربين، وجَنَّتان من وَرِقٍ لأصحاب اليمين[4].

وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري[5]، حدثنا ابنُ أبي مَرْيَم، أخبرنا محمد بن جعفر، عن محمد بن أبي حَرْمَلَةَ، عن عطاء بن يَسَارٍ، أخبرني أبو الدَّرداء: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿ ولمن خاف مقامَ رَبِّه جنتان ﴾، فقلت: وإن زَنَى وإن سَرَقَ؟ فقال: ﴿ ولمن خافَ مَقام ربِّه جنتان ﴾.

(١) أي: أفوته ويخفى عليه مكاني.
(٢) الدر المنثور ٧/٧٠٦ ـ ٧٠٧ عن ابن أبي حاتم وحده.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك عن الصحيحين. وهو في عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/٦، وأخرجه النسائي في كتاب النعوت وكتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمِزّي ٦/٤٦٧ ـ ٤٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١/٦٦ ـ ٦٧.
(٤) أخرجه الطبري ٢٧/ ١٤٦، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٧/٧٠٨.
(٥) في نسخة: المقري.

فقلت: وَإِنْ زَنَى وإن سَرَق؟ فقال: ﴿ ولمن خافَ مقامَ ربِّه جنتان ﴾. فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وَإِنْ، رَغِمَ(١) أنفُ أبي الدَّرْداء».

رواه النسائي من حديث محمد بن أبي حَرْمَلَة(٢)، به. ورواه النسائي أيضا عن مُؤمّل بن هشام، عن إسماعيل، عن الجُرَيري، عن موسى، عن محمد بن سعيد بن أبي وقاص، عن أبي الدرداء، به(٢). وقد روي موقوفاً على أبي الدرداء. ورُوي عنه أنه قال: إن مَنْ خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق(٣).

وهذا الآية عامَّة في الإنس والجنّ، فهي من أدَلّ دليلٍ على أن الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنُوا واتقوا، ولهذا امتنَّ الله تعالى على الثَّقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ولِمَن خاف مقام رَبِّه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾.

ثم نَعَت هاتين الجنتين فقال: ﴿ ذواتا أفنانٍ ﴾، أي: أغْصَانٍ نَضِرةٍ حسنة، تَحمِل من كلِّ ثمرةٍ نضيجةٍ فائقةٍ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكما تكذبان ﴾. هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة: أن الأفنان أغصانُ الشجَر، يَمَسُّ بعضُها بعضاً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا مُسلم بن قُتَيبة، حدثنا عبد الله بن النُّعمان، سَمِعتُ عِكْرِمة يقول: ﴿ ذواتا أفنانٍ ﴾، يقول: ظِلُّ الأغصانِ على الحيطانِ، ألم تَسْمَع قولَ الشاعر حيث يقولُ(٤):

ما هَاجَ شَوقَكَ من هَدِيل حَمَامَةٍ … تَدْعُو على فَنَنِ الغُصُون حَمَاما
تَدْعُو فَرْخَيْن صادَفَ طَاوِياً … ذا مِخْلَبَين من الصُّقُور قَطَامَا

وحكى البَغَوي عن مجاهد، وعكرمة، والضحَّاك، والكلبي: أنه الغصنُ المستقيمُ طولاً(٥).

قال: وحدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائِب، عن سَعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ ذواتا أفنان ﴾: ذواتا ألوانٍ.

قال: ورُوِي عن سعيد بن جُبَير، والحَسَن، والسُّديّ، وخُصَيف، والنَّضْر بن عَرَبي، وأبي سِنَانٍ مثلُ ذلك. ومعنى هذا القول أنَّ فيهما فُنوناً من الملاذ، واختاره ابنُ جَرير(٦).

وقال عطاءٌ: كل غُصنٍ يجمَعُ فُنوناً من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ ذواتا أفنانٍ ﴾ واسعتا الفناء.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها والله أعلم. وقال قتادةُ: ﴿ ذواتا أفنان ﴾، يُنبِىء بفضلها وسعَتها ومَزِيَّتها على ما سِواها.

وقال محمدُ بن إسحاق، عن يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه، عن أسماء قالت: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وذكر سدرة المنتهى ـ فقال: «يَسِير في ظل الفَنَن منها الراكب مائة سنة ـ أو قال: يَستَظِلُّ في ظل الفَنَن منها مائة راكب، فيها فَرَاش الذهب، كأن ثمرها القِلال».

---

(١) لفظ الطبري ٢٧/١٤٦: «وإن زنى وإن سَرَق رَغِم أنف...».
(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٨/٢٢٧ - ٢٢٨، ٨/٢٣٢.
(٣) أخرجه الطبري وابن المنذر، تفسير الطبري ٢٧/١٤٦، والدر المنثور ٧/٧٠٧.
(٤) أخرجه الطبري إلى مسلم بن قتيبة ٢٧/١٤٧. والأثر في الدر المنثور ٧/٧٠٩.
(٥) في نسخة: (المُنيف طولاً). والمثبت يوافق ما في معالم التنزيل للبغوي ٤/٢٧٤.
(٦) انظر تفسير الطبري ٢٧/١٤٧.

رواه الترمذي من حديث يونس بنُ بُكَير، به(١).

﴿ فيهما عينانِ تَجْريانِ ﴾، أي: تَسْرَحان لِسَقْي تلك الأشجارِ والأغصانِ فتُثمِرُ من جميع الألوان، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبانِ ﴾، قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها (تَسْنِيم)، والأخرى (السَّلْسَبِيلُ). وقال عَطِية: إحداهما من ماء غير آسنٍ، والأخرى من خَمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿ فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجانِ ﴾، أي: مِن جَميع أنواع الثِّمارِ مما يعلَمُون وخَيرٍ مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سَمِعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾.

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما في الدنيا ثمرةٌ حلوةٌ ولا مُرَّةٌ إلا وهي في الجنة حتى الحنظَلة.

وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. يعني أنَّ بين ذلك بَوناً عَظِيماً، وفرقاً بَيِّناً في التفاضل.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ مُتَّكئين ﴾، يعني أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاعُ. ويقال: الجلوسُ على صفة التربّع. ﴿ على فُرُش بطائنها من إستبرقٍ ﴾، وهو: ما غَلُظ من الدِّيباج. قاله عكرمة، والضَّحَّاك، وقتادة.

وقال أبو عِمْران الجوني: هو الديباج المُغْمُول(٢) بالذهب، فنَبَّه على شرف الظُّهارة بشرف البِطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قال أبو إسحاق، عن هُبيرَة بن يَريم، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائنُ فكيفَ لو رأيتم الظواهر(٣)؟

وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرقٍ، وظواهرُها من نُورٍ. وقال سُفيان الثوريُّ - أو: شَريك -: بطائنها من إستبرقٍ، وظواهرُها من نور جامدٍ. وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة. وقال ابن شوذب، عن أبي عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهرَ، وعلى الظواهر المحابس(٤)، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ذكر كُلَّه الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله.

﴿ وجَنَى الجنَّتين دانٍ ﴾، أي: ثَمَرُهما قريبٌ إليهم، متى شاءوا تناولوه، على أيِّ صفةٍ كانوا، كما قال: ﴿ قُطوفها دانيةٌ ﴾، وقال: ﴿ ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُلِّلت قطوفها تذليلاً ﴾، أي: لا تمتنعُ مِمَّن تناوَلَها، بل تنحطُّ إليه من أغصانها، ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبان ﴾.

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/١٢. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٩ من سورة الرعد.

(٢) في نسخة: المُغْرَى.

(٣) أخرجه الطبري ٢٧/١٤٩.

(٤) المحابس: جمع مِحْبَس، وهو: ما يبسط على وجه الفراش للنوم.

ولما ذكر الفُرش وعَظَمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في الفُرُش ﴿قاصراتُ الطَّرفِ﴾، أي: غَضِيضاتٌ عن غير أزواجِهنَّ، فلا يَرَيْنَ شيئاً أحسَنَ في الجنَّةِ من أزواجهنَّ. قاله ابنُ عباس، وقتادةُ، وعطاءٌ الخراساني، وابنُ زيد. وقد وَرَد أن الواحدة منهن تقولُ لِبَعلها: والله ما أَرَى في الجَنَّةِ شيئاً أحسَنَ منك، ولا في الجنَّة شيءٌ أحبُّ إلي منكَ، فالحمدُ لله الذي جَعَلك لي، وجَعَلني لَكَ.

﴿لـم يَطْمِثْهُنَّ إنـس قبلهم ولا جانٌّ﴾، أي: بل هن أبكارٌ عُرُبٌ أتراب، لم يطأهُنَّ أحدٌ قبلَ أزواجِهِنَّ من الإنس والجن. وهذه أيضاً من الأدلة على دخولِ مُؤمني الجنِّ الجنة.

قال أرطاةُ بن المُنذِر: سُئِل ضمرةُ بن حَبِيب: هل يدخل الجنُّ الجنة؟ قال: نعم، ويَنْكِحُون، للجنِّ جِنِّيَّاتٌ، وَللإنس إنسيَّاتٌ. وذلك قوله: ﴿لم يطمِثْهِنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جان﴾[(١)]. ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ﴾.

ثم قال يَنعتهُنَّ للخُطَّاب: ﴿كأنهنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ﴾، قال مجاهدٌ والحسنُ، [والسُّدِّيُّ]، وابنُ زيدٍ، وغيرهم: في صفاءِ الياقوت وبياضِ المَرجانِ، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عَبيدة بن حُمَيد، عن عطاءِ بن السائب، عن عَمرو بن ميمون الأَودِيِّ، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن المرأة من نِساءِ أهلِ الجَنَّة لَيُرى بياضُ ساقها من وراء سَبعين حُلَّةً من الحَرير، حتى يرى مُخُّها[(٢)]»، وذلك أن الله تعالى يقولُ: ﴿كأنهنَّ الياقوتُ والمَرجانُ﴾ فَأَمَّا الياقوتُ فإنه حَجَرٌ لو أدخلتَ فيه سِلْكاً ثم استصفيتَه لرأيتَه من وَرائِه.

وهكذا رواه الترمذيُّ من حديث عَبيدةَ بن حُمَيد وأبي الأحوصِ، عن عطاءِ بن السائب، به. وَرواه موقوفاً، ثم قال: وهو أصحُّ[(٣)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، أخبرنا يونُس، عن محمد بن سِيرينَ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «للرجلِ من أهل الجنَّةِ زَوجتانِ من الحُورِ العينِ، على كلِّ واحدة سبعونَ حُلَّةً، يُرَى مُخُّ ساقها من وراء الثيابِ»[(٤)].

تَفرَّد به الإمام أحمد من هذا الوجه. وقد رَواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمد بن سِيرينَ قال: إما تفاخرُوا وإما تَذاكروا، الرجالُ أكثَرُ في الجنةِ أَم النساءُ؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ـ ﷺ ـ: «إنَّ أَوَّلَ زُمرَةٍ تدخلُ الجنةَ على صورةِ القَمَر ليلةَ البدر، والتي تليها على أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّي في السماء، لِكلِّ امرىء منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللحم، وما في الجَنَّة أعزَبُ»[(٥)].

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصَحِيحَين، من حديث هَمَّام بن مُنَبِّه وأبي زُرْعَةَ، عن أبي هُرَيرة رضيَ الله عنه[(٥)].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحَةَ، عن حُمَيد، عن أنس أن رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قَوسِ أَحَدِكم ـ أو مَوضَعُ قِدِّه ـ يعني سَوْطَه ـ

(١) أخرجه الطبري ٢٧/١٥١.
(٢) أي: مُخُّ العَظْم.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/٨ ـ ٩.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٣٤٥، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤/٢١٧٨ ـ ٢١٧٩.
(٥) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣١٨، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٠.

من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأةٌ من نساءِ أهلِ الجنةِ إلى الأرضِ لملأت ما بينَهُما ريحاً، ولَطَابَ ما بينهما، ولَنَصيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها»[١].

وَرَواه البخاري من حديث أبي إسحاق، عن حُمَيد، عن أنسٍ بنحوه[١].

وقولُهُ: ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾، أي: ما لمن أحسَن في الدُنيا العمَلَ إلاّ الإحسانُ إليه في الدارِ الآخِرَةِ. كما قال تعالى: ﴿ للذين أحسَنُوا الحُسنَى وزيادَةٌ ﴾.

وقال البَغويُّ: أخبرنا أبو سعيد الشرَيحِيّ، حدثنا أبو إسحاق الثَّعلبي، أخبرني ابن فَنجُوَيه، حدثنا ابن أبي شيبة، حَدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بن بَهْرَام، حدثنا الحجاج بن يوسف المكتِبُ، حدثنا بشر بن الحُسَين، عن الزُبير بن عَدِيٍّ، عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾، وقال: «هل تَدرُون ما قال رَبُّكم»؟ قالوا: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: «يقول: هل جزاءُ مَن أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة»[٢].

ولما كان في الذي ذُكِرَ نِعَمٌ عظيمةٌ لا يُقاوِمها عَمَلٌ، بل مُجَرَّد تفضُّلٍ وامتنانٍ، قال بعد ذلك كلِّه: ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكما تُكَذِّبان ﴾.

ومما يتعلَّق بقوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقامَ ربِّه جنتانِ ﴾، ما رواه الترمذي والبَغوي، من حديث أبي النَّضر هاشم بن القاسم، عن أبي عَقيل الثقفي، عن أبي فَرْوَةَ يزيدَ بن سِنَان الرُّهاوِيِّ، عن بُكير بن فَيروز، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن خافَ أدلج، ومن أَدْلَجَ بَلَغَ المنزِل، ألا إنَّ سِلعة الله غاليةٌ، ألا إنَّ سِلعَةَ الله الجنةُ».

ثم قال الترمذيُّ: (غَريبٌ، لا نَعرِفه إلا مِن حديثِ أبي النضر)[٣].

وَرَوى البَغويّ من حديث علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن محمد بنِ أبي حَرْمَلة ـ مولى حُوَيطب بن عبد العُزَّى ـ عن عطاء بن يَسَار، عن أبي الدَّرداء: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يَقُصُّ على المِنبَر وهو يقول: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، قلت: وإن زَنَى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وَلِمَن خافَ مَقَامَ رَبِّه جنتانِ ﴾. فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ـ ﷺ ـ: ﴿ وَلِمَنْ خاف مقام رَبِّه جنَّتانِ ﴾. فقلت الثالثة: وإن زَنَى وإن سَرَق يا رسولَ الله؟ فقال: «وإنْ[٤]، رَغمَ أنفِ أبي الدَّرداءِ»[٥].

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ

(١) مسند الإمام أحمد ١٤١/٣، وفتح الباري، كتاب الجهاد ١٥/٦. والنَّصِيف: الخِمَار.
(٢) معالم التنزيل للبغوي ٢٧٦/٤.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٢٧٧/٩، ومعالم التنزيل للبغوي ٢٧٣/٤.
(٤) في معالم التنزيل: «وإن سَرَق على رَغْم...».
(٥) معالم التنزيل للبغوي ٢٧٣/٤ ـ ٢٧٤.

﴿ ... ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

هاتان الجنتان دون اللَّتين قبلهما في المرتَبة والفَضِيلة والمنزلة بنصِّ القرآن، قال الله تعالى: ﴿ ومن دُونهما جَنَّتان ﴾. وقد تقدم في الحديث: «جَنَّتان من ذَهبٍ آنيتُهما وما فيهما، وجَنَّتان من فِضَّة آنيتُهما وما فيهما، فالأُوليان للمُقَرَّبين، والأُخريان لأصحاب اليَمين».

وقال أبو مُوسى: جَنَّتان من ذهب للمقرَّبين، وجنتان من فِضَّة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿ ومن دُونهما جنتان ﴾، من دونهما في الدَّرَج. وقال ابنُ زيد: من دونهما في الفَضْل.

والدليل على شرف الأُوليَين على الأُخرَيَين وجوه أحدها: أنه نَعَت الأُوليين قبل هاتين، والتقديمُ يَدُلُّ على الاعتناء. ثم قال: ﴿ ومن دُونهما جنتان ﴾. وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الدَّاني.

وقال هناك: ﴿ ذَوَاتا أفنانٍ ﴾، وهي الأغصان أو الفُنون في الملاذِّ، وقال هاهنا: ﴿ مُدهامَّتان ﴾، أي: سَوْدَاوان من شِدَّة الرِّيِّ.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ مُدَهامَّتان ﴾: قد اسودَّتا من الخُضرة، من شدة الرِّي من المَاءِ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابن فُضَيل، حدثنا عَطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس: ﴿ مُدْهامَّتان ﴾، قال: خَضراوان. ورُوِيَ عن أبي أيوب الأنصاري، وعبدِ الله بن الزُّبير، وعبدِ الله بن أبي أوفَى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد - في إحدى الروايات - وعطاءٍ، وعطيةَ العَوفي، والحسن البصري، ويحيى بن رافع، وسُفيان الثَّوري، نحو ذلك.

وقال محمد بن كعب: ﴿ مُدَهامَّتان ﴾: مُمتلِئتان من الخُضرة. وقال قتادةُ: خَضراوان من الرِّي ناعمتان. ولاشك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضُها في بعض. وقال هناك: ﴿ فيهما عينان تَجريان ﴾، وقال هاهنا: ﴿ نَضَّاختان ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عَبَّاسٍ. أي فَيَّاضتان. والجريُ أقوى من النَّضْخِ. وقال الضحاك: ﴿ نضاختان ﴾، أي: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿ فيهما من كل فاكهة زَوجان ﴾، وقال هاهنا: ﴿ فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمَّان ﴾، ولا شك أنَّ الأولى أعمّ وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهةٍ، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تَعُم. ولهذا ليس قولُه: ﴿ ونخلٌ ورمَّانٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاريُّ وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشَرَفهما على غيرهما.

قال عَبْدُ بن حُمَيد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حُصَين بن عمر، حدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عُمَر بن الخطاب قال: «جاء أناس من اليهود إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا محمدُ، أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم، فيها فاكهةٌ ونخلٌ ورمَّانٌ»، قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ «قال: نعم وأضعاف». قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يَعرَقُون ويَرْشَحُون، فيُذهِب الله ما في بُطونهم من أذًى»[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الفضل بن دُكَين، حدثنا سفيان، عن حَمّاد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: نخلُ الجنَّةِ سَعَفُها كِسوَةٌ لأهلِ الجَنَّة، منها مُقَطَّعاتهم، ومنها حُلَلُهم، وكَرَبُها[2] ذهب

(١) أخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة، وابن مَرْدُويه، الدر المنثور ٧/٧١٦.

(٢) الكَرَبُ: الأصل العريضُ للسعَفِ إذا يبس. والعَجَم والعُجَام: نوى كل شيء كالزبيب والرُّمان والبلح.

أحمر، وجُذوعها زُمُرُّدٌ أخضَرُ، وثَمرُها أحلَى من العَسَل، وألْيَنُ من الزُّبدِ، وليس له عَجَمٌ[١].

وحَدَّثنا أبي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد ـ هو ابن سَلَمة ـ عن أبي هارون، عن أبي سَعيد الخُدري، أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «نظرتُ إلى الجَنَّة فإذا الرُّمانة من رُمَّانها كَمِثل البَعِير المُقتَب»[٢].

ثم قال: ﴿ فِيهِنَّ خيراتٌ حِسَانٌ ﴾. قيل: المراد خَيرَاتٌ كثيرةٌ حَسَنة في الجَنَّة، قاله قتادة. وقيل: خَيراتٌ: جمع خَيْرَةٍ، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق،الحسنة الوجه، قاله الجمهور،ورُوِي مرفوعاً عن أم سَلَمة[٣]. وفي الحديث الآخر الذي سَنُورده في «سورة الواقعة»: أن الحور العين يُغَنِّين: نحن الخَيْرات الحسان، خُلِقنا لأزواجٍ كرام[٤]. ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فيهن خَيِّراتٌ﴾[٥]، بالتشديد ﴿حِسَانٌ * فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾.

ثم قال: ﴿ حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام ﴾، وهناك قال: ﴿ فيهن قاصِرات الطَّرف ﴾، ولا شَكَّ أن التي قد قَصَرَتْ طَرْفَهَا بِنَفْسِها أفضلُ ممن قُصِرت، وإن كانَ الجَمِيعُ مُخَدَّراتٍ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عَمرو بن عبد الله الأَوْدِيّ، حدثنا وكيعٌ، عن سفيانَ، عن جابر، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي عبيدة[٦]، عن مسروق، عن عبد الله قال: إنَّ لكلِّ مسلم خَيْرةً ولكلِّ خَيْرةٍ خيمةً، ولكل خَيمةٍ أربعة أبواب، يدخل عليه كل يوم تُحفَةٌ وكرامة وهَدِيَّة لم تكن قبل ذلك، لا مَرِحَاتٍ ولا طَمَّاحات[٧]، ولا بَخِراتٍ ودَفِرَاتٍ، حُورٌ عين، كأَنَّهن بيضٌ مكنونٌ[٨].

وقولُهُ: ﴿ في الخيام ﴾ قال البخاريُّ:

حدثنا محمد بن المثنَّى، حدثنا عبدُ العزيز بنُ عبد الصمَد، حدثنا أبو عِمران الجَوْنيُّ، عن أبي بكر بن عبد الله بن قَيس، عن أبيه أنَّ رسولَ الله قال: «إنَّ في الجنة خَيمةً من لؤلؤةٍ مُجَوَّفةٍ، عرضُها سِتُّون ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهلٌ ما يَرونَ الآخرينَ، يطوفُ عليهم المؤمنُونَ»[٩].

ورواه أيضاً من حديث أبي عِمْرَانَ، به وقال: «ثلاثون ميلاً»[٩]. وأخرجه مسلم من حديث أبي عِمران، به، ولفظه: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدة مُجَوَّفةٍ، طولُها سِتُّون ميلاً، للمؤمن فيها أهلُون يطوفُ عليهم المؤمن فلا يَرَى بعضُهم بعضاً»[٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسنُ بن أبي الربيع، حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن قتادةَ، أخبرني خُلَيد العَصري، عن أبي الدرداءِ قال: الخيمةُ لؤلؤةٌ واحدة، فيها سبعون باباً من دُرٍّ[١٠].

---

(١) أخرجه غير واحد، انظر الدرّ المنثور ٧/٧١٧.

(٢) المُقْتَب: الذي شُدَّ عليه القَتَبُ، وهو رحل صغير على قدر سنام البعير. والحديث في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وحده ٧/٧١٧.

(٣) أخرجه ابن جرير ٢٧/١٥٨، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/٣٦٧ـ٣٦٨.

(٤) انظر تفسير الآيات ٣٧ من سورة الواقعة، وهو الحديث الذي أخرجه أبو يعلى، والإمام عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بدُحَيْم.

(٥) قرأ بذلك بكر بن حبيب، وأبو عثمان النَّهدي، وابن مِقْسَم. انظر روح المعاني للألوسي ٢٧/١٢٣.

(٦) كذا وفي تفسير الطبري ومصنف ابن أبي شيبة: عبيد.

(٧) المَرِحُ: شدَّة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره، وهو أيضاً: التَّبَخْتُر والاختيال، قال تعالى: ﴿ ولا تَمش في الأرض مَرَحاً ﴾. والطمَّاحة: هي الناشزة الجامحة المبغضة لزوجها وتنظر إلى غيره.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٧/١٥٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/١٣٣.

(٩) فتح الباري، تفسير سورة الرحمن ٨/٦٢٤، ورواية أبي عمران في كتاب بدء الخلق ٦/٣١٨، وحديث مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٨٢.

(١٠) الأثر في تفسير الطبري، بإسناده إلى خُلَيد ٢٧/١٦١.

وحدثنا أبي، حدثنا عيسى بن أبي فاطِمَةَ، حدثنا جَرير، عن هشام، عن محمد بن المثنَّى، عن ابن عباس في قوله: ﴿ حورٌ مقصوراتٌ في الخيام ﴾، قال: في خيام اللؤلؤِ،والخمية من لؤلؤة واحدةٍ، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعةُ آلافِ مصراعٍ من الذَّهَب[1].

وقال عبد الله بن وَهْب: أخبرنا عَمرو أن دَرّاجاً أبا السَّمْح حَدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً الذي له ثمانُونَ ألفَ خادم، واثنتانِ وسبعُونَ زوجةً، وتُنصَبُ له قبةٌ من لؤلؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء». رواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث، به[2].

وقولُهُ: ﴿ لم يطمثهن إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ﴾: قد تقدَّم مثلُه سواءً، إلا أنه زادَ في وصف الأوائلِ بقوله: ﴿ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمرجانُ ﴾، ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان﴾.

وقولُهُ: ﴿ مُتَّكِئين على رفرف خُضرٍ وعبقريٍّ حِسَانٍ ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابِسُ[3]. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادةُ، والضحاك، وغيرهما: هي المحابسُ. وقال العلاء بن زيد[4]: الرفرفُ على السرير، كهيئة المَحابس المتدلِّي.

وقال عاصم الجَحْدَرِيّ: ﴿ متكئين على رفرفٍ خضر ﴾، يعني: الوَسَائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه. وقال أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي بشرٍ، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿ متكئين على رفرف خُضْرٍ ﴾، قال: الرفرفُ رياضُ الجنةِ.

وقولُهُ: ﴿ وعبقريٍّ حسان ﴾، قال ابنُ عباس، وقتادةُ، والضحاك، والسُّديُّ: العبقري: الزرابيُّ. وقال سعيد بن جبير: هي عِتَاقُ الزرابي، يعني: جِيادَهَا. وقال مجاهد: العبقري: الديباج.

وسُئِل الحسن البصري عن قوله: ﴿ وعبقري حسان ﴾، فقال: هي بُسُط أهلِ الجنةِ ـ لا أبالَكم ـ فاطلبوها. وعن الحسن رِوَايَةً. أنها المَرَافق. وقال زيدُ بن أسلم: العبقريُّ: أحمرُ وأصفرُ وأخضرُ. وسئل العلاء بن زيد عن العبقريِّ فقال: البسطُ أسفل من ذلك. وقال أبو حَزْرَةَ يَعقوبُ بن مجاهد: العبقريُّ من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد. وقال أبو العالية: العبقريُّ: الطنافس المُخْمَلَةُ، إلى الرِّقة ما هي! وقال القُتَيبي: كل ثوب مُوَشًى عند العرب عبقريّ. وقال أبو عُبَيدة: هو منسوبٌ إلى أرض يُعمَل بها الوشيِ. وقال الخليل بن أحمد: كلُّ شيءٍ نَفِيسٍ من الرِّجال وغير ذلك يُسمَّى عند العرب عَبْقَرِيّاً[5]، ومنه قولُ النبيِّ ـ ﷺ ـ في عُمَر: «فلم أر عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرْيَهُ»[6].

وعلى كل تقدير فصفة مَرَافِقِ أهل الجنَّتين الأُوليين أرفعُ وأعلى من هذه الصِّفة، فإنه قد قال هناك: ﴿ مُتَّكِئين على فُرُشٍ بطائنها من إستَبرقٍ ﴾، فنعت بَطَائِنَ فُرُشِهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاءً بما مَدَح به البطائنَ بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفاتِ المتقدمة: ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان ﴾، فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن

(١) أخرجه الطبري ٢٧/١٦١.
(٢) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ٩/٣٥.
(٣) المَحَابِسُ: جمع مَحْبِس، وهو ما يُبْسَط على وجه الفراش للنوم.
(٤) في بعض النسخ: بن بدر.
(٥) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٩٢.
(٦) أخرجه الشيخان في فضل عُمَر، فتح الباري، ٧/٤١، ومسلم، ٤/١٨٦٠. ومعنى يَفْري فَرْيَه: يعمَلُ عمله.

الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. فهذه وجوهٌ عَديدة في تَفضِيل الجنتين الأُولَيين على هاتين الأخريين، ونسألُ الله الكَريم الوهَّاب أن يجعلنا من أهلِ الأوليين.

ثم قال: ﴿تباركَ اسمُ ربك ذِي الجَلالِ والإكرامِ﴾، أي: هو أهلٌ أن يَجِلَّ فلا يُعصَى، وأن يُكرَم فَيُعبَدَ، ويُشكَرَ فلا يُكفَر، وأن يُذكَرَ فلا يُنسَى.

وقال ابن عباس: ﴿ذِي الجَلال والإِكْرَام﴾: ذي العَظَمةِ والكبرياءِ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثَوبان، عن عُمَير بن هانىء، عن أبي العَذراء، عن أبي الدَّرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أجِلُّوا الله يُغفَر لَكُم»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «إنَّ من إجلال الله إكرامَ ذِي الشَّيبة المسلمِ، وَذِي السُّلطانِ، وحاملِ القرآنِ غير الغَالي فيه ولا الجافي عنه»[(٢)].

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدثنا أبو يوسف الجيزيُّ، حدثنا مُؤمَّل بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا حُميد الطَّويل، عن أَنَسٍ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام»[(٣)].

وكذار رواه الترمذي، عن محمود بن غَيلان، عن مُؤَمّل بن إسماعيل، عن حَمَّاد بن سلمة، به ثم قال: غلط المؤمَّل فيه، وهو غَريبٌ وليس بمحفوظٍ، وإنما يُروَى هذا عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن النبي ﷺ[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيمُ بنُ إسحاقَ، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن حَسَّان المقدسي، عن ربيعةَ بن عامرٍ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «أَلِظُّوا بِذِي الجَلَالِ والإكرام»[(٤)]. ورواه النسائيُّ من حديثِ عبد الله بنِ المُبَارَكِ، به.

قال الجوهري: «أَلَظَّ فُلانٌ بِفُلانٍ: إذا لَزِمه، وقولُ ابن مسعود: أَلِظُّوا بياذَا الجَلَالِ والإِكْرَامِ، أي: الزمُوا. ويقال: الإلْظاظُ هو الإلحاحُ»[(٥)].

قلتُ: وكلاهُما قريب من الآخر ـ والله أعلم ـ وهو المداومة واللزوم والإلحاحُ. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة، من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا سَلَّم لا يقعُد يعني بعد الصلاة إلا قَدْر ما يقول: «اللهُمَّ أنتَ السلامُ ومِنْكَ السلامُ، تباركْتَ ذا الجَلَالِ والإكرامِ»[(٦)].

آخر تفسير سُورَةِ الرحمنِ، ولله الحَمْدُ والمنَّةُ

(١) مسند الإمام أحمد ١٩٩/٥.
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٢٦١/٤ ـ ٢٦٢.
(٣) مسند أبي يعلى ٦٢/٤. وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٥٠/١٣.
(٤) مسند الإمام أحمد ١٧٧/٤، وأخرجه النسائي في كتابي النعوت والتفسير من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٦٧/٣.
(٥) الصحاح للجوهري: لظظ.
(٦) مسلم، كتاب المساجد ٤١٤/١. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٨٤/٢، وعارضة الأحوذي، أبو الصلاة ٩١/٢ ـ ٩٢، والنسائي، كتاب السهو ٦٩/٣، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٢٩٨/١.

تفسير

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّة

قال أبو إسحاقَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ؟ قال: «شَيَّبَتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعَمَّ يَتَساءَلُون، وإذا الشمسُ كُوِّرت». رَواه الترمذي وقال: «حَسَنٌ غَرِيب»[١].

وقال الحافظُ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مَسعُودٍ بسنده إلى عَمرو بن الربيع بن طَارق المِصْريِّ: حدثنا السَّري بن يحيى الشيباني، عن أبي شجاع، عن أبي ظَبْيَة قال: مَرِض عبد الله مَرَضه الذي تُوُفِّي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذُنُوبي. قال: فما تَشْتَهِي؟ قال: رحمةَ ربي. قال: ألا آمر لك بِطَبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني. قال: ألا آمر لك بعَطاء؟ قال: لا حاجَةَ لي فيه. قال: يكونُ لبناتِك مِن بَعدك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يَقرأن كلَّ ليلة سورةَ الواقعةِ، إني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَن قرأ سورة الواقعة كُلَّ ليلة لم تُصِبه فاقةٌ أبداً».

ثم قال ابن عساكر: كذا قال، والصواب عن «شجاع»، كما رواه عبد الله بن وهب، عن السريِّ.

وقال عبدُ الله بن وهب: أخبرني السَّريّ بن يحيى أَنَّ شجاعاً حَدَّثه، عن أبي ظَبْيَةَ، عن عبد الله بن مسعود قال: سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَن قرأ سورةَ الواقعةِ كل ليلة لم تُصِبه فاقةٌ أبداً». فكان أبو ظَبْيَةَ لا يَدَعُها.

وكذا رواه أبو يَعْلَى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن محمد بن مُنِيب، عن السَّرِيِّ بن يحيى، عن شجاع، عن أبي ظَبْيَةَ، عن ابن مسعود، به. ثم رواه عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن محمد بن المُنِيب العَدَني، عن السري بن يحيى، عن أبي ظَبْيَةَ، عن ابن مسعود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كلِّ ليلةٍ لم تُصِبه فاقة أبداً».

لم يذكر في سنده «شجاعاً»، قال: وقد أمرتُ بَنَاتِي أن يَقرأْنها كلَّ ليلةٍ.

وقد رواه ابن عساكر أيضاً من حديث حجاج بن نُصَير وعثمانَ بن اليَمانِ، عن السَّرِيِّ بن يحيى، عن

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الواقعة ١٢/ ١٨١. وقد تقدّم الحديث في مفتتح سورة هُود، وخرجناه هنالك.

شجاع، عن أبي فاطمة قال: مَرِض عبد الله، فأتاه عثمانُ بنُ عفان يعودُه، فذكر الحديث بطوله. قال عثمانُ بن اليَمان: كان أبو فاطمةَ هذا مولًى لعلي بن أبي طالبٍ.

وقال أحمدُ؛ حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيلُ ويحيى بن آدم، حدثنا إسرائيلُ، عن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ: أنه سَمع جابرَ بن سَمُرَةَ يقول: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي الصلواتِ كنحوٍ من صلاتِكُم التي تُصَلُّونَ اليوم، ولكنه كان يُخَفِّف، كانت صلاته أخفَّ من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجرِ «الواقعةَ» ونحوها من السور[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

الواقعةُ: مِن أسماءِ يَوم القيامةِ، سُمِّيت بذلك لِتحقُّقِ كَونها ووجُودِها، كما قال: ﴿ فيومئذٍ وَقَعتِ الواقعةُ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ لَيسَ لِوقْعَتِها كاذبةٌ ﴾، أي: ليس لوقُوعها إذا أراد الله كونَها صارِفٌ يَصرفُها، ولا دافعٌ يدفعُها، كما قال: ﴿ استَجِيبُوا لَربِّكم من قبل أن يأتِيَ يومٌ لا مَرَدَّ له من الله ﴾، وقال: ﴿سأَل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ ۞ للكافرينَ ليس له دافعٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم يقول كُن فيكونُ قولُه الحقُّ وله الملكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ عالمُ الغيبِ والشهادةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ ﴾.

ومعنى ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ كما قال محمد بن كعب: لا بُدَّ أن تكونَ. وقال قتادةُ: ليس فيها مَثْنَوِيَّةٌ[2] ولا ارتدَادٌ ولا رَجعةٌ. قال ابنُ جرير: والكاذبة: مصدر كالعاقبةِ والعَافيةِ[3].

وقولُهُ: ﴿ خافِضَةٌ رافِعَةٌ ﴾، أي: تَخفِضُ أقواماً إلى أسفل سَافلينَ إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعِزَّاءَ، وترفعُ آخرينَ إلى أعلى عِلِّيين إلى النَّعيم، وإن كانوا في الدنيا وُضَعَاءَ. وهكذا قال الحسن، وقتادةُ، وغيرُهما.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا يزيدُ بن عبد الرحمن بن مُصعَب المَعْنِيُّ، حدثنا حُمَيد بن عبد الرحمن الرُّؤاسي، عن أبيه، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ خَافِضَةٌ رافعة ﴾: تَخفِضُ أناساً وتَرفعُ آخرين.

وقال عُبيد الله العَتَكي، عن عثمان[4] بن سُرَاقة ابن خَالِهِ عُمَر بن الخطاب: ﴿ خافضةٌ رافعةٌ ﴾، الساعة خَفَضَت أعداء الله إلى النار، ورفعَتْ أولياءَ الله إلى الجَنَّةِ.

(١) مسند الإمام أحمد ١٠٤/٥.

(٢) أي: لا استثناء.

(٣) تفسير الطبري ١٦٦/٢٧.

(٤) هو عثمان بن عبد الله بن سراقة، كما في تفسير الطبري ١٦٦/٢٧، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٥٥/٦. وكذا في النسخ: عن عثمان بن سراقة ابن خالة عُمَر بن الخطاب. والأثر في تفسير القرطبي ١٩٥/١٧ منسوباً إلى عُمَر بن الخطاب، وكذلك في الدرّ المنثور ٤/٨. على أنه في تفسير الطبري ١٦٦/٢٧ منسوبٌ إلى عثمان بن عبد الله بن سراقة. هذا وقد ذكر في تهذيب الكمال ٩١٢/٢ في ترجمة عثمان بن عبد الله بن سراقة أنَّ أمه زينب بنت عُمَر بن الخطاب.

وقال محمدُ بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مُرتفعين، وترفعُ رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال السُديُّ: خَفَضت المتكبِّرين ورفعَتِ المتواضعين. وقال العَوفيّ، عن ابن عباس: ﴿ خافضةٌ رافِعَةٌ ﴾: أسمعت القريب والبعيد، وقال عِكْرِمةُ: خَفَضت فأسمَعَتِ الأدنى، ورفعت فأسمعَتِ الأقصى. وكذا قال الضحاكُ، وقتادةُ.

وقولُهُ: ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًا ﴾، أي: حُرِّكت تحريكاً فاهتزَّت واضطربَت بِطُولها وعَرْضِها. ولهذا قال ابنُ عباس، ومجاهِدٌ، وقتادة، وغير واحد في قوله: ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا ﴾، أي: زُلزِلَت زِلزَالاً. وقال الربيعُ بن أنس: تُرَجّ بما فيها كَرَجّ الغِرْبَالِ بما فيه.

وهذه كقوله تعالى: ﴿ إذا زُلزِلَتِ الأرض زِلْزَالها ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ اتقُوا ربَّكم إن زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ وبُسَّت الجِبَالُ بَسًّا ﴾، أي: فُتِّتَتْ فتًّا. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، وغيرهم. وقال ابنُ زيدٍ: صارتِ الجبالُ كما قال تعالى: ﴿ كَثِيباً مَهِيلاً ﴾.

وقولُهُ: ﴿ فكانت هباءً مُنبثاً ﴾، قال أبو إسحاق، عن الحارثِ، عن عَلِيٍّ ـ رضي الله عنه ـ: ﴿ هباءً منبثاً ﴾ كرهَجِ الغُبار يسطَعُ ثم يذهَبُ، فلا يبقى منه شيءٌ.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿ فكانت هباءً منبثاً ﴾: الهباءُ الذي يَطِير من النارِ إذا اضطرمَت يطيرُ منه الشَررُ، فإذا وقع لَم يكُن شيئاً.

وقال عكرمة: المُنبَثُّ: الذي قد ذَرَته الريحُ وَبَثَّته. وقال قتادةُ: ﴿ هباءً مُنبَثًّا ﴾ كَيَبِيس الشجرِ الذي تَذْرُوه الرِّياح.

وهذه الآية كأخواتِها الدالَّةِ على زَوَالِ الجبالِ عن أماكنها يومَ القيامةِ، وذَهَابها وتَسْيِيرها ونَسْفِها، وصيرُورتها كالعِهن المنفوش.

وقولُهُ: ﴿ وكنتُم أزواجاً ثلاثةً ﴾، أي: ينقسم الناسُ يومَ القيامة إلى ثلاثة أصنافٍ: قومٌ عن يمين العَرش، وهم الذين خَرجوا من شق آدم الأيمن، ويُؤتَون كُتبَهم بأيمانهم ويؤخَذُ بهم ذات اليمين. قال السُديُّ: وهم جمهورُ أهلِ الجنة. وآخرون عن يَسار العرش، وهم الذين خَرجُوا من شق آدم الأيسر، ويُؤتَون كُتُبَهم بشمائلهم، ويؤخَذُ بهم ذات الشمال. وهم عامَّةُ أهل النار ـ عياذاً بالله من صَنيعهم ـ وطائفةٌ سابِقُون بين يَدَيه وهم أخصُّ وأحظى وأقربُ من أصحاب اليمين الذين هم سادَتُهم، فيهم الرسلُ والأنبياءُ والصدِّيقون والشهداء وهم أقلُّ عدداً من أصحابِ اليمين. ولهذا قال: ﴿فأصحابُ الميمَنة ما أصحابُ الميمنةِ * وأصحابُ المشأمةِ ما أصحابُ المشأمةِ * والسابقَون السابقون * أولئك المُقَرَّبُون﴾. وهكذا قَسَّمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقتَ احتِضَارهم، وهكذا ذَكَرهم في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطَفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهُم مقتصِدٌ ومنهُم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ﴾. . . الآية، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه، كما تقدَّم بيانه(١).

قال سفيان الثوري، عن جابر الجُعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وكنتُم أزواجاً ثلاثةً ﴾،

(١) انظر تفسير الآية ٣٢ من سورة فاطر.

قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطَفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات ﴾.

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عبَّاس: هذه الأزواجُ الثلاثةُ هم المذكورون في آخر السورة وفي سُورَة الملائكةِ.

وقال يزيد الرَّقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾، قال: أصنافاً ثلاثة.

وقال مجاهدٌ: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثةً ﴾، يعني: فِرَقاً ثلاثةً. وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثةً. وقال عُبَيد الله العَتَكي، عن عثمان بن سُرَاقة، ابن خالةِ عمر بن الخطاب: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾: اثنانِ في الجَنَّة، وواحدٌ في النار.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُحمَّد بن الصباح، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سِمَاكٍ، عن النعمان بن بشير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وإذا النفوسُ زُوِّجت ﴾، قال: الضُرَباء، كلُّ رجل مع[1] كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله يقول: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثةً * فأصحابُ الميمَنَةِ ما أصحابُ الميمنَةِ * وأصحابُ المشأَمةِ ما أصحاب المشأَمَةِ * والسابقُون السابقُون﴾، قال: هم الضُرَباء.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عبد الله بن المثنى، حدثنا البَرَاء الغَنَوِيّ، حدثنا الحَسَن، عن مُعاذِ بن جبل: أن رسول الله ـ ﷺ ـ تَلَا هذه الآية: ﴿ وأصحابُ اليَمينِ ﴾، ﴿ وأصحابُ الشِمالِ ﴾، فقبَضَ بيدِه قَبْضَتَين فقال: «هذه للجنةِ ولا أُبالي، وهذه للنَّارِ ولا أُبالِي»[2].

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا خالد بن أبي عِمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أتدرُونَ من السابقُون إلى ظلِّ الله يومَ القيامةِ؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: الذين إذا أُعطوا الحقَّ قَبِلُوه، وإذا سُئِلُوه بَذَلُوه، وحَكَمُوا للناس كَحُكْمِهم لأنفسِهم»[3].

وقال محمد بن كعب وأبو حَزْرَةَ يعقوبُ بن مجاهد: ﴿ والسابقُون السابقُون ﴾: هم الأنبياءُ ـ عليهم السلامُ ـ. وقال السُديُّ: هـم أهلُ عِلِّيين. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ والسابقُون السابقُون ﴾، قال: يُوشَعُ بن نُونٍ، سَبَقَ إلى موسى، ومُؤمن آل (يسٓ)، سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب سبَقَ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ. رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن هارون الفلاس، عن عبد الله بن إسماعيلَ المدائني البَزَّازِ، عن شُعَيب[4] بن الضحَّاك المدائني، عن سفيان بن عُيَينة، عن ابن أبي نَجيح، به.

وقال ابنُ أبي حاتم: وذَكَر محمد بن أبي حَمَّاد، حدثنا مهران، عن خارجة، عن قُرَّة، عن ابن سِيرِينَ: ﴿ والسابقون السابقون ﴾، الذين صَلُّوا للقِبلَتين. ورواه ابن جرير من حديث خارجة، به[5].

وقال الحسنُ وقتادةُ: ﴿ والسابقُون السابقُونَ ﴾، أي: من كلِّ أُمَّةٍ.

وقال الأوزاعيُّ، عن عثمان بن أبي سَوْدَةَ أنه قرأ هذه الآية. ﴿والسابقُون السابقُون * أولئك المُقَرَّبون﴾، ثم قال: أولهم رَوَاحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيلِ الله[5].

(١) في النسخ: (من كل). والمثبت عن الدر المنثور ٧/٨.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٣٩.
(٣) مسند الإمام أحمد ٦/٦٧.
(٤) في النسخ. سفيان بن الضحاك. والمثبت عن الجرح والتعديل ترجمة شعيب ٤/٣٤٨، وترجمة عبد الله بن إسماعيل البزاز ٥/٤.
(٥) تفسير الطبري ٢٧/١٧١.

وهذه الأقوال كلُّها صحيحة، فإنَّ المرادَ بالسابقين هم المبادرُونَ إلى فعل الخيراتِ كما أُمِرُوا، كما قال تعالى: ﴿ وسارِعُوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ ﴾، وقال: ﴿ سابِقُوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنة عرضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ ﴾، فمَن سابَقَ في هذه الدُنيا وسَبَقَ إلى الخير كان في الآخرةِ من السابقين إلى الكرامة، فإنَ الجزاءَ من جِنْسِ العَمَلِ، وكما تَدين تُدان. ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك المقرَّبون * في جناتِ النعيمِ ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن زكريا القَزَّاز الرازيُّ، حدثنا خارجة بن مُصعَب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسار، عن عبد الله بن عَمرو قال: قالت الملائكةُ: يا ربِّ، جعلتَ لبني آدمَ الدُنيا فهم يأكلُون ويشرَبُون ويتزوَّجُون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعلُ. فراجعُوا ثلاثاً، فقال: لا أجعلُ مَن خلقتُ بيدَيَّ كمن قلت له: كُن، فكانَ. ثم قرأ عبد الله: ﴿والسابِقُون السابِقُون * أولئك المقرَّبون * في جناتِ النعيم﴾.

وقد رَوَى هذا الأثر الإمام عثمانُ بن سَعيدٍ الدارميُّ في كتابه «الرد على الجَهمية»، ولفظُه: فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: (لن أجعلَ صالح ذُرِّية مَن خلقتُ بيدَيَّ كمن قلت له: كُن، فكانَ).

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقرَّبين أنهم ثُلَّة، أي: جَماعةٌ من الأولين، وقليل من الآخرين. وقد اختلفُوا في المراد بقوله: ﴿ الأوَّلين ﴾ و﴿ الآخرين ﴾. فقيل: المراد بالأولين الأممُ الماضيةُ، وبالآخرين هذه الأمةُ. هذا روايةٌ عن مجاهد، والحسن البصري، رَوَاها عنهُما ابنُ أبي حاتم، وهو اختيارُ ابن جرير[1]، واستأنسَ بقوله ـ ﷺ ـ: «نحن الآخِرُون السابِقُون يومَ القيامة»[2]. ولم يحكِ غيرَه، ولا عَزاه إلى أحدٍ.

ومما يُستأنَسُ به لهذا القولِ ما رواه الإمامُ أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطبَّاع، حدثنا شَريك، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: لما نزلت: ﴿ ثُلَّة من الأولين * وقليلٌ من الآخرين﴾، شَقَّ ذلك على أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فنزلت: ﴿ثُلَّة من الأولين * وثُلَّةٌ من الآخرين ﴾ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إني لأرجو أن تكونُوا رُبُعَ أهل الجنة، ثُلُثَ أهل الجنة، بل أنتم نصفُ أهلِ الجنة ـ أو: شَطر أهلِ الجنة ـ وتُقاسِمُونهم النصفَ الثاني».

ورواه الإمام أحمد، عن أسود بن عامر، عن شريك، عن محمد بيّاع المُلاءِ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، فذكره[3]. وقد رُوِي من حديث جابر نحوُ هذا، وَرَواه الحافظ ابن عساكر من طريق هشام بن عمار: حدثنا عبد

(١) تفسير الطبري ٢٧/١٧٢.

(٢) لم يقع لنا في هذا الموضع من تفسير الطبري. والحديث تقدَّم عند تفسير الآية ٢١٣، ٢٢٤ من سورة البقرة، ١١٠ من سورة آل عمران، ٤٧ من سورة يونس، ١٢٤ من سورة النحل. وخرجناه هنالك.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٩١.

ربه ابن صالح، عن عُروَة بن رُوَيم، عن جَابر بن عبد الله، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: لما نَزَلت ﴿إذا وقعت الواقعةُ﴾، ذُكِر فيها ﴿ثُلَّةٌ من الأولين * وقليلٌ من الآخرين﴾، قال عُمَر: يا رسول الله، ثُلَّةٌ من الأولين وقَلِيلٌ منا؟ قال: فأَمسِكَ آخر السورة سنة، ثم نَزَل: ﴿ثُلَّة من الأولين * وثُلَّة من الآخرين﴾، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا عُمَرُ، تَعَال فاسمَع ما قد أنزلَ الله: ﴿ثُلَّة من الأولين * وثُلَّة من الآخرين﴾، ألا وإنَّ مِن آدَمَ إليَّ ثُلَّةٌ، وأمتي ثُلَّة، ولن تَستكمِلَ ثُلُثَنَا حتى نَستَعِينَ بالسودان من رعاة الإبل، ممن شَهد أن لا إلَه إلا الله وحدَه لا شريكَ له».

هكذا أوردَه في ترجمة «عُرْوَةَ بن رُوَيم»، إسناداً ومتناً، ولكن في إسنادِه نظر. وقد وَرَدت طُرُقٌ كثيرةٌ مُتعدِّدةٌ بقوله ـ ﷺ ـ: «إني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّة»... الحديثَ بتمامه، وهو مفردٌ في «صفة الجنة» ولله الحمدُ والمِنَّة.

وهذا الذي اختاره ابنُ جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قولٌ ضَعيفٌ، لأنَّ هذه الأمة هي خيرُ الأمم بنص القرآن، فيبعُد أن يكون المُقَرَّبون في غيرها أكثَرَ، اللهُمَّ إلا أن يُقَابلَ مجموعُ الأمم بهذه الأمَّة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم، فالقولُ الثاني في هذا المقام هو الراجحُ، وهو أن يكونَ المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ من الأولين﴾، أي: من صَدْرِ هذه الأمة، ﴿وقليلٌ من الآخرين﴾، أي: من هذه الأمَّة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصَّباح، حدثنا عَفَّان، حدثنا عبد الله بن بكر المُزَنيُّ، وسمعت الحسن أَتَى على هذه الآيةِ: ﴿والسابقُون السابقُون * أولئك المقرَّبون﴾، فقال: أما السابقُون فقد مَضَوا، ولكن اللهُمَّ اجعلنا من أهل اليمين.

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا السري بن يحيى قال: قرأ الحسنُ: ﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثُلَّةٌ من الأولين﴾، قال: ثُلَّة ممن مَضَى من هذه الأمَّة.

وحَدَّثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المُغيرة المِنْقَري، حدثنا أبو هلال، عن محمد بن سِيرِينَ أنه قالَ في هذه الآية: ﴿ثُلَّة من الأولين * وقليلٌ من الآخرين﴾، قال: كانوا يقولُون أو يرجُون أن يكونوا كلُّهم من هذه الأمة.

فهذا قول الحسن وابن سيرين أنَّ الجميع من هذه الأمة. ولا شَكَّ أن أَوَّل كُلِّ أمة خيرٌ من آخرها، فَيحتَمِل أن يَعُمَّ الأمر جميع الأمم، كُلُّ أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «خيرُ القرون قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونَهُم»[1]... الحديثَ بتمامه. فأما الحديثُ الذي رَوَاه الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا عبد الرحمن، حدثنا زيادٌ أبو عُمَرَ، عن الحسن، عن عَمَّار بن ياسر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَثَلُ أُمَّتي مثلُ المَطَر، لا يُدْرَى أَوَّلُه خيرٌ أم آخِرُه»[2].

فهذا الحديثُ بعدَ الحكم بصحَّةِ إسنادِه محمولٌ على أن الدِّين كما هو محتاج إلى أَوَّلِ الأمةِ في إبلاغِه إلى مَن بعدهم، كذلك هو مُحتاجٌ إلى القائمين به في أواخرها، وتَثبيتِ الناس على السُّنة وروايتها وإظهارها، والفضلُ للمتقدِّم. وكذلك الزَّرع الذي يحتَاجُ إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدةَ الكُبرى على

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان، وخرجناه هنالك.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٣١٩.

الأول، واحتياجُ الزرع إليه آكَدُ، فإنه لولاه ما نَبت في الأرض ولا تَعلّق أساسُه فيها، ولهذا قال ـ عليه السلامُ ـ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفَهُم إلى قيامِ الساعة»[١].
ـ وفي لفظ: «حَتَّى يأتي أمرُ الله وهُم كذلك»[١].

والغرضُ أن هذه الأمةَ أشرفُ من سائر الأمم، والمقرَّبون فيها أكثرُ من غيرها. وأعلى منزلة، لِشَرَف دينِها وعِظَمِ نَبيِّها، ولهذا ثَبت بالتواتر عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعينَ ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وفي لفظ: «مع كُلِّ ألف سبعونَ ألفاً» وفي آخر: «مع كلِّ واحدٍ سبعُون ألفاً»[٢].

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مَرْيد الطبراني، حدثنا محمد ـ هو ابنُ إسماعيلَ بن عَيَّاش ـ حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ ـ يعني ابن زُرعة ـ عن شُرَيح ـ هو ابن عُبَيد ـ عن أبي مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما والذي نفسي بيدِه لَيُبْعَثَنَّ منكم يومَ القيامة مثلَ الليلِ الأسودِ زُمرةٌ جميعُها يُحيطُون الأرض، تقولُ الملائكة: لَمَا جاء مع محمدٍ ـ ﷺ ـ أكثرُ مما جاء مع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ».

وحَسَنٌ أن يُذكَر هاهنا الحديثُ الذي رَواه الحافظُ أبو بكر البَيْهَقِيُّ في «دلائل النبوة» حيث قال:

أخبرنا أبو نصر بنُ قتادَةَ، أخبرنا أبو عَمْرو[٣] بن مَطَر، حدثنا جَعفر بن محمد بن المُستَفَاض الفِرْيَابِيُّ، حدثني أبو وهب الوليدُ بن عبد الملك بن عبد[٤] الله بن مُسَرِّح الحَرَّاني، حدثنا سُلَيمان بن عطاء القُرَشي الحَرّاني، عن مَسْلَمَةَ[٥] بن عبد الله الجُهْني، عن عمه أبي مَشْجَعَة بن ربعي، عن ابن زَمْل الجُهْني ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا صلى الصبح قال وهو ثانٍ رجليه: «سبحانَ الله وَبِحَمْدِه، وَأستغفرُ الله إن الله كان تَوَّاباً» ـ سبعين مرة ـ ثم يقول: «سبعين بسبعمائة، لا خير لمن كانت ذنُوبه في يوم واحدٍ أكثرَ من سبعمائة». ثم يقول ذلك مَرَّتين، ثم يستقبلُ الناسَ بوَجهه، وكان تُعجبُه الرؤيا، ثم يقول: «هل رأى أحدٌ منكم شيئاً»؟. قال ابن زَمْل: فقلتُ: أنا يا رسولَ الله، فقال: «خَيْرٌ تَلْقَّاه، وشَرٌّ تَوَقَّاه، وخيرٌ لنا، وشرٌّ على أعدائنا، والحمد لله ربِّ العالمين، اقصُص رؤياك». فقلت: رأيتُ جميعَ الناس على طريقٍ رَحبٍ سَهل لَاحِبٍ[٦]، والناسُ على الجَادَّة منطلقين، فبينما هم كذلك إذا أشفَى ذلك الطريقُ على مَرْج لم تَرَ عيني مثله يَرِفُّ رَفِيفاً، يقطُر ماؤه، فيه من أنواع الكلأ، قال: وكأني بالرَّعْلَة الأولى حين أشفَوا على المرج كَبَّروا، ثم أكبُّوا رَواحِلَهم في الطريق، فلم يظلِمُوه يميناً ولا شمالاً، قال: فكأني أنظر إليهم مُنطَلِقين. ثم جاءت الرَّعلة الثانية وهم أكثر منهم أضعافاً، فلما أشفوا على المرج كَبَّروا ثم أكبُّوا رَواحلهم في الطريق، فمنهم المُرتِع، ومنهم الآخِذُ الضِّغثِ. ومَضَوا على ذلك. قال: ثم قَدم عُظْمُ الناس فلما أشفَوا على المرج كَبَّروا وقالوا: هذا خيرُ المنزل.

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٢٠، ١٢٩ من سورة البقرة، ١٨١ من سورة الواقعة. وخرجناه هنالك.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١١٠ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.
(٣) كذا في النسخ، وفي الدلائل: أبو عمر.
(٤) كذا في النسخ، ودلائل النبوة. وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١٠: عبيد الله.
(٥) في النسخ: مسلم. والمثبت عن دلائل النبوة، والجرح والتعديل ٨/٢٦٩.
(٦) لاحب: واسع. والجادّة: وسط الطريق. وأشفى: أشرف. وَرَفَّ النباتُ: اهتزَّ من الرِّي والنضارة. والرَّعْلة: القطعة من الفُرسان. وأكبُّوا رواحلهم: ألزموها الطريق. ولم يظلموا الطريق: لم يعدلوا عنه. ويقول ابن الأثير في النهاية: «والصواب كَبُّوا». والمُرْتِع: الذي يُخَلِّي ركابه تَرْتَع. والضِّغْثُ: ملءُ اليد من الحشيش المختلط. وعُظْم الناس: مُعْظَمُهم. وشَثْل: غليظ الأصابع خشنها، والأقنى: من في أنفه ارتفاع من أعلى واحديدابٌ من وسطه. ويفرع الرجال طولاً: يعلوهم. وثَرَّ الرجلُ: امتلأ جسمُه وتروَّى عَظْمُه. والخيلان: جمع خال، وهو الشامة في الوجه. وحُمِّم شعره: سُوِّد، لأنه إذا غُسل بالماء ظهر سوادُه. ويروى: جُمِّم، بالجيم، اي: جُعل شعره جُمَّةً. والجُمَّة: ما سقط من شعر الرأس على الكتفين. وناقة شارفٌ: مُسِنَّة.

كأني أنظرُ إليهم يَميلون يميناً وشمالاً، فلما رأيتُ ذلك لَزِمْتُ الطريقَ حتى آتي أقصى المَرْجِ، فإذا أنا بكَ يا رسولَ الله على مِنْبَرٍ فيه سبعُ دَرَجاتٍ وأنت في أعلاها درجةً، وإذا عن يمينك رجل آدم شَثْلٌ أقنى، إذا هو تَكلَّم يسمُو فيفرَعُ الرجالَ طُولاً، وإذا عن يسارك رجلٌ رَبْعَةٌ تارٌّ كثيرُ خِيلانِ الوجه، كأنما حُمِّم شعره بالماء، إذا هو تَكلَّم أصغيتم إكراماً له، وإذا أمام ذلك رجلٌ شيخٌ أشبهُ الناسِ بكَ خَلْقاً ووَجْهاً، كُلُّكم تَؤُمُّونه تريدُونه، وإذا أمام ذلك ناقة عَجفاءُ شارفٌ، وإذا أنت يا رسولَ الله كأنك تبعثُها. قال: فامتقع لونُ رسولِ الله - ﷺ - ساعة ثم سُرِّي عنه. وقال رسول الله ﷺ:

«أمَّا ما رأيت من الطريق السهل الرَّحب اللاحب، فذاك ما حَمَلْتُكُم عليه من الهُدَى وأنتم عليه. وأما المَرْج الذي رأيتَ فالدنيا وغَضَارةُ عَيْشِها، مضيتُ أنا وأصحابي لم نتعلَّق منها بشيءٍ، ولم تَتَعلق منا، ولم نُردها ولم تُردْنا. ثم جاءت الرُّعلة الثانية من بعدنا وهم أكثرُ منا أضعافاً، فمنهم المُرتِعُ ومنهم الآخذ الضِّغث، ونَجَوا على ذلك. ثم جاء عُظْمُ الناس فمالوا في المَرْج يميناً وشمالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأما أنتَ فمضيتَ على طريقةٍ صالحةٍ فلن تَزال عليها حتى تلقاني، وأمَّا المِنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة، فالدنيا سبعةُ آلافِ سنةٍ، أنا في آخرها ألفاً. وأما الرجلُ الذي رأيتَ على يميني الآدمُ الشَّثْلُ فذاك موسى - عليه السلام -، إذا تكَلَّم يعلُو الرجالَ بفَضل كلامِ الله إياه، والذي رأيتَ عن يساري التَّارُّ الرَّبعة الكثيرُ خِيلانِ الوَجه كأنما حُمِّم شعرُه بالماء فذاك عيسى ابن مريم، نُكْرمه لإكرام الله إياه. وأما الشيخُ الذي رأيتَ أشبه الناس بي خَلقاً ووَجهاً فذاك أبونا إبراهيم، كُلُّنا نَؤُمُّه ونقتدي به. وأما الناقة التي رأيتَ ورأيتني أبعثُها، فهي الساعةُ، علينا تقومُ، لا نبيَّ بعدي ولا أُمَّة بعد أمتي». قال: فما سأل رسول الله - ﷺ - عن رؤيا بعد هذا إلاَّ أن يجيءَ الرجلُ، فيُحدِّثُه بها مُتبرِّعاً[(١)].

وقولُهُ: ﴿ على سُرُرٍ مَوضُونَةٍ ﴾ - قال ابن عباس: أي مَرْمُولة بالذهب، يعني: منسوجةً به. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبير، وزيدُ بن أسلَم، وقتادةُ، والضحاك، وغيره.

وقال السُّديُّ: مَرمُولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمةُ: مُشبَّكة بالدر والياقوت. وقال ابنُ جرير: ومنه سُمِّي وَضِينُ الناقة التي تحت بطنها، وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، لأنه مضفورٌ، وكذلك السُرر في الجنة مَضفُورَةٌ بالذهب واللآلىء[(٢)].

وقولُهُ: ﴿ مُتَّكئين عليها مُتقابلين ﴾، أي: وجوهُ بعضِهم إلى بعضٍ، ليس أحدٌ وراءَ أحدٍ. ﴿ يطوفُ عليهم ولدان مُخلَّدون ﴾، أي: مُخلَّدون على صفةٍ واحدةٍ، لا يَكْبَرون عنها ولا يَشيبون ولا يَتغيَّرون، ﴿ بأكواب وأباريقَ وكأسٍ من مَعين ﴾، أمَّا الأكوابُ فهي الكيزانُ التي لا خَراطيمَ لها ولا آذانَ، والأباريقُ: التي جَمعت الوصفين. والكئوس: الهنابات[(٣)]، والجميعُ من خمر من عَينٍ جاريةٍ مَعينٍ، ليس من أوعية تنقطع وتفرُغ، بل من عُيونٍ سارحةٍ.

وقولُهُ: ﴿ لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزِفون ﴾، أي: لا تُصدَّع رءوسَهم ولا تَنزِفُ عُقولَهم، بل هي ثابتةٌ مع الشدَّة المُطربة واللَّذةِ الحاصلةِ.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٧/٣٦ - ٣٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٧٢.
(٣) كذا، ولم يتبين لنا معناها.

ورَوَى الضحَّاكُ، عن ابن عباس أنه قال: في الخَمر أربعُ خِصالٍ: السُّكر، والصُّداع، والقيء، والبَول. فذَكر الله خمرَ الجنةِ ونَزَّهها عن هذه الخصال.

وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وعطيَّة، وقتادةُ، والسُّديُّ: ﴿لا يُصدَّعون عنها﴾، يقول: ليس لهم فيها صداعُ رأسٍ. وقالوا في قوله: ﴿ولا يُنزِفون﴾، أي: لا تَذهَبُ بعُقولِهم.

وقولُهُ: ﴿وفاكهة مما يَتخيَّرون ۞ ولَحمِ طَيْرٍ مما يَشتهُون﴾، أي: ويَطُوفُونَ عَليهم بما يَتخيَّرون من الثِّمار.

وهذه الآيةُ دليلٌ على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيُّر لها، ويدلُّ على ذلك حديث «عِكْراشِ بن ذُؤَيبٍ» الذي رواه الحافظ أبو يَعلى الموصلي ـ رَحِمه الله ـ في مُسنَده:

حدثنا العباسُ بن الوليد النَّرسِيُّ، حدثنا العلاءُ بن الفضل بن عبد الملك بن أبي سَوِيَّة، حدثنا عُبَيد الله بن عِكْرَاشٍ، عن أبيه عِكْرَاشِ بن ذُؤَيبٍ قال: بعثني مُرَّة في صَدَقات أموالِهم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقَدِمْتُ المدينة فإذا هو جالسٌ بين المهاجرين والأنصار، وقَدِمتُ عليه بإبلٍ كأنها عُروقُ الأَرْطى[1]، قال: مَنِ الرجل؟ قلت: عِكرَاشُ بنُ ذُؤَيب. قال: «ارفع في النَّسبِ»، فانتسب له إلى «مُرَّة بن عُبَيد»، وهذه صَدَقَة «مُرَّة بنُ عبيد». فَتبسَّم رسولُ الله ﷺ. قال: «هذهِ إبلُ قومي، هذه صَدَقَاتُ قومي». ثم أَمَر بها أن تُوسَم بِمِيسَم إبلِ الصدَقةِ وتُضمَّ إليها. ثم أَخذَ بيدي فانطلقنا إلى مَنزِل أم سَلَمة، فقال: هل من طعام؟ فأُتِينا بجفنَةٍ كثيرة الثَّريد والوَذْر[2]، فجعل يأكُل منها، فأقبلت أَخبِطُ بيدي في جَوانبها، فقبض رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده اليُسرى على يَدِي اليُمنى، فقال: يا عِكرَاشُ، كُلْ مِنْ موضعٍ واحدٍ، فإنه طعامٌ واحدٌ. ثم أُتينا بطبق فيه تمرٌ ـ أو رُطَبٌ، شكَّ عبيد الله رُطَباً كان أو تمراً ـ فجعلتُ آكل من بَيْن يَدِي، وجالت يَدُ رسول الله ـ ﷺ ـ في الطَّبَق، وقال: يا عِكْرَاشُ، كُلْ من حيثُ شِئْتَ، فإنه غيرُ لونٍ واحدٍ. ثم أُتينا بماءٍ فغسل رسول الله ـ ﷺ ـ يدَه ومَسَح بِبَللِ كَفَّيه وَجْهَه وذراعَيه ورأسه ثلاثاً، ثم قال: يا عكراشُ، هذا الوضوء مما غَيَّرتِ النارُ.

وهكذا رواه الترمذيُّ مُطَوَّلاً وابنُ ماجه جميعاً، عن محمد بن بَشَّار، عن أبي الهُذَيْل العلاء بن الفَضْل، به. وقال الترمذي: «غريبٌ لا نعرفه إلا مِنْ حَديثه»[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا بَهز بن أسد وعفان ـ وقال الحافظ أبو يَعلَى: حدثنا شيبانُ ـ قالوا: حدثنا سليمانُ بن المغيرة، حدثنا ثابتٌ قال: قال أنس: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ تُعجبُه الرُّؤيا، فرُبما رأى الرجلَ الرُّؤيا فسألَ عنه إذا لم يكُن يَعرِفه، فإذا أُثني عليه معروفٌ كان أَعجَبَ لرؤياه إليه، فأتته امرأةٌ فقالت: يا رسول الله، رأيتُ كأني أُتيتُ فأُخرجت من المدينة فأُدخِلتُ الجنةَ، فَسمعت وَجْبةً ارتجَّت[4] لها الجنةُ، فنظرت فإذا فلانُ بن فلان، وفلانُ بنُ فلان ـ فسمَّت اثني عشر رجلاً كان النبيُّ ـ ﷺ ـ قد بَعث سريةً قبل ذلك ـ فَجِيءَ بهم عليهم ثياب طُلْسٌ[5] تَشْخَبُ أوداجُهم، فقيل: اذهبُوا بهم إلى نهر البيدخ ـ أو: البيذج ـ قال: فغُمِسُوا فيه،

---

(١) الأَرْطى: واحده أرطاةٌ. نبات شُجَيري من الفصيلة البطاطية، ينبت في الرمل، ويخرجُ من أصل واحدٍ كالعِصيِّ، ورقه دقيق، وثمره كالعُنَّاب. شبه به الإبل في اكتنازها وحمرة ألوانها.

(٢) الوَذْر: قطع من اللحم لا عظم فيها، واحدتها: وذرة.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الأطعمة ٨/٣٧ ـ ٤١، وسنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة ٢/١٠٨٩ ـ ١٠٩٠.

(٤) في النسخ: اسحب. والمثبت عن مسند أبي يعلى. والوجبة: السقطة.

(٥) أي: مُغْبرَّة.

فَخَرجُوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصَحْفةٍ من ذهب فيها بسرٌ فأكلوا من بُسْره ما شاءوا، فما يَقلِبونها من وجه إلا أكلُوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلتُ معهم. فجاء البشيرُ من تلك السريَّة، فقال: كان من أمرنا[١] كذا وكذا، فأصيب فلان وفلان. حتى عدَّ اثني عشر رجلاً، فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ المرأة فقال: قُصّي رؤياكِ. فقصَّتها، وجعلت تقول: فَجيء بفلان وفلان كما قال[٢].

هذا لفظُ أبي يَعْلَى، قال الحافظُ الضياءُ: «وهذا على شَرْطِ مُسلمٍ».

وقال الحافظُ أبو القاسم الطَّبَراني: حدثنا مُعَاذ بن المُثَنَّى، حدثنا علي بن المَدِيني، حدثنا ريحانُ بن سَعِيد، عن عَبَّاد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلَابَة، عن أبي أَسْمَاءَ، عن ثَوْبَانَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الرجُلَ إذا نَزَع ثمرةً في الجنة عادَت مكانَها أخرى»[٣].

وقولُهُ: ﴿ وَلَحمِ طيرٍ ممَّا يَشتَهُون ﴾، قال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا سَيَّار بنُ حاتم، حدثنا جعفر بنِ سُلَيمان الضُّبَعي، حدثنا ثابتٌ، عن أَنَسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ طيرَ الجَنَّة كأمثالِ البُخْتِ[٤] يرعَى في شَجَرَ الجنَّةِ». فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، إن هذه لَطيرٌ ناعمة. فقال: «أَكَلَتُها[٥] أَنْعَمُ منها ـ قالها ثلاثاً ـ وإني لأرجو أن تكونَ ممن يأكلُ منها». تَفَرَّدَ به أحمد من هذا الوجه[٦].

ورَوَى الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه «صِفةُ الجَنَّةِ» من حديث إسماعيل بن علي الخُطَبِيِّ، عن أحمد بن علي الخُيُوطي، عن عبد الجبَّار بن عاصم، عن عبد الله بن زيادٍ، عن زُرعَةَ، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: ذُكِرَتْ عند النبي ـ ﷺ ـ طُوبَى، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أبا بكر هل بلَغَك ما طُوبَى»؟ قال: الله ورسوله أعلَمُ. قال: «طُوبَى شَجرةٌ في الجَنَّةِ، ما يعلم طولَها إلا الله، يسيرُ الراكبُ تحتَ غُصنٍ من أغصانها سَبعِينَ خَرِيفاً، وَرَقُها الحُلَل، يَقَعُ عليها الطيرُ كأمثال البُختِ». فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، إنَّ هناك لطيراً ناعماً. قال: «أنعم منه مَن يأكله، وأنتَ منهم إن شاء الله».

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ وَلَحمِ طيرٍ مما يشتَهُون ﴾: ذُكِر لنا أنَّ أبا بكر قال: يا رسولَ الله، إنِّي أرى طيرها ناعمةً كما أهلها ناعمونَ. قال: «مَن يأكُلُها ـ والله يا أبا بكر ـ أنعَمُ منها، وإنها لأمثال البُخْتِ، وَإني لأَحتَسِبُ على الله أن تأكُلَ منها يا أبا بكر».

وقال أبو بكر بن أبي الدُّنيا: حدثني مُجاهد بن موسى، جدثنا مَعن بن عيسى، حَدَّثني ابنُ أخي ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ سُئِل عن الكَوثر قال: «نهرٌ أعطانيه ربي ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في الجنة، أشدُّ بياضاً من اللَّبَنِ، وأحلَى من العَسَل، فيه طيورٌ أعناقُها يعني كأعناق الجُزُرِ». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «آكِلُها أنعَمُ منها».

وكذا رواه الترمذي عن عَبْد بنِ حُمَيد، عن القَعْنَبي، عن محمد بن عبد الله بن مُسلمٍ بن شهاب، عن أبيه، عن أنس وقال: حسن[٧].

(١) في النسخ: (ما كان من رؤيا كذا وكذا). والمثبت عن مسند أبي يعلى.
(٢) مسند أبي يعلى ٣/٣٣٠ ـ ٣٣١، ومسند الإمام أحمد ١٣٥/٣.
(٣) المعجم الكبير ١٠٢/٢، وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الرعد.
(٤) البُخت: الإبل الخراسانية، وهي جمال طوال الأعناق.
(٥) في بعض النسخ: أَكَلها.
(٦) مسند الإمام أحمد ٢٢١/٣.
(٧) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٢/١٠.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنافسي، حدثنا أبو معاوية، عن عُبَيد الله بن الوليد الوَصّافي، عن عطية العَوفي، عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ في الجنة لطيراً فيه سبعُون ألف رِيشَةٍ، فيقع على صَحْفَةِ الرجل من أهل الجنة فينفِضُ، فيخرج من كلِّ ريشة، يعني لوناً أبيضَ من اللبن، وألينَ من الزبد، وأعذب من الشّهد، ليس منها لونٌ يُشبِه صاحبه ثم يطير». هذا حديث غريب جداً، والوَصّافي وشيخه ضعيفان.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثنا خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي حازم، عن عطاءٍ، عن كعبٍ قال: إنَّ طائر الجنةِ أمثالُ البُخْت يَأْكُلْنَ مما خُلق من ثمرات الجنة، ويَشْرَبْنَ من أنهار الجنة، فَيَصْطَفِفْنَ له، فإذا اشتهى منها شيئاً أتاه حتى يَقَع بين يديه، فيأكلُ من خارجِه وداخِله، ثم يطير لم ينقُص منه شيءٌ. صَحِيحٌ إلى كَعبٍ.

وقال الحسن بن عَرَفة: حَدَّثنا خلفُ بن خَلِيفةَ، عن حُمَيد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنك لتنظرُ إلى الطيرِ في الجَنّة فتشتهيه، فَيَخِرُّ بين يدَيك مَشْوِيًّا»[1].

وقولُهُ: ﴿وحورٌ عينٌ * كأمثال اللؤلؤ المكنُونِ﴾: قرأ بعضُهم بالرفع[2]، وتقديرُه: ولهم فيها حورٌ عينٌ. وقراءة الجرِّ تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعرابُ على الإتباع بما قبلَه، لقوله: ﴿يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلّدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معين * لا يُصَدّعون عنها ولا ينزفون * وفاكهةٍ مما يَتخَيَّرون * ولحم طيرٍ مما يَشتَهُون * وحُورٌ عينٍ﴾. كما قال: ﴿وامسَحُوا برءوسِكم وأرجُلِكم﴾[3]، وكما قال: ﴿عاليهم ثياب سندُسٍ خُضرٍ وإستبرقٍ﴾[4].

والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلَّدون عليهم الحورَ العينِ، ولكن يكون ذلك في القُصُور، لا بين بعضهم بَعضاً، بل في الخِيام يطوفُ عليهم الخُدّام بالحُور العينِ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنُون ﴾، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطبُ في بَيَاضِه وصَفَائه، كما تقدم في «سورة الصافات»: ﴿ كأنهنَّ بيضٌ مكنونٌ ﴾. وقد تقدم في «سُورةِ الرحمنِ» وصفُهنَّ أيضاً، ولهذا قال: ﴿ جزاءً بما كانوا يعمَلُون ﴾، أي: هذا الذي أتحفناهم به مجازاةٌ لهم على ما أحسَنُوا من العمل.

ثم قال: ﴿لا يسمَعُون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾، أي: لا يسمَعُون في الجنة كلاماً لاغياً، أي: غَثّاً خالياً عن المعنى، أو مشتَمِلاً على معنى حَقِيرٍ أو ضَعِيفٍ، كما قال: ﴿ لا تسمَعُ فيها لاغيةً ﴾، أي: كلمةً لاغيةً ﴿ ولا تأثيماً ﴾، أي: ولا كلاماً فيه قبحٌ، ﴿ إلا قِيلاً سلاماً سلاماً ﴾، أي: إلا التسليمُ منهم بعضُهم على بعضٍ، كما قال: ﴿ تَحِيَّتُهم فيها سلامٌ ﴾ وكلامهم أيضاً سالمٌ من اللَّغو والإثم.

---

(١) جُزْءُ الحسين بن عَرَفَة ٥٢. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الرعد.

(٢) قرأ بالجر من السبعة حمزة والكسائي، والباقون بالرفع. انظر الإقناع لابن الباذِش ٢/ ٧٨٠. وانظر في توجيه القراءتين الطبري في تفسيره ٢٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) قرأ بالنصب نافع وابن عامر والكسائي وحفص. والباقون بالجر. الإقناع ٢/ ٦٣٤.

(٤) قرأ بالجر حمزة والكسائي، وبرفعهما نافع وحفص، وبجر الأول ورفع الثاني ابن كثير وأبو بكر، وبرفع الأول وجر الثاني ابن عامر وأبو عَمْرو. الإقناع ٢/ ٨٠٠.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

لما ذَكَر تعالى مآلَ السابقين ـ وهم المُقرَّبون ـ عطَفَ عليهم بذكر أصحاب اليمين ـ وهم الأبرار ـ كما قال ميمونُ بن مِهران: أصحابُ اليمين مَنزلةٌ دونَ المقرَّبين ـ فقال: ﴿ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين ﴾، أي: أيُّ شيءٍ أصحابُ اليمين؟ وما حالُهم؟ وكيفَ مآلُهم؟ ثم فَسَّر ذلك فقال: ﴿ في سِدْرٍ مخضُودٍ ﴾، قال ابنُ عباس، وعكرمةَ، ومجاهد، وأبو الأحوص، وقَسامة بن زُهَير، والسَّفر بن نُسَير، والحسن، وقتادةُ، وعبد الله بن كثير، والسُّديُّ، وأبو حَزْرَةَ، وغيرهم: هو(١) الذي لا شَوْكَ فيه. وعن ابن عَبَّاس: هو المُوقَر بالثَّمرِ. وهو رواية عن عكرمة، ومجاهد. وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نُحَدَّث أنه المُوقَر الذي لا شوك فيه.

والظاهر أن المراد هذا وهذا، فإن سِدْرَ الدنيا كثيرُ الشَّوْك قليلُ الثمر، وفي الآخرة على العكس من هذا، لا شَوْكَ فيه، وفيه الثَّمر الكَثير الذي قد أثقل أصله، كما قال الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجّاد:

حدثنا محمد بن محمد هو البَغَوي، حدثني حَمْزَة بن عباس، حدثنا عبد الله بن عثمان، حدثنا عبدالله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر قال: كان أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولون: إنَّ الله لينفعُنا بالأعراب ومسائلهم؛ قال: أقبل أعرابيٌّ يوماً فقال: يا رسولَ الله، ذكرَ الله في الجنةِ شجرةً تُؤذِي صاحِبَها؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وما هي»؟. قال: السِّدْرُ، فإنَّ له شوكاً مؤذياً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أليس الله يقول: ﴿ في سِدْرٍ مخضُود ﴾، خَضَد الله شَوْكَه، فجعل مكان كُلِّ شوكة ثَمرةً، فإنها لَتُنْبِتُ ثَمراً تَفَتَّقُ الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يُشبِهُ الآخر».

طريق آخرى، قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا محمد بن أبي داود: حدثنا محمد بن المُصَفَّى، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا يحيى بن حَمْزَة، حدثني ثَور بن يَزيد، حدثني حَبيب بن عُبَيد، عن عُتْبَة بن عَبْدٍ السلمي قال: كنتُ جالساً مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ فجاء أعرابي فقال: يا رسولَ الله، أسمَعُك تذكر في الجنة شجرةً لا أعلَمُ شجرةً أكثر شوكاً منها؟ يعني الطلحَ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يجعَلُ مكانَ كلِ شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَةِ(٢) التَّيسِ الملبُودِ، فيها سبعونَ لوناً من الطَّعَام، لا يُشبِه لونَ آخر(٣).

وقولُهُ: ﴿ وطلحٍ منضُودٍ ﴾، الطلحُ: شَجَر عظام يكون بأرض الحجاز، من شَجَر العِضَاه، واحدته طلحَةٌ، وهو شجر كثير الشوك، وأنشد ابن جرير لبعض الحُدَاة(٤):

بَشَّرَهـا دَلِيلُهـا وقـالا: غـداً تَرينَ الطَّلْحَ والجِبالا

وقال مجاهدٌ: ﴿ منضُودٌ ﴾، أي: مُتَراكِمُ الثَّمر، يُذَكِّر بذلك قريشاً، لأنهم كانوا يُعْجَبُونَ من وَجٍّ، وظِلالِه من طَلْحٍ وسِدْرٍ(٥).

(١) السِّدْرُ: شَجرُ النَّبَق.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية: «مثل خُصْوة التيس الملبود، أي: المكتنز اللحم الذي لزم بعضه بعضاً فَتَلبَّدَ». وذكر في اللسان خصا، عن شمر: «لم نسمع في واحدة الخُصْي إلا خُصْيَةً بالياء».

(٣) أخرجه ابن أبي داود في البعث، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ١٣٠، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه. انظر الدر المنثور ٨/ ١٢.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٠، وتفسير الطبري ٢٧/ ١٨١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٧/ ١٨٢. ووَجٌّ: موضع بناحية الطائف.

وقال السُّديُّ: ﴿ منضُودٍ ﴾: مصفُوفٍ. قال ابن عباس: يُشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمرٌ أحلى من العَسَل. قال الجَوهري: والطلحُ لغةٌ في الطَّلْع.

قلتُ: وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم من حديث الحسن بن سعد، عن شيخٍ من هَمْدَان قال: سَمِعت علياً يقول: هذا الحرف في ﴿ طَلْحٍ منضُود ﴾، قال: طَلْع منضود. فعلى هذا يكون هذا من صفة السِّدْر، فكأنه وصَفَه بأنه مخضُود وهو الذي لا شَوْكَ له، وأنَّ طَلْعه مَنضُودٌ، وهو كثرةُ ثَمرِه، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو معاوية، عن إدريسَ، عن جعفر بن إياس، عن أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ ﴿ وطلحٍ منضودٍ ﴾، قال: المَوْزُ. قال: ورُوِي عن ابن عباس، وأبي هُريرة، والحسن، وعكرمة، وقسامة بن زُهَير، وقتادة، وأبي حَزْرَة، مثل ذلك. وبه قال مجاهد، وابنُ زيد ـ وزاد فقال: أهلُ اليمن يُسَمُّون الموزَ الطلحَ. ولم يحك ابنُ جرير غير هذا القول.

وقولُهُ: ﴿ وظلٍّ ممدود ﴾، قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة ـ يبلُغ به النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ في الجنةِ شَجرةً يسيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائةَ عامٍ لا يقطَعُها، اقرءوا إن شئتم: ﴿ وظل ممدود ﴾[1]». ورواه مسلم من حديث الأعرج، به[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُرَيج، حدثنا فُلَيحٌ، عن هِلَال بن علي، عن عبدِ الرحمن بن أبي عَمْرة، عن أبي هُرَيرة: قال قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ في الجنة شجرةً يَسِيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائة سَنَةٍ، اقرءُوا إن شئتم: ﴿ وظِلٍّ ممدُودٍ ﴾»[2].

وكذا رواه البُخاريُّ، عن محمد بن سنَان، عن فُلَيحٍ، به[3]. وكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعمر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هُرَيرة[3]. وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة، عن محمد بن زياد، عن أبي هُرَيرَةَ. والليثُ بن سعد، عن سعيد المقبُري، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة[3]. وعوف، عن ابن سِيرِينَ، عن أبي هُرَيرَة.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر وحَجَّاج قالا: حدثنا شُعبَة، سَمِعتُ أبا الضحَّاك يُحدِّثُ عن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ في الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظِلِّها سبعينَ، أو مائةَ سنةٍ، هي شجرة الخلد»[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارونَ، عن محمد بن عَمرو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن رَسُولِ الله قال: «في الجنَّةِ شجرةٌ يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مائةَ عامٍ ما يقطعُها، واقرءُوا إن شئتُم: ﴿ وظلٍّ ممدود ﴾».

إسناد جيد، ولم يُخرِجُوه. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن عَبْدَة وعبد الرحيم، عن محمد بن عمرو، به. وقد رواه التِّرمذيُّ، من حديث عبد الرحيم بن سُلَيمان، به[5].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا مِهرَانُ، حدثنا إسماعيلُ بن أبي خالدٍ، عن زيادٍ مولى بني مخزوم، عن أبي هُرَيرة قال: إنَّ في الجنة لشجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مائة سنةٍ، اقرءُوا إن شئتم: ﴿ وظِلٍّ

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢٩ من سورة الرعد، وخرجناه هنالك.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٤٨٢.
(٣) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣١٩ ـ ٣٢٠، ومصنف عبد الرزاق ١١/٤١٧، ومسند الإمام أحمد ٢/٤٥٢.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٤٥٥.
(٥) تفسير الطبري ٢٧/١٨٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الواقعة ١٢/١٧٨ ـ ١٧٩.

ممدُودٍ ﴾. فبلغ ذلك كعباً فقال: صَدَق، والذي أنزَل التوراةَ على موسى والفرقانَ على محمدٍ لو أن رَجُلاً رَكِب حِقَّةً أو جَذَعةً[1]، ثم دَارَ بأَصْلِ[2] تلك الشجرةِ ما بَلَغها حتى يسقط هَرَماً، إن اللهَ غرسها بِيَدِه ونَفَخ فيها من رُوحِه، وإنَّ أفنانَها لمن وراء سُور الجنةِ، وما في الجنة نهرٌ إلاّ وهو يخرُج من أصل تلك الشجرة[3].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمدُ بن مِنْهالٍ الضريرُ، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادةَ، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ في قولِ الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ: ﴿ وَظِلٍّ ممدودٍ ﴾، قال: «في الجنةِ شجرةٌ يسيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائةَ عامٍ لا يقطعُها».

وكذا رواه البخاري، عن رَوح بن عبد المؤمن، عن يزيد بن زُرَيع، به[4]، وهكذا رواه أبو داود الطَّيالسي، عن عمران بن دَاوَر القطان، عن قتادةَ، به. وكذا رواه معمرٌ، وأبو هلال، عن قتادةَ، به. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وسَهل بن سَعد، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكب الجواد المُضمَّر السريعِ مائةَ عامٍ ما يقطَعُها»[5].

فهذا حديثٌ ثابت عن رَسُول الله ﷺ، بل متواترٌ مقطوعٌ بصحَّته عند أئمة الحديث النُّقَّاد، لتعدُّد طُرُقه، وقُوَّةِ أسانيده، وثِقَة رِجالَه.

وقد قال الإمام أبو جعفر بنُ جَرِيرٍ: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو حُصَين قال: كُنَّا على باب في موضع، ومعنا أبو صالحٍ وشَقِيق ـ يعني الضَّبِّيَّ ـ فحدَّث أبو صالح قال: حدثني أبو هُرَيرةَ قال: إنَّ في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها سبعينَ عاماً. قال أبو صالح: أتكَذِّب أبا هُريرة؟ قال: ما أكذِّب أبا هُريرَة، ولكني أكذِّبك أنت. فَشَقَّ ذلك على القراء يومَئذٍ[6].

قلت: فقد أبطل من كَذَّب بهذا الحديث، مع ثُبُوته وصِحَّته ورَفْعِه إلى رسول الله ﷺ.

وقال التِّرمِذيُّ: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا زِيادُ بن الحسن بن الفُرَات القَزَّاز، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبي حازم، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنةِ شجرةٌ إلا ساقُها من ذَهَب». ثم قال: «حسن غريب»[7].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحَسَن ابن أبي الربيع، حَدَّثنا أبو عامر العَقَدي، عن زَمعَةَ بن صالح، عن سلمة بن وَهرام، عن عكرمَةَ، عن ابن عباس قال: الظلِ الممدودُ شجرةٌ في الجنة على ساق ظلها قدرُ ما يسير الراكب في كُلِّ نواحيها مائة عام. قال: فيخرج إليها أهلُ الجنة، أهلُ الغُرَف وغيرهم، فيَتحدَّثُون في ظِلِّها. قال: فيشتهي بعضُهم ويذكر لَهْوَ الدنيا، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرِّك تلك الشجرةَ بكلِّ لَهْوٍ في الدنيا. هذا أثر غريب، وإسناده جيد قَوِيّ حسن.

---

(١) الحِقَّةُ من الإبل: ما دخل في السنة الرابعة وأمكن ركوبُه أو الحملُ عليه. والجَذَعةُ: ما استكمل أربعة أعوام من الإبل ودخل في السنة الخامسة.

(٢) في نسخة: بأعلى. وفي أخرى: ما عَلَى. والمثبت عن تفسير الطبري.

(٣) تفسير الطبري ١٨٢/٢٧.

(٤) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣١٩/٦.

(٥) فتح الباري، كتاب الرقاق ٤١٥/١١، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٧٥/٤ - ٢١٧٦.
والمُضمَّر: هو الذي أُعِدَّ للسباق، وذلك بأن يُرْبط ويُعْلف ويُسقى كثيراً مُدَّةً، ثم يركض في الميدان حتى يخف ويَدِق. ومدةُ التضمير عند العرب أربعون يوماً.

(٦) تفسير الطبري ١٨٤/٢٧.

(٧) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ٣/١٠.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابن يَمان، حدثنا سفيان، حدثنا أبو إسحاقَ، عن عَمرو بن ميمون في قوله: ﴿وظل ممدود﴾، قال: سبعُونَ ألفَ سنة. وكذا رواه ابنُ جرير عن بُندار، عن ابن مهدي، عن سفيان، مثله[1]. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابنُ حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون ﴿وظل ممدود﴾، قال: خمسمائة ألف سنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا حُصَين بن نافع، عن الحسن في قول الله تعالى: ﴿وظلٍّ ممدودٍ﴾ قال: في الجنة شجرةٌ يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها.

وقال عوف، عن الحسن: بلغني أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ لَشَجرةً يسيرُ الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعُها». رواه ابن جرير.

وقال شَبِيبٌ، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: في الجنة شَجَرٌ لا يَحمِلُ، يُستظَلّ بِهِ. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضحاك، والسُدِّيُّ، وأبو حَزْرَةَ في قولِهِ: ﴿وظلٍّ ممدودٍ﴾: لا ينقطِعُ، ليس فيها شمسٌ ولا حَرٌّ، مثل قبلِ طُلُوع الفَجْرِ.

وقال ابنُ مسعود: الجَنَّةُ، سَجْسَج[2]، كما بين طُلوع الفجرِ إلى طُلُوع الشمس.

وقد تقدَّمت الآيات كقوله: ﴿ونُدخِلُهم ظلاًّ ظَلِيلاً﴾، وقوله: ﴿أكلُها دائمٌ وظلُّها﴾، وقوله: ﴿في ظلالٍ وعُيُونٍ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وقولُهُ: ﴿وماءٍ مسكوب﴾، قال الثَّوري: يَعْني يجري في غير أُخدُودٍ.

وقد تَقدَّم الكلامُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسِنٍ﴾[3]... الآية، بما أغنى عن إعادَته هاهنا.

وقولُهُ: ﴿وفاكِهَةٍ كَثِيرةٍ * لا مقطُوعةٍ ولا ممنُوعَةٍ﴾، أي: وعندهُم من الفَوَاكه الكثيرةِ والمتنوِّعة في الألوان ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سَمِعت، ولا خطر على قلب بشر: ﴿كُلَّما رزقوا منها من ثَمَرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزِقنا من قبل وأُتُوا به مُتَشَابهاً﴾، أي: يُشبه الشكلُ الشكلَ، ولكن الطعمَ غيرُ الطعم. وفي الصحيحين في ذكر سِدْرَة المنتهى قال: «فإذا وَرَقُها كآذان الفِيَلَةِ ونبقها مثل قِلَال هَجَر»[4].

وفيهما أيضاً، من حديث مالك، عن زيد، عن عطاء بن يَسَار، عن ابن عباس قال: «خُسِفَت الشمس، فَصلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ والناسُ معه، فذَكر الصلاة». وفيه: «قالوا: يا رسولَ الله، رأيناك تناولتَ شيئاً في مَقامِكَ هذا ثم رأيناك تَكَعْكَعْتَ. قال: إني رأيتُ الجَنَّة، فتناولت منها عُنقوداً، ولو أخذته لأكلتُم منه ما بَقِيت الدنيا»[5].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبدُ الله بن جعفر، حدثنا عُبيد الله، حدثنا ابنُ عَقِيل،

(١) تفسير الطبري ٢٧/١٨٣.

(٢) أي: لا حَرٌّ فيها ولا بَرْدَ، جوُّها معتدل.

(٣) انظر تفسير الآية ١٥ من سورة محمد.

(٤) تقدّم الحديث أول سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.

(٥) أخرجاه في كتاب الكسوف، فتح الباري ٢/٥٤٠، ومسلم ٢/٦٢٦. وتَكَعْكَعْتَ: تأخَّرْتَ.

عن جابر قال: بينا نحنُ في صلاة الظهر، إذ تقدَّم رسول الله - ﷺ - فتقدَّمنا معه، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخَّر، فلما قَضَى الصلاة قال له أُبيُّ بن كعب: يا رسولَ الله، صنعتَ اليومَ في الصلاة شيئاً ما كنتَ تصنعه؟ قال: «إنه عُرضَتْ عليَّ الجنةُ وما فيها من الزَّهرة والنضرة، فتناولتُ منها قِطْفاً من عِنَب لآتِيَكم به، فحِيلَ بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه مَن بين السماءِ والأرض لا ينقصُونه»[1].

وروى مسلم، من حديث أبي الزبير، عن جابر، نحوه[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عليُّ بن بحر، حدثنا هشامُ بن يوسف، أخبرنا معمَرٌ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عامر بن زيد البِكَالِيِّ: أنه سمعَ عُتبةَ بن عَبْد السُلَمي يقول: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله - ﷺ - فسأله عن الحوض وذكر الجَنَّة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهةٌ؟ قال: نعم، وفيها شَجَرَةٌ تُدعى طُوبَى، فَذَكر شيئاً لا أدري ما هُو؟ قَال: أيَّ شجَرِ أرضِنا يُشبه؟ قال: ليست تُشبه شيئاً من شَجَر أرضِكَ؟ فقال النبي - ﷺ - أتيتَ الشام؟ قال: لا. قال: تُشبِه شجرةً بالشام تدعى الجَوزة، تَنبُت على ساقٍ واحد، وينفرشُ أعلاها، قال: ما عِظَمُ أصلِها؟ قال: لو ارتحلتَ جَذَعَةٌ من إبلِ أهلِكَ ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوَتها هرماً. قال: فيها عنب؟ قال: نعم. قال: فما عظم العنقُود؟ قال: مسيرة شهر للغُراب الأبقَع، ولا يَفتُر. قال: فما عِظَم الحَبَّة؟ قال: هل ذبح أبوك تَيساً من غَنَمه قطُّ عظيماً؟ قال: نعم. قال: فَسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتَّخذي لنا منه دَلْواً؟ قال: نعم. قال الأعرابي: فإن تلك الحبةَ لتُشبعُني وأهلَ بيتي؟ قال: نعم وعامَّة عَشيرَتِكَ[2].

وقولُه: ﴿ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ﴾، أي: لا تنقطِع شتاءً ولا صيفاً، بل أكُلُها دائمٌ مستمرٌ أبداً، مهما طلبُوا وَجَدُوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء. قال قتادة: لا يَمنعهم من تَناولها عُودٌ ولا شوكٌ ولا بُعدٌ. وقد تقدم في الحديث: إذا تناول الرجلُ الثمرة عادت مكانها أخرى.

وقولُهُ: ﴿ وفُرُش مرفُوعَةٍ ﴾، أي: عالية وطيئة ناعِمة.

قال النسائي وأبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كُرَيب. حدثنا رشدين بن سعد، عن عَمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهَيْثم، عن أبي سَعيد، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿ وفُرُشٍ مرفُوعَةٍ ﴾، قال: ارتفاعُها كما بين السماء والأرض، ومَسيرة ما بينهما خَمسُمائةِ عامٍ.

ثم قال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ حَسَنٌ غريب لا نعرفه، إلا من حديث رشدين بن سَعدٍ. قال: وقال بعضُ أهل العلم: معنى هذا الحديث: ارتفاعُ الفُرُش في الدرجات، وبعدُ ما بين الدَّرجَتين كما بين السماءِ والأرض»[3]. هكذا قال: إنه لا يُعرَفُ هذا إلا من رواية رِشدين بن سَعدٍ، وهو المصري، وهو ضعيفٌ، وهكذا رواه أبو جعفر بن جرير، عن أبي كُرَيب، عن رشدين، به[3]. ثم رواه هو وابن أبي حاتم، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، فذكره[3]. وكذا رواه ابن أبي حاتم أيضاً عن نُعيم بن حماد، عن ابن وهب. وأخرجه الضِياء في صفة الجنة من حديث حرملة، عن ابن وهب، به، مِثله. ورواه الإمامُ أحمَدِ، عن حسن بن موسى، عن ابن لَهيعَة، حدثنا دَرَّاج، فذكره[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا أبو معاوية، عن جُوَيبر، عن أبي سهل - يعني كَثِير بن

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الرعد، وخرجناه هنالك.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/١٨٣ - ١٨٤. وقد تقدّم بعضه عند تفسير ٣٥ من سورة الرعد، وشرحنا غريبه.

(٣) لم يذكر الحافظ المزي في تحفة الأشراف ٣/٣٦٠ غير الترمذي. والحديث في عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/١١. وتفسير سورة الواقعة ١٢/١٧٩ - ١٨٠. وأخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٧/١٨٥، والإمام أحمد في مسنده ٣/٧٥.

زيادٍ ـ عن الحسن: ﴿ وفُرُش مرفوعةٍ ﴾، قال: ارتفاعُ فراشِ الرجُلِ من أهل الجنة مَسيرةُ ثمانين سنةً.

وقولُه: ﴿إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكاراً * عُرُباً أتراباً * لأصحابِ اليَمِين﴾، جَرَى الضميرُ على غير مذكورٍ لكن لما دلَّ السياق، وهو ذِكْرُ الفُرُش على النساءِ اللاتي يُضَاجِعْنَ فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهنَّ، وعاد الضَميرُ عليهنَّ، كما في قوله: ﴿إذ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصافناتُ الجياد * فقال إني أحببتُ حُبَّ الخيرِ عن ذكر ربي حتى توارت بالحجابِ﴾، يعني الشمسَ، على المشهور من قول المفسرين.

قال الأخفش في قوله: ﴿ إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً ﴾: أضمرَهُنَّ ولم يذكُرْهُنَّ قبلَ ذلك. وقال أبو عبيدة: ذُكِرْنَ في قوله: ﴿وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾[1].

فقولُه: ﴿ إنا أنشأناهُنَّ ﴾، أي: أعدناهُنَّ في النشأة الآخرة، بعدَما كُنَّ عجائز رُمْصاً[2] صِرْنَ أبكاراً عُرُباً، أي: بعد الثُيوبَةِ عُدْنَ أبكاراً عُرُباً، أي: مُتحبِّباتٍ إلى أزواجِهِنَّ بالحَلاوةِ والظَرافَةِ والمَلاَحَةِ، وقال بعضهم ﴿ عُرُباً ﴾، أي غَنِجاتٍ[3].

قال موسى بن عُبَيدة الرَّبَذيِّ، عن يزيدَ الرَّقاشي، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ ﴿ إنا أنشأناهُنَّ إنشاء ﴾، قال: أنشَأْ[4] عجائزَكُنَّ في الدنيا عُمْشاً رُمْصاً». رواه الترمذِيُّ، وابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال الترمذِيُّ: «غريبٌ، ومُوسَى ويزيدُ ضَعِيفان»[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمدُ بن عَوف الحِمْصِي، حدثنا آدم ـ يعني ابن أبي إيَاسٍ ـ حدثنا شيبانُ، عن جابر، عن يَزِيد بن مُرَّةَ، عن سلمة بن يَزِيدَ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً ﴾، يعني: الثَّيِّب والأبكار اللاتي كُنَّ في الدنيا.

وقال عبد بن حُميد: حدثنا مُصعَب بن المِقدام، حدثنا المُبارك بن فَضَالة، عن الحسن قال: أتت عجوزٌ فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يُدْخِلَني الجنة. فقال: «يا أمَّ فلان، إن الجَنَّة لا تدخلها عَجُوزٌ». قال: فَوَلَّت تبكِي، قال: أخبِرُوها أنها لا تدخلُها وهي عَجُوزٌ، إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهُنَّ أنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكاراً ﴾.

وهكذا رواه الترمذي في الشمائل، عن عَبْدِ بنِ حُميد[6].

وقال أبو القاسم الطَّبَراني: حدثنا بكرُ بن سهل الدِّمياطي، حدثنا عَمرو بن هَاشِم البَيْرُوتي، حدثنا سليمان بن أبي كَرِيمة، عن هشام بن حَسَّانَ، عن الحَسَن، عن أمه، عن أم سَلَمَة قالت: قلت: يا رسولَ الله، أخبرني عن قول الله: ﴿ حُورٍ عِينٍ ﴾، قال: «حُورٌ: بيضٌ، عِينٌ: ضِخَامُ العُيُونِ، شُفْرُ[7] الحوراء بمنزلة جناح النَّسْرِ». قلتُ: أخْبِرني عن قولِهِ: ﴿ كأمثالِ اللُّؤلُؤِ المكنُونِ ﴾، قال: «صفاؤهُنَّ صفاءُ الدُرِّ الذي في

(١) انظر معاني القرآن للأخفش ٢/٤٩١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢٥١، وتفسير الطبري ٢٧/١٨٥.

(٢) رَمِصَتِ العين رَمَصاً: اجتمع في مُؤْقِها وَسَخٌ أبيض، فهو أرْمَصُ، وهي رَمْصَاءُ، والجمع: رُمْصٌ. والمُؤْق: طَرف العين مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع.

(٣) غَنِجَت المرأة غَنَجاً: تَدَلَّلت على زوجها بمَلاحةٍ، كأنها تخالفه وليس بها خِلاَفٌ، فهي غَنِجَةٌ.

(٤) في نسخة: (نساء عجائزكن)، وفي أخرى: (عَجائزكُنَّ في الدنيا. . .). دون ذكر النساء. وما أثبت هو نص الطبري في إحدى رواياته، فأما لفظ الترمذي فهو: (إن من المنشآت التي كنَّ في الدنيا عجائز عُمْشاً رُمْصاً).

(٥) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الواقعة ١٢/١٨٠ ـ ١٨١، وتفسير الطبري ٢٧/١٨٥ ـ ١٨٦.

(٦) الدرّ المنثور ٨/١٥.

(٧) شُفْر العين: حَرْفُه الذي يَنْبُت عليه الهُدْب.

الأصداف، الذي لم تَمَسَّه الأيدي». قلتُ: أخبرني عن قوله: ﴿ فِيهِنَّ خيرات حِسَانٌ ﴾. قال: «خَيْرَاتُ الأخلاقِ، حِسَانُ الوجوه». قلت: أخبرني عن قَوْلِهِ: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بيضٌ مكنونٌ ﴾، قال: «رِقَّتُهن كَرِقَّةِ الجِلْدِ الذي رأيتَ في داخلِ البيضةِ مما يلي القِشْرَ، وهو: الغِرْقِئُ». «قلت: يا رسولَ الله، أخْبرني عن قوله: ﴿ عُرُباً أتراباً ﴾. قال: «هُنَّ اللواتي قُبِضن في دار الدنيا عَجَائِزَ رُمْصاً شُمْطاً، خلقهُنَّ الله بعد الكِبر، فجعلهن عذارى عُرُباً: مُتَعَشِّقاتٍ مُتَحبِّباتٍ، أتراباً على ميلادٍ واحدٍ. قلت: يا رسولَ الله، نساءُ الدنيا أفضلُ أم الحورُ العِينُ. «قال: بل نساءُ الدنيا أفضلُ من الحُورِ العِينِ، كَفَضْلِ الظِّهارةُ على البطانة»(١). قلت: يا رسول الله، وَبِمَ ذاك؟ قال: «بصلاتهنَّ وصيامهنَّ وعبادتهنَّ الله عز وجل، ألبس الله وجوهَهُنَّ النورَ، وأجسادَهُنَّ الحريرَ، بيضُ الألوان، خُضرَ الثياب، صُفرَ الحُلي، مجامِرهنَّ الدُّرُّ، وأمشاطُهُنَّ الذهب، يَقُلنَ: نحن الخالداتُ فلا نموتُ أبداً، ونحنُ الناعماتُ فلا نبأسُ أبداً، ونحن المقيماتُ فلا نظعَنُ أبداً، ألا ونحنُ الراضياتُ فلا نسخَطُ أبداً، طُوبَى لمن كُنَّا له وكان لَنَا». قلتُ: يا رسول الله، المرأة مِنَّا تَتزوَّجُ زوجَين والثلاثة والأربعة، ثم تموتُ فتدخل الجنة ويدخلون مَعَها، مَن يكونُ زوجُها؟ قال: «يا أمَّ سلمة، إنها تُخَيَّر فتختارُ أحسنهُم خُلُقاً، فتقولُ: يا ربِّ، إن هذا كانَ أحسنَ خُلقاً مَعِي فَزَوِّجْنِيهِ، يا أُمَّ سلمة ذَهَب حسنُ الخلقِ بخير الدنيا والآخرة»(٢).

وفي حديثِ الصُورِ الطويلِ المشهُورِ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يشفَع للمؤمنين كلِّهم في دخولِ الجنَّةِ، فيقول الله: قد شَفَّعتُك وأَذِنتُ لهم في دخولها. فكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «والذي بَعَثني بالحقِّ ما أنتم في الدنيا بأعرفَ بأزواجكم ومساكِنكم من أهل الجَنَّة بأزواجهم ومساكنهم، فيدخلُ الرجلُ منهم على ثِنْتَينِ وسَبْعينَ زَوْجةً، [سبعين] مما يُنشىءُ الله، وثِنْتَين من وَلَد آدمَ، لهما فَضْلٌ على مَن أنشأ الله، بعبادتهما الله في الدنيا، يدخلُ على الأولى منهما في غُرفةٍ من ياقوتةٍ، على سَريرٍ من ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ باللؤلؤ، عليه سبعُون زوجاً من سُندُسٍ وإسْتَبْرقٍ، وإنه ليضَعَ يدَه بين كَتِفيها، ثم ينظر إلى يَدِه من صَدْرِها من وَرَاءِ ثيابها وجِلْدِها ولَحمِهَا، وإنه لينظُر إلى مُخِّ سَاقِها كما ينظرُ أحدُكم إلى السِّلك في قَصَبةِ الياقُوتِ، كَبِدهُ لها مرآة، يعني وكبدها له مرآة، فبينما هو عِندَها لا يَمَلُّها ولا تَمَلُّه، ولا يأتيها من مَرَّةٍ إلا وجدَها عَذْرَاء، ما يَفْتر ذَكَرُه ولا تشتكي قُبُلَها إلا أنه لا مَنِيَّ ولا مَنِيَّة، فبينما هو كذلك إذ نُودِي: إنا قد عرفنا أَنَّكَ لا تَمَلُّ ولا تُمَلُّ، إلا أن لك أزواجاً غيرها. فيخرج، فيأتيهنَّ واحدةً واحدةً، كُلَّما جاءَ واحدةً قالت: والله ما في الجنة شيءٌ أحسنُ منكَ، وما في الجنة شيءٌ أحبُّ إليَّ مِنْكَ»(٣).

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عَمرو بن الحارث، عن دَرَّاجٍ، عن ابن حُجَيرةً، عن أبي هُرَيْرَة، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال له: أنَطأ في الجنة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده، دَحْماً دحْماً، فإذا قام عنها رَجَعت مُطَهَّرة بكراً».

وقال الطبرانيُّ: حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادي، حدثنا محمد بن عبد الملك الدَّقِيقي الواسطي، حدثنا معلى بن عبد الرحمن الواسِطي، حدثنا شَريك، عن عاصم الأحول، عن أبي المُتَوكِّل، عن أبي سَعِيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أهلَ الجنةِ إذا جامعُوا نساءَهم عُدْنَ أبكاراً»(٤).

الظِّهارة من الثوب: ما يظهر للعين منه ولا يلي الجسد، وهو بخلاف البطانة.

(٢) أخرجه في المعجم الكبير ٢٣/٣٦٧ ـ ٣٦٨. وأخرج بعضه الطبري في تفسيره ٢٧/١٨٨.

(٣) تقدم حديث الصُّور عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.

(٤) أخرجه في المعجم الصغير ١/٩١.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا عِمْران، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يُعطى المؤمن في الجنَّةِ قُوَّةَ كذا وكذا في النساءِ. قلت: يا رسولَ الله، ويُطِيق ذلك؟ قال: يُعطى قُوَّةَ مائةٍ»(١).

وَرَواه التِّرمذي من حديثِ أبي داودَ وقال: «صَحِيحٌ غَرِيبٌ»(١).

وَرَوى أبو القاسم الطبراني من حديث حُسَين بن علي الجُعفي، عن زائدةَ، عن هشام بن حَسَّان، عن محمد بن سيرينَ. عن أبي هُرَيرة قال: قيلَ: يا رسولَ الله، هل نصل إلى نسائنا في الجنَّة؟ قال: «إنَّ الرجُلَ ليَصِلُ في اليوم إلى مائةِ عذراءَ».

قال الحافظ أبو عبد الله المَقْدِسيُّ: هذا الحديثُ عِنْدي على شَرْطِ الصحيح، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ عُرُباً ﴾، قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: يعني مُتَحَبِّبات إلى أزواجِهِنَّ، ألم تَرَ الناقةِ الضَبِعَة(٢)، هي كذلك.

وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: العُرُب: العواشِقُ لأزواجِهنَّ، وأزواجُنَّ لهن عاشقون. وكذا قال عبد الله بن سَرْجِس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو العاليةِ، ويحيى بن أبي كثير، وعطيةُ، والحسنُ، وقتادةُ، والضحاكُ، وغيرهم.

وقال ثَورُ بن زَيد، عن عِكْرِمَة قال: سُئِل ابن عباس عن قوله: ﴿ عُرُباً ﴾، قال: هي المَلِقَةُ(٣) لزوجها. وقال شعبة، عن سماك، عن عِكْرِمَةَ: هي الغَنِجة. وقال الأجلح بن عبد الله، عن عِكْرِمةَ: هي الشَّكِلَة(٤).

وقال صالح بن حيَّان، عن عبد الله بن بُرَيدَةَ في قوله: ﴿ عُرُباً ﴾، قال: الشَّكِلَة بلغة أهل مكة، والغَنِجَة بلغة أهل المدينة.

وقال تميم بن حَذْلَم: هي حُسْنُ التَّبَعُّلِ. وقالَ زيد بن أبي أسْلم، وابنَه عبد الرحمن: العُرُبُ: حَسَناتُ الكَلَام.

وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكِر عن سهل بن عثمان العَسكري: حدثنا أبو علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جَدِّه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «﴿ عُرُباً ﴾ قال: كلامُهُنَّ عَرَبيٌّ».

وقولُه: ﴿ أتراباً ﴾، قال الضحَّاك، عن ابن عباس: يعني في سِنٍّ واحدةٍ، ثلاثٍ وثلاثين سنة.

وقال مجاهد: الأتراب المستويات. وفي رواية عنه: الأمثال. وقال عطية: الأقران. وقال السُدِّيُّ: ﴿ أتراباً ﴾، أي: في الأخلاقِ، المتواخياتُ بينهن، ليس بينهن تباغضٌ ولا تحاسُدٌ، يعني لا كما كُنَّ [في الدنيا] ضرائرَ متعاديات.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيدٍ الأشجُّ، حدثنا أبو أسامة، عن عبد الله بن الكهف، عن الحسن ومحمد: ﴿ عُرُباً أتراباً ﴾، قالا: المستوياتُ الأسنانِ، يَأتلِفْنَ جميعاً، ويَلْعَبْن جميعاً.

وقد روى أبو عيسى الترمذي، عن أحمد بن مَنيع، عن أبي معاوية، عن عبد الرحمن بن إسحاقَ، عن

(١) مسند أبي داود ٢٦٩، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/٩ـ١٠.
(٢) الناقة الضَبِعَة: هي التي تشتهي الفحل.
(٣) المَلِقَةُ: التي تتودَّد بكلام لطيف.
(٤) الشَكِلَةُ: ذاتُ الدلِّ.

النُّعمان بن سَعد، عن عَلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجَنَّةِ لَمُجتَمعاً للحُور العِين، يَرفَعْن أصواتاً لم تَسمَع الخلائقُ بمثلها، يقلن: نحن الخالداتُ فلا نَبيدُ، ونحن الناعماتُ فلا نَبْأسُ، ونحن الراضِيَاتُ فلا نسخَطُ، طُوبَى لمن كان لنا وكُنَّا له». ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ»[1].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا ابنُ أبي ذئب، عن فلان بن عَبد الله بن رافع، عن بعض ولد أنس بن مالك، عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الحَور العِينَ لَيُغَنِّينَ في الجَنَّة، يقلن: نحن خَيرات حسان، خُبِئنا لأزواج كرام».

قلتُ: إسماعيل بن عُمَر هذا هو أبو المنذر الواسطي أحد الثقات الأثبات. وقد رَوَى هذا الحديثَ الإمامُ عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بدُحَيم، عن ابن أبي فُدَيك، عن ابن أبي ذِئب، عن عَون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع، عن ابن لأنس، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الحُور العين يُغَنِّين في الجنة: نحن الحُورُ الحِسان، خلقنا لأزواج كرام».

وقولُه: ﴿لأصحابِ اليَمين﴾، أي خُلِقْنَ لأصحاب اليمين، أو: ادُّخِرْنَ لأصحاب اليمين، أو زُوِّجْنَ لِأَصْحَاب اليمين، والأظهر أنه مُتعلِّق بقوله: ﴿إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكاراً * عُرُباً أتراباً * لأصحابِ اليَمين﴾، فَتَقديرُه: أنشأناهُنَّ لأصحابِ اليَمِين. وهذا توجيه ابن جرير[2].

رُوِي عن أبي سُلَيمان الدّاراني ـ رحمه الله ـ قال: صَلَّيتُ ليلةً، ثم جلستُ أدعُو، وكان البردُ شديداً، فجعلتُ أدعُو بيدٍ واحدةٍ، فأخذتني عيني فَنِمتُ، فرأيتُ حوراءَ لَم يُرَ مثلُهَا وهي تقول: يا أبا سليمانَ، أتدعُو بيدٍ واحدةٍ وأنا أُغذَى لك في النعيم من خمسماثةِ سنةٍ؟!.

قلتُ: ويحتَمِل أن يكونَ قولهُ: ﴿لأصحَابِ اليمين﴾ مُتَعَلِّقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿أترَاباً * لأصحاب اليمين﴾، أي: في أسنانهم. كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومُسلم، من حديث جَرير، عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أوَّلُ زُمرَةٍ يدخُلُون الجنَّة على صُورَةِ القَمَرِ ليلةَ البدر، والذين يَلُونهم على ضَوءِ أشدِّ كوكبٍ في السماءِ إضاءَةً، لا يَبولُون ولا يَتغوَّطُون، ولا يَتفلُون ولا يَتمخَّطون، أمشاطُهم الذهب، ورَشْحُهم، المِسْكُ، وَمَجامِرُهم الألُوَّة، وأزواجُهم الحورُ العِين، أخلاقُهم على خَلْقِ رَجُلٍ واحدٍ، على صُورَةِ أبيهم آدَمَ، سِتُّون ذِراعاً في السَّماءِ»[4].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ وعفَّان قالا: حَدَّثنا حماد بن سَلَمة ـ وروى الطبرانيُّ، واللفظ له، من حديث حَمَّاد بن سَلَمَة ـ عن علي بن زيد بن جُدعَانَ، عن سَعيد بن المُسَيِّب، عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يدخل أهلُ الجَنَّةِ الجنةَ جُرداً مُرداً بيضاً جِعاداً مُكَحَّلين، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثينَ، وهم على خَلْقِ آدم سِتُّون ذِراعاً في عَرْضِ سَبْعَةِ أذرُعٍ»[5].

وَرَوَى الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، عن عِمران القطان، عن قتادة. عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة ١٠/٣٦ ـ ٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٨٩.

(٣) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العَنْسي المذحجي، أبو سليمان، كان من أفاضل أهل زمانه، وعُبَّادهم، وخيار أهل الشام وزهادهم، انظر أخباره في تاريخ بغداد ١٠/٢٤٨، ووفيات الأعيان ١/٢٧٦، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٩/٢٥٤، والأنساب للسمعاني ٩/٢٥٤.

(٤) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٦٢ من سورة مريم، ٧٣ من سورة الزمر، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٢٩٥.

النُّعمان بن سَعد، عن عَلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجَنَّةِ لَمُجتمعاً للحُور العِين، يَرفَعْن أصواتاً لم تَسمَع الخلائقُ بمثلها، يقلن: نحن الخالداتُ فلا نَبيدُ، ونحن الناعماتُ فلا نَبْأسُ، ونحن الراضِيَاتُ فلا نسخَطُ، طُوبَى لمن كان لنا وكُنَّا له». ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ»(١).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا ابنُ أبي ذئب، عن فلان بن عَبد الله بن رافع، عن بعضِ ولد أنس بن مالك، عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الحَور العِينَ لَيُغَنِّينَ في الجَنَّة، يقلن: نحن خَيِّرات حسان، خُبِّئنا لأزواج كرام».

قلتُ: إسماعيل بن عُمَر هذا هو أبو المنذر الواسطي أحد الثقات الأثبات. وقد رَوَى هذا الحديث الإمامُ عبد الرحيم بن إبراهيم الملقب بدُحَيم، عن ابن أبي فَدِيك، عن ابن أبي ذِئْب، عن عَون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع، عن ابن لأنس، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الحور العين يُغَنِّين في الجنة: نحن الحُورُ الحِسان، خلقنا لأزواج كرام».

وقولُه: ﴿لأصحابِ اليَمين﴾، أي خُلِقْنَ لأصحاب اليمين، أو: ادُّخِرْنَ لأصحاب اليمين، أو زُوِّجْنَ لِأصْحَاب اليمين، والأظهر أنه مُتعلِّق بقوله: ﴿إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكاراً * عُرُباً أتراباً * لِأصحابِ اليَمين﴾، فَتَقديرُه: أنشأناهُنَّ لأصحابِ اليَمِين. وهذا توجيه ابن جرير(٢).

رُوِي عن أبي سُلَيمان الدّاراني ـ رحمه الله ـ قال: صَلّيتُ ليلةً، ثم جلستُ أدعُو، وكان البردُ شديداً، فجعلتُ أدعُو بيدٍ واحدةٍ، فأخذتني عيني فَنِمتُ، فرأيتُ حوراءَ لَم يُرَ مثلُهَا وهي تقول: يا أبا سليمانَ، أتدعُو بيدٍ واحدةٍ وأنا أُغذَى لك في النعيم من خمسمائةِ سنةٍ؟!.

قلتُ: ويحتَمِل أن يكونَ قولهُ: ﴿لأصحَابِ اليمينِ﴾ مُتعَلِّقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿أَترَاباً * لأصحاب اليمين﴾، أي: في أسنانهم. كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومُسلِم، من حديث جَرير، عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَوَّلُ زُمرةٍ يدخُلون الجنَّة على صُورَةِ القَمَر ليلةَ البدر، والذين يَلُونهم على ضَوءِ أشدِّ كوكبٍ في السماءِ إضاءةً، لا يَبولُون ولا يَتغوَّطُون، ولا يَتفُلُون ولا يَتمخَّطون، أمشاطُهم الذهب، وَرَشْحُهم، الْمِسْكُ، وَمَجامِرُهم الألُوَّة، وأزواجُهم الحورُ العِين، أخلاقُهم على خَلْقِ رَجُلٍ واحدٍ، على صُورةِ أبيهم آدَمَ، سِتُّون ذِراعاً في السَّماءِ»(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ وعَفّان قالا: حَدَّثنا حماد بن سَلَمة ـ وروى الطبرانيُّ، واللفظ له، من حديث حَمَّاد بن سَلَمَة ـ عن علي بن زيد بن جُدعَانَ، عن سَعيد بن المُسَيَّب، عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يدخل أهلُ الجَنَّةِ الجنةَ جُرداً مُرداً بيضاً جِعاداً مُكَحَّلين، أبناء ثلاثٍ وثلاثينَ، وهم على خَلْق آدم سِتُّون ذِراعاً في عَرْضِ سَبْعَةِ أذرُع»(٥).

وَرَوَى الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، عن عِمران القطان، عن قتادة. عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة ١٠/٣٦ ـ ٣٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٨٩.
(٣) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العَنْسِي المذحجي، أبو سليمان، كان من أفاضل أهل زمانه، وعُبَّادهم، وخِيار أهل الشام وزهادهم. انظر أخباره في تاريخ بغداد ١٠/٢٤٨، ووفيات الأعيان ١/٢٧٦، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٩/٢٥٤، والأنساب للسمعاني ٩/٢٥٤.
(٤) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٦٢ من سورة مريم، ٧٣ من سورة الزمر، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.
(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٢٩٥.

- ﷺ - فإن استطعتم - فِداكم أبي وأمي - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا، وإلا فكونوا من أصحاب الظِّراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأُفق، فإني قد رأيتُ ناساً كثيراً قد تأشَّبوا[1] أحوالهم. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة». فكبَّرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنة». قال: فكبَّرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصفَ أهلِ الجنة». قال: فكبَّرنا. ثم تلا رسولُ الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ من الأوَّلين * وثُلَّة من الآخرين﴾. قال: فقلنا بيننا: مَن هؤلاء السبعُون ألفاً؟ فقلنا: هم الذين وُلِدوا في الإسلام ولم يُشركوا، قال: فبلَغه ذلك، فقال: «بل هم الذين لا يكتوُون ولا يسترقُون ولا يَتطيَّرون، وعلى ربهم يَتوكَّلُون».

وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين، عن قتادة، به نحوه[2]. وهذا الحديثُ له طُرُق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا مِهران، حدثنا سفيان، عن أبان بن أبي عياش، عن سعيد بن جبَير، عن ابن عباس ﴿ثُلَّة من الأوَّلين * وثُلَّة من الآخِرين﴾، قال: قال رسول الله - ﷺ - «هُما جميعاً من أمتي»[3].

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حالَ أصحاب اليمين، عَطَف عليهم بذكر أصحاب الشِّمال، فقال: ﴿ وأصحابُ الشِّمال ما أصحابُ الشِّمال ﴾. أي: أيُّ شيءٍ هم أصحاب الشمال؟ ثم فسَّر ذلك فقال: ﴿ في سَمُوم ﴾، وهو الهواءُ الحارُّ، ﴿ وحَميم ﴾، وهو: الماءُ الحارُّ، و﴿ وظل من يَحمُوم ﴾ قال ابن عباس: ظِلُّ الدُّخان. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وأبو صالح، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿ انطلِقوا إلى ما كُنتم به تُكذِّبون * انطلقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاث شُعَبٍ * لا ظَليلٍ ولا يُغني من اللَّهَبِ * إنها ترمي بِشَرَرٍ كالقصرِ * كأنَّهُ جِمَالة صُفرٌ * ويلٌ يومَئذٍ للمكذبين﴾ * ولهذا قال ها هنا: ﴿وظلٍّ من يحمُوم﴾، وهو الدخان الأسوَد، ﴿لا باردٍ ولا كريم ﴾، أي: ليس طيِّبَ الهُبُوب ولا حَسَن المنظر، كما قال الحسنُ وقتادةُ: ﴿ ولا كَريم ﴾، أي: ولا كريمِ المنظرِ. وقال الضحَّاك: كلُّ شرابٍ ليس بعَذْبٍ فليس بكريم.

وقال ابنُ جَرير: العربُ تُتبِعُ هذه اللفظة في النفي، فيقولون: هـذا الطعامُ ليس بطيِّبٍ ولا كريم، هذا اللحم ليس بسَمِينٍ ولا كريم، وهذه الدار ليست بنظيفةٍ ولا كَريمةٍ[4].

---

(١) أي: تضامُّوا محيطين بهم.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/١٩٠ - ١٩١. وتقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٠ من سورة آل عمران من وجوه أخرى، وخرجناه هنالك.

(٣) تفسير الطبري ٢٧/١٩١.

(٤) تفسير الطبري ٢٧/١٩٣.

ثم ذَكَرَ تعالى استِحقاقهم لذلك فقال تعالى: ﴿ إنهم كانُوا قبلَ ذلك مترَفين ﴾، أي: كانوا في الدَّار الدُنيا مُنعَّمين مُقبِلين على لذَّاتِ أنفُسِهم، لا يَلْوُون على ما جاءتهم به الرسل.

﴿ وكانوا يُصِرُّون ﴾ أي: يُصَمِّمُون ولا يَنْوُون توبةً، ﴿ على الحِنْثِ العَظِيم ﴾. وهو الكُفر بالله، وجَعْلُ الأوثانِ والأنداد أرباباً من دون الله.

قال ابن عباس: الحنثُ العظيمُ: الشركُ. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، والضحاك، وقتادةُ والسُّدِّي وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليَمِين الغَمُوس [1].

﴿وكانُوا يقولن أئذا مِتنا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أئنا لمبعثُون * أوَ آباؤنا الأوَّلون﴾. يعني أنهم يَقُولون ذلك مُكَذِّبين به مُستبعِدين لوُقُوعه، قال الله تعالى: ﴿قل إنَّ الأوَّلين والآخِرينَ * لمجموعُون إلى ميقات يوم معلُوم﴾، أي: أخبِرْهُم يا محمد أنَّ الأولين والآخرين من بني آدم سَيُجمَعون إلى عَرَصات القيامة، لا نغادِر منهم أحداً، كما قال: ﴿ذلك يومٍ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهودٌ * وما نُؤَخِّره إلا لأجل معدود * يوم يأتِ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقيٌ وسَعِيد ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ لمجموعُون إلى ميقاتِ يومٍ معلومٍ ﴾، أي: مُوَقَّت بوقت مُحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

﴿ثم إنكُم أيها الضَّالُّون المكذِّبون * لآكلُون من شَجَرٍ من زَقُّومٍ * فمالئون منهاالبطونَ﴾، وذلك أنهم يُقبَضُون ويُسجَرون[2] حتى يأكلُوا من شَجَر الزقُّوم، حتى يملأُوا منها بطونَهم، ﴿فشارِبُون عليه من الحَمِيم * فشارِبُون شُرْبَ الهيمِ ﴾، وهي الإبلُ العِطاشُ، واحدها أهيَمُ والأنثى هَيْماء، ويقال: هائِمٌ وهائمة.

قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة: الهيمُ: الإبل العطاش الظِّماء. وعن عكرمة أنه قال: الهيم: الإبلُ المِرَاض، تَمُصُّ الماء مَصّاً ولا تَرْوَى. وقال السُّديُّ: الهُيَامُ دَاءٌ يأخذ الإبلَ فلا تَرْوَى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يَرْوَون من الحَمِيم أبداً. وعن خالد بن مَعْدَان: أنه كان يكرَهُ أن يشرَبَ شُرْبَ الهِيم عَبَّةً واحدةً من غير أن يَتنفَّس ثلاثاً.

ثم قال تعالى: ﴿ هذا نُزُلُهم يومَ الدين ﴾، أي: هذا الذي وَصَفنا هو ضِيافَتهم عند ربِّهم يوم حسابهم، كما قال في حقِّ المؤمنين: ﴿ إن الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ كانت لهم جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً ﴾، أي: ضيافةً وكرامةً.

﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُقرِّراً للمَعاد، ورَدّاً على المكذبين به من أهل الزَّيْغ والإلحاد، من الذين قالوا: ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنَّا لمبعوثُونَ ﴾، وقولُهم ذلك صَدَرَ منهم على وَجْهِ التكذيب والاستِبْعاد، فقال: ﴿ نحنُ خلقناكُم ﴾، أي: نحن ابتدأنا خَلْقَكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قَدَرَ على البَدَاءةِ بقادر على الإعادة بطريق الأولى، فلهذا قال: ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقون ﴾، أي: فهلا تُصدِّقون بالبعث! ثم قال مستدلاً عليهم

(١) اليمين الغَمُوس: التي تغمس صاحبها في الإثم في الفساد، وهي اليمين الكاذبة التي تقتطع بها الحقوق.

(٢) أي: يُوضَع الساجُور في أعناقهم، وهي قلادة أو خَشَبةٌ تُوضع في العُنُق. والمراد أنهم يُحمَلون على الأكل من شجر الزقوم.

بقوله: ﴿أفرأيتم ما تُمنُون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾، أي: أأنتم تُقِرُّونه في الأرحام وتخلُقونه فيها أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال: ﴿نحن قَدَّرنا بينكم الموتَ﴾، أي: صَرَّفناه بينكم ـ وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهلِ السماء والأرض ـ ﴿وما نحن بمسبُوقين﴾، أي: وما نحن بعاجزين ﴿عَلى أن نُبَدِّلَ أمثالَكُم﴾، أي: نُغيِّر خَلْقَكم يومَ القيامة، ﴿ونُنشِئَكُم فيما لا تعلَمُون﴾، أي: من الصِّفات والأحوالِ.

ثم قال: ﴿ولقد عَلِمتُم النشأةَ الأُولى فلولا تَذَكَّرون﴾، أي: قد عَلِمتُم أن الله أنشأكُم بعد أن لم تكونُوا شيئاً مذكوراً، فَخَلقكم وجَعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، فهلا تتذكَّرون وتعرفون أن الذي قَدَر على هذه النشأة، وهي البَدْأَةُ، قادرٌ على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرَى، كما قال: ﴿وهو الذي يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيدهُ وهو أهونُ عليه﴾، وقال: ﴿أَوَلا يذكُر الإنسانُ أنا خلقناهُ من قبلُ ولم يك شيئاً﴾، وقال: ﴿أَوَ لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مبين * وضَرَب لنا مثلاً ونَسِي خَلْقَه قال مَن يُحيِي العِظَام وهي رَمِيم. قُل يُحييها الذي أنشأَهَا أَوَّل مَرَّةٍ وهو بكُلِّ خلقٍ عَلِيمٌ﴾. وقال تعالى: ﴿أيحسَبُ الإنسانُ أن يترك سُدًى * أَلَمْ يكُ نطفةً من مَنِيٍّ يمنى * ثم كان عَلَقة فَخَلق فَسَوَّى * فجَعَل منه الزوجَين الذَّكر والأُنثى * أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

يقولُ: ﴿أفرأيتم ما تحرُثون﴾، وهو شَقُّ الأرضِ وإثارتُها والبَذْرِ فيها، ﴿أأنتم تزرَعُونه﴾، أي: تُنبِتُونه في الأرض ﴿أم نحن الزَّارِعُون﴾، أي: بل نحن الذين نُقِرُّه قرارَه ونُنْبِتُه في الأرضِ.

قال ابنُ جرير: وَقد حدثني أحمد بن الوليد القرشي، حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجَرْمي، حدثنا مَخْلَد بن الحُسَين، عن هشام، عن محمد عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقولَنَّ: زَرعتُ ولكن قل: حرثتُ». قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أفرأيتم ما تحرثُون * أأنتم تزرَعُونه أم نحن الزارعون﴾[1].

ورواه البَزَّار عن محمد بن عبد الرحيم، عن مسلم الجَرْمي، به[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُوسَى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن: لا تقولوا: زَرَعنا، ولكن قولوا: حَرَثْنا.

وَرَوى عن حُجْرِ المَدَرِيِّ أنه كان إذا قرأ: ﴿أأنتم تزرعُونه أم نحن الزارعُونَ﴾ وأمثالها، يقول: بل أنتَ يا ربِّ.

وقولُهُ: ﴿لو نَشاء لجَعلناهُ حُطَاماً﴾، أي: نحن أنبتناه بلُطفنا ورَحمتنا، وأبقيناه لكُم رحمة بكُم، ولو نشاءُ

(١) تفسير الطبري ٢٧/١٩٨، وكشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البيوع ٢/٩٦. وفي مجمع الزوائد ٤/١٢٠: «رواه الطبراني في الأوسط، والبزار، وفيه مسلم بن أبي مسلم الجرمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات».

لجعلناه حُطاماً، أي: لأيبسناهُ قبل استوائِهِ واستحْصادِهِ، ﴿فَظَلْتُم تفكَّهون﴾. ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿إنَّا لمُغرَمُون * بل نحنُ محرومُون﴾، أي: لو جعلناهُ حُطاماً لظَلْتم تفكُّهون في المقَالة، تَنوَّعون كلامَكُم، فتقولون تارةً: ﴿إنَّا لَمُغرَمُون﴾ أي: لَمُلقَوْن[1]. وقال مجاهد، وعكرمة: إنا لمُولَع بنا. وقال قتادة: مُعذَّبون. وتارة تقولون: ﴿بل نحنُ محرومُون﴾. وقال مجاهد أيضاً: إنا لمغرمون: مُلقَون للشرِّ، بل نحن مُحارَفون، قاله قتادة، أي: لا يَثبُت لنا مالٌ، ولا يُنتِجُ لنا رِبحٌ. وقال مجاهد: ﴿بل نحنُ مَحرُومونَ﴾، أي: محدُودُون، يعني: لا حَظَّ لنا.

قال ابنُ عباس، ومجاهد: ﴿فَظَلتُم تفكَّهون﴾. تَعْجَبُون. وقال مجاهد أيضاً: ﴿فَظَلْتُم تفكَّهون﴾: تَفجَّعُون وتحزَنُون على ما فاتكم من زَرْعِكم. وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجُّب من السَّببِ الذي من أجله أُصِيبُوا في مالهم. وهذا اختيار ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿فَظَلتُم تَفكَّهون﴾: تلاومون. وقال الحسن، وقتادة، والسُّديُّ: ﴿فَظَلتُم تفكَّهون﴾، تَنْدَمُون. ومعناه إمَّا على ما أنفقتم، أو على ما أسلفتُم من الذنوب.

قال الكسائيُّ: تَفكَّه من الأضداد، تقولُ العربُ: تفكَّهْتُ بمعنى تَنَعَّمْتُ، وتَفَكَّهتُ بمعنى حَزِنت.

ثم قال تعالى: ﴿أفرأيتُم الماء الذي تشربُون * أأنتم أنزلتُموه من المُزنِ﴾، يعني: السحابُ. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغير واحد. ﴿أم نحنُ المُنزلُون﴾، يقول: بل نحنُ المنزلون. ﴿لو نشاءُ جعلناه أُجاجاً﴾، أي: زُعافاً مرًّا لا يصلُح لشُربٍ ولا زَرْعٍ، ﴿فلولا تشكُرون﴾، أي: فَهلَّا تشكُرون نعمةَ الله عليكم في إنزالِه المطَرَ عليكم عَذْباً زُلالاً! ﴿لكم منه شَرابٌ ومنه شجَرٌ فيه تُسِيمُون * يُنبِتُ لكم به الزرع والزيتُون والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثَمراتِ إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكَّرون﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُثمان بن سَعيد بن مُرَّة، حدثنا فُضَيل بن مرزُوق، عن جابر، عن أبي جعفرٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: أنه كان إذا شَرِب الماءَ قال: «الحمدُ لله الذي سقاناه عَذْباً فراتاً بِرحمتِهِ، ولم يجعله مِلْحاً أجاجاً بِذُنُوبنا»[2].

ثم قال: ﴿أفرأيتُم النار التي تُورُون﴾، أي: تَقدَحُون من الزِّناد، وتَسْتَخرجُونها من أصْلِها، ﴿أأنتم أنشأتُم شَجرَتَها أم نحن المنشئون﴾، أي: بل نحن الذين جَعلناها مُودَعَةً في مَوضعها، وللعَرَب شجرتان، إحداهما: المَرْخُ، والأخرى: العَفار، إذا أخِذَ منهما غصنان أخضران فَحُكَّ أحدُهما بالآخرِ تناثرَ من بينِهما شَررُ النار.

وقولُهُ: ﴿نحنُ جعلناها تذكرةً﴾، قال مجاهد، وقتادةُ: أي تُذكِّر النارَ الكبرى.

قال قتادة: ذُكِر أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ناركم هذه التي تُوقدون جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنَّم». قالوا يا رسولَ الله، إن كانت لكافيةً! قال: «قد ضُرِبت بالماء ضَربتَين ـ أو: مرَّتَين ـ حتى يستنفع بها بنو آدم ويَدْنُوا منها»[3].

وهذا الذي أرسَله قتادةُ قد رَواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِه فقال:

حدثنا سفيانُ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرجِ، عن أبي هُريْرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: «إنَّ نارَكُم هذه جزءٌ من

(١) في تفسير الطبري ٢٧/١٩٩: «ملقون للشر».
(٢) الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم وحده ٢٤/٨.
(٣) أخرجه الطبري ٢٧/٢٠١.

سبعين جزءاً من نار جهنم، وضُربت بالبحر مرَّتين، ولولا ذلك ما جَعَل الله فيها منفعة لأحدٍ»(١).

وقال الإمام مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «نارُ بني آدم التي يُوقِدُون جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نارِ جهنَّم». فقالوا: يا رسولَ الله، إن كانت لكافيةً. فقال: «إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»(٢).

رواه البخاري من حديث مالك، ومسلم من حديث أبي الزناد، ورواه مسلم، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ عن هَمَّام، عن أبي هُرَيرة، به(٢). وفي لفظ: «والذي نفسي بيده، لقد فُضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كُلُّهن مثل حَرِّها»(٢).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمدُ بن عَمرو الخلال، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامي، حدثنا مَعن بن عيسى القَزَّاز، عن مالك، عن عمه أبي السهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «أتدرُون ما مَثَلُ ناركم هذه مِن نارِ جَهَنَّم؟ لهي أشد سواداً من ناركم هذه بسبعين ضِعفاً».

قال الضِّياء المَقْدسي: وقد رَوَاه ابن مصعب، عن مالك، ولم يرفعه، وهو عندي على شرط الصحيح.

وقولُهُ: ﴿ ومتاعاً للمُقْوين ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ، والضحَّاك، والنضرُ بن عَرَبي: معنى ﴿ المُقْوين ﴾: المسافرين، واختاره ابنُ جرير، وقال: ومنه قولهم: «أقـوتِ الدارُ إذا رَحَل أهلهـا»(٣).

وقال غيره: القِيُّ والقَوَاءُ: القفر الخالي البعيد من العمران. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقوى هنا الجائع. وقال ليث بن أبي سُليم، عن مجاهد: ﴿ ومتاعاً للمُقْوين ﴾: للحَاضِر والمُسَافِر، لكلِّ طعامٌ لا يُصْلِحهُ إلا النار. وكذا رَوَى سفيان، عن جابر الجعفي، عن مجاهد. وقال ابن أبي نَجيحٍ، عن مُجاهدٍ قوله: ﴿ للمُقْوين ﴾: المُسْتَمتِعين، الناس أجْمَعين(٣). وكذا ذُكِر عن عِكْرِمَةَ.

وهذا التفسيرُ أعمُّ من غيره، فإن الحاضِرَ والباديَ من غنيٍّ وفقيرٍ الكلُّ مُحتاجُون للطَّبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لُطفِ الله تعالى أن أودَعها في الأحجار، وخالص الحَديدِ، بحيث يَتمكَّن المسافر من حَمْلِ ذلك في متاعه وبين ثِيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في مَنْزله أخرجَ زَنْدَه وأورَى، وأوقد نارَه فاطَّبخ بها واصطَلى، واشتوَى واستأنَسَ بها، وانتفع بها سائرَ الانتفاعاتِ. فلهذا أُفرِد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حَقِّ الناس كُلِّهم. وقد يُستَدَلُّ له بما رواه الإمام أحمدُ وأبو داودَ من حديثِ أبي خِداشٍ حِبَّانَ بن زيد الشَّرْعَبيِّ الشاميِّ، عن رَجُلٍ من المهاجرين من قَرْنٍ، أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «المسلمون شُرَكاءُ في ثلاثة: النارُ، والكَلأ، والماء»(٤).

وروى ابن ماجه بإسناد جَيِّد عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله - ﷺ - : «ثلاثٌ لا يُمنَعْنَ: الماء، والكَلأ، والنار»(٥).

وله من حَديثِ ابن عباس مرفوعاً مثلُ هذا وزيادة: «وثَمَنُه حرام»(٥). ولكن في إسناده عبدُ الله بن خِرَاش بن حَوْشب وهو ضعيف، والله أعلم.

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٤٤.
(٢) الموطأ، كتاب جهنم ٢/٩٩٤، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٣٠، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٤.
(٣) تفسير الطبري ٢٧/٢٠٢.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/٣٦٤، وسنن أبي داود، كتاب البيوع ٣/٢٧٧ - ٢٧٨.
(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الرهون ٢/٨٢٦.

وقولُهُ: ﴿ فَسَبِّح باسم ربِّك العظيم ﴾، أي: الذي بقُدرتِه خَلق هذه الأشياءَ المختلفةَ المتضادَّة: الماءَ العذبَ الزُّلالَ البارد، ولو شاء لجعله مِلْحاً أُجاجاً كالبحارِ المُغرِقة. وخَلق النار المُحرِقة، وجعل ذلك مصلحةً للعباد، وجعل هذه منفعةً لهم في مَعاشِ دُنياهم، وزاجراً لهم في المَعادِ.

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قال جُوَيبر، عن الضحَّاك: إن الله لا يُقسِم بشيء من خلقه، ولكنه استفتاحٌ يَستفتحُ به كلامَه.

وهذا القولُ ضعيفٌ. والذي عليه الجمهورُ أنه قسم من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يُقسِم بما شاء من خَلْقِه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: (لا) هاهنا زائدة، وتقديره: أُقسِم بمواقع النجوم. ورواه ابن جرير، عن سعيد بن جُبَير[1]. ويكون جوابه: ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾.

وقال آخرون: ليست (لا) زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القَسَم إذا كان مُقسَماً به على مَنفيٍّ، كقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لا. والله مَا مَسَّت يَدُ رسولِ الله ﷺ يدَ امرأة قطُّ»[2]. وهكذا هاهنا تقدير الكلام: «لا. أقسمُ بمواقع النجوم»، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحرٌ أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

وقال ابن جُرَير: وقال بعضُ أهل العربية: معنى قوله: ﴿ فلا أُقسِم ﴾، فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقيل: أقسم[3].

واختلفُوا في معنى قوله: ﴿ بمواقع النُّجُوم ﴾ فقال حَكيم بن جُبَير، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: يعني نجومَ القرآن، فإنه نَزَل جملةً ليلةَ القدرِ من السماء العُليا إلى السماءِ الدُّنيا، ثم نَزَل مُفرَّقاً في السنينَ بعدُ. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: نَزَل القرآنُ جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفرَة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمته السَّفَرةُ على جبريل عشرينَ ليلةً، ونجَّمه جبريلُ على محمدٍ ـ ﷺ ـ عشرينَ سنةً، فهو قولُه: ﴿ فلا أُقسِمُ بمواقع النُّجُوم ﴾: نجـومِ القرآنِ.

وكذا قال عِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّديُّ، وأبو حَزْرَة.

وقال مجاهدٌ أيضاً: ﴿ مواقع النجوم ﴾ في السماء، ويقال: مَطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسنُ، وقتادةُ. وهو اختيارُ ابن جَرير. وعن قتادَة: مواقعُها: منازِلُها. وعن الحسن أيضاً: أن المراد بذلك انتثارُها يومَ القيامة. وقال الضحاكُ: ﴿ فلا أُقسِم بمواقع النجوم ﴾، يعني بذلك الأنواء التي كان أهل الجاهليَّةِ إذا مُطِرُوا قالوا: مُطِرنا بنَوْءِ[4] كذا وكذا.

وقولُهُ: ﴿ وإنه لقَسَمٌ لو تعلَمُون عظيمٌ ﴾، أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لَقَسمٌ عظيمٌ، لو تعلمون

(١) تفسير الطبري ٢٧/٢٠٣.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، فتح الباري ٨/٦٣٦، وسيأتي عند الآية ١٢ من سورة الممتحنة.
(٣) تفسير الطبري ٢٧/٢٠٣.
(٤) مضى تفسير النوء عند تفسير الآية الثانية من سورة فاطر.

عظمَته لَعظَّمتُم المُقسَمَ به عليه، ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾، أي: إن هذا القرآن الذي نَزَل على محمدٍ لَكِتابٌ عظيمٌ. ﴿ في كتاب مكنُونٍ ﴾ أي: مُعظَّمٌ في كتابٍ مُعظَّمٍ محفوظٍ مُوَقَّر.

قال ابنُ جرير: حدثني إسماعيل بن موسى[1]، أخبرنا شَريك، عن حَكِيم، ـ هو ابن جُبَير ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال: الكتابُ الذي في السماء.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ إلا المطَهَّرون ﴾، يعني الملائكة. وكذا قال أنسٌ، ومجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو نَهِيك، والسُدِّيُّ، وعبد الرحمن بنُ زيدِ بن أَسْلَمَ، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا ابنُ ثَور، حدثنا مَعْمَر، عن قتادةَ: ﴿ لا يَمسُّهُ إلاَّ المُطهَّرون ﴾. قال: لا يَمَسُّه عند الله إلا المُطَهَّرون، فأما في الدنيا فإنه يمسُّه المجوسيُّ النَجِسُ، والمنافقُ الرِّجسُ. وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿ ما يَمَسُّه إلا المطهَّرُونَ ﴾[2].

وقال أبو العالية: ﴿ لا يَمَسُّه إلا المُطَهَّرُون ﴾، ليس أنتم، أنتُم أصحابُ الذنوبِ[2].

وقال ابنُ زيدٍ: زَعمت كُفَّارُ قُرَيشٍ أنَّ هذا القرآن تَنَزَّلت به الشياطينُ، فأخبَرَ الله تعالى أنه لا يَمَسُّه إلا المُطَهَّرون كما قال: ﴿وما تنزلت به الشياطينُ * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزُولونَ﴾.

وهذا القولُ قولٌ جيِّدٌ، وهو لا يخرُج عن الأقوالِ التي قبلَه.

وقال الفَرَّاءُ: لا يَجِد طَعْمَه ونَفْعَه إلا مَن آمَن به[3].

وقال آخرون: ﴿ لا يَمسُّه إلا المُطهَّرون ﴾، أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خَبَرٌ ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما رَوَى مسلم عن ابن عُمَر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى أن يُسافَرَ بالقرآن إلى أرض العَدُوِّ مخافة أن يناله العَدُوُّ[4]. واحتجُّوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في مُوَطَّئِه، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عَمرو بن حَزم: أنَّ في الكتاب الذي كَتَبه رسول الله ـ ﷺ ـ لِعَمرو بن حزم: أن لا يَمسَّ القرآنَ إلَّا طاهرٌ[5]. وروى أبو داود ـ في المراسيل، من حديث الزهري قال: قرأتُ في صحيفةٍ عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ولا يَمسُّ القرآنَ إلا طاهرٌ».

وَهذه وِجَادةٌ[6] جَيِّدَةٌ. قد قرأها الزُهريُّ وغيرُه، ومثلُ هذا يَنبغي الأخذُ به. وقد أسنده الدارقطني[7] عن عمرو بن حَزم، وعبد الله بن عُمَر، وعثمانَ بن أبي العاصي، وفي إسناد كُلٍّ منها نَظَرٌ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿ تنزيلٌ من ربِّ العالمين ﴾، أي: هذا القرآنَ مُنزَّل من ربِّ العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحرٌ، أو كَهَانة، أو شعرٌ، بل هو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، وليس وراءه حَقٌّ نافع.

---

(١) في النسخ: موسى بن إسماعيل. والمثبت عن تفسير الطبري ٢٧/٢٠٥. وهو: إسماعيل بن موسى الفزاري، أبو محمد، ويقال: أبو إسحاق، الكوفي. انظر ترجمته في تهذيب الكمال للمزِّي ٣/٢١٠ ـ ٢١٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٧/٢٠٦.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/١٣٠. وتفسير القرطبي ١٧/٢٢٦.

(٤) مسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٩١.

(٥) الموطأ، كتاب القرآن ١/١٩٩.

(٦) قال ابن كثير في الباعث الحثيث ١٢٢: «والوجادة: أن يجد حديثاً أو كتاباً بخط شخص بإسناده».

(٧) سنن الدارقطني، كتاب الطهارة ١/١٢١ ـ ١٢٢. ولم يقع لنا فيه حديث عثمان بن أبي العاص.

وقولُهُ: ﴿ أفبهذا الحديثِ أنتم مُدهِنُون ﴾، قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: أي: مُكَذِّبون غير مُصدِّقين. وكذا قال الضحَّاكُ، وأبو حَزْرَة، والسُّديُّ. وقال مجاهد: ﴿ مُدهِنُون ﴾، أي: تُريدون أن تُمالِئُوهم فيه وتركنوا إليهم.

﴿ وتجعَلُون رزقَكُم أنكم تُكَذِّبون ﴾، قال بعضهم: يعني وتجعَلُون رزقكم بمعنى شُكرِكم أنكم تُكَذِّبُون، أي: تُكَذِّبون بَدَلَ الشُّكرِ. وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرآها: (وتجعلون شُكرَكم أنكم تُكَذِّبون) كما سيأتي.

وقال ابنُ جَرير: وقد ذُكِر عن الهيثم بن عَدِيٍّ: أن من لغة أزدشَنُوءة: ما رَزق فلانٌ، بمعنى: ما شَكَر فلانٌ[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا إسرائيل: عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وتجعلون رِزقَكم ﴾، يقول: شُكرَكم ﴿ أنكم تكذبون ﴾، تقولون: مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا، بِنَجْمِ كذا وكذا»[٢].

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتمٍ عن أبيه، عن مُخَوَّلُ بن إبراهيم النَّهدِي ـ وابنُ جَرير، عن محمد بن المُثنى، عن عُبَيدِ الله بن مُوسَى، وعن يَعقُوبَ بن إبراهيم، عن يحيى بن أبي بُكير ـ ثلاثتُهم عن إسرائيلَ، به مرفوعاً[٣]. وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن مَنيع، عن حُسَينِ بن محمد ـ وهو المروزيُّ ـ به، وقال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ». وقد رواه سفيان، عن عبد الأعلى، ولم يَرْفَعه»[٣].

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شُعبَةُ، عن أبي بِشرٍ، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ما مُطِر قومٌ قطُّ إلا أصبَحَ بعضُهم كافراً، يقولون: مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا. وقرأ ابنُ عَبَّاسٍ: (وتجعَلُون شُكركم أنكم تكذبون)[٤]. وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابنِ عَبَّاس.

وقال مالك في الموطأ، عن صالح بن كَيسانَ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبَةَ بن مسعُودٍ، عن زيد بن خالد الجُهَنِيِّ أنه قال: صَلَّى بنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الصُّبح بالحديبية في إثْرِ سَماءٍ[٥] كانت من الليل، فلما انصرف أقبلَ على الناس فقال: «هل تَدرُون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. «قال: أَصبَحَ من عبادِي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكب. وأما من قال: مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا فذلـك كافرٌ بي مؤمن بالكواكب»[٦].

أخرجاه في الصَّحيحَين، وأبو داودَ والنَّسائي، كلُّهم من حديث مالكٍ، به[٦].

وقال مسلم: حدثنا مُحمَّد بن سَلَمة المُرَادِيُّ وعَمرو بن سَوَادٍ، حدثنا عبد الله بن وَهب، عن عَمرو بن الحارث: أن أبا يُونسَ حَدَّثه عن أبي هُرَيرة، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما أَنزَلَ الله من السماءِ من بركةٍ

---

(١) تفسير الطبري ٢٠٧/٢٧.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٠٨/١.
(٣) تفسير الطبري ٢٠٧/٢٧ ـ ٢٠٨. وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الواقعة ١٨٠/١٢.
(٤) تفسير الطبري، ٢٠٨/٢٧، وفيه: ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾.
(٥) أي: عَقِبَ مَطَرٍ.
(٦) الموطأ، كتاب الاستسقاء ١٩٢/١، وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢١ من سورة يونس وخرجناه من الصحيحَين هنالك، وهو في سنن أبي داود، كتاب الطب ١٦/٤، والنسائي، كتاب الاستسقاء ١٦٤/٣ ـ ١٦٥.

إلا أصبح فريقٌ من الناس بها كافرين، يَنزلُ الغيثُ فيقولون: بِكَوْكَبِ كَذَا وكَذَا». تفَرّد به مسلمٌ من هذا الوجه[١].

وقال ابنُ جَرير: حدثني يونُس، أخبرني سُفيانُ، عن محمد بن إسحاقَ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيمِيِّ، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الله لَيُصبِحُ القومَ بالنعمةِ أو يُمَسِّيهم بها، فيُصبِحُ بها قومٌ كافرين، يقولون: مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا». قال محمد ـ هو ابن إبراهيم ـ: فذكرتُ هذا الحديثَ لسعيد بن المُسَيَّب، فقال: ونحن قد سَمِعنا من أبي هُرَيرة، وقد أخبرني مَن شَهِد عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو يَستسقي، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباسُ، يا عَمَّ رسولِ الله، كم بَقِيَ من نَوْءِ الثُّرَيا؟ فقال: العلماءُ يَزعمُون أنها تعترِضُ في الأفق بعد سُقُوطِها سبعاً. قال: فما مَضَت سابِعَةٌ حتى مُطِرُوا[٢].

وهذا مَحمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن ذلك النَّوءَ يُؤثِّر بنفسه في نزول المطر؛ فإن هذا هو المنهيُّ عن اعتقاده. وقد تقدَّم شيء من هذه الأحاديث عند قوله: ﴿ ما يَفْتَحِ اللهُ لِلناسِ مِن رَحمَةٍ فلا مُمسِكَ لها ﴾[٣].

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثني يونُس، أخبرنا سُفيان، عن إسماعيلَ بن أُمَيَّةَ ـ أحسَبه[٤] أو غيره ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ سَمِع رجلًا ـ ومُطِروا ـ يقولُ: مُطِرنا ببعض عَثَانين[٥] الأسد. فقال: «كَذَبْتَ! بل هو رِزقُ الله».

ثم قال ابن جرير: حدثني أبو صالح الصِّراريُّ، حدثنا أبو جابر محمد بن عبد الملك الأزدي[٦]، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما مُطِرَ قومٌ من ليلةٍ إلا أصبَحَ قومٌ بها كافِرينَ. ثم قال: ﴿ وتجعلُون رِزْقَكُم أنَّكُم تُكَذِّبون ﴾، يقول قائل: مُطِرنا بِنَجمِ كذا وكذا[٧].

وفي حديث عن أبي سَعيد مرفُوعاً: «لو قُحِطَ الناسُ سبعَ سِنين ثم مُطِروا لقالوا: مطرنـا بنوء المِجْدَحِ»[٨].

وقال مجاهد: ﴿ وتجعلُون رِزْقَكم أنكم تُكَذِّبون ﴾ قال: قولُهم في الأنواء: مُطِرنا بِنَوءِ كذا، وبنوء كَذَا، يقول: قولُوا: هو من عند الله، وهو رِزقه. وهكذا قال الضحاكُ وغير واحد.

وقال قتادةُ: أمَّا الحسَنُ فكان يقولُ: بئسَ ما أخَذ قومٌ لأنفُسِهِم، لم يُرزَقُوا من كتاب الله إلا التكذيبَ[٧]. فمعنى قَولِ الحسن هذا: وتجعلُون حَظَّكم من كتابِ الله أنكم تُكَذِّبون به. ولهذا قال قبله: ﴿ أفبهذا الحديثِ أنتم مُدهِنُون * وتجعلون رِزقَكُم أنكم تُكَذِّبون ﴾.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان ٨٤/١.

(٢) تفسير الطبري ٢٠٨/٢٧.

(٣) انظر تفسير الآية الثانية من سورة فاطر.

(٤) في نسخة: فيما أحسبه. ولفظ الطبري ٢٠٨/٢٧: قال: أحسبه.

(٥) العثانين: جمع عُثْنون، وهو المطر بين السحاب والأرض، مثل السَّبَل.

(٦) في النسخ: الأودي. والمثبت عن تفسير الطبري، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٥.

(٧) تفسير الطبري ٢٠٩/٢٧.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٧/٣. والمِجدَح: نجم، قيل: هو الدَّبَران، والدَّبَران في علم الفَلَك: خمسةُ كواكب من الثَّور، يقال: إنها سنامُه، وهو من منازل القمر. وقيل: نجم بين الثُّريا والجوزاء.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ فَلولا إذا بَلَغت ﴾، أي: الروحُ ﴿ الحلقومَ ﴾، وذلك حين الاحتِضار، كما قال: ﴿ كلا إذا بلغت التراقيَ * وقيل مَن راقٍ * وظنَّ أنه الفِراقُ * والتفَّت الساقُ بالساقِ * إلى ربِّك يومئذ المَساقُ ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿وأنتم حينئذٍ تنظُرون﴾، أي: إلى المحتضَر وما يُكابِده من سَكَرات الموتِ. ﴿ونحنُ أقربُ إليه منكُم﴾ أي: بملائكتنا، ﴿ولكن لا تُبصِرُون﴾، أي: ولكن لا تَرونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وهو القاهرُ فوقَ عبادِهِ ويُرسِل عليكم حفَظَةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفَّته رُسُلنا وهم لا يُفرِّطون * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ألا له الحكم وهو أسرعُ الحاسبين﴾.

وقولُهُ: ﴿فلولا إن كُنتم غيرَ مَدينين * تَرجِعُونها﴾، معناه: فهَلاَّ تَرجِعُون هذه النفسَ التي قد بلغتِ الحلقومَ إلى مكانها الأول، ومَقَرِّها في الجَسَدِ إن كنتم غير مَدِينين.

قال ابنُ عبَّاسٍ: يعني مُحاسَبِين[1]. ورُوِي عن مُجاهد، وعِكْرِمَةَ، والحسنِ، وقتادةَ، والضحَّاكِ، والسُّديِّ، وأبي حَزْرَة، مثلُه.

وقال سعيد بن جُبَير، والحسن البَصْريّ: ﴿ فلولا إن كنتم غير مَدينين ﴾: غير مُصدِّقين أنكم تُدانُون وتُبعَثُون وتُجزَون، فرُدُّوا هذه النفسَ.

وعن مجاهدٍ: ﴿ غيرَ مَدِينينَ ﴾: غير مُوقِنينَ. وقال مَيمُون بن مِهرانَ: غير مُعذَّبين مَقهُورِينَ.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

هذه الأحوالُ الثلاثة هي أحوالِ الناس عند احتضارهم: إمَّا أن يكُون من المقرَّبين، أو يكونَ ممن دُونَهم من أصحابِ اليمين، وإمَّا أنْ يكونَ من المُكذِّبين بالحقِّ الضالِّين عن الهُدَى، الجاهِلين بأمر الله. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأمَّا إن كانَ ﴾، أي: المحتضَرَ ﴿ من المقرَّبين ﴾، وهم الذين فَعَلوا الواجبات والمستحبَّات، وتركُوا المحرَّمات والمكروهَاتِ وبعضَ المباحات، ﴿ فَروحٌ وريحانٌ وجَنَّةُ نَعيم ﴾، أي: فلَهُم روحٌ وريحان، وتُبشِّرهم الملائكةُ بذلك عند الموتِ، كما تقدم في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول: «أيتها الروح الطَّيِّبة في الجَسَدِ الطيب كنت تَعمُرينه، اخرجي إلى رَوْحٍ وريحانٍ، وربٍّ غيرِ غَضبانَ»[2].

قال علي بن طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَروحٌ ﴾، يقول: راحةٌ وريحان، يقول: مستراحةٌ. وكذا قال مجاهد: إن الرَّوح: الاستراحة.

وقال أبو حَزْرَة: الراحةُ من الدنيا: وقال سَعيد بن جُبَير، والسُّديُّ: الرَّوح الفَرَحُ. وعن مجاهد: ﴿ فروح

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧/٢١٠.

(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، وخرجناه هنالك.

وريحان ﴾: جنّةٌ ورخاءٌ. وقال قتادة: فروحٌ ورحمةٌ. وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير: ﴿ وريحان ﴾ ورزْق.

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مُقرّباً حَصَل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسنِ، ﴿ وجَنَّة نعيم ﴾.

وقال أبو العالية: لا يفارق أحدٌ من المقربين حتى يُؤتَى بغُصن من ريحان الجَنَّةِ، فَيُقبَضُ روحُه فيه. وقال محمد بن كَعب: لا يموتُ أحدٌ من الناس حتى يعلَم أمِن أهلِ الجَنَّة هو أم أهل النار؟

وقد قدَّمنا أحاديثَ الاحتضارِ عند قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾، ولو كُتِبت هاهنا لكان حَسَناً! ومن جُملتها حديثُ تميمٍ الداريِّ، عن النبي ﷺ، يقول: «يقولُ الله لملك الموت: انطلق إلى وليِّي[١] فأتِني به فإني قد ضَرَبْتُه بالسرَّاء والضرَّاء فوجدتُه حيثُ أحبُّ، ائتني به فلأريحنَّه. قال: فينطلق إليه مَلَك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفانٌ وحَنُوطٌ من الجَنَّة، ومعهم ضَبَائر الريحان، أصلُ الريحانةِ واحدٌ وفي رأسها عشرون لوناً، لكلِّ لونٍ منها ريحٌ سِوَى ريحِ صاحِبه، ومعهُم الحريرُ الأبيضُ فيه المسكُ».

وذَكَر تمام الحديث بطوله كما تقدم[٢]، وقد وَرَدت أحاديثُ تتعلَّق بهذه الآية، قال الإمامُ أحمد:

حدثنا يونس بن محمد، حدثنا هارون، عن بُدَيل بن مَيْسَرة، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة أنها سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقرأ: ﴿ فَرُوحٌ وريحان ﴾ برفع الراء[٣].

وكذا رواه أبو داود، والترمذيُّ، والنسائي، من حديث هارونَ ـ وهو ابنُ موسى الأعورُ ـ به، وقال الترمذيُّ: «لا نَعرفُه إلاّ من حَدِيثِه»[٣].

وهذه القراءة هي قراءة يعقوبَ وحدَه، وخالَفهُ الباقون فَقَرءُوا. ﴿ فَرَوحٌ ﴾، بفتح الراء[٤].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَنٌ، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا أبو الأسود محمدُ بن عبد الرحمن بن نوفَلٍ: أنه سَمِع دُرَّة بنتَ مُعاذٍ تُحدِّث، عن أمِّ هانىء: أنها سألت رسولَ الله ـ ﷺ ـ أنتزاورُ إذا مِتنا، ويَرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تكون النَّسَمُ طيراً يَعلُقُ بالشجرَ، حتى إذا كان يومُ القيامةِ دَخَلت كلُّ نفسٍ في جَسَدِها»[٥].

هذا الحديثُ فيه بِشارة لكلِّ مؤمن، ومعنَى «يَعلُق» يأكلُ، ويشهد له بالصِّحة أيضاً ما رواهُ الإمامُ أحمدُ عن الإمام محمد بن إدريسَ الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الزُهريِّ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّما نَسَمةُ المؤمن طائرٌ يَعلُقُ في شَجَرِ الجَنَّة، حتى يَرْجِعَه الله إلى جَسَدِه يوم يبعثُه»[٦]. وهذا إسناد عظيمٌ، ومتنٌ قويمٌ.

---

(١) في نسخة: (إلى فلان).

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، وخرجناه هنالك.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الحروف ٣٥/٤، وعارضة الأحوذي أبواب القراءات ٥٨/١١، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمِزِّي ٤٤٢/٨.

(٤) المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر الأصبهاني ٣٦١، وقال: (كما رُوِي عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم).

(٥) مسند الإمام أحمد ٤٢٤/٦ ـ ٤٢٥. والنَّسَم: واحدها نَسَمة، وهي الروح.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤٥٥/٣.

وفي الصَّحِيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنَّ أرواحَ الشُهداءِ في حَواصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ في الجَنَّةِ حيثُ شاءَت، ثم تَأوِي إلى قَنادِيلَ مُعلَّقةٍ بالعَرْش»[١]... الحديث.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، حدثنا هَمَّام، حدثنا عَطاءِ بن السائب قال: كان أولُ يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: رأيتُ شيخاً أبيضَ الرأس واللِّحيةِ على حمار، وهو يتبعُ جنازةً، فسمعته يقول: حَدَّثني فلان بنُ فلان، سَمِع رسول الله - ﷺ - يقول: «مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومَن كَرِه لقاءَ الله كَرِه الله لقاءَه». قال: فأكبَّ القوم يبكون، فقال: ما يُبكيكم؟ فقالوا: إنا نكرهُ الموتَ. قال: ليس ذاك، ولكنهُ إذا حُضِر ﴿فَأمَّا إن كان من المقرَّبين * فَرَوحٌ وريحانٌ وجَنَّةُ نَعيم﴾، فإذا بُشِّر بذلك أحبَّ لقاءَ اللَّهِ - عزَّ وجَلَّ - والله - عزَّ وجَلَّ - لِلِقائه أحبُّ. ﴿وأمَّا إن كان من المكذِّبين الضالِّين * فَنُزُلٌ من حَمِيم﴾، فإذا بُشِّر بذلك كَرِه لقاءَ الله، والله للقائه أكرَهُ»[٢].

هكذا رواه الإمام أحمد، وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - شاهد لمعناه[٢]

وقولُهُ: ﴿ وأمَّا إن كانَ مِن أصحابِ اليمين ﴾، أي: وأمَّا إن كان المُحتضَر من أصحاب اليَمين، ﴿ فسلامٌ لَكَ من أصحابِ اليَمين ﴾ أي: تُبَشِّرهم الملائكةُ بذلك، تقولُ لأحدِهم: سلامٌ لَكَ، أي: لا بأسَ عليكَ، أنتَ إلى سلامةٍ، أنتَ من أصحابِ اليَمِين.

وقال قتادةُ: وابنُ زيدٍ: سَلِم من عَذابِ الله، وسَلَّمت عليه ملائكة الله. كما قال عِكْرِمَة: تُسَلِّم عليه الملائكة، وتُخبِرُه أنه مِن أصحاب اليمين.

وهذا معنى حَسَنٌ، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقامُوا تَتَنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافُوا ولا تحزَنُوا وأبشِرُوا بالجنَّةِ التي كنتُم تُوعَدُون * نحنُ أولياؤُكم في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ ولَكُم فيها ما تَشتهِي أنفسُكم ولكُم فيها ما تَدَّعُون * نُزُلاً من غَفُورٍ رَحِيم﴾.

وقال البخاريُّ: ﴿ فَسَلامٌ لَكَ ﴾، أي: مُسلَّم لك، أنَّكَ من أصحاب اليمين. وأُلغِيَتْ (أنَّ) وهو معناها، كما تقول: أنتَ مُصَدَّقٌ مسافرٌ عن قليل. إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل. وقد يكونُ كالدُّعاءِ له، كقولك: سَقياً لك من الرجال، [و] إن رفعتَ (السلامَ) فهو من الدُّعاءِ[٣].

وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية، ومال إليه، والله أعلم[٤].

وقولُهُ: ﴿وأمَّا إن كان من المُكذِّبين الضالِّين * فَنُزُلٌ من حَمِيم * وتَصْلِيَةُ جَحِيم﴾، أي: وأما إن كان المحتضَر من المكذبين بالحقِّ، الضالِّين، عن الهُدَى، ﴿ فَنُزُلٌ ﴾، أي: فَضِيافَةٌ ﴿ من حَمِيم ﴾، وهو المذاب الذي يُصهَرُ به ما في بُطُونهم والجلود، ﴿ وتَصْلِيةُ جَحِيم ﴾، أي: وَتقريرٌ له في النارِ التي تغمُره من جميع جهاته.

ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ هذا لهو حَقُّ اليقينِ ﴾، أي: إنَّ هذا الخبرَ لهو الحقُّ اليقينُ الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا مَحِيدَ لأحدٍ عنه.

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٥٤ من سورة البقرة، ١٦٩ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٥٩/٤ - ٢٦٠، وأخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الرقاق، فتح الباري ٣٥٧/١١، ومسلم في كتاب الذكر ٢٠٦٥/٤.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الواقعة ٦٢٥/٨. وما بين القوسين عن معاني القرآن للفرّاء.

(٤) تفسير الطبري ٢١٣/٢٧. وقد نقله الطبري عن الفرّاء في معاني القرآن ١٣١/٣.

﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾، قال أحمد:

حَدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا مُوسَى بن أيوب الغافقي، حَدَّثني عَمّي إياس بن عامر، عن عُقبَة بن عامر الجُهَني قال: لما نَزَلَتْ على رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ فَسَبِّح باسم ربك العظيم ﴾، قال: «اجعلُوها في رُكُوعكم»، ولما نزلت: ﴿ سَبِّح اسم ربِّك الأعلى ﴾، قال رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ: «اجعلُوها في سُجُودِكم»[٢].

وكذا رواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، عن موسى بن أيوب، به[١].

وقال رَوْح بن عُبادة: حدثنا حَجَّاجُ الصوَّافُ، عن أبي الزُبَير، عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن قال: سبحانَ الله العظيم وَبِحَمدِه غُرِسَت له نخلةٌ في الجَنَّة».

هكذا رواه التِّرمِذِيُّ من حديث رَوح، ورواه هو والنَّسائي أيضاً من حديث حَمَّاد بن سَلِمة، من حديث أبي الزُّبير عن جابر، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ به وقال الترمذي: «حَسَنٌ غريب، لا نَعرِفه إلا من حديث أبي الزُّبير»[٢].

وقال البُخاريُّ في آخر كِتَابه: حدثنا أحمد بن إشكاب، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كلمتان خَفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمدِه، سُبحَانَ الله العَظيم»[٣].

ورواه بقيةُ الجماعةِ إلا أبا داودَ، من حديث محمد بن فُضَيل، بإسنادِه، مثله[٣].

آخرُ تفسيرِ سُورَةِ الواقعة، ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٥، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٣٠، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ١/٢٨٧.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/١٥، وأخرجه النسائي في اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٢/٢٩٢.

(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنبياء، وخرجناه عن الصحيحين هنالك. وقد أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات، عارضة الأحوذي ١٣/١٦، والنسائي في اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٠/٤٤٢-٤٤٣، وابن ماجه في كتاب الأدب من سننه ٢/١٢٥١.

فهرس موضوعات الجزء السابع

- تفسير سورة يس [من الآية ١٣] ٢٩٣٩
- تفسير سورة الصّافّات ٢٩٦٥
- تفسير سورة ص ٣٠٠١
- تفسير سورة الزمر ٣٠٢٧
- تفسير سورة غافر ٣٠٦٢
- تفسير سورة فصّلت ٣٠٩١
- تفسير سورة الشورى ٣١١٤
- تفسير سورة الزّخرف ٣١٣٩
- تفسير سورة الدّخان ٣١٦٠
- تفسير سورة الجاثية ٣١٧٦
- تفسير سورة الأحقاف ٣١٨٤
- تفسير سورة محمّد ٣٢١٢
- تفسير سورة الفتح ٣٢٢٧
- تفسير سورة الحجرات ٣٢٦٠
- تفسير سورة ق ٣٢٨٣
- تفسير سورة الذّاريات ٣٣٠١
- تفسير سورة الطُّور ٣٣١٢
- تفسير سورة النجم ٣٣٢٤
- تفسير سورة القمر ٣٣٤٨
- تفسير سورة الرحمٰن ٣٣٦٣
- تفسير سورة الواقعة ٣٣٨٣

□□□